الشيخ الإمام داعية الإسلام

محمد متولي الشعراوي

قصص الأنبياء

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

الجزء الرابع

[illegible]

عليهم السلام

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الشيخ الإمام داعية الإسلام

محمد متولي الشعراوي

قصص الأنبياء

جمع المادة العلمية

منشاوي غانم جابر

كتب الحواشي وراجعها

مركز التراث لخدمة الكتاب والسنة

الجزء الرابع

يحتوي على قصص الأنبياء:

تتمة موسى - يوشع - إلياس - حزقيل - اليسع - شمويل - داود

سليمان - دانيال - العزير - زكريا

عليهم السلام

مكتبة التراث الإسلامي

٨ شارع الجمهورية عابدين ت ٣٩١١٣٩٧



مكتبة التراث الإسلامي

٨ شارع الجمهورية عابدين القاهرة ت : ٣٩١١٣٩٧ فاكس : ٣٩١٣٤٠٦

* لماذا كان الميقات أربعين ليلة؟ *



في لقطة أخرى من قصة موسى عليه السلام يقول الله جل جلاله: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [الأعراف: ١٤٢] انتقلت بنا القصة إلى ما حدث بين الحق سبحانه وتعالى وبين موسى. و«الأعداد» في القرآن لها أسلوبان: أسلوب إجمالي، وأسلوب تفصيلي، فالله سبحانه وتعالى يقول في سورة البقرة: ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [البقرة: ٥١] أتى بها إجمالاً، أما في الآية التي نحن بصددها فلم يأتِ بها إجمالاً ، ولكنه أتى بها ثلاثين ثم أتمّ الثلاثين بعشر، إذن فالميقات أربعون ليلة، أما المهمة فسنعرفها فيما بعد، وبذلك يكون العدد في القرآن إذا جاء مجملاً، مرة ومفصلاً مرة واتفق الإجمال مع التفصيل فليس هناك خلاف، ولكنْ إذا اختلف الإجمال عن التفصيل فأيهما يحمل على الآخر؟

الإجمال يأتي لنا بشيء والتفصيل يأتي لنا بشيء أكثر أو أقل. نقول: إنه في هذه الحالة يحمل التفصيل على الإجمال؛ لأن الشئ المفصّل يمكن أن تتداخل أحداثه، ولكن الشيء المجمل لا جدال فيه، وبذلك يكون المجمل هو الأصل (١).

---

(١) قال القرطبي في قوله تعالى : ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ فيه ثلاث مسائل :

الأولى: قوله تعالى : ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلاثِينَ لَيْلَةً﴾ ذكر أن مما كرّم به موسى عليه السلام هذا . فكان وعده المناجاة إكرامًا له. ﴿وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ﴾ قال ابن عباس ومجاهد ومسروق رضى الله عنهم : هى ذو القعدة وعشر من ذى الحجة . أمره أن يصوم الشهر وينفرد فيه بالعبادة ؛ فلما صامه أنكر خلوف فمه فاستاك. قيل: بعود =

= خَرّنُوب ؛ فقالت الملائكة : إنا كنا نستنشق من فيك رائحة المسك فأفسدته بالسواك . فزيد عليه عشر ليالٍ من ذى الحجة . وقيل : إن الله تعالى أوحى إليه لما استاك : «يا موسى لا أكلمك حتى يعود فوك إلى ما كان عليه قبل . أما علمت أن رائحة الصائم أحبّ إلى من ريح المسك» وأمره بصيام عشرة أيام ، وكان كلام الله تعالى لموسى غداة النحر، حين فدى إسماعيل من الذبح ، وأكمل لمحمد ﷺ الحج . وحذفت الهاء من عشر؛ لأن المعدود مؤنث . والفائدة فى قوله : ﴿فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ وقد علم أن ثلاثين وعشرة أربعون ؛ لئلا يتوهم أن المراد أتممنا الثلاثين بعشر منها ؛ فبين أن العشر سوى الثلاثين . فإن قيل : فقد قال فى البقرة أربعين وقال هنا ثلاثين ؛ فيكون ذلك من البداء . قيل ليس كذلك ؛ فقد قال : ﴿وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ﴾ والأربعون والثلاثون والعشرة قول واحد ليس بمختلف . وإنما قال القولين على تفصيل وتأليف ، قال أربعين فى قول مؤلف ، وقال ثلاثين ، يعنى شهرا متتابعا وعشرا . وكل ذلك أربعون ؛ كما قال الشاعر :

« عشر وأربع . . »

يعنى أربع عشرة ، ليلة البدروهذا جائز فى كلام العرب

الثانية : قال علماؤنا : دلّت هذه الآية على أن ضرب الأجل للمواعدة سُنَّة ماضية، ومعنى قديم أسسه الله تعالى فى القضايا ، وحكم به للأمم ، وعرفهم به مقادير التأنى فى الأعمال ، وأول أجل ضربه الله تعالى الأيام الستة التى خلق فيها جميع المخلوقات ، ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨]. وقد بيّنا معناه فيما تقدم من هذه السورة من قوله : ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الأعراف: ٥٤]. قال ابن العربى : فإذا ضرب الأجل لمعنى يحاول فيه تحصيل المؤجل، فجاء الأجل ولم يتيسر زيد فيه تبصرة ومعذرة . وقد بيّن الله تعالى ذلك لموسى عليه السلام فضرب له أجلا ثلاثين، ثم زاده عشرا تتمة أربعين . وأبطأ موسى عليه السلام فى هذه العشر على قومه ؛ فما عقلوا جواز التأنى والتأخر ، حتى قالوا : إن موسى ضلّ أو نسى ، ونكثوا عهده وبدّلوا بعده، وعبدوا إلها غير الله . وقال ابن عباس : إن موسى قال =

= لقومه : إن ربى وعدنى ثلاثين ليلة أن ألقاه ، وأخلف فيكم هارون ، فلما فصل[1] موسى إلى ربه زاده الله عشرا ؛ فكانت فتنتهم فى العشر الذى زاده الله بما فعلوه من عبادة العجل ؛ على ما يأتى بيانه . ثم الزيادة التى تكون على الأجل تكون مقدّرة ؛ كما أن الأجل مقدّر . ولا يكون إلا باجتهاد من الحاكم بعد النّظر إلى المعانى المتعلّقة بالأمر : من وقت وحال وعمل ، فتكون مثل ثلث المدة السالفة ؛ كما أجّل الله لموسى . فإن رأى الحاكم أن يجمع له الأصل فى الأجل والزيادة فى مدة واحدة جاز، ولكن لابد من التربص بعدها لما يطرأ من العذر على البشر ؛ قاله ابن العربى. روى البخارى عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « أعذر الله إلى امرىء أخّر أجله حتى بلّغه ستين سنة » [2] .

قلت : وهذا أيضًا أصل لأعذار الحكام إلى المحكوم عليه مرّة بعد أخرى . وكان هذا لُطفًا بالخلق ولينفذ القيّام عليهم بالحق . يقال . أعذر فى الأمر أى بالغ فيه ؛ أى أعذر غاية الإعذار الذى لا إعذار بعده ، وأكبر الإعذار إلى بنى آدم بعثة الرسل إليهم؛ لتتم حجته عليهم ؛ ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [الإسراء: ١٥] . وقال : ﴿ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ ﴾ [فاطر: ٣٧] قيل : هم الرسل . ابن عباس : هو الشيب، فإنه يأتى فى سن الاكتمال ، فهو علامة لمفارقة سن الصِّبا . وجعل الستين غاية الإعذار ؛ لأن الستين قريب من معترك العباد ، وهو سن الإنابة والخشوع والاستسلام له ، وترّقب المنية ولقاء الله ؛ ففيه إعذار بعد إعذار . الأول بالنبى ﷺ ، والثانى بالشّيب ؛ وذلك عند كمال الأربعين ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ﴾ [الأحقاف: ١٥]. فذكر عز وجل أن من بلغ أربعين فقد آن له أن يعلم مقدار نعم الله عليه وعلى والديه ويشكرهما . قال مالك : أدركت أهل العلم ببلدنا ، وهم يطلبون الدنيا ويخالطون الناس حتى يأتى لأحدهم أربعون سنة ؛ فإذا أتت عليهم اعتزلوا الناس .

الثالثة : ودلت الآية أيضا على أن التاريخ يكون بالليالى دون الأيام ؛ لقوله : ﴿ ثَلاثِينَ لَيْلَةً ﴾ لأن الليالى أوائل الشهور . وبها كانت الصحابة رضى الله عنهم =

(١) فصل : خرج .

(٢) أخرجه البخارى [٦٤١٩] ، والمعنى : أى لم يبق فيه موضعا للإعذار حيث أمهله طول هذه المدة ولم يعتذر.

فإذا أردنا أن نضرب مثلاً لذلك، فهناك آيات خلق السماوات والأرض كلها تخبرنا أن أيام الخلق ستة أيام إلا فى سورة فصلت، فالحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ٩] فهنا حدّد الحق يومين، وتكمل الآيات: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِى أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ [فصلت: ١٠] ظاهر القول ستة. وأيام الخلق قد انتهت، ولكن الحق يقول: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ١١، ١٢] وهنا نقف بين الإجمال والتفصيل. التفصيل - فى ظاهره - ثمانية أيام والإجمال ستة. نقول لك إن التفصيل ستة ، والإجمال ستة؛ لأن المفصّل يدخل بعضه فى بعضه، فأنت إذا قلت سافرت من القاهرة إلى طنطا فى ساعتين، وإلى الإسكندرية فى ثلاث ساعات، هل تستغرق المسافة خمس ساعات؟ لا إنها تستغرق ثلاث ساعات فقط، وكأن الساعتين اللتين تستغرقهما الرحلة من القاهرة إلى طنطا داخلة فى الساعات الثلاث التى تستغرقها الرحلة من القاهرة إلى الإسكندرية.

نعود بعد ذلك إلى وعد الله لموسى بلقائه، كان الله قد وعد موسى بعد أن يتم إنجاء بنى إسرائيل أنه سينزّل عليه كتاباً ، يجمع فيه منهج الله

= تخبر عن الأيام، حتى رُوى عنها أنها كانت تقول: صمنا خمسا مع رسول الله ﷺ. والعجم تخالف فى ذلك ، فتحسب بالأيام لأن معوّلها على الشمس . ابن العربى : وحساب الشمس للمنافع ، وحساب القمر للمناسك ؛ ولهذا قال : ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلاثِينَ لَيْلَةً﴾ . فيقال : أرّخت تاريخا ، وورّخت توريخا ؛ لغتان .
[تفسير القرطبى : ٧/ ٢٧٤-٢٧٧]

وما يريد من خلقه أن يسيروا عليه، ولكن عندما ترك موسى بنى إسرائيل وذهب لهذا اللقاء عبدوا العجل ثلاثين يوماً ، ولم يشأ الله سبحانه وتعالى أن يعود موسى إليهم وهم فى قمة عبادتهم للعجل؛ لأنه ساعتها سيصبح فى حالة هياج رهيب، وتعطينا الصورة التى كان يمكن أن تحدث فيما فعله موسى بأخيه رغم أنه عاد بعد انتهاء بنى إسرائيل من عبادة العجل، يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ ﴾ [الأعراف: ١٥٠] .

وقلنا إن الحق سبحانه وتعالى فصّل فى هذه الآية ما أجمله فى سورة البقرة فى قوله: ﴿ وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾ [البقرة: ٥١] وقلنا : إن كل عدد ذكر فى القرآن إما أن يكون مجملاً وإما أن يكون مفصلاً، فإذا التقى المجمل والمفصل فلا خلاف إذن ، وإذا لم يلتقيا فيجب أن يُحمل المفصّل على المجمل، وقلنا إن السر فى أن الله سبحانه وتعالى قد قال فى هذه الآية: ﴿ وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ ﴾ أن موسى عليه السلام كان قد أعدّ نفسه للقاء ربه فى الميقات المحدد، وإعداد النفس للقاء ربها لابد أن يكون بطهر وتطهر وصيام، فصام موسى ثلاثين يوماً ، ثم بعد ذلك أنكر رائحة فمه - لأن فم الصائم يكون له رائحة غير مستحبة بالنسبة للناس - فأخذ موسى سواكًا وتسوّك به ليضيع رائحة فمه؛ فقال له الحق سبحانه وتعالى أما علمت يا موسى أن خلوف فم الصائم أطيب عندى من ريح المسك، ما دمت قد أزلت الخلوف، وأنا أريدك أن تقبل على بريح المسك، فزد صيام عشرة أيام؛ حتى تأتينى بريح الخلوف فى فمك.

وقال بعض العلماء: إن سبب امتداد الثلاثين يوماً إلى أربعين هو أن قوم موسى عبدوا العجل ثلاثين يوماً، فكان لابد أن تكون هناك فترة ؛ حتى لا يعود موسى إلى قومه وهم يعبدون العجل ، فيحدث ما لا تحمد

عقباه، وعندما غادر موسى مكان قومه استخلف أخاه مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي﴾ وموسى وهارون نبيان، وموسى هو الذى طلب من الله أن يشدّ أزره بهارون، ولكن قوله: ﴿اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي﴾ معناه أن ميقات الله ولقاءه كان مهمة موسى وحده، وكان لابد أن يوجد خليفة يبقى على القوم فكان هارون، وبعض الناس قد يتساءل كيف يكون الشريك فى رسالة خليفة لشريكه ؟ نقول: إن الاثنين كانا رسولى رب العالمين، ولكن لكل منهما حظ من الرسالة، وحظ هارون أن يبقى، وحظ موسى أن يذهب للقاء الله، وقوله تعالى: ﴿وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٢] فيها أمر ونهى فـ ﴿وَأَصْلِحْ﴾ أمر، و ﴿وَلَا تَتَّبِعْ﴾ نهى، وتكاليف الحق سبحانه وتعالى لعباده لا تخرج عن ذلك «افعل ولا تفعل»، ولا يقول الحق لعباده افعلوا إلا إذا كانوا صالحين للفعل وعدم الفعل، ولا يقول لهم لا تفعلوا إلا إذا كانوا صالحين أيضاً للفعل وعدم الفعل، وهكذا كان التكليف الأول لآدم وحواء فى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ [الأعراف: ١٩].

كلمة أصلح تستلزم على الأقل أن يبقى الصالح على صلاحه فلا يفسده أحد، ولكن يزيده صلاحاً وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ ولم يقل « ولا تفسد » وهذا يلفتنا إلى أن هارون نبى لا يأتى منه إفساد، ولكن الله يعلم أنه ستقوم فتنة بعد رحيل موسى، وسيعبد قومه العجل؛ لذلك ألهم موسى لكى يقول لهارون : ﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ أى لا تطع القوم إذا أفسدوا فى الأرض[1] ؛ ولذلك عندما حدث الإفساد

(١) قال الشوكانى فى قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي﴾ أى كن خليفتى فيهم . قال موسى هذا لما أراد المضى إلى المناجاة . ﴿وَأَصْلِحْ﴾ أمر =

وأمسك موسى برأس أخيه ولحيته اعتذر هارون بقوله: «إن القوم كادوا يقتلوننى»، أى أنه فعل ما فى استطاعته لإبعاد القوم عن طريق الفساد ولكنه فشل.

الحق سبحانه وتعالى يكمل قصة موسى عليه السلام فيقول: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا﴾ [الأعراف: ١٤٣] والميقات هو: الوقت المحدد لعمل من الأعمال ، فهناك مواقيت الحج أى التى تتم فيها مناسك الحج، وهناك مواقيت الصوم أى التى يتم فيها الصوم، إذن فالميقات هو وقت محدد لأداء عمل معين(١)، والعمل يتطلب أمرين: ظرف مكان، وظرف زمان،

= بنى إسرائيل بحسن سياستهم والرفق بهم وتفقّد أحوالهم ﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ أى لا تسلك سبيل العاصين ولا تكن عونًا للظالمين . [فتح القدير : ٢/ ٢٥٣]

وقال القاسمى : قال الجشمى : تدل الآية على أنه استخلف هارون عند خروجه ، لما رأى أنهم أشد طاعة له ، وأكثر قبولا منه ، ومخاطبات موسى عليه السلام لهارون وجوابه له كقوله: ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ وقول هارون: ﴿لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي﴾ ﴿فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ﴾ ، كل ذلك كالدال على أن موسى كان يختص بنوع من الولاية ، وإن اشتركا فى النبوة والظاهر أنه استخلفه إلى أن يرجع ؛ لأنه المعقول من الاستخلاف عند الغيبة . وتدل على أنه يجوز أن ينهاه عن شىء يعلم أنه لا يفعله ، ويأمره بما يعلم أنه سيفعله ؛ عظة له ، واعتبارًا لغيره ، وتأكيدًا ومصلحة للجميع . انتهى . [تفسير القاسمى : ٧/ ٢٨٤٩، ٢٨٥٠]

وقال ابن كثير : استخلف موسى على بنى إسرائيل أخاه هارون ، ووصاه بالإصلاح وعدم الإفساد . هذا تنبيه وتذكير وإلا فهارون عليه السلام نبى شريف كريم على الله له وجاهة وجلالة ، صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر الأنبياء .

[تفسير ابن كثير : ٢/ ٢٣٤]

(١) الميقات : الوقت المضروب للفعل والموضع . يقال : هذا ميقات أهل الشام ، للموضع الذى يحرمون منه . وتقول وقَّت الشىء يُوقِّته ووَقَتَه يَقِتُه : إذا بيَّن حدَّه ، ثم اتسع فيه فأطلق على المكان، فقيل للموضع ميقات، وهو مِفْعال منه، والميقات:=

فلابد لأى عمل أن يكون له مكان يحدث فيه وزمان يحدث فيه، والمواقيت إما أن يتحكم فيها الزمان، أو يتحكم فيها المكان، أو يتحكم فيها الاثنان معا ، فإذا أخذنا المواقيت على أنها زمن الفعل يتحكم فيها الزمان ، فالصوم مثلاً له وقت محدد فالذى يتحكم فى الصوم الزمان، ولكنك فى أى مكان متى جاء شهر رمضان صمت، وكذلك كل أنواع الصوم، فصوم يوم عرفة لغير الموجودين بها يتحكم فيه الزمان أيضا، ولكن الحج يتحكم فيه الزمان والمكان، فلابد أن تكون واقفاً فى يوم عرفة فى المكان المحدد للوقوف عند جبل عرفات، ولا ينفع أن تقف فى يوم عرفة فى أى مكان آخر، إذن. . هنا يتحكم الزمان والمكان، ولكن فى المواقيت التى نُحْرِم عندها للحج يتحكم فيها المكان وليس الزمان، فلا تمر من مكان إلا وأنت محرم ، ولا يشترط فى ذلك وقت محدد، فأنت تستطيع أن تمر فى أى وقت مادمت محرماً. إذن فالمكان هو الذى يتحكم وليس الزمان، والميقات هو الزمن الذى يحدث فيه الفعل، وقد يتحكم فى الفعل الزمان والمكان، أو الاثنان معا.

جاء موسى عليه السلام فى الميقات المحدد له من ربه، إذن. . فهو جاء فى الزمن المحدد، ولكن استخدام الحق سبحانه وتعالى لـ (للام) هنا فى قوله: ﴿ لِمِيقَاتِنَا ﴾ تعنى «عند»[1]، ووجود اللام بمعنى عند موجود كثيراً فى القرآن الكريم وقوله تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ

= مصدر الوقت. والآخرة : ميقات الخلق ، ومواضع الإحرام : مواقيت الحاج ، والهلال ميقات الشهر . ونحو ذلك كذلك . [لسان العرب : ١٠٧/٢، ١٠٨]

(١) قال صديق خان فى قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا ﴾ اللام للاختصاص ، أى : كان مجيئه مختصًا بالميقات المذكور ، بمعنى أنه جاء فى الوقت الموعود .

[فتح البيان : ٨/٥]

اللَّيْلِ﴾ [الإسراء: ٧٨] و«الدلوك» معناه الظهر، و«الغسق» معناه وقت العشاء.

إذن فالزمن هنا قد شمل الظهر والعصر والمغرب والعشاء؛ لأنه مادام سيقيم الصلاة من الظهر إلى العشاء فقد دخلت كل هذه الأوقات ولكن الفجر لم يذكر، نجد أن الآية الكريمة تقول: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾(١) [الإسراء:٧٨] وهكذا شملت الآية الكريمة كل أوقات الصلاة، ولكن لماذا بدأ الحق سبحانه وتعالى بالظهر ولم يبدأ بالفجر مع أن الفجر هو بداية اليوم؟ نقول إنه عندما فرضت الصلاة ، فرضت فى ليلة الإسراء والمعراج ، فرسول الله ﷺ أسرى به ليلاً وفرضت الصلاة فى هذه الليلة بالأمر المباشر من الله لرسوله ﷺ (٢) . وعندما عاد

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « فضل صلاة الجميع على صلاة الواحد خمس وعشرون درجة ، وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار فى صلاة الصبح » يقول أبو هريرة : اقرأوا إن شئتم : ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨] . أخرجه البخارى [٤٧١٧]

(٢) عن أنس بن مالك قال : ليلة أسرى برسول الله ﷺ من مسجد الكعبة « إنه جاءه ثلاثة نفرٍ قبل أن يُوحى إليه وهو نائم فى المسجد الحرام ، فقال : أولهم أيهم هو ، فقال : أوسطهم هو خيرهم، فقال أحدهم : خذوا خيرهم فكانت تلك الليلة ، فلم يرهم حتى أتوه ليلة أخرى فيما يرى قلبه ، وتنام عينه ولا ينام قلبه ، وكذلك الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم ، فلم يكلّموه حتى احتملوه فوضعوه عند بئر زمزم ، فتولاه منهم جبريل ، فشق جبريل ما بين نحره إلى لبته حتى فرغ من صدره وجوفه فغسله من ماء زمزم بيده ، حتى أنقى جوفه ، ثم أتى بطست من ذهب فيه تور من ذهب محشوا إيمانًا وحكمة ، فحشا به صدره ولغاديده - يعنى عروق حلقه - ثم أطبقه ثم عرج به إلى السماء الدنيا ، فضرب بابا من أبوابها فناداه أهل السماء من هذا ؟ فقال : جبريل ، قالوا : ومن معك ؟ قال : معى محمد قال : وقد بُعث؟ قال : نعم ، قالوا : فمرحبًا به وأهلا فيستبشر به أهل السماء لا يعلم أهل السماء بما يريد الله به فى الأرض حتى يعلمهم ، فوجد فى السماء الدنيا آدم فقال له =

رسول الله ﷺ إلى مكة صباحاً كانت أول صلاة مفروضة يأتى وقتها هى صلاة الظهر، فكأن قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ﴾ [الإسراء: ٧٨] حدد وقت أول صلاة مفروضة أقيمت فى الإسلام، وهى صلاة الظهر، وقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ﴾ [الإسراء: ٧٨] معناها إلى وقت العشاء ، يكون الله قد حدد بداية ونهاية مواقيت الصلاة المفروضة من الظهر إلى العشاء ، ثم بعد ذلك يأتى الفجر فى قوله تعالى: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨] ثم يخص الله

= جبريل: هذا أبوك فسلّم عليه ، فسلّم عليه ورد عليه آدم وقال : مرحبًا وأهلا يا بنى نعم الابن أنت ، فإذا هو فى السماء الدنيا بنهرين يطّردان فقال : ما هذان النهران يا جبريل ؟ قال : هذان النيل والفرات عنصرهما ، ثم مضى به فى السماء فإذا هو بنهر آخر عليه قصر من لؤلؤ وزبرجد ، فضرب يده فإذا هو مسك أذفر قال : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذا الكوثر الذى خبأ لك ربك ، ثم عرج إلى السماء الثانية قالت الملائكة له مثل ما قالت له الأولى: من هذا ؟ قال : جبريل ، قالوا : ومن معك ؟ قال : محمد ﷺ ، قالوا : وقد بعث إليه ؟ قال : نعم، قالوا : مرحبًا به وأهلا، ثم عرج به إلى السماء الثالثة وقالوا له مثل ما قالت الأولى والثانية ، ثم عرج به إلى الرابعة فقالوا له مثل ذلك ، ثم عرج به إلى السماء الخامسة فقالوا له مثل ذلك ، ثم عرج به إلى السادسة فقالوا له مثل ذلك ، ثم عرج به إلى السماء السابعة فقالوا له مثل ذلك ، كل سماء فيها أنبياء قد سماهم فوعيت منهم إدريس فى الثانية ، وهارون فى الرابعة وآخر فى الخامسة لم أحفظ اسمه وإبراهيم فى السادسة وموسى فى السابعة بفضل كلامه لله فقال موسى : رب لم أظن أن ترفع علىّ أحدًا ، ثم علا به فوق ذلك بما لا يعلمه إلا الله ، حتى جاء سدرة المنتهى ، ودنا الجبار رب العزة فتدلى حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى ، فأوحى الله فيما أوحى خمسين صلاة على أمتك كل يوم وليلة ، ثم هبط حتى بلغ موسى فاحتبسه موسى ، فقال : يا محمد ماذا عهد إليك ربك؟ قال : عهد إلىّ خمسين صلاة كل يوم وليلة قال : إن أمتك لا تستطيع ذلك ، فارجع فليخفف عنك ربك وعنهم فالتفت النبى ﷺ إلى جبريل كأنه يستشيره فى ذلك ، فأشار إليه جبريل أن نعم إن شئت، فعلا به إلى =

رسوله ﷺ : ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾(1) [الإسراء: ٧٩] فالأمر هنا مباشر للرسول ﷺ ، ومفتوح أمام كل من يريد أن يفعل ذلك من أمته .

نعود إلى قصة موسى عليه السلام ، قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ ﴾ [الأعراف: ١٤٣] أى عندما جاء موسى فى

= الجبار فقال وهو مكانه : يارب خفف عنا ، فإن أمتى لا تستطيع هذا ، فوضع عنه عشر صلوات ثم رجع إلى موسى فاحتبسه ، فلم يزل يردده موسى إلى ربه حتى صارت إلى خمس صلوات، ثم احتبسه موسى عند الخمس فقال : يا محمد والله لقد راودت بنى إسرائيل قومى على أدنى من هذا ، فضعفوا فتركوه ، فأمتك أضعف أجسادًا وقلوبًا وأبدانًا وأبصارًا وأسماعًا ، فارجع فليخفف عنك ربك ، كل ذلك يلتفت النبى ﷺ إلى جبريل ليشير عليه ولا يكره ذلك جبريل ، فرفعه عند الخامسة فقال: يارب إن أمتى ضعفاء أجسادهم وقلوبهم وأسماعهم وأبدانهم فخفف عنا ؟ فقال الجبار : يا محمد ، قال : لبيك وسعديك قال : إنه لا يبدّل القول لدىّ كما فرضت عليك فى أم الكتاب ، قال : فكل حسنة بعشرِ أمثالها فهى خمسون فى أم الكتاب ، وهى خمس عليك ، فرجع إلى موسى فقال : كيف فعلت ؟ فقال : خفف عنا أعطانا بكل حسنة عشر أمثالها قال موسى : قد والله راودت بنى إسرائيل على أدنى من ذلك ، فتركوه ، ارجع إلى ربك فليخفف عنك أيضًا ، قال رسول الله ﷺ : يا موسى قد والله استحييت من ربى مما اختلفت إليه ، قال : فاهبط بسم الله ، قال: واستيقظ وهو فى مسجد الحرام » . أخرجه البخارى [٧٥١٧]

(1) عن ابن عمر رضى الله عنهما يقول : إن الناس يصيرون يوم القيامة جثًا ، كل أمة تتبع نبيها يقولون : يا فلان اشفع حتى تنتهى الشفاعة إلى النبى ﷺ فذلك يوم يبعثه الله المقام المحمود . أخرجه البخارى [٤٧١٨]

وعن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « من قال حين يسمع النداء اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمدًا الوسيلة والفضيلة وابعثه مقامًا محمودًا الذى وعدته ، حلّت له شفاعتى يوم القيامة » .

أخرجه البخارى [٦١٤، ٤٧١٩]

الوقت المحدد للقاء الله، كلّمه الله سبحانه وتعالى ، وهذه هى التى حيّرت العلماء ، فقوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾[1] تدل على أن كلامًا حدث من الله لموسى ، ولكن الكلام يحدث بين البشر والبشر ، وكلام الله للبشر محدد فى القرآن الكريم فى قوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ [الشورى: ٥١] . إذن فهناك نفى صريح بأن لا يكلّم الله بشراً إلا بثلاث طرق: إما بالوحى، وإما من وراء حجاب، وإما بواسطة رسول. والوحى: هو الشئ الذى يأتى إلى العقل والقلب فيفهمه الإنسان، ويطمئن له وينفذه على الفور، وفى ذلك قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ [القصص: ٧] .

وقوله : ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي﴾ [المائدة ١١١]
وقد يكون الوحى لغير البشر كما فى قوله تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى

---

(١) قال صديق خان فى قوله تعالى : ﴿وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ اى أسمعه كلامه من غير واسطة ، ولا كيفية ، وأزال الحجاب بين موسى وبين كلامه فسمعه ، وليس المراد أنه أنشأ كلاما سمعه ؛ لأن كلام الله قديم ولم نر فى التفاسير هنا بيان ما فهمه موسى من ذلك الكلام .

أخرج البزار وابن أبى حاتم وأبو نعيم فى الحلية والبيهقى فى الأسماء والصفات من حديث جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « لما كلم الله موسى يوم الطور ، كلّمه بغير الكلام الذى كلمه به يوم ناداه ، فقال له موسى : يا رب أهذا كلامك الذى كلمتنى به ؟ قال : يا موسى إنما كلمتك بقوة عشرة آلاف لسان ، ولى قوة الألسن كلها ، وأقوى من ذلك ، فلما رجع موسى إلى بنى إسرائيل ، قالوا : يا موسى صف لنا كلام الرحمن ، فقال : لا تستطيعونه ، ألم تروا إلى أصوات الصواعق التى تقبل فى أحلى حلاوة سمعتموه ؛ فذاك قريب منه وليس به » ، وفيه دليل على كلام الله مع موسى . [فتح البيان : ٥/٨]

الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [الأنفال: ١٢] .

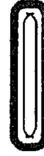
وقد يكون الوحى للحشرات ، كقوله تعالى : ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ [النحل: ٦٨] وقد يكون للجماد فى قوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا وَقَالَ الإِنسَانُ مَا لَهَا يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ [الزلزلة: ١: ٥] وهذه أمثلة من الوحى من الله سبحانه وتعالى لغير الرسل، أما الوحى للرسل فهو معروف؛ لأن كل مناهج الله التى قام الرسل بإبلاغها للناس ، هى وحى منه سبحانه وتعالى.

نأتى بعد ذلك إلى الطريقة الثانية وهى: من وراء حجاب ؛ أى أن الموحىَ إليه يسمع كلاماً ولا يرى متكلما ، وقوله تعالى: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً﴾ اى ينّزل رسولاً من السماء؛ كجبريل عليه السلام ؛ ليبلغ النبى بمنهج الله، ووحى القرآن لم ينزل إلا بواسطة رسول هو جبريل، ولم يكن القرآن إلهاماً ، ولا كان كلاما ، ولا نزل من وراء حجاب[1] .

---

(١) قال الشوكانى فى قوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلا وَحْيًا﴾ أى ما صح لفرد من أفراد البشر أن يكلمه الله بوجه من الوجوه إلا بأن يوحى إليه، فيلهمه ويقذف ذلك فى قلبه . قال مجاهد : نفث ينفث فى قلبه، فيكون إلهاما منه كما أوحى إلى أم موسى وإلى إبراهيم فى ذبح ولده ، ﴿أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ كما كلم موسى، يريد : أن كلامه يسمع من حيث لا يرى ، وهو تمثيل بحال الملك المحتجب الذى يكلم خواصه من وراء حجاب ، ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ أى يرسل ملكًا ، فيوحى ذلك الملك إلى الرسول من البشر بأمر الله وتيسيره ما يشاء أن يوحى إليه . قال الزجاج : المعنى أن كلام الله للبشر : إما أن يكون بإلهام يلهمهم ، أو يكلمهم من وراء حجاب كما كلم موسى، أو برسالة ملك إليهم. وتقدير الكلام : ما كان لبشر أن يكلمه الله إلا أن يوحى وحيا ، أو يكلمه من وراء حجاب أو يرسل رسولا . [فتح القدير : ٤/٥٢٢، ٥٢٣]

* وعجلت إليك ربى لترضى *



﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ [طه: ٨٣، ٨٤] موسى كان على موعد مع ربه؛ ليتلقى منه المنهج، وكان من المفترض أن يحضر معه النقباء أو رؤساء الوفود، ولكنه ذهب وحده فقال له ربه: ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ﴾ أى لماذا لم تأت مع قومك؟ فقال موسى : ﴿هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي﴾ (١) أى أنهم سيأتون خلفى،

---

(١) قال القرطبى فى قوله تعالى : ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ﴾ اى ما حملك على أن تسبقهم. قيل : عنى بالقوم جميع بنى إسرائيل ؛ فعلى هذا قيل : استخلف هارون على بنى إسرائيل ، وخرج معه بسبعين رجلاً للميقات . فقوله : ﴿هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي﴾ ليس يريد أنهم يسيرون خلفه متوجهين إليه ، بل أراد أنهم بالقرب منى ينتظرون عودى إليهم . وقيل : لا بل كان أمر هارون بأن يتبع فى بنى إسرائيل أثره ويلتحقوا به . وقال قوم : أراد بالقوم السبعين الذين اختارهم ، وكان موسى لما قرب من الطور ؛ سبقهم شوقا إلى سماع كلام الله عز وجل ، وقيل : لما وفد إلى طور سينا بالوعد اشتاق إلى ربه ، وطالت عليه المسافة من شدة الشوق إلى الله تعالى، فضاق به الأمر حتى شقّ قميصه ، ثم لم يصبر حتى خلّفهم ومضى وحده ؛ فلما وقف فى مقامه قال الله تبارك وتعالى : ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ﴾ فبقى ﷺ متحيرًا عن الجواب لهذه الكلمة ؛ لما استقبله من صدق الشوق ، فأعرض عن الجواب ، وكنّى عنه بقوله : ﴿هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي﴾ ؛ وإنما ساله عن السبب الذى أعجله بقوله : « ما » فأخبر عن مجيئهم بالأثر . ثم قال : ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ فكنّى عن ذكر الشوق وصدقه إلى ابتغاء الرضا. ذكر عبد الرزاق عن =

ولكنى عجلت إليك يارب لترضى. ونحن نعلم أن الإنسان حين يأمر غيره بأمر ، ويكون هذا الأمر فيه مشقة على النفس ، فساعة يأمر غيره بذلك الأمر يقول لهم : أنا لست بنجوة عن هذا الأمر ، ولكننى أول المنفذين لما أمرتم به ، أكون مأموناً على أن آمركم أن تنفذوا كما أنفذ.

= معمَرَ عن قتادة فى قوله : ﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴾ قال : شوقًا . وكانت عائشة رضى الله عنها إذا آوت إلى فراشها ، تقول : هاتوا المجيد ، فتؤتى بالمصحف فتأخذه فى صدرها ؛ وتنام معه تتسلى بذلك ، رواه سفيان عن مِسْعَر عن عائشة رضى الله عنها . وكان عليه الصلاة والسلام إذا أمطرت السماء ؛ خلع ثيابه وتجرد حتى يصيبه المطر ، ويقول : « إنه حديث عهد بربى»(١) . فهذا من الرسول ﷺ وممن بعده من قبيل الشوق ؛ ولذلك قال الله تبارك اسمه فيما يروى عنه : « طال شوق الأبرار إلى لقائى وأنا إلى لقائهم أشوق » (٢) وقال ابن عباس: كان الله عالما، ولكن قال : ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ﴾ ؛ رحمة لموسى وإكراما له بهذا القول ، وتسكينًا لقلبه ، ورقة عليه ، فقال مجيبًا لربه : ﴿هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِى﴾. قال أبوحاتم قال عيسى : بنو تميم يقولون : « هم أولَى » مقصورة مرسلة، وأهل الحجاز يقولون : «أولاء» ممدودة . وحكى الفراء «هم أولاى على أثرى» وزعم أبو إسحاق الزجاج : أن هذا لا وجه له . قال النحاس : وهو كما قال ؛ لأن هذا ليس مما يضاف فيكون مثل هُدَاىَ . ولا يخلو من إحدى جهتين : إما أن يكون اسمًا مبهمًا فإضافته محال، وإما أن يكون بمعنى الذين فلا يضاف أيضا ؛ لأن ما بعده من تمامه وهو معرفة . وقرأ ابن أبى إسحاق ونصر ورويس عن يعقوب : « علَى إثرى » بكسر الهمزة وإسكان الثاء وهو بمعنى أثر ؛ لغتان. ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ : أى عجلت إلى الموضع الذى أمرتنى بالمصير إليه لترضى عنّى . يقال : رجل عجل وعَجولٌ وعَجْلانٌ بيِّن العَجَلة، والعجلة خلاف البطء .

[تفسير القرطبى : ١١/ ٢٣٢ -٢٣٣]

(١) أخرجه مسلم [١٣/٨٩٨] بلفظ : قال أنس : أصابنا ونحن مع رسول الله ﷺ مطر . قال: فحسر رسول الله ﷺ ثوبه حتى أصابه من المطر ، فقلنا : يا رسول الله لم صنعت هذا ؟ قال : « لأنه حديث عهد بربه تعالى » .

(٢) تذكرة الموضوعات للفتنى [١٩٦] .

ولذلك يقول القائد طارق بن زياد [1] لجنوده : « أنا لم آمركم أمرًا أنا عنه بنجوة، واعلموا أنى إذا التقى الفريقان مقبل بنفسى على طاغية القوم فأقاتله إن شاء الله، فإن قتلته فقد كفيتكم أمره » .

فمعنى ذلك أنه يقول لهم أنا لم آمركم أمراً ؛ لتنفذوه أنتم وأنا بعيد عنكم؛ فتتعرضوا للخطر وحدكم، ولكنى سأسير أمامكم وأنقضّ على قائد جيش العدو .

فنبى الله موسى عليه السلام قال لربه إن القوم آتون وراءه ، ولكنه تعجّل لقاء الله ليرضى بأن يطبق منهجه ؛ لأن القوم حين يرون موسى قد تعجل لقاء الله فى الموعد الذى حدده ، يعلمون أن هذا الأمر لو لم يكن خيراً ما سبقهم إليه ، وبذلك يجدّون فى طلب هذا الأمر ويهتمون به؛ لأن موسى نبيهم وقدوتهم سبقهم إليه .

(١) غزا طارق بن زياد -مولى موسى بن نصير - الأندلس فى اثنى عشر ألفًا ، فلقى ملك الأندلس، زعم الواقدى أنه يقال له أدرينوق ، وكان رجلا من أهل أصبهان، قال: وهم ملوك عجم الأندلس، فزحف له طارق بجميع من معه، فزحف الأدرينوق فى سرير الملك ، وعلى الأدرينوق تاجه وقفّازه وجميع الحلية التى كان يلبسها الملوك، فاقتتلوا قتالا شديدًا ، حتى قتل الله الأدرينوق وفتح الأندلس سنة ٩٢ .
[تاريخ الطبرى: ٥/ ٢٤٥]

* اختيار موسى سبعين رجلا *



ماذا فعل موسى بعد أن أخذ الألواح ؟ يقول تعالى: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً﴾(1) [الأعراف: ١٥٥] كلمة اختار تدل على أن ما فعله موسى هو فعل

---

(١) قال البقاعى فى قوله تعالى : ﴿وَاخْتَارَ﴾ اى اجتهد فى اخذ الخيار ﴿ مُوسَىٰ قَوْمَهُ﴾ ثم أبدل منهم قوله : ﴿ سَبْعِينَ رَجُلاً﴾ إشارة إلى أن من عداهم عدم ، لا يطلق عليهم اسم القوم فى المعنى الذى أراده ، وهو نحو ما قال النبى ﷺ فيما أخرجه الشيخان عن ابن عمر رضى الله عنهما : « الناس كالإبل المائة . لا تكاد تجد فيها راحلة »(1) ثم ذكر علة الاختيار فقال : ﴿لِّمِيقَاتِنَا﴾ اى فما اختار إلا من رأى أنه يصلح لما نريد من عظمتنا فى الوقت الذى حددناه له ، ودنا بهم من الحضرة الخطابية فى الجبل هو وهارون عليهما السلام ، واستخلف على بنى إسرائيل يوشع بن نون عليه السلام ؛ كل ذلك عن أمر الله له ، وفى هذا الكلام عطف على قوله : ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلاثِينَ لَيْلَةً ﴾ [الأعراف: ١٤٢] فيكون الميقات هو الأول ، وهو ظاهر التوراة ، ويجوز أن يكون عطفا على قوله : ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ﴾ [الأعراف:١٤٨] أو على قوله : ﴿أَخَذَ الأَلْوَاحَ ﴾ [الأعراف: ١٥٤] وحينئذ يكون هذا الميقات غير الميقات الأول ، ويؤيده ما نقل من أن هارون عليه السلام كان معهم . وكأنهم لما سمعوا كلام الله ، طلب بعضهم الرؤية جاعليها شرطا لإيمانهم ، فقالوا : ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً ﴾ [البقرة: ٥٥] كما فعل النقباء الاثنا عشر حين أرسلهم لجسّ أحوال الجبارين ، فنقض أكثرهم فأخذتهم الرجفة فماتوا ، فخشى موسى عليه السلام أن يتهمه بنو إسرائيل فى موتهم كنفس واحدة .

[نظم الدرر : ٨/ ١٠٠، ١٠١]

---

(١) أخرجه البخارى [٦٤٩٨] بلفظ : « إنما الناس ....» ، ومسلم [٢٥٤٧/ ٢٣٢] بلفظ : «تجدون الناس كإبل مائة . لا يجد الرجل فيها راحلة».

اختيارى يستخدم فيه العقل؛ لترجيح رأى على رأى؛ ولذلك يقال اختار أى : طلب الخير ، واختار ما يؤدى به إلى هذا الخير. وهذا لا يحدث إلا فى الأمور الاختيارية التى هى مناط التكليف، فاللسان خاضع لإرادة صاحبه ، يخضع للمؤمن حين يقول لا إله إلا الله، وللكافر حين يستخدمه فى ما ينقض الإيمان ، لم يعص فى هذه ولا فى هذه. ولكن المؤمن اختار الإيمان فقال لا إله إلا الله ، والكافر اختار ما يناقض ذلك .

وقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَىٰ﴾ معناه أن موسى فاعل للحدث، كأن نقول : «كتب زيد» ؛ أى أن زيداً هو الذى قام بالكتابة. فإذا قلنا : «كتب زيد الدرس» ، يكون الدرس قد وقع عليه الكتابة فهُو مفعول به، وهناك مفعول له ، كأن تقول : «قمت لوالدى إجلالاً» ، الذى فعل هو أنت، ولكن هل الإجلال هو الذى وقع عليه الفعل؟ أم كان سبباً فى وقوع الفعل ؟ فنسميه مفعولاً لأجله .

فمرة يقع الفعل على شئ فيصبح مفعولاً، ومرة يقع الفعل من أجل شئ فيكون مفعولا لأجله، ومرة يقع فى زمن فيصبح مفعولا فيه، كأن تقول : «صليت العصر يوم كذا» ، ومرة يكون مفعولا معه ، كأن تقول: «سرت مع النيل» ، أى أننى كلما سرت وجدت النيل [1] .

---

(١) المفعول به هو : ما وقع عليه فعل الفاعل .

المفعول له ، ويُسمى المفعول لأجله ، ومن اجله ، وهو : كل مصدر مُعَلّل لحدث مشارك له فى الزمان والفاعل .

المفعول فيه ، وهو المسمى ظرفًا ، وهو : كل اسم زمان او مكان سُلّط عليه عامل على معنى «فى» .

المفعول معه : وهو اسم فَضْلَة بعد « واو » أُريد بها التنميص على المعية ، مسبوقة بفعل أو ما فيه حروفه ومعناه .

[شرح قطر الندى وبل الصدى لابن هشام : ٢٠١ ، ٢٢٦ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠]

قوله تعالى: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا﴾ موسى لم يختر قومه كلهم، ولكنه اختار منهم، وقالوا فى علّة أنهم سبعون رجلاً ؛ أنها عدد أسباط اليهود، فقد أخذ من كل سبط رجلاً ؛ لتكون كل فرق اليهود ممثلة (١).

وقول الحق: ﴿لِمِيقَاتِنَا﴾ معناه الموعد المضروب أو المحدد للقاء الله. ولقد جاءت كلمة «ميقاتنا» قبل ذلك فى قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ [الأعراف: ١٤٣] وهذا «الميقات» غير «الميقات» الخاص بالأسباط؛ لأن «الميقات» الأول كان ليكلم الله موسى؛ أما «الميقات الثانى» فهو لطلب العفو من الله عن عبادة العجل، وإظهار الخضوع لله والندم على ما حدث ، وتجديد الإيمان (٢) .

---

(١) يقول الفخر الرازى : ذكروا أن موسى عليه السلام اختار من قومه اثنى عشر سبطا ، من كل سبط ستة ، فصاروا اثنين وسبعين ، فقال : ليتخلف منكم رجلان . فتشاجروا ، فقال : إن لمن قعد منكم مثل أجر من خرج ، فقعد كالب ويوشع، وروى أنه لم يجد إلاستين شيخا ، فأوحى الله إليه أن يختار من الشباب عشرة ، فاختارهم فأصبحوا شيوخًا ، فأمرهم أن يصوموا ويتطهروا ، ويطهروا ثيابهم ثم خرج بهم إلى الميقات . [التفسير الكبير : ١٥/١٦- ١٧]

(١) قال ابن الأثير : إن موسى اختار من قومه سبعين رجلاً من أخيارهم ، وقال لهم : انطلقوا معى إلى الله فتوبوا مّما صنعتم وصوموا وتطهّروا . وخرج بهم إلى طور سينا للميقات الذى وقّته الله له . فقالوا : اطلب أن نسمع كلام ربّنا . فقال : افعلُ . فلمّا دنا موسى من الجبل ، وقع عليه الغمام حتى تغشّى الجبل كلّه ، ودخل فيه موسى وقال للقوم : ادنوا ، فدنوا حتى دخلوا فى الغمام ، فوقعوا سجودًا ، فسمعوه وهو يكلّم موسى يأمره وينهاه ، فلمّا فرغ انكشف عن موسى الغمام فاقبل إليهم ، فقالوا لموسى : ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥] فأخذتهم الصاعقة فماتوا جميعًا . فقام موسى يناشد الله تعالى ويدعوه ، ويقول : ياربّ اخترت أخيارَ بنى إسرائيل ، وأعودُ إليهم وليسوا معى فلا يصدّقوننى . ولم يزل =

....

= يتضرّع حتى ردّ الله إليهم أرواحهم ، فعاشوا رجلاً رجلاً ينظر بعضهم إلى بعض كيف يحيون . فقالوا : يا موسى أنت تدعو الله فلا تسأله شيئًا إلا أعطاكَه ، فادعُهُ يجعلنا أنبياء فدعا الله فجعلهم أنبياء .

وقيل: أمرُ السبعين كان قبل أن يتوب الله على بنى إسرائيل ، فلمّا مضوا للميقات واعتذروا قَبل توبتهم ، وأمرهم أن يقتل بعضهم بعضًا ، والله أعلم .

[الكامل فى التاريخ : ١/ ١٩١، ١٩٢] ، وانظر [تاريخ الطبرى : ١/ ٣٠٠]

* وكلم الله موسى تكليما *

بالنسبة لكلام الله سبحانه وتعالى مع موسى عليه السلام فالواضح من القرآن الكريم أنه حدث من وراء حجاب، ونحن عادة حين نسمع كلاما ، ولا نرى المتكلم ، فإننا نستطيع أن نحدد مكانه من الاتجاه الذى جاء منه الكلام، فقد جاء لموسى من كل مكان ، مخالفا قوانين الصوت التى نعرفها، هنا حدثت معركة بين المعتزلة وأهل السنة (١) . فقالت المعتزلة إن كلام الله لموسى قد خلقه الله فى جرم من الأجرام، أو فى بطن جبل أو شجرة ثم سمعه موسى؛ لأن الكلام بالنسبة لنا يقتضى حروفا وكلمات ، والله منزّه عن هذا، وردّ أهل

(١) قال ابن كثير فى قوله تعالى : ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ وهذا تشريف لموسى عليه السلام بهذه الصفة ، ولهذا يقال له « الكليم » . وقد روى الحافظ أبو بكر ابن مردويه عن عبد الجبار بن عبد الله قال: جاء رجل إلى أبى بكر بن عياش فقال : سمعت رجلاً يقرأ: « وَكَلَّمَ اللَّهَ مُوسَىٰ تكليمًا ». قال أبو بكر: ما قرأ هذا إلا كافر! قرأت على الأعمش ، وقرأ الأعمش على ابن وثّاب ، وقرأ يحيى بن وثاب على أبى عبد الرحمن السلمى ، وقرأ أبو عبد الرحمن السلمى على علىّ بن أبى طالب ، وقرأ علىّ بن أبى طالب على رسول الله ﷺ : ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾. وإنما اشتد غضب أبى بكر بن عياش رحمه الله على من قرأ كذلك ؛ لأنه حرَّف لفظَ القرآن ومعناه . وكأنّ هذا من المعتزلة الذين ينكرون أن يكون الله كلم موسى عليه السلام ، أو يكلم أحدًا من خلقه . كما رويناه عن بعض المعتزلة أنه قرأ على بعض المشايخ: « وَكَلَّمَ اللَّهَ مُوسَىٰ تكليمًا » فقال له : يا ابن اللخناء ! كيف تصنع بقوله تعالى : ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ ؟! يعنى أن هذا لا يحتمل التحريف ولا التأويل . [عمدة التفسير : ٤/٤٦- ٤٧]

السنة بأن المعتزلة قد أباحوا أن يتكلم الله ، بأن يخلق كلامه فى جرم، أو فى جبل، أو فى شجرة ، وهذه الأشياء هى التى تنطق بكلام الله.

هذه الأجرام التى قال عنها المعتزلة إما إنها جماد، أو نبات، أو حيوان، أو إنسان، فكما قالوا إن الله يخلق كلامه فى شجرة وهى تنطق، يمكن أن نقول: إنه قد يخلق كلامه فى طائر ، أو فى حيوان ، أو فى إنسان ، وهو أشرف خلقه؛ ذلك أن الجرم هو الحيز، ومادام المعتزلة يقولون إن الله يخلق كلامه فى جرم ، فمن الممكن أن يكون هذا الجرم نباتا، أو جمادا، أو حيوانا، أو إنسانا، وكما أن الله يخلق كلامه فى شجرة تتكلم، فإنه يخلق كلامه أيضا فى أى شئ ينطقه، وإذا أخذنا بذلك، فإنه يمكن أن يخلق الله كلامه فى رسول الله ،وفى هذه الحالة يقول لنا الرسول كلام الله؛ لأن الله خلق هذا الكلام فى صدر رسوله ، والرسول أشرف من الشجرة. ومادام الله سبحانه وتعالى قد خلق كلامه فى صدر رسوله ، والرسول تحدث به إلى الصحابة ، إذن فموسى عليه السلام لم يتميز عن أحد من الصحابة، بل تميزوا عليه؛ لأن موسى سمع كلام الله مخلوقا فى شجرة، والصحابة سمعوا كلام الله من رسول الله ﷺ، وهو أشرف خلق الله، بل أكثر من ذلك، فإن الكفار سمعوا كلام الله من أشرف خلق الله وهو الرسول عليه الصلاة والسلام فهل يتميز الكفار عن موسى عليه السلام؟!

نقول لهؤلاء المعتزلة صحّحوا كلامكم ولا تتجاوزوا ذلك، إنكم تقولون هذا الكلام متوهمين أن صفة الله ـ وهى الكلام ـ يوجد مثلها فى البشر. نقول: لا، صفات البشر مختلفة تماما عن صفات الله سبحانه وتعالى، فالله موجود والإنسان موجود، ولكن هل وجود البشر كوجود الله؟ وهل غنى البشر كغنى الله؟ وهل علم البشر كعلم الله؟ إذن. . فلماذا تريدوننا

أن نفهم أن كلام البشر ككلام الله[1]، كلام الله مختلف تماما عن كلام البشر، والله سبحانه وتعالى بيّن لنا أن كلامه لموسى ، هو تمييز وارتقاء لموسى عليه السلام؛ ولذلك قال تعالى: ﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي﴾ [الأعراف: ١٤٤] . إذن فكلام الحق سبحانه وتعالى ليس ككلام البشر، ولكنه شئ اختص الله به موسى عليه السلام فى الحياة الدنيا، ويوم القيامة يكلّم الله سبحانه وتعالى خلقه ويحاسبهم . وينتهى الإشكال عند هذا الحد، فلا نخوض فيه[2].

---

(١) قال الإمام أبو بكر بن خزيمة : إن الله جل وعلا كلّم موسى عليه السلام من وراء حجاب، من غير أن يكون بين الله تبارك وتعالى وبين موسى عليه السلام رسول يبلغه كلام ربه ، ومن غير أن يكون موسى عليه السلام يرى ربه عزّ وجل فى وقت كلامه إياه .

وقال: إن كلام ربنا عز وجل لا يشبه كلام المخلوقين ؛ لأن كلام الله كلام متواصل ، لا سكت بينه ، ولا سمت ، لا ككلام الآدميين الذى يكون بين كلامهم سكت وسمت ؛ لانقطاع النفس أو التذاكر ، أو العى ، منزه الله مقدس من ذلك أجمع تبارك وتعالى . [كتاب التوحيد : ١/٣٤٦-٣٤٩]

(٢) قال الفخر الرازى : واعلم أن الاصطفاء استخلاص الصفوة فقوله ﴿اصْطَفَيْتُكَ﴾ أى اتخذتك صفوة على الناس قال ابن عباس : يريد فضلتك على الناس ، ولما ذكر أنه تعالى اصطفاه ذكر الأمر الذى به حصل هذا الاصطفاء فقال: ﴿بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي﴾ قرأ ابن كثير ونافع: « برسالتى » على الواحد والباقون: ﴿ بِرِسَالَاتِي ﴾ على الجمع، وذلك أنه تعالى أوحي إليه مرة بعد أخرى، ومن قرأ: « برسالتى » فلأن الرسالة تجرى مجرى المصدر ، فيجوز إفرادها فى موضع الجمع ، وإنما قال: ﴿اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ﴾ ولم يقل على الخلق ؛ لأن الملائكة قد تسمع كلام الله من غير واسطة كما سمعه موسى عليه السلام .

فإن قيل : كيف اصطفاه على الناس برسالاته مع أن كثيراً من الناس قد ساواه فى الرسالة ؟ قلنا : إنه تعالى بيّن أنه خصّه من دون الناس بمجموع الأمرين ، وهو الرسالة مع الكلام بغير واسطة، وهذا المجموع ما حصل لغيره، فثبت أنه إنما حصل =

عندما خص الله موسى بميزة الكلام حدث عند موسى استشراق، وقال مادام الله قد كلمنى فلأطلب منه فضلا آخر، هو أن أراه، وعادة فإن الأنس

= التخصيص ههنا؛ لأنه سمع ذلك الكلام بغير واسطة، وإنما كان الكلام بغير واسطة سببًا لمزيد الشرف بناء على العرف الظاهر ؛ لأن من سمع كلام الملك العظيم من فلق فيه(١) ، كان أعلى حالا وأشرف مرتبة ممن سمعه بواسطة الحجاب والنواب ، ولما ذكر هذين النوعين من النعمة العظيمة قال: ﴿ فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ يعنى فخذ هذه النعمة ، ولا يضيق قلبك بسبب منعك الرؤية ، والاشتغال بشكر الفور بهذه النعمة، والاشتغال بشكرها إنما يكون بالقيام بلوازمها علما وعملا . والله أعلم . [التفسير الكبير : ١٤/٢٣٦]

وعن أبى هريرة رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ قال : « حاج موسى آدم عليهما السلام ، فقال له : أنت الذى أخرجت الناس بذنبك من الجنة وأشقيتهم . قال آدم: يا موسى أنت الذى اصطفاك الله برسالاته وبكلامه ، أتلومنى على أمر قد كتبه الله علىّ قبل أن يخلقنى ، أو قدّره علىّ قبل أن يخلقنى ؟ » ، قال رسول الله ﷺ : «فحج آدم موسى » .

أخرجه البخارى [٣٤٠٩، ٤٧٣٧، ٦٦١٤ ، ٧٢١٥ ، ٧٥١٥] واللفظ له ، ومسلم [٢٦٥٢] .

وانظر المجلد الأول من هذا الكتاب [ص : ٢٥٠ ، ٢٥١]

(١) هذا القول تأويل فاسد أو محاولة للجمع بين الكتاب والسنة وعلم الكلام المذموم وهذا ما كان يعتقده الإمام الرازى ثم عدل عنه إلى مذهب أهل السنة والجماعة، وأنشد يقول كما فى كتابه : أقسام اللذات :

نهاية إقدام العقول عِقالُ ... وغاية سعى العالمين ضلالُ
وأرواحنا فى وحشة من جسومنا ... وحاصل دنيانا أذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا ... سوى أن جمعنا فيه : قيل وقالوا
فكم قد رأينا من رجال ودولة ... فبادوا جميعا مسرعين وزالوا
وكم من جبال قد علتْ شرفاتِها ... رجالٌ ، فزالوا والجبالُ جبالُ

لقد تأملتُ الطرق الكلامية ، والمناهج الفلسفية، فما رأيتها تشفى عليلا، ولا تروى=

= غليلا ، ورأيت أقرب الطرق طريقةُ القرآن ، اقرأ فى الإثبات : ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] ، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠] . واقرأ فى النفى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] . ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠] . ثم قال: « ومن جرب مثل تجربتى عرف مثل معرفتى » .

وكذلك قال الشيخ أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم الشهر ستانى ، إنه لم يجد عند الفلاسفة والمتكلمين إلا الحيرة والندم ، حيث قال :

لعمرى لقد طفتُ المعاهد كلها وسبرت طرفى بين تلك المعالم
فلم أرَ إلا واضعاً كفَّ حائرٍ على ذَقَنٍ أو قارعاً سن نادمِ

وكذلك قال أبو المعالى الجوينى : يا أصحابنا لا تشتغلوا بالكلام ، فلو عرفتُ أن الكلام يبلغ بى إلى ما بلغ ما اشتغلت به .

وقال عند موته: لقد خضت البحر الخضم، وخليت أهل الإسلام وعلومهم، ودخلت فى الذى نهونى عنه،والآن فإن لم يتداركنى ربى برحمته فالويل لابن الجوينى ، وها أنا ذا أموت على عقيدة أمى ، أو قال : على عقيدة عجائز نيسابور .

راجع شرح العقيدة الطحاوية لابن أبى العز الحنفى [٢٠٨/٢٠٩] ، وكذلك سير أعلام النبلاء للإمام الذهبى [٢١/ ٥٠١] .

وإتماما للفائدة وضعنا كلام الإمام أحمد بن حنبل فى رده على الجهمية؛ حتى يكون نبراساً يهتدى به قارئ مثل هذه العبارات ولا يغتر بعلو مكانة قائلها، فإنهم رجعوا فى نهاية حياتهم عن ذلك، وختم الله لهم بعقيدة أهل السنة والجماعة .

قال الإمام أحمد رضى الله عنه : فقلنا لهم : لم أنكرتم ذلك - أى كلام الله - ، فقالوا : إن الله لم يتكلم ولا يكلم إنما كون شيئا فعبر عن الله وخلق صوتا فأسمع وزعموا أن الكلام لا يكون إلا من جوف وفم وشفتين ولسان .

فقلنا لهم : فهل يجوز لمكون أو غير الله أن يقول : ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١٤] أو ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ﴾ [طه: ١٢] فمن زعم ذلك فقد ادعى الربوبية،ولو كان كما زعم الجهمى أن الله كون شيئا كان يقول ذلك =

= المكون: ﴿يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [القصص: ٣٠] لا يجوز له أن يقول : ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ وقال الله : ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤] وقال : ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ [الأعراف: ١٤٣] وقال : ﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي﴾ [الأعراف: ١٤٤] فهذا منصوص القرآن .

وأما ما قالوا : إن الله لم يتكلم ولم يكلم ، فكيف بحديث الأعمش ، عن خيثمة ، عن عدى بن حاتم الطائى قال : قال النبى ﷺ : « ما منكم من أحد إلا سيكلمه الله ليس بينه وبينه ترجمان »(١) .

وأما قولهم : إن الكلام لا يكون إلا من جوف وفم وشفتين ولسان، أليس قال الله تعالى للسموات والأرض : ﴿ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١] أترى أنها قالت بجوف وشفتين ولسان وأدوات ؟ وقال الله تعالى ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ﴾ [الأنبياء: ٧٩] أتراها «سبّحت» بجوف وفم وشفتين ولسان والجوارح إذا شهدت على الكفار فقالوا : ﴿لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [فصلت: ٢١] أتراها أنها بجوف وفم وشفتين ولسان، ولكن الله أنطقها كيف شاء فكذلك تكلم الله كيف شاء من غير أن نقول: فم، ولا لسان، ولا شفتان، ولاجوف .

قال أحمد رضى الله عنه : فلما خنقته الحجج قال : إن الله كلم موسى إلا أن كلامه غيره . فقلنا : وغيره مخلوق. قال : نعم . فقلنا : هذا مثل قولكم الأول إلا أنكم تدفعون عن أنفسكم الشنعة بما تظهرون .

وقلنا للجهمية : من القائل يوم القيامة : ﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ﴾ [المائدة: ١١٦] أليس الله هو القائل: =

---

(١) أخرجه البخارى [٦٥٣٩] ، ومسلم [٦٧/١٠١٦] ، وأحمد [٢٥٦/٤]، وابن ماجة [١٨٤٣].

والاستشراق بالله محبب إلى النفس المؤمنة، فعندما سأل الله سبحانه وتعالى موسى : ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ﴾ [طه: ١٧] كان من الممكن أن يقول موسى هى عصاى وتنتهى المسألة، ولكنه قال: ﴿هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ

= **قالوا** : يكون شيئا يعبر عن الله كما كون شيئا فعبر لموسى . **فقلنا** : فمن القائل : ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦] اليس الله هو الذى يسأل . **قالوا** : هذا كله إنما يكون شيئا يعبر عن الله **فقلنا لهم** : قد اعظمتم على الله الفرية، حين زعمتم أنه لا يتكلم فشبهتموه بالأصنام التى تعبد من دون الله، لأن الأصنام لا تتكلم ولا تنطق ولا تتحرك ولا تزول من مكان إلى مكان، فلما ظهرت عليه الحجة **قال** : إن الله تعالى قد تكلم ولكن كلامه مخلوق . **فقلنا** : وكذلك بنو آدم كلامهم مخلوق فشبهتم الله بخلقه حين زعمتم أن كلامه مخلوق، ففى مذهبكم أن الله قد كان فى وقت من الأوقات لا يتكلم حتى خلق التكلم، وكذلك بنو آدم لا يتكلمون حتى خلق لهم كلاما، فجمعتم بين كفر وتشبيه فتعالى الله عن هذه الصفة علوا كبيرا .

وقلنا لهم : زعمتم أن الله لم يتكلم فبأى شىء خلق الله الخلق ، **قالوا** : أموجود عن الله تبارك وتعالى أنه خلق الخلق بقوله وكلامه . قلنا وحين قال : ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠] . **قالوا** : إنما معنى قوله : ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ **قلنا لهم** : فلم اخفيتم ﴿أَن نَّقُولَ لَهُ﴾ **قالوا** : إنما معنى كل شىء فى القرآن معانيه قال الله مثل قول العرب : قال الحائط وقالت النخلة فسقطت والحائط والنخلة لا يقولان شيئا . **فقلنا** : فعلى هذا قستم . **قالوا** : نعم . **قلنا** : فبأى شىء خلق الخلق إن كان فى مذهبكم لم يتكلم ؟ **فقالوا** : بقدرته . **فقلنا** : قدرته هى شىء . **قالوا** : نعم . **فقلنا** : قدرته من الأسماء المخلوقة . **قالوا** : نعم . **فقلنا** : كأنه خلق خلقا بخلق وعارضتم القرآن وخالفتموه حين قال الله جل ثناؤه : ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الرعد: ١٦] فأخبر الله أنه يخلق وقال : ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ﴾ [فاطر: ٣] أى بأنه ليس يخلق غيره ، وزعمتم أنه خلق الخلق غيره ، **فتعالى الله عما تقوله الجهمية علوا كبيرا .**

[المسائل والرسائل المروية عن الإمام أحمد بن حنبل فى العقيدة : ١/٢٨٨ ـ ٢٩٢]

﴿عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي﴾ [طه: ١٨] وكان هذا الكلام من موسى؛ لأنه يريد أن يطول أنس كلامه مع ربه؛ وفى هذه المرة أيضا أراد موسى أن يزداد أنسا بربه، فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣] ولكن موسى لم يقل رب أرنى ذاتك؛ لأنه يعرف أنه بطبيعة تكوينه البشرى لا يستطيع أن يرى الله، ولكنه يعلم أيضا أن الله الذى خلق القوانين يستطيع أن يغيّرها ويبدّلها متى أراد، ومادام موسى ببشريته ليس معدا لهذه الرؤية، فقد طلب من الله سبحانه وتعالى أن يريه، أى يغير طبيعة خلق موسى كإنسان لكى يرى، والمهم أن الله هو الذى سيفعل ، ولكن المخلوق فى الدنيا لا يحتمل فى تكوينه أن يرى الخالق؛ ولذلك كان لابد أن يصطفى الله من الملائكة رسلا ؛ ليبلغوا منهجه إلى رسله المصطفين من البشر ؛ لأن رؤية الله فى الدنيا لا يتحملها بشر.

ونحن مثلا إذا أردنا أن ننام ليلا ، فإننا نضع مصباحاً صغيراً يعطينا الضوء اللازم ؛ لكى نتحرك إذا استيقظنا من النوم أثناء الليل دون أن نصطدم بأثاث المنزل ، فنحطمه أو يحطمنا؛ أى أننا إذا اصطدمنا بشئ صغير حطمناه ، وإذا اصطدمنا بقطعة كبيرة من الأثاث حطمتنا، هذا النور الضئيل الذى نوقده فى المنزل هدفه أن يرينا أماكن الأشياء، دون أن يفسد علينا ظلمة الليل بنور قوى، هذا النور إما أن يكون خمس شمعات أو أكثر أو أقل ، ولا نستطيع أن نوصله بالمصدر الرئيسى للكهرباء فى المنزل وإلا احترق، بل لابد أن يكون هناك «محول» ؛ يأخذ الضوء القوى من مصدر الكهرباء ، ويعطيه لهذا المصباح الصغير بعد أن يحوله تيارًا ضعيفا؛ حتى يحتمله هذا المصباح الصغير، أو أن يكون المصباح الصغير مصنوعًا بشكل يحتمل هذا التيار القوى ، ويحوّله إلى ضعيف الفولت، فإذا كنا فى صناعة البشر ، لم يأخذ الضعيف من القوى مباشرة ، بل لابد من

واسطة ، أو تغيير فى الصنعة ، فكيف يمكن لخلق الله أن يتلقوا عن الله بلا واسطة؟! والواسطة هنا لابد أن تكون منتقاة ومعدة لمهمتها ؛ ولذلك لا يستطيع أى ملك أن يتلقى من الله سبحانه وتعالى، ولكن لابد أن يكون ملكا مختارا معدا إعدادا خاصا. وكذلك لا يستطيع كل البشر أن يتلقى الوحى من الملائكة، ولكن لابد أن يكون بشرا مختارا، وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥] فالمختار من الملائكة يبلغ لمختار من البشر، والمختار من البشر يبلغ البشر كلهم (١) .

كذلك رؤية الحق سبحانه وتعالى فى الدنيا ، وهذه ستظهر عندما يعطينا الله الدليل أنه لم يخلقنا فى الحياة الدنيا على هيئة صالحة لأن نراه، ولكن فى الآخرة عندما نُعد إعداداً آخر ، عند ذلك يحدث هذا ؛ رؤية نظر وليس رؤية إحاطة ، يقول الحق سبحانه وتعالى عن المؤمنين فى الآخرة: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣] ويقول سبحانه وتعالى عن الكافرين فى الآخرة: ﴿إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥] ولا يمكن أن يستوى المؤمن والكافر فى هذه المسألة ؛ فالكافر محجوب، والمؤمن غير محجوب .

موسى عليه السلام ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣] فماذا

---

(١) قال الشوكانى فى قوله تعالى : ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً﴾ كجبريل ، وإسرافيل ، وميكائيل ، وعزرائيل ، ويصطفى أيضا رسلا ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ وهم الأنبياء ، فيرسل الملك إلى النبى ، والنبى إلى الناس ، أو يُرسل الملك لقبض أرواح مخلوقاته ، أو لتحصيل ما ينفعهم أو لإنزال العذاب عليهم .

[فتح القدير : ٣/٤٦٨]

كان قول الحق سبحانه وتعالى؟ ﴿قَالَ لَن تَرَانِي﴾ بعض الناس يقول : إن قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿لَن﴾ معناه أنها تأبيدية؛ أى لن ترانى الآن ولا فى المستقبل، ولا فى الآخرة، وفى ذلك يكون معنى قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿لَن تَرَانِي﴾ أى أن موسى لن يرى الله ، لا فى الدنيا ولا فى الآخرة.

نقول لهم : من قال لكم إن زمن الدنيا كزمن الآخرة ، وقوانين الدنيا كقوانين الآخرة، وأرض الدنيا كأرض الآخرة ؟ الحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾ [إبراهيم: ٤٨] ، إذن فى الآخرة هناك قوانين أخرى وطبيعة خلق أخرى ، تجعل الإنسان مثلا يأكل ولا تخرج منه فضلات.

قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿لَن تَرَانِي﴾ معناه أنك يا موسى مادمت على هيئتك البشرية فى الدنيا ، فإنك لن ترانى، ثم يعطيه الله سبحانه وتعالى الدليل على أن طبيعة موسى البشرية لا تتحمل رؤية الحق سبحانه وتعالى، فيقول الله : ﴿وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ [الأعراف: ١٤٣] لماذا قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ﴾؟ لأن الجبل مفروض فيه الصلابة والقوة والثبات والتماسك، والجبل بحكم الواقع وبحكم العقل، أقوى من الإنسان وأصلب منه ملايين المرات، والله سبحانه وتعالى يقول لموسى: انظر إلى الجبل الصلب القوى المنيع ، فإن بقى مكانه فإنك سترانى، وهنا يريد الحق سبحانه وتعالى أن يبين لموسى استحالة أن يتحمل من هو أقوى منه

(١) قال القرطبى فى قوله تعالى : ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ سأل النظر إليه ، واشتاق إلى رؤيته لما أسمعه كلامه . فـ﴿قَالَ لَن تَرَانِي﴾ أى فى الدنيا. ولا يجوز الحمل=

ملايين المرات رؤية الحق سبحانه وتعالى: فكيف يتحملها موسى؟ (١)

ماذا حدث عندما تجلى الله للجبل؟ يقول الحق سبحانه وتعالى ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ و « الدَّك » هو الضغط

= على أنه أراد : أرنى آية عظيمة لأنظر إلى قدرتك ؛ لأنه قال ﴿إِلَيْكَ﴾ و ﴿قَالَ لَن تَرَانِي﴾ . ولو سأل آية لأعطاه الله ما سأل، كما أعطاه سائر الآيات. وقد كان لموسى عليه السلام فيها مَقْنَع عن طلب آية أخرى ؛ فبطل هذا التأويل .

﴿وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾ ضرب له مثالا مما هو أقوى من بنيته وأثبت . أى : فإن ثبت الجبل وسكن فسوف تراني ، وإن لم يسكن ، فإنك لا تطيق رؤيتى ، كما أن الجبل لا يطيق رؤيتى . وذكر القاضى عياض عن القاضى أبى بكر بن الطيب ما معناه : أن موسى عليه السلام رأى الله فلذلك خَرَّ صَعِقا ، وأن الجبل رأى ربه فصار دكّا بإدراك خلقه الله له . واستنبط ذلك من قوله: ﴿وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾ . ثم قال : ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ وتجلى معناه ظهر ؛ من قولك : جلوت العروس أى أبرزتها. وجلوت السيف: أبرزته من الصدأ؛ جِلاءً فيهما. وتجلّى الشىء: انكشف . وقيل : تجلى أمره وقدرته ؛ قاله قطرب وغيره . وقراءة أهل المدينة وأهل البصرة ﴿دَكًّا﴾ يدل على صحتها ﴿دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا﴾ [الفجر: ٢١] وأن الجبل مذكر . وقرأ أهل الكوفة: «دكاء» أى جعله مثل أرض دكاء ، وهى الناتئة لا تبلغ أن تكون جبلا . والمذكر: أدك. وجمع دكّاء: دكاوات ودُكّ ؛ مثل حمراوات وحُمْر . قال الكسائى الدك من الجبال : العراض ، واحدها أدك. غيره : والدّكاوات جمع دكاء : روابٍ من طين ليست بالغلاظ . والدكداك كذلك من الرمل : ما التبدّ بالأرض فلم يرتفع . وناقة دكاء لا سنام لها . وفى التفسير : فساخ الجبل فى الأرض ، فهو يذهب فيها حتى الآن . وقال ابن عباس : جعله ترابًا. عطية العوفى: رملا هائلا . ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ اى مغشيًا عليه؛ عن ابن عباس والحسن وقتادة. وقيل : ميتا؛ يقال : صعق الرجل فهو صعق ، وصعق فهو مصعوق . وقال قتادة والكلبى : خرَّ موسى صعقا يوم الخميس يوم عرفة ، وأعطى التوراة يوم الجمعة يوم النحر . [تفسير القرطبى : ٧/ ٢٧٨ ، ٢٧٩] =

على الشئ من أعلى ؛ ليستوى بشئ أسفل منه، كأن يكون هناك منزل عالٍ مثلا وتدكّه أى تسويه بالأرض ، ومن علامات يوم القيامة يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ [الفجر: ٢١] أى أصبح كل ما عليها مساويا لسطحها ، فلم يعد عليها شئ قائم، وقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ﴾ نعرف منه أن الله قد تجلى على خلق من خلقه وهو الجبل، إذن فثبت أن الله يتجلى على خلقه، ولكن هل المتجلَّى عليه يقدر على تحمل هذا التجلى أم لا يقدر؟ من الممكن أن يتجلى الله على بعض خلقه ، ولكن المهم أن يقوى المستقبِل للتجلى على تحمل ذلك، ولكن الجبل الذى هو أصلب من الإنسان ملايين المرات ، لما تجلّى له ربه اندكّ وساوى الأرض، فهل طبيعة موسى تقوى على استقبال تجلى الله عليه ؟ بالطبع لا . بدليل أن الأقوى منه وهو الجبل لم يقوَ على استقبال تجلى الله. وهنا يريد الحق سبحانه وتعالى أن يلفتنا

= وعن ابن عباس قال : تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ قال: « قال الله عز وجل : يا موسى إنه لا يرانى حىٌّ إلا مات ، ولا يابس إلا تدهده ، ولا رطب إلا تفرق ، وإنما يرانى أهل الجنة الذين لا تموت أعينهم ولا تبلى أجسادهم» .

وعن مجاهد قال : لن ترانى ولكن انظر إلى الجبل ، فإنه أكبر منك وأشد خلقًا . قال: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ﴾ فنظر إلى الجبل لا يتمالك ، وأقبل الجبل يندك على أوّله ، فلما رأى موسى ما يصنع الجبل خر موسى صعقًا .

[الدر المنثور : ٣/ ٥٤٤]

(١) عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه: بينا رسول الله ﷺ جالس ، جاء يهودى فقال: يا أبا القاسم ضرب وجهى رجل من أصحابك . فقال : « من ؟ » قال : رجل من الأنصار . قال : « ادعوه » ، فقال : « أضربته ؟ » قال : سمعته بالسوق يحلف : والذى اصطفى موسى على البشر ، قلت : أى خبيث ، على محمد ﷺ؟ فأخذتنى غَضْبَة ضربت وجهه . فقال النبى ﷺ : « لا تخيِّروا بين الأنبياء ، فإن =

لفتة تصاعدية فلما اندك الجبل: ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾(١) [الأعراف: ١٤٣] يقال : خرَّ الشيء : إذا سقط من أعلى إلى أسفل ، وفى القرآن الكريم ﴿وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ﴾ [الإسراء: ١٠٩] ، وفى قصة داود عليه السلام عندما دخل عليه الذين تسوّروا المحراب ، يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾(١) [ص: ٢٤] وقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿صَعِقًا﴾ يُراد بها الوفاة . وكل من فى السموات والأرض سيصعق عندما تقوم الساعة ؛ مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلا مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨] أى سيهلك كل من فى السموات والأرض ، ثم يبعثون ليُحاسبوا ، وبعد أن أصابت موسى الصعقة يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣] قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿فَلَمَّا أَفَاقَ﴾

= الناس يصعقون يوم القيامة ، فأكون أول من تنشق عنه الأرض ، فإذا أنا بموسى آخذ بقائمةٍ من قوائم العرش ، فلا أدرى أكان فيمن صعق، أم حُوسب بصعقة الأولى ؟ » أخرجه البخارى [٢٤١٢، ٣٣٩٨، ٤٦٣٨، ٦٩١٧، ٧٤٧٢].

وفى صحيح مسلم [٢٣٧٤] بلفظ : « ... فلا أدرى أكان ممن صعق فأفاق قبلى ، أو اكتفى بصعقة الطور».

(١) ﴿فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ﴾ [الحج: ٣١] وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ﴾ وقال تعالى : ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٢٦] فمعنى خرَّ سقط سقوطا يسمع منه خرير ، والخرير يقال لصوت الماء والريح وغير ذلك مما يسقط من علو. وقوله تعالى : ﴿خَرُّوا سُجَّدًا﴾ [السجدة: ١٥] فاستعمال الخرّ تنبيه على اجتماع أمرين : السقوط ، وحصول الصوت منهم بالتسبيح ، وقوله من بعده: ﴿وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ ، فتنبيه أن ذلك الخرير كان تسبيحًا بحمد الله ، لا بشيء آخر. [معجم مفردات ألفاظ القرآن : ١٤٥]

أى من الصعقة، فكأن الصعقة أصابت موسى بإغماء فقط، والإفاقة هنا أعطت موسى إفاقة ثانية، من أن شغفه بالله قد جعله يطلب ما ليس له به علم. إذن.. فهو أفاق من الصعقة، وفى نفس الوقت أفاق لنفسه، وأحسّ بأن حبه لله قد جعله يسأل شيئا ما كان يصح أن يسأله؛ ولذلك قال: ﴿سُبْحَانَكَ﴾ وإذا سمعت كلمة سبحانك، فاعلم أن المراد بها التنزيه عما وقع؛ أى تنزيها لله من أن يراه مخلوق له.. لماذا؟ لأن الرؤية قدرة بصر على مرئى، فمتى رأيت الشىء، فإنك تستطيع أن تدركه بقدرتك البشرية التى أنت مخلوق عليها الآن.

والقانون الذى يعمل به الضوء فى أعيننا فى الحياة الدنيا، لا يجعلنا قادرين على أن نرى الله، والمقدور عليه لا ينقلب قادرا، والقادر لا ينقلب مقدورا عليه، ولكن موسى لم ينزّه الله فقط عن أن يراه بشر، بل قال: ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ أى أن المسألة اقتضت توبته وموسى تاب إلى الله؛ لأنه سأل الله ما ليس له به علم، ولم يقف عند الحدود البشرية، بل أراد أن يتجاوزها إلى التجليات المخالفة لقوانين الكون، وكان الموقف بين يدى الله يقتضى ألا يسأل موسى، وأن ينتظر عطاء الله، والله كلّم موسى دون أن يطلب موسى ذلك، ولكن موسى عليه السلام حبا فى الله أراد أكثر وأكثر، ونسى قدراته البشرية، ولما أحس بما حدث اتجه إلى الله يطلب التوبة، وقال: يا ربى أنا لم أصنع ذلك عن قلة إيمان، فإن ذاتك العلية لا يقدر مخلوق أن يراها أو يدركها، ولكنى فعلت ذلك لفرط حبى لك، وشغفى

(١) قال ابن كثير: والمعروف أن الصعق هو الغشى ههنا، كما فسره ابن عباس وغيره لا كما فسره قتادة بالموت، وإن كان ذلك صحيحا فى اللغة كقوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلا مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨] فإن هناك قرينة تدل على الموت، كما أن هنا =

بك، أنا أول المؤمنين، إنك لا تدركك الأبصار(١).

= قرينة تدل على الغشى ، وهى قوله: ﴿ فَلَمَّا أَفَاقَ﴾ والإفاقة لا تكون إلا عن غشى، ﴿قَالَ سُبْحَانَكَ﴾ تنزيهًا وتعظيمًا وإجلالاً أن يراه أحد فى الدنيا إلا مات ، وقوله: ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ ﴾ قال مجاهد: أن أسالك الرؤية ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ قال ابن عباس ومجاهد من بنى إسرائيل واختاره ابن جرير وفى رواية أخرى عن ابن عباس ﴿ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أنه لا يراك أحد، وكذا قال أبو العالية قد كان قبله مؤمنون ، ولكن يقول : أنا أوّل من آمن بك أنه لا يراك أحد من خلقك إلى يوم القيامة ، وهذا قول حسن له اتجاه . [تفسير ابن كثير : ٢/ ٢٣٥]

وقال البقاعى فى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَفَاقَ﴾ اى من غشيته ﴿قَالَ سُبْحَانَكَ﴾ اى: تنزيها لك عن ان أطلب منك مالم تأذن فيه ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ اى من ذلك ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ اى مبادر غاية المبادرة إلى الإيمان بكل ما أخبرت به ، كل ما تضمنته هذه الآيات، فتعبيره بالإيمان فى غاية المناسبة لعدم الرؤية ؛ لأن شرط الإيمان أن يكون بالغيب ، فقد ورد فى نبينا ﷺ آيتان : إحداهما يمكن أن تشير إلى الرؤية بالتعبير بالمسلمين دون المؤمنين فى قوله: ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ ، والثانية تؤمى إلى عدمها وهى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ﴾ إلى قوله: ﴿كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ﴾ والله أعلم . وكل هذا تبكيت على قومه ، وتبكيت لهم فى عبادتهم العجل ، وردع لهم عن ذلك، وتنبيه لهم على أن الإلهية مقرونة بالعظمة والكبر بعيدة جدا عن ذوى الأجسام ؛ لما يعلم سبحانه من أنهم سيكررون عبادة الأصنام ، فأثبت للإله الحق الكلام والتردى عن الرؤية بحجاب الكبر والعظمة واندكاك الجبل عند تجليه ، ونصب الشرع الهادى إلى أقوم سبيل تعريضًا بالعجل ، وإلى ذلك يرشد قوله تعالى : ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لايُكَلِّمُهُمْ﴾ الآية . [نظم الدرر : ٨/ ٧٩]

* اتخاذهم العجل بعد المعجزات !! *

﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ﴾(1) [البقرة: ٩٢] إن البينات معناها: الأمور المبينة، وهى :

إما الصدق فى الدعوة والبلاغ عن الله، وتلك هى المعجزات .

وإما أن تكون البينات هى: الأحكام التى جاء بها المنهج الذى نزل عليه من الله.

إذن فالبينات إما: أنها تنصب على المعجزات؛ لأن تلك المعجزات بيّنت صدق موسى عليه السلام.

وإما: أن تنصب على الأحكام؛ لأنها بيّنت مطلوب الله فى المنهج.

---

(١) يقول ابن كثير: ﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ أى بالآيات الواضحات والدلائل القاطعات ، على أنه رسول الله وأنه لا إله إلا الله ، والآيات البينات هى : الطوفان، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم ، والعصا ، واليد ، وفرق البحر، وتظليلهم بالغمام ، والمن والسلوى ، والحجر ، وغير ذلك من الآيات التى شاهدوها ﴿ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ ﴾ أى معبوداً من دون الله فى زمان موسى وأيامه، وقوله: ﴿ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ أى من بعد ما ذهب عنكم إلى الطور لمناجاة الله عز وجل كما قال: ﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ ﴾ [الأعراف: ١٤٨] ﴿ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ﴾ أى وأنتم ظالمون فى هذا الصنيع الذى صنعتموه من بعده؛ عبادتكم العجل وأنتم تعلمون أنه لا إله إلا الله، كما قال تعالى : ﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٩] . [تفسير ابن كثير : ١/ ١٢٠]

وقد وردت هذه البينات فى قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ [الإسراء: ١٠١] .

وفى آية أخرى يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [النمل: ١٢].

قال العلماء: إن المقصود بالآيات التى جاءت مع موسى، هى المعجزات التى أرسلها الحق تبارك وتعالى، وهى :

معجزة إخراج اليد بيضاء من غير سوء، معجزة العصا التى تحولت إلى حية، معجزة البحر، معجزة الطوفان، ونتق جبل الطور، إرسال الجراد والقمل والضفادع والدم والجدب.(١)

لكن المستشرقين ومنهم اليهود أخذوا على علماء المسلمين؛ أنهم لم يتفقوا فى عدد المعجزات، واستدل هؤلاء المستشرقون على أننا لا نتفق على شئ فى الإسلام ! ولهؤلاء نقول: لقد فاتكم أن تفهموا الحقيقة وتبصروها ، فالروايات المختلفة عن التسع آيات، هى روايات اتفق العلماء جميعاً على أنها خاصة ببنى إسرائيل .

ولكن هناك معجزات أخرى خاصة بقوم فرعون الذين أرسل الله عليهم

---

(١) قال ابن كثير : قال ابن عباس : هى العصا، واليد، والسنين، والبحر، والطوفان، والجراد ، والقمل، والضفادع، والدم. وذكر مجاهد وعكرمة وقتادة وابن عباس أيضا: نقص الثمرات بدلاً من البحر. وجعل الحسن البصرى السنين ونقص الثمرات واحدة، وتلقف العصا ما يأفكون هى التاسعة.

[تفسير ابن كثير : ٣ / ٦٥، ٦٦ بتصرف]

بعضا من آياته؛ ليستدلوا بها على الخالق الأكرم.

وهناك رواية ثالثة عن الآيات البينات وهى لصفوان بن عسَّال تخصّ المنهج الذى تضمنه العهد الموثق، الذى أخذه الله على بنى إسرائيل، ويتضمن النقاط الآتية:

لاتشركوا بالله، لاتسرقوا، لا تزنوا، لا تقتلوا النفس التى حرَّم الله بغير حق، لا تسحروا، لا تأكلوا الربا، لا تمشوا بالنميمة لدى سلطان ضد أحد، ليقتله ظلماً، لا تقذفوا المحصنات، لا تفروا يوم الزحف، وزاد رسول الله ﷺ: أن بنى إسرائيل قد زيدوا: ﴿لا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ﴾[1]

إذن.. ليس هناك خلاف بين علماء المسلمين، كل ما فى الأمر أن بعضهم ذكر الآيات التى كانت لآل فرعون، وبعضهم عدّد الآيات التى كانت لآل فرعون وبنى إسرائيل فى آن واحد.

ومرة أخرى يراد بالآيات المنهج الذى أخذ الله عليهم العهد به، إذن هى اثنتان وعشرون آية للمنهج والدلالات الإعجازية.

ونعود إلى، قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ﴾ وعندما نقرأ قوله الحق ﴿وَلَقَدْ﴾

(1) عن عبد الله بن سلمة عن صفوان بن عسَّال المرادى: أن يهودى قال أحدهما لصاحبه: اذهب بنا إلى هذا النبى نسأله. فقال: لا تقل نبى إنه لو سمعك كان له أربعة أعين. فأتيا النبى فسألاه عن قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ [الإسراء: ١٠١]؟ [وفى رواية: إن سمعها]

فقال رسول الله ﷺ: «لا تشركوا بالله شيئًا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق، ولا تسرقوا، ولا تسحروا، ولا تمشوا ببرىء إلى سلطان فيقتله، ولا تأكلوا الربا، ولا تقذفوا محصنة، ولا تفروا من الزحف - شك شعبة=

فإننا نفهم أن ما يجئ بعدها هو أمر محقق حدث فى الماضى، وهو مجئ موسى عليه السلام بالبينات، والذى سبق الحديث عنه، وموسى هو اسم عَلَم، أى اسم لإنسان، والأعلام لا يسأل عن معانيها، إلا إن كانت منقولة عن شئ ، مثل أن يسمى والد ابنه «سعد» أو «فضل». واسم موسى عليه السلام مكوّن من شقين، الشق الأول: «مو» وأصلها ماء، والشق الثانى: «سى» وأصلها شجر، وهكذا نجد أن معنى كلمة موسى «ماء وشجر» ؛ لأن موسى عليه السلام وجدوه عند الشجر بعد أن التقطوه من الماء (١) .

= وعليكم يا معشر اليهود خاصة ألا تعتدوا فى السبت » . فقبلا يديه ورجليه وقالا : نشهد أنك نبى . قال : « فما يمنعكما أن تسلما؟». قالا : إن داود دعا الله أن لايزال فى ذريته نبى ، وإنا نخاف إن أسلمنا أن تقتلنا اليهود .

أخرجه الترمذى [٢٧٣٣، ٣١٤٤] وقال : حديث حسن صحيح ، واللفظ له ، والنسائى فى المجتبى [٧/ ١١ ، ١١٢] ، والكبرى [٣٥٤١، ٨٦٥٦] ، وأحمد فى المسند [٤/ ٢٣٩، ٢٤٠، ٣٣٩، ٥/ ٣١٣]،والحاكم فى المستدرك [١/ ٩] وصححه ، ووافقه الذهبى . وضعفه الألبانى فى ضعيف الترمذى [٥١٧، ٦١٣]، وضعيف النسائى [٢٧٥]، وذكره ابن كثير فى تفسيره [٣/ ٦٦] وقال : حديث مشكل ، وعبد الله بن سلمة فى حفظه شىء ، وقد تكلّموا فيه ، ولعله اشتبه عليه التسع الآيات بالعشر الكلمات، فإنها وصايا فى التوراة لا تعلق لها بقيام الحجة على فرعون. والله أعلم .

وقال ابن كثير فى قوله تعالى : ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ﴾ أى وصيناهم بحفظ السبت والتزام ما حرم الله عليهم ما دام مشروعا لهم.

[تفسير ابن كثير :١ / ٥٤٢]

(١) وموسى : اسم معرب أصله موشا، ومو بالعبرية: الماء، وشا : الشجر، سمى به؛ لأنه وجد فى الماء والشجر الذى كان حول قصر فرعون فى عين شمس ، وهى موضع معروف بمصر. [بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز : ٦ / ٦١]

* السامرى صنع العجل من الذهب *

يعطينا الحق صورة أخرى من صور كفر قوم موسى رغم كل النعم التى أنعمها عليهم، فيقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ﴾(١) [الأعراف: ١٤٨] .

قوله سبحانه وتعالى: ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ أى من بعد ذهابه لميقات الله، وبعد أن استخلف هارون على قومه وقوله : ﴿مِنْ حُلِيِّهِمْ﴾ والحلى هى : ما يتزين به الناس من الذهب والأحجار الكريمة والجواهر، ولكن الحلى سيّدها دائما هو الذهب؛ لأن الذهب تستطيع أن تشكله كما تشاء، وكسره لا يحدث إلا فى فترات متباعدة ، وإذا كسر يمكن إصلاحه بسهولة، ولذلك إذا سمعت كلمة زينة أو حلىّ، فإن المقصود بها هو الذهب أو على الأقل الغالب عليها هو الذهب، وهذا الذهب هو الذى أخذه السامرى ثم

(١) قال القرطبى فى قوله تعالى : ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ﴾ أى من بعد خروجه إلى الطور . ﴿مِنْ حُلِيِّهِمْ﴾ هذه قراءة أهل المدينة وأهل البصرة . وقرأ أهل الكوفة إلا عاصما: « من حِليهم » بكسر الحاء . وقرأ يعقوب : « من حَليهم » بفتح الحاء والتخفيف ، قال النحاس : جمع حَلْيٍ حُلِّي وحِلِّى ؛ مثل ثَدى وثُدى وثِدى . والأصل «حلوى» ثم أدغمت الواو فى الياء ، فانكسرت اللام لمجاورتها الياء ، وتكسر الحاء لكسرة اللام . وضمها على الأصل . ﴿عِجْلاً﴾ مفعول، ﴿جَسَدًا﴾ نعت أو بدل ﴿لَّهُ خُوَارٌ﴾ رفع بالابتداء . يقال : خار يخور خوارًا إذا صاح . وكذلك جأر يجأر جُؤارا . ويقال: خَوِر يَخْوَر خَوَرا إذا جبن وضعف .
[تفسير القرطبى : ٧/ ٢٨٤]

صهره وصنع منه تمثال العجل، ولكننا نقف هنا عند قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿حُلِيِّهِمْ﴾ . .كيف يكون لقوم موسى حلى وقد كانوا ضعفاء مستذلين؟ إذن. . لابد أنهم قد احتالوا على آل فرعون عندما جاءتهم آيات العذاب ؛ حتى يطلب بنو إسرائيل من نبيهم موسى أن يدعو لهم الله؛ ليصرف عنهم العذاب، أو أن آل فرعون قد أعطوهم شيئا من حليهم ، فى محاولة لاسترضائهم خلال آيات العذاب التى أصاب الله بها قوم فرعون، وهى: نقص الثمرات،والضفادع،والدم ،والقمل ،والجراد، وغيرها من الآيات ، وعندما هاجر قوم موسى أخذوا معهم هذه الحلى، فلما غرق آل فرعون آلت إليهم ، ماذا فعل السامرى بالحلى؟ أخذها ليصنع لهم منها عجلاً، والعجل هو: ذكر البقر ، وكان للعجل جسد، أى جسم لا روح فيه؛ فالجسد هو بدن لا روح فيه [1] ؛ ولذلك يقال: فلان كالجثة أى كأنه جسد لا روح فيه .

وقوله تعالى: ﴿لَهُ خُوَارٌ﴾ يدل على أن جسد العجل لم تكن فيه الروح التى تعطيه الخوار ، أو الصوت الذى يصدره البقر ؛ ولذلك اضطر

(١) الجسد : جسم الإنسان ، ولا يُقال لغيره من الأجسام المتغذية ، ولا يُقال لغير الإنسان جسد من خلق الأرض . والجسد : البدن ، تقول منه : تَجَسَّد كما تقول من الجسم : تجسَّم . ابن سيده : وقد يُقال للملائكة والجن جسد ، غيره : وكل خلق لا يأكل ولا يشرب من نحو الملائكة والجن مما يعقل ، فهو جسد . وكان عجل بنى إسرائيل جسداً يصيح ، لا يأكل ولا يشرب وكذا طبيعة الجن ، قال عز وجل : ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ﴾ [طه: ٨٨] جسداً بدل من عجل ؛ لأن العجل هنا هو الجسد ، وإن شئت حملته على الحذف ، أى : ذا جسد ، وقوله : ﴿لَهُ خُوَارٌ﴾ يجوز أن تكون الهاء راجعة إلى العجل ، وأن تكون راجعة إلى الجسد ، وجمعه : أجساد ، وقال بعضهم فى قوله : ﴿عِجْلاً جَسَدًا﴾ قال : أحمر من ذهب ، وقال أبو إسحاق فى تفسير الآية : الجسد هو الذى لا يعقل ولا يميّز ، إنما معنى الجسد معنى الجثة فقط . [لسان العرب : ٣/ ١٢٠]

صانعه ـ وهو السامرى ـ أن يجعل فيه فتحات للهواء من الأمام ومن الخلف ؛ ليدخل منها الهواء ويخرج ؛ فيحدث صوتا أشبه بصوت الخوار، وهذه عملية نراها فى الناى مثلا ، حينما تُدخل فيه نَفَسًا من الهواء من ناحية ، وتُخرجه من ناحية أخرى ، يعطيك الصوت الذى تريده، فكأن السامرى حينما صنع العجل صنعه من الذهب ؛ ليكون برَّاقا، وأحدث به فتحات يدخل منها الهواء ويخرج ؛ ليحدث صوتاً مثل الخوار.

ولكن لماذا اختار السامرى العجل دون سائر مخلوقات الله ؟ لأن بنى إسرائيل كانوا خارجين من مصر، وكان المصريون القدماء يعبدون العجل ؛ لميزات فيه، فالمصريون القدماء عبدوا الأشياء التى كانوا يرون فيها خيرا وقوة ، فعبدوا الشمس، وعبدوا النيل ؛ لأن الشمس قوة تبقى لهم مظاهر الحياة على الأرض، والنيل قوة تغمر لهم الأرض بالخير، ويخرج منها الزرع ، ويأتى لها بالخصوبة، والعجل قوة يجر المحراث ويلقح البقرة؛ فتأتى لهم بالخير من عجول تعينهم فى الحياة وزراعة الأرض، وأبقار تعطيهم اللبن والخير (١) . ولكن كيف عبد قوم موسى العجل بعد أن مَنّ الله عليهم بكل هذه النعم ، فأنجاهم من فرعون ،

---

(١) الحيوانات المقدس Sacred Animals : أدهش هذا المظهر من البداية المصرية الإغريق وأدى إلى قسوة الفرس وسخرية الرومان وحنق أباء الكنيسة . نشأت عبادة المصريين للحيوانات ، التى اعتبروها رموزا لآبائهم ، قبل سنة ٣٠٠٠ ق.م. ثم أساءوا فهمها فاعتبروا الحيوانات أكثر من مجرد شعارات أو رموز . ورأوا أن تلك المخلوقات جديرة بالعناية والعبادة ؛ لأنها كانت المكمن الحقيقى للصور النافعة ، أو الخطرة من القوة الإلهية . وكان إله القبيلة يتجسّد فى كل مدينة ، إلى الأبد ، فى حيوان معين يحميه التحريم ، ومن أمثلة تلك الحيوانات : الماشية ، والأغنام ، والكلاب، والقطط ، والقردة، والأسود ، وأفراس النهر ، والتماسيح، والأفاعى ، والصقر، وأبو قردان، والنمس ، وآكل النمل ، والغزلان . =

وأورثهم الأرض ، وأغرق عدوهم ؟

نقول: إن الحق سبحانه وتعالى حين أعطى قوم فرعون كل هذه النعم بمجرد أن عبروا البحر مرّوا على قوم يعبدون أصناما ، فقالوا لموسى: ﴿ اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ﴾ ونسوا أن الإله لا يُجعل، ولكنه

= وفى بعض الأحيان كانوا يتوجون فى المعبد حيوانا ذا علامات خاصة ، مثل العجل أبيس المشهور وزميله منيفيس Mnevis بهليوبوليس ، وبوخيس Buchis فى هرمونيس . وأحيانا كانوا يعنون ببعض أنواعها الممثلة لها « التماسيح فى مدينة التمساح ، وأبو قردان فى هرموبوليس وهكذا » . وظل المصريون يحتفظون بهذه الحيوانات ؛ ليضمنوا بركة الآلهة ورخاء بلادهم فى الحقبة المتأخرة ، عندما انتشرت عبادة الحيوانات المحلية بدرجة جلعت الكتاب الأجانب يسخرون منها . فيقول هيرودوت : إن المصرى ليترك أمتعته تحترق ويخاطر بحياته ؛ لينقذ قطا من لهب الحريق . وقتل العامة مواطنا رومانيا ؛ لأنه قتل قطا . ويرجع تاريخ معظم مومياوات الحيوانات التى لا تحصى ، إلى ذلك العصر . وكانوا يرتبونها إما بحسب السلالات أو كيفما اتفق ، فى القبور أو فى الجبانات الواسعة ، وأحيانا فى قوالب من البرونز تُصنع على صورها . وكان الإعتناء بالأرض المخصصة لدفن الحيوانات من كل نوع ، المقدسة والمدللة والمشردة ، واجبا يفخر به كل مصرى ، فيقول : « أعطيت خبزا للجائع ، وماء للظمآن وثيابا لمن ليس لديه ثياب . واعتنيت بأبى قردان والصقور والقطط والكلاب المقدسة ودفنتها تبعا لما تقضى به الطقوس الدينية ، فدهنتها بالزيت ولففتها فى أكفان من الكتان المنسوج » .

[معجم الحضارة المصرية القديمة : ١٤٥ ، ١٤٦]

ورع Re : ليس الإله رع سوى الشمس نفسها ، وهذه حقيقة واضحة ، إن كانت هناك حقيقة لا تحتاج إلى رمز . ولا شك فى أنه عُبد منذ أقدم العصور فى عدة أماكن من مصر. وكان مقره الرئيسى هليوبوليس حيث كان يرأس « التاسوع العظيم » باسم « أتوم ». وكان نجاحه السياسى متأخرا نسبيا فى التاريخ. ويدل الاسم نبى ـ رع Nebire بمعنى « رع سيدى»، فى الأسرة الثانية ، على أن الناس بدأوا ينتفعون من تأييده. وبعد ذلك بوقت قصير جاء بناء الأهرام، التى كانت أصلا من الآثار الشمسية ، مما يدل على أن عبادة الشمس قد تطرقت إلى العادات الجنائزية. =

هو الخالق والموجد ، ونسوا أن العبادة لابد أن يكون لها منهج، وإلا فكيف ستعبد إلها دون أن يبيّن لك منهج عبادته ؟! والمنهج يكون بواسطة رسل يبلغون رسالات الله للبشر، وأنت تسأل الذين يعبدون الشمس مثلاً، ما هى العبادة التى يقومون بها؟ فالعبادة هى: طاعة العابد للمعبود ،فهل أرسلت الشمس إلى من يعبدونها تقول لهم: هذا منهجى افعلوا كذا ، ولا تفعلوا كذا، من يطيعنى أعددت له كذا ،ومن يعصانى سأعذبه بكذا، هل أعطت الشمس ضوءها وحرارتها لمن عبدوها وحجبتهما عمن لا يعبدونها، بالطبع كل هذا لم يحدث. إذن. . فإبطال كل عبادة لغير الله تأتى بالسؤال عن المنهج، وكل من عُبد من دون الله منذ بداية الخلق حتى نهاية الحياة لا منهج له، إلا أن يضع له البشر منهجه ، كما أنه لا ضر ولا نفع له.

إذن. . فنحن لا نستغرب أن يعبد بنو إسرائيل العجل ؛ لأنهم بمجرد نجاتهم من آل فرعون ، أرادوا أن يتخذوا أصناماً آلهة، ويلفتنا الحق إلى

= ومع ذلك ، فلم يتخذ الملك لقب « ابن رع » ، رسميا ، إلا منذ عصر خفرع . وقد ظلت هذه « القرابة الشمسية » فى الألقاب الملكية ، حتى نهاية التاريخ المصرى. عندما ثبت رسميا أن رع هو الرئيس الرسمى لمجموعة الآلهة الرسمية ، فى الأسرة الخامسة ، لم يمض وقت طويل حتى ظهر منافسون للإله رع . فأولاً ، على المستوى الأسطورى : نتج عن التغيرات السياسية ، التى أدت إلى تثبيت البيت الملكى فى طيبة ، أن ظهر فى المقدمة إله جديد يدعى أمون ، قُدِّر له أن يحظى بالأولوية ، فى الوقت المناسب . ولكن لم يكن من الممكن للمصريين أن يغفلوا اهمية رع أو الشمس التى تسطع فى السماء المصرية ؛ لذا كان على جميع الآلهة التى حظيت بالسيادة العالمية بسبب النجاح السياسى ، أن تتخذ مظهرا شمسيا . فانتصر أمون وخنوم ومونت وسوبك ، بدورهم ، باتخاذهم الصور : أمون ـ رع، وخنوم ـ رع، ومونتو ـ رع ،وسوبك ـ رع .

[معجم الحضارة المصرية القديمة : ١٧٠]

منهج العبادة الذى يجب أن يرسل للبشر لهدايتهم ، فيقول: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ وَلا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً﴾ (١) أى : ألم يفطنوا إلى أنه لا منهج له ولا يهدى للحق، ثم يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٨] أى أنهم كانوا ظالمين حينما أعطوا حق العبودية لجسد عجل، وهذا ظلم فى حق الله؛ ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] ثم يقول الحق تعالى : ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا﴾ [الأعراف: ١٤٩] وهذا دليل على أنه كان بينهم من ذوى البصيرة من نبَّهوهم إلى سفاهة ما فعلوا؛ فندموا على ذلك.

وقوله : ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾ إشارة إلى أن هناك دلالات فطرية فى النفس البشرية ، وضعها الخالق ولم تتبدل أو تتغير حتى الآن، وهذه الدلالات الفطرية لا تختلف فيها أمة عن أمة ، ولا جنس عن جنس، ولا شعب عن شعب، فهناك إشارة مثلا تعنى كلمة : لا ، لا تختلف الأجناس فيها وكذلك كلمة : نعم، والضحك والبكاء لا تختلف الأجناس فيه ، فلا توجد ضحكة أمريكية ، وضحكة أوروبية، ولا يوجد بكاء

---

(١) قال ابن القيم فى قوله تعالى : ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ وَلا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً﴾ [الأعراف: ١٤٨] نبه بهذا الدليل على أن من لا يُكلِّم ، ولا يهدى ، لا يصلح أن يكون إلهًا .

[بدائع التفسير : ٢/ ٢٦٧]

وقال ابن كثير فى قوله تعالى : ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ وَلا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً﴾ ينكر تعالى عليهم فى ضلالهم بالعجل ، وذهولهم عن خالق السموات والأرض ورب كل شيء ومليكه ، أن عبدوا معه عجلا جسدا له خوار ، ولا يكلمهم ولا يرشدهم إلى خير . ولكن غَطَّى على أعين بصائرهم عمى الجهل والضلال .

[عمدة التفسير : ٥/ ٢٢٣]

أفريقى ، وبكاء آسيوى؛ فبمجرد سماعك الصوت من أى إنسان تعرف إذا كان يضحك أو يبكى دون أن يخبرك أحد، فهذه دلالات فطرية، وكذلك من التصرفات الفطرية فى كل الأمم ، أنه إذا فعل إنسان ما شيئا، ما كان يصح أن يفعله، يعضّ أنامل الندم: أى يقبض على أنامله بأسنانه بشدة؛ واقرأ قول الحق سبحانه : ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً ﴾ [الفرقان: ٢٧] وكأن الندم قد بلغ أشده منهم لما أحسوا بعظم جريمتهم، وهذا معنى قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٩] أى أنهم حينما أحسوا بالجريمة الكبرى التى ارتكبوها ، طلبوا رحمة الله وغفرانه ، وبقوا كذلك حتى عاد إليهم موسى، وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا ﴾(١) [الأعراف: ١٥٠].

فكأن موسى قد عاد إليهم وهو فى حالة شديدة من الغضب والأسف، مما يدل على أنه أُخبر من الله بما حدث، والغضب هو: ثورة من عدم الرضا، والأسف هو الحزن، وهى عملية نفسية تحدث داخل نفس الإنسان، وتصنع فيها انفعالات الغضب، ولذلك هناك فرق بين من يحزن ويكبت فى نفسه، وبين من يحزن ثم ينفجر غاضباً، وساعة انفجار الغضب تنتفخ الأوداج ويحمرّ الوجه، وتصبح العينان فى وضع خاص،

---

(١) قال السيوطى: عن ابن عباس فى قوله : ﴿ غَضْبَانَ أَسِفًا ﴾ قال : حزينا ، وفى الزخرف: ﴿ فَلَمَّا آسَفُونَا ﴾ [الزخرف: ٥٥] يقول: أغضبونا ، والأسف على وجهين: الغضب والحزن . [الدر المنثور : ٣ / ٥٦٤]

وقال ابن كثير: قال أبو الدرداء: الأسف: أشد الغضب. [تفسير ابن كثير: ٢/ ٢٣٨]

واليدان فى وضع خاص، ويظهر الهياج مستمرا ، هذا هو الغضب، ولقد قدم الحق سبحانه وتعالى الغضب على الأسف؛ لأن موسى رسول من عند الله ، مرسل بمنهج ، ومؤيد بمعجزات، فإذا حدث وعلم أن قومه قد خالفوا كل هذا؛ فإنه يصاب بغضب شديد يملؤه، إذن فكل شعور له ثلاث مراحل: مرحلة إدراك، ومرحلة هياج فى النفس، ثم مرحلة الحركة ، تماما كما ترى الوردة ، عندما تراها هذا إدراك ، ثم تسر من شكلها فتثير السرور فى نفسك ، هذا وجدان مشاعر فى النفس، ثم تمدّ يدك لتقطفها هذه حركة أو نزوع ، والتشريع لا يحاسب على الإدراك، ولا يحاسب على الوجدان ولكن ساعة تمد يدك لتقطفها يقال لك : لا ، هذه ليست ملكك فلا تمد يدك إليها، عملية الهياج النفسى عند موسى لا تظهر، فهى داخل نفسه، وإنما الغضب هو الذى سيظهر؛ ولذلك أول ما يرى القوم من موسى هو غضبه، أما أسفه فهو الحزن داخل نفسه ، وقد قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿أَسِفًا﴾ [الأعراف: ١٥٠] استخداما لصيغة المبالغة ؛ ليلفتنا إلى الحزن الشديد الذى كان فى نفس موسى.

ثم تأتى بعد ذلك مظاهر الغضب، يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٥٠] أى أنه أراد أن يعبّر لهم عن قبح ما فعلوه بعد أن تركهم؛ فقال بئس ما فعلتم أى خزيًا وعارا، ثم قال أعجلتم أمر ربكم ،أى هل استبطأتم عودتى إليكم بعد ميقات ربكم؛ حيث إنه قد تأخر عشرة أيام، أى حينما أبطأت فى العودة إليكم اعتقدتم أننى لن أعود ، فبدأتم تبتعدون عن المنهج مع أن بطئى فى العودة لم يكن يؤدى إلى ذلك ؛ لأنكم تعبدون الله ولا تعبدوننى .

ولذلك عندما انتقل الرسول ﷺ إلى جوار ربه قال أبو بكر رضى الله

عنه وهو يرى الصدمة الشديدة فى وجوه المؤمنين تكاد تهز إيمانهم ، قال: من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حىٌّ لا يموت [1] .

فكأن موسى يقول لهم هل اعتقدتم أننى حين تأخرت عليكم قد مت، فيموت المنهج معى، مع أنكم تعبدون الله ولا تعبدوننى.

والله سبحانه وتعالى يعطينا صورة عن كيفية عودة موسى ، كان عائدا ويحمل معه الألواح التى كتب الله فيها له قمة المنهج ؛ مصداقا لقوله

---

(١) عن عائشة رضى الله عنها زوج النبى ﷺ قالت : « أقبل أبو بكر رضى الله عنه على فرسه من مسكنه بالسُّنح [1] حتى نزل فدخل المسجد فلم يُكلِّم الناس حتى دخل على عائشة رضى الله عنها ، فتيمم[2] النبى ﷺ وهو مُسجًّى [3] ببرد حبرة[4] ـ فكشف عن وجهه ، ثم أكبَّ عليه فقبله ، ثم بكى فقال : بأبى أنت وأمى يا نبى الله ، لا يجمع الله عليك موتتين : أما الموتة التى كتبت عليك فقد متَّها» . قال أبو سلمة : فأخبرنى ابن عباس رضى الله عنهما « أن أبا بكر رضى الله عنه خرج وعمر رضى الله عنه يُكلِّم الناس فقال : اجلس ، فأبى . فقال : اجلس، فأبى . فتشهد أبو بكر رضى الله عنه ، فمال إليه الناس وتركوا عمر ، فقال : أمّا بعد فمن كان منكم يَعبد محمداً ﷺ، فإن محمدا ﷺ قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حىٌّ لا يموت ، قال الله تعالى : ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤] والله لكأن الناس لم يكونوا يعلمون أن الله أنزل الآية حتى تلاها أبو بكر رضى الله عنه ، فتلقَّاها منه الناس ، فما يُسمع بشرا إلا يتلوها » .

أخرجه البخارى [١٢٤١ ، ١٢٤٢ ، ٤٤٥٢ ، ٤٤٥٣]

---

(١) السُّنح : موضع بعوالى المدينة ، فيه منازل بنى الحارث بن الخزرج .

(٢) تيمم النبى ﷺ : أي قصد النبى ﷺ .

(٣) مسجًّي : مغطى .

(٤) ببرد حبرة : هو نوع من برود اليمن ، مخططة غالية الثمن .

تعالى: ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [الأعراف: ١٤٥] أراد الحق أن نعرف أن موسى قد عاد إلى قومه يحمل الألواح ، فقال: ﴿ وَأَلْقَى الأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ ﴾ [الأعراف: ١٥٠] أى أن غضب موسى انصبَّ على أخيه هارون؛ فأخذ برأسه وقد أعماه الغضب عن الأخوة، وأخذ يجرُّه إليه، ماذا كان ردّ هارون؟ ﴿ قَالَ ابْنَ أُمَّ ﴾ [الأعراف: ١٥٠] يعنى: يا ابن أمى ، ولماذا لم يقل يا ابن أمى وأبى؟ لأن أبا موسى وهارون طُوِى اسمه ، ولم يذكر فى تاريخ النبوات ، بينما ذكرت أمه وهى تلقيه فى اليمّ والله يردّه إليها، ولأن الأمومة هى مستقر الأرحام، فالإخوة من الأم يربط بينهم صلة الرحم؛ ولذلك فإن الحنان بين الإخوة من الأب والأم، والإخوة من الأم، أما الإخوة من الأب فالحنان فيهم أقل، فكأن هارون يذكِّر موسى بصلة الرحم، ثم يحاول أن يبرر له ما حدث فيقول: ﴿ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلا تُشْمِتْ بِيَ الأَعْدَاءَ ﴾ [الأعراف: ١٥٠] أى أن هارون يريد أن يقول لموسى: إننى وقفت ضد هؤلاء الذين عبدوا العجل، ووقفت ضدهم بقوة، حتى وصلت المسألة إلى أنهم كادوا يقتلوننى، وقوله تعالى: ﴿ فَلا تُشْمِتْ بِيَ الأَعْدَاءَ ﴾ الشماتة هى: إظهار الفرح لمصيبة تقع على خصم، والأعداء هم الذين عبدوا العجل، ووصفهم بالأعداء دليل على أن هارون وقف منهم موقف العداوة ،وأن ما يفعله موسى سيجعلهم يشمتون.

الحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ

أخيه يجره إليه قال ابن أم إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني فلا تشمت بي الأعداء ولا تجعلني مع القوم الظالمين ﴾(١) وقلنا إن رجوع موسى إلى قومه وهو غضبان أسفا، يدل على أن الله أخبره بما حدث قبل أن يعود، وفي ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى عن إخباره لموسى بما حدث: ﴿ فإنا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامري ﴾ [طه: ٨٥] فكأن غضب موسى

(١) قال الشوكاني في : قوله : ﴿ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفا﴾ هذا بيان لما وقع من موسى بعد رجوعه . وانتصاب غضبان وأسفًا على الحال . والأسف : شديد الغضب . قيل : هو منزلة وراء الغضب اشد منه . وهو أسف وأسيف وأسفان وأسوف . قال ابن جرير الطبري : اخبره الله قبل رجوعه بأنهم قد فتنوا ؛ فلذلك رجع وهو غضبان أسفا .

﴿ قال بئسما خلفتموني من بعدي﴾ هذا ذم من موسى لقومه ، اى بئس العمل ما عملتموه من بعدى ، اى من بعد غيبتى عنكم ، يقال : خلفه بخير وخلفه بشر، استنكر عليهم ما فعلوه ، وذمهم لكونهم قد شاهدوا من الآيات ما يوجب بعضه الانزجار والإيمان بالله وحده ، ولكن هذا شأن بنى إسرائيل فى تلون حالهم واضطراب افعالهم . ثم قال منكرًا عليهم: ﴿أعجلتم أمر ربكم ﴾ والعجلة : التقدم بالشيء قبل وقته . يقال : عجلت الشيء سبقته ، واعجلت الرجل : حملته على العجلة والمعنى : أعجلتم عن انتظار أمر ربكم ؟ اى ميعاده الذى وعدنيه ، وهو الأربعون ، ففعلتم ما فعلتم . وقيل معناه : تعجلتم سخط ربكم . وقيل : اعجلتم بعبادة العجل قبل أن يأتيكم أمر ربكم .

﴿وألقى الألواح ﴾ اى طرحها لما اعتراه من شدة الغضب والأسف ، حين اشرف على قومه وهم عاكفون على عبادة العجل .

قوله : ﴿وأخذ برأس أخيه يجره إليه﴾ اى اخذ براس أخيه هارون ، او بشعر راسه حال كونه يجره إليه . فعل به ذلك لكونه لم ينكر على السامرى ولا غيره ، ما رآه من عبادة بنى إسرائيل للعجل ، فقال هارون معتذرًا منه : ﴿ابن أم إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني﴾ اى إنى لم أطق تغيير ما فعلوه لهذين الأمرين ، استضعافهم لى ومقاربتهم لقتلى . وإنما قال: ﴿ابن أم﴾ مع كونه اخاه من أبيه وأمه؛ لأنها كلمة لين وعطف ، ولأنها كانت كما قيل مؤمنة .

كان قبل عودته ، عندما عرف ما حدث لقومه.

وقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ ﴾(١) [الأعراف: ١٥٠] دليل

= قوله : ﴿ فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ ﴾ الشماتة : السرور من الأعداء بما يصيب من يعادونه من المصائب ومنه قوله ﷺ : « اللهم إنى أعوذ بك من سوء القضاء(١) ، ودرك الشقاء(٢) ، وجهد البلاء(٣)، وشماتة الأعداء(٤) » ، وهو فى الصحيح(٥) . ومنه قول الشاعر :

إذا ما الدهر جر على أناس　　كلا كله أناخ بآخرينا
فقل للشامتين بنا أفيقوا　　سيلقى الشامتون كما لقينا

والمعنى : لا تفعل بى ما يكون سببا للشماتة منهم . وقرأ مجاهد ومالك بن دينار : « فلا تَشمت بى الأعداء » بفتح حرف المضارعة ، وفتح الميم ، ورفع الأعداء ، على أن الفعل مسند إليهم ، أى لا يكون ذلك منهم لفعل تفعله بى . وروى عن مجاهد أنه قرأ : « تشمت » كما تقدم عنه مع نصب الأعداء .

قال ابن جنى : والمعنى فلا تشمت بى أنت يارب وجاز هذا كما فى قوله : ﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ ونحوه ، ثم عاد إلى المراد فأضمر فعلا نصب به الأعداء ، كأنه قال : ولا تشمت يارب بى الأعداء . وما أبعد هذه القراءة عن الصواب، وأبعد تأويلها عن وجوه الإعراب .

قوله : ﴿ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ اى لا تجعلنى بغضبك على فى عداد القوم الظالمين . يعنى : الذين عبدوا العجل ، أو لا تعتقد أنى منهم .

[فتح القدير: ٢/ ٢٦٠، ٢٦١]

(١) قال السيوطى: عن ابن عباس قال : أعطى الله موسى التوراة فى سبعة ألواح من زبرجد ، فيها تبيان لكل شىء وموعظة التوراة مكتوبة ، فلما جاء بها فرأى =

(١) سوء القضاء : يدخل فيه سوء قضاء الدين فى الدين والدنيا والبدن والمال.

(٢) درك الشقاء : والمشهور فيها بفتح الراء، ومعناه : أعوذ بك أن يدركنى الشقاء.

(٣) جهد البلاء : فسره ابن عمر: بقلّة المال ، وكثرة العيال ، وقال غيره : هى الحالة الشاقة.

(٤) شماتة الأعداء : هى فرح العدو ببليّة تنزل بعدوه.

(٥) أخرجه البخارى [٦٦١٦] عن أبى هريرة، بلفظ: «تعوّذوا بالله من جهد البلاء ودرك الشقاء وسوء القضاء وشماته الأعداء» ، وأخرجه مسلم [٢٧٠٧/ ٥٣]

على أنه عاد ويحمل الألواح التى كتب الله له فيها المنهج، وعملية إلقاء الألواح تصور لنا الغضب الشديد الذى انتاب موسى ، حتى إنه بمجرد أن رأى أخاه هارون ألقى الألواح، وأمسك برأسه يجرّه إليه، ولا تقل إن موسى فى تصرفه هذا كان يلوم أخاه هارون ؛ لأن هارون رسول مثله، ولكنه أراد أن يُسمعنا ويُسمع الدنيا كلها ، أن هارون قاوم هذا التيار الإلحادى حتى كادوا يقتلونه.

= بنى إسرائيل عكوفا على العجل ، فرمى التوراة من يده فتحطمت ، وأقبل على هارون فأخذ برأسه ، فرفع الله منها ستة أسباع وبقى سبع ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ قال : فيما بقى منها . [الدر المنثور : ٣/ ٥٦٦]

* إخبار الله لموسى بما جرى *

بعد ذلك أراد الحق سبحانه أن يخبر موسى بما حدث فى قومه بعد أن تركهم، قال سبحانه: ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾(1) [طه: ٨٥] فبعد أن خرج موسى لميقات ربه فعل السامرى فعلته، فالله أخبر موسى أنه تعالى فتن قومه بعد خروجه، والفتنة هى: الاختبار وهى ليست مذمومة، ولكن المذموم هو الغاية من هذه الفتنة أو الاختبار ، فالنتيجة هى التى تحدد ضرر الفتنة أو نفعها، وذلك مثل الامتحان الذى يجرى للتلاميذ فى المدارس، وهناك أشياء إذا تحققت مصلحة الفرد فيها، هدمت مصلحة الجماعة، فلو أن تلميذًا اختبرناه ولم ينجح؛ لأنه لم يُجب الإجابة الصحيحة، فلو أننا نجحناه دون أن يذاكر أو يجيب إجابة صحيحة ، ماذا يحدث؟ هو سينتفع بالنجاح وهو واحد وإن كان انتفاعا أحمقَ، ولكن فى العام القادم لن يذاكر أحد. إنهم سيقولون لماذا نتعب أنفسنا إذا كان النجاح مضمونا، فغيرنا نجحوا بغير مذاكرة، فهنا يخسر المجتمع.

والحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿الٓمٓ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا

---

(1) قال الطبرى فى قوله تعالى : ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ يقول الله تعالى ذكره قال الله لموسى : فإنا يا موسى قد ابتلينا قومك من بعدك بعبادة العجل ؛ وذلك كان فتنتهم من بعد موسى . ويعنى قوله : ﴿مِنْ بَعْدِكَ﴾ من بعد فراقك إياهم . يقول الله تبارك وتعالى : ﴿وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ وكان إضلال السامرى إياهم دعاءه إياهم إلى عبادة العجل . .

[تفسير الطبرى : ١٦/١٩٦]

آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ﴾(1) [العنكبوت: ١، ٢] فهذا غير ممكن، بل لابد من الاختبار والفتنة؛ حتى يعطى الحق سبحانه النتيجة على هذا الاختبار، وهو سبحانه لا يختبرنا ليعلم ما نحن عليه؛ لأنه عالم بنا قبل أن نوجد فى الدنيا، ولكنه يختبرنا ليعلم الناس، فيعاملون كل واحد على مقتضى حاله، فالاختبار للناس لا ليعلم الله، ولكن ليعلم خلق الله؛ لأن الله عالم بكل شئ، أو أن الاختبار من الله لقطع الحجة على الإنسان المختبر، فربما يقول واحد : لو أعطانى ربى الفرصة لكنت إنساناً طائعا ومتصدقا وتقيا ... إلخ، فحينما يعطيه الله الفرصة يختبره، ويقطع عليه الحجة. إذن هناك علم الله، وعلم من خلق الله على كل من يفتن، فإن كان محسنًا اقتدوا به، وأقبلوا عليه وأحبوه واحترموه، وسمعوا كلامه، وإن كان مسيئًا ومفسداً اجتنبوه وابتعدوا عنه.

ولذلك فالله تعالى سمى ما حدث لبنى إسرائيل فتنة، ونسبها إلى ذاته تعالى، فقال: ﴿ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ ﴾ [طه: ٨٥] أى اختبرنا قومك

---

(١) يقول الشوكانى : ﴿ أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ﴾ اى وهم لا يُبتَلون فى أموالهم وأنفسهم ؛ وليس الأمر كما حسبوا ، بل لابد أن يختبرهم؛ حتى يتبين المخلص من المنافق ، والصادق من الكاذب ، فالآية مسوقة لإنكار ذلك الحسبان واستبعاده . وبيان أنه لابد من الامتحان بأنواع التكاليف وغيرها . قال الزجاج : المعنى : أحسبوا أن نقنع منهم بأن يقولوا : إنا مؤمنون فقط ، ولايمتحنون بما تتبين به حقيقة إيمانهم ؟ وهو قوله : ﴿ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ﴾ . قال السدى وقتادة ومجاهد: أى لا يُبتلون فى أموالهم وأنفسهم بالقتل والتعذيب ، وسيأتى فى بيان سبب نزول هذه الآيات ما يوضح معنى ما ذكرناه ، وظاهرها شمول كل الناس من أهل الإيمان، وإن كان السبب خاصا، فالاعتبار بعموم اللفظ كما قررناه غير مرة . قال ابن عطية: وهذه الآية وإن كانت نازلة فى سبب خاص، فهى باقية فى أمة محمد ﷺ ،موجود حكمها بقية الدهر ، وذلك أن الفتنة من الله باقية فى ثغور المسلمين بالأسر، ونكاية العدو وغير ذلك . [فتح القدير: ٤/ ١٨٥، ١٨٦]

لكن السامرى أضلهم، ومعنى أضلهم، أى: سلك بهم طريقا غير طريق الحق. وسلوك غير طريق الحق قد يكون للذاتية المحضة، فإن سلك هو يكون قد ضل وحده، ولكن إن أضل غيره يكون عليه وزرهم، فعليه وزر ضلاله ووزر إضلاله للغير، ولذلك الحق سبحانه يقول: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلا سَاءَ مَايَزِرُونَ﴾(1) [النحل: ٢٥] بعض المستشرقين يعترضون على القرآن، ويقولون: كيف يقول القرآن: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم﴾ مع أنه يقول فى آية أخرى: ﴿وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾(2) [الأنعام: ١٦٤] نقول لهم: أنتم لا تفهمون اللغة العربية؛ لأنكم تأخذون اللغة كصناعة، وليس كملكة فطرية، وإلا كنتم فرقتم بين أن

(١) قال الشوكانى ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً﴾ اى قالوا هذه المقالة لكى يحملوا أوزارهم كاملة، لم يكفر منها شئ لعدم إسلامهم الذى هو سبب لتكفير الذنوب. وقيل : إن اللام هى لام العاقبة ؛ لأنهم لم يصفوا القرآن بكونه أساطير لأجل يحملون الأوزار، ولكن لما كان عاقبتهم ذلك حسن التعليل به، كقوله : ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ وقيل : هى لام الأمر ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم﴾ اى ويحملون بعض أوزار الذين أضلوهم ؛ لأن من سنَّ سُنَّة سيئة، كان عليه وزرها ووزر من عمل بها. وقيل: «من» للجنس، لا للتبعيض، أى يحملون كل أوزار الذين يضلونهم. ومحل ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ النصب على الحال من فاعل ﴿يُضِلُّونَهُم﴾ اى: يضلون الناس جاهلين غير عالمين بما يدعونهم إليه. ولا عارفين بما يلزمهم من الآثام. وقيل: إنه حال من المفعول. اى يضلون من لا علم ل. ومثل هذه الآية:﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾[العنكبوت: ١٣] وقد تقدم فى الأنعام الكلام على قوله: ﴿وَلاتَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤] ﴿أَلا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ اى بئس شيئا يزرونه ذلك . [فتح القدير : ٣/ ١٦٠]

(٢)قال ابن عطية: ﴿وَلا تَزِرُ﴾ أى لا تحمل وازرة -أى حاملة -حمل أخرى وثقلها ،=

يضلّ فى ذاته، فهذا عليه وزر، وأن يتسبب فى إضلال غيره، فهذا وزر آخر.

والسامرى اسمه موسى السامرى[1] ،وموسى لما سمع بهذه الفتنة فى قومه، رجع إليهم غاضباً قال تعالى: ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي﴾ [طه: ٨٦] كلمة «رجع» تستعمل مرة لازمة، مثل رجع فلان إلى الحق، وتستعمل متعدية، مثل قوله تعالى: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ﴾ [التوبة: ٨٣] والمعنى يختلف، فتقول: «رجع فلان» إذا كان الأمر من جهته، وتقول: «رجعناك» إذا كان الأمر ليس من عنده هو.

ومعنى أسفا أى عنده حزن شديد على ما حدث من قومه ، وسألهم:

= والوزر أصله الثقل ، ثم استعمل فى الإثم؛ لأنه ينقض الظهر تجوُّزاً واستعارة، يقال منه : وزر الرجل يزر فهو وازر، ووزر يوزر فهو موزور .

[المحرر الوجيز :٢/ ٣٧٠]

(١) قال ابن جماعة فى قوله تعالى : ﴿وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ [طه: ٨٥] هو : موسى ابن ظفر (١)، وقيل : ميخا من طائفة يقال لها سامرة، فنافق بعد ما قطعوا البحر (٢) ، وقيل : كان قبطياً من جيران موسى (٣) ، وقيل هو : من أهل باجر قرية من عمل الموصل من قوم يعبدون البقر (٤). [غرر التبيان : ٣٣٨]

---

(١) أخرجه ابن أبى حاتم عن ابن عباس ونقله السيوطى فى مبهماته.

(٢) قاله ابن السائب وقال الألوسى : «وبالجملة كان عند الجمهور منافقاً يظهر الإيمان، ويبطن الكفر».

(٣) أورد ذلك القرطبى بغير عزو.

(٤) هذا قول وهب بن منبه رضى الله عنه كما ذكره ابن الجوزى.

﴿يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا﴾[1] بأن يعطيكم التوارة فيها أصول حركة الحياة، وفيها المنهج الذى يحسن حياتكم فى دنياكم، ويحسن ثوابكم فى الآخرة.

ومعنى: ﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ﴾ هل عهدى طال بكم لدرجة أن تنسوا تعاليم ربكم؟ فأنا لم أغب عنكم إلا بضعة وثلاثين يوماً ، فأنا لم أغب عنكم كثيراً. . أم أنكم تريدون أن ينزل عليكم غضب الله، وإذا كنت بينكم ولم أغب عنكم إلا مدة قصيرة فماذا ستفعلون من بعدى؟ فموسى يستنكر على قومه أن يضلوا، وهو يعيش معهم ولم يغب عنهم إلا أقل من أربعين يوما ذهب فيها لميقات ربه، ولذلك النبى ﷺ لما حدث خلاف بين الأوس والخزرج وتذكروا الحروب القديمة والعدوات التى بينهم، وعلم النبى بذلك قال: « أبدعوى الجاهلية وأنا بين ظهرانيكم» [2] أى: كيف يحدث ذلك وأنا مازلت بينكم ؟

ومعنى :﴿فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي﴾ يشير إلى أن موسى كان له موعد مع

---

(١) قال ابن كثير : ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا﴾ [طه: ٨٦] أى أما وعدكم على لسانى كل خير فى الدنيا والآخرة، وحسن العاقبة كما شاهدتم من نصرته إياكم على عدوكم، وإظهاركم عليه، وغير ذلك من أيادى الله ؟ ﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ﴾ أى فى انتظار ما وعدكم الله ونسيان ما سلف من نعمه، وما بالعهد من قدم ﴿أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أم ههنا بمعنى بل، وهى للإضراب عن الكلام الأول، وعدول إلى الثانى، كأنه يقول: بل أردتم بصنيعكم هذا أن يحل عليكم غضب من ربكم؛ فأخلفتم موعدى . [تفسير ابن كثير : ٣/١٥٧]

(٢) قال تعالى : ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران: ١٠٣] وقال ابن كثير: وقد ذكر محمد بن إسحاق بن يسار وغيره : أن هذه الآية نزلت فى شأن الأوس والخزرج. وذلك أن رجلاً من اليهود =

قومه، حيث أوصاهم قبل أن يذهب لميقات ربه، وقال لهم: اسلكوا طريق هارون، واستمعوا لأوامره حتى أرجع، فهو الذى سيخلفنى فيكم، فكأن موسى عليه السلام يقول لهم: حتى وإن طال عليكم العهد منى فمعكم هارون، وهو ليس فردا عاديا، ولكن الله أشركه فى الرسالة معى، فكان يجب أن يكون له مهابة الرسالة، وأن تسمعوا له وتطيعوا.

هنا القوم ردّوا على موسى بقولهم: ﴿مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ﴾[1] [طه: ٨٧]

مادة الميم واللام والكاف «ملك» تفيد الحيازة والتملك، لكن مرة لا يملك

= مرّ بملأ من الأوس والخزرج فساءه ما هم عليه من الاتفاق والألفة، فبعث رجلا معه وأمره أن يجلس بينهم ويذكر لهم ما كان من حروبهم يوم بعاث وتلك الحروب، ففعل، فلم يزل ذلك دأبه حتى حميت نفوس القوم وغضب بعضهم على بعض وتثاوروا، ونادوا بشعارهم وطلبوا أسلحتهم وتواعدوا إلى الحرة، فبلغ ذلك النبى ﷺ فأتاهم، فجعل يسكنهم، ويقول: «أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم؟» وتلا عليهم هذه الآية فندموا على ما كان منهم، واصطلحوا وتعانقوا وألقوا السلاح رضى الله عنهم.

وذكر عكرمة: أن ذلك نزل فيهم حين تثاوروا [1] فى قضية الإفك. والله أعلم.

[تفسير ابن كثير: ١/٣٦٨] وانظر السيرة النبوية لابن هشام [٤/١٩٩]

(١) قال الشوكانى: ﴿قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ﴾ [طه: ٨٧] الذى وعدناك ﴿بِمَلْكِنَا﴾ بفتح الميم، وهى قراءة نافع وأبى جعفر وعاصم وعيسى بن عمر، وقرأ ابن كثير وأبوعمرو وابن عامر بكسر الميم، واختار هذه القراءة أبو عبيد وأبو حاتم؛ لأنها على اللغة العالية الفصيحة، وهو مصدر ملكت الشئ أملكه ملكاً، والمصدر مضاف إلى الفاعل، والمفعول محذوف، أى بملكنا أمورنا، أو بملكنا الصواب، بل أخطأنا ولم نملك أنفسنا، وكنا مضطرين إلى الخطأ، وقرأ حمزة والكسائى: «بمُلكنا» بضم الميم، والمعنى: بسلطاننا، أى لم يكن لنا ملك فنخلف موعدك. وقيل: إن الفتح=

---

(١) ثوّرتَ الأمر: بحثته. وثور القرآن: بحث عن معانيه وعن علمه. [لسان العرب: ٤/ ١١٠]

الإنسان فيها إلا نفسه فقط، ولا يملك ما حوله، أى يملك ذاته فى الإرادة فقط، ولا يكون له ملك آخر، إذن هناك ملك «بفتح الميم وسكون اللام»: وهو الأمر الذاتى للنفس، مثل قولك: أنا ملك آخر لا أقدر إلا على نفسى فقط. وهناك مِلك «بكسر الميم» وهو أن يكون لك أشياء خارجة عن ذاتك تملكها، مثل: الثروة والعقارات وغيرها، أما المُلك «بضم الميم» فهو أن تملك شيئاً وتملك من ملكه، فهذا هو الملك.

بعض الناس يقولون: إن هذه مرادفات نقرأها بفتح الميم أو كسرها أو ضمها، ولكننا نقول لهم: لا، فكل واحدة لها معنى كما أوضحنا، فمعنى ﴿مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا﴾ أى نحن لم نخلف موعدك بإرادتنا، لكن حدثت أشياء أقوى منا، والأوزار: جمع وزر، والوزر : هو الشئ الثقيل

= والكسر والضم فى : «بملكنا» كلها لغات فى مصدر ملكت الشئ.

﴿وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ﴾ قرأ نافع وابن كثير وابن عامر وحفص وأبو جعفر ورويس : ﴿حُمِّلْنَا﴾ بضم الحاء وتشديد الميم ، وقرأ الباقون بفتح الحاء والميم مخففة، واختار هذه القراءة أبو عبيد وأبو حاتم؛ لأنهم حملوا حلية القوم معهم باختيارهم، وما حملوها كرهاً، فإنهم كانوا استعاروها منهم حين أرادوا الخروج مع موسى، وأوهموهم أنهم يجتمعون فى عيد لهم أو وليمة. وقيل : هو ماأخذوه من آل فرعون لما قذفهم البحر إلى الساحل، وسميت أوزاراً ، أى آثاماً؛ لأنه لا يحل لهم أخذها، ولا تحل لهم الغنائم فى شريعتهم، والأوزار فى الأصل : الأثقال ، كما صرح به أهل اللغة ، والمراد بالزينة هنا : الحلى. ﴿فَقَذَفْنَاهَا﴾ أى طرحناها فى النار طلباً للخلاص من إثمها . وقيل : المعنى : طرحناها إلى السامرىّ لتبقى لديه، حتى يرجع موسى فيرى فيها رأيه ﴿فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ﴾ أى فمثل ذلك القذف ألقاها السامرى، قيل : إن السامرىّ قال لهم حين استبطأ القوم رجوع موسى . إنما احتبس عنكم لأجل ما عندكم من الحلىّ ، فجمعوه ودفعوه إليه، فرمى به فى النار وصاغ لهم منه عجلاً ، ثم ألقى عليه قبضة من أثر الرسول وهو جبريل . [فتح القدير : ٣/ ٣٨١]

الحمل على النفس، كما يطلق الوزر على الإثم؛ لأنه يثقل على النفس ثقلاً يتعهدها فى الآخرة أيضا.

ولكن ما هى الأوزار التى حملوها؟ هذه الأوزار كانت من زينة القوم، وهم قوم فرعون، وقصتها: أنهم كانوا فى أعيادهم يستعير كل واحد من بنى إسرائيل شيئا من حلى القبط؛ يتزين به فى أيام الأعياد، وقد أخذوا هذه الحلى ولم يستطيعوا أن يردّوها إلى أصحابها؛ لأنهم أرادوا أن يُسِرّوا ساعة خروجهم؛ حتى لا يستعد أحد لصدهم ومنعهم من الخروج .

وقال بعض العلماء: إن هذه الحلى والزينات هى الأشياء التى قذف بها البحر، بعد أن غرق من غرق من قوم فرعون، ولكن لو كانت هذه الحلى من الأسلاب التى أخذها القوم بعد غرق قوم فرعون لما كانت أوزارا.

إذن.. هى الأولى وهى أنهم استعاروا هذه الحلى من قوم فرعون؛ ليتحلوا بها فى عيدهم، ولم يستطيعوا ردها لأصحابها عند خروجهم؛ خشية أن يعلم بهم أحد، فيتمكن فرعون وقومه من ردهم.

وإذا أطلقت الزينة تنصرف دائما إلى الذهب.

ومعنى قذفناها: القذف: هو الرمى بشدة، وكأن الرامى يتأفف من حمل هذا الشئ، فبنو إسرائيل قذفوا هذه الحلى، وهذا دليل على أن عندهم ساعتها إيمانا؛ لأنهم غضبوا لأخذهم هذه الأمانات وعدم استطاعتهم ردّها لأصحابها، ولذلك موسى السامرى دخل عليهم من هذه الناحية، فقال لهم: لن تبرأوا من هذا الذنب إلا بأن تلقوا هذه الحلى فى النار، مع أنه كان يقصد إلى شئ آخر، وهو أن الذهب سينصهر، ويخرج منه الخبث، فمثلا الذهب عيار (٢٤) لا يخرج منه شيء لأنه ذهب خالص، أما عيار (٢٣) أو (٢١) أو (١٨) كل هذا إذا وضع فى النار، يخرج منه المعدن المضاف إليه.

وإذا أمعنا النظر فى السياق القرآنى نجد، قول الحق سبحانه: ﴿فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ﴾فعندما تحدث عن بنى إسرائيل قال: ﴿فَقَذَفْنَاهَا﴾ وعند الحديث عن السامرى قال:﴿أَلْقَى﴾، والإلقاء فيه لطف عن القذف.

ثم يقول تعالى: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾ [طه: ٨٨] فالقوم حينما ألقوا الحلى فى النار لابد أنها انصهرت، ولكنها لا يمكن أن تتشكل على هيئة عجل، إلا إذا كان للسامرى عمل فيها، فصنعها على هيئة عجل ولكن لماذا العجل بالذات؟ قالوا: لأن بنى إسرائيل بعد أن جاوزوا البحر ، وجدوا قوما يعكفون على أصنام لهم، فقالوا لموسى عليه السلام : ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ إذن. . تشوقهم إلى الوثنية والصنمية موجود، فالسامرى استغل هذا التشوق ولم يصنع لهم صنماً من حجر، ولكنه صنع ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ﴾ والخوار: صوت البقر، وقيل: إنه صنعه بطريقة خاصة، بحيث إذا دخل الهواء من جهة يخرج من الأخرى ، ويعطى صوتا مثل خوار البقر، كما يحدث الآن فى بعض المزامير، فهذا فن وصنعة، وقوله: ﴿عِجْلًا جَسَدًا﴾كلمة جسد ذكرها الحق سبحانه وتعالى فى حالتين اثنتين. فى الآية السابقة وفى قصة سليمان عليه السلام فى قوله تعالى:﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا

---

(١) يقول أبو حيان فى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا﴾ : نقل المفسرون فى هذه الفتنة وإلقاء الجسد أقوالاً يجب براءة الأنبياء منها، يوقف عليها فى كتبهم ، وهى مما لا يحل نقلها، وأما هى من أوضاع اليهود والزنادقة ، ولم يبين الله الفتنة ما هى، ولا الجسد الذى ألقاه على كرسى سليمان. وأقرب ماقيل فيه : أن المراد بالفتنة كونه لم يستثن فى الحديث الذى قال: «لأ طوفنّ الليلة على =

سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾(١) ومعنى ﴿فَتَنَّا﴾ أى: اختبرنا. نحن نعرف أن سليمان سخَّر الله له الريح، تجرى بأمره رخاء حيث أصاب، وسخَّر له الجن، يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان . . . إلخ.

وكان له جنوده من الجن والإنس والطير، كان عليه السلام له ملك عظيم لم يحدث لأحد من بعده.

فيبدو أن سليمان حدث له شئ من السرور الزائد بهذا الملك «ولا نقول الغرور لأن هذا لا يصح فى حق الأنبياء» فأراد الحق أن يلفته إلى معطى

= سبعين امرأة ، كل واحدة تأتى بفارس يجاهد فى سبيل الله ، ولم يقل إن شاء الله، فطاف عليهن ، فلم تحمل إلا امرأة واحدة ، وجاءته بشق رجل». قال رسول الله ﷺ : « والذى نفسى بيده، لو قال إن شاء الله لجاهدوا فى سبيل الله فرساناً أجمعون»(١). فالمراد بقوله : ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا﴾ هو هذا، والجسد الملقى هو المولود شق رجل . وقال قوم : مرض سليمان مرضاً كالإغماء، حتى صار على كرسيه جسداً كأنه بلا روح .

ولما أمر تعالى نبيه عليه السلام بالصبر على ما يقول كفار قريش وغيرهم ، أمره بأن يذكر من ابتلى فصبر، فذكر قصة داود وقصة سليمان، وقصة أيوب؛ ليتأسى بهم، وذكر ما لهم عنده من الزلفى والمكانة، فلم يكن ليذكر من يتأسى به ممن نسب المفسرون إليه ما يعظم أن يتفوَّه به ويستحيل عقلاً وجود بعض ما ذكروه ، كتمثل الشيطان بصورة نبى، حتى يلتبس أمره عند الناس، ويعتقدون أن ذلك المتصور هو النبى ، ولو أمكن وجود هذا ، لم يوثق بإرسال نبى، وإنما هذه مقالة مسترقة من زنادقة السوفسطائية، نسأل الله سلامة أذهاننا وعقولنا منها. ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾ : أى بعد امتحاننا إياه ، أدام الإنابة والرجوع . [البحر المحيط :٩/ ١٥٥، ١٥٦]

---

(١) أخرجه البخارى [٢٨١٩، ٣٤٢٤، ٥٢٤٢، ٦٦٣٩، ٦٧٢٠ ، ٧٤٦٩] عن أبى هريرة بلفظ : « والذى نفس محمد بيده لو قال إن شاء الله لجاهدوا فى سبيل الله فرسانًا أجمعون» . وأخرجه مسلم [١٦٥٦].

الملك، وأن يذكره أن هذا الملك كله من عند الله، وأن الله قادر على أن يجعله جسدا جالسا على كرسيه، ليس له حركة حتى على ذاته، مثل الإنسان الذى يحدث له شلل كامل، فلا يستطيع أن يحرك شيئا من جسده، فإذا لم تكن له إرادة على جارحة واحدة من جوارحه، أفتكون له إراده على الخارج عن إرادته من وحش أو طير أو إنس أو جن؟ طبعا لا؛ فسيدنا سليمان استغفر ربه وأناب إليه.

لذلك قالوا: إن سليمان كان ذات يوم يركب بساط الريح فشعر فى نفسه بشئ من الزهو ، فسمع البساط يقول له. يا سليمان أُمِرنا أن نطيعك ما أطعت الله، فعاد إلى نفسه واستغفر الله ، وحكاية إلقاء الجسد على كرسيه تفيد أنك إن كنت تظن أن لك إمرة وقدرة على كل هذه الأجناس من إنس وجن وطير، فالله قادر على أن يسلبك القدرة حتى على جوارحك، وتلقى كجسد لا حراك فيه، ولذلك الميت حين يموت ، أول ماينسى اسمه ويسمونه الجثة، وحينما يوضع فى النعش يقولون عنه: الخشبة فهذه دنيا لا تستحق أن يزهو الإنسان بها، أو يغترّ بما فيها، فالسامرى أخرج لبنى إسرائيل عجلاً جسدا له خوار، وقالوا عن هذا الجسد ﴿هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾ (1) [طه: ٨٨] لأنهم طلبوا صنماً فصنع لهم عجلا له صوت، فهذا ارتقاء فى الصنعة، ومعنى ! ﴿فَنَسِيَ﴾ أى نسى خميرة الإيمان الموجودة فيه، وأن هذا خروج عن الإيمان إلى

---

(١) قال الشوكانى فى قوله تعالى : ﴿فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ﴾ أى قال السامرىّ ومن وافقه هذه المقالة ﴿فَنَسِيَ﴾ أى فضل موسى ولم يعلم مكان إلهه هذا، وذهب يطلبه فى الطور. وقيل : المعنى : فنسى موسى أن يذكر لكم أن هذا إلهه وإلهكم . وقيل : الناسى هو السامرىّ ، أى ترك السامرىّ ما أمر به موسى من الإيمان وضلّ ، كذا قال ابن الأعرابى . [فتح القدير : ٣/ ٣٨١]

الكفر، وليته يكفر وحده ، ولكنه يريد أن يكفر القوم معه.

فلابد أنه نسى؛ لأنه لو كان على ذكر من خيبة هذا الفعل ما فعله، ثم يقول الحق سبحانه: ﴿ أَفَلا يَرَوْنَ أَلا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا ﴾(١) [طه: ٨٩] أى كيف يعبدون هذا العجل مع أنه لا يرد عليهم جوابا، ولا يملك لهم أى ضر أو نفع؟ فلو كان عندهم ذرة عقل ما فعلوا ذلك، ولذلك حين يتحدث القرآن عن الكفر فى سورة البقرة يقول: ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [البقرة: ٢٨] فكأن الكفر بالله جريمة شنيعة وعجيبة لا يمكن لأى عقل أن يقرّها؛ فهنا استغراب لما فعله بنو إسرائيل من عبادة العجل؛ لأنهم لو فكروا قليلا لوجدوا أنهم لو كلموا هذا العجل فلن يرد عليهم، لوجدوا أنه لا يضرهم ولا ينفعهم، ومعنى لا يرجع إليهم قولاً أى لا يردّ عليهم إن سألوه، ولا يملك لهم ضراً إن كفروا به ولم يؤمنوا، ولا يملك لهم نفعا إن آمنوا به وعبدوه، ثم يقول تعالى: ﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴾(٢) [طه: ٩٠] ومعنى

---

(١) قال القرطبى: ﴿ أَفَلا يَرَوْنَ ﴾ أى يعتبرون ويتفكرون فى ﴿ أَلا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً ﴾ : أى لا يكلمهم . وقيل : لا يعود إلى الخوار والصوت.

﴿ وَلا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا ﴾ فكيف يكون إلها؟ والذى يعبده موسى ﷺ يضر وينفع ويثيب ويعطى ويمنع . [تفسير القرطبى : ١١/٢٣٦]

(٢) يقول البقاعى: ﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ ﴾ أى مع أن من لم يعبده لم يملكوا رد من عبده.

ولما كان قولهم فى بعض ذلك الزمان. قال : ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ أى من قبل رجوع موسى، مستعطفا لهم : ﴿ يَا قَوْمِ ﴾ ثم حصر أمرهم؛ ليجتمع فكرهم ونظرهم فقال: ﴿ إِنَّمَا فُتِنتُم ﴾ أى وقع اختباركم فاختبرتم فى صحة إيمانكم، وصدقكم فيه، =

﴿ فُتِنتُم ﴾ أي: اختبرتم بهذا العمل الذى جاء به السامرى.

والسامرى اسمه موسى السامرى، وكانت أمه قد وضعته فى الصحراء، وبعد أن وضعته ماتت فى النفاس وتركته وحيدا فى الصحراء لا يجد من يقوم برعايته، قالوا: فكان جبريل عليه السلام، يتعهده بالرعاية والتربية حتى كبر، فالذى ربى السامرى هو جبريل عليه السلام والذى ربى نبى الله موسى هو فرعون؛ ولذلك الشاعر تحدث عن هذه اللقطة العجيبه فقال:

إذا لم تصادف فى بنيك عناية فقد كذب الراجى وخاب المؤمل

فموسى الذى رباه جبريل كافر وموسى الذى ربّاه فرعون مرسل

موسى عليه السلام حينما ترك القوم وذهب لميقات ربه، استخلف عليهم أخاه هارون، وأوصاه أن يصلح أمور القوم ويمنعهم من أى فساد. قال تعالى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٢] ومعنى أصلح أى : أعمل الصالح، وبذلك أباح موسى لهارون أن يقدر المسائل التى يراها، ويعمل على إصلاحها قدر استطاعته، وهذه ستكون الشفاعة التى تشفع لهارون عند أخيه موسى، بعد عودته غاضبًا ؛ لما رأى من ضلال القوم وفسادهم؛ لأنه

= وثباتكم عليه ﴿ بِهِ ﴾ اى بهذا التمثال فى إخراجه لكم على هذه الهيئة الخارقة للعادة.
وأكد لأجل إنكارهم، فقال : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ﴾ اى الذى اخرجكم من العدم ورباكم بالإحسان ﴿ الرَّحْمَنُ ﴾ وحده الذى فضله عام ونعمه شاملة ، فليس على برٍّ ولافاجر نعمة إلا وهى منه قبل أن يوجد العجل ، وهو كذلك بعده ، ومن رحمته قبول التوبة ، فخافوا نزع نعمه بمعصيته ، و ارجوا إسباغها بطاعته ﴿ فَاتَّبِعُونِي ﴾ بغاية جهدكم فى الرجوع إليه ﴿ وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴾ فى دوام الشرف بالخضوع لديه ، ودوام الإقبال عليه ، يدفع عنكم ضيره . ويفيض عليكم خيره.
[نظم الدرر : ١٢/ ٣٣١، ٣٣٢]

وعظهم ولم يستجيبوا.

قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ [طه: ٩٠] قال العلماء : إن عدد بني إسرائيل الذين خرجوا مع موسى كان ستمائة ألف، عبدوا العجل جميعهم إلا اثنى عشر رجلاً ، ظلوا على عهدهم مع موسى وهارون. فلو أن هارون دخل معركة مع القوم بهؤلاء المؤمنين القليلين ، لقضى عليهم أتباع السامرى، فهو رأى أنه من الأصلح أن يعظهم فقط ، دون أن يدخل فى مواجهة معهم، وهارون بيّن لهم أنهم فُتنوا بهذا العجل الذى صنعه السامرى، وأن ربهم هو الله صاحب الرحمة الواسعة، وذكرهم بأن موسى أمرهم باتباعه وإطاعة أمره، ولكنهم لم يستجيبوا، وكان ردّهم كما قال تعالى: ﴿قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾[1] [طه: ٩١] أى: أنهم لن يتركوا عبادة العجل، بل سيظلون عاكفين على عبادته، حتى يرجع إليهم موسى.

وكلمة: ﴿لَن نَّبْرَحَ﴾ معناها: أنهم سيظلون فى مكانهم، أو على حالهم الذى هم عليه من عبادة العجل، ولن يفارقوا الحال الذى هم عليه، حتى يعود إليهم موسى، وقد وردت كلمة ﴿لا أَبْرَحُ﴾ فى القرآن الكريم مرة بعدم ترك المكان، ومرة بعدم ترك الحال التى عليها القائل.

---

(١) قال أبو حيان : ولما وعظهم هارون ونبههم على ما فيه رشدهم، اتبعوا سبيل الغىّ و﴿قَالُوا لَن نَّبْرَحَ﴾ على عبادته مقيمين ملازمين له، وغيوا ذلك برجوع موسى، وفى قولهم ذلك دليل على عدم رجوعهم إلى الاستدلال وأخذ بتقليدهم السامرى، ودلالة على أن ﴿لَن﴾ لا تقتضى التأبيد خلافاً للزمخشرى، إذ لو كان من موضوعها التأبيد لما جارت التغيية بحتى؛ لأن التغيية لا تكون إلا حيث يكون الشئ محتملاً ، فيزيل ذلك الاحتمال بالتغيية . [البحر المحيط : ٧/ ٣٧٤]

والأولى: جاءت فى قول الله تعالى حكاية عن أحد إخوة يوسف : ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ [يوسف: ٨٠] .

والثانية: جاءت فى قصة موسى، حينما ذهب لمقابلة العبد الصالح فى قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴾ [الكهف: ٦٠] فهنا يخبر موسى عليه السلام فتاه أنه لن يتوقف عن السير ، حتى يصل إلى مجمع البحرين، ولو سار سنوات طويلة.

إذن ﴿ لا أَبْرَحُ ﴾ معناها: لا أتخلى عما أنا فيه من حال إقامه أو سير.

* مواجهة موسى للسامرى *



بعد ذلك سأل موسى السامرى : ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴾[1] [طه: ٩٥، ٩٦] .

كلمة: ما خطبك، تقال فى الحدث المهم، وهو الحدث الجلل الذى يصلح لأن تقال فيه: خطب، ولذلك وردت هذه الكلمة فى قول الله تعالى فى سورة يوسف: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ﴾ [يوسف: ٥١]، إذن الخطب هو: الأمر الجلل المهم الذى لا يصح أن نمرّ عليه مرورا عابرا، بل يقال فيه كلام يصل إلى درجة الخطب.

لما سأل موسى السامرى ردّ عليه بقوله: ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ﴾. هناك بصرت ، وأبصرت، كلمة: أبصرت للرؤية الحسية، وكلمة بصُرت للرؤية العلمية، فكأن السامرى يقول لموسى أنا رأيت بعلمى وأن هذا شئ لم يعرفه القوم، فاجتهاده قاده إلى جمع الحلى، وعمل العجل والعكوف عليه؛ لأنه رأى قومه طلبوا من موسى: أن يجعل لهم إلها مثل القوم

---

(١) يقول السيوطى عن قتادة رضى الله عنه فى قوله : ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ﴾ قال: لم يكن اسمه ، ولكنه كان من قرية اسمها سامرة ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ﴾ يعنى فرس جبريل .
وعن مجاهد رضى الله عنه فى قوله ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ﴾ قال : من تحت حافر فرس جبريل . [الدر المنثور :٥/٥٩٦]

الذين مروا عليهم ، ووجدوهم يعكفون على أصنام لهم.

فقال: هذه مسألة في بالهم، وانتهز فرصة غياب موسى وقام بهذا العمل، وزاد على ما طلبه القوم من موسى بأنه لم يجعله صنما من حجارة، وإنما جعله عجلا له صوت، وله خوار.

ومعنى: ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ﴾ [طه: ٩٦] قبض على الشيء أي أخذه بجمع يده، قوله: : ﴿مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ﴾ روى عنه العلماء روايات متعددة، فقالوا: إن السامرى لما كان جبريل يتعهده، وكان يأتيه على جواد، فلاحظ أن الجواد كلما مر بحافره على شئ اخضر مكان الحافر ، أي دبت الحياة في مكان الحافر، وهذا قول الذين قالوا إن العجل كان عجلاً حقيقيا له صوت طبيعي، وليس بمرور الهواء يحدث منه صوت الخوار، ولكن العلماء الآخرين قالوا كلاما غير هذا فقالوا: إن معنى ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ﴾ الرسول كما نعلم هو المبلغ لشرع الله ، وهو حامل المنهج المكلف به. فالرسول هنا هو موسى؛ لأن بنى إسرائيل لم يروا جبريل، بل ولم يسمعوا منه، ولكنهم سمعوا من موسى، فهو الذي بلغهم أمر الله ومنهجه.

وإذا كان الرسول جاء ليبلغ شرعا من الله، فهذا هو أثره الذي يبقى بعد انتقاله، فقبض قبضة من هذا الأثر .

ومعنى: ﴿فَنَبَذْتُهَا﴾ أبعدتها عن مخيلتي، وتركت لنفسي العنان في أن تفكر أي تفكير، بدليل أنه قال بعدها: ﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ ومعنى سوّلت له نفسه، أي أنها دفعته إلى معصية؛ بأن يأخذ شيئا من آثار الرسول ووحيه الذي جاء به من الله، وينبذها عن منهجه، وبعد ذلك يسير بمحض فكره ومحض اختياره، ولذلك لا يقال: سوّلت لي نفسي الطاعة،

ولكن دائما يقال: سَّولت لى نفسى المعصى.

واقرأ قول الله تعالى: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ .

بعد ذلك ماذا فعل موسى مع السامرى.

قال تعالى: ﴿قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُ وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾ [طه: ٩٧] .

موسى عليه السلام قال للسامرى : جزاؤك أن تذهب، وأن يكون قولك الذى يجرى على لسانك دائما: ﴿لا مِسَاس﴾، والمساس هو المس.

ولكن السؤال هو : لماذا فعل السامرى ذلك؟ فعل ذلك حتى يكون له سلطة زمنية وأتباع؛ لأنك دائما تجد الذين يفترون الكذب، ويدّعون أن لهم مهمة ورسالة، والذين يدّعون النبوة ؛ هدفهم من ذلك هو السلطة الزمنية، وهذه تجعل الواحد منهم يتحلل دائما من منهج الحق ، ويسهل التكاليف على الناس؛ لأنه لو جاء بتشديد على الناس سينصرفون عنه، ولكن إذا سهل لهم الأمور، وأسقط عنهم بعض التكاليف، يتبعه كثير من الناس ضعاف النفوس، مثل الرجل الذى طلع فى الإسكندرية منذ سنوات وادعى النبوة ، وقال بإباحة اختلاط الرجال بالنساء، والاختلاء بهن وتبعه بعض الناس؛ لأنه جاء على وفق أهوائهم وشهواتهم.

ولذلك نجد الكذابين منذ مسليمة وسجاح[1] حتى الآن كلهم يجرون

---

(١) عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قدم مسيلمة الكذّاب على عهد رسول الله ﷺ فجعل يقول : إن جعل لى محمد الأمر من بعده تبعته وقَدِمَها فى بَشَرٍ كثير من قومه، فاقبل إليه رسول الله ﷺ ومعه ثابت بن قيس بن شمَّاس - وفى يد رسول =

وراء التخفيف، وإلغاء بعض التكاليف، وإباحة بعض المحظورات والمحرمات فى الدين، فبعضهم ألغى الزكاة، وبعضهم خفف الصلاة والصوم، وبعضهم أباح المحرمات، والذى يجعلهم يفعلون ذلك هو: السلطة الزمنية؛ لأن الواحد منهم يريد أن تكون له شيعة وأتباع وجمهور، فالذى أفسد حياته أنه اعتبر تبعية الناس وانصياعهم له عزّاً ، فربنا سبحانه يعاقبه بأن الناس الذين فتن بهم واغتر بتبعيتهم له، يكرههم ولا يطيق رؤيتهم، أو مجرد لمسهم له.

إذن الجمهرة التى كُنتَ تُريدُها من الناس، وعز التسلط، وكثرة الأتباع

= الله ﷺ قطعة جريد - حتى وقف على مسيلمة فى أصحابه فقال : « لو سألتنى هذه القطعة ما أعطيتكها ولن تعدو أمر الله فيك ، ولئن أدبرت ليَعْقرنَّك الله ، وإنى لأراك الذى أريتُ فيه ما رأيت ، وهذا ثابت يجيبك عنى ثم انصرف عنه . أخرجه البخارى [٤٣٧٣].

وقال الحافظ فى الفتح: مسيلمةِ مصغر بكسر اللامِ ابن ثمامة بن كبير بموحدة ابن حبيب بن الحارث من بنى حنيفة . قال ابن إسحاق : ادَّعى النّبوة سنة عشر .

[فتح البارى : ٨/ ٤٢٢]

وسجاح هى بنت الحارث بن سويد بن عُقْفان - هى وبنو أبيها عُقْفَان - فى بنى تغلب، فتنبّتْ بعد موت رسول الله ﷺ بالجزيرة فى بنى تغلب ، فاستجاب لها الهذيل ، وترك التنصُّر وهؤلاء الرؤساء الذين أقبلوا معها لتغزو بهم أبا بكر .

[تاريخ الطبرى : ٣/ ٢٦٩]

وقال الحافظ فى الفتح : سجاح بفتح المهملة وتخفيف الجيم وآخره حاء مهملة، وهى امرأة من بنى تميم ، ادَّعت النبوة أيضًا فتابعها جماعة من قومها ، ثم بلغها أمر مسيلمة فخادعها إلى أن تزوجها ، واجتمع قومها وقومه على طاعة مسيلمة .

[فتح البارى : ٨/ ٤٢٤]

وانظر خبرهما فى [الكامل فى التاريخ لابن الأثير: ٢/ ٣٥٣-٣٥٧، ٣٦٠-٣٦٦] ، [تاريخ الطبرى: ٣/ ١٤٦، ٢٦٧ ، ٢٨١-٣٠١]،[وسيرة: ابن هشام ٤/ ٢٩١-٢٩٣]

الذين كنت تعتز بهم وتتكبر، هؤلاء هم السبب فى خيبتك وحسرتك، فلاتطيق رؤيتهم أو اقتراب أحدهم منك.

إذن . . فمعنى﴿ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لا مِسَاسَ ﴾(1) [طه: ٩٧] أى أن تنعزل فى حياتك عن الناس وتتبعد عنهم، ولا تحتمل أن يمسك أحد أو يقترب منك.

قالوا: فانعزل السامرى عن المجتمع، وهام على وجهه فى البرارى لايمس أحدًا ولا يمسه أحد، وذلك لأن الضال عندما يرى جزاء ضلاله يكره من أعانه على هذا الضلال، فمثلا لو أن بعض التلاميذ أغروا زميلاً لهم كان مجتهدا ومتفوقا ، بأن يترك دروسه ويلعب ويلهو ، يكونون سعداء ومسرورين بهذا اللعب واللهو، ولكن حين يأتى الامتحان وتظهر

---

(1) قال القرطبى فى قوله تعالى : ﴿ قَالَ فَاذْهَبْ ﴾ اى قال موسى فاذهب، أى من بيننا ﴿ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لا مِسَاسَ ﴾ اى لا ولا أمسّ طول الحياة . فنفاه موسى عن قومه وأمر بنى إسرائيل الا يخالطوه ، ولايقربوه، ولا يكلموه ؛ عقوبة له والله أعلم. قال الشاعر :

تميم كرهط السامرى وقوله ... الا لا يريدُ السامرى مساساً

قال الحسن : جعل الله عقوبة السامرى الا يماس الناس ولا يماسوه ، عقوبة له ولمن كان منه إلى يوم القيامة ؛ وكأن الله عز وجل شدّد عليه المحنة ، بأن جعله لا يماس أحدا ولا يمكن من أن يمسه أحد ، وجعل ذلك عقوبة له فى الدنيا . ويقال : ابتلى بالوسواس ؛ وأصل الوسواس من ذلك الوقت . وقال قتادة : بقاياهم إلى اليوم يقولون ذلك - لا مساس - وإن مس واحد من غيرهم أحدا منهم حُمّ كلاهما فى الوقت . ويقال : إن موسى همّ بقتل السامرى ، فقال الله تعالى له : لا تقتله فإنه سخى. ويقال: لما قال له موسى : ﴿ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لا مِسَاسَ ﴾ خاف فهرب فجعل يهيم فى البرية مع السباع والوحش لا يجد أحدا من الناس يمسه، حتى صار كالقاتل : لا مساس ؛ لبعده عن الناس وبعد الناس عنه .

[تفسير القرطبى : ١١/ ٢٤٠ ، ٢٤١]

النتيجة ويرسب، هذا التلميذ المتفوق يستشيط غضبا، ولو رأى أصدقاءه الذين تسببوا فى فشله، لفتك بهم من الغيظ؛ لأنهم سبب رسوبه وفشله، فلا يطيق رؤيتهم بعد ذلك.

بعض الناس يعبدون الأصنام لماذا ؟ نحن نعرف أن العبادة هى طاعة المعبود فيما أمر، فأى أمر للصنم؟ كما أن العبادة: أن تطيع المعبود؛ ليعطيك ثوابا على عبادتك فما الذى ستعطيه الأصنام لمن يعبدها ؟ وما الذى تتوعد به من لا يعبدها ؟ فهم أخذوا إلهًا وعبدوه بدون منهج منه، وهذه عبادة باطلة ولكنهم يحبونها؛ لأنهم أرضوا شهواتهم فى أن تكون لهم آلهة، ولكن بدون تكاليف.

موسى قال للسامرى: عقوبتك أن تنفى من المجتمع الذى كنت تريد فيه عزا وسيطرة ومركزاً وأتباعاً. ثم إنك ستتبرأ من هذا المجتمع، وتقول: إياكم أن يتقرب أحدكم إلى؛ لأنكم سبب البلاء الذى حل بى، ولذلك الحق سبحانه يقول فى آية أخرى: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧] فالذين كانوا يجتمعون مع بعضهم ويشربون الخمر ويتعاطون المخدرات ويلعبون القمار - مع أنهم كانوا رفقاء فى الدنيا - يتبرأون من بعضهم فى الآخرة.

لكن المتقين يفرح بعضهم ببعض، ويهنىء بعضهم بعضا، فنجد المسلم يقول لأخيه الذى كان يعينه على الطاعة فى الدنيا : جزاك الله خيراً فقد نهرتنى يوم تكاسلت عن الصلاة، وأخذتنى معك إلى المسجد، والآخر يقول جزاك الله عنى خيراً ، فقد نهرتنى عن شرب الخمر، وأبعدتنى عن رفقاء السوء، وكنت سببا فى هدايتى.

ومعنى: ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُ﴾ [طه: ٩٧] أى أن عذاب الآخرة

قادم أيضا، فلن يغنى هذا التقى والبعد من المجتمع عن عذاب الآخرة الذى هو أشد وأبقى .

وقوله تعالى: ﴿وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ الَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾(1) [طه: ٩٧] أى انظر إلى هذا العجل الذى ظللت على عبادته عاكفا -أى مقيما- لأن العكوف هو: الإقامة، فمعنى اعتكف فى المسجد أى أقام فيه وانقطع عن المجتمع الخارجى.

ومعنى ﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُ﴾: الذهب لا يمكن حرقه؛ لأنه إذا وضع فى النار لايخرج منه إلا الخبث، ولكنه لا يحترق، ولذلك قالوا: إن معنى ﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُ﴾: أى لنصيرنَّه كالمحروق، بأن نبرده برادة تجعله مثل الذر، بحيث يذروه الهواء؛ ولذلك قال بعدها: ﴿ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾ ننسفه أى نطيره، ونزروه فى الهواء، فحرقوا عجل الذهب، بأن جعلوه مبرودا على هيئة ذرات وطيروه فى الهواء على البحر، وبعد أن بيّن الحق سبحانه وجه البطلان فيما فعله السامرى، وفيما فعله القوم الذين اتبعوه فى عبادة العجل، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا إِلَٰهُكُمُ اللَّهُ الَّذِى لا إِلَٰهَ إِلا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [طه: ٩٨]. حينما يقول الله تعالى ﴿لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ﴾ من الذى علمنا كلمة التوحيد؟ الرسول ﷺ نقلها لنا بعد أن سمعها من ربه عن طريق الوحى.

إذن الشهادة بالواحدانية الحقة شهادة من الله لذاته أولا؛ قال تعالى:

---

(1) عن ابن عباس ، أنه كان يقرأ: ﴿لَّنُحرقَنَّهُ﴾ خفيفة . يقول : إن الذهب والفضة لايحرقان بالنار، يسحل بالمبرد ثم يلقى على النار فيصير رمادا . وعن ابن عباس ، اليم : البحر، وعن على ، اليم : النهر.
[الدر المنثور: ٥ /٥٩٧]

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ﴾ [آل عمران: ١٨] وهذه شهادة الذات للذات، فقد شهد الله لنفسه بالوحدانية، قبل أن يخلق شاهدا يشهد بها، وبعد ذلك شهدت الملائكة، وبعد ذلك شهد أولو العلم شهادة الاستدلال، وذلك فى قوله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ [آل عمران: ١٨] والذى يجعل القضية صادقة أن الله حينما قال: ﴿لا إِلَهَ إِلا أَنَا﴾ [طه: ١٤] وشهد بها لنفسه، وشهدت بها الملائكة، وشهد بها أولو العلم ، نقول: إن صدقنا بذلك فقد انتهت القضية، وإلا فأين الإله الذى أخذ منه ربنا الألوهية وتركه بدونها ؟ إما أن يكون لم يعلم فلا يصلح أن يكون إلها، وإما أن يكون قد علم، وإذا كان قد علم، فلماذا سكت ولم يطالب بحقه ، ويقول: أنا الإله؟

إذن فالدعوى إذا لم تجب بمعارض ، تسلم لصاحبها إلى أن يوجد المعارض، فالله تعالى قال: ﴿لا إِلَهَ إِلا أَنَا﴾؛ أنا خلقت السماء والأرض والبشر والحيوان، وخلقت الكون كله بما فيه ومن فيه، فتظل الدعوى له إلى أن يوجد من يعارض هذه الدعوى، فنقول له أين دليلك؟

ومع ذلك فلم يوجد حتى الآن من يدعى هذا الشئ، حتى الذين كفروا بالله لم يستطع أحد منهم أن يدعى أنه خلق شيئا من هذا الكون.

إذن: تثبت الدعوى لله سبحانه وتعالى فى أنه وحده الإله الخالق، ونحن ضربنا مثلاً وقلنا: هب أنك فى مجلس بيتك، وجاءك روّاد وزوّار كثيرون، ثم خرجوا فوجدت مكانهم كيسًا من المال، فأنت لكى تعرف صاحب هذا المال، إما أن تسأل زوارك الذين انصرفوا واحدا واحدا، أو أن أحدهم يطرق بابك ويقول لك: لقد نسيت عندك كيسا من المال صفته كذا وكذا فهو صاحب المال؛ لأن أحدا غيره لم يدع أنه ترك هذا المال.

فصاحب الدعوى أحق بها إلى أن يوجد معارض لهذه الدعوى، وحتى الآن لم يوجد معارض لـ «لا إله إلا الله».

* غضب الله على عبدة العجل *

يقصّ علينا الله سبحانه نبأ أولئك الذين كفروا وعبدوا العجل وما ينتظرهم من الذلة والهوان ، وغضب الرحمن ، فيقول سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾(1) [الأعراف:١٥٢]، حين يقال: ﴿اتَّخَذُوا الْعِجْلَ﴾لا تكون الصورة

(١) قال الفخر الرازى فى قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ اعلم أن المقصود من هذه الآية شرح حال من عبد العجل.

واعلم أن المفعول الثانى من مفعولى - الاتخاذ - محذوف، والتقدير : اتخذوا العجل إلها ومعبودا ، ويدل على هذا المحذوف قوله تعالى :﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى﴾ [طه: ٨٨] ، وللمفسرين فى هذه الآية طريقان : **الأول** : أن المراد بالذين اتخذوا العجل هم الذين باشروا عبادة العجل ، وهم الذين قال فيهم: ﴿سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ ، وعلى هذا التقدير ففيه سؤال، وهو أن أولئك الأقوام تاب الله عليهم بسبب أنهم قتلوا أنفسهم فى معرض التوبة عن ذلك الذنب ، وإذا تاب الله عليهم فكيف يمكن أن يقال فى حقهم أنه: ﴿سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ؟والجواب عنه : أن ذلك الغضب إنما حصل فى الدنيا لا فى الآخرة، وتفسير ذلك الغضب هو أن الله تعالى أمرهم بقتل أنفسهم، والمراد بقوله: ﴿وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ هو أنهم قد ضلوا فذلوا . فإن قالوا : السين فى قوله: ﴿سَيَنَالُهُمْ﴾ للاستقبال ، فكيف يحمل هذا على حكم الدنيا ؟ =

= قلنا : هذا الكلام حكاية عما أخبر الله تعالى به موسى عليه السلام، حين أخبره بافتتان قومه واتخاذهم العجل، فأخبره فى ذلك الوقت أنه سينالهم غضب من ربهم وذلة فى الحياة الدنيا، فكان هذا الكلام سابقا على وقوعهم فى القتل وفى الذلة، فصح هذا التأويل من هذا الاعتبار.

والطريق الثانى : أن المراد بالذين اتخذوا العجل أبناؤهم الذين كانوا فى زمن النبى ﷺ ، وعلى هذا التقدير : ففى الآية وجهان :

الوجه الأول : أن العرب تُعيِّر الأبناء بقبائح أفعال الآباء، كما تفعل ذلك فى المناقب. يقولون للأبناء : فعلتم كذا وكذا ، وإنما فعل ذلك من مضى من آبائهم، فكذا ههنا وصف اليهود الذين كانوا فى زمن النبى ﷺ باتخاذ العجل ، وإن كان آباؤهم فعلوا ذلك، ثم حكم عليهم بأنه: ﴿سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ فى الآخرة ﴿وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ، كما قال تعالى فى صفتهم: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ﴾ .

والوجه الثانى : أن يكون التقدير: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ﴾؛أى الذين باشروا ذلك ﴿سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ﴾ أى سينال أولادهم، ثم حذف المضاف بدلالة الكلام عليه.

أما قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ ؛ فالمعنى: أن كل مفترٍ فى دين الله: فجزاؤه غضب الله والذلة فى الدنيا ، قال مالك بن أنس : ما من مبتدع إلا ويجد فوق رأسه ذلة، ثم قرأ هذه الآية ؛ وذلك لأن المبتدع مفتر فى دين الله .

[التفسير الكبير : ١٥/ ١٢، ١٣]

وقال الشوكانى : الغضب : ما نزل بهم من العقوبة فى الدنيا بقتل أنفسهم وماسينزل بهم فى الآخرة من العذاب . والذلة : هى التى ضربها الله عليهم بقوله : ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ﴾ . وقيل : هى إخراجهم من ديارهم . وقيل : هى الجزية، وفيه نظر ؛ لأنها لم تُؤخذ منهم، وإنما أُخذت من ذراريهم ، والأولى : أن يقيد الغضب والذلة بالدنيا ؛ لقوله : ﴿وَذِلَّةٌ فى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ، وأن ذلك مختص بالمتخذين العجل إلهاً، لا لمن بعدهم من ذراريهم . ومجرد ما أمروا به من قتل أنفسهم هو غضب من الله عليهم ، وبه يصيرون أذلاء. وكذلك خروجهم من ديارهم هو من غضب الله عليهم ، وبه يصيرون أذلاء . وأما ما نال ذراريهم من الذلة، فلا يصح تفسير ما فى الآية به،إلا إذا تعذر حمل الآية على المعنى الحقيقى،=

واضحة، اتخذوه لماذا؟ أمذبوحًا ليأكلوه؟ أم قوة ليديروا به السواقى؟! نقول: لو أنهم اتخذوا العجل لهذه الأغراض لما ذكر عنهم شيئا؛ لأنهم فى هذه الحالة يكونون قد استخدموا العجل فيما هو مخلوق من أجله، ولكن قوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا الْعِجْلَ﴾ ، فلابد أنهم أخرجوه عن مهمته فى الحياة، واتخذوه لشىء آخر اخترعوه هم؛ ولذلك لا ينصرف الأمر إلا إلى أنهم اتخذوا العجل إلها معبودا؛ لأن كل المهام التى هى دون ذلك، والتى يصلح لها العجل ؛ هى مهام العجل مخلوق لها.

ولذلك فإن الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، وغضب الله لا ينزل على الذين اتخذوا العجل لما خُلق له، ولكن على الذين اتخذوه لغير ما خُلق له. وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿سَيَنَالُهُمْ﴾ ؛ دليل على أن الغضب والذلة لم تنزل بهم بعد، ولكنها ستأتى. ولكن الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ولم يقل: فى الآخرة، هذا دليل على أن الحق يعلم أنهم سيتوبون إليه بعد أن تُوقع عليهم العقوبة، والحق سبحانه وتعالى يقول فى آية أخرى: ﴿فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا

= وهو لم يتعذر هنا . ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ ؛ أى مثل ما فعلنا بهؤلاء نفعل بالمفترين . والافتراء : الكذب . فمن افترى على الله سيناله من الله غضب وذلة فى الحياة الدنيا [1]، وإن لم يكن بنفس ما عوقب به هؤلاء ، بل المراد : ما يصدق عليه أنه من غضب الله سبحانه ، وأن فيه ذلة بأى نوع كان .

[فتح القدير : ٢/٢٦٢]

(١) يقول صاحب الكشاف [٢/١٦٢] وأىُّ فرية أعظم من قول السامرى : ﴿هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ﴾ [طه: ٨٨].

أنفُسَكُمْ﴾[1] [البقرة:٥٤]، أى أن الحق سبحانه وتعالى من غضبه عليهم، جعل طريق توبتهم إليه أن يقتلوا أنفسهم، وهذا منتهى الذلة ومنتهى الإهانة، ثم بعد غضب الله جاءت رحمته فقبل توبتهم.

إذن.. فقول الحق ﴿سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ دليل على أن غضب الله نزل عليهم فأصابتهم ذلة؛ لأن الله طلب منهم أن يقتلوا أنفسهم فأصبحوا أذلاء، فالإنسان الذى يُكتب عليه أن يقتل نفسه، يحس بالذلة والهوان، ولا تكون له عزة.

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ دليل على أن هذا العقاب لا ينزل على بنى إسرائيل خاصة، ولكن كل من يفترى على الله، يناله غضب وذلة فى الحياة الدنيا ، وهنا علينا أن نتنبَّه إلى العبرة من هذه الآيات، فالمسألة ليست رواية لتاريخ بنى إسرائيل، ولكن ليعتبر السامع من

---

(١) قال القرطبى : قال الزهرى : لـمَّا قيل لهم : ﴿فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ قاموا صفين وقتل بعضهم بعضا؛ حتى قيل لهم : كفوا. فكان ذلك شهادة للمقتول وتوبة للحى؛ على ما تقدم . وقال بعض المفسرين : أرسل الله عليهم ظلاما ففعلوا ذلك . وقيل : وقف الذين عبدوا العجل صفا، ودخل الذين لم يعبدوه عليهم بالسلاح فقتلوهم . وقيل : قام السبعون الذين كانوا مع موسى فقتلوا - إذ لم يعبدوا العجل - مَن عبد العجل . ويروى أن يوشع بن نون خرج عليهم وهم محتبون فقال: ملعون من حلّ حبوته أو مد طرفه إلى قاتله أو اتقاه بيد أو رجل . فما حل أحد منهم حبوته حتى قُتل منهم - يعنى من قتل - وأقبل الرجل يقتل من يليه . ذكره النحاس وغيره . وإنما عوقب الذين لم يعبدوا العجل بقتل أنفسهم - على القول الأول - لأنهم لم يغيروا المنكر حين عبدوه؛ وإنما اعتزلوا ، وكان الواجب عليهم أن يقاتلوا من عبده . وهذه سنة الله فى عباده، إذا فشا المنكر ولم يُغيَّر عوقب الجميع .

[تفسير القرطبى :١/٤٠١] ، وانظر [البداية والنهاية : ١/٢٦٩]

سرد القصة، ولا يمكن للسامع أن يعتبر إلا إذا وعى قول الحق سبحانه وتعالى: إن الغضب والذلة سينزلان على كل مفترٍ ، فإن هذا تحذير لأى إنسان يفكر فى الكذب على الله وعصيانه.

ثم تأتى بعد ذلك الآية التى تنبِّئنا بغفران الله لهم بعد أن تابوا، فيقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٥٣] ، وهذا ما حدث فعلا؛ لأنهم حين تابوا غفر الله لهم. ومعنى: ﴿تَابُوا﴾ أنهم ندموا على مافعلوا، وصمموا على ألا يعودوا إليه أبدا.

والتوبة لها ثلاث مراحل: تشريع التوبة، وفعل التوبة ، وقبول التوبة.

فتشريع التوبة نفسه فيه رحمة، ولو أن الله لم يشرّع التوبة لنا ليأس الخلق جميعا؛ لأنه من يعمل سيئة ويعرف أنه لا توبة له، يزداد فى عمل السيئات؛ لأن باب المغفرة مغلق أمامه، ولذلك فلا أمل له فى رحمة الله. ولكن الحق سبحانه وتعالى حين شرع لنا التوبة، قد أوجد فى أنفسنا الرغبة فى عدم المضى فى السيئات؛ لأنه إذا تبنا سيمحو الله هذه السيئات. إذن فتشريع الله للتوبة رحمة بالمذنب نفسه؛ لأنه يفتح الطريق أمامه لكى ينصلح، ورحمة بالمجتمع الذى فيه المذنب؛ لأنه يقى هذا المجتمع من شر أن يزداد هذا المذنب فى معاصيه، فيشقى من حوله ويؤذيهم.

نأتى بعد ذلك إلى المرحلة الثانية وهى: فعل التوبة، مادام التشريع قد وجد من الله، فإن توجه الإنسان بالتوبة يكون إليه سبحانه وتعالى.

ثم تأتى المرحلة الثالثة وهى: أن يقبل الله توبة عبده، فتشريع التوبة فيه رحمة، وفعل التوبة فيه عودة إلى الإيمان، وقبول الله للتوبة هو قمة عودة

العبد المذنب إلى ربه[1] ، على أننا لابد أن نلاحظ قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا﴾، فكأن السيئات التى فعلوها نقصت من إيمانهم؛ ولذلك لابد أن يجددوا إيمانهم؛ لأن السيئة غفلة عن الله سبحانه وتعالى، فلا تحدث السيئة ولا المعصية إلا إذا غفل الإنسان عن ربه؛ ولذلك عندما يأتى الإنسان ليتوب لابد أن يجدِّد إيمانه ، ويتعهَّد بأنه لن يغفل عن هذا الإيمان أبدا[2].

---

(١) عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : «ياأيها الناس توبوا إلى الله ، فإنى أتوب فى اليوم إليه مائة مرة» . أخرجه مسلم [٢٧٠٢/ ٤٢]

وعن أبى موسى عن النبى ﷺ قال : «إن الله عز وجل يبسط يده بالليل ؛ ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها». أخرجه مسلم [٢٧٥٩/ ٣١]

وعن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «والذى نفسى بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ، ولجاء بقوم يذنبون ، فيستغفرون الله، فيغفر لهم ».

أخرجه مسلم [٢٧٤٩/ ١١]

وعن ابن عباس ؛ أن ناسا من أهل الشرك قتلوا فأكثروا ، وزنوا فأكثروا ، ثم أتوا محمدا ﷺ فقالوا: إن الذى تقول وتدعو لحسن . ولو تخبرنا أن لما عملنا كفارة ! فنزل : ﴿وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللَّهُ إِلا بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ [الفرقان: ٦٨] ، ونزل : ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٣] .

أخرجه مسلم [١٢٢/ ١٩٣]

(٢) قال البقاعى فى قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ﴾ عبّر بالعمل إشارة إلى العفو، وإن أقدموا عليها على علم، وجُمع إعلاما بأنه لا يتعاظمه ذنب، وإن عظم وكثر، وإن طال زمانه ؛ ولذلك عطف بأداة البعد فقال : ﴿ثُمَّ تَابُوا﴾ وحقق الأمر ونفى المجاز بقوله : ﴿مِنْ بَعْدِهَا﴾ ثم ذكر الأساس الذى لا يقبل عمل لم يبن عليه على وجه يفهم أنه لا فرق بين أن يكون فى السيئات ردّة أو لا، فقال : ﴿وَآمَنُوا﴾ ثم أجاب المبتدأ بقوله : ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ أى المحسن إليك بقبول توبة التائبين لما سيرك=

فالمعصية: هى مخالفة العبد لمنهج الله، والتوبة: هى العودة إلى هذا المنهج وقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لفتة لنا ألا نذكر المذنب التائب بذنبه؛ لأنه إذا كان الله قد غفر له؛ فكيف نتجاهل نحن غفران الله، ونقول له: يا زانى أو يا سارق ؟ مادام الإنسان قد تاب، فعلينا أن نبتعد عن تذكيره بذنبه من جديد؛ لأن هذا يؤلمه، وقد يجعله يعود للذنب(١).

= من ذلك؛ لأنك بهم رؤف رحيم ﴿مِنْ بَعْدِهَا﴾ أى التوبة ﴿لَغَفُورٌ﴾ أى محاء لذنوب التائبين عينا وأثرا ، وإن عظمت وكثرت ﴿رَحِيمٌ﴾ أى فاعل بهم فعل الرحيم، من البر والإكرام واللطف والإنعام ، وكأن المصرِّين هم الذين قتلوا لما أمرهم موسى عليه السلام بقتل أنفسهم ، فلما أهلك المصر وتاب الباقى، وصحت براءة أخيه وبقاؤه على رتبته من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والاجتهاد فى أمر الله؛ زال موجب الغضب . [نظم الدرر : ٨/ ٩٢]

قال الماوردى فى قوله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا﴾ أما التوبة من السيئات فهى: الندم على ما سلف، والعزم على ألا يفعل مثلها. فإن قيل: فالتوبة إيمان، فما معنى قوله : ﴿ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا﴾ ؟

فالجواب عن ذلك من ثلاثة أوجه :

أحدها : يعنى أنهم تابوا من المعصية ، واستأنفوا عمل الإيمان بعد التوبة.

والثانى : يعنى أنهم تابوا بعد المعصية ، وآمنوا بتلك التوبة.

والثالث : وآمنوا بأن الله قابل التوبة . [تفسير الماوردى : ٢/ ٢٦٥]

(١) فى حديث رجم الغامدية لما سمع رسول الله ﷺ سب خالد بن الوليد إيَّاها قال له : « مهلا يا خالد ! فوالذى نفسى بيده ! لقد تابت توبة ، لو تابها صاحب مكس لغُفر له » .

وفى أحد رواياتها قال عمر بن الخطاب : تصلى عليها يا نبى الله وقد زنت ؟ فقال: « لقد تابت توبة لو قسمت بين سبعين من أهل المدينة لو سعتهم وهل وجدت توبة أفضل من أن جادت بنفسها لله تعالى ؟ » .

صحيح مسلم [١٦٩٥ ، ١٦٩٦]

❋ عتاب موسى لأخيه هارون ❋



بعد ذلك ذكرت الآيات الحوار الذى دار بين موسى عليه السلام، وأخيه هارون قال تعالى: ﴿قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾(١) .

كلمة: ﴿مَا مَنَعَكَ﴾ وردت فى القرآن مرة :

﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ﴾ [ص: ٧٥] وأخرى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلا تَسْجُدَ﴾ [الأعراف: ١٢] .

شخص يقول لك ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ﴾ أى منعك من السجود،

(١) قال القرطبى : ﴿قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا﴾ : أى اخطئوا الطريق وكفروا. ﴿أَلا تَتَّبِعَنِ﴾ : «لا» زائدة ، أى: أن تتبع أمرى ووصيّتى . وقيل : مامنعك عن اتباعى فى الإنكار عليهم. وقيل : معناه هلا قاتلتهم، إذ قد علمت أنى لو كنت بينهم لقاتلتهم على كفرهم. وقيل : ما منعك من اللحوق بى لما فتنوا. ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ يريد أن مقامك بينهم، وقد عبدوا غير الله تعالى عصيان منك لى ؛ قاله ابن عباس. وقيل : معناه هلا فارقتهم؛ فتكون مفارقتك إياهم تقريعا لهم وزجرا. ومعنى : ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ قيل: إن أمره ما حكاه الله تعالى عنه . ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ فلما أقام معهم، ولم يبالغ فى منعهم، والإنكار عليهم؛ نسبه إلى عصيانه ومخالفة أمره.

مسألة : وهذا كله أصل فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وتغييره ومفارقة أهله، وأن المقيم بينهم -لا سيما إذا كان راضيا -حكمه كحكمهم.

[تفسير القرطبى: ١١/ ٢٣٧]

ولكن ﴿مَا مَنَعَكَ ألا تَسْجُدَ﴾: أى لم يتركك تسجد، نقول له: لا؛ لأن المنع قد يكون قهرا عنك وأنت لا تريد فعل الشيء، وقد يأتى الآخر فيقنعك أن تفعله.

إذن.. فمعنى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ﴾ أى قهرا عنك، لكن إذا أقنعك ألا تسجد باختيارك، فى هذه الحالة ينطبق عليك: ﴿مَا مَنَعَكَ ألا تَسْجُدَ﴾، أى ما الذى جعلك لا تسجد ؟

فمرة يكون المنع من النفس، ومرة يكون من الغير.

فموسى يسأل هارون عن الذى منعه من اتباعه، حين رأى القوم قد ضلوا؟ والسائل حين يستفهم عن شيء، قد يخاطب إنسانا وهو لا يعلم ذنبه، ولكنه يذكر له صورة الذنب حتى يسمع الردّ منه، وحتى يكون الرد على من يعترض عليه. فعمر بن الخطاب رضى الله عنه مثلا وقف عند الحجر الأسود وقال: إنى أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أنى رأيت رسول الله يقبلك ما قبّلتك[1] .

إذن .. هو يقبّله اقتداء برسول الله ﷺ، ولذلك جاء بهذا الكلام؛ ليعطينا الجواب الذى سيظل ناطقا فى التاريخ، بأن النبى ﷺ هو الذى فعل ذلك، فعمر رضى الله عنه أثارها شبهة حتى نسمع منه الردّ، وحين نسمع هذا الردّ يظل سائرا طول الأزمان.

بعد ذلك ردّ هارون على أخيه موسى موضحا موقفه، ومدافعا عن

(١) عن عمر رضى الله عنه: «أنه جاء إلى الحجر الأسود فقبّله، فقال: إنى أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أنى رأيت رسول الله ﷺ يُقبِّلك ما قبّلتك».
أخرجه البخارى [١٥٩٧]

نفسه، قال تعالى: ﴿قَالَ يَا بْنَؤُمَّ لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾[1] [طه: ٩٤] ؛ الحوار بين موسى وهارون لم يقتصر على الكلام فقط، ولكن يبدو أنه صاحبَه حركة

---

(١) قال الشوكانى فى قوله تعالى : ﴿قَالَ يَا بْنَؤُمَّ لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلا بِرَأْسِي﴾ : قرئ بالفتح والكسر للميم ، ونسبه إلى الأمّ مع كونه اخاه لأبيه وامه، عند الجمهور ؛ استعطافاً له وترقيقاً لقلبه، ومعنى ﴿وَلا بِرَأْسِي﴾: ولا بشعر راسى، أى لاتفعل هذا بى عقوبة منك لى، فإن لى عذراً هو: ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ اى: خشيت إن خرجت عنهم وتركتهم أن يتفرقوا ،فتقول : إنى فرقت جماعتهم ؛ وذلك لأن هارون لو خرج لتبعه جماعة منهم، وتخلف مع السامرى عند العجل آخرون ، وربما افضى ذلك إلى القتال بينهم ، ومعنى ﴿وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ ولم تعمل بوصيتى لك فيهم ، إنى خشيت أن تقول : فرقت بينهم ، وتقول: لم تعمل بوصيتى لك فيهم وتحفظها. ومراده بوصية موسى له هو قوله : ﴿اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ﴾ [الأعراف: ١٤٢] ؛قال أبو عبيد : معنى ﴿وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ ولم تنتظر عهدى وقدومى؛ لأنك أمرتنى أن أكون معهم ، فاعتذر هارون إلى موسى هاهنا بهذا . [فتح القدير : ٣/ ٣٨٣]

وقال الماوردى فى قوله تعالى : ﴿لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلا بِرَأْسِي﴾ : فيه قولان :

أحدهما : أنه اخذ شعره بيمينه، ولحيته بيسراه ، قاله ابن عباس .

الثانى : أنه اخذ بأذنه ولحيته، فعبرّ عن الأذن بالرأس ، وهو قول من جعل الأذن من الراس. [1].

واختلف فى سبب أخذه بلحيته ورأسه على ثلاثة أقوال:

أحدها : ليسر إليه نزول الألواح عليه؛ لأنها نزلت عليه فى هذه المناجاة ، وأراد أن يخفيها عن بنى إسرائيل قبل التوبة ، فقال له هارون : لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى؛ ليشتبه سراره على بنى إسرائيل. =

---

(١) قال ﷺ : « الأذنان من الراس». ذكره الألبانى فى السلسلة الصحيحة [٣٦]،وقال: حديث صحيح، له طرق كثيرة عن جماعة من الصحابة؛منهم أبو أمامة، وأبو هريرة،وابن عمرو، وابن عباس، وعائشة، وأبو موسى، وأنس، وسمرة ابن جندب، وعبد الله بن زيد .

فعل، أخذناها من كلام هارون :﴿لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلا بِرَأْسِي﴾ ، وعلّة ذلك أن هارون خشى أن يظن موسى أنه فرّق بين بنى إسرائيل، ولم يراعِ نصيحة موسى له، بأن يصلح بين القوم، والإصلاح: أن يحافظ على سلامة القوم، ويعمل الصالح لهم، فلو دخل معهم فى معركة، لقضى العدد الأكبر من عبدة العجل، على العدد القليل من المؤمنين الموحدين مع هارون، الذين ظلّوا على عهدهم مع موسى عليه السلام، ولو حدث ذلك لانتهت خليّة الإيمان فى بنى إسرائيل. فهارون اجتهد وعمل على الحفاظ على القوم، فى إطار نصيحة موسى له، فكأن موسى سأل هارون؛ ليسمع منه الإجابة ودفاعه عن نفسه ؛ ليحفظها التاريخ وتسمعها الدنيا كلها.

= الثانى : فعل ذلك لأنه وقع فى نفسه أن هارون مائل إلى بنى إسرائيل، فيما فعلوه من أمر العجل ، ومثل هذا لا يجوز على الأنبياء.

الثالث : – وهو الأشبه – أنه فعل ذلك لإمساكه عن الإنكار على بنى إسرائيل الذين عبدوا العجل، ومقامه بينهم على معاصيهم. [تفسير الماوردى: ٣/ ٤٢٠، ٤٢١]

* رب اغفر لى ولأخى *

يقصّ علينا القرآن أن هارون قال لموسى : ﴿فَلا تُشْمِتْ بِيَ الأَعْدَاءَ﴾ [الأعراف: ١٥٠] ، فكأن الذين كفروا من قوم موسى كانت بينهم وبين هارون عداوة ، وقاومهم على قدر طاقته البشرية.

وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَلا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ ؛ أى لا يظن أحد أن هارون انضم إلى هؤلاء الناس الذين عبدوا العجل، أو على الأقل أنه وافقهم.

إذن. . فهناك موقفان، موقف موسى الذى يملؤه الغضب تجاه ماحدث، وموقف هارون الذى يبين العلة فى أن القوم استضعفوه وكادوا يقتلونه.

حينما قال هارون ذلك، تنبَّه موسى إلى أمرين:

الأمر الأول: كيف يلقى الألواح وفيها المنهج ؟

والأمر الثانى: كيف يأخذ أخاه بهذا الغضب الشديد قبل أن يتبيّن الحقيقة ؟

حين أحسّ موسى أن الغضب قد أخذه، فمنعه من أن يتريّث قبل أن يتصرف، فاتجه إلى السماء، وقال: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾(١) [الأعراف: ١٥١] .

---

(١) قال الشوكانى فى قوله تعالى : ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلأَخِي﴾: هذا كلام مستأنف =

وطلب موسى الغفران من الله، كان عن إلقائه الألواح وظلمه لأخيه[1].

ولكن لماذا يطلب موسى الغفران لأخيه؟ لأن هارون كان يجب أن يقاتل هؤلاء القوم الذين كفروا بعد إيمانهم وعبدوا العجل، بعد أن غمرهم الله سبحانه وتعالى بمعجزاته وآياته.

وقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ ، إذا سمعنا أرحم الراحمين، تذكرنا خير الرازقين، وخير الوارثين، وأحسن الخالقين، نعرف أن كل صفة لله تتعدى إلى خلقه، لابد من استخدام صيغة التفضيل، فالله سبحانه وتعالى قد وضع فى خلقه الرحمة، وطلب منهم أن يكونوا رحماء بمن هم أضعف منهم؛ لذلك يوجد رحيم ويوجد راحم، ولكن المخلوق حينما يتخلق بالرحمة، فإنه يرحم واحدا أو اثنين أو

- جواب سؤال مقدر، كأنه قيل: فماذا قال موسى بعد كلام هارون هذا؟ فقيل: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلأَخِي﴾ طلب المغفرة له أولا، ولأخيه ثانيا؛ ليزيل عن أخيه ما خافه من الشماتة ، فكأنه تذمَّم مما فعله بأخيه، وأظهر أنه لا وجه له ، وطلب المغفرة من الله مما فرط منه فى جانبه، ثم طلب المغفرة لأخيه، إن كان قد وقع منه تقصير فيما يجب عليه من الإنكار عليهم، وتغيير ما وقع منهم . ثم طلب إدخاله وإدخال أخيه فى رحمة الله التى وسعت كل شىء ، فهو: ﴿أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ .

[فتح القدير : ٢/ ٢٦١]

(١) يقول ابن جرير : لما انتهى موسى إلى قومه، فرأى ما هم فيه من عبادة العجل ، ألقى الألواح من يده، وكانت فيما يذكرون من زبرجد أخضر ، ثم أخذ برأس أخيه ولحيته، ويقول : ﴿مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلا تَتَّبِعَنِ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ ، و : ﴿قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلا تُشْمِتْ بِيَ الأَعْدَاءَ وَلا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ ، فارعوى موسى وقال : ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ .

[تاريخ الطبرى : ١/ ٢٩٩- ٣٠٠]

جماعة، كل حسب قدراته وقوته، ولكن الحق سبحانه وتعالى رحيم بخلقه كلهم، قوته لا نهاية لها؛ ولذلك فإن رحمته لا نهاية لها، ولذلك فهو ﴿ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾(١).

---

(١) يقول صاحب اللسان : الله الرحمن الرحيم : بُنيت الصفة الأولى على فُعلان؛ لأن معناه الكثرة ؛ وذلك لأن رحمته وسعت كل شيء وهو أرحم الراحمين ، فأما الرحيم فإنما ذُكر بعد الرحمن ؛ لأن الرحمن مقصور على الله عز وجل ، والرحيم قد يكون لغيره، قال الفارسى : إنما قيل بسم الله الرحمن الرحيم، فجيء بالرحيم بعد استغراق الرحمن معنى الرحمة ؛ لتخصيص المؤمنين به فى قوله تعالى : ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣] ، كما قال : ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ﴾ [العلق: ١] ، ثم قال: ﴿خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ ، فخصَّ بعد أن عمَّ ،لما فى الإنسان من وجوه الصناعة ووجوه الحكمة ، ونحوه كثير؛ قال الزجاج : الرحمن اسم من أسماء الله عز وجل، مذكور فى الكتب الأول، ولم يكونوا يعرفونه من أسماء الله ؛ قال أبو الحسن : أراه يعنى أصحاب الكتب الأول ، ومعناه عند أهل اللغة : ذو الرحمة التى لا غاية بعدها فى الرحمة ؛ لأن فعلان بناء من أبنية المبالغة ، ورحيم: فعيل بمعنى فاعل ، كما قالوا: سميع بمعنى سامع وقدير بمعنى قادر، وكذلك رجل رحوم وامرأة رحوم؛ قال : الأزهرى ولا يجوز أن يقال: رحمن إلا لله عز وجل ، وفعلان من أبنية ما يبالغ فى وصفه، فالرحمن الذى وسعت رحمته كل شيء ، فلا يجوز أن يقال: رحمن لغير الله؛ وحكى الأزهرى عن أبى العباس فى قوله الرحمن الرحيم : جمع بينهما؛ لأن الرحمن عبرانى والرحيم عربى ؛ وأنشد لجرير(١): =

---

(١) الأبيات من قصيدة لجرير، وهو أبو حَزْرة جرير بن عطية بن حذيفة الملقّب بالخطفى، ولد باليمامة نحو عام (٦٥٣م / ٣٣هـ) . والقصيدة التى منها هذه الأبيات بعنوان: لن تدركوا المجد ، وهى من بحر البسيط.

وللبيت الأول رواية أخرى بالديوان ؛ هى :

لن تدركوا المجد أو تشروا عباءكُمُ   بالخزِّ أو تجعلوا التَّنُّوم ضَمْرَانا

والتنوم : نوع من الشجر . الضمران : الريحان، وهو نوع من الشجر.

[ديوان جرير : ٧٥٦] بتصرف

= لن تدركوا المجد أو تشروا عباءكم بالخزِّ ، أو تجعلوا الينبوت ضمرانا
أو تتركون إلى القَسَّين هجرتكم ومسحكم صلبهم رحمان قربانا؟

وقال ابن عباس : هما اسمان رقيقان أحدهما أرق من الآخر ، فالرحمن: الرقيق والرحيم: العاطف على خلقه بالرزق ؛ وقال الحسن : الرحمن اسم ممتنع لا يسمى غير الله به ، وقد يقال: رجل رحيم. الجوهرى : الرحمن والرحيم اسمان مشتقان من الرحمة ، ونظيرهما فى اللغة نديم وندمان ، وهما بمعنًى ، ويجوز تكرير الاسمين إذا اختلف اشتقاقهما على جهة التوكيد، كما يقال: فلان جادٌّ مجدٌّ، إلا أن الرحمن اسم مختص لله تعالى ، لا يجوز أن يسمى به غيره ولا يوصف ، ألا ترى أنه قال: قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن؟ فعادل به الاسم الذى لايشركه فيه غيره، وهما من أبنية المبالغة، ورحمن أبلغ من رحيم ، والرحيم يوصف به غير الله تعالى: فيقال: رجل رحيم ، ولا يقال: رحمن.

[لسان العرب : ١٢/ ٢٣٠، ٢٣١]

* اذكروا نعمة الله عليكم *



﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾[1] [المائدة: ٢٠] وساعة تسمع ﴿ وَإِذْ ﴾ اعلم بأنها ظرفية.. وظرفية تعنى «حين» ، كأن الحق يقول: اذكر حين قال موسى لقومه: ﴿ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ ، والحق يقول لرسوله ذلك؛ لأن هذا اللون من التذكر، يعين الرسول ﷺ على تحمّل ما يتعرض له فى أمر الدعوة والرسالة، سواء من الملاحدة أو من أهل الكتاب.

إن الحق حينما قال : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ﴾ أى اذكر يا محمد ،

---

(١) قال القاسمى فى قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ أى : التى هى فوق نعمه على من سواكم. فلا تفرّطوا فى أمره إذ لم يفرط فى حقكم ﴿إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ﴾ أى : وهم أكمل الخلائق ومكمّلوهم، ولم يبعث فى أمة ما بعث فى بنى إسرائيل من الأنبياء ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾ يعنى : وجعلكم أحراراً تملكون أنفسكم بعدما كنتم فى أيدى القبط مملوكين، فأنقذكم الله . فسمى إنقاذهم ملكاً ﴿وَآتَاكُم﴾ أعطاكم ﴿مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ من أنواع الإكرام التى خصكم بها - كفلق البحر لهم ، وإهلاك عدوهم ، وتوريثهم أموالهم، وإنزال المنّ والسلوى عليهم ، وإخراج المياه العذبة من الحجر، وإظلال الغمام فوقهم- فمقتضى هذه النعم المبادرة إلى امتثال أوامر المنعم؛ شكرا له .
ثم أخبر تعالى عن تحريض موسى عليه السلام لقومه على الجهاد، والدخول إلى بيت المقدس الذى استحوذ عليه الجبابرة ، وأنهم نكلوا وعصوا أمره؛ فعوقبوا بالتيه لتفريطهم . [محاسن التأويل: ٦/ ١٩٣٣]

أو اذكر يا من تتبع محمداً ، أو اذكر يا من تقرأ القرآن: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾، ولا يقول موسى: ﴿يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ إلا إذا رأى منهم عملاً لا يتناسب مع النعم التى أنعم الله بها عليهم. وذلك - ولله المثل الأعلى - كما يقول الواحد منا لولد عاق: «اذكر ما فعله والدك معك» ولا يقول الواحد منا ذلك، إلاوقد بدرت من الابن بوادر لا تتناسب مع مقدمات النعم، ومقدمات الفضل عليه، فكأن قوم موسى قد أرهقوه، وتحمَّل منهم الكثير لدرجة أنه قال لهم على سبيل الزجر، ما قد يجعلهم يفيقون إلى ذكر نعمة الله عليهم.

ومعنى ذلك أن ذكر النعمة هو الاستماع إلى منهج الله، وتنفيذ أوامر الحق واجتناب النواهى.

﴿نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ النعمة يقصد بها الجنس، والمراد بها النعم كلها، وكأن كل نعمة على انفرادها جديرة بأن تذكر وتشكر، والدليل على أن النعمة يراد بها كل النعم أن الله قال: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لاتُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤] وما دام عد النعمة لا نعرف إحصاءه، فهذا معناه أنها نعم متعددة. إذن فالمراد بالنعمة كل النعم؛ لأنها اسم جنس.

وذكر النعمة يؤدى إلى شكر المنعم.

وذكر النعمة أيضاً يؤدى إلى الاستحياء من أن نعصى من أنعم.

وذكر النعمة أيضا يجعلنا نستحى أن تؤخذ نعمته؛ لتكون معينة على معصيته.

إذن .. قوله تعالى : ﴿اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ يعنى : إنها نعم كثيرة، تمتعوا بها. ألم يفلق الحق لهم البحر، بعد أن ضرب الماء بالعصا:

﴿ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴾ [الشعراء: ٦٣] إن الماء السائل صار جبالاً.

وضرب لهم الحجر بأمر الله فانفجر منه الماء: ﴿ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ﴾ [البقرة: ٦٠] إنها عجائب كثيرة تتجلى فيها قدرة الخالق الأعظم، فقد ضرب موسى البحر، فصار كل فرق كالطود العظيم، كأن الماء صار صخرا، وضرب موسى الصخر فتفجر الماء، إنها عجائب ومعجزات. وماذا أيضا؟ ألم يظللكم بالغمام؟ ألم ينزل عليكم فى التيه المن والسلوى؟ وكل هذه النعم ألا تستحق ذكر الله ،وشكر نعمه، والاستحياء من معصيته؛ وأن ترهقوا الرسول الذى جاء لهدايتكم؟ إن كل هذه النعم تستحق الشكر: ﴿ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا ﴾ .

كلما أدركتهم غفلة فإن الحق يرسل لهم نبياً كأسوة سلوكية، ولم يغضب عليهم ولم يقل: أرسلت لهم رسولاً واثنين وثلاثة وأربعة ولم يهتدوا، بل كلما عصوا الله واستعصت أدوائهم أرسل لهم الرؤف الرحيم رسولاً، مثلهم فى ذلك مثل المريض الذى لا يضن عليه عائله بطبيب أو طبيبين أو ثلاثة أو أربعة، بل كلما لاحظ عائله شيئا فإنه يرسل له طبيباً، إن ذلك كان يجب أن يقابل بالشكر والامتنان؛ لأن الله أرسل إليهم كثيراً من الرسل، وكان يجب عليهم أن يعلموا أن أدوائهم قد كثرت، وصار مرضهم مستعصياً ، ؛ لأنه لو لم يكن المرض مستعصياً ما كانوا فى حاجة إلى هذه الكثرة من الأنبياء. ومع ذلك رحمهم الله، وكلما زاد داؤهم أرسل لهم نبيًا ، ولم يكتف الحق بأن جعل فيهم أنبياء، بل قال الحق: ﴿ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا ﴾ .

وليس معنى ذلك أنهم كلهم صاروا ملوكا، ولكن كان منهم الملوك والملك كلمة أخذت اصطلاحاً سياسياً ، فكل إنسان مالك لما فى حوزته مالك لثوبه، أو مالك اللقمة التى يأكلها، أو مالك البيت الذى ينام فيه، لكن الملك هو الذى يملك، ويملك من ملك. إذن فكل واحد عنده القدرة أن يملك شيئاً ، ويملك من ملكه يكون ملكا. فرجل عنده راعيان يقومون برعى القطعان من الماشية التى يملكها، وعنده أناس يخدمون فى المنزل، وأناس يعملون فى المزرعة، وعنده أكثر من سائق، وعنده أناس كثيرون يأتمرون بأمره، ولا يدخلون عليه إلا بإذنه، ولا يتكلف فى لقائهم أى مشقة، هذا الرجل لا بد أن يكون ملكا إنه رجل يقول عنه العامة : «ملك زمانه».

إن الحق قد أعطاهم نعمة وفيرة ، والنبى ﷺ يحدد الملكية الواسعة - التى تريح الفرد - تحديداً إيمانياً : فقال «من أصبح معافى فى بدنه ، آمنا فى سربه عنده قوت يومه ؛ فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها»(١).

وما دام قد حيزت لهم الدنيا بحذافيرها فقد جعلهم ملوكا ﴿وَآتَاكُم مَّالَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾(٢) [المائدة: ٢٠] أى أنه سبحانه وتعالى أعطاهم

---

(١) اخرجه ابن ماجه [٤١٤١] عن عبيد الله بن مِحْصن الأنصارى بلفظ: «من أصبح منكم معافىً فى جسده، آمناً فى سِربه ، عنده قوت يومه ، فكأنما حِيزَتْ له الدنيا». وحسّنه الألبانى فى صحيح ابن ماجه[٣٣٤٠]

(٢) قال ابن جرير : ما أوتى أحد من النعم فى زمان قوم موسى ما أوتوا، خصوا بفلق البحر لهم ، وإنزال المن والسلوى ، وإخراج المياه العذبة من الحجر، ومد الغمام فوقهم ، ولم تجمع النبوة والملك لقوم كما جمعا لهم، وكانوا فى تلك الأيام هم العلماء بالله ، وأحباؤه وأنصار دينه. انتهى .

وأن المراد كثرة الأنبياء ، أو خصوصات مجموع آيات موسى، فلفظ العالمين مقيد بالزمان الذى كان فيه بنو إسرائيل ؛ لأن أمة محمد قد أوتيت من آيات محمد ﷺ =

ما لم يعطه لأحد ممن حولهم ، ووالى ذلك العطاء ؛ ألم يعط سليمان وهو من بنى إسرائيل ملكا لم يعطه لأحد من بعده؟.

= أكثر من ذلك ؛ قد ظلل رسول الله ﷺ بغمامة قبل مبعثه ، وكلّمته الحجارة والبهائم، وأقبلت إليه الشجرة، وحنّ له الجذع ، ونبع الماء من بين أصابعه، وشبع كثير من الناس من قليل الطعام ببركته ، وانشق له القمر، وعد العود سيفاً، وعاد الحجر المعترض فى الخندق رملاً مهيلاً ، إلى غير ذلك من آياته العظمى ومعجزاته الكبرى. وهذه المقالة من موسى لبنى إسرائيل وتذكيرهم بنعم الله، هى توطئة لنفوسهم؛ وتقدم إليهم بما يلقى من أمر قتال الجبارين ليقوى جأشهم، وليعلموا أن من أنعم الله عليه بهذه النعم العظيمة لا يخذله الله ، بل يعليه على عدوه ، ويرفع من شأنه ، ويجعل له السلطنة والقهر عليه.
والخطاب فى قوله :﴿ وَآتَاكُم ﴾ ، ظاهره أنه لبنى إسرائيل كما شرحناه ، وأنه من كلام موسى لهم، وبه قال الجمهور . وقال أبو مالك ، وابن جبير : هو خطاب لأمة محمد ﷺ ، وانتهى الكلام عند قوله : "﴿ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا ﴾"، ثم التفت إلى هذه الأمة لما ذكر موسى قومه بنعم الله ؛ ذكر الله أمة محمد ﷺ بهذه النعمة الظاهرة جبراً لقلوبهم، وأنه آتاهم ما لم يؤت أحداً من العالمين ، وعلى هذا المراد بالعالمين العموم، فإن الله فضّل أمة محمد ﷺ على سائر الأمم، وآتاهم ما لم يؤت أحدًا من العالمين، وأسبغ عليهم من النعم ما لم يسبغها على أحد من الأمم .
[البحر المحيط: ٤/٢١٦]

* تمرد بنى إسرائيل على رزق الله *

يقول الحق جل وعلا : ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ (١) [البقرة: ٦١] عرفنا من قبل أن الله قد رزق قوم موسى ﴿الْمَنَّ

---

(١) يقول ابن الجوزى فى تأويل قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾ هذا قولهم فى التيه . وعنوا بالطعام الواحد : ﴿الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ﴾ قال محمد بن القاسم : كان المن يؤكل بالسلوى ، والسلوى بالمن . فلذلك كانا طعامًا واحدًا .

(والبقل) ها هنا اسم جنس وعنوا به : البقول، قرأت على شيخنا أبى منصور اللغوى قال : تذهب العامة إلى أن البقل : ما يأكله الناس خاصة دون البهائم من النبات الناجم الذى لا يحتاج فى أكله إلى طبخ ، وليس كذلك ؛ إنما البقل . العشب وما ينبت الربيع مما يأكله الناس والبهائم. وفى (القثاء) لغتان : كسر القاف وضمها ، والكسر أجود ، قال الفراء : الكسر لغة أهل الحجاز ، والضم لغة تميم وبعض بنى أسد .

وفى (الفوم) ثلاثة أقوال :

أحدها: أنه الحنطة ، قاله ابن عباس، والسدى عن أشياخه، والحسن، وأبو مالك .

والثانى : أنه الثوم ، وهو قراءة عبد الله وأبىّ (وثومها) واختاره الفراء ، والفاء تبدل من الثاء ، كما تقول العرب :الجدث ، والجدف :للقبر، والأثافى ، والأفافى=

وَالسَّلْوَى﴾ وكان هذا لونا واحدًا من الطعام؛ لأنهم إما كانوا يأكلونه يومياً وفى كل وجبة، وإما كانوا يخلطوهما معًا ليجعلوا طعمه مختلفًا ليستسيغوه وكان هذا الرزق لا دخل لهم فيه، فهم لا يزرعون المن، ولا يجهدون

= للحجارة التى توضع تحت القدر. وهذا قول مجاهد، والربيع بن أنس ، ومقاتل، والكسائى ، والنضر بن شميل ، وابن قتيبة .

والثالث : أنه الحبوب ، ذكره ابن قتيبه والزجاج.

قوله تعالى : ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ﴾ اى اردا ﴿بِالَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾ اى : أعلى ، يريد : أن المنّ والسلوى أعلى مما طلبتم .

قوله تعالى : ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا﴾ فيه قولان :

أحدهما : أنه اسم لمصر من الأمصار غير معين .قاله ابن مسعود ، وابن عباس ، وقتادة ، وأبى زيد ، وإنما أُمروا بالمصر الذى طلبوه فى الأمصار .

والثانى : أنه أراد البلد المسمى بمصر . وفى قراءة عبد الله والحسن وطلحة ابن مصرف والأعمش (مِصْرَ) بغير تنوين قال أبو صالح عن ابن عباس : أراد مصر فرعون ، وهذا قول أبى العالية والضحاك واختاره الفراء واحتج بقراءة عبد الله .

وحكى ابن فارس أن قوما قالوا: سميت بذلك لقصد الناس إياها،فالناس يقصدونها ولا يكادون يرغبون عنها إذا نزلوها .

قوله تعالى :﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ﴾ اى ألزموها . قال الفراء : الذلّة والذّل بمعنى واحد ، وقال الحسن هى الجزية . وفى ﴿الْمَسْكَنَةُ﴾ قولان :

أحدهما : أنه الفقر والفاقة ، قاله أبو العالية ، والسدى وأبو عبيدة وروى عن السدى قال : هى فقر النفس.

والثانى : أنها الخضوع ، قاله الزجاج .

قوله تعالى : ﴿وَبَاءُوا﴾ اى : رجعوا . قوله تعالى : ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الغضب . وقيل : إلى جميع ما ألزموا من الذلة والمسكنة وغيرهما .

قوله تعالى : ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ﴾ قال عبد الله بن مسعود : كانت بنو إسرائيل تقتل فى اليوم ثلاثمائة نبى ، ثم تقوم سوق بقلهم فى آخر النهار. وقوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ فيه ثلاثة أقوال : =

أنفسهم فى الحصول على طائر السمان.

وهكذا اعتبر قوم موسى المن والسلوى طعاماً واحداً . ولنقف الآن بالتأمل عند كلمة﴿ واحِدٍ﴾.

إن كلمة ﴿واحِدٍ﴾ تعنى: أول العدد، وهو أيضا فى تعريفه أصل العدد؛ لأن عدد أى شئ يبدأ من «واحد» مضموم إليه أعداد أخرى. وعندما يقوم العلماء بتعريف أى «عدد» آخر غير «الواحد» فإنهم يقولون: إنه نصف مجموع حاشيتيه المتساويتين فماذا يعنى ذلك؟ لنفترض أن رجلاً يجلس على يمين رجلين، هنا نعتبر الرجل الذى يجلس على اليمين الحاشية الأولى، ونعتبر الرجل الجالس على الشمال الحاشية الثانية، وهكذا يكون الرجل الجالس بين الرجلين، مساوياً لنصف مجموع الحاشيتين المتساويتين.

وعندما نأخذ أى عدد بين حاشيتين، فعلينا أن نأخذ حاشيتين يكون نصفهما مساوياً للعدد. مثال ذلك العدد «خمسة» حاشيته الأولى «أربعة» وحاشيته الثانية «ستة»، ومجموعهما يساوى «عشرة». ونصف مجموعهما هو العدد رقم «خمسة»، وعندما نتأمل كلمة «واحد» ،فإننا نجد أنها تدل

= أحدها : أن معناه : بغير جرم قاله ابن الأنبارى .

والثانى: أنه توكيد كقوله تعالى: ﴿ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِى فِى الصُّدُورِ ﴾ .

والثالث : أنه خارج مخرج الصفة لقتلهم أنه ظلم . فهو كقوله تعالى : ﴿رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ ﴾ [الأنبياء: ١١٢] فوصف حكمه بالحق ، ولم يدل على أنه يحكم بغير الحق .

وقوله تعالى : ﴿وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ العدوان : أشد الظلم . وقال الزّجاج : الاعتداء مجاوزة القدر فى كل شىء . [زاد المسير : ١/ ٧٥-٧٧ بتصرف]

على وحدة الفرد وقد يكون مجزأ، ولذلك نحن لا نكتفى بالقول بأن الله «واحد»، ولكننا نقول « الله واحد أحد » أى أنه واحد لا أجزاء له. (١)

(١) قال الشيخ حافظ الحكمى :

الأحدُ الفَرْدُ القديرُ الأزلى الصَّمدُ البَرُّ المهيمنُ العَلّى
علو قهرٍ وعلوّ الشأنْ جَلَّ عنِ الأضدَّادِ والأعوانِ
كذا له العلوُّ والفوقيّة على عباده بلا كيفيَّة

« الأحد الفرد » الذى لا ضد له ، ولا ند له ، ولا شريك له فى إلهيته وربوبيته ، ولا متصرف معه فى ذره من ملكوته ، ولا شبيه له ، ولا نظير له فى شىء من أسمائه وصفاته . فهو أحد فى إلهيته لا معبود بحق سواه ، ولا يستحق العبادة إلاهو ؛ ولذا قضى ألا نعبد إلا إياه ، وهو أحد فى ربوبيته ، فلا شريك له فى ملكه، ولا مضاد ولا منازع ولا مغالب . أحد فى ذاته وأسمائه وصفاته فلا شبيه له، ولامثيل ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١] ، ﴿يَعْلَمُ مَابَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَايُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴾ [طه: ١١٠] ، فكما أنه الأحد الفرد فى ذاته وإلهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته ، فهو المتفرد فى ملكوته بأنواع التصرفات - من الإيجاد ، والإعدام ، والإحياء ، والإماتة ، والخلق ، والرزق ، والإعزاز ، والإذلال ، والهداية ، والإضلال، والإسعاد ، والإشقاء ، والخفض ، والرفع ، والعطاء ، والمنع ، والوصل ، والقطع ، والضر ، والنفع - فلو اجتمع أهل السموات السبع والأرضين السبع ومن فيهن وما بينهما على إماتة من هو محييه ، أوإعزار من هو مذله ، أو هداية من هو مضله ، أو إسعاد من هو مشقيه ، أوخفض من هو رافعه ، أو وصل من هو قاطعه ، أو إعطاء من هو مانعه ، أو ضر من هو نافعه ، أو عكس ذلك ، لم يكن ذلك بممكن فى استطاعتهم ، وأنَّى لهم ذلك ، والكل خلقه وملكه وعبيده ، وفى قبضته وتحت تصرفه وقهره ، ماض فيهم حكمه ، عدل فيهم قضاؤه ، نافذة فيهم مشيئته لا امتناع لهم عما قضاه ، ولاخروج لهم من قبضته ، ولا تحرك ذرة فى السموات والأرض ، ولا تسكن إلابإذنه، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن . [معارج القبول : ١/١٣٦]

وعن أبى بن كعب أن المشركين قالوا لرسول الله ﷺ : انسب لنا ربك ، فانزل الله : ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ① اللَّهُ الصَّمَدُ ②﴾ [الإخلاص] فالصمد الذى لم يلد ولم يولد ؛ لأنه ليس شىء يُولد إلا سيموت ، ولا شىء يموت إلا سيورثَ ، وإنّ=

ولكننا نقول عن أى إنسان إنه «واحد»، ولا نقول عن الإنسان «واحد أحد» لماذا؟ لأن الإنسان واحد متشابه مع غيره وله أجزاء، ونقول أيضا عن الشمس إنها كوكب واحد، ولأنها مكونة من أشياء هى الغازات الملتهبة؛ لذلك لا نقول عنها إنها «أحد».

لا يوجد من يقال له «واحد أحد» سوى الله جل وعلا؛ لأنه الواحد الأحد الفرد الصمد الذى ليس كمثله شئ، ولذلك فعندما قال قوم موسى: ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾ فلنا أن نفهم أنهم اعتبروا المن والسلوى- رغم أنهما صنفان من الطعام- صنفاً واحداً ؛ لأن الطعام متكرر النوع كل يوم، ورتيب رغم أنه مكون من أجزاء.

كما أن القلق قد استبد بهم، من فرط تعنتهم مع أنفسهم وأوهامهم،

= الله عز وجل لا يموت ولا يُورث ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص: ٤] قال : « لم يكن له شبيه ولا عدلٌ وليس كمثله شيء » . أخرجه الترمذى [٣٣٦٤] ، وقال الألبانى فى صحيح الترمذى [٢٦٨٠] :حسن دون قوله: « والصمد الذى. . .» .

وعن بريدة أن رسول الله ﷺ سمع رجلاً يقول : اللهم إنى أسالك أنى أشهد أنك أنت الله لا إله الا أنت ، الأحد الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوًا أحد ، فقال : « لقد سألت الله بالأسم الذى إذا سُئل به أعطى ، وإذا دُعى به أجاب » . أخرجه أبو داود [١٤٩٣] واللفظ له ، والترمذى [٣٤٧٥] وقال : حديث حسن غريب، وابن ماجة [٣٨٥٧] ، والنسائى فى المجتبى [٣/ ٥٢] ، وصححه الألبانى فى صحيح أبى داود [١٣٢٤] .

وعن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « قال الله تعالى : كذّبنى ابن ادم ولم يكن له ذلك، وشتمنى ولم يكن له ذلك . فأما تكذيبه إياى ، فقوله : لن يعيدنى كما بدأنى ، وليس أول الخلق بأهون علىَّ من إعادته . وأما شتمه إياى فقوله : اتَّخذ الله ولدًا ، وأنا الأحد الصمد ، لم ألد ولم أولد ولم يكن لى كفوًا أحد » . أخرجه البخارى [٤٩٧٤]

لقد قال بعضهم: من يدرينا أن المن لن ينزل على الشجر، وقد يأتى يوم ونذهب إلى الشجر لنهزه فلا يتساقط المن.

وقال بعض آخر ومن يدرينا متى يتوقف مجيء أسراب السمان.

لقد تناسوا أنهم فى صحبة نبى مرسل من الله، وأن البحر انفلق أمامهم، وأن الله أنقذهم من عذاب فرعون وقومه. لقد كان إيمانهم بالغيب غير موجود، وحجبت المادة رؤيتهم؛ لذلك أصابت الصفاقة أرواحهم، وقادهم التعنت إلى عدم الصبر على الطعام الذى رزقهم الله إياه، وبدلوا نعمة الله كفراً .

جحدوا آيات الرحمن، وقالوا: إن هذا الطعام لن نصبر عليه ونريد غيره ، لقد تعودوا على ما تخرجه الأرض من طعام: كالبقل، والقثاء، والثوم، والعدس، والبصل، ونحن نعرف أن أرض مصر تخرج ألوانا شتى من الطعام فيها تنوع كثير، ولكن هذه الاختيارات التى اختاروها، تدل على ما تعودوا عليه من استعباد سابق؛ ذلك أن آل فرعون كانوا يستعبدونهم قبل مبعث موسى رسولاً ؛ لذلك قالوا لموسى عليه السلام: ﴿ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا ﴾ وعندما نقف بالتأمل عند قولهم: ﴿ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ ﴾ فإنهم يأمرون موسى بأن يتوجه بالطلب والرجاء لمن هو أعلى.

إن التوجه بالطلب إلى من هو أعلى منك يسمى دعاء؛ لأن فيه ذلة الداعى أمام عزة المدعو، وعندما يطلب الإنسان شيئاً من مساوٍ له، فإن ذلك يسمى التماسا، وعندما يطلب الإنسان شيئاً ممن هو أقل منه، فإن ذلك يسمى أمرا، وهكذا نعرف أن الطلب ثلاثة أنواع:

الأول : إذا كنت تطلب من أعلى منك فهذا دعاء.

الثانى : إذا كنت تطلب من مساوٍ لك فذلك التماس.

الثالث : إذا كنت تطلب ممن هو أقل منك فذلك أمر.

وعندما نتأمل طلب قوم موسى أن يخرج لهم الله من الأرض: ﴿مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا﴾ (١) فإن تلك الألوان من الطعام أدنى مرتبة من المن والسلوى؛ لأن المن والسلوى لا جهد لهم فى الحصول عليهما ، إنما هو رزق ساقه الله إليهم ، تفضلاً منه سبحانه عليهم.

أما البقل، والقثاء، والفوم، والعدس، فهى نباتات يزرعها الإنسان ويكدح فى سبيل أن تخرج من الأرض.

والبقل: هو كل نبات لا ساق له من الأرض، مثل: الخس، والفجل، والجرجير، والكرفس.

والقثاء : هى ما نعرفه شبيهًا للخيار.

---

(١) قال القرطبى : اختلف فى الوجوه التى توجب فضل المنّ والسلوى على الشىء الذى طلبوه وهى خمسة :

الأول : أن البقول لما كانت لا خطر لها بالنسبة إلى المنّ والسلوى ، كانا أفضل ؛ قاله الزجاج .

الثانى : لما كان المنّ والسلوى طعاما منَّ الله به عليهم ، وأمرهم بأكله ، وكان فى استدامة أمر الله وشكر نعمته أجر وذُخْرٌ فى الآخرة ، والذى طلبوه عارٍ من هذه الخصائل، كان أدنى فى هذا الوجه .

الثالث : لما كان ما من الله به عليهم أطيب وألذ من الذى سألوه ، كان ما سألوه أدنى من هذا الوجه لا محالة .

الرابع : لما كان ما أعطوه لا كلفة فيه ولا تعب ، والذى طلبوه لا يجىء إلا بالحرث والزراعة والتعب ، كان أدنى .

الخامس : لما كان ما ينزل عليهم لا مِريَّة فى حِلّه وخُلوصه لنزوله من عند الله ، والحبوب والأرض يتخللها البيوع والغصوب ، وتدخلها الشُّبه ، كانت أدنى من هذا الوجه . [تفسير القرطبى : ١/٤٨]

والفوم يفسرها البعض بأنها :الحنطة ، ويفسرها البعض بأنها : الثوم.

وهكذا نجد أن الحق سبحانه يوضح أن الألوان التى طلبوها من الأطعمة، لها من المشقة والتعب ما يرهق الإنسان؛ ذلك أنها تدخل فى دائرة قانون السببية، أى الإنسان يكدح بعرقه ليحرث الأرض، ويضع البذور ،ويروى الزرع بالمياه، ويتعهده حتى ينمو ثم الحصاد.

أما :﴿الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ﴾ فإن إرسالهما كرزق لهم، إنما هو قادم بما لاجهد لهم فيه أو إرهاق، إنه رزق مباشر من الله لا دخل للعبد فيه، لكن قوم موسى أصروا على ما يطلبون من بقل، وقثّاء، وثوم، وعدس.

لذلك قال لهم الحق: ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾ وجاءت كلمة: ﴿مِصْرًا﴾ فى تلك الآية منونة رغم أنها ممنوعة من الصرف(١).

ولقد ذكر القرآن «مصر» غير منونة فى أكثر من موضع، وأكثر من مرة.

كما فى قوله تعالى:﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[يونس: ٨٧]

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِى اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِى مَثْوَاهُ عَسَىٰ

---

(١) يقول الزجاج فى قوله عز وجل : ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا ﴾ الأكثر فى القراءة إثبات الألف وقد قرأ بعضهم : « اهبطوا مِصْرَ فإن لكم » بغير ألف . فمن قرأ: ﴿مِصْرًا ﴾ بالألف فله وجهان : جائز أن يراد بها مصرًا من الأمصار؛ لأنهم كانوا فى تيه . وجائز أن يكون أراد مصر بعينها ، فجعل مصرًا اسمًا للبلد ؛ فصرف لأنه مذكر سمى مذكرًا (١)، وجائز أن يكون مصر بغير ألف على أنه يريد مصرًا بعينها كما قال عز وجل :﴿ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴾ [يوسف: ٩٩] وإنما لم يصرف؛ لأنه للمدينة، فهو مذكر سمى به مؤنث . [معانى القرآن وإعرابه : ١/ ١٤٤]

(١) المراد أنه اسم لبلد مذكر، وعلى أنه اسم لمدينة يجوز صرفه أيضًا؛ لأنه ثلاثى ساكن الوسط .

أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف: ٢١].

وقوله تعالى: ﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلا تُبْصِرُونَ ﴾ [الزخرف: ٥١]

هكذا ذُكر اسم مصر أكثر من مرة فى القرآن الكريم [١] ، وهو ممنوع من الصرف، ونحن نعرف أن الشئ الذى يكون ممنوعا من الصرف، مقصود به تحديد مكان ما ، يعرفه كل الناس، وإذا تم صرف اسم ذلك المكان، فقد يكون المقصود هو تحديد بقعة أخرى، ونحن نعرف أن كلمة «مصر» تطلق على أى مكان له مُفْتٍ وأمير وقاضٍ. أى مدينة متحضرة بالعمران.

وكلمة «مصر» مأخوذة من الاقتطاع؛ لأنها مكان من العمران يقطع الأرض الخلاء، وعادة ما يقع ذلك المكان بين فضاءين؛ فإذا كان المقصود فى تلك الآية: «مصر» البلد الذى نعيش فيه؛ فإن قول الحق تبارك وتعالى يعنى أن يعود قوم موسى إلى مصر، حيث سامهم آل فرعون سوء العذاب.

ونحن نعرف أن مصر تقع بين الصحراء الشرقية، والصحراء الغربية؛ أى هى عمران بين فضاءين، وإن كان المراد بها أىّ مصر، أى مدينة لها قاضٍ وأمير ومُفْتٍ وبها عمران متحضر، فذلك مراد الله، وبذلك يكون رحيل قوم موسى إلى مدينة يجدون فيها ما سألوا عنه من طعام يختلف

---

(١) وورد اسم مصر فى موضع رابع من القرآن ؛ قال الله تعالى : ﴿ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴾ [يوسف: ٩٩] .

عن المن والسلوى[1].

---

(١) قال ابن كثير فى قوله تعالى :﴿اهْبِطُوا مِصْرًا﴾ هكذا هو منون مصروف مكتوب بالف فى المصاحف الأئمة العثمانية وهو قراءة الجمهور بالصرف . قال ابن جرير : ولا أستجيز القراءة بغير ذلك ؛ لإجماع المصاحف على ذلك ، وقال ابن عباس: ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا﴾ من الأمصار ، رواه ابن أبى حاتم من حديث أبى سعيد البقال سعيد بن المرزبان عن عكرمة عنه قال : وروى عن السدى وقتادة والربيع ابن أنس نحو ذلك [1] . وقال ابن جرير وقع فى قراءة أبى بن كعب وابن مسعود: « اهبطوا مِصْرَ» من غير إجراء ، يعنى من غير صرف . ثم روى عن أبى العالية والربيع ابن أنس أنهما فسرا ذلك بمصر فرعون، وكذا رواه ابن أبى حاتم عن أبى العالية والربيع وعن الأعمش أيضا[2]. قال ابن جرير: ويحتمل أن يكون المراد مصر فرعون على قراءة الإجراء أيضا . ويكون ذلك من باب الاتباع لكتابة المصحف ، كما فى قوله تعالى :﴿ .. قَوَارِيرَ قَوَارِيرَ .. ﴾ [الإنسان: ١٥، ١٦] ثم توقف فى المراد ما هو ، أمصر فرعون ، أم مصر من الأمصار ؟ وهذا الذى قاله فيه نظر، والحق أن المراد مصر من الأمصار ، كما روى عن ابن عباس وغيره ، والمعنى على ذلك: لأن موسى عليه السلام يقول لهم هذا الذى سألتم ليس بأمر عزيز ، بل هو كثير فى أى بلد دخلتموها وجدتموه، فليس يساوى من دناءته وكثرته فى الأمصار أن أسأل الله فيه . ولهذا قال: ﴿ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِى هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ﴾ أى ما طلبتم ، ولما كان سؤالهم هذا من باب البطر والأشر ولاضرورة فيه لم يجابوا إليه . والله أعلم .

[تفسير ابن كثير : ١/ ٩٧]

---

(١) أنظر تفسير ابن أبى حاتم [١/ ١٩٤- رقم ٦٢٢] .

(٢) انظر تفسير ابن أبى حاتم [١/ ١٩٤- رقم ٦٢٣] .

* توفير الماء والظل والطعام لبنى إسرائيل *

بعد أن أبلغنا الحق سبحانه وتعالى أن اليهود مقطعون فى الأرض، أكمل لنا القصة بالمعجزات التى حدثت لهم والتى قابلوها بالنكران، فقال: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾[1] [الأعراف: ١٦٠] ساعة تجد الألف والسين والتاء وبعدها أى لفظ، فاعلم أن المراد هو الطلب.

فمثلا معنى كلمة : استفهم أى طلب الفهم.

ومعنى : استخرج أى طلب إخراج الشئ.

ومعنى استسقى: أى طلب السقيا.

والسقيا هى: شربة الماء التى تذهب عن الإنسان العطش، ومادام

---

(١) يقول البقاعى: فى قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ﴾ اى حين ﴿اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ﴾ ،اى: طلبوا منه فى برية لا ماء بها أن يسقيهم ، وذلك فى التيه ؛ والتعبير بالقوم إشارة إلى تبكيتهم بكونهم أهل قوة، ولم يتأسوا بموسى عليه السلام فى الصبر ، إلى أن يأتى الله الذى أمرهم بهذا المسير بالفرج، بل طلبوا منه ذلك على الوجه المذكور فى البقرة [1] من إظهار القلق والدمدمة ﴿أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ﴾ اى التى جعلناها لك آية، وضربت بها البحر فانفلق ﴿الْحَجَرَ﴾ اى اىَّ حجر أردته من هذا الجنس . [نظم الدرر : ٨/ ١٣٣]

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى : ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [البقرة: ٦٠].

الإنسان يطلب السقيا، فلابد أنه ظمآن .

قوم موسى طلبوا السقيا وقت أن كتب الله عليهم التيه فى الصحراء؛ لأنهم لو كانوا فى أى قرية أو مدينة، لكانت مصادر الماء بجوارهم.

كما أن الحق سبحانه وتعالى شاء لهم ذلك؛ حتى يعلموا قيمة نعمة الله عليهم والتى لم يرعوها ؛ فتركهم يظمأون ليعرفوا قيمة نعمة الماء.

ولما اشتد بهم الظمأ، اتجهوا إلى موسى طالبين منه السقيا فهو رسول الله، وهو مستجاب الدعاء.

اتجه موسى إلى الله سبحانه وتعالى، قال: يارب اسقنا .

وقصة الاستسقاء وردت فى سورة البقرة فى قوله تعالى: ﴿ وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ﴾ [البقرة: ٦٠] ، فهناك آيتان:

الأولى : أن موسى استسقى لقومه.

والثانية : أن موسى استسقاه قومه.

إن كلا من الآيتين تكمل الأخرى، فقوم موسى استسقوه أى طلبوا منه الماء، وهو استسقى لقومه، أى طلب الماء من الله لهم، وهذا هو الترتيب الطبيعى للأحداث؛ لأن موسى لا يستطيع بذاته أن يأتى لقومه بالماء.

ففى آية سورة الأعراف المستسقى هنا هم القوم، والمستسقى منه موسى.

وفى سورة البقرة المستسقى هو موسى، والمستسقى منه هو الله.

حين رفع موسى يديه إلى السماء طالباً الماء، أوحى الله إليه: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ ﴾ الله سبحانه وتعالى أوحى إلى موسى أن يضرب بعصاه الحجر، ولكن هنا «أوحينا»

وهناك «قلنا»، فهل كلم الله موسى كلاماً مباشراً أو بواسطة ؟ نقول: إن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يدلنا على أن حادثة الاستسقاء ليست من تكليم الله لموسى، فالكلام هنا جاء وحيا ولم يأت مباشرة، مثل قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤] كلام الله لموسى حدث مرة واحدة للتشريف(١) ، ثم بعد ذلك كان بالوحى كغيره من الرسل؛ ولذلك فإن حكاية الاستسقاء ليست ضمن الكلام المباشر من الله لموسى.

---

(١) وقد ذكر الله أنه كلم موسى تكليمًا ؛ ولهذا يسمى موسى كليم الرحمن ، ولا يشك أهل السنة أن موسى عليه السلام سمع كلام الله حقيقة لا بواسطة ملك ، ولا مترجم؛ بل منه إليه ؛ لأن الله قال له : ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا﴾ [طه: ١٤] . ولا يصح أن يقول : هذا مخلوق ، فتحقق أنه عين كلام الله الذى سمعه موسى ، وقال تعالى : ﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي﴾ [الأعراف: ١٤٤] أى: اخترتك وخصصتك بإرسالى لك إلى فرعون ، وإلى قومك من بنى إسرائيل ، وبتكليمى لك كلامًا منى إليك ، ثم إن قوله : ﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ﴾ [البقرة:٢٥٣] يراد به موسى .

وقد حاول بعض الجهمية من بعض القراء أن يقرأها بنصب الجلالة ؛ حتى يكون موسى هو الفاعل؛ لينفى عن الله أنه هو المتكلم ، ولكن أورد عليه قوله تعالى : ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ [الأعراف: ١٤٣] . فهى صريحة فى أن الرب هو الفاعل .

وقد تكلف الجهمية وغيرهم من نفاة الكلام تأويل هذه الآيات ، حتى فسّر بعضهم قوله تعالى : ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤] بقوله : المراد جرحه بأظافير الحكمة ؛ لأن الكَلْمْ : الجرح فى اللغة ، وهذا تحريف للكلم عن مواضعه، يردّه توارد المعنى بألفاظ كثيرة يفهم منها صريح الكلام .ويردّه قوله تعالى : ﴿بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي﴾ ولم يقل « بِكَلْمِى» بإسكان اللام حتى يفسر بالجرح ، ويردّه آيات النداء وكذا آيات القول والحديث ونحوها ، والله تعالى يكلم من أراد من خلقه ، فيكلّم جبريل من وحيه بما أراد ، وكلّم محمداً ﷺ ليلة الإسراء .

[التعليقات على متن لمعة الاعتقاد : ٨٩-٩٠] .

وقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾ [البقرة: ٦٠] يدلنا على الإعجاز المطلق؛ لأن الحجر الموجود فى الصحراء لا يمكن أن يكون فيه ماء، ولأن الحق سبحانه وتعالى جعل موسى يضرب الماء بالعصا، فينقلب جبلاً، ويضرب الحجر بالعصا فينقلب ماء.

إذن.. فالله يعطى ويمنع بالشئ الواحد، فالأسباب فى يد الله يجعلها تفعل الشئ وضده فى نفس الوقت، وعصا موسى هى نفس العصا التى ضربت الماء فتحول إلى جبل، وضربت الحجر فخرج منه الماء.

إذن.. فالمسألة ليست فى العصا، ولكن فى الأسباب.

ماذا حدث عندما ضرب موسى الحجر، يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ [الأعراف: ١٦٠] هنا تعبير «انبجست»: وهناك «انفجرت»، والانبجاس هو: أن يخرج الماء على مهل. والانفجار: أن تخرج المياه بكميات كبيرة، والحق سبحانه وتعالى ذكر اللفظين، فكيف يمكن أن نفهم المعنى.

نقول: إن الله سبحانه وتعالى يريد أن يقص علينا ما حدث؛ فبمجرد أن ضرب موسى الحجر بعصاه خرج الماء بكميات قليلة. ثم بعد ذلك انفجر، وبدأ يخرج بكميات كثيرة.

إذن.. فهى لقطات متعددة لحدث واحد.

عندما تسمع قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾(١) [الأعراف: ١٦٠] تعرف أن قوم موسى مازالوا فرقاً، ولكن ضربة

---

(١) يقول البقاعى فى قوله تعالى: ﴿فَانْبَجَسَتْ﴾ اى فانشقت وظهرت ونبعت ﴿مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ على عدد الأسباط. [نظم الدرر: ٨/ ١٣٣]

والسبط بالكسر: ولد الولد، والسبط يشتمل لكثرته على عدة قبائل.

العصا لا يمكن أن ينتج عنها هذا العدد الكبير من العيون، بل إن المكان الذى تضربه العصا من الحجر، لا يمكن أن ينتج عنه أكثر من عين واحدة، ولكن هذا العدد الكبير من العيون، لابد أن ينتج فى مساحة واسعة، وهذا معناه: أنه عندما ضرب موسى الحجر بعصاه انفعلت الأرض لأمر ربها، وأخرجت هذا العدد الكبير من العيون.

وقول الحق: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾[1] [الأعراف: ١٦٠] يدل على أن الماء خرج من الأرض مقسما، بحيث يصل إنتاج كل عين إلى المكان الذى يقف فيه كل سبط من الأسباط، فلا ينطلقون جميعاً تجاه العين الأولى أو الثانية؛ بل العيون كلها قد انفجرت فى وقت واحد، وكل سبط منهم وصله الماء إلى مكانه؛ ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ أى لم يتزاحموا ، ووصل إليهم الماء بالتساوى، بحيث يكفيهم جميعاً ، فلم تُعطِ عين قليلاً من الماء ،ولم تُعطِ عين كثيرا منه، بحيث يوجد عند بعض الأسباط ما يزيد على حاجتهم، وعند البعض الآخر ما يقل عن هذه الحاجة . أو تكون هذه العين قريبة من قوم، والعين الأخرى بعيدة ؛ بل كل سبط وصل إليه من الماء مايكفيه ويزيد.

ومن المعجزات أيضًا الغمام يقول تعالى : ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ﴾ وهذا أيضا خلال فترة الأربعين سنة التى تاهوا فيها[2]؛ ففى الصحراء

---

(١) قال صديق خان فى قوله تعالى : ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ المعنى : علم كل سبط منهم بالعلم الضرورى الذى خلقه الله فى كلٍّ : العين المختصة به التى يشرب منها ، لا يدخل سبط على سبط فى مشربهم . [فتح البيان : ٥/٥٦]

(٢) قال تعالى فى سورة المائدة : ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ .

الشمس محرقة ؛ لأنه لا يوجد ظل، فتأتى رحمة الله بالغمام، وبما أنهم متفرقون تأتى كل غمامة على قدر السبط؛ حتى لا يكون هناك البعض فى ظل الغمامة، والبعض تحت أشعة الشمس المحرقة .

كما نصنع مثلا عشرين خيمة ونوزع عليها الموجودين؛ فيكون لكل واحد منهم مكان تحت الخيمة.

إذن فالحق سبحانه وتعالى عندما عطشوا أعطاهم الماء، وعندما لفحتهم أشعة الشمس المحرقة أتاهم بالغمام.

بقى الطعام والحق سبحانه وتعالى حين حدّث آدم وقت التجربة والاختبار، قال له إنه ضمن له فى هذه الجنة مقومات حياته ؛ فقال جل جلاله: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ (118) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ (119)﴾[1] [طه] إذن فقد ضمن له فيها الطعام، وضمن عدم التعرض لأشعة الشمس المحرقة، وضمن أن يكون الماء متوافرا فلا ظمأ ، وضمن ستر العورة فلا عُرْى .

والله سبحانه وتعالى أتى لبنى إسرائيل بالماء والظل ، وأما الطعام، فيقول سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ﴾ [الأعراف: ١٦٠] . ساعة تسمع ﴿أَنزَلْنَا﴾ أى أنها جاءت من علو ؛ لذلك عندما نزرع لانقول: إن الله قد أنزل علينا الزرع؛ لأننا استخدمنا الأسباب ولكن عندما تأتينا أشياء بلا أسباب أو فوق قدرة الأسباب نقول : إنها أُنزلت علينا .

---

(١) قوله تعالى : ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ﴾ إنما قرن بين الجوع والعُرْى ؛ لأن الجوع ذل الباطن ، والعرى ذل الظاهر .

﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾ وهذان أيضًا متقابلان فالظمأ حر الباطن ، وهو العطش، الضحى حر الظاهر . [تفسير ابن كثير : ٣/ ١٦٣]

و﴿الْمَنَّ﴾ هو نوع من الغذاء لونه أبيض ينزل على الشجر، ويتجمع مثل قطرات الزئبق، ولا يزال موجودا حتى الآن فى العراق، فهناك نوع من الأشجار يتساقط عليه المنّ حتى الآن، ويأتى الناس ويضعون ملاءة بيضاء تحت الشجر، ثم يهزونها فيتساقط ما على الورق من قطرات متجمدة بيضاء، فيأخذونها على الملاءات ويجمعونها، ويأكلونها، وهذا المنّ فيه حلاوة طبيعية؛ فهو فى طعم القشدة وليونتها، وفى حلاوة عسل النحل.

﴿وَالسَّلْوَىٰ﴾ هى: الطير الذى يسمونه السمان، وهو يأتى من أماكن بعيدة ثم يتساقط من شدة التعب؛ لطول المسافة التى طارها، وهو فى هذا لا يخضع لأسبابك؛ لأنه من بيئة بعيدة، فأنت لا ربيته، ولا أطعمته. فهذا يعنى أن الطعام فوق قدراتهم وأسبابهم وهو مثل قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾(1) [الحديد: ٢٥] . نقول إن المعنى نفسه موجود ،ولو أن الحديد نأخذه من الجبال، ولكن فيه البأس والشدة مما يفوق أسباب الإنسان .

والحق سبحانه وتعالى أعطى بنى إسرائيل ذلك ؛ ليعطيهم عوامل استمرار الحياة، ويعطيها لهم بقدرته سبحانه وليس بأسبابهم، ولكن هل قنع بنو إسرائيل بذلك؟ لم يقنعوا؛ فقالوا: قد يأتى يوم ولا ينزل هذا المنّ الأبيض على الشجر، أو لا تأتى الطير، وقالوا لموسى: ﴿ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ

---

(١) يقول الشوكانى فى قوله تعالى :﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾ اى خلقناه كما فى قوله تعالى:﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ والمعنى: أنه خلقه من المعادن وعلّم الناس صنعته ، وقيل : إنه نزل مع آدم . ﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ لأنه تتخذ منه آلات الحرب ، قال الزجاج : يمتنع به ويحارب . والمعنى : أنه تتخذ منه آلة للدفع وآلة للضرب . قال مجاهد : فيه جنة وسلاح . [فتح القدير : ٥/ ١٧٥]

طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ﴾ (١) [البقرة: ٦١] الله سبحانه وتعالى قال لهم حين

---

(٢) يقول الفخر الرازى : واعلم أن سؤال النوع الآخر من الطعام يحتمل أن يكون لأغراض:

الأول : أنهم لما تناولوا ذلك النوع الواحد أربعين سنة ؛ ملّوه فاشتهوا غيره .

الثانى : لعلهم فى أصل الخلقة ما تعودوا ذلك النوع، وإنما تعودوا سائر الأنواع، ورغبة الإنسان فيما اعتاده فى أصل التربية، وإن كان خسيسًا فوق رغبته فيما لم يعتده وإن كان شريفًا .

الثالث : لعلهم ملّوا من البقاء فى التيه، فسألوا هذه الأطعمة التى لا توجد إلا فى البلاد، وغرضهم الوصول إلى البلاد لا نفس تلك الأطعمة .

الرابع : أن المواظبة على الطعام الواحد سبب لنقصان الشهوة ، وضعف الهضم وقلة الرغبة، والاستكثار من الأنواع يعين على تقوية الشهوة وكثرة الالتذاذ ، فثبت أن تبديل النوع بالنوع يصلح أن يكون مقصود العقلاء ، وثبت أنه ليس فى القرآن ما يدل على أنهم كانوا ممنوعين عنه ، فثبت أن هذا القدر لا يجوز أن يكون معصية ، ومما يؤكد ذلك أن قوله تعالى :﴿ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ﴾ كالإجابة لما طلبوا، ولو كانوا عاصين فى ذلك السؤال، لكانت الإجابة إليه معصية وهى غير جائزة على الأنبياء ، لا يقال: إنهم لما أبوا شيئا اختاره الله لهم أعطاهم عاجل ماسألوه كما قال : ﴿ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا ﴾ [الشورى: ٢٠] .

لأنا نقول : هذا خلاف الظاهر ، واحتجوا على أن ذلك السؤال كان معصية بوجوه :

الأول : أن قولهم: ﴿ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ ﴾ دلالة على أنهم كرهوا إنزال المن والسلوى، وتلك الكراهة معصية .

الثانى : أن قول موسى عليه السلام: ﴿ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِى هُوَ خَيْرٌ ﴾ استفهام على سبيل الإنكار؛ وذلك يدل على كونه معصية.

الثالث : أن موسى عليه السلام وصف ما سألوه بأنه أدنى، وما كانوا عليه بأنه خير وذلك يدل على ما قلناه .

والجواب عن الأول : أنه ليس تحت قولهم: ﴿ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ ﴾ دلالة على أنهم ما كانوا راضين به فقط بل اشتهوا شيئًا آخر، ولأن قولهم: ﴿ لَن نَّصْبِرَ ﴾=

أنزل المن والسلوى: ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [الأعراف: ١٦٠] أى أن الله أعطاهم طيب الرزق بدون أسباب، وكان الواجب عليهم أن يستقبلوه بالشكر . ولكنهم استقبلوه بعدم الرضا: ﴿ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾ [البقرة: ٦١] الحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ ومعنى هذا أن اليهود قد ظلموا أنفسهم؛ لأن الله أعطاهم الرزق الطيب بلا أسباب، ولكنهم بدلا من أن يستقبلوه بالشكر تمردوا، الله أعطاهم طعاماً دون أن يحرثوا أو يزرعوا أو يسقوا، ولكنهم طلبوا مافيه التعب ، وتمردوا على ما يأتيهم بلا تعب ؛ فكأنهم ظلموا أنفسهم.

- إشارة إلى المستقبل؛ لأن كلمة ﴿لَن ﴾ للنفى فى المستقبل، فلا يدل على أنهم سخطوا الواقع .

وعن الثانى : أن الاستفهام على سبيل الإنكار قد يكون لما فيه من تفويت الأنفع فى الدنيا، وقد يكون لما فيه من تفويت الأنفع فى الآخرة .

وعن الثالث : بقريب من ذلك، فإن الشىء قد يوصف بأنه خير من حيث كان الانتفاع به حاضراً متيقنا، ومن حيث إنه يحصل عفواً بلا كّد ، كما يقال ذلك فى الحاضر، فقد يقال فى الغائب المشكوك فيه إنه أدنى من حيث لا يتيقن، ومن حيث لا يوصل إليه إلا بالكدّ ، فلا يمتنع أن يكون مراده: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾ هذا المعنى أو بعضه، فثبت بما ذكرنا أن ذلك السؤال ما كان معصية، بل كان سؤالا مباحًا ، وإذا كان كذلك فقوله تعالى : ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ لا يجوز أن يكون لما تقدم، بل لما ذكره الله تعالى بعد ذلك، وهو قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ فبيّن أنه إنما ضرب الذلة والمسكنة عليهم، وجعلهم محل الغضب والعقاب من حيث كانوا يكفرون، لا لأنهم سألوا ذلك .

[التفسير الكبير : ٣/ ٩٨ ، ٩٩]

* استسقاء موسى لقومه *



﴿ وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ [البقرة: ٦٠].

كلمة ﴿ وَإِذْ ﴾ تكررت فى قصة قوم موسى أكثر من مرة، وفى عدة آيات منها:

قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ﴾ [البقرة: ٤٩] ؛ أى: اذكروا يا قوم موسى كيف أنجاكم الله من آل فرعون.

وقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾ [البقرة: ٥١] أى اذكروا يا قوم موسى أن الله قد واعد موسى أن يمنحه المنهج الحق بعد صيام أربعين ليلة.

وقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم ﴾ [البقرة: ٥٤] ؛أى: أن الحق يذكّر قوم موسى بما قاله موسى لهم، عندما اتخذوا العجل إلها من دون الله.

وقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً ﴾ [البقرة: ٥٥] ،أى أن الحق يذكّر قوم موسى بما قالوه عندما

طالبوا موسى عليه السلام برؤية الله جهرة، كدليل على ماديتهم ،وقلة يقينهم الإيمانى.

وتكرر﴿إِذْ﴾ فى مقدمة كل قول يذكِّر الله به بنى إسرائيل حتى قول الله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ﴾[1] [البقرة: ٥٨] .

إذن.. فكل ﴿إِذْ﴾[2] فى مقدمة هذه الآيات، هو تذكير من المولى عز وجل لبنى إسرائيل بمواقفهم السابقة، التى أنعم الله فيها بنعم كثيرة، ومن بينها نعمة الظل، عندما كانوا فى التيه وازداد عطشهم، واستسقى لهم سيدنا موسى.

إن الحق يورد هذه الآيات على لسان محمد رسوله الكريم؛ ليذكر بنى إسرائيل المعاصرين لرسول الله ﷺ ، ما حصل أجدادهم عليه من نعم الله، وعليهم ألا يرفضوا النعمة الكبرى، وهى: استقبال الإيمان بمحمد رسولاً من عند الله.

وعندما نقف بالتأمل عند كلمات الآية الكريمة التى ذكرناها: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ

---

(١) قوله تعالى : ﴿هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ أى المدينة ، والقِرية (بكسر القاف) لغة اليمن، واختلف فى تعيينها؛ فقال الجمهور : هى بيت المقدس. وقيل :أرحياء من بيت المقدس.
قال عمر بن شبَّة: كانت قاعدة ومسكن ملوك. ابن كيسان: الشام. الضحاك : الرملة والأردن وفلسطين وتدمر. وهذه نعمة أخرى ، وهى أنه أباح لهم دخول البلدة وأزال عنهم التيه. [تفسير القرطبى ١/ ٤٠٩]

(٢) ﴿وَإِذْ﴾ فى هذه الآيات ونحوها مفعول به. ومن لم ير ذلك جعل المفعول محذوفاً و﴿إِذْ﴾ ظرف عامله ذلك المحذوف. والتقدير : واذكروا نعمة الله عليكم إذ، أو : واذكروا حالكم إذ. ونحو ذلك. [الجنى الدانى فى حروف المعانى ص١٨٨]

عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾[1] ،عندما نقف بالتأمل عند معانى تلك الآية الكريمة،

---

(١) عن ابن عباس، قال : ذلك فى التيه؛ ظلل عليهم الغمام، وأنزل عليهم المنّ والسلوى، وجعل لهم ثيابا لا تبلى، ولا تتسخ، وجعل بين ظهرانيهم حجراً مربعًا، وأمر موسى فضرب بعصاه الحجر، فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا فى كل ناحية منه ثلاث عيون، لكل سبط عين، ولا يرتحلون منقلة إلا وجدوا ذلك الحجر معهم بالمكان الذى كان به معهم فى المنزل الأول.

وعن السدى قال : كان ذلك فى التيه ، وأما قوله : ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ فإنما أخبر الله عنهم بذلك؛ لأن معناهم فى الذى أخرج الله جل وعز لهم من الحجر الذى وصف ـ جل ذكره ـ فى هذه الآية صفته من الشرب، كان مخالفا معانى سائر الخلق فيما أخرج الله لهـم من المياه من الجبال والأرضين، التى لا مالك لها سوى الله عز وجل ؛ وذلك أن الله كان جعل لكل سبط من الأسباط الاثنى عشر عينا من الحجر، الذى وصف صفته فى هذه الآية، يشرب منها دون سائر الأسباط غيره ، لايدخل سِبْطٌ منهم فى شِرْب سبط غيره ، وكان مع ذلك لكل عين من تلك العيون الاثنى عشرة موضع من الحجر، قد عرفه السبط الذى منه شربه ؛ فلذلك خصّ جل ثناؤه هؤلاء بالخبر عنهم، أن كل أناس منهم كانوا عالمين بمشربهم، دون غيرهم من الناس، إذ كان غيرهم فى الماء الذى لا يملكه أحد شركاء فى منابعه ومسايله، وكان كل سبط من هؤلاء مفردا بشرب منبع من منابع الحجر، دون سائر منابعه خاص لهم دون سائر الأسباط غيرهم؛ فلذلك خصوا بالخبر عنهم، أن كل أناس منهم قد علموا مشربهم.

القول فى تأويل قوله تعالى : ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ﴾ : وهذا أيضا مماستغنى بذكر ما هو ظاهر منه عن ذكره ما ترك ذكره ، وذلك أن تأويل الكلام: ﴿فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾ فضربه﴿فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ﴾، فقيل لهم : ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ ﴾ ، اخبر الله جل ثناؤه أنه أمرهم بأكل ما رزقهم فى التيه من المنّ والسلوى، وبشرب ما فجر لهـم فيـه من الماء من الحجر المتعاور الذى لا قرارَ له فى الأرض، ولا سبيل إليه لمالكيه، يتدفق بعيون الماء، ويزخر بينابيع العذب الفرات، بقدرة ذى الجلال والإكرام، ثم تقدم جل=

نجد أن الحق يذكِّر بنى إسرائيل بموقفهم فى التيه، عندما كانت الشمس محرقة، وطلبوا الماء ليشربوا بعد أن وصل الجفاف بهم إلى درجة الجدب، فلا ماء يروى زرعاً ، أو يشرب منه حى ، هكذا وصل الجدب إلى منتهاه؛ فطلب موسى السقيا، ولنا أن نتنبه إلى أن السقيا لا تطلب إلا حين يبلغ الجفاف مداه الكبير، ولا يصبح لدى الإنسان مدَّخر من الماء، وحتى العيون التى تنفجر منها الماء من الأرض قد جفَّت، ونحن نعلم أن الماء أساسى للحياة، والله ينزله من السماء صالحاً للشرب، ولرى الزرع، وترتوى منه الأنعام، كما يخرجه الله من الأرض أيضا لنفس المهمة.

إن الحق تبارك وتعالى خلق الأرض، وجعل ثلاثة أرباع مساحتها تقريباً من الماء، والربع - من الكرة الأرضية - هو اليابس.

إن الحق تبارك وتعالى حين جعل ثلاثة أرباع مساحة الكرة الأرضية ماء وهى البحار والمحيطات؛ فإن هذه المسطحات العريضة، تتعرض للبخر على قدر اتساع سطحها، ولنا أن نلحظ أنه كلمّا اتسع سطح المساحة التى يوجد بها الماء، زادت أيضا نسبة التبخر منها إذا كان ضوء الشمس مُسلَّطًا عليها، فإذا أحضر أحد منا كوب ماء، وسكبه فى حجرة مساحتها عشرون مترا ـ على سبيل المثال ـ فإن الماء يتبخر بعد دقائق. ولنا أن نعرف أنه على قدر اتساع البحار، وعلى نظام دوران الأرض، وشروق الشمس وغروبها

= ذكره إليهم مع إباحتهم ما أباح، وإنعامه عليهم بما أنعم به عليهم من العيش الهنىء ، بالنهى عن السعى فى الأرض فسادا، والعثا فيها استكبارا، فقال جل ثناؤه لهم: ﴿لَا تَعْثَوْاْ فِى الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ .

القول فى تأويل قوله تعالى : ﴿لَا تَعْثَوْاْ فِى الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ :

يعنى بقوله: ﴿لَا تَعْثَوْاْ﴾ لا تطغوا، ولا تسعوا فى الأرض مفسدين.

[تفسير الطبرى :١/٣٠٧، ٣٠٨]

تكون عملية البخر التى تتكون منها السحب، ويصعد بخار الماء إلى السماء، ليحمله الريح ثم يتجمع ويصير سحاباً ويُمطر، فنأخذ من الماء لنشرب منه ، ونسقى الأنعام، ونروى الزرع، وما يتبقى يتسرب إلى جوف الأرض؛ ليبقى فيها إلى أن يقابل قاعا صَخريًا فى بطن الأرض، يحمله كمخزن للمياه الجوفية، وتسير هذه المياه الجوفية إلى الأماكن التى لا توجد بها مياه ممطرة لترويها، وذلك قول الحق تبارك وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾(١) [الزمر: ٢١].

(١)﴿أَلَمْ تَرَ﴾:أى مما يدلك على قدرته سبحانه على إعادة مااضمحل وتمزق، وارفَتّ(١) وتفرق . ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ : اى الذى له كل صفة كمال ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ﴾: اى التى لا يستمسك الماء فيها إلا بقدرة باهرة تقهره على ذلك: ﴿مَاءً﴾ : كما تشاهدونه فى كل عام ﴿فَسَلَكَهُ﴾ : أى فى خلال التراب حال كونه، ﴿يَنَابِيعَ﴾ : أى عيونا فائرة ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ : فقهره على الصعود بعد أن غيَّبه فى أعماقها بالفيض والصوب بعد أن كان قسرَه على الانضباط فى العلو ثم أكرهه على النزول، على مقدار معلوم وكيفية مدبرة وأمر مقسوم . قال الشعبى والضحاك : كل ماء فى الأرض من السماء ينزل إلى الصخرة ثم يقسم منها العيون والركايا.

ولما كان إخراج النبات متراخيا عن نزول المطر، عبَّر بـ ﴿ثُمَّ﴾ ، وفيها أيضا تنبيه على تعظيم الأمر فيما تلاها، بأنه محل الشاهد فقال: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُ﴾ اى الله ﴿بِهِ﴾ اى الماء ﴿زَرْعًا﴾ ، ولما كان اختلاف المسبب مع اتحاد السبب أعجب فى الصنعة=

(١) رفت الشيء يَرفُتُه ويرفِتُه رفتًا ، وهو رُفات : كَسَره ودقَّه ، ويقال : رفتُّ الشيء وحطمته وكسرته - والرُّفات : الحُطام من كل شيء تكسَّر .

[لسان العرب : ٢/ ٣٤]

إن الحق تبارك وتعالى يلفتنا إلى الدورة الطبيعية للمياه من السماء إلى الأرض، حيث يسير فى مسارات لم يعرفها البشر علميا إلا فى القرن

= وأدلّ على بديع القدرة، قال : ﴿مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾ أى فى الأصناف والكيفيات والطبائع والطعوم وغير ذلك مع اتحاد الماء الذى جمعه من أعماق الأرض، بعد أن تفتت فيها وصار ترابا. ولما كان الإيقاف بعد قوة الإشراف دالا على القهر ونفوذ الأمر، قال- إشارة إلى أن الخروج عن الحد غير محمود فى شىء من الأشياء؛ فإنه يعود عليه بالنقص- ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ ، وزاد فى تعظيم هذا المعنى للحث على تدبره بإسناده إلى خير الخلق ﷺ فقال : ﴿فَتَرَاهُ﴾ أى فيتسبب عن هيجه- وهو شدة ثورانه فى نموه بعد التمام بتوقيع الانصرام، أنك تراه ﴿مُصْفَرًّا﴾ آخذًا فى الجفاف بعد تلك الزهرة والبهجة والنضرة . ولما كان السياق لإظهار القدرة التامة؛ عبر بالجعل مسندا إليه سبحانه بخلاف آية الحديد (١) التى عبر فيها بالكون؛ لأن السياق تمّ لأن الدنيا عدم ، فقال : ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا﴾ أى مكسرا مفتتا باليا.

ولما تم هذا على هذا المنوال البديع، الدال بلا شك لكل من رآه على أن فاعله قادر على الإعادة لما يريد بعد الإبادة، كما قدر على الإيجاد من العدم، والإفادة لكل مالم يكن، قال على سبيل التأكيد للتنبيه على أن إنكارهم غاية فى الحمق والجمود : ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ : أى التدبير على هذا الوجه ﴿لَذِكْرَىٰ﴾ : أى تذكيرا عظيما واضحا على البعث، وما يكون بعده، فإن النبات كالإنسان سواء ، يكون ماء ثم ينعقد بشرا، ثم يخرج طفلا، ثم يكون شابا، ثم يكون كهلا، ثم شيخا، ثم هرما، ثم ترابا مفتتا فى الأرض، ثم يجمعه فيخرجه كما أخرج الماء النباتَ . ﴿لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ : أى العقول الصافية جدا ، كما نبَّه عليه بخصوص الخطاب فى أول هذا الباب للمنزل عليه هذا الكتاب، وأما غيره وغير من تبعه بإحسان فهم كبهائم الحيوان. [نظم الدرر: ١٦/٤٨٣ - ٤٨٥]

---

(١) وهى قوله تعالى : ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠] .

الثامن، وكيف يكون الماء هو الذى يساعد النبات على الحياة والنمو، فيكبر النبات وينضج ويجف، وكأن الماء له دورة فى الحياة، تعتمد عليها دورة حياة النبات. وفى ذلك عبرة لكل من يملك عقلاً يبصر الحقائق فى ذلك الكون، ولذلك نرى الناس ترفع أكفها إلى الله لطلب السقيا، ولذلك شرع الإسلام الدعاء حين يأتى الجفاف ؛ بأن نخرج إلى الخلاء، ونضرع إلى الله أن يمطر لنا الماء(١) ، ونأخذ معنا ضعافنا من كبار السن، والأطفال الرضع، والبهائم، لماذا نأخذ هؤلاء؟ لأننا نتوسل إلى الله بالعاجزين والضعفاء حتى

---

(١) عن أنس بن مالك : أنَّ رجلاً دخل يوم الجمعة من بابٍ كان وِجاَه المنبر ورسول الله ﷺ قائم يخطب ، فاستقبل رسول الله ﷺ قائمًا فقال : يا رسول الله هلكت المواشى ، وانقطعت السبل ، فادع الله يغيثنا . قال : فرفع رسول الله ﷺ يديه فقال: « اللهم اسقنا اللهم اسقنا اللهم اسقنا » . قال أنس : ولا والله ما نرى فى السماء من سحاب ولا قزعة ولا شيئًا ، وما بيننا وبين سلع من بيت ولا دار . قال: فطلعت من ورائه سحابة مثل الترس . فلما توسطت السماء انتشرت ، ثم امطرت - - قال : والله ما رأينا الشمش ستًا . ثم دخل رجل من ذلك الباب فى الجمعة المقبلة - ورسول الله ﷺ قائم يخطب - فاستقبله قائمًا فقال : يا رسول الله، هلكت الأموال ، وانقطعت السبل، فادع الله يمسكها . قال : فرفع رسول الله ﷺ يديه ثم قال : « اللهم حوالينا ولا علينا ، اللهم على الإكام والظراب والأودية ومنابت الشجر » . قال : فانقطعت ، وخرجنا نمشى فى الشمس . قال شريك : فسألت أنسًا : أهو الرجل الأول ؟ قال : لاأدرى .

أخرجه البخارى [١٠١٣ ، ١٠١٤] واللفظ له ، ومسلم [٨٩٧ / ٨] .

وعن عبَّاد ابن تميم ، عن عمه ، قال : « خرج النبى ﷺ إلى المصلَّى ، فاستسقى واستقبل القبلة وقلب رداءه ، وصلَّى ركعتين » .

أخرجه البخارى [١٠١٢] ، ومسلم [٨٩٤/ ٢] .

وقال الإمام النووى : أجمع العلماء على أن الاستسقاء سُنَّة ، واختلفوا هل تُسنّ له صلاة أم لا ؟ فقال أبو حنيفة : لا تسن له صلاة ، بل يستسقى بالدعاء بلا صلاة ، وقال سائر العلماء من السلف والخلف : الصحابة والتابعون فمن بعدهم : تسن الصلاة، ولم يخالف فيه إلا أبو حنيفة ، وتعلق بأحاديث الاستسقاء التى ليس فيها =

= صلاة، واحتج الجمهور بالأحاديث الثابتة فى الصحيحين وغيرهما ، أن رسول الله ﷺ صلى للاستسقاء ركعتين . وأما الأحاديث التى ليس فيها ذكر الصلاة فبعضها محمول على نسيان الراوى ، وبعضها كان فى الخطبة للجمعة ، ويتعقبه الصلاة للجمعة فاكتفى بها ، ولو لم يصل أصلاً كان بيانًا لجواز الاستسقاء بالدعاء بلا صلاة ولا خلاف فى جوازه وتكون الأحاديث المثبتة للصلاة مقدمة ؛ لأنها زيادة علم ولامعارضة بينهما .

قال أصحابنا : الاستسقاء ثلاثة أنواع :

أحدها : الاستسقاء بالدعاء من غير صلاة.

الثانى : الاستسقاء فى خطبة الجمعة ، أو فى أثر صلاة مفروضة . وهو أفضل من النوع الذى قبله .

والثالث: - وهو أكملها- أن يكون بصلاة ركعتين وخطبتين ، ويتأهَّب قبله بصدقة ، وصيام،وتوبة، وإقبال على الخير ، ومجانبة الشر ، ونحو ذلك من طاعة الله تعالى.

قوله : «خرج رسول الله ﷺ إلى المصلى فاستسقى وحول رداءه حين استقبل القبلة».

وفى الرواية الأخرى : « وصلى ركعتين » فيه : استحباب الخروج للاستسقاء إلى الصحراء ؛ لأنه أبلغ فى الافتقار والتواضع، ولأنها أوسع للناس ؛ أنه يحضر الناس كلهم فلا يسعهم الجامع . وفيه : استحباب تحويل الرداء فى أثنائها للاستسقاء .

قال أصحابنا : يحوله فى نحو ثلث الخطبة الثانية ، وذلك حين يستقبل القبلة ، قالوا : والتحويل شُرع تفاؤلا بتغير الحال من القحط إلى نزول الغيث والخصب ، ومن ضيق الحال إلى سعته . وفيه : دليل للشافعى ، ومالك ، وأحمد ، وجماهير العلماء ، فى استحباب تحويل الرداء ، ولم يستحبه أبو حنيفة ؛ ويُستحب عندنا أيضًا للمأمومين ، كما يستحب للإمام، وبه قال مالك وغيره ، وخالف فيه جماعة من العلماء. وفيه: إثبات صلاة الاستسقاء ورد على من أنكرها

[شرح النووى على مسلم : ٣ / ٤٥٦]

ما يقال فى دعاء الإستسقاء :

عن عائشة رضى الله عنها قالت : شكا الناس إلى رسول الله ﷺ قحوط المطر ، فأمر بمنبر ، فوضع له فى المصلى ، ووعد الناس يومًا يخرجون فيه ، قالت عائشة: فخرج رسول الله ﷺ حين بدا حاجب الشمس فقعد على المنبر فكبر وحمد الله عز وجل ، ثم قال : « إنكم شكو تم جدب دياركم واستئخار المطر عن إبان زمانه =

= عنكم ، وقد أمركم الله عز وجل أن تدعوه ، ووعدكم أن يستجيب لكم ، ثم قال : الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم . مالك يوم الدين ، لا إله إلا الله ، يفعل الله ما يريد ، اللهم أنت الله لا إله إلا أنت ، أنت الغنى ، ونحن الفقراء ، أنزل علينا الغيث ، واجعل ما أنزلت لنا قوة وبلاغا إلى حين ثم رفع يديه ، فلم يزل فى الرفع حتى بدا بياض إبطيه ثم حول إلى الناس ظهره ، وقلب أو حوَّل رداءه وهو رافع يديه ، ثم أقبل على الناس ، ونزل فصلى ركعتين ، فأنشأ الله تعالى سحابة فرعدت وبرقت ، ثم أمطرت بإذن الله تعالى ، فلم يأتِ مسجده حتى سالت السيول، فلما رأى سرعتهم إلى الكِنّ ضحك حتى بدت نواجذه فقال : « أشهد أن الله على كل شيء قدير ، وأنى عبد الله ورسوله» . أخرجه أبو داود [١١٧٣] ، وابن حبان [٩٩١] ، والحاكم فى المستدرك [١/ ٣٢٨] وصححه ، ووافقه الذهبى . وحسّنه الألبانى فى صحيح أبى داود [١٠٤٠] .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما وسئل عن الصلاة فى الاستسقاء فقال : خرج رسول الله ﷺ متواضعًا مبتذلاً متخشعًا متضرعًا فصلى ركعتين كما يُصلى فى العيد لم يخطب خطبتكم هذه . أخرجه النسائى فى المجتبى [٣/ ١٥٦ ، ١٥٧]،وابن ماجه [١٢٦٦] ، وحسنه الألبانى فى صحيح النسائى [١٤١٨] .

وفى رواية : خرج متبذلاً متواضعًا متضرعًا حتى أتى المصلى فرقى المنبر - ولم يخطب خطبتكم هذه ، ولكن لم يزل فى الدعاء والتضرع والتكبير ، ثم صلى ركعتين . أخرجه الترمذى [٥٥٨] وقال: حديث حسن صحيح واللفظ له ، وأبو داود [١١٦٥] ، والنسائى فى المجتبى [٣/ ١٥٦] وحسنه الألبانى فى صحيح الترمذى [٤٥٩].

وعن الشعبى رضى الله عنه قال : خرج عمر يستسقى فلم يزد على الاستغفار ، فقالوا: ما رأيناك استسقيت ، فقال: لقد طلبت الغيث بمجاديح السماء الذى يُستنزل به المطر ، ثم قرأ: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١﴾ [نوح] ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا﴾ [هود: ٥٢]الآية. رواه سعيد فى سننه .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : جاء أعرابى إلى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله لقد جئتك من عند قوم ما يتزود لهم راع ،ولا يخطر لهم فحل ، فصعد النبى ﷺ=

البهائم الرتع ليمطرنا الله. بعض الناس يقولون: وماذا تجدى هذه الدعوات؟ إن للكون نظاماً رتيبا ؛ المطر له مواعيد، والقحط له مواعيد. لهؤلاء نقول: انتبهوا أيها الناس إلى أن لله سبحانه وتعالى قوانين ثابتة، وقوانين متغيرة؛ أما القوانين الثابتة فلا تتغير أبدًا ، فهى مسيّرة ؛ كالشمس وشروقها، وإشعاعاتها التى تنزل على مياه البحر فتتبخر.

وهذه القوانين الثابتة لا تتغير أبداً ؛ ذلك أن خالقها الأكرم قد خلقها على هيئة من الثبات والاستقرار، ومن الصحيح أن المطر لا ينزل إلا إذا كان هناك غيم ملقح بالذرات، وذلك حتى تلتف جزئيات الماء حول هذه الذرات، وفى ذلك يقول الحق الكريم: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ (٢١) وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ (٢٢)﴾[1] [الحجر] . إن كل شىء فى هذه الدنيا له مخازنه التى أرادها الله لكل شىء؛ من حيث تهيئة الظروف

= المنبر فحمد الله ثم قال : « اللهم اسقنا غيثا مغيثا مريئا طبقا غدقا عاجلا غير رائث»، ثم نزل فما يأتيه أحد من وجه من الوجوه ، إلا قالوا قد احيينا . أخرجه ابن ماجة [١٢٧٠] ، وضعفه الألبانى فى ضعيف ابن ماجة [٢٦٢] .

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رضى الله عنهم قال : كان رسول الله ﷺ إذا استسقى قال : « اللهم اسقِ عبادك وبهائمك ، وانشر رحمتك ، وأحى بلدك الميت » أخرجه أبو داود [١١٧٦]، وحسنه الألبانى فى صحيح أبى داود [١٠٤٣] .

وعن المطلب بن حنطب رضى الله عنه أن النبى ﷺ كان يقول عند المطر : « اللهم سقيا رحمة ، ولا سقيا عذاب، ولا بلاء، ولا هدم ، ولا غرق، اللهم على الظراب، ومنابت الشجر، اللهم حوالينا ولا علينا ». رواه الشافعى فى مسنده وهو مرسل

(١) ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ﴾ : «إن» هى النافية، و«من» مزيدة للتأكيد. وهذا التركيب عام ؛ لوقوع النكرة فى حيز النفى مع زيادة «من» ومع لفظ ﴿شَيْءٍ﴾ المتناول لكل الموجودات الصادقة على كل فرد منها. فأفاد ذلك أن جميع الأشياء عند=

= الله خزائنها لا يخرج منها شيء. والخزائن جمع خزانة، وهى المكان الذى يحفظ فيه نفائس الأمور، وذكر الخزائن تمثيل لاقتداره على كل مقدور . والمعنى : أن كل الممكنات مقدورة ومملوكة، يخرجها من العدم إلى الوجود بمقدار كيف شاء. وقال جمهور المفسرين : إن المراد بـ﴿مَا﴾ فى هذه الآية هو المطر؛ لأنه سبب الأرزاق والمعايش. وقيل : الخزائن: المفاتيح ، أى ما من شيء إلا عندنا فى السماء مفاتيحه. والأولى ما ذكرناه من العموم لكل موجود، بل قد يصدق الشيء على المعدوم على الخلاف المعروف فى ذلك . ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ : أى ما ننزله من السماء إلى الأرض، أو نوجده للعباد إلا بقدر معلوم. والقدر : المقدار؛ والمعنى : أن الله سبحانه لا يوجد للعباد شيئاً من تلك الأشياء المذكورة، إلا متلبساً ذلك الإيجاد بمقدار معين، حسبما تقتضيه مشيئته على مقدار حاجة العباد إليه، كما قال سبحانه : ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ﴾ [الشورى: ٢٧] . وقد فُسِّر الإنزال بالإعطاء، وفسر بالإنشاء، وفسر بالإيجاد . والمعنى متقارب . وجملة: ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُ﴾ معطوفة على مقدر ، أى: وإن من شيء إلا عندنا خزائنه ننزله وما ننزله ، أو فى محل نصب على الحال .

﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾: معطوف على: ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ﴾ [الأعراف: ١٠] وما بينهما اعتراض . قرأ حمزة : «الريح» بالتوحيد ، وقرأ من عداه : ﴿الرِّيَاحَ﴾ بالجمع. وعلى قراءة حمزة فتكون اللام فى الريح للجنس . قال الأزهرى : وجعل الرياح لواقح؛ لأنها تحمل السحاب ، أى تقله وتصرفه، ثم تمر به فتنزله . قال الله سبحانه : ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا﴾ [الأعراف: ٥٧] أى حملت. وناقة لاقح : إذا حملت الجنين فى بطنها . وبه قال الفراء وابن قتيبة. وقيل : ﴿لَوَاقِحَ﴾ بمعنى: ملقحة . قال ابن الأنبارى : تقول العرب: أبقل النبت فهو باقل، أى مبقل. والمعنى: أنها تلقح الشجر، أى بقوتها . وقيل : معنى ﴿لَوَاقِحَ﴾ : ذوات لقح . قال الزجاج : معناه : وذات لقحة؛ لأنها تعصر السحاب وتدره كما تدر اللقحة. يقال : رامح ، أى ذو رمح . ولابن ، أى ذو لبن. وتامر، أى ذو تمر. قال أبوعبيدة: ﴿لَوَاقِحَ﴾ بمعنى : مَلاقِح، ذهب إلى أنها جمع ملقحة، وفى هذه الآية تشبيه الرياح التى تحمل الماء بالحامل، ولقاح الشجر بلقاح الحمل. =

والزمان، ولكل شيء ميعاد معلوم، حددته حكمة الخالق فى الكون، ولم يكن أحد يعرف وقت نزول الآيتين أن لكل شيء ميقاتاً محدداً ، وأن الريح عامل هام فى حمل حبوب اللقاح، من نبات إلى نبات آخر، كما أن

= ﴿فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ اى من السحاب ، وكل ما علاك فاظلك فهو سماء . وقيل: من جهة السماء. والمراد بالماء هنا : ماء المطر . ﴿فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ﴾ : اى جعلنا ذلك المطر لسقياكم، ولشرب مواشيكم وأرضكم. قال أبو على : يقال سقيته الماء : إذا أعطيته قدر ما يرويه. وأسقيته نهراً، أى جعلته شرباً له . وعلى هذا ﴿فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ﴾ : ابلغ من سقيناكموه. وقيل: سقى وأسقى بمعنى واحد. ﴿وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ : اى ليست خزائنه عندكم ، بل خزائنه عندنا ، ونحن الخازنون له ، فنفى عنهم سبحانه ما أثبته لنفسه فى قوله : ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلا عِندَنَا خَزَائِنُهُ﴾. وقيل: المعنى : إن ما أنتم له بخازنين بعد أن انزلناه عليكم ، اى لاتقدرون على حفظه فى الآبار والغدران والعيون ، بل نحن الحافظون له فيها؛ ليكون ذخيرة لكم عند الحاجة إليه . [فتح القدير : ٣/١٢٨]

عن الحكم بن عتيبة رضى الله عنه فى قوله ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ قال : ما من عام بأكثر مطرا من عام ولا أقل ، ولكنه يمطر قوم ويحرم آخرون ، وربما كان فى البحر . قال : وبلغنا أنه ينزل مع القطر من الملائكة أكثر من عدد ولد إبليس وولد آدم، يحصون كل قطرة ، حيث تقع وما تنبت ومن يرزق ذلك النبات .

عن الضحاك فى قوله : ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾ قال : الرياح يبعثها الله على السحاب ؛ فتلقحه فيمتلئ ماء.

وعن عطاء الخراسانى قال : الرياح اللواقح تخرج من تحت صخرة بيت المقدس.

[الدر المنثور : ٥/ ٧١ ، ٧٢]

وعن سلمة بن الأكوع قال : كان رسول الله ﷺ إذا اشتدت يح يقول : « اللهم لقحًا لاعقيمًا» أخرجه البخارى فى الأدب المفرد [٧١٨]، وابن حبان[١٠٠٨]، وابن السنى فى اليوم والليلة [٢٩٩] ، والحاكم فى المستدرك [٤/ ٢٨٥] وصححه ووافقه الذهبى ، وصححه الألبانى فى صحيح الأدب المفرد [٥٥٣] .

أحدا لم يكن يعلم أن المطر يتكون من ذرات، تتسبب الرياح فى تكوينها، حيث تحمل الرياح المكونات الموجبة أو السالبة، التى يمكن أن تتكون بها ذرات المياه فى السحاب، ولقد ثبت أن للمياه دورة واضحة من تبخُّر، وتكوُّن السحاب وسقوط المطر، والسحاب يكون على ارتفاع مخصوص فى الجو، ويسير إلى منطقة باردة، فيتكثف هناك وينزل المطر. تلك هى القوانين الثابتة، ولكن الخالق الأكرم ربط هذه القوانين الثابتة لتكَوُّن السحاب بمتغير هو الريح، والريح من الأمور التى يدبرها الخالق، فتأتى أو لا تأتى، تهب أو لا تهب ؛ إن الخالق هو المتحكم فى كونه، ونحن نعرف أن هناك ملائكة يقول عنهم الحق - وقوله الصدق - : ﴿ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴾ [النازعات:٥] ، إنهم ملائكة الأسرار فى الكون.

إذن.. فعندما نضرع إلى الله بضعافنا طالبين الاستسقاء، فإن الله يأمر ملائكته بتوجيه الريح إلى أن تسير بالسحاب إلى منطقة عالية البرودة؛ فيتم تكثيف المياه فتمطر السماء، هكذا نعرف أن هناك ناموساً ثابتا، وقانوناً ثابتا ونعرف أيضا أن الضراعة تعطينا الرحمة، فيجعل الله متغيِّرا هو الريح؛ ليكون الاستسقاء والخير ، ولذلك قال الحق: ﴿ وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا ﴾[1] [الجن:١٦] ، أى أن الحق يوضح أن من يسير على منهجه، لَعَمَّ له الماء والخير فى أوقات الحاجة، إن الله يسقى الماء الغدق لمن يسير على هدى الرحمن؛ يفعل ذلك دون تغيير فى حرارة

(١) قال الشوكانى فى قوله تعالى : ﴿ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا ﴾ أى: كثيرًا واسعًا . قال مقاتل: ماء كثيراً من السماء ، وذلك بعدما رفع عنهم المطر سبع سنين . وقال ابن قتيبة : المعنى لو آمنوا جميعًا لوسَّعنا عليهم فى الدنيا . وضرب الماء الغدق مثلاً ؛ لأن الخير كله والرزق بالمطر، وهذا كقوله : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا ﴾ [المائدة:٦٥]، وقوله : ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ ﴾ =

الشمس، أو سطح الماء الذى يتبخر منه الماء، إنما يُسيِّر الحق السحاب إلى ارتفاع ما من منطقة باردة، ويرسل الريح الذى يسوق المطر. إن هناك قوانين ثابتة لا تتغير، والماء الغدق موجود، وقوانين الخالق فى الكون تحكم الثوابت، وتتحكم فى المتغيرات، ولنا أن نعرف أن الأجهزة المعاصرة عندما تتنبأ بنزول الأمطار، فهذه الأجهزة تتنبأ على مقدار ما يصلها من معلومات عن اتجاه الريح، وهل هى رياح صاعدة؟ وبأى مقدار؟ أم هى رياح هابطة؟ وبأى مقدار؟ ومتى تصل هذه الرياح بالسحاب إلى منطقة باردة ؟ وأحياناً تأتى الرياح على خلاف تنبؤات الأرصاد الجوية، فتختلف أوقات سقوط المطر.

إذن، موسى عليه السلام استسقى لقومه ضراعة إلى الله حين لم يكن عندهم أى قطرة من ماء، وحين حاصرهم الجفاف ؛ ذلك أن موسى يعلم أن الخالق كريم بعباده، وهو الذى يملك كل كونه.

- وقوله: ﴿ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ ﴾ [نوح] وقيل : المعنى وأن لو استقام أبوهم على عبادته ، وسجد لادم ولم يكفر ، وتبعه ولده على الإسلام ؛ لأنعمنا عليهم ، واختار هذا الزجاج . والماء الغدق: هو الكثير فى لغة العرب .

[فتح القدير : ٥/ ٣٠٥]

وعن مجاهد فى قوله: ﴿ وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ ﴾ ؛ قال : طريقة الإسلام . ﴿ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا ﴾ قال : لأعطيناهم مالا كثيرا.

وعن ابن عباس أن نافع بن الأزرق سأله عن قوله: ﴿ مَّاءً غَدَقًا ﴾ قال : كثيرا جاريا. قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم . أما سمعت الشاعر يقول :

تدنى كراديس ملتفًا حدائقها ... كالنبت جادت به أنهارها غدقا

[الدر المنثور ٨/ ٣٠٥]

عمر رضى الله عنه حين اشتد الجفاف، وخرج فى صلاة الاستقساء، ورفع يديه إلى السماء وقال: كنا نتوسل إليك برسول الله يا رب لتسقينا، ولكن رسول الله قد انتقل إلى رفقتك ، فبمن نتوسل؟ إننا نتوسل إليك يا رب بدعاء عم نبيك العباس(1).

ولذلك الحق قَبِل استسقاء موسى عليه السلام من حين استسقى لقومه، رغم تعنتهم، ورغم تماديهم فى نكران الجميل، ولكن النبوة رحيمة حتى بالقساة(2)، لذلك استسقى موسى لقومه، صحيح أن الآية لم تذكر إلا تضرُّع موسى طالباً السقيا ، وأن قوله تعالى : ﴿ وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ﴾ [البقرة: ٦٠] توضح الأمر الإلهى لموسى بأن يضرب بعصاه الحجر، فينفجر منه الماء،

(١) عن أنس : « أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان إذا قحطوا استسقى بالعباس ابن عبد المطلب ، فقال : اللهم إنا كنا نتوسَّل إليك بنبيِّنا ﷺ فتُسقينا ، وإنا نتوسل إليك بعمِّ نبيِّنا فاسقنا ، قال : فيُسقون » . أخرجه البخارى [١٠١٠]
وقال الحافظ ابن حجر : يُستفاد من قصة العباس ، استحباب الاستشفاع بأهل الخير والصلاح ، وأهل بيت النّبوة ، وفيه فضل العباس ، وفضل عمر لتواضعه للعباس ، ومعرفته بحقه . [فتح البارى : ٣/١٨٦]
(٢) وقد كان النبى ﷺ يدعو لبعض الكفار بأن يهديه الله أو يرزقه، فيهديه أو يرزقه ، كما دعا لأم أبى هريرة حتى هداها الله ، وكما دعا لدوس فقال : « اللهم اهد دوسًا وائت بهم » فهداهم الله . وكما روى أبو داود أنه استسقى لبعض المشركين لما طلبوا منه أن يستسقى لهم فاستسقى ، وكان ذلك إحسانًا منه إليهم يتألف به قلوبهم ، كما كان يتألفهم بغير ذلك .
قال ﷺ :« اللهم اهد أم أبى هريرة » أخرجه أحمد فى المسند [٢/٢١٩، ٢٢٠] وهو فى صحيح مسلم مطولا برقم [٢٤٩١].
وقال ﷺ :« اللهم اهد دوسًا وائت بهم » أخرجه مسلم [٢٥٢٤/١٩٧] .
وحديث: « الاستسقاء لبعض المشركين » فى الصحيحين من حديث ابن مسعود انظر تفسير النسائى [٢٢٢ ، ٥٠١ ، ٥٠٣] والبخارى [١٠٠٧، ١٠٢٠، ٤٦٩٣ ، ٤٧٧٤] ، ومسلم [٢٧٩٨].

وتتجلّى معجزة الحق؛ ليثبت لقوم العنت أنه قادر قدير، إنهم فى الصحراء لا آبار ولا أنهار، والعيون قد جفّت، وكأن الخالق يريد للماء أن يخرج من أصعب الجدب وهو الحجر، إنها عظمة ﴿كُن﴾، إنها القدرة المطلقة أن ينفجر الماء من الحجر الصلد بضربة عصا ، لذلك يقول الشاعر :

أيا هـارئاً من صنـوف القدر بنفســـك تعنـف لا بالقـــدر

ويا ضـراب صخـرة بالعصـا ضربت العصا أم ضربت الحجر

كأن العصا هنا مجرد رمز للإشارة إلى الماء فينفجر. وكأن الحق يريد أن يلفتهم إلى أن النعمة تأتى إليهم مركبة، فيعلمهم أنه قادر على أن يأتى لهم بالماء المخصب من الحجر الصلد؛ لأن المسألة بالنسبة للخالق الأكرم، ليست نواميس أو قوانين، إنها بالنسبة لله كلمة ﴿كُن﴾فيكون ، وعندما خرج الماء إلى بنى إسرائيل - وبتلك الصورة التى تتحدى العقل البشرى برؤيته اليومية للنواميس والقوانين - ما الذى يحدث؟ إنه التعنت، كما تروى كتب التاريخ، أنهم قالوا لموسى عليه السلام : هب أننا يا موسى لم نذهب إلى مكان فيه حجر. وحملوا الحجر معهم، ثم قالوا: ولنفترض أن عصاك فقدت، أو لم توجد!!

ظنوا أن المسألة ليست عصا ولا حجرًا ، ولم ينتبهوا إلى أنها معجزة كان يجب عليهم أن يتعظوا بها ، ويسلموا مع موسى لله رب العالمين .

لم يستوعبوا معجزة انفجار الماء من الحجر بعد أن ضربه موسى بالعصا، فظنوا أن تلك العصا تملك القدرة على إخراج الماء من الحجر الأصم، ونسوا أن وراء كل ذلك إله قادر، هو الذى يملك العطاء، كل العطاء .

ما الذى حدث عندما انفجر الماء من الحجر؟ لقد انفجر الماء من اثنتى

عشرة عينا ، وهذا دليل على أن قوم موسى كانوا اثنى عشر سبطًا ، وكل سبط من الأسباط له قوم.

﴿ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ﴾، معناه: أن كل قوم صارت لهم عين.

أى: أن الحجر المحدود قد تلقى الأمر الإلهى، بأن تتوزع المياه فى مسارات طويلة تسمح لكل قبيلة أن ترتوى، ثم بعد ذلك يضرب موسى الحجر، فيجف ويعود يابساً .

إذن. .فالحاجات على قدر الضرورات، وعندما نتأمل كلمة ﴿ فَانفَجَرَتْ ﴾ نجد أنها تدل على الاندفاع والتدفق، أى أن الماء سال منها بقوة تروى ، أى لم يكن الأمر مجرد خروج قطرات قليلة من الماء.

ولذلك عندما تكلم أمير الشعراء شوقى عن الرسالات التى أرسلها الخالق لخلقه قال:

سبحانــك اللهــم خيــر مُعلِّم   علَّمت بالقلم القرون الأولى
أرسلت بالتوراة موسى مُرشِدا   وابــن البتــول فعلَّم الإنجيلا
وفجَــرت يَنبــوع البيــان محمدًا   فسقى الحديث وناول التنزيلا (١)

وكأن الرسالات السابقة على رسول الله؛ هى للتبشير بينبوع البيـان المحكم.

وعندما ننظر بالتأمل إلى دقة خروج الماء من الحجر، نلحظ أن الحجر مكعب له سطح ملاصق للأرض، وجوانب أربعة تفجرت منها الماء، وله سطح أعلى هو الذى ضرب عليه موسى بالعصا، فكأن كل جهة من

(١) من قصيدة : العلم والتعليم وواجب المعلم ، لأمير الشعراء أحمد شوقى .
[الشوقيات : ١/١٤١-١٤٤]

جهات الحجر انفجرت منها ثلاث عيون للماء، ذلك أن الضغط على الحجر بمؤثر هو العصا، هو الذى فجَّر العيون الثلاث من كل جانب، بأمر الله.

أى أن العيون لم تخرج من السطح الأعلى للحجر الذى تلقى الضربة، ولم تأت المياه من أسفل الحجر أو قاعدته، إنما انفجرت العيون من الجوانب. ولنا أن نقف هنا وقفة لغوية؛ لنستفيد منها فى تقويم لساننا بالعربية، التى هى لغة القرآن الكريم.

قال الحق: ﴿فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ [البقرة: ٦٠] ، هذه أعداد والقاعدة النحوية مع الأعداد المعدود : أن ننطق العدد مذكراً مع المعدود المؤنث، وننطق العدد مؤنثا مع المعدود المذكر؛ لذلك قال الحق: ﴿اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ [البقرة: ٦٠] ، وكلمة (عين) فى اللغة العربية يسمونها اللفظ المشترك، أى له استعمالات فى معان متعددة، أى أن المعنى يفهم بالقرينة، مثال ذلك:

أن نقول: سقى القوم دوابهم من العين، يصبح المفهوم هنا أن الدواب قد شربت من عين الماء.

مثال آخر: أرسل الأمير عيونه فى المدينة، العيون فى هذا المثال هى عيون الجواسيس وجامعى الأخبار.

مثال ثالث: يقول قائل: اشتريت هذا اللباس بعين، والمراد هنا أنه اشترى هذا اللباس بعين من الذهب الصافى.

مثال رابع: يقول الابن: لقد نظر إلىَّ والدى بعينيه شذراً ، والمقصود بالعين هنا هى عين الإبصار.

إذن.. كلمة «عين» لها استعمالات متعددة، والقرينة هى التى توضح وتعيِّن.

إن اللغة العربية تحتاج لمن يسمعها ويتكلمها، أن يكون عنده استعداد وذوق استنباطى ؛حتى يتذوق بالفهم المراد المقصود. ولقد كان للعربى القديم ملكة فطرية مطبوعة على الفصاحة، يكفينا أن نعرف أن الحروف كانت تكتب فى ذلك الزمان دون نقط، فتتشابه الياء مع التاء مع الثاء، وتتشابه الجيم مع الحاء مع الخاء، والفاء مع القاف، والسين مع الشين، والصاد مع الضاد. وأدوات التشكيل من كسرة، وضمة، وفتحة، ظهرت عندما ضعفت مَلَكة اللغة.

وعندما كان يرسل أحدهم إلى إنسان كتاباً، ويضع عليه التشكيل وعلامات الإعراب، فكان ذلك يعتبر نوعا من الإهانة والتقليل من ذكاء الإنسان، ولذلك قيل قديمًا: (شكْل الكتاب سوء ظن بالمكتوب له)، أى أن الذى سوف يستقبل ذلك الكتاب، لن يفهم إلا إذا شكَّلنا له الحروف، وقد جاءوا بأعرابى لا يحفظ القرآن الكريم، وأعطوه صفحة مكتوبة بالحروف المرسومة، أيام الإسلام الأولى، وكانوا لم يضعوا له النقط أو علامات التشكيل، وكان اسم ذلك الأعرابى حمادًا، وفتحوا له المصحف على قوله تعالى: ﴿قَالَ عَذَابِى أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ﴾ [الأعراف: ١٠٦]، فقرأها الأعرابى: قال: « عذابى أصيب به من أساء»، أى أنه استبدل الشين بالسين، وهكذا نرى أنه لم يبتعد عن المعنى.

وفتحوا المصحف لحماد على آية فى سورة البقرة تقول: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾[البقرة: ١٣٨] فقرأها الأعرابى حماد: « صنعة الله ومن أحسن من الله صنعة ونحن له عابدون» ،لقد

اختلف النطق ولكن اقترب المعنى[1]، ويروى عن أبى جعفر المنصور، حين ولى الخلافة وصعد إلى المنبر، ولحن فى كلامه لحنًا[2]، وكان هناك عربى يجلس بين المستمعين، فصر أذنيه أى «طرطق» أذنيه، وهذه معناها أنه سمع كلمات لا تعجبه.

وأخطأ أبو جعفر المنصور خطأ آخر فى اللغة، وكسر الإعراب فى جملة قالها، فقال العربى: «أف لهذا الرجل» قالها استهجانا.

وأخطأ أبو جعفر المنصور خطأ ثالثاً فى اللغة ، فوقف العربى وقال له: يا أبا جعفر أشهد أنك قد وليت هذا الأمر بقضاء وقدر.

أى أن العربى يرى أن الخليفة لا يليق بمكانه والياً للمسلمين لولا القضاء والقدر؛ لأن والى المسلمين عليه أن يتقن اللغة إتقاناً .

وكذلك الأمر مع كلمة « عين »: إنها لفظ مشترك يطلق على معان متعددة، وعلى ذكاء القارئ أن يوضح له، ولذلك يقول الشاعر:

استعمل العين منى فهى جارية وقد سمعت بها أيام وصحهم

والمقصود هنا: استخدام العين فى التجسس، وكأن التجسس أصبح جاريا كأنه عين ماء لا تكف، وقد سمح بها أن تتجسس على؛ لأنه يعلم أن صاحبها سوف يأخذ عينا من الذهب.

ولنر فى القرآن الكريم ذلك الإبداع الكامل فى قول الله تعالى:

---

(١) راجع كتاب « مختصر فى شواذ القرآن » من كتاب البديع لابن خالويه ص [٥١].

(٢) اللَّحْن واللَّحَن واللَّحَانةُ واللَّحَانِيَة : ترك الصواب فى القراءة ، والنشيد ، ونحو ذلك. لَحَن يلحن لَحْنًا ولحَنًا ولُحونًا ، الأخيرة عن أبى زيد . ورجل لاحِن ، ولَحَّان ولَحَّانة ولُحَنَة : يُخطىء . [لسان العرب : ٣٧٩/١٣]

﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾(1) [الرحمن: ٥، ٦] ؛ نحن نعلم أن الشمس والقمر أفلاك علوية، ونعلم أن النجم تطلق مرة على النجم فى السماء، ومرة على النبات النامى فى الأرض.

ولنا فى دقة النقلة القرآنية حين يتكلم الحق عن أفلاك علوية هى الشمس والقمر، ثم يتكلم عن النجم والشجر. الأفلاك تسبح بميزانها، والنجم والشجر يسجدان للخالق الأكرم؛ إن نظام الشمس والقمر يجرى وفق نظام دقيق محكم، منذ أن خلقهما الله، ولم نتعرف على دقائق هذا النظام الحديث إلا منذ ثلاثة قرون فقط، حيث اتضح أن حركة الشمس الظاهرية حول الأرض تتم فى مدارات فلكية، هى وحركة القمر حول الأرض، وتخضع تلك المدارات الفلكية لقوانين رياضية غاية فى الدقة والعمق، هكذا يضرب الله المثل بالشمس والقمر، وهما من أفلاك السماء، ثم يضرب الله المثل بالنبات والشجر الخاضع لمشيئته تعالى.

ولنا أن نعرف أن النجم تطلق على النبات، وتطلق أيضا على الشمس، أو القمر، أى أن كل المخلوقات تسجد لله ، سواء أكان ذلك فى السماء أم كان فى الأرض.

---

(1) قوله عز وجل : ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ أى بحساب ومنازل لا يعدوانها، قاله ابن عباس وقتادة وأبو مالك.

وقوله تعالى : ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ فى النجم قولان :

أحدهما : أنه كل نبت ليس له ساق، وهو مذهب ابن عباس والسدى ومقاتل واللغويين .

والثانى : أنه نجم السماء، والمراد به جميع النجوم ، قاله مجاهد . فأما الشجر فكل ماله ساق . قال الفراء : سجودهما : أنهما يستقبلان الشمس إذا اشرقت، ثم يميلان معها حتى ينكسر الفىء . [زاد المسير ٧/ ٢٥٤، ٢٥٥]

قال الشاعر:

أراعى النجم فى سيرى إليكم ويرعاه من البيت جوادى

أى أن النجم الذى فى السماء هو دليل العاشق، إلى مكان المحبوب، والنجم هو النبات الذى يأكله الحصان فى الصحراء.

إذن.. عندما يقول الحق: ﴿اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾، فنحن نفهم أنها عيون بالمياه جارية.

وعندما يقول الحق: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ [البقرة: ٦٠]، فهذا دليل على أن الماء قد وصل إلى كل سبط من الأسباط الاثنى عشر التى كانت تكوِّن قوم موسى، وهكذا عرفنا أن موسى دعا ربه دعاء المضطر؛ ليستسقى لقومه، ولذلك استجاب الله له ثم يأمرهم الحق: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [البقرة: ٦٠]، لقد استسقى لهم موسى بالدعاء إلى الله، وصدر أمر الحق بأن يضرب موسى الحجر، فتنفجر منه اثنتا عشرة عيناً، وعلم كل سبط من الأسباط مشربهم، وهنا يلفتنا الحق إلى قضية واضحة؛ لقد رزقهم الله الماء بمعجزة بينة باهرة، فليس من السهل أن يخرج الماء من الحجر فى صحراء قاحلة جرداء، وكان لا بد أن يتقبَّل الناس هذه النعمة بالإيمان بالإله الواحد القهار؛ ذلك أنهم رأوا رأى العين الهلاك المحيط بهم نتيجة العطش والجدب، بعد أن فقدوا الثقة بأنفسهم وبأسبابهم، لولا دعاء موسى ربه، واستجابه الله الكريم لطلبه.

إن كثيرا من الناس يقولون: نحن دعونا الله فلم يجبنا، لهؤلاء نقول: أنتم دعوتم دعوة الترف لا دعوة الحاجة، إن الحق يجيب المضطر حقيقة، ولكن هل الإنسان يعود إلى الله شاكرًا، أم يستغنى عن عطاء الله ويقول: لقد أوتيته على علم عندى؟ هكذا يوضح الله أنه يجيب دعاء المضطر،

وكان دعاء موسى دعاء اضطرار؛ لأن الصحراء لا ماء فيها، والمضطر يعرف يقيناً أن أسبابه قد نفدت؛ ولذلك يلجأ إلى ربه، وإذا لجأ الإنسان باضطرار إلى الله أجاب الله دعاءه.

إن الحق سبحانه وتعالى يستجيب لصاحب الضر، فيكشف عنه ضره ويستغنى بما أعطاه الله، والمؤمن الحق هو الذى لا يطغى بعد أن يكشف الله عنه الضر؛ ذلك الطغيان الذى ذكره الله عن الإنسان فى قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ⁽٦⁾ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ⁽٧⁾﴾ [العلق] ، والإنسان بلا إيمان يقوده الطغيان إلى تخيل أن زوال الضر عنه، إنما جاء بأسباب يملكها الإنسان نفسه، فيخيل إليه أنه مصدر إزالة الضرر ، رغم أن الحق هو الذى خلق الإنسان وخلق كل الأسباب.

ولذلك يلفت الحق قوم موسى بعد حادثة الاضطرار إلى طلب السقيا إلى أنه مصدر كل رزق، فيقول تبارك وتعالى : ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [البقرة: ٦٠] ؛إن الحق يُعلم قوم موسى بعد درس الاضطرار إلى طلب السقيا، أنه صاحب كل رزق، وعلى المؤمن أن يستقبل نعم الله بالشكر لا بالإنكار، وشكر الخالق لا يكون بالقول فقط، ولكن بالقول والفعل، لذلك يقول عز من قائل: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [البقرة: ٦٠] ، والحق تبارك وتعالى حين يعلم الإنسان كيفية الشكر بالعمل الصالح والقول الحسن، إنما يريد الخير للإنسان ، فالإنسان دون وعى بضعفه البشرى، قد يصير كأهل سبأ الذين أصابهم الغرور؛ فظنوا أنهم ملكوا كل الأسباب، يقول تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ⁽١٥⁾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ

جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُورَ ﴿١٧﴾ ﴾(1) [سبأ].

لقد كان لأهل سبأ فى إقامتهم باليمن آيات واضحة على قدرة الحق جل وعلا كانت هناك حديقتان تحفان ببلدهم عن يمين وعن شمال، وأمرهم الحق، بأن يأكلوا من رزق ربهم، وأن يشكروا له النعمة، لكنهم غرقوا فى بحار الغرور، وظنوا أن ما أصابهم من نعمة هو نتيجة أسباب صنعوها هم، لقد بنوا سد مأرب، وخزنوا وراءه كميات من الماء، وظنوا أنهم صنعوا بهذا الماء وتلك الأرض جنتين زاهرتين أكلوا وشربوا، واستسلموا للغرور البشرى، وظنوا أنهم امتلكوا كل الأسباب ولم يردوا الأمر لصاحب الأمر ، وأعرضوا عن ذكر الله وأصابهم الغرور بالتعالى والفخر بالنعمة، فما الذى حدث؟ انقلب عليهم عملهم إلى عمل مدمر،

---

(1) عن قتادة فى قوله: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ...﴾ قال : قوم أعطاهم الله نعمة، وأمرهم بطاعته، ونهاهم عن معصيته، قال الله: ﴿فَأَعْرَضُوا﴾ قال : ترك القوم أمر الله ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾ : ذكر لنا ﴿الْعَرِمِ﴾ وادى سبأ كانت تجتمع إليه مسايل من أودية شتى، فعمدوا فسدوا ما بين الجبلين بالقير والحجارة ، وجعلوا عليه أبوابا ، وكانوا يأخذون من مائه ما احتاجوا إليه، ويسدون عنهم ما لم يعبئوا به من مائه، فلما تركوا أمر الله بعث الله عليهم جرذا، فنقبه من أسفله، فاتسع حتى غرق الله به حروثهم ، خرَّب به أراضيهم عقوبة بأعمالهم، قال الله : ﴿وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ﴾ والخمط الأراك و ﴿أُكُلٍ﴾ بربرة ﴿وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ بينما شجر القوم من خير الشجر إذ صيَّره الله من شر الشجر عقوبة بأعمالهم، قال الله: ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِى إِلا الْكَفُورَ﴾ ؟! إن الله إذا أراد بعبد كرامة أو خيراً تقبلَّ حسناته ، وإذا أراد بعبد هواناً أمسك عليه بذنبه.

[الدر المنثور : ٦/٦٩١ - ٦٩٢]

كيف ؟ أصاب التشقق سد مأرب فاندفع الماء سيولاً تدمر الأرض؟ وأصبحت الجنتان خاويتين من الزرع الجميل، وأصبحت الأرض لا تعطى إلا الثمر المر، والشجر الذى لا يثمر، وهكذا يجزى الله من يكفر بالنعمة ولا يشكر الخالق الوهاب.

إذن.. يجب على الإنسان أن يحتاط لنفسه بالشكر للخالق الوهاب؛ إن على الإنسان المؤمن أن يلتزم بالشكر لمن وهبه النعمة؛ وذلك حتى لايتساوى مع غير المؤمن الذى يقول عنه ربنا سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾(١)؛ إن الأنسان بدون إيمان لا يتذكر خالقه إلا إذا أصابه شىء مؤلم فى نفسه أو ماله، وعندما يشعر بالضعف فإنه يدعو الله فى كل حالاته، قاعدا أو مضطجعا أو قائماً، وما إن يستجيب له الله فيكشف عنه الضرر؛ فإنه ينسى فضل الله، هكذا يزين الشيطان الطريق إلى الضلال أمام غير المؤمنين .

إن الذى لا يشكر الله على نعمه ، والذى يقول إنما أوتيته على علم عندى ويعزو النعيم الذى أصابه الى نفسه أو غيره من خلق الله، فإنما يكون من الذى ينطبق عليهم قول الحق تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ

(١) قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ ﴾ ، قيل : المراد بالإنسان هنا الكافر، قيل : هو أبو حذيفة بن المغيرة المشرك، تصيبه البأساء والشدة والجهد . ﴿ دَعَانَا لِجَنْبِهِ ﴾ : أى على جنبه مضطجعا . ﴿ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا ﴾، وإنما أراد جميع حالاته؛ لأن الإنسان لا يعدو إحدى هذه الحالات الثلاث . قال بعضهم : إنما بدأ بالمضطجع؛ لأنه بالضر أشدّ فى غالب الأمر ، فهو يدعو أكثر ، واجتهاده أشدّ ، =

وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾[إبراهيم: ٢٨ - ٣٠].

إن الحق يذكر بنى إسرائيل أنه المنعم الوهاب للرزق؛ لذلك فلا داعى لغرور الاستعلاء، لقد سقاهم الله بعد عطش، وكان مجىء الماء إليهم بأسلوب غير تقليدى؛ حتى لا يقول قائل منهم: إن الماء قد جاء بدون تدخل من الخالق، لقد انفجرت عيون الماء من حجر، ولم يكن ماء مطر؛ وذلك حتى لا تكون لأحدهم وسيلة طغيان أو إنكار، وأطعمهم الله من المن والسلوى وهو رزق لا دخل لهم فيه. ويذكرهم الله بعد ذلك بما يجب على الإنسان أن يتجنبه فيقول الحق : ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [البقرة: ٦٠] ومعنى : «عثا» أى : قام بعمل فاسد شنيع.

لماذا إذن هذا القيد الملزم بعدم الإفساد فى الأرض؟!؛ لأن الله يعلم أن

= ثم القاعد ثم القائم. ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ﴾ أى استمرّ على كفره ولم يشكر ولم يتّعظ.

قلت: وهذه صفة كثير من المخلصين الموحدين، إذا أصابته العافية مرّ على ما كان عليه من المعاصى؛ فالآية تعم الكافر وغيره: ﴿كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا﴾ قال الأخفش : هى «كأن» الثقيلة خففت ، والمعنى كأنه ؛ وأنشد :

وَىْ كأنْ من يكن له نَشَبٌ يُحْـ ... ـبب ومن يفتقر يَعِشْ عيش ضُرّ (١)

﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ﴾ : أى كما زين لهذا الدعاء عند البلاء والإعراض عند الرخاء ﴿زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ : أى للمشركين أعمالهم من الكفر والمعاصى. وهذا التزيين يجوز أن يكون من الله ، ويجوز أن يكون من الشيطان ، وإضلاله دعاؤه إلى الكفر.

[تفسير القرطبى ٨/ ٣١٧]

---

(١) البيت لزيد بن عمر بن نفيل ، فراجعه فى خزانة الأدب ، فى الشاهد الثامن والسبعين بعد الأربعمائة.

تشويه العقائد الإيمانية هو أكثرالأعمال فسادا، وقد عانت البشرية كلها من قيام بعض من قوم موسى بإفساد العقيدة الإيمانية ؛ حرفوا التوراة، شوهوا الانتماء إلى الإيمان، فظنوه ميراثاً فى سلالة معينة، وباعوا الظن والوهم بأن من لا ينتمى بالدم إلى سلالتهم لا إيمان له، وذلك قمة الإفساد. إن الإيمان بالله مرتبط دائما وأبداً بالعمل الصالح، والعمل الصالح يرتبط بالنية وبالتنفيذ، ورعاية حق الحق فى الخلق، وفى سورة الكهف أكثر من مثل لنفهم معنى الإيمان العميق، إن العمل الصالح له قانون عام يجب أن يسير عليه كل البشر، ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ١١٠] ، والعمل الصالح هو ما كان موافقًا لكتاب الله تعالى وسنة رسول الله ﷺ ؛ لقول النبى ﷺ : «يا أيها الناس إنى قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا: كتاب الله وعترتى أهل بيتى » [١]. وبفهم أصحاب رسول الله ﷺ .

---

(١) أخرجه الترمذى [٣٧٨٦] وقال : حديث حسن غريب ، واللفظ له ، وأحمد فى المسند [٣/ ١٤، ١٧ ، ٢٦] ، وصححه الألبانى فى صحيح الترمذى [٢٩٧٨] .

* من نعم الله على بنى إسرائيل *

كل هذه النعم والمنن التى منّ الله بها على بنى إسرائيل وموسى، كان مقتضى العبودية التى وصفهم بها الحق فى قوله تعالى: ﴿أَسْرِ بِعِبَادِى﴾ [طه: ٧٧] أن ينفذوا منهج ربهم ، ويذكروا كل هذه النعم ذكراً لا يغيب عن بالهم أبدا، بحيث كلما تحركت نفوسهم إلى مخالفة، ذكروا نعمة من نعم الله عليهم، وأول مظاهر هذا الذكر أن يشكروا من أنعم عليهم.

ويذكرهم الله سبحانه وتعالى بنعمه عليهم فيقول عز من قائل : ﴿يَابَنِى إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ﴾ [طه:٨٠] ساعة تقول يا بنى إسرائيل- و«إسرائيل»هو نبى الله يعقوب عليه السلام(١)- فكأنك تقول يا أبناء الرجل الصالح؛كأن الحق سبحانه يذكرهم بأن أصلهم طيب، ولا يصح أن تأتى منهم الأفعال المعيبة، فيعدّد الله نعمه عليهم ويذكّرهم بها،وأنه سبحانه قد

(١) قال القرطبى : إسرائيل هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام . قال أبو الفرج الجوزى : وليس فى الأنبياء من له اسمان غيره ، إلا نبينا محمد ﷺ فإن له أسماء كثيرة ذكرها فى كتاب «فهوم الآثار» له.
قلت: وقد قيل فى المسيح إنه اسم علم لعيسى عليه السلام غير مشتق ، وقد سمّاه الله روحا وكلمة، وكانوا يسمونه أبيل الأبيلين ؛ ذكره الجوهرى فى الصحاح . وذكر البيهقى فى «دلائل النبوة» عن الخليل بن أحمد : خمسة من الأنبياء ذوو اسمين ، محمد وأحمد نبينا ﷺ ، وعيسى والمسيح ، وإسرائيل ويعقوب ، ويونس وذو النون، وإلياس وذو الكفل، صلى الله عليهم وسلم. =

. . . .

= قلت : ذكرنا أن لعيسى أربعة أسماء، وأما نبينا ﷺ فله أسماء كثيرة ، بيانها فى مواضعها (1). =

(1) فأول أسمائه وأشهرها محمد ﷺ ، قال الله جل ثناؤه: ﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ﴾ وقال: ﴿وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ وهو اسم مأخوذ من الحمد، يقال : حمدت الرجل فأنا أحمده، إذا أثنيت عليه بجلائل خصاله ، وأحمدته وجدته محموداً ، ويقال رجل محمود فإذا بلغ النهاية فى ذلك وتكاملت فيه المحاسن والمناقب فهو محمد. قال الأعشى يمدح بعض الملوك:

إليك ، أبيت اللعن كان كلالها ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ إلى الماجد الفرع الجواد المحمد

أراد الذى تكاملت فيه الخصال المحمودة، وهذا البناء أبداً يدل على الكثرة، وبلوغ النهاية فتقول فى المدح محمد وفى الذم مذمم، وكذلك بناء اسم محمد ﷺ دليل على كثرة المحامد وبلوغ النهاية فى الحمد ،ومما يدل على ذلك قول العرب: حُماداك أن تفعل ذلك،أى غايتك وفعلك المحمود منك غير المذموم؛ فسمى محمداً لذلك ﷺ.

ومن أسمائه ﷺ : أحمد ، قال الله فى قصة عيسى عليه السلام: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ وهو أيضا اسم مشتق من الحمد ، كما تقول أحمر من الحمرة، وأصفر من الصفرة، وكأنه أبلغ من مصفر ومحمر؛ لأن أصفر ألزم، فعلى هذا التأويل قلنا: إن أحمد نعت، والحمد ألزم، وكلاهما متقارب فى اللفظ والمعنى ، قال الكميت :

إلى السراج المنير أحمد لا ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ تعدلنى رغبة ولا رهب

ويقال: إن اسمه فى التوراة أحمد. حدثنا سعيد بن محمد بن نصر حدثنا بكر ابن سهل الدمياطى قال: حدثنا عبد الغنى بن سعيد عن موسى بن عبد الرحمن عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس ، وعن مقاتل عن الضحاك ، عن ابن عباس قال: اسمه فى التوراة أحمد الضَّحوك القتّال ، يركب البعير ، ويلبس الشملة ويجتزئ بالكسرة سيفه على عاتقه .

ومن أسمائه عليه السلام : الماحى ، قال حدثنا على بن إبراهيم القطان ، حدثنا أبو على بشر بن موسى الأسدى ، حدثنا الحميدى ، حدثنا سفيان عن الزهرى قال: أخبرنى محمد ابن جبير بن مطعم عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : « إنّ لى أسماء ، أنا محمد وأحمد ، وأنا الماحى الذى يُمحى بى الكفر ، وأنا الحاشر الذى يُحشر الناس على قدمى،=

= وأنا العاقب الذى لا نبى بعده » . فقد ذكر أن الماحى الذى يمحى به الكفر، وذلك أنه بُعث ﷺ والدنيا مظلمة، قد شملتها غيابة الكفر، وألبستها هبوة - الهبوة : الغبرة- الضلالة ، فأتى ﷺ بالنور الساطع ، والضياء اللامع ، حتى محا الكفر ومحقه، واشتقاقه من قولك : محوت الخط محواً ، قال الله جل ثناؤه : ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ﴾ أراد به السواد الذى فى دارة القمر ، كأنَّ بعض نوره مُحِى . والعرب تقول للربع الدارس: محته الريح والمطر ؛ قال الشاعر :

محته الريح بعدك والسماء

ومن أسمائه ﷺ: الحاشر ، وتفسيره فى الحديث الذى ذكرناه قبل ، وهو قوله: يُحشر الناسُ على قدمى ، ومعناه: أنه يقدمهم وهم خلفه ، لأنه أول من ينشق عنه القبر ثم تجىء بنو آدم فيتبعونه. والحشر فى كلام العرب الجمع، والمحشر المجمع الذى يحشرون إليه، وذلك إذا حشروا إلى معسكر وغيره. وقيل فى قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ أنه أراد الموت واشتقاق ذلك فى كلام العرب من قولهم إذا أصابت الناس السنة وأجحفت بالمال، وأهلكت ذوات الأربع ، يقال: حشرتهم ، وذلك أنها تضمهم من النواحى. قال رؤبة : ما نجا من حشرها المحشوش وحش ، ولا طمش من الطموش

قال الله جل ثناؤه ﴿وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً﴾ أى: خلق مجموعة، وكل شىء تطام فهو حشر، تقول :

وأذن لها حشرة مشـــــرة كإعليط مرخ إذا ما صفر

وقال رؤبة :

لها أذن حشر وذفرى أسيله وخد كمرآة الغريبة أسجح

ومن أسمائه عليه السلام: العاقب ، حدثنا علىٌّ بن إبراهيم القطان، حدثنا على ابن عبد العزيز عن أبى عبيد قال: قال يزيد بن هارون سألت سفيان عن العاقب فقال : آخر الأنبياء. قال أبو عبيد: وكذلك كل شىء خلف بعد شىء فهو عاقب ، وقد عقب يعقب، قال الأصمعى: يقال فرس ذو عقب إذا كان يجىء يجرى بعد جريه الأول .

قال أبو دواد : أسيل سبط العذرة ذى عفق وذى عقب

وكل شىء جاء بعد شىء ، فقد عاقب ذلك شىء ، ولذلك سميت العقوبة عقوبة ؛ لأنها تكون بعد الذنب ، وتعاقب الرجلان الناقة إذا ركباها كل واحد منهما بعد صاحبه . =

= قال الشاعر :

أذ خها فأردفه فإن حملتكما فذاك وإن كان العقاب فعاقب

أى إذا رأيت راجلا وأنت راكب فأردفه ، فإن لم تحملكما فتعاقبا، فسمى عليه السلام عاقباً، لأنه آخر الأنبياء ولا نبى بعده .

ومن أسمائه ﷺ: المقفى. وقد جاء هذا الاسم فى الحديث ومعنى المقفى والعاقب واحد، لأنه يتبع الأنبياء صلوات الله عليهم ، وكل شىء تبع شيئاً فقد قفاه، يقال هو يقفو أثر فلان أى يتبعه قال الله جل ثناؤه : ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ ، وقافية البيت تسمى قافية ؛ لأنها كلمة تتبع سائر الكلمات . فأما قوله صلى الله عليه وآله وسلم : « يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم ثلاث عقد »- أخرجه البخارى [١١٤٢ ، ٣٢٦٩] ، ومسلم [٧٧٦ / ٢٠٧] ، من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

فإنه أراد بالقافية القفا ، وإنما سمى قفا ؛ لأنه خلف الوجه وقال قوم: إنما هى المقفى بفتح الفاء يكون مأخوذاً من القفى، والقفى: الكريم والضيف ، والقفاوة البر واللطف. قال سلامة بن جندل يصف الفرس :

ليس بأسفى ولا اقنى ولا سغل يسقى دواء قفى السكب مربوب

فكأنه سمى المقفى أى المكرم ، والوجه الأول أحسن وأوضح والأشبة بالرواية ومن أسمائه ﷺ: الشاهد قال الله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ﴾ شاهداً ؛ لأنه يشهد يوم القيامة للأنبياء صلى الله عليهم وسلم بالتبليغ، وعلى الأصح بتبليغ الأنبياء إليهم الرسالات ، وقد قال الله جل ثناؤه: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ أى: شاهدًا، وأمته أيضا تشهد للأنبياء ، وعلى الأمم كذلك، قال الله جل ثناؤه: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ فسمى ﷺ شاهداً لذلك،والشاهد مشتق من المشاهدة كأنه الناظر والمخبر بما رأى، ويقال للسان: الشاهد ؛ لأنه يخبر ويشهد ، قال الأعشى :

ولا تحسبنى كافراً لك نعمة على شاهدى ياشاهد الله فاشهد

أراد بشاهد الله :الملك ، وبشاهد نفسه: لسانه .

ومن أسمائه ﷺفى هذه الآية: المبشر والنذير والداعى إلى الله والسراج المنير. فأما المبشر=

= فمن البشارة ؛ لأنه يبشر أهل الإيمان بالجنة والرضوان ، وهو النذير لأهل النار بالخزى والبوار، وأما الداعى ، فبدعائه إلى الله جل ثناؤه وتمجيده ، وأما السراج فلإضاءة الدنيا بنوره ومحو الكفر وظلامه بضياء وجهه كما قال عمه العباس :

وأنت لما ولدت أشرقت الـ أرض وضاءت بنورك الأفق

فنحن فى ذلك الضياء وفى النور وسبل الرشاد نخترق .

ومن أسمائه ﷺ الرحمة ، قال الله جل ثناؤه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ وقال رسول الله ﷺ : « يا أيها الناس إنما أنا لكم رحمة مهداة » - أخرجه ابن سعد فى الطبقات الكبرى [١/ ١٩٢] . وانظر الصحيحة للشيخ الألبانى [٤٩٠] - والرحمة فى كلام العرب: العطف والإشفاق ؛ لأنه كان بالمؤمنين رحيما كما وصفه الله جل ثناؤه فقال: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ ، فكان من الرأفة والرحمة بالمكان الذى لا يخفى كما قال عمه أبو طالب :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل

ومن أسمائه ﷺ نبى الملحمة ، جاء هذا الاسم فى الحديث ، والملحمة: الحرب والقتل، يقال : لحم فلان إذا قتل ، واللحيم: القتيل ، قال الهذلى :

فقالوا: تركنا القوم قد حصروا به فلا ريب أن قد كان ثَمَّ لحيم

أى: قتيل . وإنما سمى نبى الملحمة ؛ لأنه كان مبعوثا بالذبح ، وروى أنه ﷺ صلى يوماً ما ، فلما سجد جاءه بعض الكفار بسلا ناقة فألقاه على ظهره، فلما نهض وفرغ من سجدته قال لهم : « يا معشر قريش أى جوار هذا ؟ والذى نفس محمد بيده لقد جئتكم بالذبح » فقام إليه أبو جهل ، فلاذ به من بينهم وقال : يا محمد ما كنت مجهولا - أخرجه ابن أبى شيبة [٨/ ٣٦٠]- فلذلك سمى النبى ﷺ نبى الملحمة .

ومن أسمائه ﷺ الضحوك، وقد ذكر إسناد هذا الحديث فيما قبل ، وإنما قيل له الضحوك، لأنه كان طيب النفس فَكِهًا ، وكذا جاء فى الحديث أنه كانت فيه دعابة، وقال عليه السلام: « إنى لأمزح ولا أقول إلا حقا » - أخرجه الترمذى [١٩٩٠] ، وفى الشمائل [٢٣٨] ، وأحمد [٢/ ٣٦٠] ، والبغوى فى شرح السنة [٢٦٠٢] من حديث أبى هريرة رضى الله عنه . وهو صحيح - ومازح عجوزًا فقال : «إن الجنة لا يدخلها العجز » فبكت، فقال عليه السلام : « إنما يعيدهن الله أبكارا عربا أترابا » - أخرجه الترمذى فى =

= الشمائل [٢٤١] ، والبغوى فى تفسيره [٤/ ٢٨٣] ، والبيهقى فى البعث والنشور [٣٨٢] من حديث الحسن البصرى مرسلا . والحديث حسن بشواهده – ومثل ذلك منه كثير وكان ﷺ لا يحدث بحديث إلا ضحك حتى يبدو ناجذه ؛ وقد ذكر الله جل ثناؤه لينه ورقته فقال : ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ وكذلك كانت صفته ﷺ على كثرة من ينتابه ويفد عليه من حفاة الأعراب وأجلاف أهل البوادى، لا يراه أحد ذا ضجر وذا قلق وجفاء ، ولكن لطيفاً فى المنطق رفيقا فى المعاملات ، ليناً عند الحوار ، كان وجهه إذا عبست الوجوه دارة القمر عند امتلاء نوره ، فصلى الله على روحه فى الأرواح وجسده فى الأجساد .

ومن أسمائه ﷺ القتال ، سيفه على عاتقه ، وقد ذكرنا إسناد ذلك وسمى بذلك لحرصه على القتال ، ومسارعته إلى القراع وقلة أحجامه، وقال على بن أبى طالب رضوان الله عليه: كنا إذا احمرّ البأس اتقينا برسول الله ﷺ ، فلم يكن أحد منا أقرب الى العدو منه، والدليل على ذلك ثباته حين انحاز القوم، وذلك مشهور من فعله يوم أحد ، إذ ذهب الناس فى سمع الأرض وبصرها ، ويوم حنين إذ ولوا مدبرين وهو قائم تجاه العدو يناديهم، وفى غير ذلك من أيامه حتى أقل بإذن الله صناديدهم ، وقتل طواغيتهم وأذل نخوتهم ودوخهم واصطلم جماهيرهم فلذلك سمى القتال .

ومن أسمائه ﷺ: المتوكل ، روى الوليد بن كثير عن أبى حجلة ان طلحة بن عبيد الله ابن كريز حدثه أنه سمع ابن سلام رضى الله عنه يقول: إنا لنجد صفة رسول ﷺ فى بعض الكتب اسمه المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ، والمتوكل الذى أموره إلى الله جل ثناؤه ، فإذا أمره الله بالشيء نهض غير هيوب ولا ضريح، التوكل اشتقاقه من قولنا رجل وكل أى: ضعيف ، فكان ﷺ إذا دهمه الأمر أو نزلت به الملمة راجعاً إلى ربه غير متكل على حول نفسه ، وكان مع ذلك صابراً على الضنك والشدة ، غير مستريح إلى الدنيا ولذتها، لا تراه يسحب إليها ذيلا ، وهو القائل: « مالى وللدنيا إنما مثلى والدنيا كراكب أدركه المقيل فى أصل شجرة، فقال فى ظلها ساعة ثم مضى» – صحيح: أخرجه ابن أبى شيبة [٢١٧/١٣] ، والترمذى [٢٣٧٧]، وابن ماجه [٤١٠٩]، والحاكم [٤/ ٣١٠]، وأحمد [٣٩١/١] ، من حديث ابن مسعود ، وانظر : الصحيحة [٤٣٩ ـ ٤٤٠] – وإذا أصبحت آمنا فى سرك ، معافى فى بدنك ، عندك قوت يومك فعلى الدنيا العفاء » =

= وقال لبعض نسائه: « ألم أنهك أن تحبسى شيئاً لغد فإن الله جل ثناؤه يأتى برزق غد » - أخرجه ابن حبان فى المجروحين [٨٦/٣] من حديث أنس ، وفيه هلال بن أبى مالك القسملى ، ضعيف الحديث - وهذا قليل من كثير مما روى عنه فى هذا المعنى .

ومن أسمائه ﷺ: القثم . يروى عن رسول الله ﷺ أنه قال: « أتانى ملك فقال أنت قثم وخلقك قيم، ونفسك مطمئنة» - انظر : مناهل الصفا [ص ٣٦] - فالقثم من معنيين، أحدهما: من القثم وهو الإعطاء يقال: قثم له يقثم إذا أعطاه وسمى القثم؛ لأنه كان عليه السلام أجود بالخير من الريح الهادية، يعطى ولا يبخل ويمنح فضله ولا يمنع، وقال الأعرابى الذى أتاه فسأله فأعطاه : إن محمداً يعطى عطاء من لا يخاف الفقر. وروى أنه أعطى يوم هوازن ما قوّم خمسمائة ألف ألف وغير ذلك مما لا يخفى. والوجه الأخير أنه من القثم وهو الجمع، يقال للرجل الجموع للخير: قثوم ، وقثم كذا خبرنا به عن الخليل ، والعرب تقول : هو قثوم فى الأكل. قال :

فللكبراء أكل كيف شاءُوا وللصغراء أكل واقتثام

فإن كان الاسم من هذا فلأنه لم تبق منقبة رفيعة ، ولا فضيلة ، ولا خلة جليلة إلا كان هو لها جامعًا ، والأول أوضح وأقرب .

ومن أسمائه ﷺ: الفاتح، وإنما سمى الفاتح لفتحه من الإيمان أبوابا منسدة وإنارته ظلماً مسودة ، والفتح: الحكم ،والله جل ثناؤه الفتاح ، أى: الحاكم قال الله جل ثناؤه فى قصة حنين: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾ أى: احكم ، فسمى فاتحا؛ لأن الله جل ثناؤه جعله الحكم فى خلقه يحملهم على المحجة البيضاء ويمنعهم من العداوة. وكذا يروى عن على رضوان الله عليه أنه كان يقول فى صفته الفاتح لما استغلق ، والوجهان متقاربان .

ومن أسمائه ﷺ: الأمين ، وهو اسم مأخوذ من الأمانة وأدائها وصدق الوعد وكانت العرب تسميه قبل أن يبعث الأمين لما عاينوا من أمانته وحفظه لها ، وكل من أمن منه الخلق والكذب فهو أمين ، وكل راع للأمانة أمين، قال الله جل ثناؤه ﴿مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ أراد به جبرائيل عليه السلام وأنه مؤمن على الوحى ، فهذا معنى الأمـ ين .ومن أسـمائه ﷺ: الخاتم، قال الله جل ثناؤه: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ وهو من قولك: ختمت الشىء إذا أتممته وبلغت آخره، وهذه خاتمة الشىء وختامه وختم القرآن من ذلك. [من كتاب أسماء النبى ﷺ ومعانيها : ٣٠-٣٩]

أنجاهم، وخلّصهم من فرعون الذى كان يستبدّ بهم، ويذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم.

ثم واعدهم عند جانب الطور الأيمن؛ ليعطيهم منهج حركة حياتهم؛ حتى يحيوا سعداء، وينالوا رضا الله فى الدنيا والآخرة ، وهذه نعمة لاتعدلها نعمة.

وكلمة: ﴿ وَوَاعَدْنَاكُمْ ﴾ تختلف عن «وعدكم»؛ لأن كلمة «وعدكم» معناها الكلام من جانب واحد، تقول: وعدنى فلان بكذا، أو وعدت فلانا بكذا، لكن «واعدنا» يسمونها المفاعلة بمعنى المشاركة، فكلا الطرفين شريك فى الوعد، مع أن الوعد كان من الله سبحانه وتعالى لهم، فكأن أسلوب القرآن ينبهنا إلى أنه إذا وعدك إنسان بشئ ووافقت، فكأنك دخلت فى الوعد.

و ﴿ جَانِبَ الطُّورِ الأَيْمَنَ ﴾ : هو المكان الذى حدده الله لتلقى المنهج ، وهو فى صحراء ليس فيها زرع، ولكن الحق سبحانه ضمن لهم فيها

= وإسرائيل : اسم أعجمى ، ولذلك لم ينصرف؛ وهو فى موضع خفض بالإضافة . وفيه سبع لغات : إسرائيل ، وهى لغة القرآن . وإسرائيل، بمدة مهموزة مختلسة، حكاها شنبوذ عن ورش . وإسراييل ، بمدة بعد الياء من غير همز ، وهى قراءة الأعمش وعيسى بن عمر؛ وقرأ الحسن والزهرى بغير همز ولا مدّ. وإسرائل ، بغير ياء بهمزة مكسورة. وإسراءل ، بهمزة مفتوحة. وتميم يقولون : إسرائين ، بالنون . ومعنى إسرائيل : عبد الله . قال ابن عباس : «إسرا» بالعبرانية هو عبد ، و«إيل» هو الله. وقيل : إسرا هو صفوة الله ، وإيل هو الله . وقيل : إسرا من الشد؛ فكأن إسرائيل الذى شده الله وأتقن خلقه؛ ذكره المهدوى. وقال السهيلى: سمى إسرائيل؛ لأنه أسرى ذات ليلة حين هاجر إلى الله تعالى ؛ فسمى إسرائيل أى أسرى إلى الله ونحو هذا؛ فيكون بعض الاسم عبرانيا وبعضه موافقا للعرب . والله أعلم .

[تفسير القرطبى : ١/ ٣٣٠، ٣٣١]

متطلبات القوت ﴿الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ﴾ و ﴿الْمَنَّ﴾ هو ما يوجد على بعض الأشجار من قطع صغيرة، مثل قطرات الندى البيضاء، فيأتون فى الصباح ويهزون الشجرة على شئ مثل الملاءة [1]، فتنزل هذه القطرات عليها، وهى بيضاء حلوة الطعم فيأكلونها، وهى موجودة الآن فى العراق، وتقوم عليها صناعات تسمى «صناعة المنّ» و﴿السَّلْوَىٰ﴾ طائر مثل السمان ولحمه شهى الطعم [2] .

---

(١) المُلاءة بالضم والمدّ : الرَّيْطة، وهى الملحفة ، والجمع : مُلاء ، والمُلاءُ : بالضم والمدّ: جمع مُلاءَة . والمدّ : جمع مُلاءَة وهى الإزار والرَّيْطَة .

[لسان العرب :١/ ١٦٠]

(٢) قال ابن كثير فى وقوله تعالى : ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ﴾ اختلفت عبارات المفسرين فى المنّ ما هو ؟ فقال على بن أبى طلحة:

عن ابن عباس: كان المنّ ينزل عليهم على الأشجار ، فيغدون إليه فيأكلون منه ماشاءوا .

وقال مجاهد: المنّ صمغة . وقال عكرمة: المن شئ أنزله الله عليهم مثل الظل شبه الرُّب الغليظ .

وقال السدى: قالوا يا موسى كيف لنا بما ههنا ، أين الطعام؟ فأنزل الله عليهم المنّ ، فكان يسقط على شجرة الزنجبيل.

وقال قتادة: كان المن ينزل عليهم فى محلهم سقوط الثلج أشد بياضا من اللبن، وأحلى من العسل، يسقط عليهم من طلوع الشمس، يأخذ الرجل منهم قدر ما يكفيه يومه ذلك، فإذا تعدى ذلك فسد ولم يبق حتى إذا كان يوم سادسه يوم جمعته أخذ ما يكفيه ليوم سادسه ويوم سابعه ؛ لأنه كان يوم عيد لا يشخص فيه لأمر معيشته ولايطلبه لشئ ، وهذا كله فى البرية .

وقال الربيع بن أنس: المنّ شراب كان ينزل عليهم مثل العسل فيمزجونه بالماء ثم يشربونه .

وقال وهب بن منبه، وسئل عن المن فقال: خبز رقاق مثل الذرة أو مثل النقى.

وروى ابن جرير بسنده عن عامر وهو الشعبى قال: عسلكم هذا جزء من سبعين جزءا من المن .

=

= وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم أنه العسل.

ووقع فى شعر أمية بن أبى الصلت حيث قال :

فرأى الله أنهم بمضيع لا بذى مزرع ولا مثمورا

فسناها عليهم غاديات ويرى مزنهم خلايا وخورا

عسلا ناطفاً وماء فراتا وحليباً ذا بهجة مزمورا

فالناطف هو السائل والحليب المزمور الصافى منه ، والغرض أن عبارات المفسرين متقاربة فى شرح المنّ ، فمنهم من فسّره بالطعام، ومنهم من فسّره بالشراب .

والظاهر والله أعلم أنه كل ما امتن الله به عليهم من طعام وشراب وغير ذلك، مماليس لهم فيه عمل ولا كدّ ، فالمنّ المشهور إن أُكل وحده كان طعاماً وحلاوة ، وإن مزج مع الماء صار شرابا طيبا وإن ركب مع غيره صار نوعا آخر.

وأما السلوى فقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس السلوى طائر يشبه السمانى كانوا يأكلون منه .

وقال السدى فى خبره ذكره عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة : السلوى طائر يشبه السمانى.

وروى ابن أبى حاتم بسنده عن ابن عباس ، قال: السلوى هو السمانى.

وكذا قال مجاهد والشعبى والضحاك والحسن وعكرمة والربيع بن أنس رحمهم الله تعالى .

وعن عكرمة: أما السلوى فطير كطير يكون بالجنة أكبر من العصفور أو نحو ذلك .

وقال قتادة : السلوى كان من طير إلى الحمرة تحشرها عليهم الريح الجنوب، وكان الرجل يذبح منها قدر ما يكفيه يومه ذلك، فإذا تعدى فسد ولم يبق عنده، حتى إذا كان يوم سادسه ليوم جمعته أخذ ما يكفيه ليوم سادسه ويوم سابعه؛ لأنه كان يوم عبادة لا يشخص فيه لشئ ولا يطلبه .

وقال وهب بن منبه : السلوى طير سمين مثل الحمامة كان يأتيهم فيأخذون منه من سبت إلى سبت .

وفى رواية عن وهب قال سألت بنو إسرائيل موسى عليه السلام لحماً ، فقال الله لأطعمنهم من أقل لحم يعلم فى الأرض، فأرسل عليهم ريحاً فأذرت عند مساكنهم السلوى وهو السمانى، مثل ميل فى ميل قيد رمح، فى السماء، فخبأوا للغد فنتن اللحم وخنز الخبز. =

= وقال السدى: لما دخل بنو إسرائيل التيه قالوا لموسى عليه السلام: كيف لنا بما ههنا أين الطعام؟ فأنزل الله عليهم المنّ ، فكان ينزل على شجر الزنجبيل ، والسلوى، وهو طائر يشبه السمانى أكبر منه، فكان يأتى أحدهم فينظر إلى الطير، فإن كان سميناً ذبحه وإلا أرسله، فإذا سمن أتاه، فقالوا :هذا الطعام فأين الشراب ؟ فأمر موسى فضرب بعصاه الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا فشرب كل سبط من عين، فقالوا: هذا الشراب فأين الظل ؟ فظلل عليهم الغمام، فقالوا: هذا الظل فأين اللباس؟ فكانت ثيابهم تطول معهم كما تطول الصبيان ولا يتخرق لهم ثوب، فذلك قوله تعالى : ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ﴾ [البقرة: ٥٧] وقوله : ﴿ وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ .

وروى عن وهب بن منبه وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم نحو ما قاله السدى.

وروى عن ابن جريج قال: قال ابن عباس خلق لهم فى التيه ثياب لا تخرق ولاتدرن، قال ابن جريج : فكان الرجل إذا أخذ من المن والسلوى فوق طعام يوم فسد ، إلا أنهم كانوا يأخذون فى يوم الجمعة طعام يوم السبت فلا يصبح فاسداً .

قال ابن عطية: السلوى طير بإجماع المفسرين، وقد غلط الهذلى فى قوله إنه العسل وأنشد فى ذلك مستشهدا :

وقاسمها بالله جهداً لأنتم ... ألذّ من السلوى إذا ما أشورها

قال فظن أن للسلوى عسلا، قال القرطبى : دعوى الإجماع لا يصح؛ لأن المؤرخ أحد علماء اللغة والتفسير ، قال: إنه العسل واستدل ببيت الهذلى هذا، وذكر أنه كذلك فى لغة كنانة؛ لأنه يُسلى به ومنه عين سلوان .

وقال الجوهرى : السلوى العسل واستشهد ببيت الهذلى أيضا ، والسلوانة بالضم خرزة كانوا يقولون إذا صبّ عليها ماء المطر فشربها العاشق سلا قال الشاعر :

شربت على سلوانة ماء مزنة ... فلا وجديد العيش يامى ما أسلو

واسم ذلك الماء السلوان، وقال بعضهم : السلوان دواء يشفى الحزين فيسلو والأطباء يسمونه مفرج .

قالوا: والسلوى جمع بلفظ الواحد أيضا، كما يقال سمانى للمفرد والجمع وويلى كذلك، وقال الخليل: واحده سلواة وأنشد: =

فالحق سبحانه وتعالى حينما واعدهم جانب الطور الأيمن؛ وهذا المكان فى الصحراء ليس فيه مقومات حياة، فأعطاهم سبحانه ما يعيشون عليه ولكنهم أناس ماديون جدليون ، متعنتون ، تُمردوا على النعمة وقالوا: ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾ [البقرة: ٦١] وطلبوا من موسى أن يذهب بهم إلى أرض ينبت فيها البقل والعدس والثوم والبصل . . . . إلخ [(١)] .

= وإنى لتعرونى لذكراك هزة كما انتفض السلواة من بلل القطر

وقال الكسائى : السلوى واحدة وجمعه سلاوى.

[تفسير ابن كثير : ١/ ٩١ - ٩٣] بتصرف.

(١) قال الشوكانى فى قوله تعالى : ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾ تضجّر منهم بما صاروا فيه من النعمة ، والرزق الطيب ، والعيش المستلذ، ونزوع إلى ما ألفوه قبل ذلك من خشونة العيش :

إن الشقى بالشقاء مولع لا يملك الردّ له إذا أتى

ويحتمل ألا يكون هذا منهم تشوقاً إلى ما كانوا فيه، ونظراً إلى ما صاروا إليه من العيشة الرافهة ، بل هو باب من تعنتهم ، وشعبة من شعب تعجرفهم، كما هو دأبهم، وهجيراهم [(١)] فى غالب ما قص علينا من أخبارهم .

وقال الحسن البصرى: إنهم كانوا أهل كراث ، وأبصال ، وأعداس ، فنزعوا إلى عكرهم- أى أصلهم - عكر السوء، واشتاقت طباعهم إلى ما جرت عليه عادتهم ، فقالوا : ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾ والمراد بالطعام الواحد : هو المنّ والسلوى ، وهما وإن كانا طعامين لكن لما كانوا يأكلون أحدهما بالآخر جعلوهما طعاماً واحداً. وقيل: لتكررهما فى كل يوم، وعدم وجود غيرهما معهما ،ولا تبدله بهما. و«من» فى قوله : ﴿مِمَّا تُنبِتُ﴾ : تخرج . قال الأخفش: زائدة ، وخالفه سيبويه؛ لكونها لا تزاد فى الكلام الموجب . قال النحاس : وإنما دعا الأخفش إلى هذا ؛ لأنه لم =

(١) أى دأبهم وشأنهم . يقال : هذا هجيراه وإهجيراه ، وأهجيراؤه، وهجيّره وأهجورته وهجّرياه، أى دأبه وشأنه . وما عنده غناء ذلك ولا هجراؤه ، بمعنى .

[القاموس المحيط: ٦٣٧] .

. . . .

= يجد مفعولاً ؛ ليخرج فأراد أن يجعل «ما» مفعولاً . والأولى: أن يكون المفعول محذوفاً دلّ عليه سياق الكلام ، أى تخرج لنا مأكولا.

[فتح القدير : ١/ ١٥٤، ١٥٥]

* إنجاء الله لبنى إسرائيل نعمة كبرى *



يقول تعالى: ﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾[1][البقرة: ٥٠] لقد جاءموسى وهاورن إلى فرعون يدعوانه للإيمان ، ووهب الله موسى

(١) عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قدم النبى ﷺ المدينة فرأى اليهود تصوم يوم عاشوراء، فقال: «ما هذا ؟» قالوا: هذا يوم صالح، هذا يوم نجَّى الله بنى إسرائيل من عدوِّهم فصامه موسى، قال: «فأنا أحق بموسى منكم، فصامه، وأمر بصيامه».
أخرجه البخارى [٢٠٠٤، ٣٣٩٧، ٤٦٨٠، ٤٧٣٧] واللفظ له،ومسلم [١١٣٠/ ١٢٧، ١٢٨].

قال صديق خان فى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ﴾. أى فلقنا، وأصل الفلق الفرق والفصل، ومنه فرق الشعر، ومنه: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ﴾ [الإسراء: ١٠٦]: أى فصلناه، والباء فى ﴿بِكُمُ﴾ بمعنى اللام أو السببية، والمراد أن فرق البحر كان بسبب دخولهم فيه، لما صاروا بين المائين صار الفرق بهم، وأصل البحر فى اللغة الاتساع، أطلق على البحر الذى هو مقابل البر؛ لما فيه من الاتساع بالنسبة إلى النهر والخليج ويطلق على الماء المالح، وقال السيوطى فى مفحمات الأقران: البحر هو القلزم وكنيته أبو خالد، كما روى عن قيس بن عباد، قال ابن عساكر كأنه كُنى بذلك لطول بقائه، وروى أبو يعلى بسند ضعيف عن النبى ﷺ قال: «فلق البحر لبنى إسرائيل يوم عاشوراء» [1] .

﴿فَأَنجَيْنَاكُمْ﴾. اى اخرجناكم منه. ﴿وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾. فيه، ووافق ذلك يوم عاشوراء فصام موسى ذلك اليوم؛ شكراً لله عز وجل، والمراد بآل فرعون هنا : هو وقومه وأتباعه، والغرق: الرسوب فى الماء وتجوز به عن المداخلة فى الشىء،تقول: =

(١) مفحمات الأقران [ص ١٢، ١٣] والحديث أخرجه أبو يعلى [٤٠٩٤] عن أنس بن مالك.

= غرق فلان فى اللهو فهو غرق، قاله السمين. [فتح البيان: ١/ ١٦٦]

قال القرطبى: القول فى اختلاف العلماء فى كيفية إنجاء بنى إسرائيل: ذكر الطبرى أن موسى عليه السلام أوحى إليه أن يسرى من مصر ببنى إسرائيل، فأمرهم موسى أن يستعيروا الحلى والمتاع من القبط، وأحل الله ذلك لبنى إسرائيل؛ فسرى بهم موسى من أول الليل؛ فأعلم فرعون فقال: لا يتبعهم أحد حتى تصيح الديكة، فلم يصح تلك الليلة بمصر ديك؛ وأمات الله تلك الليلة كثيرا من أبناء القبط فاشتغلوا فى الدفن وخرجوا فى الأتباع مشرقين؛ كما قال تعالى: ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ﴾(١) [الشعراء:٦٠]. وذهب موسى إلى ناحية البحر حتى بلغه. وكانت عدّة بنى إسرائيل نيّفا على ستمائة ألف. وكانت عدة فرعون ألف ألف ومائتى ألف. وقيل: إن فرعون اتبعه فى ألف ألف حصان سوى الإناث. وقيل: دخل إسرائيل - وهو يعقوب عليه السلام - مصر فى ستة وسبعين نفسا من ولده وولد ولده؛ فأنمى الله عددهم وبارك فى ذريته؛ حتى خرجوا إلى البحر يوم فرعون، وهم ستمائة ألف من المقاتلة سوى الشيوخ والذرية والنساء. وذكر أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبى شيبة قال حدثنا شبابة بن سوار عن يونس بن أبى إسحاق عن أبى إسحاق عن عمرو بن ميمون عن عبد الله ابن مسعود أن موسى عليه السلام حين أسرى ببنى إسرائيل بلغ فرعون فأمر بشاة فذبحت، ثم قال: لا والله لا يفرغ من سلخها، حتى تجتمع لى ستمائة ألف من القبط؛ قال: فانطلق موسى حتى انتهى إلى البحر؛ فقال له: افرق؛ فقال له البحر: لقد استكبرت يا موسى! وهل فرقت لأحد من ولد آدم فأفرق لك! قال: ومع موسى رجل على حصان له؛ قال: فقال له ذلك الرجل: أين أمرت يا نبى الله؟ قال ماأمرت إلا بهذا الوجه؛ قال: فأقحم فرسه فسبح فخرج . فقال أين أمرت يا نبى الله قال: ماأمرت إلا بهذا الوجه والله ما كذبت ولا كذبت؛ ثم اقتحم الثانية فسبح به حتى خرج؛ فقال: أين أمرت يا نبى الله؟ فقال: ما أمرت إلا بهذا الوجه؛ قال: والله ما كذبت ولا كذبت؛ قال فأوحى الله إليه: ﴿أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ﴾ فضربه موسى بعصاه، ﴿فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾(٢) . فكان فيه اثنا عشر فرقا، لاثنى عشر سبطا، لكل سبط طريق يتراءون ؛ وذلك أن أطواد الماء صار فيها طيقانًا =

(١) انظر [تفسير القرطبى - ١٣/ ١٠٥] .

(٢) أخرجه ابن أبى شيبة فى المصنف [٧/ ٤٥٣].

معجزة العصا وإخراج كفّه التى تبهر بالضوء، فظن فرعون أن ذلك سحر، وآمن سحرة بنى إسرائيل. فما الذى حدث؟ أنجاهم الله. وتأتى قصة الإنجاء فى قوله تعالى : ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٧) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ (٤٨) قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (٤٩) قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ (٥٠) إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ (٥١) وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ (٥٢) فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٥٣) إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (٥٤) وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ (٥٥) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ (٥٦) فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٧) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٥٨) كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (٥٩) فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ (٦٠) فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣) وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ (٦٤) وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ (٦٥) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (٦٦) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً

= وشبابيك، يرى منها بعضهم بعضا؛ فلما خرج أصحاب موسى، وقام أصحاب فرعون التطم البحر عليهم فأغرقهم. ويذكر أن البحر هو بحر القلزم، وأن الرجل الذى كان مع موسى على الفرس هو فتاه يوشع بن نون، وأن الله تعالى أوحى إلى البحر أن انفرق لموسى إذا ضربك؛ فبات البحر تلك الليلة يضطرب؛ فحين أصبح ضرب البحر وكّناه[1] أبا خالد. ذكره ابن أبى شيبة أيضا[2]. وقد أكثر المفسرون فى قصص هذا المعنى؛ وما ذكرناه كاف.

[تفسير القرطبى: ١/ ٣٨٩، ٣٩٠]

---

(١) أى كنّى موسى البحر .

(٢) أخرجه ابن شيبة فى المصنف [٧/ ٤٥٢].

﴿وَمَاكَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (٦٧) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٦٨)﴾ [الشعراء] .

هكذا كان أمر إيمان السحرة بالله الذى أرسل موسى عليه السلام بآيات بينات، وتمّ إعلان إيمان السحرة برب العالمين، وأنكر فرعون ذلك الإيمان قبل أن يستأذنوه، فهددهم بأنه سيصلبهم ويقطّع أيديهم وأرجلهم ، واتّهم موسى بأنه كبير السحرة.

قال السحرة إننا لن نخاف؛ لأن من يؤمن بالله يعود إليه، ولابد أن الخالق أكرم بعباده، وكان الوحى إلى موسى بأن يخرج مع قومه ليلاً . وخرج قوم موسى معه سرا، بعضهم مؤمن وبعضهم لم يؤمن بعد.

جمع فرعون من الجنود الكثير والكثير؛ ليؤدِّب من آمنوا برب موسى، رب العالمين. قال فرعون مستهزئاً : إن أعدادهم قليلة ولابد لنا أن نلحق بهم لنوقع عليهم العقاب، وكأن فرعون استبدل الوضع مع بنى إسرائيل. لقد طغى وكفر، وهم بعد أن كانوا كفرة أعلنوا الإيمان، ومن فضل الإيمان اتحاد قدرة المخلوق مع الخالق. وهكذا كان الإنجاء الفورى من العذاب قبل أن يقع.

إن المؤمنين برب موسى، رب العالمين، هم القلة القليلة التى لم تهتم بتهديد فرعون، وقالت لفرعون: ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾[1] [الأعراف: ١٢٦] .إن هؤلاء هم الذين أسلموا ، ورأوا فى آيات موسى برهانًا على إرادة الحق الوهاب؛

(١) قال الشوكانى فى قوله تعالى: ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّا﴾ قرأ الحسن بفتح القاف. قال الأخفش: هى لغة. وقرأ الباقون بكسرها. يقال: نقمت الأمر: أنكرته، أى لست تعيب علينا، وتنكر منا ﴿إِلا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا﴾. مع أن هذا هو الشرف العظيم والخير الكامل، ومثله لا يكون موضعاً للعيب ، ومكاناً للإنكار ، =

لذلك طلبوا الصبر من الله على الشدائد، وأن يموتوا مسلمين لله غير مفتونين بوعيد فرعون، أما الذين لم يؤمنوا قالوا لموسى عليه السلام : ﴿قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [1][الأعراف: ١٢٩]

= بل هو حقيق بالثناء الحسن، والاستحسان البالغ، ثم تركوا خطابه، وقطعوا الكلام معه، والتفتوا إلى خطاب الجناب العلى، مفوضين الأمر إليه، طالبين منه عز وجل أن يثبّتهم على هذه المحنة بالصبر، قائلين: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ الإفراغ: الصب، أى اصببه علينا، حتى يفيض ويغمرنا. طلبوا أبلغ أنواع الصبر، استعداداً منهم لماسينزل بهم من العذاب من عدو الله، وتوطيناً لأنفسهم على التصلب فى الحق، وثبوت القدم على الإيمان، ثم قالوا: ﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [1] : أى توفنا إليك حال ثبوتنا على الإسلام، غير محرفين ولا مبدلين ولا مفتونين، ولقد كان ما هم عليه من السحر، والمهارة فى علمه، مع كونه شراً محضاً؛ سبباً للفوز بالسعادة؛ لأنهم علموا أن هذا الذى جاء به موسى خارج عن طوق البشر، وأنه من فعل الله سبحانه، فوصلوا بالشر إلى الخير، ولم يحصل من غيرهم ممن لا يعرف هذا العلم من أتباع فرعون، ما حصل منهم من الإذعان والاعتراف والإيمان، وإذا كانت المهارة فى علم الشر قد تأتى بمثل هذه الفائدة، فما بالك بالمهارة فى علم الخير. اللهم انفعنا بماعلمتنا، وثبِّت أقدامنا على الحق، وأفرغ علينا سجال الصبر، وتوفَّنا مسلمين.

[فتح القدير: ٢/ ٢٤٥، ٢٤٦]

(١) قال الماوردى فى قوله عز وجل: ﴿قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ فيه أربعة أقاويل: =

(١) وهذا يدل دلالة واضحة على أن الإسلام هو دين الرسل جميعا . قال تعالى : فى شأن سيدنا إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام : ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً﴾ [البقرة: ١٢٨] . وقال تعالى فى شأن الحواريين أتباع سيدنا عيسى عليه السلام : ﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٥٢] . وقال تعالى على لسان سيدنا يوسف عليه السلام : ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١] . [المصدر نفسه]

فالحق تبارك وتعالى يضع القانون الإيمانى الواضح، والمؤمن به يتم اختباره بامتحان كبير : عذاب أو استخلاف فى الأرض، وكلا الأمرين اختبار عليه جزاء، إن من شك فى الإيمان بما جاء به موسى تساءل: كيف يأتى رسول ويكون فى اتّباع الرسول تعذيب لمن آمن به؟ ويجيب موسى بما علّمه الحق، بأن الإيمان الحق يستدعى أن يتحمل المؤمن المشقة؛ لينال فضل الله.

= أحدها: أن الأذى من قبل ومن بعد أخذ الجزية. قاله الحسن.

والثانى: أن الأذى من قبل: تسخيرهم بنى إسرائيل فى أعمالهم لنصف النهار، وإرسالهم فى بقيته ليكسبوا لأنفسهم. والأذى من بعد: تسخيرهم فى جميع النهار بلا طعام، ولا شراب، قال جويبر.

والثالث: أن الأذى الذى كان من قبل: الاستعباد وقتل الأبناء، والذى كان من بعد: الوعيد بتجديد ذلك عليهم، حكاه ابن عيسى.

والرابع: أن الأذى الذى كان من قبل أنهم كانوا يضربون اللبن ويعطيهم التبن، والأذى من بعد أن صاروا يضربون اللبن، ويجعل عليهم التبن، قاله الكلبى.

وفى قولهم: ﴿مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ قولان:

أحدهما: من قبل أن تأتينا بالرسالة ومن بعد ما جئتنا بها، قاله ابن عباس.

والثانى: من قبل أن تأتينا بعهد الله إليك أنه يخلصنا ومن بعد ما جئتنا به.

وفى هذا القول منهم وجهان:

أحدهما: أنه شكوى ما أصابهم من فرعون ، واستعانة بموسى.

والثانى: أنهم قالوه استبطاء لوعد موسى، حكاه ابن عيسى.

﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ﴾ ، ﴿عَسَىٰ﴾ فى اللغة طمع وإشفاق. قال الحسن ﴿عَسَىٰ﴾ من الله واجبة. وقال الزجاج: ﴿عَسَىٰ﴾ من الله يقين.

﴿وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ فى قوله: ﴿فَيَنظُرَ﴾ وجهان:

أحدهما: فيرى.

والثانى: فيعلم ، وفى قول موسى ذلك لقومة أمران:

أحدهما: الوعد بالنصر والاستخلاف فى الأرض.

والثانى: التحذير من الفساد فيها؛ لأن الله تعالى ينظر كيف يعملون.

[تفسير الماوردى: ٢/٢٤٩، ٢٥٠]

وعندما يستخلف الله المؤمن فى الأرض، فذلك أيضا اختبار له، هل سيحسن العمل أم لا؟ إن العمل الصالح معيار من معايير ثبات الإيمان، فمن يصبر ينل الجزاء، ومن يحسن العمل ينل الجزاء كذلك [١].

---

(١) عن سعد بن أبى وقاص؛ قال: قلت: يا رسول الله أى الناس أشد بلاء؟ قال: «الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل. يبتلى العبد على حسب دينه. فإن كان فى دينه صلباً اشتد بلاؤه. وإن كان فى دينه رقة ابتلى على حسب دينه. فما يبرح البلاء بالعبد، حتى يتركه يمشى على الأرض، وما عليه من خطيئة» .

أخرجه ابن ماجه [٤٠٢٣]، وصححه الألبانى فى صحيح ابن ماجه [٣٢٥٩]

وعن أبى سعيد الخدرى؛ قال: دخلت على النبى ﷺ، وهو يوعك[١]. فوضعت يدى عليه. فوجدت حرة بين يدى، فوق اللحاف. فقلت: يا رسول الله! ما أشدها عليك! قال: «إنا كذلك. يُضعَّف لنا البلاء ويضعف لنا الأجر» قلت: يا رسول الله! أى الناس أشد بلاء؟ قال: «الأنبياء» قلت: يا رسول الله! ثم من؟ قال: «ثم الصالحون. إن كان أحدهم ليبتلى بالفقر. حتى ما يجد أحدهم إلا العباءة يُحوِّيها [٢]، وإن كان أحدهم ليفرح بالبلاء كما يفرح أحدكم بالرخاء».

أخرجه ابن ماجه [٤٠٢٤]، وصححه الألبانى فى صحيح ابن ماجه [٣٢٥٠]

---

(١) يوعك : الوعك : الحمى ، وقيل : ألمها. [النهاية فى غريب الحديث لابن الأثير : ٥/٢٠٧]

(٢) الحَوِيَّة : كساء يحوىً حول سنام البعير ثم يُركب . الجوهرى : الحَوِيَّة كساء محشو حول سنام البعير، وهى السَّوِيَّة . والحوية لا تكون إلا للجمال ، والسوية قد تكون لغيرها . التحويَّة : أن تدير كساءً حول سنام البعير ثم تركبه . . [لسان العرب : ١٤/٢٠٩]

الحق أخرج فرعون وقومه من الجنات والنعيم

يقول تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴾ [الشعراء: ٥٢] ؛ نحن قلنا: الوحى فى اللغة: إعلام بخفاء، لكن فى الشرع كلمة الوحى يعنى بها وحيًا خاصاً من نوع خاص فى أمر خاص.

فالوحى الشرعى هو: إعلام من الله تعالى لرسول من رسله بمنهج خير لخلقه.

أما الوحى على إطلاقه: قد يكون من غير الله، فكلمة الوحى تستخدم فى الوحى من الإنسان، أو من الشيطان أو غير ذلك، كما تستخدم فى الوحى الشرعى أيضا مثال ذلك ؛ قول الله تعالى: ﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ ﴾ [الأنعام: ١٢١] .

ويقول أيضا ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾ [النحل: ٦٨] .

وقد يكون الوحى من الله للجماد ، كالأرض مثلا كما فى قوله تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ④ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ⑤ ﴾ [الزلزلة] .

فالوحى المطلق إعلام بخفاء ؛ ممن، وإلى من، وفى أى شيء؟ هذه ليست قضيتنا، لكن الوحى الشرعى: هو إعلام خفى من الله لمن اصطفاه برسالته ومنهجه إلى خلقه، وكما رأينا فقد يكون الوحى للإنسان أو للحيوان أو الجماد.

انظروا إلى حكمة الله سبحانه فى أن فرعون هو الذى يقوم بالدعاية للمباراة بين السحرة وبين موسى ويجمع الناس ويحشرهم ، فهو قد فهم أنه يعمل دعاية لصالحه؛ لأنه ظن أنه سيغلب. لكن لما حدث العكس وانقلب الموقف لصالح موسى، أصبحت هذه الدعاية ضده ولمصلحة موسى. وعلم الناس أن فرعون ليس إلها ، وأنه خدعهم وقهرهم على ذلك، ولكن خوفهم من فرعون جعلهم يسكتون ،ولكن بينهم وبين أنفسهم هم مقتنعون بالإيمان بموسى عليه السلام ،ولذلك تتبعوا أخباره؛ لأن من غباء فرعون أنه ترك موسى مدة طويلة بعد ما حدث يوم الزينة وإيمان السحرة ، وهذا كان لصالح موسى ودعوته، بدليل قول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ (١)، فكأن موسى ظل مدة طويلة قبل أن يخرج بقومه من مصر؛ هرباً من بطش فرعون وجنوده، وفى هذه الفترة حدثت الآيات التى ابتلى الله بها قوم فرعون من القمل، والضفادع، والدم ، والآيات المفصلات الأخرى.

فهذه الآيات التسع التى أرسلها الله على فرعون وقومه، كانت تهدد كيانه وتنغص عليه حياته، فلا يجد الوقت للتفكير فى طرد موسى أو التخلص منه.

وتأتى الآيات إثر بعضها مؤيدة لموسى، حتى شاع أمره وكثر أتباعه ، فبدأ فرعون يجمع جنوده ويعد العدة للقضاء على موسى وأتباعه.

---

(١) عن ابن مسعود: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ ﴾ قال : السنون الجوع.
وعن مجاهد فى قوله: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ ﴾ قال : الجوائح، ﴿ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ ﴾ : دون ذلك .
وعن قتادة فى قوله : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ ﴾ قال : أخذهم الله بالسنين بالجوع عاما فعاما ﴿ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ ﴾، فأما السنون فكان ذلك فى باديتهم وأهل=

والدليل على كثرة أتباع موسى : أن قبط مصر الذين هم قوم فرعون، كانوا يتعاطفون مع موسى وأتباعه، حتى أنهم قبل أن يخرجوا من مصر كانت كل سيدة من أتباع موسى قد استعارت حُليًا من سيدات القبط ؛ ليتزينوا بها فى يوم العيد وهذا إن دل على شىء ، فإنما يدل على المودة والتقارب بينهم ، وهذه هى الحلى التى صنع السامرى العجل منها بعد خروج بنى إسرائيل (١).

قول الله تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴾ أى: أن الله تعالى أوحى إليه:

أن يخرج بقومه ليلاً ؛ لأن الإسراء: هو السير ليلاً .

وأن جنود فرعون سيتبعونهم .

وفرعون لن يسكت على ما حدث له من هزيمة.

فكان يعد العدة للقضاء على موسى وقومه الذين آمنوا معه، قال

= مواشيهم ، وأما نقص من الثمرات ، فكان فى أمصارهم وقراهم .

وعن رجاء بن حيوة فى قوله: ﴿ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ ﴾ قال : حتى لا تحمل النخلة إلا بسرة واحدة .

وعن ابن عباس قال : لما أخذ الله آل فرعون بالسنين يبس كل شىء لهم ، وذهبت مواشيهم حتى يبس نيل مصر ، واجتمعوا إلى فرعون فقالوا له : إن كنت كما تزعم فأتنا فى نيل مصر بماء. قال : غدوة يصبحكم الماء . فلما خرجوا من عنده قال : أى شىء صنعت ؟! أنا أقدر على أن أجرى فى نيل مصر ماء ! غدوة أصبح فيكذبوننى . فلما كان فى جوف الليل قام واغتسل ولبس مدرعة صوف ، ثم خرج حافيا، حتى أتى نيل مصر فقام فى بطنه فقال : اللهم إنك تعلم أنى أعلم أنك تقدر على أن تملأ نيل مصر ماء فاملأه ، فما علم إلا بخرير الماء يقبل ، فخرج وأقبل النيل يزخ بالماء؛ لما أراد الله بهم من الهلكة . [الدر المنثور :٣/٥١٨]

(١) انظر هامش الجزء [٢٤،ص ١٩٠٤، ١٩٠٥] من هذا الكتاب .

تعالى: ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ إِنَّ هَؤُلاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ﴾ [الشعراء: ٥٣ - ٥٦] أراد فرعون أن يعبئ قوته، فأرسل فى المدائن حاشرين؛ لجمع الجنود وتعبئة الروح المعنوية للناس، وأراد أن يطمئنهم بأن هؤلاء شرذمة قليلة، لا قيمة لهم، وأنه سيقضى عليهم بمساعدة الشعب له؛ ذلك حتى يشجعهم على قتال موسى ومن معه.

وهذه حرب نفسية تطبقها الجيوش فى حروبها؛ لأنك حين تعلم أن عدوك قليل العدد ضعيف العدة ستطمع فيه، وتثق من النصر عليه، فتقاتله بروح معنوية عالية، والعكس صحيح، ومع أنهم شرذمة قليلة كما قال، إلا أنه اعترف أنهم غائظون له، وأنه قد أخذ حذره منهم؛ فأرسل فى المدائن حاشرين، بعضهم لجمع السحرة والبعض الآخر لجمع الجنود، فالسحرة كان يريد منهم أن يهزموا موسى بالجدل والسحر ففشلوا، فأراد أن يهزمه بالجبروت والتسلط عن طريق الجيش، لكن الله أخبر موسى عليه السلام بهذا الأمر، فأخذ قومه وسار بهم فى جنح الظلام، متجها نحو المشرق، فلما أحس فرعون وقومه بهروب موسى ومن معه، ساروا خلفهم مسرعين، حتى إذا اقتربوا وصاروا على مرمى البصر، نظر قوم موسى فوجدوا جنود فرعون وراءهم وكان ما كان، وأهلك فرعون قومه بعد أن كانوا فى جنات وعيون وذلك قول الحق تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٧) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٥٨) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (٥٩)﴾ [الشعراء] (١) خرج فرعون وقومه من الجنات والقصور والنعم التى كانوا

(١) قال ابن كثير: فأرسل سريعا فى بلاده حاشرين، أى: من يحشر الجند ويجمعه، كالنقباء والحجّاب ونادى فيهم: ﴿إِنَّ هَؤُلاءِ﴾ يعنى: بنى إسرائيل ﴿لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ أى: لطائفة قليلة ﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ﴾، أى: كل وقت يصل منهم إلينا=

فيها، وتركوا الكنوز والخدم والحشم والعيش الكريم الذى كانوا يعيشيون فيه؛ لأنهم غرقوا وتركوا كل هذه النعم وراءهم.

قد يقول قائل: القرآن يقول: ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾، مع أن بنى إسرائيل خرجوا من مصر ولم يرثوا شيئاً؟ نقول له: أورثهم التى مثلها فى الأرض التى خرجوا إليها.

= ما يغيظنا ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ﴾ أى نحن كل وقت نحذر من غائلتهم. وقرأ طائفة من السلف: «وإنا لجميع حذرون» أى مستعدون بالسلاح، وإنى أريد أن أستأصل شأفتهم وأبيد خضراءهم، فجُوزِى فى نفسه وجنده بما أراد لهم، قال الله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾؛ أى فخرجوا من هذا النعيم إلى الجحيم، وتركوا تلك المنازل العالية، والبساتين والأنهار، والأموال والأرزاق، والملك والجاه الوافر فى الدنيا، ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ [الأعراف: ١٣٧] الآية. وقال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص: ٥] الآيتين.
[تفسير ابن كثير: ٣/ ٣٢٤-٣٢٥]

❋ سكوت الغضب ❋

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ﴾(١) [الأعراف:١٥٤] ؛ فهل الغضب له سكوت وله كلام؟ نقول: نعم؛ لأن الغضب يهيج النفس ويلحّ عليها أن

---

(١) قال القرطبي في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ﴾ أي سكن. وكذلك قراها معاوية بن قرة « سكن » بالنون. وأصل السكوت: السكون والإمساك؛ يقال: جرى الوادي ثلاثا ثم سكن، أي أمسك عن الجري، وقال عكرمة: سكت موسى عن الغضب؛ فهو من المقلوب كقولك: أدخلت الأصبع في الخاتم، وأدخلت الخاتم في الأصبع. وأدخلت القلنسوة [١] في رأسي، وأدخلت رأسي في القلنسوة. ﴿أَخَذَ الْأَلْوَاحَ﴾ التي القاها. ﴿وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ﴾، أي ﴿هُدًى﴾ من الضلالة، ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ أي من العذاب. والنسْخ: نقل ما في كتاب إلى كتاب آخر.

ويقال للأصل الذي كتبت منه: نسخة، وللفرع نسخة. فقيل: لما تكسرت الألواح صام موسى أربعين يوما، فردّت عليه وأعيدت له تلك الألواح في لوحين، ولم يفقد منها شيئًا؛ ذكره ابن عباس.

قال القشيري: فعلى هذا ﴿وَفِي نُسْخَتِهَا﴾؛ أي وفيما نسخ من الألواح المتكسرة ونقل إلى الألواح الجديدة هدى ورحمة.

وقال عطاء: فيما بقي منها. وذلك أنه لم يبق منها إلا سُبعها، وذهب ستة أسباعها. ولكن لم يذهب من الحدود والأحكام شيء.

وقيل: المعنى ﴿وَفِي نُسْخَتِهَا﴾ أي وفيما نُسخ له منها من اللوح المحفوظ هدى.

وقيل: المعنى وفيما كتب له فيها هدى ورحمة، فلا يحتاج إلى أصل ينقل عنه. وهذا كما يقال: انسخ ما يقول فلان، أي أثبته في كتابك.

[تفسير القرطبي: ٧/ ٢٩٢، ٣٩٣]

---

(١) القلنسوة: من ملابس الرؤوس، معروف. [لسان العرب: ٦/ ١٨١]

تتحرك وتفعل، فكأنه يقول للغضبان: اضرب أو اقتل أو حطم، وهنا يبدو الغضب فى صورة شخص، له أوامر تلح على الإنسان أن يؤذى من أغضبه، سواء بالضرب أو بالقتل أو بغير ذلك، والله صوّر الغضب فى صورة إنسان يلح على موسى أن يفعل كذا وكذا، ولكن عندما أحس موسى وأفاق، وتذكَّر أن الله غفور رحيم، سكت عنه الغضب، وهذا كما قال العلماء: من المقلوب فى اللغة ، هو أن يأتى الكلام مقلوبا اعتماداً على فطنة السامع. وذلك مثل قولنا : خرق المسمار الثوب ، أو خرق الثوب المسمار، ولو أنك دققت فى هذه العبارة لوجدت أن المسمار مستقر فى مكانه لا يتحرك، وأن الثوب هو الذى طرأ عليه فانخرق، إذن فالعملية تمت من الثوب، وليس من المسمار فكأن الثوب هو الفاعل الحقيقى؛ لأنه هو الذى جاء إلى مكان المسمار، واتخذ الوضع الذى تم بسببه الخرق. وكذلك قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ﴾ [الأعراف: ١٥٤] ؛ كأن الغضب هو الذى أهاج موسى حين دخل إلى نفسه وأخذ يأمره بكذا وكذا، فلما سكت عنه الغضب عاد موسى إلى هدوئه، فكأن سكوت الغضب معناه أنه زال وانتهى.

عندما زال عن موسى الغضب، ماذا فعل؟ أول شىء فعله أنه أخذ الألواح، فالغضب جعله يلقى الألواح ويأخذ برأس أخيه قال تعالى : ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ ، ونحن نسمع كثيرا عن النسخة من الكتاب، والنسخة هى الشىء المنسوخ، أى المنقول من مكان إلى مكان، عندما يوجد كتاب مخطوط ثم نطبعه، نكون قد نقلناه من الأصل إلى الصورة، فيصبح منسوخا، وكلمة فُعْلَة تأتى بمعنى المفعولية، وكذلك نسخة بمعنى منسوخة، وفى القرآن الكريم أمثلة كثيرة، قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿إنَّ

اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾[1] [البقرة: ٢٤٩] غرفة يعنى مغروفة، أى بعض الماء مغروف من النهر، أى مجرد كمية صغيرة من الماء لا تروى الظمأ، والغرفة أيضا فى المنزل؛ لأنها تقسم المنزل إلى أجزاء متقطعة، فكأن كل غرفة مغروفة من مساحة الشقة، وموجودة فى حيِّز خاص، كذلك المنسوخة أى المنقولة.

وقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿هُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ ؛ الهدى هو الطريق الموصل إلى الغاية، ومنهج الله هو هداه للناس؛ ليهتدوا إلى الطريق الذى يوصلهم إلى رضا الله، ومن اتبع الطريق استحق رحمة الله.

إذن.. فما هو مكتوب فى الألواح يهدينا إلى طريق الله، ويجعلنا نستحق رحمته، ولكن لمن؟ يبيِّن الحق سبحانه لنا الصورة فيقول: ﴿لِّلَّذِينَ

---

(١) قال ابن عطية : واختلف المفسرون فى النهر ، فقال وهب بن منبه: لما فصل طالوت قالوا له: إن المياه لا تحملنا فادع الله يُجر لنا نهرًا ، فقال لهم طالوت: ﴿إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم﴾ الآية، وقال قتادة: النهر الذى ابتلاهم الله به هو نهر بين الأردن وفلسطين، وقاله ابن عباس، وقال أيضًا هو والسدى : النهر نهر فلسطين ، وقرأ جمهور القراء: ﴿بِنَهَرٍ﴾ بفتح الهاء ، وقرأ مجاهد وحميد الأعرج وأبو السمال وغيرهم: ﴿بِنَهْرٍ﴾ بإسكان الهاء فى جميع القرآن، ومعنى هذا الابتلاء أنه اختبار لهم، فمن ظهرت طاعته فى ترك الماء، عُلم أنه يطيع فيما عدا ذلك، ومن غلب شهوته فى الماء وعصى الأمر، فهو بالعصيان فى الشدائد أحرى ، وروى أنهم أتوا النهر وهم قد نالهم عطش، وهو فى غاية العذوبة والحسن، ولذلك رخَّص للمطيعين فى الغرفة؛ ليرتفع عنهم أذى العطش بعض الارتفاع ، وليكسروا نزاع النفس فى هذه الحال إلى الاغتراف بالأيدى؛ لنظافته وسهولته . وقد قال على بن أبى طالب - رضى الله عنه: الأكُفُّ أنظف الآنية .

[المحرر الوجيز ١/ ٣٣٤، ٣٣٥]

﴿هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾[الأعراف: ١٥٤] ،حتى نعرف أن الألواح فيها هدى ورحمة لمن خاف ربه، وليس لمن سمعها وغفل عنها ولم يعمل بها، وصفات الجبار سبحانه وتعالى تهدى إلى طريقه؛ لأنك إذا استحضرت صفات الجبار خفته، وإذا خفته ملأت رهبته قلبك، إذن فلابد أن ترهب الله، فتتبع منهجه، فتنال الهدى والرحمة، على أننا نلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى قد قال: ﴿لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾، ولم يقل: يرهبون ربهم، حينما ترى المفعول متقدما، افهم أن هذا هو اختصاص، والحق سبحانه وتعالى يقول فى فاتحة الكتاب: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾[الفاتحة: ٥] ، ولم يقل: نعبدك . . فما الفرق بين الاثنين؟ نقول لك : إنَّ (نعبدك) لا تمنع الشرك؛ لأنك تستطيع أن تقول: نعبدك ونعبد غيرك. ولكن: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ خصت العبادة لله وحده فلا تتعدى إلى غيره ، وهذا هو التخصيص؛ أنت تستطيع أن تقول: أكرمت زيدا وأكرمت عمرا، ولكن إذا قلت: إياك أكرمت، معناه: أننى لم أكرم أحدًا غيرك، كذلك قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾(١) نفت الرهبة فى قلوبهم لغير الله، ولكن الرهبة قد تكون مظهرية، أى أنه من الجائز أن تتظاهر برهبة الله ليقال عنك: عابد، أو رجل صالح؛ أى أن تفعل ذلك طلبًا للسمعة ورياء

---

(١) قال القرطبى: قوله تعالى: ﴿ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾ أى يخافون . وفى اللام ثلاثة أقوال : قول الكوفيين: هى زائدة. قال الكسائى : حدثنى من سمع الفرزدق يقول : نقدت لها مائة درهم ، بمعنى نقدتها . وقيل : هى لام أجل ؛ المعنى : والذين هم من أجل ربّهم يرهبون لا رياء ولا سمعة ؛ عن الأخفش . وقال محمد ابن يزيد : هى متعلقة بمصدر ؛ المعنى : للذين هم رهبتهم لربهم . وقيل : لما تقدّم المفعول حسن دخول اللام ؛ كقوله : ﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴾. فلما تقدم المعمول وهو المفعول ضعف عمل الفعل فصار بمنزلة مالا يتعدى .

[تفسير القرطبى : ٧/ ٢٩٣]

للناس، وقد تكون لغير ذلك، كأن يصفعك إنسان، وعندما تهمّ بأن تردّ إليه الصفعة تتذكر قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾(1) [الشورى: ٤٣] ؛ وقد تهم برد الصفعة، فتتذكر أن هذا الشخص الذى صفعك له أخ بطل فى الملاكمة أو فى المصارعة، حينئذ سيكون ترددك خوفا من انتقام الأخ، وليس طمعاً فى ثواب الله؛ ولذلك يأتى قوله تعالى: ﴿لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ ، اى لا يخافون أحدا إلا الله، ولايفعلون شيئا رياء أو نفاقاً أو سمعة ، وذلك هم أصحاب الإيمان الصادق.

(1) قوله : ﴿وَلَمَن صَبَرَ﴾ عن الانتصار من غير انتقام ولا شكوى ﴿وَغَفَرَ﴾ فصرح بإسقاط العقاب والعتاب فمحا عين الذنب وأثره ﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾ ؛ اى ذلك الفعل الواقع منه، البالغ فى العلو جدا لا يوصف، ﴿لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ اى الأمور التى هى لما لها من الأهلية لأن يعزم عليها ، قد صارت فى أنفسها كأنها ذوات العزم ، أو متأهلة ، لأن تعزم على ما تريد ، والعزم : الإقدام على الأمر بعد الرّوية والفكرة ، قال أبو على بن الفراء: آيات العفو محمولة على الجانى النادم . وآيات مدح الانتصار على المُصّر ؛ وذلك إنما يحمد مع القدرة على تمام النصرة، كما قال يوسف عليه الصلاة والسلام لإخوته :﴿لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾الآية، وقال : فعل النبى ﷺ فى مواطن كثيرة

[نظم الدرر : ١٧/٣٣٩، ٣٤٠]

* اختلاف بنى إسرائيل على موسى *

الحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ﴾(١) [هود: ١١٠] إذن فقد تقدم أمران على ضمير الغائب: «موسى، والكتاب»، قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ﴾ اختلف فى من؟ فى موسى أم فى الكتاب؟ نقول فى الاثنين؛ لأن الخلاف فى واحد منهما يؤدى إلى الخلاف فى الآخر، فلا يوجد انفصال بين موسى والكتاب؛ لأنه لاتكون مهمة موسى لولا الكتاب الذى أنزل عليه؟ وماذا يكون موسى لو أن الله لم يرسله رسولاً؟

إذن فهناك أمران يلتقيان، أمر الرسالة والرسول فى الاصطفاء، إذن فهما أمر واحد، وليسا أمرين؛ لأنه لا يوجد رسول منفصل عن رسالته،

---

(١) قال ابن كثير: ذكر تعالى أنه آتى موسى الكتاب فاختلف الناس فيه فمن مؤمن به، ومن كافر به، فلك بمن سلف من الأنبياء قبلك يا محمد أسوة، فلا يغيظنك تكذيبهم لك ولا يهمنك ذلك: ﴿وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ قال ابن جرير: لولا ما تقدم من تأجيله العذاب إلى أجل معلوم لقضى الله بينهم، ويحتمل أن يكون المراد بالكلمة أنه لا يعذب أحدًا إلا بعد قيام الحجة، عليه وإرسال الرسول إليه. كما قال: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ [الإسراء: ١٥] فإنه قد قال فى الآية الأخرى: ﴿وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ [طه: ١٢٩، ١٣٠] ثم أخبر تعالى أنه سيجمع الأولين والآخرين من الأمم ويجزيهم بأعمالهم إنْ خيرًا فخير وإنْ شرًا فشر.

[تفسير ابن كثير: ٢/٤٤٢، ٤٤٣]

فالمنهج والرسول واحد. وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى﴾ هذا هو المذكور الأول: ﴿الْكِتَابَ﴾ عاد الضمير على الأول، ولذلك لو اختلف فى موسى أهو رسول أم غير رسول؟ وقيل إنه غير رسول انهدم الكتاب؟ ولو اختلف فى الكتاب هل هو صدق أم كذب؟ وقيل كذب ، انهدم الرسول . . إذن فهما ملتقيان.

ومن المُسلَّم به أن صفات الله تعالى وأفعاله ، غير صفات وأفعال البشر وإن تشابهت فى اللفظ، فإياك أن تشبه صفات الله وأفعاله بصفات البشر وأفعالهم ، فالله تعالى :﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] فمثلاً يقال: الله موجود، وأنت موجود، ولكن أوجود الله سبحانه كوجودك؟ أنت وجودك طارئ وينعدم، ولكن وجود الله واجب دائم، والله غنى، وأنت قد تكون غنياً ، ولكن أغناك كغنى الله، إذن فكل فعل أو صفة لله سبحانه وتعالى تأخذها فى إطار: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ ، كل الصفات فى إطار: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾، وإذا تكلم الحق عن الفعل فخذ فعل الله بقدرة الله الذى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ .

الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ وكان يمكن أن يقول: «ولقد آتيت موسى الكتاب»؛ لأن الذى آتى موسى الكتاب هو الله، ولكنه تعالى قال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا﴾ لأن الفعل يحتاج إلى صفات الكمال فى الله وهى متعددة، والكتاب محتاج إلى حكمة، وإلى علم، وإلى قدرة، وإلى عفو، وإلى جبروت، وإلى قهر، وغير ذلك من صفات الكمال فى الله سبحانه، والله تبارك وتعالى واحد أحد؛ ولذلك عندما يتحدث عن ذاته يقول: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١٤] هذا عندما يريد الحق سبحانه وتعالى أن يتحدث عن

وحدانية الذات، أما إذا أراد أن يتحدث عن فعل يقتضى صفات متعددة، فإنه جل جلاله يتحدث بصفة الجمع، كقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] والذكر: هو القرآن الكريم ، وتنزيل الذكر فى حاجة إلى علم وإلى قدرة، وقهر ورحمة وتوبة، وغير ذلك من الصفات، فكأنه سبحانه حين يجمع فى الحدث صفات متعددة ، يأتى فيه بصفة الجمع. .

الحق سبحانه وتعالى قد آتى قوم موسى الكتاب فاختلفوا فيه، فلماذا لم يأخذهم الله كما أخذ قوم نوح وقوم هود وقوم مدين وقوم عاد؟ لماذا لم يأخذهم بالعذاب؟ لأنه أجّل لهم العذاب إلى يوم القيامة، فكأنهم مانجوا من عذاب الله بقدرتهم، وإنما نجوا من عذاب الله؛ لأن الله جعل للعذاب أجلاً هو يوم القيامة، ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ [هود: ١١٠] إذن فالله جل جلاله حكم حكماً بأن يؤجّل لهم العذاب، وكان حكمه فى الأمم السابقة أن يعجل لهم بالعذاب، فالذين خالفوا دعوة نوح ولوط وصالح وغيرهم، عجل لهم العذاب لكن بدءًا من رسالة موسى عليه السلام حكم الله تعالى بأنه سيؤجلهم إلى يوم القيامة، هذه هى الكلمة التى سبقت، والتى قال الله تبارك وتعالى عنها: ﴿وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ [هود: ١١٠] فى شك من ماذا؟ من دينهم؟ أم من لقاء ربهم؟(١)

---

(١) قال الشوكانى فى قوله تعالى : ﴿وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ أى لولا أن الله سبحانه قد حكم بتأخير عذابهم إلى يوم القيامة لما علم فى ذلك من الصلاح لقضى بينهم ، أى بين قومك ، أو بين قوم موسى فيما كانوا فيه مختلفين. فاثيب المحق وعذب المبطل ؛ أو الكلمة هى : إن رحمته سبحانه سبقت غضبه =

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كُلا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[1] [هود: ١١١] إذن فقد كانت الرسل قبل موسى إذا كُذِّبتْ ، فالأمة التى تكذب رسواها يأخذها الله بعذاب من السماء، فأجّل الله العذاب إلى يوم القيامة، ولا تعتقد أن تأجيل العذاب إلى يوم القيامة بأنهم نجوا منه، أو أن الله سينساهم بل إن كل واحد منهم سيوفى جزاءه، الثواب لمن أطاع، والعقاب لمن عصى وأذنب، ولكنه أمرٌ آتٍ لا محالة؛ إن كل واحد من هؤلاء الذين اختلفوا فى الكتاب وعصوا موسى، سيلقى جزاءه على قدر الأعمال والذنوب التى ارتكبها، فإن تاب وعمل صالحاً ، فسيجزى أجره يوم القيامة.

= فأمهلهم ولم يعاجلهم لذلك . وقيل : إن الكلمة هى أنهم لا يعذبون بعذاب الاستئصال ، وهذا من جملة التسلية له ﷺ ثم وصفهم بأنهم فى شك من الكتاب، فقال : ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ أى من القرآن إن حمل على قوم محمد ﷺ ، أو من التوراة إن حمل على قوم موسى عليه السلام ، والريب : الموقع فى الريبة . [فتح القدير : ٢/ ٥٣٩]

(١) قال ابن كثير فى قوله تعالى : ﴿وَإِنَّ كُلا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [هود:١١١]. أى عليم بأعمالهم جميعًا جليلها وحقيرها صغيرها وكبيرها . وفى هذه الآية قراءات كثيرة . [تفسير ابن كثير : ٢/ ٤٤٣]

* هل كل قوم موسى نقضوا العهود؟ *

قال تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦] ولقد قلنا: إنه عندما أخذ موسى الألواح وجد فيها رحمة من الله(١) وفضل لأمة من الأمم، فقال:

---

(١) قال ابن كثير ، وقال قتادة فى قوله تعالى : ﴿أَخَذَ الأَلْوَاحَ﴾ [الأعراف: ١٥٤] قال : رب إنى أجد فى الألواح أمة، خير أمة أخرجت للناس؛ يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، اجعلهم أمتى قال : تلك أمة أحمد . قال : رب إنى أجد فى الألواح أمة هم الآخرون، أى آخرون فى الخلق سابقون فى دخول الجنة. رب اجعلهم أمتى، قال: تلك أمة أحمد. قال : رب إنى أجد فى الألواح أمة أناجيلهم فى صدورهم يقرأونها، وكان من قبلهم يقرأون كتابهم نظراً حتى إذا رفعوها لم يحفظوا شيئاً ؛ ولم يعرفوه وإن الله أعطاهم من الحفظ شيئاً لم يعطه أحداً من الأمم، قال : رب اجعلهم أمتى، قال : تلك أمة أحمد . قال : رب إنى أجد فى الألواح أمة يؤمنون بالكتاب الأول وبالكتاب الآخر، ويقاتلون فصول الضلالة حتى يقاتلوا الأعور الكذاب، فاجعلهم أمتى، قال : تلك أمة أحمد. قال : رب إنى أجد فى الألواح أمة صدقاتهم يأكلونها فى بطونهم ويؤجرون عليها، وكان من قبلهم إذا تَصدَّق بصدقة فقُبلت منه بعث الله ناراً فأكلتها، وإن ردّت عليه تُركت فتأكلها السباع والطير، وإن الله أخذ صدقاتهم من غنيهم لفقيرهم، قال : رب فاجعلهم أمتى ، قال: تلك أمة أحمد. قال : رب إنى أجد فى الألواح أمة إذا همّ أحدهم بحسنة ثم لم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له عشر أمثالها إلى سبعمائة، رب اجعلهم أمتى، قال : تلك أمة أحمد . قال : رب إنى أجد فى الألواح أمة هم المشفوعون والمشفوع لهم فاجعلهم أمتى، قال: تلك أمة أحمد، قال قتادة : فذكر لنا=

يا ربى اجعلها لأمتى ، فقال الله: هذه لأمة محمد.

وقال موسى لربه: إنى لأجد فى الألواح من يؤمنون بالكتاب الأول، ويؤمنون بالكتاب الآخر، فاجعلهم أمتى، قال: تلك أمة محمد .

فكأن أمة محمد وحدها التى تؤمن بالكتاب الأول والكتاب الآخر، وغيرها من الأمم يؤمنون ببعض الكتب ويكفرون ببعضها.

وقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨] كلمة : « لعل» معناها: الرجاء، وهناك نوعان من الرجاء: نوع مستحيل ولكنك تطلبه، كقول :

ألا ليت الشباب يعود يوماً فأخبره بما فعل المشيب[(١)]

أو :

ليت الكواكب تدنو لى فأنظمها عقود مدحٍ فما أرضى لكم كلمى

لا الشباب سيعود، ولا الكواكب ستدنو، ولكن الذى يقول هذا الكلام يريدك أن تعرف أنها أمنية محببة له، ولو أنها لن تتحقق.

والرجاء قد يكون ممكنا وله ثلاث مراحل:

أن ترجو أنت من إنسان أن يعطيك كذا، فتقول لعلك تعطينى.

وأن يرجو لك العطاء شخص آخر، كأن يقول: لعلك تعطى فلانًا.

= أن نبى الله موسى نبذ الألواح ، وقال : اللهم اجعلنى من أمة أحمد.

[تفسير ابن كثير : ٢/ ٢٣٩] ، وانظر : [الدر المنثور: ٣/ ٥٨٥]

(١) هذا البيت أورده ابن هشام فى كتابه [قطر الندى وبلّ الصدى : ص ١٤٨] ، ونسبه إلى أبى العتاهية ، وهو شاعر من شعراء العصر العباسى ، كان متصلاً بقصر أمير المؤمنين هارون الرشيد .

أو أن يكون ذلك من القائل، كقول أى إنسان لآخر: لعلّى أعطيك كذا.

أيهما أقوى فى باب الرجاء؟ لعلّى أعطيك؛ لأن الرجاء منى وأنا الذى سأعطى، فإذا قال الله فيكون هذا أرجى الرجاءات؛ لأنه عطاء من القادر جل جلاله؛ ولذلك فقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ هو أقرب الرجاءات إلى التحقيق.

ويقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾[1] [الأعراف: ١٥٩] عندما قال الله عن قوم موسى: أنهم ينقضون العهود لم يكن هذا الكلام حكمًا عامًا؛ لأن الحكم لو كان عاماً لما وجد فى أمة موسى من يؤمن برسالة محمد عليه الصلاة والسلام، ولكن هناك مثلا ابن صوريا وعبد الله بن سلام وغيرهما من قوم موسى آمنوا برسول الله ﷺ[2].

---

(١) أخرج ابن أبى حاتم عن على بن أبى طالب قال : افترقت بنو إسرائيل بعد موسى إحدى وسبعين فرقة كلها فى النار إلا فرقة، وافترقت النصارى بعد عيسى على اثنتين وسبعين فرقة كلها فى النار إلا فرقة ، وتفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها فى النار إلا فرقة ، فأما اليهود فإن الله يقول: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٩] ، وأما النصارى فإن الله يقول: ﴿مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ﴾ [المائدة: ٦٦] فهذه التى تنجو، وأما نحن فيقول: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨١] فهذه التى تنجو من هذه الأمة .
[الدر المنثور: ٣/ ٥٨٥]

(٢) عبد الله بن صوريا ويقال ابن صور الإسرائيلى ، وكان من أحبار اليهود يقال : إنه أسلم .
وذكر الثعلبى عن الضحاك أن قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ﴾ [البقرة: ١٢١] ، نزلت فى عبد الله بن سلام ، وعبد الله بن صوريا ، =

إذن.. فهناك دائما شئ اسمه ضمان الاحتمال، فإن منهم من لم ينضموا إلى عامة اليهود فى المعصية والبعد عن طريق الله، هؤلاء الذين يقول الله عنهم: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ أى

= وغيرهما . وذكر السهيلى عن النقاش أنه أسلم ، وخبره فى قصة الزانيين والرَّجْم مشهور من حديث ابن عمر فى الصحيحين وغيرهما ، ولكن ليس فيه ما يدل على أنه أسلم .

وقد ذكر مكى فى تفسيره أن قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ [المائدة: ٤١] ، نزلت فى عبد الله بن صوريا ، وهذا إن صح أنه أسلم لا ينافيه ، لكن فى التاريخ المظفرى عن مكى أنه قال : ارتد ابن صوريا بعد أن أسلم . فالله أعلم .

ثم وجدت ذلك فى السيرة لابن إسحاق ؛ فإنه قال فى الفصل المتعلق باليهود بعد الهجرة ، وما أنزلت بسبب ذلك من الآيات ، فقال ما نصه : واجتمع أحبارُهم فى بيت المدراس ، فأتوا برجل وامرأة زنيا بعد إحصانهما ، فقالوا : حكِّموا فيهما محمدا ، فذكر القصة مطولة . وفيها : فأخرجوا له عبد الله بن صوريا فخلا به فناشده : هل تعلم أن الله حكم فيمن زنا بعد إحصانه بالرجم فى التوراة ؟ قال : اللهم نعم ، أما والله يا أبا القاسم ، إنهم ليعرفون أنك نبى مرسل ، ولكنهم يحسدونك ؛ قال : فخرج فأمر بهما فرُجما. ثم جحد ابن صوريا بعد ذلك نبوَّة رسول الله ﷺ فأنزل الله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ...﴾ الآية .

وهو الذى سأل النبى ﷺ ما للرجل وما للمرأة من الولد ؟ فقال : «للمرأة اللحم والدم والظفر والشعر ، وللرجل العظم والعصب والعروق ». فقال : صدقت .

[الإصابة فى تمييز الصحابة : ٤/ ١٣٣، ١٣٤]

وعبد الله بن سلام بن الحارث ، أبو يوسف ، من ذرية يوسف عليه السلام ، حليف القوافل من الخزرج ، الإسرائيلى ثم الأنصارى.

كان حليفًا لهم ، وكان من بنى قينُقاع . يُقال : كان اسمه الحصين ، فغيَّره النبى ﷺ ، وجزم بذلك الطبرى ، وابن سعد .

[الإصابة فى تمييز الصحابة : ٤/ ١١٨]

يدلّون الناس على طريق الخير، ويعدلون فى حكمهم بين الناس، وهم هؤلاء الذين آمنوا بمحمد عليه الصلاة والسلام ؛ ولذلك فإن الحكم لم يعمهم؛ لأن خبر الإيمان برسالة محمد ﷺ كان موجوداً فى أصلاب عدد ولو قليل من أمة موسى(1).

(1) قال أبو حيان قوله تعالى : ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ لما أمر بالإيمان بالله ورسوله وأمر باتباعه ذكر أن ﴿مِن قَوْمِ مُوسَىٰ﴾ من وفق للهداية وعدل، ولم يجر، ولم تكن له هداية إلا باتباع شريعة موسى قبل مبعث رسول الله ﷺ، وباتباع شريعة رسول الله بعد مبعثه. فهذا إخبار كان من قوم موسى بهذه الأوصاف، فكان المعنى أنهم كلهم لم يكونوا ضُلالاً بل كان منهم مهتدون ، قال السائب: هم قوم من أهل الكتاب، آمنوا بنبينا ﷺ كعبد الله بن سلام وأصحابه.

وقال قوم : هم أمة من بنى إسرائيل، تمسكوا بشرع موسى قبل نسخه، ولم يبدّلوا ولم يقتلوا الأنبياء.

وقال الزمخشرى: هم المؤمنون التائبون من بنى إسرائيل، لما ذكر الذين تزلزلوا منهم ذكر أمة مؤمنين تائبين يهدون الناس بكلمة الحق، ويدلّونهم على الاستقامة ويرشدونهم، وبالحق يعدلون بينهم فى الحكم ولا يجورون، أو أراد الذين وصفهم ممن أدرك النبى ﷺ وآمن به من أعقابهم . انتهى.

وقال ابن عطية : يحتمل أن يريد به الجماعة التى آمنت بمحمد ﷺ على جهة الاستجلاب لإيمان جميعهم، ويحتمل أن يريد به وصف المؤمنين التائبين من بنى إسرائيل، ومن اهتدى واتقى وعدل . انتهى.

وما روى عن ابن عباس والسدى وابن جريج: أنهم قوم اغتربوا من بنى إسرائيل، ودخلوا سردابا مشوا فيه سنة ونصفاً تحت الأرض حتى خرجوا وراء الصين، فهم هناك يقيمون الشرع. فى حكايات طويلة ذكرها الزمخشرى وصاحب التحرير والتحبير يوقف عليها هناك لعله لا يصح.

وفى قوله : ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ﴾ إشارة إلى التقليل، وأن معظمهم لا يهدى بالحق ولا يعدل به وهم إلى الآن ، كذلك دخل فى الإسلام من النصارى عالم لا يعلم عددهم إلا الله تعالى ، وأما اليهود فقليل من آمن منهم. [البحر المحيط : ٥/١٩٨]

وقال الماوردى فى قوله عز وجل : ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾ فإن قيل: فهذا يدل على أن فى اليهود من هم على حق. =

. . . .

= الجواب عند ذلك من ثلاثة أوجه:

أحدها : أنهم الذين تمسكوا بالحق فى وقت ضلالتهم بقتل أنبيائهم، ولا يدل هذا على استدامة حاله على الأبد.

والثانى : أنهم قوم وراء الصين لم تبلغهم دعوة الإسلام، قاله ابن عباس ، والسدى.

والثالث : أنهم من آمن بالنبى ﷺ مثل ابن سلام وابن صوريا وغيرهما ، قاله الكلبى . [تفسير الماوردى: ٢/ ٢٧٠]

* دأب آل فرعون والذين من قبلهم *



يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (١) [آل عمران: ١١] فإذا سألنا ما الدأب(٢) ؟

---

(١) قال الشوكانى فى قوله تعالى: ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ الدأب: الاجتهاد، يقال: دأب الرجل فى عمله يدأب دأبًا ودؤوبا : إذا جد واجتهد ، والدائبان : الليل والنهار، والدأب : العادة والشأن ، ومنه قول امرئ القيس :

كَدَأْبِكَ مِنْ أمِّ الحُوَيْرِثِ قبلها وَجَارتها أمِّ الربَّاب بِمَأْسَلِ

والمراد هنا : كعادة آل فرعون وشأنهم وحالهم ، واختلفوا فى الكاف ، فقيل : هى فى موضع رفع تقديره : دأبهم كدأب آل فرعون مع موسى . وقال الفراء : إن المعنى : كفرت العرب ككفر آل فرعون . قال النحاس : لا يجوز أن تكون الكاف متعلقة بكفروا؛ لأن كفروا داخلة فى الصلة . وقيل : هى متعلقة بأخذهم الله ، أى أخذهم أخذة كما أخذ آل فرعون . وقيل : هى متعلقة بـ ﴿لَن تُغْنِىَ﴾ أى : لن تغنى عنهم غناء ، كما لم تغن عن آل فرعون . وقيل : إن العامل فعل مقدر من لفظ الوقود ، ويكون التشبيه فى نفس الإحراق ، قالوا : ويؤيده قوله تعالى : ﴿أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾[غافر: ٤٦] ، ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ والقول الأول هو الذى قاله جمهور المحققين ، ومنهم الأزهرى . قوله : ﴿وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أى من قبل آل فرعون من الأمم الكافرة ، أى وكدأب الذين من قبلهم. قوله : ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ﴾ يحتمل أن يريد الآيات المتلوة، ويحتمل أن يريد الآيات المنصوبة للدلالة على الوحدانية ، ويصح إرادة الجميع ، والجملة بيان وتفسير لدأبهم ، ويجوز أن تكون فى محل نصب على الحال من آل فرعون، والذين من قبلهم على إضمار «قد» ، أى دأب هؤلاء كدأب أولئك قد كذبوا إلخ . وقوله : ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾ أى بسائر ذنوبهم التى من جملتها تكذيبهم .

[فتح القدير : ١/٣٩٩]

(٢) دأب فى العمل : جد فيه . [المعجم الوسيط].

فتكون الإجابة الداب هو: العمل بكدح وبلا انقطاع فنقول: فلان دأبه أن يفعل كذا أى هو معتاد دائما أن يفعل كذا، أو نقول : لا هَمَّ لفلان إلا أن يغتاب الناس ،فهل معنى ذلك أن كل أفعاله محصورة فى اغتياب الناس؟ أم أنه يقوم بأفعال الغالب عليه هو الاغتياب، وهذا هو الدأب.

إن الدأب هو: السعى بكدح وتوال ، حتى يصبح الفعل بالتوالى عادة. إذن. . فقول الحق: ﴿ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ ﴾ أى كعادة آل فرعون، وآل فرعون هم: قوم قد مضوا قبل الرسالة الإسلامية، وقبلهم كان قوم ثمود وعاد وغيرهم، ويلفتنا الحق سبحانه إلى أن ننظر إلى هؤلاء،ونرى ما الذى حدث لهم؟ إن الحق لم يؤخر عقابهم إلى الآخرة؛ لأنه ربما ظن الناس أن الله قد ادّخر عذاب الكافرين إلى الآخرة؛ لأنه قال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ ﴾ والعذاب أيضا فى الدنيا: ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴾ [الرعد: ٣٤].

إن العذاب إن تم تأجيله إلى الآخرة؛ فإن الناس تشقى بالأشقياء، لذلك يضرب الله أمثلة من الحياة فيقول الحق: ﴿ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ ﴾ أى كعادة، ولا تصير عادة إلا بالكدح فى العمل، وكان دأب آل فرعون هو التكذيب والطغيان، وادّعى فرعون الألوهية، وكذلك الذين من قبلهم كذبوا بآيات الله، فصار الدأب منهم ومما وقع بهم، فإذا كانوا قد اعتادوا الكفر والتكذيب، فقد أوقع عليهم الله العذاب. لقد كان دأب آل فرعون هو التكذيب، فكانت سنة الخالق تعذيبهم. ولتقرأ إن شئت قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ وَالْفَجْرِ (١) وَلَيَالٍ عَشْرٍ (٢) وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ (٤) هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ (٥) أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ

رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (١٤)﴾ [الفجر] إذن فدأب من يكذب، أن يكون الله له بالمرصاد.

إذن فقول الحق: ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ وقوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ أى أوقع بهم العذاب فى الدنيا، وكانت النهاية مثلما كانت فى آل فرعون وثمود ومن قبلهم من القوم الكافرين، وعندما تسمع قول الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ . فالذهن ينصرف إلى أن هناك ذنباً يستحق العقاب، وكل الأمور من المعنويات مأخوذة دائما من المحسّات؛ لأن الأصل فى إيجاد أى معلومات معنوية هى المشاهد الحسية؛ ولذلك تُنقل الأشياء الحسية إلى المعنويات بعد ذلك، لماذا؟ لأن الشئ الحسى مشهود من الجميع، أما الشئ المعنوى فلا يفهمه إلا المتعقلون. والإنسان له أطوار كثيرة، ففى طور الطفولة لا يشهد الإنسان إلا الأمر المحسوس أمامه.

ومعنى كلمة «الغصب»: أنه أخذُ وسلب شئ من إنسان صاحب حق بقوة، وهذا أمر معنوى له صورة مشهدية؛ لأن الذى يسلخ الجلد عن الشاة نسميه غاصبا، ولنرَ كيف يكون أخذ الحق من صاحبه، إنه كالسلخ تماما فالكلمة تأتى للإيضاح، وكلمة: «ذنب»، وكلمة: «عقوبة» مترابطتان. إن كلمة: «ذنب» مأخوذة من مادة ذَنَبَ ؛ لأن المادة كلها تدل على: أن الذَنَبَ يلى المقدمة فى الحيوان، والعقاب هو: ما يأتى عقب شئ.

إذن فهناك «ذنب»، وهناك: «عقاب»، لكن ماذا قبل الذنب؟ وماذا يلى الذنب؟ لا يوجد ذنب إلا إن وُجِدَ نص يُجرِّم ، فلا ذنب إلا بذلك، فليس كل فعل ذنبا، بل لابد من وجود نص قبل وقوع الذنب، ولذلك أخذ التقنين الوضعى هذا الأمر ، فقال: لا يمكن أن يعاقب إنسان إلابجريمة ولا تجريم إلا بنص. فلا يمكن أن يأتى إنسان فجأة ويقول: هذا العمل جريمة، بل لابد من التنبيه والنص من قبل ذلك على تجريم هذا اللون من العمل.

إذن فلا عقوبة إلا بتجريم، ولا تجريم إلا بنص، فالنص تحريم فعل نوعٍ ما من العمل، وإن قام إنسان بهذا العمل فإنه يجرَّم ، والذنب يأتى عقب الجريمة، وهكذا نجد أن كلا من الذنب والجريمة يأخذان واقع اللفظ ومدلوله ومعناه، فالذنب هو التالى للشئ ؛ ولذلك يسمون الدلو الذى يأخذون به الماء «ذَنوب»؛ لأنه هو الذى يلى الحبل، والجزاء فى الآخرة كما فى قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلا يَسْتَعْجِلُونِ﴾(١) أى ذنوب يتبع جريمتهم ؛ أى يلى جريمتهم.

إذن فالنص القرآنى فى الذنب وفى العقاب يؤكد لنا القضية القانونية الاصطلاحية الموجودة فى كل الدنيا، أنه لا عقوبة دون تجريم، فكأن العقاب

---

(١) أصل الذنوب فى لغة العرب الدلو ، وعادة العرب أنهم يقتسمون ماء الآبار والقليب بالدلو ، فيأخذ هذا منه ملء دلو ، ويأخذ الآخر كذلك ، ومن هنا أطلقوا اسم الذنوب ، التى هى الدلو على النصيب . قال الراجز فى اقتسامهم الماء بالدلو :

لنا ذنوب ولكم ذنوب ... فإن أبيتم فلنا القليب

ومعنى الآية الكريمة ، فإن للذين ظلموا بتكذيب النبى ﷺ ذنوبًا ، أى نصيبًا من عذاب الله، مثل ذنوب أصحابهم من الأمم الماضية من العذاب لما كذبوا رسلهم .

[أضواء البيان : ٧ / ٦٧٨]

لا يقع بدون نص، ونقول له: أنت ارتكبت ذنبا، وهذه تحل إشكالات كثيرة فى الفهم . مثال ذلك: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٤٨] . إن قمة الخيانة العظمى هى الشرك بالله، وهذه لا غفران فيها، وبعد ذلك يغفر لمن يشاء.

كما يقول الحق فى آية أخرى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾(1) [الزمر: ٥٣] .

قيل إن ابن عباس ساعة قول سمع الحق :﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ

---

(١) قال القرطبى فى قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ﴾ وإن شئت حذفت الياء ؛ لأن النداء موضع حذف ، النحاس : ومن أجلّ ما رُوى فيه، ما رواه محمد بن إسحاق عن نافع عن ابن عمر عن عمر قال : لما اجتمعنا على الهجرة ، اتعدت أنا وهشام بن العاص بن وائل السهمى ، وعياش ابن أبى ربيعة بن عتبة ، فقلنا : الموعد أضاة بنى غفار ، وقلنا : من تأخر منا فقد حُبس فليمض صاحبه ، فأصبحت أنا وعياش ابن عتبة وحبس عنا هشام ، وإذا به قد فُتن فافتتن ، فكنا نقول بالمدينة : هؤلاء قد عرفوا الله عز وجل وآمنوا برسوله ﷺ ، ثم افتتنوا لبلاء لحقهم لا نرى لهم توبة ، وكانوا هم أيضًا يقولون هذا فى أنفسهم ، فأنزل الله عز وجل فى كتابه: ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ [الزمر: ٦٠] قال عمر : فكتبتها بيدى ثم بعثتها إلى هشام . قال هشام : فلما قدمت على خرجت بها إلى ذى طوى فقلت : اللهم فهمنيها فعرفت أنها نزلت فينا، فرجعت فجلست على بعيرى فلحقت برسول الله ﷺ .

وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : كان قوم من المشركين قتلوا فأكثروا ، وزنوا فأكثروا، فقالوا للنبى ﷺ أو بعثوا إليه: إن ما تدعو إليه لحسن أوَ تخبرنا أن لنا توبة ؟ فأنزل الله عز وجل هذه الآية : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ ﴾=

جَمِيعًا﴾ قال: «إلا الشرك»؛ وذلك حتى لا يُساء فهم هذه الآية مع الآية الأخرى السابقة.

= ذكره البخارى بمعناه (١) .

وعن ابن عباس أيضا نزلت فى أهل مكة قالوا : يزعم محمد أن من عبد الأوثان وقتل النفس التى حرَّم الله لم يغفر له ، وكيف نهاجر ونسلم وقد عبدنا مع الله إلها آخر، وقتلنا النفس التى حرم الله ! فأنزل الله هذه الآية . وقيل : إنها نزلت فى قوم من المسلمين أسرفوا على أنفسهم فى العبادة ، وخافوا ألا يتقبل منهم؛ لذنوب سبقت لهم فى الجاهلية .

وقال ابن عباس أيضا وعطاء : نزلت فى وحشى قاتل حمزة ؛ لأنه ظن أن الله لايقبل إسلامه : وروى ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس قال : أتى وحشى إلى النبى ﷺ فقال : يا محمد أتيتك مستجيرًا ، فأجرنى حتى أسمع كلام الله ، فقال رسول الله ﷺ : « قد كنت أحب أن أراك على غير جوار فأما إذ أتيتنى مستجيرًا فأنت فى جوارى حتى تسمع كلام الله » قال : فإنى أشركت بالله وقتلت النفس التى حرم الله وزنيت، هل يقبل الله منى توبة ؟ فصمت رسول الله ﷺ حتى نزلت : ﴿وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللَّهُ إِلا بِالْحَقِّ وَلايَزْنُونَ﴾ [الفرقان: ٦٨] إلى آخر الآية فتلاها عليه ؛ فقال: أرى شرطا فلعلى لاأعمل صالحا ، أنا فى جوارك حتى أسمع كلام الله . فنزلت : ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ فدعا به فتلا عليه ؛ قال فلعلى ممن لايشاء، أنا فى جوارك حتى أسمع كلام الله ، فنزلت : ﴿قُلْ يَا عِبَادِىَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾ فقال : نعم الآن لا أرى شرطا. فأسلم

[تفسير القرطبى : ١٥/٢٦٨، ٢٦٩]

---

(١) عن ابن عباس رضى الله عنهما ، أن ناسًا من أهل الشرك كانوا قد قتلوا وأكثروا ، وزنوا وأكثروا، فأتوا محمدًا ﷺ فقالوا : إن الذى تقول وتدعو إليه لحسن ، لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة ، فنزل : ﴿وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ﴾ [الفرقان: ٦٨] ونزل : ﴿قُلْ يَا عِبَادِىَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لاتَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾ . أخرجه البخارى [٤٨١٠] ، ومسلم [١٢٢]

والواقع أنه حين يدقق أولو الألباب بالبحث، فلن تجد تصادما؛ لأن المشرك لم يعترف بالمقنن، فالشرك ليس ذنبا. إن الذنب يكون لمن اعترف بالمقنن الأعلى ، وبعد ذلك أخذ قوانينه وعصى واحدا من هذه القوانين، أما الشرك فليس ذنبا.

لذلك فلا تعارض ولا اصطدام فى آيات الرحمن. وعندما يقول الحق: ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ فإن القول الحكيم متسق، فالذنب يأتى بعد نص، والعقاب من بعد ذلك.

* لماذا التكرار فى قصة موسى ؟ *

قصة نبى الله موسى وقومه مع فرعون، أخذت حيزا كبيرا من القرآن الكريم؛ لأن اليهود قوم عللهم وأمراضهم كثيرة حتى أنهم من جهلهم يفتخرون بأنهم أكثر الأمم أنبياء، ويعتبرون ذلك من مفاخرهم، مع أن النبى لا يُرسَل إلاعند شقوة[1] قومه، فكأن بلدتهم لم يكفها نبى واحد، ولكنها تحتاج إلى مجموعة من الأنبياء، مثل العملية الخطيرة أو المرض الخبيث الذى يحتاج إلى مجموعة من الأطباء، ولا ينفع لعلاجه طبيب واحد.

فكثرة الأنبياء فى بنى إسرائيل حجة عليهم، ودليل ضدهم وليس لصالحهم .

ولكن حينما تجد قصة نبى الله موسى تتكرر فى القرآن، تجد التكرار عبارة عن لقطات من القصة يكمل بعضها بعضا، فربنا سبحانه وتعالى لايحكى «حدوتة» أو تاريخا، ولكنه يقص على الرسول ﷺ موطن العبرة ليثبِّت به فؤاده [2].

---

(١) الشَّقاء والشَّقاوة بالفتح : ضد السعادة ، يُمدّ ويُقصر ، شَقِى شقًا وشَقَاءً وشقاوةً وشقْوَةً وشِقْوة . وفى التنزيل العزيز : ﴿ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا ﴾ [المؤمنون: ١٠٦].
[لسان العرب : ١٤/٤٣٨]

(٢) يقول تعالى: ﴿وَكُلا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠]
قال القرطبى فى تفسير: ﴿مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ أى: على أداء الرسالة، والصبر على ما ينالك فيها من الأذى. وقيل: نزيدك به تثبيتا ويقينا.

وتثبيت الفؤاد يتكرر بقدر ما يتعرض له الرسول من مواقف صعبة خلال دعوته، فكلما احتاج فؤاده إلى التثبت، جاءه القرآن بلقطة جديدة من القصة.(1)

وذلك ليس عجزا عن إيراد القصة مرة واحدة، بدليل أن الحق سبحانه ذكر قصة نبى الله يوسف عليه السلام كلها فى سورة واحدة من القرآن الكريم، ولم يأت فى القرآن ذكر لنبى الله يوسف عليه السلام إلا فى قوله تعالى: ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ ﴾[الأنعام:٨٤] وأيضا قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴾(2)[غافر: ٣٤] .

إذن تعدد القصة فى القرآن ليس عجزا عن الإتيان بها فى موضع واحد مستوفية، لكن إذا أتى بها مستوفية مرة واحدة، سيحدث التثبيت بها مرة

= وقال ابن عباس: ما نشد به قلبك. وقال ابن جريج: نصبرّ به قلبك حتى لا تجزع. وقال أهل المعانى: نطيب، والمعنى متقارب. [تفسير القرطبى : ٩/ ١١٦]

(1) قال ابن كثير : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ [الفرقان : ٣٢]. أى: هلا أنزل عليه هذا الكتاب الذى أُوحى إليه جملة واحدة، كما نزلت الكتب قبله جملة واحدة، كالتوراة والإنجيل والزبور، وغيرها من الكتب؟ فأجابهم الله تعالى عن ذلك، بأنه إنما نزل منجما فى ثلاث وعشرين سنة بحسب الوقائع والحوادث، وما يحتاج إليه من الأحكام؛ ليثبت قلوب المؤمنين. [تفسير ابن كثير : ٣/ ٣٠٧]

(2) قال الشوكانى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ ﴾ المعنى: أن يوسف بن يعقوب جاءهم بالمعجزات والآيات الواضحات، من قبل مجىء موسى إليهم، أى جاء إلى آبائكم؛ فجعل المجىء إلى الآباء مجيئاً إلى الأبناء. [فتح القدير : ٤ / ٤٧٣]

واحدة، لكن حين يأتى بالقصة فى لقطات عدة، سيحدث التثبيت مرات عدة .

مثلاً قول الله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا ﴾ [النمل: ٧]، ويقول عز من قائل: ﴿ فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا ﴾ [طه: ١٠] .

إذن . . هنا نبى الله موسى آنس ناراً ، وهو عائد بأهله من مدين إلى مصر، رأى عند الطور ناراً .

أما فى قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا ﴾ فى هذه الآية موسى آنس النار بذاته، ولكن فى الآيات الأخرى يخبر أهله بأنه آنس هذه النار، فهذا ليس تكرارا للقصة؛ لأن موسى عليه السلام آنس بذاته نارا بجانب الطور، وبعد ذلك قال لأهله: ﴿ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا ﴾ [النمل: ٧]، ومرة يقول لهم: ﴿ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ ﴾ [طه: ١٠]، وهذه عملية منطقية لابد أن تحدث، فهو وزوجته يسيران فى ظلام الصحراء، والجو بارد، والطريق غير واضح المعالم، فهو يريد أن يهتدى إلى الطريق، ويحتاج إلى نار؛ ليستدفىء بها. فلما رأى النار، وأخبر زوجته أنه سيذهب يستطلع الخبر، لابد أنها ستطلب أن تذهب معه؛ خشية أن تظل وحدها فى هذا الجو المخيف، ولكنه سيمنعها من الذهاب معه ويأمرها أن تنتظر حتى يذهب هو، ويستطلع الأمر أولا؛ ولذلك جاءت الآية الأخرى بلفظ: ﴿ امْكُثُوا ﴾؛ أى: انتظروا.

ففى البداية آنس هو النار، فأخبر أهله بذلك، وبعد ذلك أمرهم أن يمكثوا ولايأتوا معه إلى النار، فالآية قد وردت ثلاث مرات:

الأولى : ﴿ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا ﴾ [القصص: ٢٩] .

الثانية : ﴿ قال لأهله إني آنست نارا ﴾ [النمل: ٧].

الثالثة : ﴿ فقال لأهله امكثوا إني آنست نارا ﴾ [طه: ١٠] .

وقبل أن يذهب إلى النار ليرى ما عندها قال لأهله:

﴿ سآتيكم منها بخبر ﴾ [النمل: ٧] .

ومرة يقول: ﴿ لعلي آتيكم منها بخبر ﴾ .

فى الآية الأولى قال: ﴿ سآتيكم منها بخبر ﴾ وفى الآية الثانية قال: ﴿ لعلي آتيكم منها بخبر ﴾ [القصص: ٢٩] وهذا رجاء، فما معنى ذلك؟[1] .

قالوا: لأن الإنسان الذى يحتاج إلى شئ، حين يذهب إليه يكون عنده أمل كبير أن يتحقق ما يريده منه، فيقول: إنه سيحدث أو سيتحقق، وبعد ذلك يتيقن ويعود إلى نفسه، فيشك أن يحدث؛ لذلك قال موسى مرة:

(١) قال الزمخشرى: فإن قلتَ: ﴿ سآتيكم منها بخبر ﴾ و﴿ لعلي آتيكم منها بخبر ﴾ كالمتدافعين لأن أحدهما ترجّ، والآخر تيقن.

قلتُ: قد يقول الراجى إذا قوى رجاؤه سأفعل كذا، وسيكون كذا مع تجويزه الخيبة.

فإن قلت: كيف جاء بسين التسويف؟

قلت: عِدَةٌ لأهله أنه يأتيهم به، وإن أبطأ ، أو كانت المسافة بعيدة.

فإن قلت: فَلِمَ جاء بـ «أو» دون «الواو»؟

قلتُ: بنى الرجاء على أنه إن لم يظفر بحاجتيه جميعا لم يعدم واحدة منهما، إما هداية الطريق، وإما اقتباس النار؛ ثقة بعادة الله[1] أنه لا يكاد يجمع بين حرمانين على عبده، وما أدراه حين قال ذلك أنه ظافر على النار بحاجتيه الكليتين جميعا، وهما: العزّان؛ عزالدنيا، وعز الآخرة أ. هـ [الكشاف ٣/ ١٣٤]

(١) هكذا بالأصل ، وهو خطأ ، فالله تعالى ليس له « عادة » وأنه سبحانه منزه عن مثل هذه الألفاظ، وكان يجب على الزمخشرى أن يقول: « سنة الله » ، والزمخشرى سامحه الله كان داعية للاعتزال كما قال الذهبى فى سير أعلام النبلاء [٢٠/ ٥٦] .

وقد حذر منه الكثير من العلماء، وتفسيره محشو بالبدعة وعلى طريقة المعتزلة من إنكار =

﴿ سَآتِيكُم ﴾، ومرة قال: ﴿ لعَلِّي آتِيكُم ﴾ ؛ وذلك حتى يكون صادقا مع خواطر نفسه أمام شيء غائب عنه.

كذلك تجده فى تكملة الآية يقول: ﴿ لعلِّي آتيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ [القصص: ٢٩].

وفى آية أخرى قال: ﴿ سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ [النمل: ٧].

الشهاب هو النار التى لها لهب. أما الجذوة فهى التى تتبقى من النار بعد انتهاء اللهب، مثل الجمر أو الفحم. وموسى عليه السلام وضع الاحتمالين؛ لأنه لا يدرى هل سيصل إلى النار وهى مشتعلة فيأخذ منها شهابا مشتعلاً، أم أنه سيصل إليها بعد أن يكون قد خمد لهيبها ولم يبق فيها إلا جذوات أو جمرات، يحمل منها شيئا إلى أهله ليستدفئوا بها، والعلة فى الحالتين أن يدفئ أهله.

إذن كل تكرار له معنى، وله سبب، فكل قصة لها لقطات متعددة تكمل معناها أو أحداثها، وتعدد اللقطات كما قلنا يؤدى إلى تعدد مرات التثبت لصاحب الدعوة ﷺ.

قول الله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا ﴾ [النمل: ٧] إذا كان النبى موسى وزوجته فى الرحلة، فكيف يسميها القرآن أهله؟ بعض

= الصفات والرؤية والقول بخلق القرآن، وأنكر أن الله مريد للكائنات وخالق لأفعال العباد وغير ذلك من أصول المعتزلة. كما قاله ابن تيمية فى الفتاوى [١٣/٣٨٦].
ولسائل يسأل لماذا نأخذ فيه ما دام الأمر كذلك.
نقول أنه لا يخلو كتاب من فائدة، والزمخشرى ذو باع طويل فى اللغة، وعلى الذى يأخذ منه يحذر ما فيه من اعتزال؛ لذا وجب التنبيه.

العلماء قالوا: ربما كان معها بعض الخدم، أو الرعاة وهذا كلام طيب، ولكن كلمة أهل هنا لها معنى، فالإنسان منا يحتاج إلى أشياء كثيرة فى حياته، قد تتكامل هذه الأشياء بتعدد الناس، فهذا يطبخ الطعام، وهذا ينظف البيت، وهذا يصنع له القهوة والشاى، وهذا يكوى الملابس، وهذا يقود السيارة، وهذا يشترى الخضار ولوازم البيت من السوق . .إلخ، فهو يحتاج فى خدماته إلى مجموعة من الناس، لكن هناك شيئا واحداً لايستطيع أحد أن يعطيه له إلا زوجته، فهو لا يتمتع إلا بها، ولا ينجب ذرية إلا منها، وقد تقوم هى بكل هذه الأعمال وتغنيه عن هؤلاء الناس جميعاً ، فكأن الزوجة تغنى عن الأهل كلهم.

فكلمة « الأهل» (١) هنا تعنى الزوجة. وفى اللغة العامية لغالب المصرين تجد الناس يقولون: (فلان حضر هو وجماعته) هنا كلمة جماعته مقصود بها زوجته، وفى هذا احترام للزوجة، فهو لم يذكر اسمها، وذكر لها صفة طيبة، وهى أنها تقوم بمهام كثيرة لا تقوم بها إلا جماعة من الناس.

ومعنى ﴿آنس﴾(٢): أى شعر وأحس بشىء يؤنسه، وهى ضد التوجس؛ لأن التوجس معناه الإحساس والشعور بشىء مخيف، قال

---

(١) ابن سيدة : أهل الرجل عشيرته وذوو قرباه . وأهل المذهب : من يدين به، وأهل الإسلام : من يدين به. وأهل الأمر: ولاته. وأهل البيت: سكانه. وأهل الرجل: أخص الناس به. وأهل بيت النبى ﷺ: أزواجه وبناته وصهره، يعنى عليا، وقيل: نساء النبى ﷺ. [لسان العرب : ١١ / ٢٩]
وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «أهل الجنة جرد مرد كحلى، لا يفنى شبابهم ولا تبلى ثيابهم». أخرجه الترمذى [٢٥٣٩] . وقال هذا حديث حسن غريب، وحسنه الألبانى فى صحيح الترمذى : [٢٠٦٢].

(٢) ﴿إِنِّي آنَسْتُ نَاراً﴾ قال الفراء : إنى وجدت. يقال : هل آنست أحدا؟ أى : وجدت. وقال ابن قتيبة : آنست بمعنى أبصرت. زاد المسير [٥ / ١٩٠]

تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ قُلْنَا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الأَعْلَىٰ﴾ فى هذه الآيه كلمة: ﴿آنس﴾ أفادت أنه أبصر ورأى.

ومعنى: ﴿سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ أى: خبر يخرجنا من حالة الضياع وعدم معرفتنا الطريق.

ومعنى: ﴿آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ الشهاب: هو النار المشتعلة.

﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[1] نودى من النداء، والنداء: طلب إقبال أحد، فتقول: يا فلان فيأتيك، وبعد ذلك تأمره بما تريد.

وهنا النداء لم يذكر فيه اسم نبى الله موسى، مثلما جاء فى قوله

(١) قال الزمخشرى: ﴿أن﴾ هى المفسّرة ؛ لأن النداء فيه معنى القول. والمعنى: قيل له: ﴿بُورِك﴾ فإن قلت: هل يجوز أن تكون المخففة من الثقيلة، وتقديره: نودى بأنه ﴿بُورِك﴾ ، والضمير ضمير الشأن ؟ قلت : لا ؛ لأنه لابد من قد ، فإن قلت: فعلى إضمارها ؟ قلت: لا يصح لأنها علامة لا تحذف .

ومعنى: ﴿بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ بورك من فى مكان النار، ومن حول مكانها، ومكانُها البقعَةُ التى حصلت فيها، وهى البقعة المباركة المذكورة فى قوله تعالى: ﴿نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ﴾ وتدل عليه قراءة أبى: «تباركت الأرض ومن حولها » وعنه: بوركت النار، والذى بوركت له البقعة وبورك من فيها وحواليها حدوثُ أمر دينى فيها، وهو تكليم الله موسى واستنباؤه له، وإظهار المعجزات عليه، وربَّ خير يتجدد فى بعض البقاع، فينشر الله بركة ذلك الخير فى أقاصيها، ويبث آثار يُمنه فى أباعدها، فكيف بمثل ذلك الأمر العظيم الذى جرى فى تلك البقعة.

وقيل: المراد بالمبارك فيهم موسى والملائكة الحاضرون. =

تعالى: ﴿نُودِىَ يَا مُوسَىٰ إِنِّى أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [طه: ١١، ١٢] ولكن فى هذه الآية لم يقل: يا موسى، بورك من فى النار، فليس هذا نداء. فالنداء يطلق، ويراد به مجرد الخطاب؛ لأنه مادام يخاطبه فكأنه ناداه؛ ولذلك يقول الحق سبحانه فى سورة الأعراف: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ﴾(١) [الأعراف: ٤٤] فهم لم يقولوا لهم: يا أصحاب النار، وإنما أخبروهم بما أعطاه الله لهم من نعيم فى الجنة؛ فكلمة نادى تعنى: أن تناديه، فتقول «يا كذا..» أو تخبره بما تريد أن تقول له مباشرة.

الآية تقول: ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِىَ أَن بُورِكَ مَن فِى النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ ساعة تسمع كلمة: نودى، أو قال، أو وسوس، وترى بعدها الحرف «أن»، فاعلم أنه تفسير للنداء، ولكن كيف يبارك الله فى النار وهى التى تحرق مايلقى فيها؟ قالوا: هناك خلق لا تُؤثِّر فيهم النار مثل الملائكة؛ ولذلك قال المفسرون: إن نبى الله موسى رأى هذه النار فى فرع شجرة، وكلما زادت النار اشتعالا، زادت الشجرة خضرة ونماء، فلا النار تحرق الخضرة، ولا رطوبة الخضرة تطفئ النار، فمن الذى يقدر على هذا إلا الله سبحانه وتعالى ؟!

= والظاهر أنه عام فى كل من كان فى تلك الأرض. وفى ذلك الوادى وحواليهما من أرض الشام. إلى أن قال: ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ تعجيب لموسى عليه السلام من ذلك وإيذان بأن ذلك الأمر مريده ومكوِّنه ربُّ العالمين؛ تنبيها على أن الكائن من جلائل الأمور وعظائم الشئون. [الكشاف : ٣/ ١٣٤]

(١) ﴿أَن قَدْ وَجَدْنَا﴾ يحتمل أن تكون مخففة من الثقيلة ،وأن تكون مفسرة بمعنى: أى. [الكشاف : ٢/ ٦٣]

إياك أن تقول كيف يحدث هذا؟ بل نزِّه الله عن تصرفاتك وقدرتك أنت؛ لأنه سبحانه القادر على كل شىء: يقول للشىء: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾.(١)

ولذلك قلنا فى قصة إبراهيم: هل كانت لنجاة إبراهيم من النار مقصود بها النجاة من الحرق فقط؟ لأنه لو كان المقصود ذلك، كان الله قادرا على أن يحفظه من الوقوع فى أيديهم، فلا يعثروا عليه أو يمسكوه أبدا، ولكنهم أمسكوا به وألقوه فى النار المشتعلة، وكان فى استطاعة الحق سبحانه أن ينزل مطرا ، يطفئ النار، فنجاة إبراهيم من النار كان يمكن أن تتم بوسائل كثيرة، ولكن إرادة الله شاءت أن القوم يمسكون به؛ حتى لايقولوا: لو أمسكناه ولم يهرب منا لفعلنا به كذا وكذا فمكّنهم الله منه، ولم يشأ أن يطفئ النار بالمطر؛ حتى لا يقولوا : إنه لو لم تمطر السماء، وتطفئ النار، لأحرقناه وجعلناه عِبرة، ولكن أمسكوه وألقوه فى النار، وظلت مشتعلة لم يطفئها مطر أو غيره، حتى يستنفدوا كل الأسباب المتاحة

---

(١) قال ابن كثير: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس : ٨٢] أى : إنما يأمر بالشىء أمرا واحدا لايحتاج إلى تكرار وتأكيد :

إذا ما أراد الله أمرا فإنما   يقول له كن قولة فيكون

[تفسير ابن كثير : ٣ / ٥٦٠]

وعن أبى ذر عن النبى ﷺ قال: «إن الله تبارك وتعالى يقول : يا عبادى كلكم مذنب إلا من عافيت فاستغفرونى أغفر لكم، ومن علم منكم أنى ذو قدرة على المغفرة فاستغفرنى بقدرتى غفرت له ولا أبالى ، وكلكم ضال إلا من هديت ، فسلونى الهدى أهدكم، وكلكم فقير إلا من أغنيت، فسلونى أرزقكم، ولو أن حيكم وميتكم وأولاكم وأخراكم ورطبكم ويابسكم اجتمعوا على قلب أتقى عبد من عبادى لم يزيدوا فى ملكى جناح بعوضة ، ولو أن حيكم وميتكم وأولاكم وأخراكم ورطبكم ويابسكم اجتمعوا فسأل كل سائل منهم ما بلغت أمنيته، وأعطيت كل سائل ما سأل لم ينقصنى إلا كما لو مرّ أحدكم على شفة البحر فغمس إبرة ثم انتزعها؛ ذلك لأنى جواد ماجد واجد أفعل ما أشاء، عطائى كلامى وعذابى كلامى ، إذا أردت شيئًا فإنما أقول له كن فيكون » . أخرجه أحمد فى المسند [٥/ ١٥٤، ١٧٧]

عندهم؛ لأن الله أراد أن ينجيه من النار، رغم قوة أسبابهم فى إحراقه؛ لأنه خالق النار، وخالق الإحراق، وهى مؤتمرة بأمره سبحانه، وبمجرد أن أمرها أطاعت الأمر فى الحال.

قال تعالى: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩] فكانت النار بردا وسلاما على خليل الله إبراهيم امتثالا لأمر الخالق سبحانه الذى سلبها خاصية الإحراق.

وقوله تعالى: ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١)[النمل: ٨] أى: إن كنت ترى نارا فى خضرة الشجرة، فلا النار تحرق اخضرار الشجرة، ولاالشجرة بما فيها من مائية تطفئ النار، إن كنت ترى عجيبا فهو عجيب عندنا، ولكنه ليس بعجيب عند من له القدرة التى تخرق النواميس.

إذن.. فقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ هو خبر وهناك آية أخرى فى القرآن الكريم، تدل على أن النداء لا يكون معناه طلب الإقبال، بل هو مجرد الخبر، وذلك فى قصة نبى الله عيسى لما كلم أمه مريم عليهما السلام، كما ورد فى قول الله تعالى: ﴿فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ (٢) [مريم: ٢٤] فهو لم يقل لها: يامريم، أو يا أمى، ولكن خاطبها ألا تخافى وألا تحزنى، فالخطاب نفسه هو النداء.

---

(١) قال الطبرى فى قوله تعالى: ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ : تنزيها لله رب العالمين مما يصفه به الظالمون . [تفسير الطبرى : ٩/ ٤٩٧]

(٢) قال الشوكانى فى قوله تعالى : ﴿فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا﴾ أى: جبريل لمّا سمع قولها. وكان أسفل منها تحت الأكمة. وقيل : تحت النخلة. وقيل : المنادى هو عيسى. [فتح القدير : ٣/ ٣٣٢]

* موسى والخضر عليهما السلام *

قصه موسى والخضر قصة العجائب الغيبية التى يقف أمامها العقل البشرى خاشعًا ومسلمًا ، فهى قصة رسول موحى إليه ومعه منهــج حياة ممثلاً فى التوراة،فيه افعل ولا تفعل، وقصة عبد صالح آتاه الله رحمة من عنده وعلمه من لدنه علمًا، ولكل خصوصيته.

روى التاريخ أن موسى عليه السلام قام خطيبًا فى بنى إسرائيل فلما انتهى من خطبته سأله رجل هل تعلم أحد أعلم منك ؟

قال : لا . فأوحى الله إليه إن لى عبدًا بمجمع البحرين على الساحل عند صخرة هناك هو أعلم منك . قال موسى لربه : فكيف لى به ؟

قال : تأخذ معك حوتًا فتجعله فى مكتل فحيثما فقدت الحوت تجده هناك، فأخذ موسى حوتًا فى مكتل، واصطحب فتاه يوشع بن نون، وقال له: إذا فقدت الحوت فأخبرنى . ثم انطلق، وانطلق معه فتاه، حتى وصلا إلى الصخرة وغشاهما النعاس، فناما، ومسَّ الحوت بعض الماء فاضطرب فى المكتل، وأخذ سبيله فى البحر سربًا. فرآه يوشع وهو بين النوم واليقظة، فلما استيقظ موسى نسى أن يسأل يوشع عن أمر الحوت، ونسى يوشع أن يخبره بماحدث. فانطلقا بقية يومهما وليلتهما حتى إذا كان الغداة وقد أجهدهم السير، قال موسى لفتاه: آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا تعبًا لم نعهده من قبل - ذلك أن موسى لم يجد من التعب مثل مالاقاه منذ جاوزا الصخرة - ولماهمَّ يوشع لإعداد الطعام تذكر الحوت الذى تسرب إلى البحر، فقال لموسى: أرأيت إن أوينا إلى الصخرة فإنى نسيت الحوت، وما أنسانى ذكره إلا الشيطان،

وقد اتخذ سبيله فى البحر بحالة تدعو إلى العجب .

فقال موسى: إن فقدان الحوت هو ما كنا نبتغيه؛ لأنه أمارة على الفوز بمانطلبه، فرجعا فى الطريق التى جاءا منها، حتى أتيا الصخرة فوجدا العبدالصالح . يقول الحق : ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا (٦٥) قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا (٦٦) ﴾[1] [الكهف] ومع أن موسى رسول، إلا أنه لم يتأبى أن يعلّمه عبدٌ من عباد الله، تقرب إلى الله بالمنهج الذى جاء به موسى، وله اصطفائية مخصوصة فموسى عليه السلام مرسل لتبليغ الرسالة - افعل

---

(١) قال ابن كثير فى قوله تعالى : ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ : وهذا هو الخضر عليه السلام، كما دلت عليه الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ . [تفسير ابن كثير : ٣/ ٩١]

وعن ابن عباس أنه تمارى هو والحرّ بن قيس الفزارى، فى صاحب موسى ، قال ابن عباس: هو خضر ، فمر بهما أُبىٌّ بن كعب ، فدعاه ابن عباس فقال : إنى تماريت أنا وصاحبى هذا فى صاحب موسى الذى سأل السبيل إلى لقيِّه ، هل سمعت رسول الله ﷺ يذكر شأنه ؟ قال : نعم، سمعت رسول الله ﷺ يقول: « بينما موسى فى ملأ من بنى إسرائيل، جاءه رجل فقال : هل تعلم أحدًا أعلم منك؟ قال : لا . فأوحى الله إلى موسى : بلى عبدنا خضر ، فسأل موسى السبيل إليه، فجعل له الحوت آية ، وقيل له : إذا فقدت الحوت فارجع فإنك ستلقاه ، فكان يتبع الحوت فى البحر ، فقال لموسى فتاه : ﴿ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ ﴾ [الكهف: ٦٣] . فقال موسى : ﴿ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴾ [الكهف: ٦٤]، فوجدا خضرًا ، فكان من شأنهما الذى قصَّ الله فى كتابه » . أخرجه البخارى [٣٤٠٠]

وسبب تسميته بالخضر رواه البخارى : عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: « إنما سُمى الخضر لأنه جلس على فروة بيضاء ، فإذا هى تهتز من خلفه خضراء » . أخرجه البخارى [٣٤٠٢] . =

= وعن سعيد بن جبير قال : قلت لابن عباس: إن نوفًا البكالى يزعم أن موسى صاحب الخضر ليس هو موسى بنى إسرائيل ، إنما هو موسى آخر . فقال : كذب عدو الله ، حدثنا أُبَى بن كعب عن النبى ﷺ: « أن موسى قام خطيبًا فى بنى إسرائيل، فسُئل : أى الناس أعلم ؟ فقال : أنا . فعتب الله عليه، إذ لم يرد العلم إليه، فقال له : بلى ، لى عبدٌ بمجمع البحرين هو أعلم منك . قال : أى رب ومن لى به ؟ - وربما قال سفيان : أى رب وكيف لى به ؟ - قال : تأخذ حوتًا فتجعله فى مكتل [(١)] ، حيثما فقدت الحوت فهو ثَمَّ - وربما قال : فهو ثمَّه - وأخذ حوتًا فجعله فى مكتل، ثم انطلق هو وفتاه يوشع بن نونٍ حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رؤوسهما ، فرقد موسى واضطرب الحوت، فخرج فسقط فى البحر، فاتخذ سبيله فى البحر سربًا [(٢)] ، فأمسك الله عن الحوت جرية الماء فصار مثل الطاق[(٣)]- فقال: هكذا مثل الطاق - فانطلقا يمشيان بقية ليلتهما ويومهما ، حتى إذا كان من الغد قال لفتاه: ﴿ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ﴾[الكهف : ٦٢] [(٤)]ولم يجد موسى النَّصب حتى جاوز حيث أمره الله . قال له فتاه: ﴿ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴾ [الكهف:٦٣] فكان للحوت سربًا ولهما عجبًا ، قال له موسى : ذلك ما كنا نبغى ﴿فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴾ - رجعا يقصّان آثارهما - حتى انتهيا إلى الصخرة، فإذا رجل مسجًّى[(٥)] بثوبٍ ، فسلم موسى ، فردَّ عليه فقال : وأنَّى بأرضك السلام، قال : أنا موسى ، قال: موسى بنى إسرائيل ؟ قال: نعم ، أتيتك لتعلمنى مما عُلِّمت رُشدًا. قال : يا موسى إنى على علمٍ من علم الله، علَّمنيه الله لاتعلمه ، وأنت على علم من علم الله علَّمكَه الله لا أعلمه . قال : هل أتبعك ؟=

(١) مكتل: أى ما يُحمل فيه التمر أو العنب ، وهو يسع خمسة عشر صاعًا .وهو القفة ونحوها.
(٢) سربًا : أى مسلكًا وطريقًا .
(٣) الطاق : ما عطف من الأبنية أى جُعل كالقوس من قنطرة ونافذة .
(٤) نصبًا : تعبًا ومشقة.
(٥) مسجًّى : مُغطًّى .

= ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٦٧) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا (٦٨)﴾ [الكهف] إلى قوله: ﴿إِمْرًا﴾ [الكهف: ٧١]. فانطلقا يمشيان على ساحل البحر، فمرَّت بهما سفينة كلموهم أن يحملوهم ، فعرفوا الخضر فحملوه بغير نول (١) ، فلما ركبا فى السفينة جاء عصفور فوقع على حرف السفينة ، فنقر فى البحر نقرة أو نقرتين ، قال له الخضر : يا موسى ، ما نقص علمى وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور بمنقاره من البحر . إذ أخذ الفأس فنزع لوحًا، قال: فلم يفجأ موسى إلا وقد قلع لوحًا بالقدوم ، فقال له موسى : ما صنعت؟ قوم حملونا بغير نولٍ ،عمدت إلى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ [الكهف:٧١] ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٢) قَالَ لا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا (٧٣)﴾ [الكهف] فكانت الأولى من موسى نسيانًا. فلما خرجا من البحر مروا بغلام يلعب مع الصبيان . فأخذ الخضر برأسه فقلعه بيده هكذا - وأومأ سفيان بأطراف أصابعه كأنه يقطف شيئًا - فقال له موسى : ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا (٧٤) قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٥) قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا (٧٦) فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ...(٧٧)﴾ [الكهف] مائلاً - أوما بيده هكذا ، وأشار سفيان كأنه يمسح شيئًا إلى فوق ، فلم أسمع سفيان يذكر « مائلا» إلا مرة - قال : قوم أتيناهم فلم يطعمونا ولم يضيّفونا ، عمدت إلى حائطهم ، ﴿لَوْ شِئْتَ لاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾[الكهف : ٧٨] . قال النبى ﷺ: « وددنا أن موسى كان صبر ، فقص الله علينا من خبرهما » قال سفيان : قال النبى ﷺ: « يرحم الله موسى لو كان صبر يقص علينا من أمرهما» وقرأ ابن عباس: أمامهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصبًا. وأما الغلام فكان كافرًا وكان أبواه مؤمنين». ثم قال لى سفيان: سمعته منه مرتين وحفظته منه. قيل لسفيان: حفظته قبل أن تسمعه من عمرو أو تحفظته من إنسان ؟ =

(١) بغير نول : أى بغير أجر ولا ثمن .

ولا تفعل - والخضر عليه السلام له تحقيق المعلوم لله الذى قد تغيب نتائجه على سلّم العقل، فإذا ظهرت حكمة الغيب فيه، أمن به العقل، وهذه الاصطفائية للخضر ليس معناها أن يفهم البعض أنه فوق موسى عليه السلام، لا . إنما لكل وجهة الله موليها.

إن قول موسى للعبد الصالح: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾(1) [الكهف: ٦٦] يلفتنا الحق سبحانه وتعالى إلى أنه مهما رُفعت درجة الإنسان، فإنه يجب ألا يتكبر، بل لابد أن نتواضع جميعا؛ فالكبرياء لله وحده، ويجب ألا يغتر إنسان بعلمه، أو بما آتاه الله من فضله فيتكبر فى الأرض.

= فقال: ممن أتحفَّظه، ورواه أحد عن عمرو غيرى ؟ سمعته منه مرتين أو ثلاثا وحفظته منه .

أخرجه البخارى [٣٤٠١، ٤٧٢٥، ٤٧٢٦، ٤٧٢٧] واللفظ له ، ومسلم [٢٣٨٠/ ١٧٠، ١٧٢، ١٧٤] .

(١) قال الشوكانى : ثم قص الله سبحانه علينا ما دار بين موسى والخضر بعد اجتماعهما فقال : ﴿ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾ فى هذا السؤال ملاطفة ومبالغة فى حسن الأدب ؛ لأنه استأذنه أن يكون تابعا له على أن يعلمه مماعلمه الله من العلم . والرشد : الوقوف على الخير وإصابة الصواب، وانتصابه على أنه مفعول ثان لـ ﴿ تُعَلِّمَنِ ﴾ أى: علما ذا رشد أرشد به ، وقرىء: « رَشَدًا » بفتحتين ، وهما لغتان كالبُخْل والبَخَل . وفى الآية دليل على أن المتعلم تبع للعالم، وإن تفاوتت المراتب . وليس فى ذلك ما يدل على أن الخضر أفضل من موسى ، فقد يأخذ الفاضل عن الفاضل ، وقد يأخذ الفاضل عن المفضول، إذا اختص أحدهما بعلم لا يعلمه الآخر . فقد كان علم موسى علم الأحكام الشرعية، والقضاء بظاهرها ، وكان علم الخضر علم بعض الغيب ومعرفة البواطن(1) .

[فتح القدير : ٣/٣٠٣، ٣٠٤]

---

(١) بما علمه الله تعالى ؛ لقوله سبحانه : ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ [الكهف: ٦٥] .

العبد الصالح حين طلب منه موسى أن يتبعه ليتعلم منه، قال له: ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴿٦٨﴾﴾ [الكهف] وهكذا قدم العبد الصالح عذرا لموسى، بأنه لن يستطيع أن يصبر . وليس هذا لنقص فى موسى عليه السلام، ولكن لأن الله أخبر العبد الصالح بأمور لم يخبر بها موسى.

ولما أصرَّ موسى عليه السلام على المصاحبة، اشترط عليه العبد الصالح ألا يسأله عن شئ مما سيراه.

هنا الله سبحانه وتعالى يلفتنا لفتة أخرى هى: أن هناك فرقا بين الأشياء النظرية والتطبيق. الكلام النظرى سهل، ولكن عندما تصل إلى التطبيق يتغير كثير من المواقف(١).

أنت حينما تأخذ مالا من إنسان على أن ترده إليه، ساعة الأخذ تقول إنك سترده، ولكن ساعة الأداء قد يختلف الموقف.

موسى عندما ذهب إلى العبد الصالح ، ما الذى حدث ؟ قال العبد الصالح: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ ويلتمس العبد الصالح

---

(١) قال القرطبى فى قوله تعالى : ﴿قَالَ﴾ الخضر ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ اى إنك يا موسى لا تطيق أن تصبر على ما تراه من علمى ؛ لأن الظواهر التى هى علمك لا تعطيه ، وكيف تصبر على ما تراه خطأ، ولم تخبر بوجه الحكمة فيه ، ولاطريق الصواب ؟ وهو معنى قوله : ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾ والأنبياء لا يقرون على منكر، ولا يجوز لهم التقرير ، أى لا يسعك السكوت جريا على عادتك وحكمك . وانتصب ﴿خُبْرًا﴾ على التمييز المنقول عن الفاعل . وقيل: على المصدر الملاقى فى المعنى ؛ لأن قوله : ﴿لَمْ تُحِطْ﴾ معناه لم تخبره، فكأنه قال : لم تخبره خبرا ؛ وإليه أشار مجاهد . والخبير بالأمور هو العالم بخفاياها وبما يختبر منها . [تفسير القرطبى : ١١/١٧]

لموسى العذر، فيقول له: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾ فيقول موسى وهو من أولى العزم من الرسل: ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ (١) [الكهف: ٦٩] .

المشهد الأول من مشاهد قصة موسى مع الخضر عليهما السلام:

رغم أن موسى وعد العبد الصالح بعدم السؤال ، أو عصيان الأمر، وأن يكون صابرا ،رغم ذلك لم يطق الصبر على حادث خرق السفينة؛ لأن خرق السفينة فى البحر مؤداه غرق السفينة بمن فيها، أمام هذا موسى عليه السلام لم يصبر ولم يلتزم الصمت؛لهذا قال للعبد الصالح: ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ (٢) [الكهف: ٧١] لقد شك

---

(١) قال صديق خان فى قوله تعالى : ﴿قَالَ﴾ موسى للخضر ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا﴾ معك ملتزمًا طاعتك ، وإنما استثنى ؛ لأنه لم يثق من نفسه بالصبر ؛ ولم يستثن الخضر؛ لأنه فى مقام التعليم ، ﴿وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ اى لا اخالفك فيما تامرنى به ، والتقييد بقوله : ﴿إِن شَاءَ اللَّهُ﴾ شامل للصبر ونفى المعصية ، وقيل: إن التقييد بالمشيئة مختص بالصبر ؛ لأنه أمر مستقبل لا يدرى كيف يكون حاله فيه. ونفى المعصية معزوم عليه فى الحال ، ويجاب عنه بأن الصبر ونفى المعصية متفقان فى كون كل واحد منهما معزومًا عليه فى الحال ، وفى كون كل واحد منهما لا يدرى كيف حاله فيه فى المستقبل . [فتح البيان : ٨/ ٨٢]

(٢) قال البقاعى: فى قوله تعالى: ﴿قَالَ﴾ أى موسى عليه السلام ، منكرا لذلك؛ لما فى ظاهره من الفساد،بإتلاف المال المفضى إلى فساد أكبر منه بإهلاك النفوس، ناسيا لما عقد على نفسه ؛ لما دهمه مما عنده من الله – وهو الإله العظيم – من العهد الوثيق المكرر فى جميع أسفار التوراة، بعد إثباته فى لوحى الشهادة فى العشر كلمات، التى نسبتها من التوراة كنسبة الفاتحة من القرآن ، بالأمر القطعى أنه لا يقر على منكر . ومن المقرر أن النهى واجب على الفور ، على أنه لو لم ينس لم يترك الإنكار، كما فعل عند قتل الغلام ؛ لأن مثل ذلك غير داخل فى الوعد ؛ لأن المستثنى شرعا كالمستثنى وضعا ، ففى الأولى نسى الشرط ، وفى الثانية نسى – لما دهمه من =

موسى فى ظاهر الأمر، ولكن عندما أدرك الحكمة، وجدها عين الخير، فلو لم يخرق العبد الصالح السفينة، لأخذها ملك ظالم يأخذ السفن غصبا؛ وذلك قول الحق تعالى : ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ (١) [الكهف:٧٩] فلو لم يخرقها العبد الصالح، لما احتفظ أصحاب السفينة بسفينتهم ، وإن كان بها عطب.

إذن. . كل شئ يجرى على غير ما تعارف عليه الناس، أَكِلْ علمه إلى الذى يعلم السر وأخفى، واعلم أنه لابد وأن يكون وراءه حكمة، وعند الوصول للحكمة تخشع القلوب لله رب العالمين، وإلا فالرضا بالقضاء والتسليم بالقدر من أركان الإيمان.

المشهد الثانى من مشاهد القصة :

وفى مشهد آخر أعطانا الله المثل بشئ لا يوجد أعظم منه، وهو القتل. لقد قتل العبد الصالح غلاما ، ما الحكمة فى ذلك؟ (٢)

= فظاعة القتل الذى لم يعلم فيه من الله أمرا- أنه ينبغى تقليده لثناء الله تعالى عليه ، ﴿أَخَرَقْتَهَا﴾ وبين عذره فى الإنكار بما فى غاية الخرق من الفظاعة فقال : ﴿لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾ والله ! ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ أى عظيما منكرًا عجيبا شديدًا .
[نظم الدرر : ١٢/١١١]

(١) قال ابن جماعة فى قوله تعالى : ﴿وَرَاءَهُم مَّلِكٌ﴾ هو جلندا ، وقيل : هدد ابن بدد، وقيل : منولة بن جلندا . [غرر التبيان : ٣٢٢]
وقال البغوى : كان اسمه الجلندى وكان كافرًا ، قال محمد بن إسحاق : اسمه متولة بن جلندى الأزدى ، وقال شعيب الجبائى : اسمه هُدَد بن بُدَد .
[تفسير البغوى : ٥/ ١٩٤]

(٢) عن أبى بن كعب قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الغلام الذى قتله الخضر طُبِعَ كافرًا ، ولو عاش لأرهق أبويه طغيانًا وكفرًا » . أخرجه مسلم [٢٦٦١] واللفظ له؛ والترمذى [٣١٥٠] .

إن الإنسان ينجب ولدًا حتى يكون قرة عين وسندا له فى الدنيا، فإذا ماكان هذا الولد سبباً فى فساد الدين فإنه يقود إلى الجحيم، ومن الخير أن يبعد الله هذا الولد من طريق أبيه؛ لأنه سيكون وسيلة لاختلاله.

وقد يقول قائل وما ذنب الولد؟ نقول للقائل: أنت لا تعى الحكمة من ذلك، فقد يكون الولد ذهب إلى ربه بدون تجربة فى أن يطيع أو يعصى، إذن يكون قد لقد ذهب إلى رحمة الله مباشرة، أو اقتضت حكمة العليم سبحانه أن يزيح هذا الولد من طريق أبويه؛ لأنه طُبع كافرًا، وسيشقى به والداه المؤمنان. لذلك كان القتل رحمة من الله تعالى لوالديه(١).

---

(١) قال تعالى: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا﴾ [الكهف: ٧٤].

وقال ابن قيم الجوزية: وهذا الغلام الذى قتله الخضر يحتمل أنه كان بالغًا مطلقًا؛ وسُمى ﴿غُلَامًا﴾ لقرب عهده بالبلوغ، وعلى هذا فلا إشكال فيه، ويحتمل أن يكون مميزًا عاقلاً وإن لم يكن بالغًا. وعليه يدل الحديث، وهو قوله: «ولو أدرك لأرهق أبويه» (١) وعلى هذا فلا يمتنع أن يكون مكلفًا فى تلك الشريعة، إذ اشتراط البلوغ فى التكليف إنما علم بشريعتنا، ولا يمتنع تكليف المراهق العاقل عقلاً، كيف وقد قال جماعة من العلماء: إن المميزين يكلفون بالإيمان قبل الاحتلام. كما قالت طائفة من أصحاب أبى حنيفة وأحمد، وهو اختيار أبى الخطاب، وعليه جماعة من أهل الكلام.

وعلى هذا، فيمكن أن يكون هذا الغلام مكلفًا بالإيمان قبل البلوغ، ولو لم يكن مكلفًا بشرائعه، فكفر الصبى المميز معتبر عند أكثر العلماء، فإذا ارتد عندهم، صار مرتدًا له أحكام المرتدين، وإن كان لا يُقتل حتى يبلغ فيثبت عليه كفره، واتفقوا على أنه يُضرب ويُؤدب على كفره أعظم مما يُؤدب على ترك الصلاة.

فإن كان الغلام الذى قتله الخضر بالغًا فلا إشكال، وإن كان مراهقًا غير بالغ، فقتله جائز فى تلك الشريعة؛ لأنه إنما قتله بأمر الله، كيف وهو إنما قتله دفعًا لصوله على أبويه فى الدين؟ كما قال: ﴿فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ [الكهف: ٨٠] =

---

(١) انظر تخريجه فى الصفحة السابقة.

= والصبى لو صال على المسلم فى بدنه أو ماله ، ولم يندفع صياله للمسلم إلا بقتله ، جاز قتله. بل الصبى إذا قاتل المسلمين قتل. ولكن من أين يعلم أن هذا الصبى اليوم يصول على أبويه أو غيرهما فى دينهما حتى يفتنهما عنه ؟ فإن هذا غيب لاسبيل لنا إلى العلم به؛ ولهذا علق ابن عباس الفتيا به فقال لنجدة لما استفتاه فى قتل الغلمان: «إن علمت منهم ما علم الخضر من ذلك الغلام فاقتلهم وإلا فلا».(١) .

ولكن يقال : قاعدة الشرع والجزاء، أن الله سبحانه لا يعاقب العباد بما سيعلم أنهم يفعلونه، بل لا يعاقبهم إلا بعد فعلهم ما يعلمون أنه نهى عنه، وتقدم إليهم بالوعيد على فعله. وليس فى قصة الخضر شىء من الاطلاع على الغيب، الذى لا يعلمه إلا الله ، وإنما فيها علمه بأسباب تقتضى أحكامها ، ولم يعلم موسى تلك الأسباب ، مثل علمه بأن السفينة كانت لمساكين ، وأن وراءهم ملكًا ظالمًا إن رآها أخذها. فكان قلع لوح منها لتسلم جميعها ثم يعيده من أحسن الأحكام ، وهو من دفع أعظم الشرين باحتمال أيسرهما . وعلى هذا ، فإذا رأى إنسان ظالمًا يستأصل مال مسلم غائب، فدفعه عنه ببعضه، فكان محسنًا ، ولم يلزمه ضمان ما دفعه إلى الظالم قطعًا ، فإنه محسن وما على المحسنين من سبيل . وكذلك لو رأى حيوانا مأكولاً لغيره يموت فذكاه لكان محسنا، ولم يلزمه ضمانه، وكذلك كون الجدار لغلامين يتيمين ، وأبوهما كان صالحًا ، أمر يعلمه الناس ولكن خفى على موسى ، وكذلك كفر الصبى يمكن أن يعلمه الناس حتى أبواه ولكن لحبهما إياه لا ينكران عليه ، ولايقبل منهما ، وإذا كان الأمر كذلك، فليس فى الآية حجة على أنه قتل لما يتوقع من كفره؛ ولو قدر أن ذلك الغلام لم يكفر أصلاً ، ولكن سبق فى علم الله أنه إذا بلغ يكفر، وأطلع الله الخضر على ذلك ، فقد يقول القائل : قتله بالفعل كقتل نوح لأطفال الكفار بالدعوة المستجابة التى أغرقت أهل الأرض، لما علم أن آباءهم لايلدون إلا فاجرًا كفارًا ، فدعا عليهم بالهلاك العام؛ دفعًا لشر أطفالهم فى المستقبل ، وقوله : ﴿وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٧] .لا ينافى كونهم مولودين على الفطرة الصحيحة ، فإن قوله: ﴿فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ حالان مقدرتان : أى من سيفجر ويكفر . [بدائع التفسير : ٣/١٢٣-١٢٥]

(١) اخرجه أحمد فى المسند [٢٢/٢٩٦، ٢٩٧ - فتح] ، وذكره السيوطى فى الدر المنثور [٥/٤٢٦] وعزاه لأحمد ، وابن أبى شيبة .

إذن . . فإن حدث للنفس شيئًا وكان مخالفا فيها الناموس، وفوق طاقة البشر ، يجب على الإنسان المؤمن التسليم والرضا وحمد الله تعالى؛ لأنه لا يعلم ما تخبئه له الأقدار.

المشهد الثالث من مشاهد القصة :

ومشهد آخر مع العبد الصالح وموسى، تتجلى فيه حكمة الحكيم ، وإرادة العليم، لقد ذهب الاثنان إلى قرية، واستطعما أهلها ،أى: طلبا من أهلها طعاما، لقد ورد التعبير فى القرآن عن ذلك بدقة: ﴿ **اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا** ﴾ (١) إن الواحد منهما لم يطلب نقودا؛ وذلك حتى لا تثار الظنون السيئة، ولكن طلبا الطعام ليأكلاه. لقد طلبا أولى الحاجات الضرورية للإنسان؛ فقالوا لهما: لا ، لن نعطيكما، لقد كانوا لئاما.

ولما رأى العبد الصالح جدارا يريد أن ينقض فأقامه، فقال موسى عليه السلام متسائلا : لماذا لا تأخذ منهم أجرا خاصة وأنهم منعونا الطعام؟

هنا يوضح العبد الصالح لموسى عليه السلام سبب قيامه بهذا العمل والحكمة منه فيقول : ﴿ **وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا**

---

(١) قال القرطبى فى هذه الآية دليل على سؤال القوت ، وأن من جاع وجب عليه أن يطلب ما يردّ جوعه ؛ خلافا لجهال المتصوفة . والاستطعام سؤال الطعام ، والمراد به هنا: سؤال الضيافة ، بدليل قوله : ﴿ فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا ﴾ فاستحق أهل القرية لذلك أن يُذمُّوا ، ويُنسبوا إلى اللؤم والبخل ، كما وصفهم بذلك نبينا عليه الصلاة والسلام . قال قتادة فى هذه الآية : شر القرى التى لا تضيف الضيف ولا تعرف لابن السبيل حقه . ويظهر من ذلك أن الضيافة كانت عليهم واجبة ، وأن الخضر وموسى إنما سألا ما وجب لهما من الضيافة ، وهذا هو الأليق بحال الأنبياء ، ومنصب الفضلاء والأولياء. [تفسير القرطبى : ١١/ ٢٤، ٢٥]

كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِى ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾(١) [الكهف: ٨٢] إن أهل القرية لو علموا أو رأوا هذا الكنز لأخذوه ، فهم لئام ، ولضاع حق اليتيمين . فأراد الله تعالى أن يحفظ حقهما ، ويكرم فيهما أبوهما الصالح، وهذا يرشدنا إلى أن الرجل الصالح يكرمه الله فى ذريته ويبارك لها ، واقرأ قول الله تعالى : ﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا ﴾ [النساء: ٩].

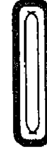
فكان ما كان ، وما فعلت ذلك الذى رأيت إلا بأمر الله تعالى وتعليمه وإرشاده، ﴿ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ ﴾ [الروم: ٤] .

---

(١) قال ابن جماعة: فى قوله تعالى : ﴿ فَكَانَ لِغُلامَيْنِ ﴾ : هما : أصرم ، وصريم ابنا كاشح ، واسم أمهما دينا ، وقال فى قوله تعالى : ﴿ كَنزَلَهُمَا ﴾ هو : ذهب وفضة، وقيل: لوح من ذهب مكتوب فيه علم وحكمة .

[غرر التبيان : ٣٢٣،٣٢٤] ، وانظر قصص الأنبياء لابن كثير [ص ٤٤٤]

* فراق موسى والعبد الصالح *



عندما انتهت مهمة العبد الصالح ، استحال على موسى أن يصبر على ما يفعله فافترقا. وقبل أن يفترقا ، أفهمه العبد الصالح، لماذا خرق السفينة، ولماذا قتل الغلام، ولماذا بنى الجدار[١].

فالقرية[٢] التى استطعما أهلها، قرية سكانها من اللئام، وطلب الطعام أصدق السؤال؛ لأن الطالب يريد لقمة خبز يأكلها، فكان المفروض أن أهل القرية يعطونهما، ولكن أهل القرية رفضا إعطاءهما لقمة ليأكلاها .

وأثناء مرور موسى والعبد الصالح بالقرية، وجدا جداراً سينهار ، فقام العبد الصالح ببنائه وإصلاحه قبل أن يقع، موسى عليه السلام قال له: أنطلب لقمة فلا يعطوننا، وتبنى لهم جداراً بلا أجر؟! موسى

---

(١) عن أبى بن كعب قال : كان رسول الله ﷺ إذا ذكر أحدًا فدعا له بدأ بنفسه ، فقال ذات اليوم : « رحمة الله علينا وعلى موسى ، لو لبث مع صاحبه لأبصر العجب العاجب ، ولكنه قال : ﴿ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴾ [الكهف: ٧٦]. أخرجه النسائى فى الكبرى [١١٣١٠] .

(٢) قال السيوطى فى قوله تعالى: ﴿ أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ ﴾: قال ابن سيرين: هى الأبلة[١] .
وقال السدى : ماجروان . أخرجهما ابن أبى حاتم .
وأخرج من طريق قتادة ، عن ابن عباس قال : هى أبرقة .
قال : وحدثنى رجل أنها إنطاكية .
وقيل : هى قرطبة . حكاه ابن عساكر . [مفحمات الأقران : ٧٠]

---

(١) فى القاموس : موضع بالبصرة .

تكلم بظاهر ما يرى، ولكن العبد الصالح أعلمه الله بما لم يُعلم به موسى، فبنى لهم الجدار ليجزيهم على خبثهم؛ لأن تحت هذا الجدار كنزا لأولاد قصر، ولو انهار هذا الجدار ورأى أهل القرية الخبثاء الكنز، لاستولوا عليه، ولذلك بناه العبد الصالح ليحرمهم من أخذ الكنز، ويحفظ للأيتام حقهم وبناه بناء موقوتا. حتى عندما يبلغ هؤلاء القُصَّر الأيتام أشدهم يقع الجدار، وحينئذ لا يستطيع أحد أن يأخذ منهم الكنز(١).

---

(١) قال الإمام النووى: فى هذه القصة أنواع من القواعد والأصول، والفروع والآداب والنفائس المهمة، سبق التنبيه على معظمها سوى ما هو ظاهر منها، ومما لم يسبق: أنه لا بأس على العالم والفاضل أن يخدمه المفضول، ويقضى له حاجة، ولايكون هذا من أخذ العوض على تعليم العلم والآداب، بل من مروءات الأصحاب، وحسن العشرة. ودليله من هذه القصة حمل فتاه غداءهما، وحمل أصحاب السفينة موسى والخضر بغير أجرة لمعرفتهم بالصلاح. والله أعلم.
ومنها: الحث على التواضع فى علمه وغيره، وأنه لا يدعى أنه أعلم الناس، وأنه إذا سئل عن أعلم الناس يقول: الله أعلم.
ومنها: بيان أصل عظيم من أصول الإسلام، وهو وجوب التسليم لكل ما جاء به الشرع، وإن كان بعضه لا تظهر حكمته للعقول، ولا يفهمه أكثر الناس. وقد لايفهمونه كلهم كالقدر موضع الدلالة قتل الغلام، وخرق السفينة، فإن صورتهما صورة المنكر، وكان صحيحًا فى نفس الأمر، له حكم بينة، لكنها لا تظهر للخلق. فإذا أعلمهم الله تعالى بها علموها؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِى﴾. [شرح النووى على مسلم : ٨/١٥٩]

* أحلى الكلام فى سيرة الخضر عليه السلام *

إن الذى قص علينا قصة الخضر عليه السلام هو الله تعالى ، وأنها حدثت مع نبى الله موسى عليه السلام ، فإذا جاء أحد الآن وادّعى أنه الخضر، فهو كاذب. فإنه لايوجد خضر لكل زمان لا باسمه ولا بصفته ، إنما هى مسألة ضربها الله تعالى؛ حتى تكون قضية عقدية يستقبل بها الناس أحداث الحياة فى مالهم إن كان سفينة، وفى ذواتهم إن كان ولدًا ، وفى جفوة الناس عنهم إن كانوا ظالمين .

إذن . . الغاية من القصة الرضا بالقضاء والقدر ، والتسليم لأمر الله تعالى ، وأن كل ما يحدث فى الكون هو بقدر الله ، وله سبحانه فى ذلك حكمة ، فإن عرفتها حمدت الله تعالى وشكرته على ذلك ، وإن جهلتها حمدت الله ، فسبحانه المحمود على كل حال ، وأمر الله كله خير .

كما أن الخضر عليه السلام قد انتقل إلى جوار ربه ، وهو ليس بحى الآن كما يزعم نفر من العلماء ،وكذلك لا يُنقل عنه شرع ولا علم .

وغاية القول فيه إنه عبد صالح من عباد الله، آتاه الله رحمة من عنده ، وعلَّمه من لدنه سبحانه علمًا ؛ للقيام بمهمة، وقد أداها كما أرادها الله تعالى.

والله يقص الحق وهو خير الحاكمين .

* موسى ... وقارون *



﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴾ [القصص: ٧٦]

لقد أُبتلى موسى عليه السلام في حياته ومشوار دعوته بمجموعة من الصناديد ، ابتلى **أولاً** : بفرعون الذى زعم أنه إله ، واستعبد الناس ، ثم ابتلى **ثانيًا** : بموسى السامرى الذى صنع العجل ودعا بنى إسرائيل إلى عبادته، ثم ابتلى **ثالثًا** : بقارون .

الله تعالى يقول : ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ ﴾ ،وقوله: ﴿ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ ﴾ يعنى بنى إسرائيل ، ويقول أكثر المؤرخين وأهل العلم: إنه كان ابن عم موسى ، فهو قارون بن يصهب بن قاهث بن لاوى ، وموسى هو ابن عمران بن قاهث بن لاوى بن يعقوب، وكان يسمى النور لحسن صوته بالتوارة.

ولما أمر الله تعالى بالزكاة ،كان على قارون من كل ألف دينار ، دينار.

فلما عاد إلى بيته وجده كثيرًا ، فجمع نفرًا يثق بهم من بنى إسرائيل فقال : إن موسى أمركم بكل شيء فأطعتموه ، وهو الآن يريد أخذ أموالكم ، فقالوا : أنت كبيرنا وسيدنا فمرنا بماشئت . فقال : آمركم أن تحضروا فلانة البغى فتجعلوا لها جُعلاً فتقذفه بنفسها ، ففعلوا ذلك ، فأجابتهم إليه .

ثم أتى عدو الله إلى موسى عليه السلام وقال له : إنّ قومك قد اجتمعوا لك لتأمرهم وتنهاهم، فخرج إليهم فقال : من سرق قطعناه ، ومن افترى جلدناه ، ومن زنى وليس له امرأة جلدناه مائة جلدة ، وإن كانت له امرأة رجمناه حتى يموت.

فقال له قارون : وإن كنت أنت ؟

فقال : نعم.

قال : فإن بنى إسرائيل يزعمون أنك فجرت بفلانة .

فقال : ادعها، فإن قالت فهو كما قالت .

فلما جاءت قال لها موسى : أقسمت عليك بالذى أنزل التوراة إلا صدقت. أنا فعلت بك ما يقول هؤلاء ؟

قالت : لا ، فقد كذبوا ولكن جعلوا لى جُعلاً على أن أقذفك.

فسجد ودعا عليهم فأوحى الله إليه : «مر الأرض بما شئت تطعك».

قال : يا أرض خذيهم .

فلم يكن له ناصر من نفسه ولا من غيره ، ولما حل به ما حل من الخسف وذهاب الأموال، وخراب الدار، وإهلاك النفس والأهل والعقار، ندم من كان تمنى مثل ما أُوتى، وشكروا الله تعالى الذى يدبر عباده بمايشاء من حسن التدبير المخزون؛ ولهذا قالوا: ﴿لَوْلا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾ [القصص: ٨٢].

وكان قد وعظه النصحاء من قومه قائلين: لا تبطر بما أعطيت ولتكن همتك مسروفة لتحصيل ثواب الله فى الدار الآخرة، وتناول من الدينا بمالك ما أحل الله لك ، وأحسن إلى خلق الله كما أحسن الله- خالقهم

وبارئهم- إليك؛ وذلك قول الله تعالى: ﴿أَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلاتَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ﴾ [القصص: ٧٧]

فأجابهم قائلاً : أنا لا أحتاج إلى استعمال ما ذكرتم ولا إلى ما إليه أشرتم، فإن الله أعطانى هذا لعلمه أنى أستحقه، وأنى أهل له ولولا أنى حبيب إليه وحظى عنده لما أعطانى ما أعطانى .

فردَّ الله تعالى عليه بأنه قد أهلك من الأمم الماضية بذنوبهم وخطاياهم من هو أشدُّ منه قوة وأكثر أموالاً وأولادًا ، فلو كان ما قال صحيحًا لم يعاقب الله أحدًا ممن سبق، واقرأ قول الله تعالى: ﴿ أَوَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ﴾ [القصص: ٧٨]

وكان عدو الله قد خرج على قومه فى تجمل عظيم من ملابس ومراكب وخدم، فلما رآه من يعظم زهرة الحياة الدنيا، تمنّوا أن لو كانوا مثله وغبطوه بما عليه وله ، فلما سمع مقالتهم العلماء ذوو الفهم الصحيح ، والزهاد الألباء حذروهم ، وأرشدوهم إلى أن ما عند الله فى الدار الآخرة خير وأبقى وأجلّ وأعلى، لمن خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى ، وذلك قول الله تعالى: ﴿ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ .

ويروى أن موسى عليه السلام بعد أن أذن الله له وأمر الأرض أن تطيعه دعا عليهم قائلاً : «يا أرض خذيهم» ، فأخذتهم إلى أقدامهم.

ثم قال : «خذيهم» ، فأخذتهم إلى ركبهم .

ثم إلى مناكبهم .

ثم قال : «أقبلى بكنوزهم وأموالهم» ، فأقبلت بها حتى نظروا إليها.

ثم أشار موسى بيده فقال: «اذهبوا بنى لاوى»، فاستوت بهم الأرض،

وخسف بهم إلى الأرض السابعة، وصح عن النبى ﷺ أنهم يخسف بهم كل يوم إلى يوم القيامة (١) ؛ ﴿ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴾ [القصص: ٨١] .

وقد قص الله تعالى تلك القصة؛ حتى يعلم الناس أن أحدًا لن يفلت من عذاب الله تعالى لا فى الدنيا ولا فى الآخرة، وأنه: ﴿لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [القصص: ٨٢] ، وأن ﴿ اللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ ﴾ [يوسف: ٢١] ولن تغنى عنهم أموالهم ولاقوتهم من الله شيئًا .

وحتى يعلم كل ظالم أنه ليس له من الله ناصر: ﴿فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلا نَاصِرٍ﴾ [الطارق: ١٠] و﴿ إِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾ [العنكبوت: ٦٤] وهى دار القرار ، وهى الدار التى يُغبط من أُعطيها ، ويُعزَّى من حُرِمها ، وأنها معدة للذين لا يريدون علوًا فى الأرض ولا فسادًا ، ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص: ٨٣] .

---

(١) روى البخارى [٥٧٩٠] أن النبى ﷺ قال : «بينا رجل يجر إزاره خُسف به، فهو يتجلجل فى الأرض إلى يوم القيامة » .

* موكب طويل من الرسل جاءوا إلى بنى إسرائيل من بعد موسى *



﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ [البقرة: ٨٧].

علينا أن نعرف أنه حينما نلتقى بقول الحق: ﴿وَلَقَدْ﴾ فإننا نفهم منه هنا: شبه القسم، إن الحق سبحانه وتعالى يقسم لنا بالقول الفصل، لقد أعطى موسى الكتاب وهو التوراة، وأرسل من بعده الكثير من الرسل لبنى إسرائيل؛ لعلهم يهتدون إلى الحق، ونحن نعلم أن التوصل إلى الحقائق يتم بثلاث وسائل:

الوسيلة الأولى: هى إقرار صاحبها على نفسه.

والوسيلة الثانية: هى الشهادة من غيره عليه.

والوسيلة الثالثة: هى القسم.

وأراد الحق - سبحانه وتعالى- أن يقرر لنا بالوسائل الثلاث فى آن واحد استيفاء كل أركان تقرير الحقيقة (١).

---

(١) قال ابن كثير فى قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ ينعت تبارك وتعالى بنى إسرائيل بالعتوّ والعناد والمخالفة والاستكبار على الأنبياء، وأنهم إنما يتبعون أهوائهم، فذكر تعالى أنه آتى موسى الكتاب وهو التوراة، فحرّفوها وبدّلوها، وخالفوا أوامرها =

= وأولوها ، وأرسل الرسل والنبيين من بعده الذين يحكمون بشريعته ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ ﴾ [المائدة: ٤٤] الآية ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ ﴾

قال السدى عن أبى مالك : أتبعنا . وقال غيره : أردفنا . والكل قريب، كما قال تعالى : ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ﴾ [المؤمنون: ٤٤] حتى ختم أنبياء بنى إسرائيل بعيسى ابن مريم ، فجاء بمخالفة التوراة فى بعض الأحكام ؛ ولهذا أعطاه الله من البينات وهى المعجزات، قال ابن عباس : من إحياء الموتى ، وخلقه من الطين كهيئة الطير فينفخ فيها فتكون طيرًا بإذن الله ، وإبراء الأسقام وإخباره بالغيوب ، وتأييده بروح القدس - وهو جبريل عليه السلام - ما يدلهم على صدقه فيما جاءهم به ، فاشتد تكذيب بنى إسرائيل له وحسدهم وعنادهم ؛ لمخالفة التوراة فى البعض ، كما قال تعالى إخبارًا عن عيسى: ﴿ وَلأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [آل عمران: ٥٠] الآية ، فكانت بنو إسرائيل تعامل الأنبياء أسوأ المعاملة ، ففريقًا يكذبونه ، وفريقا يقتلونه ؛ وما ذاك إلا لأنهم يأتونهم بالأمور المخالفة لأهوائهم وآرائهم ، وبالإلزام بأحكام التوراة التى قد تصرَّفوا فى مخالفتها ؛ فلهذا كان ذلك يشق عليهم، فكذَّبوهم وربما قتلوا بعضهم؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ .

والدليل على أن روح القدس هو جبريل ، كما نص عليه ابن مسعود فى تفسير هذه الآية وتابعه على ذلك ابن عباس، ومحمد بن كعب، وإسماعيل بن خالد ، والسدى والربيع بن أنس، وعطية العوفى، وقتادة مع قوله تعالى : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٤) ﴾ [الشعراء] ما قال البخارى (١) : وقال =

(١) قال الحافظ فى الفتح [٢/ ١٢٠] : وفى الترمذى من طريق أبى الزناد عن عروة عن عائشة قالت : « كان رسول الله ﷺ ينصب لحسان منبرًا فى المسجد فيقوم عليه يهجو الكفار » وذكر المزى فى « الأطراف » أن البخارى أخرجه تعليقًا نحوه ، وأتم منه ، لكنى لم أره فيه .

. . . .

= ابـن أبى الزناد عن أبيه عن أبى هريرة عن عائشة: أن رسول الله ﷺ وضع لحسان ابن ثابت منبرًا فى المسجد، فكان ينافح عن رسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ: « اللهم أيّد حسان بروح القدس كما نافح عن نبيك » فهذا من البخارى تعليقًا . وقد رواه أبو داود [1] فى سننه عن ابن سيرين، والترمذى [2] عن على ابن حجر وإسماعيل بن موسى الفزارى ، ثلاثتهم عن أبى عبد الرحمن بن أبى الزناد عن أبيه وهشام بن عروة كلاهما عن عائشة به، قال الترمذى: حسن صحيح . وهو حديث أبى الزناد . وفى الصحيحين من حديث سفيان بن عيينه عن الزهرى عن سعيد ابن المسيب عن أبى هريرة: أن عمر بن الخطاب مرّ بحسان وهو ينشد الشعر فى المسجد فلحظ إليه ، فقال : قد كنت أنشد فيه وفيه من هو خير منك[3] ، ثم التفت إلى أبى هريرة فقال: أنشدك الله أسمعت رسول الله ﷺ يقول: « أجب عنى اللهم أيده بروح القدس» فقال: اللهم نعم. وفى بعض الروايات أن رسول الله ﷺ قال لحسان: «اهجهم -أو هاجهم -وجبريل معك» [4]وفى شعر حسان قوله :

وجبريل رسول الله فينا ... وروح القدس ليس به خفاء [5]

وقال محـمد بن إسحـاق حدثنى عـبد الرحـمن بـن أبى حسـين المكى عـن شـهر ابن حوشب الأشعرى: أن نفرًا من اليهود سألوا رسول الله ﷺ، قـالوا: أخبرنا عن الروح فقال: « أنشدكم بالله وبأيامه عند بنى إسرائيل هل تعلمون أنه جبرائيل وهو الذى يأتينى ؟ » قالوا : نعم . [تفسير ابن كثير : ١/١١٦، ١١٧]

---

(١) أخرجه أبو داود [٥٠١٥] ، وحسنه الألبانى فى صحيح أبى داود [٤١٩٣] .

(٢) أخرجه الترمذى [٢٨٤٢] ، وحسنه الألبانى فى صحيح الترمذى [٢٢٨٢] .

(٣) أخرجه البخارى [٣٢١٢] واللفظ له ، ومسلم [٢٤٨٥/ ١٥١] .

(٤) أخرجه البخارى [٣٢١٣، ٤١٢٣، ٦١٥٣] ، ومسلم [٢٤٨٦] .

(٥) هذا البيت من قصيدة لحسان بن ثابت يمدح فيها المصطفى ﷺ ، وذلك قبل فتح مكة، ويهجو أبا سفيان - وكان هجا النبى ﷺ قبل إسلامه - ومطلعها :

عفَتْ ذات الأصابع فالجِوَاءُ ... إلى عَذْرَاء منزلها خَلاءُ

وورد هذا البيت فى ديوانه :

وجبريل أمين الله فينا ... وروح القدس ليس له كِفَاءُ

[ديوان حسان بن ثابت :١٦]

إن موقف بنى إسرائيل من رسالة موسى، يتماثل مع موقفهم من رسالة محمد عليه الصلاة والسلام، لقد وقفوا مع موسى عليه السلام موقف التعنت وضيق الأفق والتلكؤ(١)، ومحاولة الابتعاد عن تطبيق منهج الله بكل السبل، وبحيل إطارها الغباء، وضيق الأفق، ومادية الرؤية، وعدم القدرة على استيعاب الحقائق التى أرادها الله؛ هداية للإنسان فى الكون، وبعد أن يقرر الحق الموقف المتعنت من بنى إسرائيل، يقول سبحانه: ﴿وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ﴾(٢) [البقرة: ٨٧] أى أنه أرسل لهم الرسل تباعا، بعضهم خلف بعض، أى أن الحق لم يرسل إليهم موسى عليه السلام فقط، ولكن أرسل إليهم أيضا رسلا وأنبياء؛ ولنا أن نعرف أن كثرة الأنبياء الذين بعثهم الله لبنى إسرائيل ليست شهادة لهم، ولكنها شهادة عليهم، إنهم يتفاخرون بغباء فى الاستدلال على أن الحق اختصهم بالكثرة من الأنبياء، وهم ينسون أن الحق لا يبعث الأنبياء ولا يرسل الرسل، إلا لإبراء البشرية من أدوائها، فكلما كثر الرسل والأنبياء إلى قوم، دل ذلك على أن تلك الأدواء متأصلة فيهم، بحيث لم يكف فيها طبيب واحد،

---

(١) تلكَّأ عليه : اعتل وأبطأ . وتلكَّأت عن الأمر تلكّؤًا : تباطأت عنه ، وتوقفت واعتللت عليه وامتنعت . [لسان العرب : ١/١٥٣، ١٥٤]

(٢) عن ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ يعنى التوراة جملة واحدة مفصَّلة محكمة ﴿وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ﴾ يعنى رسولاً يدعى اشمويل ابن بابل ، ورسولاً يدعى مشتانيل ، ورسولاً يدعى شعيا بن أمصيا ، ورسولاً يدعى حزقيل ، ورسولاً يدعى أرميا بن حلقيا وهو الخضر ، ورسولاً يدعى داود بن اشيا وهو أبو سليمان، ورسولاً يدعى المسيح عيسى ابن مريم ، فهؤلاء الرسل ابتعثهم الله، وانتخبهم للأمة بعد موسى بن عمران ، وأخذ عليهم ميثاقًا غليظًا أن يؤدوا إلى أممهم صفة محمد ﷺ وصفة أمته .

[الدر المنثور : ١/٢١٢]

وكان من رحمة الله وحكمته أن أرسل لهم هذه الكوكبة من الأنبياء؛ وذلك حتى يقطع عنهم الحجة بأن هناك فترة من غفلة .

إن الحق تبارك وتعالى أرسل إليهم من الأنبياء والرسل: يوشع، واشمويل، وشمعون، وداود، وسليمان، واشعيا، وارميا، وحزقيل، والياس، واليسع، وزكريا ويحيى، وعيسى ابن مريم ،عليهم السلام.

إنه موكب طويل من الرسل أُرسلوا إلى بنى إسرائيل من بعد موسى. وهكذا لا نجد فترة من الزمن من بعد موسى وحتى عيسى عليهم السلام قد خلت من رسول أو نبى ، وكما نعلم أن أى نبى لا يذهب إلى قومه متطوعا، إنما نبيا ومُرْسلاً من قبل الحق جل وعلا ، والفرق بين الرسول والنبى هو فرق فى الكلام العقدى، ومعنى ذلك هو أن النبى لا يأتى بتشريع جديد، ولكنه مرسل أيضا من قبل الحق؛ ليكون قدوة للناس، والرسول هو نبى أرسله الحق بتشريع للناس يوضح لهم سبل الهداية ومنهج الحق جل وعلا[1]، وفى ذلك يقول الحق جلا وعلا: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدُونِ (٢٥) وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ (٢٦) لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢٧) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إِلا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ (٢٨) وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّن دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٢٩)﴾ [2] [الأنبياء] .

---

(١) قال الشيخ الحكمى فى معنى الرسل : وهم كل من أُوحى إليه ، وأُمر بالتبليغ ، أمامن أُوحى إليه ولم يُؤمر بالتبليغ فهو نبى فقط، وليس برسول ، فكل رسول نبى ولاكل نبى رسول . [معارج القبول : ٢/ ٦٧٥، ٦٧٦]

(٢) قال صديق خان فى قوله تعالى : ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ﴾ أى من الملائكة على سبيل الفرض، لتحقق عصمتهم ﴿إِنِّي إِلَهٌ مِّن دُونِهِ﴾ قال المفسرون : عنى بهذا إبليس؛ =

إن الحق جل وعلا يخبر نبيه الكريم محمدًا عليه الصلاة والسلام، أنه لا يرسل رسولا إلا بالوحى إليه، أن يبلغ قومه بأن الخالق الأكرم هو وحده المستحق للعبادة (١)؛ ذلك أن بعضا من كفار العرب،

= لأنه لم يقل أحد من الملائكة إنى إله إلا إبليس ، وذلك على سبيل التسمح والتجوز إذ هو معترف بالعبودية وآيس من رحمة الله، وكونه من الملائكة باعتبار أنه كان مغمورًا فيهم، وقيل: الضمير للخلائق مطلقًا ، وقيل : الإشارة إلى جميع الأنبياء . ﴿ فَذَلِكَ ﴾ القائل على سبيل الفرض والتقدير ﴿ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ﴾ بسبب هذا القول الذى قاله ، كما نجزى غيره من المجرمين ﴿ كَذَلِكَ ﴾ أى مثل ذلك الجزاء الفظيع ﴿ نَجْزِى الظَّالِمِينَ ﴾ أو مثل ما جعلنا جزاء هذا القاتل جهنم فكذلك نجزى الظالمين الواضعين الإلهية والعبادة فى غير موضعها ، والمراد بالظالمين المشركون .
[فتح البيان : ٨/ ٣٢٠]

(١) قال الشيخ صالح بن إبراهيم البليهى : رسل الله الكرام عليهم من الله الصلاة والسلام ، كلهم جميعًا دعوا إلى توحيد الله، وإفراده بالعبودية .وقد ورد ما يدل على أن الأنبياء مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا، والرسل ثلاثمائة وبضعة عشر ، وكلهم دعوا إلى توحيد الله وإفراده بالعبادة :
قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ ﴾ [النحل: ٣٦] .
﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلا نُوحِى إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ .
فنوح عليه الصلاة والسلام . قال لقومه : ﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأعراف: ٥٩] .
وهود عليه الصلاة والسلام. قال لقومه: ﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ ﴾ [الأعراف: ٦٥] .
وصالح عليه الصلاة والسلام . قد قال لقومه : ﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [الأعراف: ٧٣] .
وشعيب عليه الصلاة والسلام قال: ﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴾ [هود: ٨٤]=

= وإبراهيم ﷺ قال: ﴿ أَفَتَعْبُدُونَ من دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلايَضُرُّكُمْ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ من دُونِ اللَّهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنبياء: ٦٧] وذو النون عليه الصلاة والسلام ينادى ربه قائلا: ﴿ أَن لا إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٧] ينادى ربه وهو فى أغرب مكان جوف الحوت ، فى قعر البحر .

يوسف عليه الصلاة والسلام قال: ﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٣٩) مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلا لِلَّهِ أَمَرَ أَلا تَعْبُدُوا إِلا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٤٠) ﴾ [يوسف].

وعيسى ﷺ قال: ﴿ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾[آل عمران] .

وموسى عليه السلام قال له قومه: ﴿ يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (١٣٨) إِنَّ هَؤُلاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٩) قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٤٠) ﴾ [الأعراف] .

ويعقوب عليه الصلاة والسلام أخبرنا الله عنه فى قوله جل شأنه: ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٣].

وبدر التمام ومسك الختام محمد عليه من ربه الصلاة والسلام . يصارح اليهود والنصارى بما أمره الله به: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلا اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٦٤] . ﴿ وَلا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الذاريات: ٥١] .

والله جل وعلا أخبرنا عن أصحاب الكهف ، أنهم قالوا : ﴿ هَؤُلاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ لا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولاً ﴾ [الإسراء: ٢٢].

والملائكة الكرام ملائكة الرحمن . يرون عبادة غير الله منكراً وزوراً . قال تعالى :=

وبعضا من بنى إسرائيل؛ قد زعموا أن الحق قد اتخذ ولدا، وزعموا أن الملائكة بناته، وتنزه الحق جل وعلا عن أن يكون له ولد، وتنزه الحق جل وعلا أن يكون الملائكة بنات له؛ بل الملائكة عباد مكرمون بالقرب من الله والعبادة له، ولا يسبقون الحق بقول إلا بعد أن يأذن لهم، وهم بأمره وحده يعملون، ولا يتعدون حدود ما يأمرهم به الحق جل وعلا (1)، يعلم كل أحوالهم وأعمالهم، وهم فى خشية دائمة من الحق وتعظيم دائم له، والرسل أيضا من البشر يصطفيهم الله، لا أحد فيهم يزعم أنه ابن الله، بل الرسل عباد مكرمون، يدعون إلى عبادة الحق ويبلغون أقوامهم رسالة الخالق الأكرم ومنهجه. إذن فكل من النبى والرسول مختار من قبل الحق. ومرسل من قبل الحق، النبى مرسل بالأسوة الحسنة والقدوة، وتطبيق المنهج الحق الذى جاء به الرسول من قبل ، والرسول مرسل من الحق لإبلاغ منهج حدده له الله تعالى.

- ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ .

[عقيدة المسلمين : ١/ ٢٤٨-٢٥١]

(1) عن قتادة رضى الله عنه قال : قالت اليهود : إن الله عز وجل صاهر الجن ، فكانت بينهم الملائكة، فقال الله تكذيبًا لهم : ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ أى الملائكة ليس كما قالوا ، بل هم عباد أكرمهم الله بعبادته ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ﴾ يثنى عليهم ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ﴾ قال: لا تشفع الملائكة يوم القيامة ﴿إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾ قال: لأهل التوحيد . [الدر المنثور : ٥/ ٦٢٤]

وقال القرطبى فى قوله تعالى : ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ﴾ نزلت فى خزاعة؛ حيث قالوا : الملائكة بنات الله، وكانوا يعبدونهم طمعًا فى شفاعتهم لهم .

[تفسير القرطبى : ١١/ ٢٨١]

* نبى الله يوشع عليه السلام[1] *

يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٦] .

لقد اجتمع الملأ من بنى إسرائيل وقالوا لنبى لهم: ابعث لنا ملكا نقاتل معه فى سبيل الله ، وكلمة ملأ : تعنى ازدحام الإناء بحيث لا يكون فيه

(١) هو يوشع بن نون بن أفرائيم بن يوسف بن يعقوب - وهو إسرائيل - بن إسحاق ابن إبراهيم خليل الله، عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام. ذكر ذلك الطبرى فى تاريخه [١/ ٣٦٤] ، وذكر أنه فتى موسى عليهما السلام .
وهو أحد الرجلين الذين ذُكرا فى سورة المائدة : ﴿قَالَ رَجُلانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ [المائدة: ٢٣] ، ذكر ذلك القرطبى فى الجامع لأحكام القرآن [٦/ ١٢٧] والطبرى فى تاريخه [١/ ٤٣٠] .
وهو الذى بعثه الله لبنى إسرائيل بعد موسى وهارون عليهم السلام . وهو الذى دخل ببنى إسرائيل قرية الجبارين - أريحا - لحرب من فيها، قيل: فى حياة موسى عليه السلام . وقيل: لم يسر يوشع إلى أريحا ولا أمر بالمسير إليها إلا بعد موت موسى بن عمران،حين أمرهم الله تعالى بقتال من فيها من الجبارين ، وقالوا : مات موسى وهارون جميعا فى التيه قبل خروجهما منه ، وكان بنو إسرائيل قد لبثوا فى تيههم أربعين سنة ، وناهض يوشع بمن بقى معه منهم مدينة الجبارين، فقاتلهم يوم جمعة قتالاً شديدًا حتى أمسوا وغربت الشمس، ودخل السبت دعا الله أن يرد عليه الشمس، فرُدت عليه، فزيد له فى النهار يومئذٍ ساعة فهزم الجبارين . =

مكان يتحمل زائدًا ، أى أن الظرف قد شغل بالمظروف شغلا لم يعد يتسع لسواه(١) ، وتطلق كلمة الملأ على أشراف القوم ووجوههم(٢) ،الذين يملكون إدارة الجماعة الكبيرة ولا يزاحمهم فى ذلك أحد .

إن أشراف هؤلاء القوم من بنى إسرائيل من بعد موسى قد اجتمعوا للتشاور، ثم ذهبوا إلى نبيهم يسألونه أن يعين لهم ملكا؛ يقاتلون تحت إمرته(٣).

هؤلاء القوم من بنى إسرائيل المجتمعين عند نبيهم، جاءوا بالعلة الموجبة للقتال ، لقد أُخرجوا من ديارهم، أى بلغ بهم الهوان أنه لم تعد لهم ديار، وبلغ بهم الهوان أن تركوا أبنائهم أسرى أو عبيدا ،لقد أخرجوا من أبنائهم وديارهم فماذا قال نبيهم لهم: ﴿ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُوا ﴾ إن نبيهم يعرِفُهم؛لذلك يحذرهم ويخشى إن كتب الله عليهم

= ومات عليه السلام وله من العمر ست وعشرون ومائة سنة . وتدبيره أمر بنى إسرائيل منذ توفى موسى إلى أن توفى يوشع عليهما السلام سبعًا وعشرين سنة .

راجع[تاريخ الطبرى :١/ ٤٣٥ وما بعدها]

(١) الملأ : الأشراف . ذكره الشوكانى، وأورد عن الزجاج قوله : سموا بذلك لأنهم مليئون بما يحتاج إليه منهم. [فتح القدير: ١/ ٢٦٤]

(٢) وُجُوه القوم : سادتهم ، واحدهم : وجه . وكذلك وَجهاؤهم ، واحدهم : وجيه . [لسان العرب : ١٣/ ٥٥٦]

(٣) قوله تعالى : ﴿لِنَبِيٍّ لَّهُمُ﴾ قيل يوشع بن نون ذكره قتادة عن عبد الرزاق . وذكر ابن كثير عن الطبرى أن هذا القول بعيد؛ لأن هذا كان بعد موسى عليه السلام بدهر طويل ، وكان ذلك فى زمان داود عليه السلام كما هو مصرح به فى القصة،وقد كان بين داود وموسى ماينيف عن ألف سنة.وقال وهب بن منبه:بأنه شمويل ابن بالى ابن علقمة . ويقال له : شمعون. وبه قال السهيلى فى[التعريف والإعلام بما أبهم فى القرآن من الأسماء والأعلام:ص ١٨]،وانظر [تفسير ابن كثير :١/ ٢٨٤].

القتال، قد يتولى الكثير منهم ولا يقاتلون ، فماذا كان جوابهم: ﴿قَالُوا وَمَا لَنَا أَلا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا﴾[1] ولنا أن نلحظ الدقة فى اللفظ القرآنى؛ لنتعلم سعة عطاء الله، لقد قالوا : ﴿نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وهم خلطوا هذا القتال فى سبيل الله بالأسباب الموجبة للقتال، وهى أنهم أخرجوا من ديارهم وتركوا أبناءهم، وهم إما أسرى فى أيدى الذين أخرجوهم ، وإما عبيد.

إذن . . فالمسئولية الكاملة تقع على هؤلاء القوم الذين أُخرجوا من الديار وتركوا الأبناء ،وعندما طلبوا الإذن من نبيهم بالقتال وأن يولى عليهم ملكا يقاتلون تحت رايته،تشكك النبى فى قدرتهم ،ومع ذلك أصروا فكُتب القتال عليهم .

ولنا أن نلحظ أن الحق سبحانه لم يقل من الذى طلب القتال ؛ذلك أنهم قد سألوه القتال فأصبحوا شركاء فى التعاقد حين كُتب عليهم القتال،لكن ماذا حدث ؟﴿تَوَلَّوْا إِلا قَلِيلاً مِّنْهُمْ﴾، أى أعرضوا عن القتال إلا نفرا قليلاً منهم ثبت على الأمر الذى طلبوه، وهو القتال فى سبيل الله.

ولماذا أراد الحق أن يورد لنا الأمر بهذه الدقة؟ لماذا قال عن هؤلاء القوم أنهم : ﴿تَوَلَّوْا إِلا قَلِيلاً﴾ ؟ لقد قص الله علينا خبر هذه القلة؛ لنعرف

---

(١) قال ابن جماعة فى قوله تعالى : ﴿وَقَدْ أُخْرِجْنَا﴾ أخرجهم العمالقة جالوت وقومه. [غرر التبيان: ٢١٨]

وقال الطبرى: كانوا قد وطئوا بلاد بنى إسرائيل وقتلوا رجالهم وسبوا ذراريهم ، وضربوا عليهم الجزية وأذلوهم ، وغلبوهم على التابوت الذى فيه السكينة والبقية مما ترك آل موسى وآل هارون ، وبه كان بنو إسرائيل ينصرون على عدوهم إذا لقوه . [تاريخ الطبرى :١/٤٦٧]

قيمة الثبات على التعاقد الإيمانى، إنه الاستثناء المطلوب للتنبيه؛ وذلك حتى يعلم المؤمن أنه حينما تنحسر الجمهرة عنه، فلا يقل: إنى قليل .. لماذا ؟ لأن المؤمن حينما يدخل قتالا فى سبيل الله، فإن له رصيداً ضخماً من القوة متمثلاً فى إيمانه بالإله القوى القادر، وذلك عكس عدوه الذى لا يملك أى رصيد من هذا الإيمان، فحتى هذا العدو لو كان كثير العدة والعدد فالمؤمن قادر بإيمانه بربه أن يهزمه بإذن الله، واقرأ قول الحق تعالى: ﴿ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

إن القلة المؤمنة التى تعرف أنها سوف تلقى الله، تؤمن أن النصر ليس بالقلة ولا بالكثرة، ولكن النصر من عند الله.

إذن.. فالشئ يكون واحدا، لكن النظرة إليه تختلف من إنسان لآخر على قدر الرصيد الإيمانى.

إنسان ما يرى وردة جميلة وغيره أيضا يراها جميلة.

إذن.. قدر رؤية جمال الوردة مشترك عند الجميع. لكن العمل النزوعى يختلف، فعندما يرى إنسان الوردة الجميلة فيقول إنها ليست لى، ويذهب ليحضر لنفسه «أصيصا» من نفس نوع الوردة، ويضع «الأصيص» فى بيته، ليستمتع بجمال الوردة، وقد يرى إنسان آخر نفس الوردة الجميلة فلا يبالى ملك من هى، فيقطفها ولا يبالى بأنه يعتدى على حاجة الغير.

إذن.. فالنوع يختلف من إنسان لآخر.

وهكذا الأمر فى المعارك .. فهناك من يرى العدو كثيرا ويرى نفسه ومن معه قليلا، وهناك من يحسب نفسه على أنه مع الله فلا ترهبه كثرة العدو أو عدده أو عدته.

قوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٤٦].

إذن.. فالتولى والإعراض ظلم للنفس، ومعنى الظلم أنك تنقل حقا لغير صاحبه، إنهم أخرجوا من ديارهم وظلوا على هذه الحال، فظلموا أنفسهم، وظلموا أولادهم، وظلموا مجتمعهم، وظلموا القضية العقدية.

وهؤلاء الذين تولوا هم الذين يقومون بالتخذيل[١] المستتر وقتل الروح المعنوية، والذين يطلق عليهم فى العصر الحديث: «الطابور الخامس»، الذين يثبطون الروح المعنوية، دون أن يراهم أحد، ولكن الله يعرفهم، وهو سبحانه عليم بهم.

لقد طلب هؤلاء القوم - من بنى إسرائيل- من نبيهم أن يبعث لهم ملكا، وكان يكفى النبى أن يختار لهم الملك؛ ليقاتلوا تحت رايته، لكنهم كعادتهم فى التلكؤ واللجاجة يريدون أن ينقلوا الأمر نقلة ليست من قضايا الدين[٢].. كيف؟.

(١) خذله وخَذّل عنه يخذله خَذْلاً وخِذْلانًا: ترك نصرته وعونه. والتخذيل: حمل الرجل على خذلان صاحبه وتثبيطه عن نصرته. [لسان العرب: ١١/٢٠٢]

(٢) يقول ابن كثير وهذا اعتراض منهم على نبيهم وتعنت، وكان الأولى بهم طاعة وقول معروف. [تفسير ابن كثير: ١/ ٢٨٥]

وفى موضع آخر فى قصة البقرة: أخبر تعالى عن تعنت بنى إسرائيل وكثرة سؤالهم لرسولهم؛ ولهذا لما ضيقوا على أنفسهم ضيق الله عليهم، ولو أنهم ذبحوا أى بقرة كانت لوقعت الموقع - يعنى أجزأت - عنهم، كما قال ابن عباس وعبيدة وغير واحد، ولكنهم شددوافشدد عليهم. أ هـ. [تفسير ابن كثير: ١/ ١٠٥]

وهذه هى عادة بنى إسرائيل فى كل أمورهم، يقول الله عز وجل وهو أعلم بقلوب عباده توبيخا لهم وتقريعا لهم على ما شاهدوه من آيات الله تعالى وإحيائه الموتى: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة: ٧٤].

يقول الحق سبحانه : ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٤٧] إنهم يريدون الوجاهة والحسب والأصل والمال ، إنهم يسألون النبى المرسل إليهم أن يسأل الله أن يبعث لهم ملكا ، فيقول لهم نبيهم :﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾(1) [البقرة: ٢٤٧] إن النبى المرسل يريد أن يطمئنهم إلى أن أمر اختيار هذا الملك ليس مصدره بشريته هو، إنما أمر الاختيار جاء من عند الله ، إن النبى المرسل إليهم ينحى بشريته عن هذا الأمر ، لكنهم يدخلون فى اللجاجة والتلكؤ؛ فيقولون: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ﴾.

لقد دخلوا فى مثل هذه اللجاجة؛ لأنهم قسموا أنفسهم إلى قسمين :

القسم الأول: هو نسل يأخذ النبوة، وهذا القسم الذى يأتى من نسل بنيامين .

والقسم الآخر : يأخذ الملوكية ، وهو الذى يأتى من نسل لاوى ابن يعقوب.

لما عرفوا أن الله قد بعث طالوت ملكا عليهم ، بدأوا فى النظر فى صحيفة نسبه، فلم يجدوه من نسل الملك أو نسل الأنبياء، فبدأوا فى

---

(1) قال الطبرى : اسم طالوت بالسريانية شاول بن قيس بن أبيال بن ضرار بن بحرت ابن أفيح بن أيش بن بنيامين بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم .

[تاريخ الطبرى : ١/ ٤٧٥]

وقال البغوى : كان دبَّاغا يعمل الأديم . وقيل: كان سقاء يسقى على حمار .

[معالم التنزيل : ١/ ٢٩٧]

اللجاجة والتلكؤ ومحاولة رد الأمر على الآمر، إذن فقد أخذوا المسألة على أن طالوت ملك جاء ليسيطر عليهم،رغم أن النبى أخبرهم أن طالوت جاء ليعمل لصالحهم، وليقودهم فى الحرب والمعركة . وهكذا يصبح اختيار طالوت أمراً يُحسب لهم وليس عليهم، لكنهم قلبوا أمر تعيين طالوت ملكا عليهم إلى مسألة أخرى ، لقد فهموا أنه مبعوث كملك ليسيطر عليهم ويستذلهم ، إنه التلكؤ وهو أمر طبيعى موروث فيهم ، وجعلوا من أسباب عدم رضاهم عن خبر تعيين طالوت كملك لهم، ماذكره الحق على لسانهم: ﴿ قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ .

وهذا يدل على أن طالوت لم يكن من الشخصيات المشار إليها بالثراء والجاه[1] ، ونحن نعرف أن من عادة أى جماعة من الجماعات حين تفكر فى اختيار من يقودها، فإن العين تختار شخصية من الشخصيات اللامعة فى الجماعة ثراء وجاها، وهذا الاعتراف من هؤلاء القوم، إنما يدلنا على أن طالوت كان من خيار القوم، وكأن الحق سبحانه وتعالى يعلمنا من هذا السياق القرآنى كيف نختار الإنسان المناسب للوضع المناسب ، إن الناس حينما يريدون اختيار إنسان ليقودهم من حال إلى حال، فعليهم أن يختاروا الشخص المناسب للمهمة لا أن يختاروا الرجل المناسب لهواهم؛ لذلك نجد هؤلاء القوم قد اعترضوا على اختيار طالوت ملكا لهم؛ لأنهم طلبوا الملك غطرسة وكبرياء،بينما طالوت وإن كان غير مشهور فى الناس،

---

(١) لم يكن طالوت من بيت الملك فيهم؛ لأن الملك كان فى سبط يهوذا، ولم يكن طالوت من هذا السبط .

[تفسير ابن كثير: ١/٣٢٣] ، وانظر [تاريخ الطبرى :١/ ٤٧١ ما بعدها]

فالذى بعثه ملكا هو الله ، وهو أدرى بمن يناسب الموقف ، وهذا يدلنا على أن الله يعلمنا أنه حين نريد الاختيار لرجل فى مهمة، فإياك أن يغريك حسب الرجل أو نسبه أو جاهه، ولكن اختر الرجل على قدر المهمة والرجل اللائق بها ،وكأن الحق يحسم هنا قضية أهل الثقة وأهل الخبرة.

إن الحق يعلمنا أن أهل الخبرة هم الذين يجب أن يكونوا أهل الثقة؛ لأن أهل الثقة قد تنقصهم الخبرة، فلا يصلون للمهمة بل يفسدونها. والقضية التى نحن بصددها الآن تثير سؤالا: ألستم أيها القوم تطلبون ملكا لكم؛ حتى يسوس أموركم أو يقودكم فى الحرب إلى النصر ؟ إن هذه المهمة تحتاج صفتين:

الصفة الأولى : أن يكون الرجل جسيما.

والصفة الثانية: أن يكون الرجل عليما . والذى اختاره الله ملكا لهؤلاء القوم، إنما كان يتمتع بالصفتين فى آن واحد ﴿ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ﴾ (١) [البقرة: ٢٤٧] ولنا أن نتأمل دقة القرآن الكريم،تلك الدقة المتناهية فى أداء الكلمة للمعنى وفى تصوير الموقف الذى أراد الحق إبلاغه للخلق، لقد قال النبى المرسل لهؤلاء القوم: ﴿ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ﴾ ، وكلمة ﴿ بَعَثَ ﴾ لا تجرح مشاعر هؤلاء

(١) قال القرطبى فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ ﴾ أى اختاره وهو الحجة القاطعة ، وبيّن لهم مع ذلك تعليل اصطفاء طالوت ، وهو بسطته فى العلم الذى هو مِلاك الإنسان، والجسم الذى هو معينه فى الحرب وعدّته عند اللقاء ؛ فتضمنت بيان صفة الإمام وأحوال الإمامة ، وأنها مستحقة بالعلم والدين والقوة لا بالنسب ، فلا حظٌ للنسب فيها مع العلم وفضائل النفس، وأنها متقدمة عليه ؛ لأن الله تعالى أخبر أنه اختاره عليهم لعلمه وقوته ، وإن كانوا أشرف منتسبا . [تفسير القرطبى : ٣/٢٤٦]

القوم، ولا تفيد أن طالوت أفضل من أى واحد منهم، لكن بعد أن ردوا بلجاج وغطرسة وقالوا: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ﴾ هذا هو قولهم وهو ناشىء عن عدم فهم لطبيعة المهمة التى أرسل لها طالوت ملكا ؛ لذلك كان الرد : ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾ .

إذن. . جاء القول الحكيم ليحدد مكانة طالوت بينهم ، لقد اصطفاه الله، واصطفاء الله لطالوت يعنى أنه لا يوجد بين هؤلاء القوم من يماثله للمهمة التى يجب أن يقوم بها، وكان يجب أن يتلقوا الأمر باصطفاء الله لطالوت على أنه ترجيح كامل ، لكن لم يقف الأمر عند الاصطفاء، بل زاد الله سبحانه طالوت بسطة فى العلم والجسم. إن الحق سبحانه وتعالى يورد الأسباب التى تسد ذرائع هؤلاء القوم ، لقد اصطفى الله طالوت ملكا لهم، وكان يكفى مجرد الاصطفاء من الله سببا فى أحقية طالوت بالملك. وأعطى الحق طالوت من المؤهلات ما ليس فيهم ، لقد زاد الله طالوت بسطة فى العلم والجسم .

ولنا أن نلاحظ مدى تلكؤ هؤلاء القوم ولجاجتهم ، لقد طلبوا هم أن يختار النبى المرسل إليهم ملكا ، ولم يشأ هذا النبى أن يختار بنفسه، بل صعَّد أمر الاختيار لهذا الملك إلى الله؛ حتى يكون اختيار هذا الملك منزها عن الهوى البشرى، وحتى يكون اختيار هذا الملك بمقاييس مناسبة، لكنهم كعادتهم فى المراوغة واللجاج ، نسوا إن الله ﴿يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ فالله سبحانه صاحب الأمر والنهى ، مالك الملك، يؤتيه من يشاء ، وينزعه ممن يشاء . ولله الحكمة البالغة فى ذلك، فهو سبحانه العليم بخلقه ، المحيط بهم لا يُسأل سبحانه عما يفعل ، فكان الواجب عليهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا.

* الآية الربانية لاختيار طالوت *

يريد نبيهم أن يكسر موجة عنادهم لاصطفاء اللهلطالوت ملكا، فيخبرهم بآية حسية تدل على اصطفاء الله لطالوت، وأنه الصالح لهذه المهمة ؛ مهمة الملك قال لهم : ﴿ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾(1) [البقرة: ٢٤٨] وما دام الحال قد وصل إلى العناد عند استقبال أمر طالوت ملكا، فإن الحق يأتى بالمعجزة التى تؤكد اختيار الله له ملكا، والمعجزة أن هناك آية لملك طالوت. لقد كان من المفترض أن يستقبل هؤلاء القوم نبأ اختيار طالوت بأدب ودون لجاج؛ لأن الذى يحمل لهم نبأ

---

(١) قوله ﴿التَّابُوتُ﴾ : هو صندوق من خشب الشمشار فيه صور الأنبياء . نقله البلنسى عن ابن عطية، وهو قول ابن عباس رضى الله عنهما . ووجود صور الأنبياء فيه يعنى قبل تحريمها فى شرعنا . انظر [زاد المسير ١/٢٥٨]

قوله ﴿سَكِينَةٌ﴾:هو تسكين قلوبهم. وقيل : روح من الله كان يتكلم فيما يختلفون فيه، وقيل : طست من ذهب كانت تغسل فيه قلوب الأنبياء، أعطاها الله موسى عليه السلام، فوضع فيها الألواح . وقيل غير ذلك، كما هو وارد فى كتب التفسير . انظر [تفسير ابن كثير:١/٣٢٣] ، [الدر المنثور :١/٣١٧] ، [زاد المسير : ١/ ٢٩٥] وغيرها .

قوله ﴿بَقِيَّةٌ﴾ : هى لوحان من التوراة ورضاض ما تكسر منها . وقيل: عصا موسى ونعلاه، وعصا هارون وعمامته .

أورد هذين القولين ابن الجوزى فى [زاد المسير : ١/٢٥٨، ٢٥٩]

الاختيار هو نبيهم الذى وثقوا به ولجأوا إليه، لكنهم لم يستقبلوا الأمر بأدب.

ورغم ذلك فأدب النبوة يرد على لجاجتهم بآية مرسلة من الحق سبحانه وتعالى، إنها الآية الربانية التى تدل على صلاحية طالوت للملك باختيار من الله، تلك الآية هى: ﴿إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ ونأخذ من هذا القول الحكيم ثلاث مسائل:

المسألة الأولى: إن التابوت كان غائبًا مفقودًا.

المسألة الثانية: إن التابوت كان أمره معروفا لكل هؤلاء القوم.

المسألة الثالثة: إنهم كانوا فى شغف للحصول على هذا التابوت.

فما هو التابوت ؟

إنه التابوت الذى جاء فيه قول الرحمن: ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ﴾ [طه: ٣٨، ٣٩].

فالتابوت الذى جاء آية لملك طالوت، هو التابوت الذى أوحى الله إلى أم موسى أن تضع فيه ابنها، وتلقيه فى اليم؛ ليلقيه اليم إلى الساحل، وهو الصندوق الذى كانت به التوراة.

وما الذى كان فى هذا التابوت ؟ يقول تعالى: ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ﴾.

وكيف يأتى ؟ يقول تعالى: ﴿تَحْمِلُهُ الْمَلائِكَةُ﴾.

إذن.. مادام التابوت يحمل تلك الآثار، وفيه السكينة لهؤلاء القوم بمايحمله من آثار آل موسى وآل هارون، ومادام هذا التابوت يأتى وتحمله

الملائكة، فلابد أن أمره جليل وله مساس بأمور العقيدة، إذن فهذا التابوت إنما جاء ذكره هنا؛ ليدلنا على أنه كان مفقودا من بنى إسرائيل، وكان افتقاده إما بسبب عدو قد غلبهم، وحاول اقتناص المقدسات التى كانت فى بلادهم، وإما أن هذا التابوت قد فُقد لتخاذلهم فى أمر العناية به، رغم ما به من مقدسات عقدية، إن الحق سبحانه يعيد إليهم التابوت تحمله الملائكة، إنه التابوت الذى يشعركم وجوده بالطمأنينة والسكينة فتستقر النفوس وتهدأ، إنه التابوت الذى توجد فيه بقية من آل موسى وآل هارون، إنه الذى يذكر بفضل الله على بنى إسرائيل إذ أرسل موسى نبيا مرسلا وهارون ليشدد أزر أخيه موسى، وكان لابد لهم أن يحافظوا عليه لكنهم لم يفعلوا .

وصورة مجئ التابوت تحرك المواجيد الدينية، وعندما يأتى التابوت محمولاً بواسطة الملائكة، نعرف أن التابوت قد جاء بصورة تنخلع لها القلوب، والتابوت يحمل آثارًا مما ترك آل موسى وآل هارون، فقد يكون بالتابوت بعض من صحف التوراة ، وقد يكون بالتابوت جزء من عصا موسى عليه السلام .

وتقبل هؤلاء القوم طالوت ملكا لهم، وبدأ يمارس المهمة التى جاء من أجلها. لقد جاء لينظم القوم ليخوضوا حربا ضد عدو أخرجهم من الديار وأسر الأبناء؛ لذلك كان لابد أن يفصل طالوت الجنود عن القوم .

وذلك قول الله تعالى :﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ ﴾(١) ماذا يعنى

---

(١) قال الشوكانى فى قوله تعالى: ﴿ فَصَلَ ﴾ معناه خرج بهم ، فَصَلْتُ الشيء فانفصل، أى: قطعته فانقطع . [فتح القدير : ١/ ٣٣٨، ٣٣٩]

وقوله ﴿ بِالْجُنُودِ ﴾ : هم سبعون ألفا ، قاله ابن عباس .

وقيل: كان الجيش ثمانين ألفا ، فشرب منه ستة وسبعون وتبقى معه أربعة آلاف .

[زاد المسير : ١/ ٢٦٠]=

الفصل ؟ إنه يعنى عزل شىء عن شىء آخر، ومثال ذلك قول الحق سبحانه: ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلا أَن تُفَنِّدُونِ ﴾ [يوسف: ٩٤].

وهذا يعنى أن الجمال التى كانت مع إخوة يوسف قد فصلت عن مصر وغادرتها، فقال يعقوب عليه السلام: إنى أشم رائحة يوسف.

والمقصود بقول الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ ﴾ هو خروج طالوت بالمجموعة المقاتلة التى فصلها عن بقية القوم، والموجودة بمكان إقامة الجيش.

ونحن نستخدم كلمة: «فصل» فى تبويب الكتب، ونقصد به قدرا من المعلومات المترابطة التى تكون وحدة واحدة، وعندما تنضم الفصول مع بعضها البعض فى الكتب تصير أبوابا، وعندما تنظم الأبواب الموضوعة فى مجال علم واحد مع بعضها نقول عنها كتاب. أيضًا نستخدم كلمة «فصل» فى وصف مجموعة من التلاميذ المتقاربين فى العمر والمستوى الدراسى، ونقسمهم إلى فصل أول وثان وثالث على حسب سنّ وعدد التلاميذ.

وهكذا نفهم معنى قول الحق: ﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ ﴾ أى: فصلهم عن غير المقاتلين وقسمهم إلى جماعات مرتبة، كل جماعة لها مهمة، وكلمة «جنود» هى جمع لكلمة «جندى»، وأصل كلمة: جَنَد هى الأرض الغليظة الصلبة القوية[1]، ونظرًا لأن الجنود لابد أن يكونوا أقوياء

= وعن البراء بن عازب قال: كنا نتحدث أن أصحاب بدر ثلاثمائة وبضعة عشر بعدّة أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر وما جاوز معه إلا مؤمن.

أخرجه البخارى [٣٩٥٩]

(١) الجُند: العسكر، والجمع: أجناد. والجَنَدَ: الأرض الغليظة. وقيل: هى حجارة تشبه الطين. [لسان العرب: ٣/ ١٣٢]

وأجسامهم ذات عضلات قوية وصلبة؛ لذلك أطلق لفظ الجند على الجنود. إننا نعرف أن الجندى حتى يصير مقاتلا يمر بعمليات من الفرز والإعداد والتدريب، حتى يصبح جنديا صالحًا للقتال، «والجند» هى مفرد جنود وتدل على جيش قوم. وهى مثل كلمة: «طائفة» ، فإنها مفردة لكنها تدل على جماعة .

بعد أن فصل طالوت بالجند، بدأ أول مباشرة لمهمته، فقرر ألا يدخل المعركة بدون تجربة القوم الذين اعترضوا على أمر تعيينه ملكا، إنه يريد أن يدخل على أرض صلبة، وبجند مستعدين للقتال الفعلى. وكأن الحق قد وضع لطالوت منهج الاختبار .

ذكر الله تعالى أن طالوت قال لجنوده: ﴿إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلا قَلِيلاً﴾(١) [البقرة: ٢٤٩] هذا هو الابتلاء، وساعة نسمع كلمة ابتلاء فلا يجب أن نفسرها على أنها بلاء بمصيبة؛ لأن الابتلاء هو الامتحان أوالاختبار ولا يخاف من الاختبار إلا من لم يستعد له (٢).

والابتلاء لا يخيف فى بدايته، ولكن يخيف فى نهايته من لم يستعد له

---

(١) قال البغوى فى قوله تعالى : ﴿بِنَهَرٍ﴾ قال ابن عباس والسدى : هو نهر فلسطين . وقال قتادة : نهر بين الأردن وفلسطين عذب . [معالم التنزيل : ١/ ٣٠١]
وقوله: ﴿إِلا قَلِيلاً﴾ هم ثلاثمائة وثلاثة عشر .لما روى عن النبى ﷺ أنه قال لأصحابه يوم بدر: « أنتم بعدة أصحاب طالوت يوم لقاء جالوت» .أخرجه البخارى من حديث البراء بن عازب [٣٩٥٩] .

(٢) ابتلاه الله : امتحنه ، والاسم : البلوى ، والبِلْوَة والبِلْية والبَلِيَّة والبلاء ، وبُلِى بالشىء بلاءً وابتُلِى ؛ والبلاء يكون فى الخير والشر، يُقال : ابتلَيته بلاءً حسنا وبُليه بلاءً سيئًا . [لسان العرب: ١٤/ ٨٤]

تماما؛ كالتلميذ الذى يمر بالامتحان، إن التلميذ الذى اجتهد لا يخاف من الامتحان، والتلميذ غير المجتهد هو الذى يخاف من الامتحان .

والابتلاء الذى أراده الله للجنود - التى تقاتل تحت راية طالوت الملك- كان يتلخص فى المرور على نهر ، من يشرب من هذا النهر لا يكون من جيش طالوت، ومن لا يشرب منه سيكون من الجيش المقاتل ، وقد أذن الله لهم أن يشرب الجندى بمقدار غُرفة من يد، ولنا أن نلحظ الدقة فى تصوير هذا الزمن، إنه يوحى فى النفس معانى كثيرة :﴿إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلا قَلِيلاً ﴾ إنه قول يوحى بمعانٍ جمة وعميقة، إنهم سوف يمرون بعد عطش على نهر، والمأمون على القتال هو من يمر على النهر وهو عطشان ؛ لأنه يلتزم أمر الله بعدم الشرب من النهر ، إنه إنسان يؤثر مطلوب الله على مطلوب بدنه ، لذلك هو مؤتمن على القتال، لم يقس الله فى الابتلاء، بل أذن سبحانه بما يهدئ الإحساس بالعطش، وهو أن يشرب الإنسان ملئ غُرفة من يده .

لقد سمح الله بقليل من الماء على قدر الضرورة ، فلماذا كان الابتلاء هكذا، وما صلة ذلك بالعملية الحربية المقبلين عليها ؟

إننا نعرف أن المقاتل أثناء العملية قد ينفد منه الزاد، وهو عرضة لأن يحاصر بواسطة العدو ،فإن امتلك المقاتل الشيء الضرورى الذى يسمح له بالحياة، واستطاع أن ينتصر على شهوته فهو قادر على الانتصار، وهو صالح للمهمة الحربية.

إذن. . فالاختبار الذى وضعه الله كان مناسبًا للمهمة التى هم مقبلون عليها؛ لذلك نجد منهم من شرب من الماء ونسى المهمة، ومنهم من خضع

لأمر الله ولم يشرب إلا بالقدر الذى سُمح به، ومنهم من لم يشرب .

لقد مروا على أكثر من نقطة اختبار :

أولا : بأن كتب الله عليهم القتال فتولوا إلا قليلا منهم.

ثانيا : بمسألة تعيين طالوت ملكا عليهم ،جادلوا واعترضوا حتى جاءهم التابوت دليلاً على أن طالوت قد تم اصطفاؤه ملكا لهم بأمر من الله .

ثالثا: باختبار المرور على نهر وهم عطشى، فلم يثبت إلا القليل منهم، وهم الصالحون للقتال.

إن التصفية المتكررة تتيح للمؤمن أن يعرف كيفية ميثاق الابتلاء؛ ليكون مستعدًا للجهاد فى سبيل الله،فلا مجاهد فى سبيل الله إلا المأمون على هذا الجهاد .

ونفهم من سياق النص القرآنى أن الذين جاوزوا النهر هم القلة التى لم تشرب منه، والقلة التى شربت مقدار غرفة من يد ، أما الذين شربوا كثيرا من ماء النهر فقد استبعدهم طالوت من الجيش المقاتل .

وتحين التصفية الأخيرة؛لقد جاوز طالوت النهر والذين آمنوا معه ويظهر لهؤلاء موقف جديد، لقد نجحوا فى أكثر من اختبار، لكن بعضهم عند الاختبار الأخير قال:﴿ **لا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ** ﴾[1] [البقرة: ٢٤٩] وقال البعض الآخر ﴿ **كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ** ﴾ [البقرة: ٢٤٩] .

---

(١) قوله تعالى: ﴿ قَالُوا لا طَاقَةَ لَنَا ﴾ :هم الذين شربوا وانحرفوا قبل القتال ولم يجاوزوا النهر. وقيل: جاوزوه ، الأول: عن ابن عباس ، والسدى . والثانى : عن قتادة . انظر [تفسير الطبرى : ٢/٦٢٣] ، و[زاد المسير لابن الجوزى : ١/٢٦١].

هكذا نعرف كيف تختلف المواجيد وإن اتَّحدت المواقف ، لقد انقسم الذين جاوزوا النهر مع طالوت إلى قسمين:

قسم رأى جالوت وجنوده فقالوا: ﴿لا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾

وقسم رأى جالوت وجنوده، ولكنهم يعرفون أنهم ملاقو الله فوثقوا فى أنفسهم وأقبلوا على القتال فى سبيل الله .

وهكذا نرى اختلاف الشعور عند الفريقين لحظة رؤية جيش الخصم وقوته .

إن إدراك ووجدان ونزوع القوم الذين خافوا عند رؤية الجيش المقاتل، يختلف عن إدراك ووجدان ونزوع القوم الذين لم يهابوا الجيش الخصم، رغم أنهم رأوه ، لقد اتحدت الرؤية واختلف النزوع باختلاف المواجيد .

إن الذين لم يخافوا هم الذين أدخلوا الله فى حسابهم، فعرفوا أن الله يساند القلة التى تحارب فى سبيله ، ويقدِّر لها أن تغلب الكثرة.

أما الذين خافوا فهم الذين عزلوا أنفسهم عن معية الله .إن مجرد الظن عند الفئة المؤمنة هو الذى جعل لهم العقيدة والثقة فى أن الله ينصر الفئة القليلة، فكيف إذا كان هذا الظن يقينًا؟

وقد يقول قائل : ولماذا قال الحق هنا: ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ ؟ ولنا أن نفهم هذا القول الحكيم على ضوء قول الحق سبحانه فى سياق قرآنى آخر: ﴿إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٢٢) وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢٣) إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلاثَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُنزَلِينَ (١٢٤) بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا

يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ (١٢٥)﴾ [آل عمران] لقد أعان الله المقاتلين فى سبيل الله يوم بدر(١) بثلاثة آلاف من الملائكة؛ ليقاتلوا مع المؤمنين، بل عندما يصبر المؤمنون ويثبتون ويثقون فى عون الله لهم ، فإن الله سبحانه يمدُّهم بخمسة آلاف من الملائكة ليقاتلوا معهم .

إذن . . فالمدد يأتى على قدر الصبر ، ونضرب لذلك مثلاً « ولله المثل الأعلى» بتاجر جملة كبير يجلس أمام الخان أو المخزن الكبير، ويراقب عملية نقل البضائع من عربات النقل إلى مخازنه، ورأى عاملا يحمل صندوقا ضخما ويكاد الصندوق أن يغلب قوة الرجل، فيقف التاجر الكبير من مجلسه بلا شعور ليساعد العامل ، فإذا كان ذلك يحدث بين الإنسان وأخيه الإنسان، فما بالك بعطاء الرحمن لعباده عندما يصبرون على مشقة الابتلاء؟إن الله يعين المؤمن حين يأخذ بالأسباب بثبات وصبر،هكذا يكون

---

(١) يقول ابن كثير رحمه الله عن يوم بدر : وكان يوم جمعة وافق ١٧ من شهر رمضان من سنة اثنين من الهجرة ، وهو يوم الفرقان الذى أعزَّ الله فيه الإسلام وأهله ، ودمغ فيه الشرك وخرب محله وحزبه، هذا مع قلة عدد المسلمين يومئذ، فإنهم كانوا ثلثمائة وثلاثة عشر رجلا ، فيهم فارسان وسبعون بعيرا، والباقون مشاة ليس معهم من العدد جميع ما يحتاجون إليه، وكان العدو يومئذ مابين التسعمائة إلى الألف، فى سوابغ الحديد والبيض والعدة الكاملة والخيول المسومة والحلى الزائد . فأعز الله رسوله ، وأظهر وحيه وتنزيله وبيَّض وجه النبى وقبيله ، وأخزى الشيطان وجيله . ولهذا قال تعالى ممتنًا على عباده المؤمنين وحزبه المتقين:﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾ أى قليل عددكم؛ لتعلموا أن النصر إنما هو من عند الله، لا بكثرة العَدَد والعُدَد ؛ ولهذا قال فى الآية الأخرى : ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا﴾ [التوبة: ٢٥] إلى قوله :﴿ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

وبدر محلة بين مكة والمدينة تعرف ببئرها، منسوبة إلى رجل حفرها يقال له: بدر ابن النارين. [تفسير ابن كثير :١/٣٧٨]

الحق مع الفئة القليلة التى تغلب الفئة الكثيرة ،وهكذا يكون الله مع الصابرين ، هذه هى الشحنة الإيمانية لمن يريد أن يواجه عدوه، وتتجلى هذه الشحنة الإيمانية فى لحظة مواجهة القلة المؤمنة مع طالوت، لجالوت وأعوانه.

يقول الحق سبحانه :﴿ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥٠] لقد طلبت القلة المؤمنة المقاتلة أن يُفرغ عليهم ربهم وخالقهم: الصبرَ، وأن يثبت أقدامهم فى القتال ؛ إنهم ينادون الرب القوى المتولى تربيتهم. وهنا يتضح لنا أن مطلوب الألوهية عبودية وتكليف، ومطلوب الربوبية عطاء يحد بالأسباب .

إنهم يطلبون من الله أن يملأهم بالصبر، ويكون أثر هذا الصبر واضحا فى الثبات أمام العدو، وغاية الصبر وتثبيت الأقدام أن يتحقق النصر على القوم الكافرين، وهذا بعض عطاء الله لمن يقاتل فى سبيله ﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾[البقرة:٢٥١] وتحقق أمر الله، وانتصر المؤمنون، وانهزم جيش طالوت وقُتل جالوت بيد داود .

وقول الحق: ﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ يدل على أنه كان هناك كر وفر ؛ والمحارب يناور دائما بين الكر والفر ، فإن كان فراره تحرفا لقتال؛ فمعنى ذلك أن الهزيمة لم تحدث،ولكن إن كان الفرار لغير كرة فهذه هى الهزيمة، إن قول الله: ﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ يدل على أن الكل لم يقتل ولكن قتل أئمة المشركين بدليل أن الحق يقول بعد ذلك: ﴿ وَقَتَلَ دَاوُدُ

جَالُوتَ﴾ لقد كان جالوت هو أس الكفر، وهذا يدل على أن الهزيمة معناها أن المقاتلين مع جالوت قد فروا إلى غير كر [1] .

---

(١) قال الشوكانى فى قوله تعالى : ﴿وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ﴾ هو داود بن إيشا . ويقال : داود بن زكريا بن بشوى من سبط يهوذا بن يعقوب جمع الله له بين النبوة والملك بعد أن كان راعيًا ، وكان أصغر إخوته ، اختاره طالوت لمقاتلة جالوت فقتله .

[فتح القدير : ١/ ٣٣٩ ، ٣٤٠]

وقال ابن كثير فى قوله تعالى : ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أى : غلبوهم وقهروهم بنصر الله لهم : ﴿وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ﴾ . وذكر فى الإسرائيليات أنه قتل بمقلاع كان فى يده رماه به ، فأصابه فقتله ، وكان طالوت قد وعده إن قتل جالوت أن يزوّجه ابنته، ويشاطره نعمته ، ويشركه فى أمره، فوفَّى له ، ثم آل الملك إلى داود عليه السلام مع ما منحه الله به من النبوة العظيمة . [تفسير ابن كثير : ١/ ٢٨٦]

* نبى الله إلياس عليه السلام *

قال الله تعالى بعد قصة موسى وهارون من سورة الصافات : ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلا تَتَّقُونَ (١٢٤) أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ (١٢٥) اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ (١٢٦) فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٢٧) إِلا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٢٨) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ (١٢٩) سَلامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ (١٣٠) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٣١) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١٣٢)﴾ [الصافات] .

قال علماء النسب هو : إلياس النشبى ، ويقال : ابن ياسين بن فنحاص بن العيزار ابن هارون . وقيل : إلياس بن العازر بن العيزار بن هارون بن عمران .

وقالوا : وكان إرساله إلى أهل بعلبك غربى دمشق ، فدعاهم إلى الله عز وجل ، وأن يتركوا عبادة صنم لهم كانوا يسمونه: «بعلا»، وقيل:كانت امرأة اسمها: « بعل» والله أعلم .

والأول أصح ولهذا قال لهم : ﴿ أَلا تَتَّقُونَ أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ ﴾ .

فكذبوه وخالفوه وأرادوا قتله . فيقال : إنه هرب منهم واختفى عنهم. قال أبويعقوب الأذرعى ، عن يزيد بن عبد الصمد ، عن هشام بن عمار قال : وسمعت من يذكر عن كعب الأحبار أنه قال : إن إلياس اختفى من ملك قومه فى الغار الذى تحت الدم عشر سنين ، حتى أهلك الله الملك وولى غيره ، فأتاه إلياس فعرض عليه الإسلام، وأسلم من قومه خلق عظيم غير عشرة آلاف منهم ، فأمر بهم فقتلوا عن آخرهم .

وقال ابن أبى الدنيا : حدثنى أبو محمد القاسم بن هاشم ، حدثنا عمر بن سعيد الدمشقى ،حدثنا سعيد بن عبد العزيز عن بعض مشيخة (١) دمشق قال : أقام إلياس عليه السلام هاربًا من قومه فى كهف جبل عشرين ليلة - أو قال:أربعين ليلة - تأتيه الغربان برزقه .

وقال محمد بن سعد كاتب الواقدى : أنبأنا هشام بن محمد بن السائب الكلبى ، عن أبيه قال : أول نبى بعث إدريس،ثم نوح ، ثم إبراهيم،ثم إسماعيل وإسحاق،=

---

(١) إسناده ضعيف : فيه جهالة شيوخ ابن عبد العزيز، أورده ابن عساكر فى تاريخه [٣/ ٩٨- تهذيب] بصيغة التضعيف ، فقال : وزعم بعضهم .

= ثم يعقوب ، ثم يوسف ، ثم لوط، ثم هود ، ثم صالح ، ثم شعيب ، ثم موسى وهارون ابنا عمران ، ثم إلياس النشبى بن العازر بن هارون بن عمران بن قاهث ابن لاوى بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام(١) ،هكذا قال .وفى هذا الترتيب نظر .

وقال مكحول عن كعب : أربعة أنبياء أحياء : اثنان فى الأرض: إلياس والخضر ، واثنان فى السماء : إدريس وعيسى عليهم السلام(٢) .

وروى أن إلياس والخضر يجتمعان فى كل عام فى شهر رمضان ببيت المقدس ، وأنهما يحجان كل سنة ويشربان من زمزم شربة تكفيهما إلى مثلها من العام المقبل. ولم يصح شىء من ذلك ، وأن الذى يقوم عليه الدليل : أن الخضر مات ، وكذلك إلياس عليهما السلام .

وما ذكره وهب بن منبه وغيره : أنه لما دعا ربه عز وجل أن يقبضه إليه لما كذبوه وآذوه فجاءته دابة لونها لون النار فركبها ، وجعل الله له ريشًا وألبسه النور ، وقطع عنه لذة المطعم والمشرب وصار ملكيًا بشريًا سماويًا أرضيا ، وأوصى إلى اليسع ابن أخطوب ، ففى هذا نظر وهو من الإسرائيليات التى لا تصدق ولا تكذب ، بل الظاهر أن صحتها بعيدة . . والله تعالى أعلم (٣).

فأما الحديث الذى رواه الحافظ أبو بكر البيهقى : عن أنس بن مالك قال : كنا مع رسول الله ﷺ فى سفر ، فنزلنا منزلاً فإذا رجل فى الوادى يقول : « اللهم اجعلنى من أمة محمد ﷺ المرحومة المغفورة المتاب لها. قال : فأشرفت على الوادى فإذا رجل طوله أكثر من ثلاثمائة ذراع ، فقال لى : من أنت ؟ فقلت : أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ ، قال : فأين هو ؟ قلت : هو ذا يسمع كلامك . قال : فأته فاقرئه منى السلام ، وقل له : أخوك إلياس يقرئك السلام . قال : فأتيت النبى ﷺ فأخبرته ، فجاء حتى لقيه فعانقه وسلم ، ثم قعدا يتحدثان ،فقال له : يا رسول =

(١) إسناده ضعيف جدًا : فى سنده الكلبى محمد بن السائب ، وهو من المتروكين ، وقد اتُّهم، وابنه فى عداد الضعفاء . انظر [تقريب التهذيب : ٨٤٧، ت : ٥٩٣٨].

(٢) ذكره السيوطى فى الدر المنثور [٥/٢٨٦] وعزاه إلى ابن عساكر ، ولا يصح كما فى تهذيب تاريخ دمشق [٣/١٠٢] كما أنه يخالف صريح القرآن لقوله تعالى : ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٤] .

(٣) تاريخ دمشق لابن عساكر [٥/ ٢٨٦] .

= الله، إنى ما آكل فى السنة إلا يومًا ، وهذا يوم فطرى فآكل أنا وأنت .
قال : فنزلت عليهما مائدة من السماء ، عليها خبز وحوت وكرفس ، فأكلا وأطعمانى وصلينا العصر ، ثم ودعه ورأيت مرة فى السحاب نحو السماء». فقد كفانا البيهقى أمره ، وقال: هذا حديث ضعيف بمرة (١).
والعجب أن الحاكم أبا عبد الله النيسابورى أخرجه فى مستدركه على الصحيحين ، وهذا مما يستدرك به على المستدرك ؛ فإنه حديث موضوع مخالف للأحاديث الصحاح من وجوه، ومعناه لا يصح أيضًا ؛ فقد تقدم فى الصحيحين(٢) أن رسول الله ﷺ قال : «إن الله خلق آدم طوله ستون ذراعًا فى السماء - إلى أن قال : - ثم لم يزل الخلق ينقص حتى الآن » .
وفيه أنه لم يأت رسول الله ﷺ حتى كان هو الذى ذهب إليه ، وهذا لا يصح ؛ لأنه كان أحق بالسعى إلى بين يدى خاتم الأنبياء ، وفيه أنه يأكل فى السنة مرة ، وقد تقدم عن وهب أنه سلب الله لذة المطعم والمشرب ، وفيما تقدم عن بعضهم : أنه يشرب من زمزم كل سنة شربة تكفيه إلى مثلها من الحول الآخر .
وهذه أشياء معارضة وكلها باطلة لا يصح شىء منها .
وقد ساق ابن عساكر هذا الحديث من طريق أخرى واعترف بضعفها، وهذا عجب منه، كيف تكلم عليه ؟ فإنه أورده من طريق حسين بن عرفة ،عن هانىء بن الحسن، عن بقية ، عن الأوزاعى ، عن مكحول ، عن واثلة بن الأسقع ، فذكر نحو هذا مطولاً ، وفيه أن ذلك كان فى غزوة تبوك ، وأنه بعث إليه رسول الله ﷺ أنس ابن مالك وحذيفة بن اليمان ، قالا : فإذا هو أعلى جسمًا منا بذراعين أو ثلاثة، واعتذر بعدم قدرته لئلا تنفر منه الإبل ، وفيه أنه لما اجتمع به رسول الله ﷺ أكلا من طعام الجنة ، وقال : إن لى فى كل أربعين يومًا أكلة ، وفى المائدة خبز ورمان وعنب وموز ورطب وبقل ، ما عدا الكراث ، وفيه أن رسول الله ﷺ سأله عن الخضر فقال : عهدى به عام أول . وقال لى: إنك ستلقاه قبلى فأقرئه منى السلام.=

(١) حديث موضوع : أخرجه ابن أبى الدنيا [١٠٢] فى هواتف الجان ، والحاكم فى المستدرك [٦١٧/٢]، وصححه ، فتعقبه الذهبى بقوله : هذا موضوع قبح الله من وضعه . وأخرجه ابن عساكر فى تاريخه- تهذيب- [٣/ ١٠١-١٠٢] وحكم ببطلانه ابن منظور، وأخرجه البيهقى فى الدلائل [٥/ ٤٢١- ٤٢٢] وضعّفه.
(٢) أخرجه البخارى [٣٣٢٦ ، ٦٢٢٧] ، ومسلم [٢٨٤١].

= وهذا يدل على الخضر وإلياس بتقدير وجودهما ، وصحة هذا الحديث لم يجتمعا به إلى سنة تسع من الهجرة ، وهذا لا يسوغ شرعًا ، وهذا موضوع أيضًا .

وقد أورد ابن عساكر طرقًا فيمن اجتمع بإلياس من العباد ، وكلها لا يفرح بها ؛ لضعف إسنادها ، أو لجهالة المسند إليه فيها ، ومن أحسنها ما رواه أبو بكر ابن أبي الدنيا : عن ثابت قال : كنا مع مصعب بن الزبير بسواد الكوفة ، فدخلت حائطًا أصلي فيه ركعتين فافتتحت: ﴿حمٓ ① تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ② غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ ﴾ [غافر] . فإذا رجل من خلفي على بغلة شهباء ، عليه مقطعات يمنية فقال لي : إذا قلت : ﴿ غَافِرِ الذَّنبِ ﴾ فقل: يا غافر الذنب اغفر لي ذنبي . وإذا قلت : ﴿ وَقَابِلِ التَّوْبِ ﴾ فقل: يا قابل التوب تقبل توبتي. وإذا قلت: ﴿ شَدِيدِ الْعِقَابِ ﴾ فقل: ياشديد العقاب لا تعاقبني ، وإذا قلت : ﴿ ذِي الطَّوْلِ ﴾ فقل : ياذا الطول تطول علي برحمة. فالتفتُّ فإذا لاأحد، وخرجت فسألت : مر بكم رجل على بغلة شهباء عليه مقطعات يمنية ؟ فقالوا : ما مر بنا أحد . فكانوا لا يرون إلا أنه إلياس (1) .

وقوله تعالى : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾ [الصافات : ١٢٧] أي للعذاب ، إما في الدنيا والآخرة ، أو في الآخرة. والأول أظهر على ما ذكره المفسرون والمؤرخون . وقوله : ﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ أي إلا من آمن منهم . وقوله : ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴾ أي : أبقينا بعده ذكرًا حسنًا له في العالمين ، فلا يذكر إلا بخير ، ولهذا قال : ﴿ سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ ﴾ أي : سلام على إلياس ، والعرب تلحق النون في أسماء كثيرة وتبدلها من غيرها كما قالوا : إسماعيل وإسماعين وإسرائيل وإسرائين ، وإلياس وإلياسين وقد قرىء :«سلام على آل ياسين»، أي على آل محمد، وقرأ ابن مسعود وغيره :«سلام على إدريسين»، ونقل عنه من طريق إسحاق عن عبيدة بن ربيعة عن ابن مسعود أنه قال : إلياس هو إدريس . وإليه ذهب الضحاك ابن مزاحم ، وحكاه قتادة ومحمد بن إسحاق والصحيح أنه غيره .

[قصص الأنبياء لابن كثير : ٥١٢-٥١٦]

---

(1) خبر ضعيف : أخرجه ابن عساكر [٣/ ١٠٣] عن الخطيب ، وفي سنده حماد بن واقد ضعَّفه ابن معين ، وقال البخاري : منكر الحديث ، وليَّنه أبو زرعة وغيره .

انظر ترجمته في [تهذيب الكمال : ١٤٩١]

* نبى الله حزقيل عليه السلام[1] *



يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٣] إنهم بعض من بنى إسرائيل دعاهم ملكهم إلى الجهاد ، وكانوا ألوفا فهربوا وخافوا من الموت، فأماتهم الله عدة أيام ثم أحياهم .

وقال بعض المفسرين : إنهم بعض من بنى إسرائيل، جاءهم نبأ وباء شديد الفتك بالناس، فهربوا وتركوا ديارهم حذر الموت، أو خوفاً من الموت، فأماتهم الله ثم أحياهم[2] .. لماذا ؟ لأن الحق أراد لهم أن يعرفوا أن أحدا لا يفر من قدر الله إلا لقدر الله؛ لذلك عمر بن الخطاب رضى الله

---

(١) هو حِزْقيل - بكسر الحاء - بن بوذى بن العجوز، وهو الذى أقامه الله على أمر بنى إسرائيل بعد كالب بن يوفنا الذى خلف يوشع بن نون، لا خلاف بين أهل العلم بأخبار الماضين وأمور الأمم السالفين فى ذلك. وهو الذى أصاب قومه الطاعون فـ ﴿خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾ .

انظر تاريخ الرسل والملوك للطبرى [١/٤٥٧] وما بعدها ، والمعارف لابن قتيبة [ص٥١]، وجامع البيان [٢/٥٨٦]. وغيرها.

(٢) روى ذلك ابن جرير عن السدى عن ابن عباس وابن مسعود وعن ناس من أصحاب النبى ﷺ . [تاريخ الرسل والملوك للطبرى :١/٤٥٨]

وأورد السيوطى فى[الدر المنثور :١/٣١١] القول الأول: أنهم فروا من جهاد فرض عليهم ، رواية عن ابن عباس.

=

عنه عندما أراد للناس أن تهرب من الطاعون، قالوا له : أنفرُّ من قدر الله؟ قال عمر : إنما نحن نفر من قدر الله إلى قدر الله (١) . إن ذلك يجعل

= وعن أسامة بن زيد أن رسول الله ﷺ قال: «الطاعون رجز أو عذاب أرسل على بنى إسرائيل ، أو على من قبلكم . فإذا سمعتم به بأرض ، فلا تقدموا عليه وإذا وقع بأرض وأنتم بها ، فلا تخرجوا فرارًا منه» .
أخرجه البخارى [٥٧٢٨]،ومسلم [٩٢/٢٢١٨] واللفظ له وأحمد فى المسند [١/ ١٨٢ ، ٥/ ٢١٣]
ولا يعنى هذا أنه لا يصاب به المسلم، إنما هو وباء على أنواع يجب الاحتراز منه، وصحّ عنه ﷺ: «الطاعون شهادة لكل مسلم». أخرجه البخارى [٢٨٢٩، ٥٧٣٢].

(١) عن ابن عباس ، أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه خرج إلى الشام حتى إذا كان بسَرْغ(١) لقيه أمراء الأجناد (٢): أبو عبيدة بن الجراح وأصحابه فأخبروه أن الوباء (٣) قد وقع بأرض الشام، قال ابن عباس: فقال عمر : ادع لى المهاجرين الأولين فدعاهم فاستشارهم وأخبرهم أن الوباء قد وقع بالشام فاختلفوا ، فقال بعضهم : قد خرجنا لأمر ولا نرى أن نرجع عنه . وقال بعضهم : معك بقية الناس وأصحاب رسول الله ﷺ ، ولا نرى أن تقدمهم على هذا الوباء ، فقال : ارتفعوا عنى ، ثم قال : ادع لى الأنصار فدعوتهم، فاستشارهم فسلكوا سبيل المهاجرين واختلفوا كاختلافهم ، فقال : ارتفعوا عنى . ثم قال : ادع لى من كان ههنا من مشيخة قريش من مهاجرة الفتح (٤) . فدعوتهم، فلم يختلف منهم عليه رجلان فقالوا : نرى أن ترجع بالناس ولا تقدمهم على هذا الوباء. فنادى عمر فى الناس :إنى مصبح على ظهر (٥) فأصبحوا عليه . فقال أبو عبيدة بن الجراح أفرارًا من قدر الله ؟ فقال عمر : لو غيرك قالها يا أبا عبيدة ، نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله،أرأيت لو كان لك إبل =

(١) هى قرية فى طرف الشام مما يلى الحجاز .
(٢) المراد بالأجناد : مدن الشام الخمس : وهى فلسطين ، والأردن ، ودمشق ، وحمص وقنسرين . وكان عمر بن الخطاب قسّم الشام أجنادًا ، وجعل على كل جند أميرًا .
(٣) الوباء الذى وقع بالشام فى زمن عمر كان طاعونًا ، وهو طاعون عمواس ، وهى قرية معروفة بالشام.
(٤) مشيخة قريش : جمع شيخ . ومهاجرة الفتح : أى الذين هاجروا إلى المدينة عام الفتح ؛ وأطلق عليهم ذلك احترازًا من مشيخة قريش ممن أقام بمكة ولم يهاجر أصلاً .
(٥) أى : مسافر راكب على ظهر الراحلة .

الإنسان فى تسليم مطلق بملء جوارحه لله، صحيح أن على الإنسان أن يحتاط، ولكن القدر الذى يريده الله سوف ينفذ ، والمؤمن يأخذ بالأسباب ويسلم أمره لله. وفى هذه الآية الكريمة: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُوفَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ﴾ الحق أراد أن يوضح لنا أن كثرتهم وهم ألوف إنما هى جمهرة، لكنهم غثاء كغثاء السيل ، فلم يكن بينهم ناصح لله ، ولا آمرٌ بمعروف وناهٍ عن منكر، لقد اجتمعوا على الضلال؛ لذلك ساروا إلى الضلال ولقد ذكر الحق أنهم كانوا ألوفاً ؛ ليبين لنا أنهم كثرة ، والحق جل جلاله حينما يلفت فى بعض الأشياء إلى القيود إنما يريد بها مغزى ، ويذكرها لسبب .

ونريد الآن أن نتعرف على موقف لغوى دقيق عند قول الحق فى كثير من الأشياء التى يريد بها : إبلاغنا بعلم ما ،يقول سبحانه مخاطبا رسوله ﷺ: ﴿أَلَمْ تَرِ﴾ ، وعندما يقول إنسان لإنسان: «ألم تر» فمعنى ذلك أنه يسأله،هل شاهد هذا الأمر بنفسه أم لا؟ لكن عندما يقول الحق سبحانه لرسوله ﷺ:﴿أَلَمْ تَرِ﴾ فالمقصود بها سماع لخبر قادم من عند الله،وأنه ساعة يخبرك الله بشىء سابق عن وجودك، أو بشىء متأخر عن وجودك فاستقبله استقبالك لما رأيته بالفعل.لماذا؟ لأن الله سبحانه وتعالى هو الذى

= هبطت واديا له عدوتان [1] إحداهما خصيبة والأخرى جدبة، أليس إن رعيت الخصيبة رعيتها بقدر الله وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله ؟ قال : فجاء عبد الرحمن ابن عوف وكان متغيبًا فى بعض حاجته فقال : إن عندى فى هذا علمًا ؛سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارًا منه » . قال : فحمد الله عمر ثم انصرف .
أخرجه البخارى [٥٧٢٩] ، ومسلم [٢٢١٩/٩٨].

(١) عدوتان: تثنية عدوة ، وهو المكان المرتفع من الوادى ، وهو شاطئه .

خلق الخلق وخلق لهم الحواس، ونحن نعلم أن الحواس هى وسائل الإدراك والعلم، فالرؤية بالعين، والسماع بالأذن، والذوق باللسان، والشم بالأنف، والمس باليد؛ كل هذه وسائل إدراك تعطى العقل المعلومات ، وهى إما معلومات حسية أو معنوية، فالجنين يبدأ فى الشهر الثالث تقريبًا فى تكوين حاسة الإبصار، ولايتم تركيز الإبصار إلا بعد الشهر السادس ، أما الإدراك والتمييز فلا يتم إلا بعد الميلاد بسنوات .

إذن. . فالحواس وسيلة لإدراك العلم . . وعندما نعلم بخبر قادم من عند الله فعلينا أن نشكر الله .وسيدة الحواس هى العين. وعلى المستوى الإنسانى عندما يحكى لك شخص عن تجربة ما مرت به، فإن إحساسك بروايته يختلف عن إحساسك لو مررت أنت بنفس التجربة .

فالمثل يقول : «ليس من رأى كمن سمع» ؛لذلك عندما يأتى القول من الإله الحق سبحانه وتعالى ويبلغ رسوله، فمعنى ذلك أن نستقبل قول الله وكأننا رأينا ما حدث بالفعل .

إن الحق سبحانه وتعالى لم يقل: ألم تسمع، أو: ألم نخبرك؛ لأن الحق حينما يخبرنا بشىء سابق عن وجودنا، أو بشىء متأخر عن وجودنا، فعلينا - نحن المؤمنين - أن نستقبل ما يخبرنا به الله سبحانه استقبال ما رأيناه بالفعل، وذلك كقوله سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ فالرسول ﷺ لم ير ما حدث لأصحاب الفيل؛ لأنه ﷺ لم يكن ولد بعد، ولكن مادام القائل هو الله ، فعلى المؤمن أن يأخذ قوله سبحانه مصدقًا مسلمًا ، به وكأنه رؤية عين .

إذن . . قول سبحانه وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى

النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ﴾ علة الخروج من الديار؛ إنما كانت مخافة أن يموتوا، ولم تتعرض الآية الكريمة إلى السبب الذى جعلهم يخافون الموت، وقد تعرض المفسرون لهذه الآية، وحاولوا أن يجدوا الأسباب التى دفعت هؤلاء القوم إلى الخروج من الديار هربا من الموت، وتكلم المفسرون كلاما طويلا منقولا من الإسرائيليات.. وكان المقصد من كلام المفسرين أن يجدوا لنا إجابة لهذا السؤال: لماذا كان فرار هؤلاء القوم من ديارهم ؟ الخوف من وباء قد حلّ ببلدهم فآثروا الفرار هربا من الموت، أم هو الخوف من عدو هجم عليهم ليستأصلهم؛ لذلك أرادوا أن يفروا خوفا من الموت على يد ذلك العدو؟ ولم يلتفت هؤلاء المفسرون إلى أن القرآن الكريم عالج هذا الأمر من الزاوية التى يريد الحق أن يبلغها إلى أمة الإسلام لأهميتها، وهى أن الخروج كان بسبب الخوف من الموت(1) ، هذه هى الزاوية التى أراد الحق أن يبرزها علاجا لهذه القضية، ولم يعط القرآن الكريم للخارجين من الديار ألوفا إلا سبباً واحداً وهو الحذر من الموت .

---

(1) أيا كان الأمر ، أهو فرار من الوباء أو من القتال فذلك لا يقرب أجلا ولا يبعده، وإن الحذر لا يغنى من القدر،كذلك الفرار من الجهاد . يقول الله تعالى : ﴿الَّذِينَ قَالُوا لإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٨] ويقول فى الآية قبلها : ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَا هُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١٥٤] . والآيات فى هذا المعنى كثيرة.

وقضية الخوف من الموت إنما هى آفة عصرنا وسبب تداعى الأمم علينا ،كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها ؛إذ أن أبناء هذا الجيل من المسلمين يعيشون مجرد دعوة للحياة، ولم يعد لهم من الطموحات ما كان لجيل الأوائل من الصحابة والتابعين الذين فتحوا الدنيا، وفتحت عليهم. لقد كان نصب أعينهم غاية وهدف واحد هو إعلاء كلمة=

ولم يحدد القرآن فى أى زمان كان هذا الخروج لعدم أهميته ؟ ولا على يد من كان هذا الخروج؟ ولم يحدد القرآن من هم الأشخاص الذين خرجوا. وعدم تحديد الحق للزمان أو المكان إنما هو لهدف. إن هذا التجاهل للزمان أو المكان إنما المقصود به أن تظل العبرة والعظة بيِّنة ومحددة فى أنهم خرجوا من الديار ألوفًا حذر الموت، فأماتهم الله ثم أحياهم، ولو أراد إيضاح الزمان المخصوص والمكان المخصوص والأشخاص المحددة لأوضحه.

فالحق سبحانه حين يبهم فى قصة قرآنية الزمان والمكان والأشخاص؛ إنما يريد عمومية الزمان وعمومية الأشخاص هى حياة فى كل زمان ، وحياة فى كل مكان، وحياة مع كل شخص، ولقد ضربت المثل بهؤلاء الذين يحاولون معرفة زمان أهل الكهف ومكان أهل الكهف وأسماء أهل الكهف .. بل إنهم أرهقوا أنفسهم بمحاولة معرفة اسم كلب أهل الكهف، وقلت لمن يفعلون ذلك: أنتم لا تثرون قصة أهل الكهف بمثل هذا اللون من البحث، إنما أنتم تضعفون القصة؛ لأن الحق سبحانه وتعالى لو أراد تحديد الزمان والمكان والأشخاص فلن يعجزه شيءٌ ، ولقد أراد الله الإبهام حتى لا يقول أحد: إن هذه الأحداث إنما هى أحداث لا يمكن أن تنطبق إلا على أهل الكهف، ولكن الحق أراد أن يبهم المكان والزمان والأشخاص ليعمم المسألة .

والحق سبحانه وتعالى فى سورة التحريم ضرب لنا أمثلة حدد فى بعضها ، وأبهم فى الأخرى، يقول تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا

= لا إله إلا الله، والحرص على نشر نورها فى جميع أرجاء المعمورة، وكانت وسيلتهم فى ذلك محددة : النصر أو الشهادة، فلما تخلوا عن ذلك دبَّ فيهم الضعف، والقاعدة أن الله يَنصر من ينصره. فهل من سميع وهل من مجيب؟!

﴿فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾ [التحريم: ١٠] لم يحدد الحق هنا اسم أى امرأة من هاتين المرأتين، بل ذكر فقط الأمر المهم وهو أن كلا منهما كانت زوجة لرسول كريم، ومع ذلك لم يستطع نوح عليه السلام أن يستلب العقيدة الكافرة من زوجته ، بل كانت كل من الزوجتين تتآمر ضد زوجها الرسول مع قومها؛ لذلك كان مصير كل منهما النار . ولنا أن نلحظ أن كلا من الرسولين لم يستطع هداية زوجته.

إذن . . فالعقيدة هى: حرية اختيار الإيمان أو اختيار الضلال . . هذا هو المَغْزَى الحكيم.

ويضرب الحق سبحانه مثلا مغايرا هو امرأة فرعون فيقول: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [التحريم: ١١]

لم يقل الحق اسم هذه المرأة الصالحة ، ولكنه أورد المسألة الهامة التى تخصنا من هذه المرأة ، وهى أنها زوجة من ادَّعى الألوهية، ومع ذلك لم يستطع أن يقنع امرأته بأنه إله.

ولكن الحق سبحانه وتعالى حين أراد أن يُشخِّص قال : ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَةَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾ [التحريم:١٢] لقد حدد الله فى هذا القول الكريم اسم «مريم» واسم أبيها والحدث الذى حدث لها؛ لأنه غير قابل للتكرار مع أى امرأة أخرى .

ونستخلص من ذلك ومما تقدم أن محاولة بعض المفسرين للبحث عن زمان ومكان خروج الألوف المؤلفة من بنى إسرائيل من ديارهم حذر الموت لا يحقق هدفهم منه. فهذا البحث رغم نُبْل مقصده إنما يتم بهدف إثراء

القصة ، لكنه فى الواقع ينقلب إلى إضعاف القصة؛ لأن الحق أراد أن يبهم الأمر؛ ليبين أن الخروج حذر الموت لا يمنع الموت فى أى زمان أو مكان. لقد خرجتم حذر الموت فما الذى حدث ؟ أماتهم الله ؛ كما فى قوله تعالى: ﴿ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ ﴾، لماذا ؟ ليبين الحق للناس أن أمر الحياة والموت بيده وحده سبحانه، سواء كان ذلك الخروج للحذر من الموت، أو خوفا من وباء، أو هربا من لقاء الأعداء. ولو كانت القصة على لون واحد محدد من الحذر كالخوف من العدو، فهل كانت تعطى اللون الآخر من الحذر وهو الخوف من الطاعون ؟ لا .

إذن.. فالإبهام هنا هو إثراء للقصة ، وحين يحدد الحق أنهم خرجوا ألوفا حذر الموت فإن كان خروجهم مخافة الأعداء، فهذه هى الخيبة والجبن على كثرة عددهم، وإن كان خروجهم ألوفا مؤلفة حذر الطاعون، فإن معنى ذلك أن أحدا فيهم لم يلتفت إلى البحث عن علاج لمرض خلقه الله، وخلق أيضا وسيلة الشفاء منه، ولم يوجد فيهم ناصح ينبههم أن الموت والحياة إنما هى أمور بيد الله وحده. وهكذا يكون الإبهام الموجود فى هذه الآية الكريمة تمام الإيضاح لقضية واحدة، هى أن الموت والحياة بيد الخالق وحده سبحانه وتعالى، وأن أى خروج من قدر الله إنما هو خروج لقدر آخر أراده الله .

ولكن لماذا قال: ﴿ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ ﴾؟إن الحق سبحانه وتعالى حين يأمر أمرا ما، فإن له طلاقة المشيئة أن يفعل ذلك الأمر بالمأمور به . وطلاقة قدرة الحق تختلف عن محدودية قدرة الخلق؛ فلو قال إنسان لإنسان آخر: «اذهب لتموت» ، فإن من يتلقى الأمر بالموت من إنسان مثله لا يستطيع تنفيذ هذا الأمر إلا بقتل نفسه؛ لأنه ليس من قدرة أحد إحداث الموت لنفسه إلا بالقتل، فالموت يأتى الإنسان من غير سبب منه ، والقتل غير الموت .

ويوضح الحق لنا الفرق بين القتل والموت حين يقول: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾[آل عمران:١٤٤]

ولقد جاءت هذه الآية فى مجال استخلاص العبر من هزيمة أحد حين شاع بين المسلمين أن رسول الله ﷺ قد قتل، ففكر بعض منهم فى الارتداد[١]، وجاء قول الحق سبحانه موضحا أن رسول الله هو نبى، سبقه رسل جاءوا بالمنهج، والأمة المسلمة التى أمَّنها الله على تمام المنهج يجب ألا يهتز الإيمان فيها بموت الرسول ؛ لأن من ينقلب ويرتد فلن يضر الله شيئا ، إنما الجزاء سيكون للشاكرين العارفين بفضل المنهج ، ولنا أن نعرف أن الحق سبحانه قد جاء بالموت كمقابل للقتل، وأوضح فى الآية التالية أمر الموت حين قال : ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلاً وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٥] .

---

(١) يقول ابن كثير : لما انهزم ما انهزم من المسلمين يوم أحد ، وقتل من قتل منهم، نادى الشيطان: ألا إن محمداً قد قتل. ورجع ابن قميئة إلى المشركين فقال لهم : قتلت محمداً؛ وإنما كان ضرب رسول الله فشجه فى رأسه، فوقع ذلك فى قلوب كثير من الناس، واعتقدوا أن رسول الله ﷺ قد قتل، وجوزوا عليه ذلك كما قد قص الله عن كثير من الأنبياء عليهم السلام. فحصل ضعف ووهن وتأخر عن القتال .
وروى البيهقى فى دلائل النبوة[١] قال: قال ابن أبى نجيح عن أبيه: أن رجلاً من المهاجرين مرَّ على رجل من الأنصار وهو يتشحط فى دمه فقال له: يا فلان أشعرت أن محمداً قد قتل. فقال الأنصارى: إن كان محمد قد قتل فقد بلغ، فقاتلوا عن دينكم، فنزل قوله تعالى : ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ الآية .
[تفسير ابن كثير : ٣٨٦، ٣٨٧]

---

(١) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة [٣/٢٤٨، ٢٤٩].

إذن . . فأمر الموت مرهون بمشيئة الله وطلاقة قدرته وتحديده لكل أجل بوقت معلوم، لا يتقدم ولا يتأخر وسيلقى كل إنسان نتيجة عمله، فمن عمل للدنيا فقط نال جزاءه فيها ، ومن عمل للآخرة فسيجزيه الله عن دنياه وآخرته؛ لذلك فحين يصدر الأمر من الحق بقوله : ﴿مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾ ،فلم يكن بإرادتهم أن يصنعوا موتهم أو أمر عودتهم إلى الحياة، لكنه أمرقهرى ؛ يموتون بطلاقة قدرته المتمثلة فى قوله:﴿كُن فَيَكُونُ ﴾ ويعودون للحياة بتمام طلاقة قدرته المتمثلة فى:﴿كُن فَيَكُونُ﴾،فليس لهم أمر فى مسألة الموت أو العودة للحياة ، إنه أمر قهرى، كما فى قول الحق:

﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١] . لقد شاء أن يخلق السماء على هيئة دخان فوجدت، وخلق السماوات والأرض على وفق إرادته، وهو هين عليه، بمنزلة ما يقال للشىء احضر راضيا أو كارها. .فيسمع الأمر ويطيعه. . هذه هى أمور تسخيرية قهرية من الخالق سبحانه، وليس لمخلوق فى السماوات والأرض وما بينهما إلا الامتثال لأمر الخالق عز وجل .

فعندما قال الحق سبحانه لهم:﴿ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ ﴾ فهذا أمر قهرى بالموت وبعودتهم إلى الحياة. .أليس الموت هوماخافوه وفروا منه، واحتاطوا بالهرب منه ؟ ولكن لا أحد يقدر على أن يحتاط من قدر الله.وقد يقول قائل: لماذا لم يتركهم الله ليموتوا إلى أن يأتى البعث يوم القيامة ليحاسبوا؟ نقول لمثل هذا القائل: لقد أراد الحق بالإحياء ثانية أن توجد العبرة والعظة، ولتظل ماثلة أمام أعين الخلق ومحفوظة فى أكرم كتاب حفظه الله منهجا للناس، وهو القرآن الكريم. إن الحق أراد بالأمر عظة واعتبارا وتجربة .يموتون بأمر ويعودون إلى الحياة بأمر آخر، ثم يعيشون الحياة

المقدرة لهم ويموتون بعد ذلك حتف أنفهم[1] . ولتظل العبرة ماثلة أمام كل مؤمن حقاً ، فلا يخاف أحد الموت فى سبيل الله .

لقد أراد الله بهذه التجربة أن يعلم المجاهدون فى سبيله أن القتال لايقدم أجلا ، ولا يؤخر أجل ، إنما أمر الموت والحياة بيد واهب الحياة.

وهاهو ذا قول خالد بن الوليد على فراش الموت باق ليعرفه كل مؤمن: «لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها وما فى جسدى شبر إلا وفيه ضربة سيف أو طعنة رمح، وها أنا ذا أموت على فراشى كما يموت البعير، فلانامت أعين الجبناء» [2] .

إذن . . أمر الحياة والموت ليس مرهونا بقتال أو غيره ، إنما محدود بمشيئة الله .

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لايَشْكُرُونَ﴾ إن الفضل أن تتلقى عطاء يزيد على حاجتك، والحق سبحانه وتعالى لايعطى الناس فقط على قدر حاجاتهم، إنما يعطيهم ما هو أكثر من حاجاتهم، بمعنى لومات هؤلاء القوم الذين خرجوا من ديارهم بوباء

---

(١) الحتف : الموت ، وجمعه : حتوف . وقول العرب : مات فلان حتف أنفه ، أى : بلا ضرب ولا قتل ، وقيل : إذا مات فجأة . قال أبو عبيد : هو أن يموت موتًا على فراشه ، من غير قتل ولا غرق ولا سبع ولا غيره . وقال ابن الأثير : هو أن يموت على فراشه ، كأنه سقط لأنفه فمات ، والحتف الهلاك .

[لسان العرب : ٩/ ٣٨]

(٢) قال ابن كثير :روى الواقدى عن عبد الرحمن بن أبى الزناد عن أبيه قال : لما حضرت خالدًا الوفاة بكى، ثم قال: لقد حضرت كذا وكذا زحفًا ، وما فى جسدى شبر إلا وفيه ضربة سيف ، أو طعنة برمح ، أو رمية بسهم ، وها أنا أموت على فراشى حتف أنفى كما يموت البعير ، فلا نامت أعين الجبناء .

[البداية والنهاية : ٧/ ١١٧]

أو بعدو ، لكان هذا الموت فضلا من عند الله؛ لأنهم لو ماتوا بالوباء لماتوا شهداء وهذا فضل من الله، ولو ماتوا فى لقاء عدو وحاربوا فى سبيل الله لنالوا الشهادة أيضا ،وذلك فضل من الله.

لماذا يكون مثل هذا اللون من الموت فضلا من الله ؟ لأننا جميعا سوف نموت، فإن مات الإنسان حائزًا على الشهادة فهذا عطاء زائد ، لكن أكثر الناس لا يشكرون؛ لأنهم لا يعلمون مدى النعمة فيما يجريه الحق سبحانه وتعالى عليهم من أمور . . لقد استبقى الحق سبحانه هذه العبرة بما أجراه على بعض من بنى إسرائيل؛ لنعلم أن القتال فى سبيل الله هو من نعم الله على العباد ، فلا مهرب من قضاء الله ، وها هو ذا الشاعر العربى يقول:

ألا أيها الزاجرى أحضر الوغى وأنا أشهد اللذات هل أنت مخلدى

فإن كنت لا تستطيع دفع منيتى فدعنى أبادرها بما ملكت يدى

إن الشاعر ليسأل من يوجه له الدعوة إلى الاستمتاع بملذات الحياة قائلا: ما دمت لا تملك لى خلودا فى هذه الحياة ولا أنت بقادر على رد الموت عنى، فدعنى أقاتل فى سبيل الله بما تملكه يدى .

* نبى الله اليسع عليه السلام *

ذكره الله تعالى من الأنبياء فى قوله : ﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام: ٨٦] .

وقال تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الأَخْيَارِ ﴾ [ص: ٤٨] .

ذكر ابن إسحاق عن الحسن قال : كان بعد إلياس اليسع عليهما السلام فمكث ما شاء الله أن يمكث يدعوهم إلى الله مستمسكا بمنهاج إلياس وشريعته حتى قبضة الله عزوجل إليه، ثم خلف فيهم الخلوف، وعظمت فيهم الأحداث والخطايا، وكثرت الجبابرة وقتلوا الأنبياء ، وكان فيهم ملك عنيد طاغ ، ويقال : إنه الذى تكفل له ذو الكفل إن هو تاب ورجع دخل الجنة، فسمى: ذا الكفل (١).

قال محمد بن إسحاق : هو اليسع بن أخطوب ، وقال ابن عساكر: هو الأسباط ابن عدى ابن شوتلم بن أفرائيم بن يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل. ويقال : هو ابن عم إلياس النبى عليهما السلام ، ويقال : كان مستخفيًا معه بجبل قاسيون من ملك بعلبك ثم ذهب معه إليها ، فلما رفع إلياس، خلّفه اليسع فى قومه ونبأه الله بعده (٢). [قصص الأنبياء لابن كثير : ٥٢١]

---

(١) إسناده ضعيف جدًا : أخرجه ابن إسحاق فى « المبدأ » عن إسحاق بن بشر ، فى كتابه : «المبتدأ » . وابن بشر من المتروكين ، وأُتهم بالكذب ، وفيه عنعنة قتادة وكانُ يُدلِّس .

(٢) إسناده موضوع : أخرجه ابن عساكر فى « تاريخه » ، وفى سنده عبد المنعم بن إدريس ، وهو متهم بالكذب .

* نبى الله شمويل عليه السلام *

هو شمويل ويقال: أشمويل بن بالى بن علقمة بن يرخام بن اليهو بن تهو بن صوف ابن علقمة بن ماحث بن عموصًا بن عزريا .

قال مقاتل : وهو من ورثة هارون . وقال مجاهد : هو أشمويل بن هلفاقا ولم يرفع فى نسبه أكثر من هذا . . الله اعلم .

حكى السدى بإسناده عن ابن عباس وابن مسعود وأناس من الصحابة والثعلبى وغيرهم : أنه لما غلبت العمالقة من أرض غزة وعسقلان على بنى إسرائيل وقتلوا منهم خلقًا كثيرًا وسبوا من أبنائهم جمعًا كثيرًا،وانقطعت النبوة من سبط لاوى ولم يبق فيهم إلا امرأة حبلى، فجعلت تدعو الله عزوجل أن يرزقها ولدًا ذكرًا ،فولدت غلامًا فسمته أشمويل ومعناه بالعبرانية إسماعيل أى سمع الله دعائى (١).

فلما ترعرع بعثته إلى المسجد وأسلمته عند رجل صالح فيه يكون عنده ليتعلم من خيره وعبادته فكان فلما بلغ أشده بينما هو ذات ليلة نائم إذا صوت يأتيه من ناحية المسجد فانتبه مذعورًا ، فظنه الشيخ يدعوه فسأله : أدعوتنى ؟ فكره أن يفزعه فقال : نعم نم . فنام .

ثم ناداه الثانية فكذلك ثم الثالثة فإذا جبريل يدعوه ، فجاءه فقال : إن ربك قد بعثك إلى قومك فكان من أمره معهم ما قص الله فى كتابه .

قال الله تعالى فى كتابه العزيز : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلا قَلِيلاً مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٢٤٦) وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٤٧) وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ =

(١) إسناده ضعيف : أخرجه الطبرى [١/ ٤٦٧] فى تاريخه، وفى تفسيره [٢/ ٣٧٥] ، وأخرجه ابن أبى حاتم كما فى الدر المنثور [١/ ٣١٥] . فى سنده اسباط بن نصر ، وهو كثير الخطأ يُغرب .انظر ترجمته فى [تقريب التهذيب : ٣٢٣]

= فيه سكينةٌ مّن رَّبِّكُمْ وبَقيَّةٌ مّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلائِكَةُ إنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٤٨) فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إلا قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩) وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٥٠) فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (٢٥١) ﴾ [البقرة].

قال أكثر المفسرين: كان نبى هؤلاء القوم المذكورين فى هذه القصة هو شمويل. وقيل: شمعون. وقيل: هما واحد. وقيل: يوشع. وهذا بعيد لما ذكره الإمام أبو جعفر ابن جرير فى تاريخه: أن بين موت يوشع وبعثة شمويل أربعمائة سنة وستين سنة. فالله أعلم. [قصص الأنبياء لابن كثير: ٥٢٣/ ٥٢٤]

* نبى الله داود عليه السلام (1) *



لقد كان داود أخا لعشرة من الأخوة هو أصغرهم. وقال النبى المرسل إليهم: إن الذى سوف يدخل المعركة لابد أن يكون درع موسى عليه السلام على مقاسه، وقد

(1) قال ابن قتيبة : داود بن إيشا، وكان سابع سبعة إخوة له، هو أصغرهم، وكان يرعى على أبيه، وكان فيه قصر وزرق وقرعٌ فى ناحيةٍ من رأسه، وكان تزوج ابنة طالوت، وكان شرط ذلك على طالوت إن قتل جالوت؛ فولدت له أبشالوم، وهو بكره، وهو الذى خرج على أبيه وأراد نزعه من الملك. ثم تزوج امرأة أوريا بن حنان بعد أن قتل فولدت له سليمان بن داود. [المعارف ص ٤٥ - ٤٦]

وقد ورد ذكره فى مواضع كثيرة من القرآن الكريم بلغت ستة عشر موضعاً .وهو الذى قتل جالوت من العماليق.وكان فى جيش طالوت.

وفضائله جمة ، وهو نبى مرسل آتاه الله الزبور، وزاده فضلا أن سبحت معه الجبال والطير، وألان له الحديد ،كما هو مذكور فى القرآن.

أخرج البخارى [٤٧١٣] عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : «خُفِّفَ على داود القراءة فكان يأمر بدابته لتسرج، فكان يقرأ قبل أن يفرغ » يعنى : القرآن.

وأخرج البخارى أيضاً [٣٤٢٠]عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما عن النبى ﷺ: «أحب الصيام إلى الله صيام داود ، كان يصوم يوماً ويفطر يوماً، وأحب الصلاة إلى الله صلاة داود كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه» .

وروى البخارى [٣٤٢١] عن مجاهد، قال: « قلت لابن عباس: أتسجد فى [ص]؟ فقرأ : ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ ﴾ [الأنعام: ٨٤] حتى أتى: ﴿ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾ فقال ابن عباس رضى الله عنهما : نبيكم ﷺ ممن أُمر أن يقتدى بهم».

وروى الطبرى بإسناده عن ابن عباس رضى الله عنهما: لما نزلت آية الدين قال رسول الله ﷺ : «إن أول من جحد آدم عليه السلام- ثلاث مرات- وإن الله تبارك وتعالى لما خلقه مسح ظهره، فأخرج منه ما هو ذارٌ إلى يوم القيامة، فجعل يعرضهم=

حاول كل واحد من إخوته أن يرتدى درع موسى عليه السلام، فلم يناسب الدرع إلا داود، ودخل داود المعركة ضد جالوت بهذه الدرع، فقتل داود جالوتَ ، لقد كانت هذه هى بداية فتح الحق سبحانه على داود، وآتاه الملك والحكمة، لقد أحب داود صناعة الدروع؛ لأنها كانت بداية فتح، فقال الحق فى عطائه لداود عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ⑩ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ⑪﴾ [سبأ] ، وهب الله داود عليه السلام فضل الحكمة والكتاب، وأمر الجبال بأن تردد التسبيح معه عليه السلام، وسخَّر له الطير، ووهبه الله القدرة على تشكيل الحديد كيفما شاء، يصنع منها دروعا ذات نسيج معين، تتيح لمن يرتديها الحماية وهو يقاتل ، وهى صنعة علمه الله تعالى إياها (١) .

= على آدم، فرأى فيهم رجلا يزهر، فقال : أى رب، أى نبى هذا؟ قال : هذا ابنك داود، قال: أى رب، كم عمره؟ قال : ستون سنة. قال: أى رب، زده فى عمره. قال: لا، إلا أن تزيده من عمرك، وكان عمر آدم ألف سنة، فوهب له من عمره أربعين عاماً، فكتب الله عليه بذلك كتاباً وأشهد عليه الملائكة ، فلما احتضر آدم أتته الملائكة لتقبض روحه، قال: إنه قد بقى من عمرى أربعون سنة. قالوا: إنك قد وهبتها لابنك داود. قال : ما فعلتُ ولا وهبتُ له شيئًا. فأنزل الله عليه الكتاب، وأقام عليه الملائكة شهوداً، فأكمل لآدم ألف سنة، وأكمل لداود مائة سنة». وإسناده حسن.

وروى عن سعيد بن جبير فى هذه الآية ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢] . . . فذكر معناه.

وأخرج النسائى بمعناه عن أبى هريرة فى كتاب اليوم والليلة [٨١/ ٩] .

(١) قال ابن كثير: يخبر تعالى عما أنعم به على عبده ورسوله داود عليه الصلاة والسلام، مما آتاه من الفضل المبين وجمع له بين النبوة والملك المتمكن ، والجنود ذوى العَدد والعُدد ، وما أعطاه ومنحه من الصوت العظيم ، الذى كان إذا سبَّح به تسبَّح معه الجبال الراسيات ، الصم الشامخات ، وتقف له الطيور السارحات ، والغاديات والرائحات ، وتجاوبه بأنواع اللغات. وفى الصحيح أن رسول الله ﷺ سمع صوت=

= أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه يقرأ من الليل ، فوقف فاستمع لقراءته، ثم قال صلى الله تعالى عليه وآله وسلم : « لقد أوتى هذا مزمارًا من مزامير آل داود »(1) .

وقال أبو عثمان النهدى : ما سمعت صوت صنج ولا بربط ولا وتر أحسن من صوت أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه .

ومعنى قوله تعالى : ﴿أَوِّبِي﴾ أى سبِّحى ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وغير واحد ، وزعم أبو ميسرة أنه بمعنى سبحى بلسان الحبشة، وفى هذا نظر ؛ فإن التأويب فى اللغة هو الترجيع ، فأمرت الجبال والطير أن ترجع معه بأصواتها . وقال أبوالقاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجى فى كتابه - الجمل -فى باب النداء منه: ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ﴾ :أى سيرى معه بالنهار كله ، والتأويب سير النهار كله ، والسرى سير الليل كله . وهذا لفظه، وهو غريب جدًا ، لم أره لغيره وإن كان له مشاهدة من حيث اللفظ فى اللغة ، لكنه بعيد فى معنى الآية هاهنا .

والصواب أن المعنى فى قوله تعالى: ﴿أَوِّبِي مَعَهُ﴾ أى رجِّعى معه مسبحة،كما تقدم والله أعلم .

وقوله تعالى: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ ؛قال الحسن البصرى وقتادة والأعمش وغيرهم : كان لا يحتاج أن يدخله نارًا ولا يضربه بمطرقة ، بل كان يفتله بيده مثل الخيوط ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ﴾ وهى الدروع . قال قتادة : وهو أول من عملها من الخلق ، وإنما كانت قبل ذلك صفائح . وقال ابن أبى حاتم: حدثنا على ابن الحسين،حدثنا ابن سماعة، حدثنا ابن ضمرة عن ابن شوذب قال : كان داود عليه السلام يرفع فى كل يوم درعًا ، فيبيعها بستة آلاف درهم ، ألفين له ولآله ، وأربعة آلاف درهم يطعم بها بنى إسرائيل خبز الحوارى .﴿وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ﴾ ؛ هذا إرشاد من الله تعالى لنبيه داود عليه السلام فى تعليمه صنعة الدروع . قال مجاهد فى قوله تعالى:﴿وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ﴾ ؛لا تدق المسمار فيقلقل فى الحلقة،ولا تغلظه فيقصمها، واجعله بقدَر . وقال الحكم بن عيينة : لا تغلظه فيقصم ولا تدقه فيقلقل،وهكذا روى عن قتادة وغير واحد.وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس:السرد هو الحلق=

(1) أخرجه البخارى [٥٠٤٨] عن أبى موسى الأشعرى أن النبى ﷺ قال له : « يا أبا موسى لقد أوتيت مزمارًا من مزامير داود » . وأخرجه مسلم [٧٩٣ / ٢٣٦].

قال تعالى : ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٨٠] ؛ لقد أفاض الله على داود عليه السلام فى تصنيع نسيج الدروع من الحديد المشغول ؛ حتى يرتديه المقاتلون فيحميهم أثناء القتال.

= الحديد ، وقال بعضهم : يقال: درع مسرودة إذا كانت مسمورة؛ الحلق ، واستشهد بقول الشاعر :

وعليهما مسرودتان مضاهما ... داود أو صنع السوابغ تبع

وقوله تعالى: ﴿وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾؛ أى: فى الذى أعطاكم الله تعالى من النعم. ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ ، أى: مراقب لكم بصير بأعمالكم وأقوالكم ، لا يخفى على من ذلك شىء . [تفسير ابن كثير : ٣/٥٠٥، ٥٠٦]

* تسخير الجبال والطير وتسبيحها مع داود *

ثم يقول تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾[1] [الأنبياء: ٧٩] ؛ والتسخير هو قهر المسخَّر على فعل لا يستطيع أن ينفك عنه، فهو مقهور على هذا الشيء وليس مختاراً فيه[2].

وإذا كانت الطيور لها أصوات يمكن أن تسبح بها ،فكيف تسبح الجمادات كالجبال وغيرها؟ العلماء حينما يستقبلون هذه الآية يأخذونها بظواهر التكليف، وليس بعقل ولب الأشياء، فقالوا : هو لا يرى الجبال والجمادات تتكلم، بينما يرى الطير لها أصوات تعبر بها عن مراداتها، ولكن لا يسمعها تتكلم .

ونحن نقول: وما هو العجب فى ذلك ؟ إن العجب يزول حينما نجرى مسحًا للكرة الأرضية فمثلاً أجناس البشر على اختلافهم فيهم أشياء تختلف

---

(١) قال الطبرى: أنزل الله عليه الزبور وعلمه صنعه الحديد وألانه له، وأمر الطير والجبال أن يسبحن معه إذا سبح، ولم يُعطِ الله - فيما يذكرون - أحداً من خلقه مثل صوته، كان إذا قرأ الزبور ترنو له الوحوش حتى يؤخذ بأعناقها.

[تاريخ الطبرى : ١/٣٣٨]

(٢) السُّخْرة .: ما تسخَّرت من دابة أو خادم بلا أجر ولا ثمن . ويقال : سَخَرتُه : بمعنى سَخَّرتُه ، أى : قهرتُه وذَلَّلتُه. وسخَّره تسخيرًا : كلَّفه عملاً بلا أجرة ، وكذلك تَسَخَّره . وسَخَّره يُسَخِّره سِخْرِيًا وسُخْرِيًا وسَخَرَه : كلفه ما لا يريد وقهره . وكل مقهور مُدَبَّر لا يملك لنفسه ما يخلصه من القهر ، فذلك مسخَّر .

[لسان العرب : ٤/٣٥٣]

فى السمات، والأشكال، والألوان، حسب البيئات التى يعيشون فيها، لكن الغرائز يشترك فيها الجميع، فمثلا الجوع غريزة مشتركة بين كل البشر، والعطش كذلك، والخوف والعواطف والضحك والبكاء، كلها غرائز مشتركة ومع ذلك هناك أشياء كثيرة فيها خلاف، وأولها سماتنا وألواننا، هذا أبيض، وهذا أسود، وهذا خمرى، وهذا قصير، وهذا طويل، وهذا عيناه لهما لون يختلف عن هذا ، وهذا أنفه طويل وهذا أنفه أفطس، وقمة الأشياء التى نختلف فيها هى الكلام واللغة، فأصوات الحروف نتفق فيها، لكن معانى الأشياء هى التى نختلف فيها . وهناك حناجر يصعب عليها أن تنطق بعض الحروف؛ لعدم تعودهم عليها، فبعض العرب لايستطيع أن ينطق الضاد، كذلك حرف العين والغين يصعب على كثير من الأجانب النطق بها؛ لعدم تعودهم عليها، وحتى عندما يحاولون تعلم لغتنا، تظل لكنتهم[1] كما هى. فكل إنسان لا يفهم لغة إنسان غيره إلا إذا درسها، فلا يمكن أن تفهم الإنجليزى، أو الفرنسى، أو الروسى، أو الإيطالى، إلا إذا تعلمت لغته.

فإذا كان الإنسان الذى مثلك لاتفهم لغته إلا إذا تعلمتها، فلابد للحيوان من لغة، وللطير أيضا، وكذلك لا تفهمها، والجماد أيضا له لغة، ولكنك لا تفهمها .

إذن. . اللغة بنت المحاكاة، فالذى تسمعه الأذن يحكيه اللسان، ولذلك فالإنسان قبل أن يكون أبكم لا يتكلم، لابد أن يكون عنده صمم، فهو لم يسمع شيئا حتى يحكيه، لكن إذا كان الصمم حدث له بعد أن سمع كلام من حوله يظل يتحدث به. إذن. . لا تستغرب أن توجد مع ناس لهم

---

(١) اللُّكنة: عُجْمة فى اللسان وعِيّ . يقال : رجل ألْكن بيِّن اللَّكنَ . ابن سيده : الألْكَن الذى لا يُقيم العربية من عُجْمة فى لسانه . [لسان العرب : ١٣/ ٣٩٠]

أصوات ولهم كلام، ولكنك لا تفهمه. وإذا جئنا بطفل إنجليزى وربيناه فى بيئة عربية فإنه يتكلم العربية، والعكس صحيح، فاللغة بنت المحاكاة، فما تسمعه الأذن يحكيه اللسان، فأنت إنسان تعلمت لغة قوم آخرين وصرت تتحدث معهم وتفهمهم كأنك واحد منهم .

كذلك يمكن للإنسان أن يتعلم- بإذن الله-لغة الطير، أو الحيوان، بدليل أن الله تعالى أخبرنا أنه علَّم سليمان منطق الطير قال تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ [النمل: ١٦] ، ومن الممكن أن يمن الله على أحد من خلقه ويعلمه منطق الجماد ، فلماذا تستبعد ذلك؟!

وكان الهدهد يتكلم مع سليمان ويفهم كلامه ، ليس هذا فقط بل إن القرآن أخبرنا أن الهدهد كان يفهم قضية التوحيد وعبادة الله وحده؛ لذلك استغرب حينما رأى بلقيس وقومها يسجدون للشمس من دون الله، وذهب إلى سليمان وأخبره بذلك. كذلك النمل خاطبه سيدنا سليمان وأفهمه الله لغته، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ .

فالنمل أيضا أمة مثل البشر لها نظام ووظائف، وكل فرد منها يؤدى عمله، والنملة التى كانت تقوم بمهمة الحراسة كانت دقيقة فى تعبيرها، فحذرت بقية النمل وأمرتهم أن يدخلوا مساكنهم؛ حتى لا يصيبهم أذى أويتحطموا تحت أقدام سليمان وجنوده دون أن يشعروا ؛ لصغر أجسامهم، فنبهت النمل إلى أن سليمان وجنوده من الممكن أن يحطموهم دون أن يشعروا بهم؛ فعليهم أن يدخلوا مساكنهم طلبا للأمان، فسمع سليمان عليه السلام كلامها وفهمها وتبسم ضاحكا من قولها ، وطلب من ربه أن يوفقه فى شكر نعمته، وما أعطاه من علم .

بعض العلماء حينما سمعوا لقول الله تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَالْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ﴾، قالوا: إن المقصود هنا ليس التسبيح الحقيقى، ولكنه تسبيح دلالة أى أنها بحالها تدل على الخالق، فكأنهم فهموا تسبيح هذه المخلوقات مع أن الله الذى خلقنا قال: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]، وهذا يفيد أن هذه الأشياء كلها تسبح لله، ولكن نحن لا نفهم لغتها التى تسبح بها .

إذن. . ربنا سبحانه وتعالى أعطى لداود مزية أن الجبال تسبِّح معه . ومع ذلك فالجبال لا تسبِّح مع داود وحده، ولكنها تسبِّح مع غيره أيضا، ولكن الميزة أن داود كان تسبيحه يوافق تسبيحها، فإذا قال: سبحان الله؛ قالت الجبال معه: سبحان الله، فهذه المخلوقات لها لغتها الخاصة بها، ولكن نحن لا نفهمها، فهى تسبح لله بلغتها ، والدليل على ذلك أن طموحات العلم البشرى وصلت إلى حد أن العلماء يضعون الآن قاموسا للغة الأسماك، وليس من المستبعد أن يتوصلوا فى المستقبل إلى معرفة لغة الأحجار . ولكن نحن لا ننتظر حتى يثبت لنا العلم أن هذه المخلوقات لها لغة خاصة تسبح الله بها؛ لأن ربنا هو الذى أخبرنا بهذا. وأنت إذا ذهبت إلى محاجر الرخام ومناجمه فى إيطاليا مثلا ، تجد أن هذه الأحجار طبقات، كل طبقة لها لون ولها عمر، فهذا حجر عمره خمسمائة عام، وهذا عمره ألف عام وهكذا . وهذه الأحجار يتغير لونها مع طول المدة، وتكتسب خصائص معينة، فالرخام منه - مثلا- درجة أولى وثانية وثالثة، ومنه المرمل وغير ذلك . . وطالما أن الشىء يتغير لونه يكتسب خواص جديدة بمرور الزمن، فهذا دليل على حياته .

ولذلك الناس يقولون: إن من معجزات النبى ﷺ أن الحصى سبح فى يده . ونحن نقول لهم: هذه العبارة غير دقيقة؛ لأن الحصى يسبح حتى

فى يد الكافر . فقولوا: إن رسول الله سُمع تسبيح الحصى فى يده (١) .

إذن . . كل شىء له حياة لابد أن يكون له كلام؛ لأن الكلام فرع وجود الحياة ، ولكل شىء فى الوجود حياة . . فعلبة الكبريت التى لا تأبه لها، فيها طاقات متفاعلة بين ذراتها تصلح لأن تدير قطاراً حول العالم . إذن . . فالعجائب فى لكون أكثر من أن تُحصى، ولكن لا يمكن أن ندركها بعقولنا المحدودة .

كما إن فى بعض الآيات إشارات، يمر عليها العقل التكليفى بتسليم أوبفهم صحيح، ولكن يجد بعد ذلك فهما لايناقض الأول، ولكن يربيه ويزوده ويعطيه معنى أعلى يقوى اليقين ويعضده. فإذا قرأنا قول الله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨]؛ عرفنا أن كل شىء سيهلك ويموت، لابد أنه كان حيا قبل موته، فهذه الجمادات فيها حياة ولها لغة ولكن لا نفهمها نحن، ولذلك يقول ربنا سبحانه وتعالى: ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ﴾ [الرعد: ١٣]، ويقول تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ

---

(١) عن أبى ذر قال : لا أذكر عثمان إلا بخير بعد شىء رأيته ، كنت رجلاً أتتبع خلوات رسول الله ﷺ فرأيته يومًا جالسًا وحده ، فاغتنمت خلوته فجئت حتى جلست إليه، فجاء أبو بكر فسلم ثم جلس عن يمين رسول الله ﷺ ، ثم جاء عمر فسلم فجلس عن يمين أبى بكر ، ثم جاء عثمان فسلم ثم جلس عن يمين عمر ، وبين يدى رسول الله ﷺ سبع حصيات -أو قال: تسع حصيات - فأخذهن فوضعهن فى كفه، فسبحن حتى سمعت لهن حنينًا كحنين النحل ، ثم وضعهن فخرسن ، ثم أخذهن فوضعهن فى يد أبى بكر ، فسبحن حتى سمعت لهن حنينًا كحنين النحل ، ثم وضعهن فخرسْن ، ثم تناولهن فوضعهن فى يد عمر، فسبحن حتى سمعت لهن حنينا كحنين النحل ، ثم وضعهن فخرسن ، ثم تناولهن فوضعهن فى يد عثمان ، فسبحن حتى سمعت لهن حنينًا كحنين النحل ثم وضعهن فخرسن ، فقال رسول الله ﷺ : « هذه خلافة النبوة ». أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة [٦/ ٦٤، ٦٥]

لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ﴾ (١) [الأنبياء: ٨٠] العلم نقل قضية الوجود من عالم بها إلى جاهل بها؛ لأن الإنسان خليفة فى الأرض، ويحتاج إلى حركة واسعة فى الكون ، والحركة بين الناس تحتاج إلى تفاهم. والتفاهم يحتاج إلى قضايا يتم التفاهم حولها ،ويحتاج إلى أشياء فى حركة الحياة مثل تسخير الحديد؛حتى يسهل تصنيعه والاستفاده منه . . إلخ.

والقضايا التى تحتاج لها خلافة الإنسان فى الأرض نوعان :

نوع أنزله الله بالوحى،وقال لنا : هذا تفعلونه وهذا تمتنعون عنه،حتى يحسم اختلاف العمل فيه ؛ لأن الأهواء ستختلف.

والنوع الثانى: هو ما تختلف فيه الأهواء بعضها، تركه سبحانه لاجتهاد البشر .

وهناك نوع آخر يلهم الله فيه صاحب الحاجة،سواء أكان خاطرًا ، أو أن يرشده لآخر يعلمه،ولو كان هذا الآخر أدنى منه فى الجنس فمثلاً حينما

---

(١) قال الشوكانى فى قوله تعالى : ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ ﴾ اللبوس عند العرب السلاح كله، دراعًا كان أو جوشنا ، أو سيفًا ، أو رمحا .قال الهزلى:

وعندى لبوس فى اللباس كأنه

والمراد فى الآية: الدروع خاصة ، وهو بمعنى الملبوس ، كالركوب والحلوب . والجار والمجرور- أعنى:لكم- متعلق بعلّمنا﴿ لِتُحْصِنَكُم مِّنْ بَأْسِكُمْ ﴾،قرأ الحسن وأبوجعفر وابن عامر وحفص وروح:﴿لِتُحْصِنَكُم ﴾ بالتاء الفوقية، بإرجاع الضمير إلى الصنعة أو إلى اللبوس بتأويل الدرع . وقرأ شيبة وأبو بكر والمفضل وابن أبى إسحاق : «لنحصنكم » بالنون بإرجاع الضمير إليه سبحانه . وقرأ الباقون بالياء بإرجاع الضمير إلى اللبوس،أو إلى داود ،أو إلى الله سبحانه. ومعنى:﴿مِّنْ بَأْسِكُمْ ﴾ من حربكم، أو من وقع السلاح فيكم ، ﴿فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ﴾ لهذه النعمة التى أنعمنا بها عليكم. والاستفهام فى معنى الأمر . [فتح القدير : ٤١٨/٣]

قتل قابيل هابيل ولم يعرف كيف يتصرف فى الجثة؛ أرسل الله غرابا يبحث فى الأرض؛ حتى يعرف كيف يوارى سوأة أخيه: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾[المائدة: ٣١]. فهذه قضية علمية تعلَّمها الإنسان من الأدنى منه وهو الطير .

وهناك قضايا علمية تكون لها مقدمات فى الكون، فالإنسان يستخدم عقله الذى وهبه الله له فى الاستفادة من هذه المقدمات فى الوصول إلى بعض الأسرار التى وراءها، والتى تفيد فى حياته، وتأتى أيضا،بالتجربة ، أو بخاطر يقذفه الله فى قلب إنسان فيكتشف هذا السر .

فتعليم الله تعالى لداود عليه السلام صنعة اللبوس ، إن قلنا: بالوحى يصح، أو بالتجربة والخاطر يصح ،وكل شىء فيه صنعة لابد فيه من عمل وحركة، فلا يؤخذ خاما. ومعنى: ﴿صَنْعَةَ لَبُوسٍ﴾ : اللبوس من مادة «لبس» ولكن هناك لباسا ولبوسا ، اللباس نعمله لنستر به عورتنا، ونحفظ أنفسنا من الحر والبرد ، لكن هناك لباسا ولبوسا. اللباس نعمله لنستر به عورتنا، ونحفظ أنفسنا من الحر والبرد.لكن فى حالة الحرب التى يتعرض فيها الإنسان للإصابة فى أجزاء قاتلة من جسمه ، اهتدى الناس إلى حماية مواقع الخطر فى أجسامهم ، ومعروف أن رأس الإنسان وقلبه ما داما بعيدين عن الخطر، فإن حياته يمكن أن تستمر حتى لو تعرضت أجزاء أخرى من جسمه للخطر؛ ولذلك فإن المحارب يحاول أن يحمى رأسه بِوَاقٍ للرأس يسمى بـ«الخوذة» . ويحمى منطقة الصدر والوجه باستخدام «الدرع الواقى» .

وهذا ما كان يصنعه داود عليه السلام؛ دروع بحلقات تقى الجسم من الضربات، فاللبوس أبلغ من اللباس؛ لأن مهمته أبلغ من مهمة اللباس ؛

لأنه يقى الإنسان البأس، والحرب، وضربة العدو فى مَقاتِل.

ولذلك قال ربنا: ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنْ بَأْسِكُمْ ﴾ ومعنى تحصنكم: أى تمنعكم وتحوطكم وتحفظكم، ومعنى: ﴿ مِّنْ بَأْسِكُمْ ﴾ أى من الحرب مع عدوكم .

إذن.. كلمة لبوس مبالغة فى اللباس ، واللباس عام ، ولكن اللبوس لا يلبسه إلا الإنسان الذى يتعرض للخطر فى نفسه، ومعنى علمناه: أى ألهمناه وأخذ يفكر كيف يصنع هذا الشىء؛ لأن كل تفكير فى ارتقاء صنعة، إنما ينشأ من رؤية صنعة قبلها فيها بعض العيوب ، فتحاول أن تتلافى هذه العيوب فى الصنعة الجديدة ، فارتقاءات الصناعة تقوم على مشاهدة معايب الصنعة الأولى وتلافيها فى الصنعة القادمة؛ ولذلك يقولون: «هذا آخر طراز .. وآخر موديل» .

إذن .. علينا أن نشكر الله على حمايته لنا فى ساعة الخطر فى الحرب وتعليمه لنا صناعة الدروع الواقية أثناء المواجهة مع الكفار يقول تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحديد : ٢٥]. إن الحديد له مهمة قتالية فى نصرة دين الله ونصرة الرسل، فربنا سبحانه يحفظنا فى نومنا ويقظتنا، وحتى فى أوقات الشدة والأزمات مثل الحروب، فالله سبحانه وتعالى خلق الخلق وصانهم أيضا. وقوله تعالى: ﴿ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ ﴾ [الأنبياء: ٨٠] ؛ معناه أن ما فعله الله معنا يستحق أن نشكره عليه دائما.

* كتاب داود عليه السلام *

يقول تعالى :﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً ﴾ [النساء: ١٦٣] ؛هنا نلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى ذكر الوحى عاما ، ولكنه حينما جاء على داود ذكر اسم كتابه الزبور ،ولم يأت فى هذه الآية بأسماء الكتب المنزلة على الرسل السابقين، مثال ذلك: نزول التوراه على موسى، والإنجيل على عيسى، لماذا ؟ لأن ما جاء به داود فى الزبور أمر تجمع عليه كل الشرائع، وهو تمجيد الله والثناء عليه، فلم يأت الزبور بأحكام. قد يقول قائل :إن عيسى أيضا لم يأت بأحكام فى الإنجيل! ونقول لمثل هذا القائل :لا، إن الإنجيل ملتحم بالتوراة، فالإنجيل جاء بالوجدانيات الدينية، والتوراة التى كانت موجودة قبله جاءت بالأحكام؛ ولذلك فمن عجيب أمر اليهود والنصارى: أنهم رغم اختلافهم فى قمة الأمور وهى مسألة عيسى وأم عيسى، جاءوا آخر الأمر ليلتقوا أويسموا الكتابين العهد القديم والعهد الجديد، ويعتبرونه كتابا واحدا يسمونه الكتاب المقدس.

وقد يقول قائل: ما معنى الزبور[1]؟ تقول: المادة مأخوذة من زبر البئر،

---

(١) قال صديق خان فى قوله تعالى : ﴿وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً ﴾ أى كتابًا مزبورًا يعنى مكتوبًا ، والزبور بالفتح كتاب داود . قال القرطبى [1] : وهو مائة وخمسون سورة ليس فيها حكم ، ولاحلال ولا حرام ، وإنما هى حكم ومواعظ . انتهى . =

---

(١) انظر تفسير القرطبى [١٧/٦].

فعندما يقوم الناس بحفر بئر ليأخذوا منها الماء، فإنهم يخافون أن ينهال التراب من جوانبه عليه فيطم البئر؛ لذلك يصنعون لجدران البئر بطانة من الحجارة . ونحن فى الريف المصرى نجد أنهم يصنعون تلك البطانة من الأسمنت.

إذن. . فكلمة زبر البئر تؤدى معنى كل عملية لإصلاح البئر ، ثم أخذ الناس هذه الكلمة فى معانى مختلفة فسموا العقل زبرا؛ لأنه يعقل الأمور، فإذا كان السياج من الحجارة يعقل التراب عن البئر . . فكذلك العقل يحمى الإنسان من الشطط.

إذن. . فالعقل لم يخلقه الله ليتشتت الإنسان فى الأفكار، ولكن ليضبط الإنسان حريته فى إطار مسئوليته ليفكر،إنه يعقل الغرائز عن الفكاك بالإنسان إلى الشتات والضلال .

= قلت : هو مائة وخمسون مزمورًا ، والمزمور فصل يشتمل على كلام لداود يستغيث بالله من خصومه ، ويدعو الله عليهم ويستنصره ، وتارة يأتى بمواعظ وكان يقول ذلك فى الغالب فى الكنيسة ، ويستعمل مع تكلمه بذلك شيئًا من الآلات التى لها نغمات حسنة ، كما هو مصرح بذلك فى كثير من تلك المزمورات ، والزبر والكتابة، والزبور بمعنى : المزبور ، أى المكتوب، كالرسول والحلوب والركوب .
وقرأ حمزة: زُبورا بضم الزاى جمع زبر كفلس وفلوس ، والزبر بمعنى المزبور ، والأصل فى الكلمة: التوثيق ، يقال : بئر مزبورة ، أى مطوية بالحجارة ، والكتاب سمى زبورًا لقوة الوثيقة به . [فتح البيان : ٣/٢٩٩، ٣٠٠]

❋ نبى الله سليمان عليه السلام (١) ❋



﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النمل: ١٥].

الله سبحانه وتعالى آتى داود وسليمان عليهما السلام العلم، وهومنهج الدين، وعلَّم سليمان منطق الطير، وألان لداود الحديد،

---

(١) هو سليمان بن داود عليهما السلام ، وأمه هى امرأة أوريا بن حنان تزوجها داود عليه السلام بعد أن قتل زوجها فولدت له سليمان بن داود، ولهذه المرأة خبر طويل مع داود عليه السلام. انظره بطوله فى [تاريخ الرسل والملوك :١/ ٤٨٠ وما بعدها].

ملك أمر بنى إسرائيل بعد أبيه وسخَّر الله له الجن، والإنس، والطير، والريح، وآتاه مع ذلك النبوة، سأل الله عز وجل أن يؤتيه ملكاً لا ينبغى لأحد من بعده فأعطاه ذلك .

وكان - فيما يزعمون - أبيض جسيماً وضيئاً كثير الشعر، يلبس من الثياب البياض، وكان أبوه فى أيام ملكه بعد أن بلغ سليمان مبلغ الرجال يشاوره فى أموره، وقصتهما هو مع أبيه فى قوله تعالى : ﴿ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴾ [الأنبياء: ٧٨] مذكورة فى القرآن الكريم .

وكان رجلاً غزَّاءً لا يكاد يقعد عن الغزو، وقيل: إن عسكره كان مائة فرسخ: خمسة وعشرون منها للإنس، وخمسة وعشرون للجن، وخمسة وعشرون للوحش، وخمسة وعشرون للطير، وكان له ألف بيت من قوارير على الخشب، فأمر الريح العاصف فرفعته وأمر الرخاء فسيرته . فأوحى الله إليه وهو يسير بين السماء والأرض: «أنى قد زدت فى ملكك أنه لا يتكلم أحد من الخلائق إلا جاءت به الريح وأخبرتك» .

وكان مسيره فى الغداة الواحدة بالريح مسيرة شهر.

وأمره مع ملكة سبأ معروف مشهور. كما غزا أبا زوجته جرادة. وذكر ابن جرير خبره وخبر الشيطان الذى أخذ خاتمه . [تاريخ الطبرى :١/٤٩٦] وما بعدها =

وآتى سليمان ملكاً لا ينبغى لأحد من بعده، ورغم كل هذه النعم لم يذكر الله إلا النعمة التى يجب أن يفرح بها المؤمن وهى العلم.

وانظروا إلى داود وسليمان حينما حمدا الله على فضله عليهما بالعلم حيث قالا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ؛ أى أن هناك من الناس من هو أفضل منا، وهذا تواضع الأنبياء والعلماء.

ثم يقول تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ [النمل: ١٦].

ومعنى كلمة: ﴿وَوَرِثَ﴾أى بقيت النبوة فيه بعد أبيه، و﴿مَنطِقَ الطَّيْرِ﴾ هو لغة التفاهم بينها؛ لأن لكل خلق من خلق الله لغة يتفاهم بها؛ قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ والعلماء يعكفون فى العصر الحاضر على معرفة لغات الحيوانات، مثل: لغة النمل، والنحل، والسمك، فهذه الحيوانات تتفاهم فيما بينها تفاهماً غريزياً.

قوله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ﴾؛الأنبياء لا تورث، ولكنه ورثه فى النبوة والدعوة إلى الله وتطبيق منهجه.

= ويقال: لم يجتمع ملك الأرض، ولم يجتمع ملك الناس على ملك واحد إلا على ثلاثة ملوك: نمرود بن أرغوا، وذى القرنين، وسليمان بن داود.

وقيل: كانت الملوك الذين ملكوا الأرض كلها أربعة: نمرود، وسليمان بن دواد، وذو القرنين، وبختنصر. مؤمنان وكافران. [تاريخ الطبرى: ١/ ٢٣٤]

وأخرج البخارى [٣٤٢٣] عن أبى هريرة عن النبى ﷺ: «إن عفريتاً من الجن تفلت البارحة ليقطع علىَّ صلاتى فأمكننى الله منه، فأخذته فأردت أن أربطه على سارية من سوارى المسجد حتى تنظروا إليه كلكم، فذكرتُ دعوة أخى سليمان: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ [ص: ٣٥] ؛ فرددته خاسئا.

قال نبينا ﷺ: «نحن معشر الأنبياء لا نورث »[1] ؛ لأن الله يريد أن يجعل الرسول فى رسالته وتبليغه عن الله بعيداً عن أى نفع يجئ له أو لذريته؛ ولذلك الفقراء من المؤمنين يأخذون زكاة المؤمنين، ولكن آل بيت رسول الله ﷺ لا يأخذون زكاة من أحد. فالأنبياء لا يورثون وأهلهم لايأخذون الزكاة، وإن كان على أحد من المؤمنين دين يتكفلون به؛ وهذا حتى يبتعد الأنبياء وأهلهم عن أى شبهة لكسب غير مشروع، وإذا كان الأنبياء لايورثون، يكون سيدنا سليمان قد ورث داود فى العلم والحكمة وتسخير الأشياء والمخلوقات[2].

وقوله: ﴿ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ ﴾؛ تدل على أن الطير له منطق ولكن الناس لم يتعلموه، وهذه تشرح لنا قول الله تعالى: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [الإسراء: ٤٤]، بعض العلماء يقولون عن تسبيح الجمادات مثلاً: إنه تسبيح دلالة، وهذا يعنى أنهم فهموا هذا التسبيح مع أن الله تعالى يقول: ﴿ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ فالقول بتسبيح الدلالة غير صحيح، لأننا لا نفقه هذا التسبيح[3].

---

(١) أخرجه البخارى [٣٠٩٣، ٩٠٣٤، ٤٠٣٣، ٤٠٣٦، ٦٧٢٦، ٦٧٢٧، ٦٧٢٨، ٦٧٣٠] ومسلم [١٧٥٨/ ٥١، ١٧٥٩ / ٥٢، ٥٤، ١٧٦١/٥٦] بلفظ: «لانورث، ما تركنا صدقة ».

(٢) قال ابن كثير: قوله تعالى: ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ ﴾ [النمل: ١٦]، أى فى الملك والنبوة ، وليس المراد وراثة المال ، إذا لو كان كذلك لم يخص سليمان وحده من بين سائر أولاد داود ؛ فإنه كان لداود مائة امرأة ، ولكن المراد بذلك وراثة الملك والنبوة ، فإن الأنبياء لا تورث أموالهم. [تفسير ابن كثير : ٣/٣٤٦]

(٣) قال الشوكانى : اختلف أهل العلم فى هذا العموم هل هو مخصوص أم لا ؟ فقالت طائفة : ليس بمخصوص، وحملوا التسبيح على تسبيح الدلالة؛ لأن كل مخلوق يشهد على نفسه ويدل غيره بأن الله خالق قادر. وقالت طائفة : هذا التسبيح على حقيقته =

= والعموم على ظاهره . والمراد : أن كل المخلوقات تسبح لله سبحانه هذا التسبيح الذى معناه التنزيه ، وإن كان البشر لا يسمعون ذلك ولا يفهمـونه ، ويؤيد هذا قوله سبحانه : ﴿ وَلَكِن لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ فإنه لو كان المراد تسبيح الدلالة لكان أمرًا مفهومًا لكل أحد .

وأجيب : بأن المراد بقوله : ﴿ لا تَفْقَهُونَ ﴾ الكفار الذين يعرضون عن الاعتبار . وقالت طائفة : إن هذا العموم مخصوص بالملائكة والثقلين دون الجمادات . وقيل : خاص بالأجسام النامية فيدخل النباتات ، كما روى هذا القول عن عكرمة والحسن وخصا تسبيح النباتات بوقت نموها لا بعد قطعها ، وقد استدل لذلك بحديث : أن النبى ﷺ مر على قبرين . . وفيه : ثم دعا بعسيب رطب فشقه اثنين ، وقال : «إنه يخفف عنهما ما لم ييبسا » (1) ، ويؤيد حمل الآية على العموم قوله: ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ ﴾ [ص: ١٨]، وقوله : ﴿ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ [البقرة: ٧٤]، وقوله : ﴿ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴾ [مريم: ٩٠] ، ونحو ذلك من الآيات ، وثبت فى الصحيح أنهم كانوا يسمعون تسبيح الطعام وهم يأكلون مع رسول الله ﷺ(2) .

وهكـذا حـديث حـنين الجـذع (3) ، وحديـث : أن حجـرا بمكـة كـان يسلـم علـى=

---

(1) أخرجه البخارى [٢١٦، ٢١٨، ١٣٦١، ١٣٧٨، ٦٠٥٢، ٦٠٥٥] بلفظ : مرَّ رسول الله ﷺ على قبرين ، فقال : « إنهما ليُعذَّبان ، وما يُعذَّبان فى كبير أما هذا فكان لا يستتر من بوله ، وأما هذا فكان يمشى بالنميمة »،ثم دعا بعسيب رطب فشقه باثنين فغرس على هذا واحدًا ،وعلى هذا واحدًا ، ثم قال:« لعله يُخفَّف عنهما مالم ييبسا » .وأخرجه أبو داود [٢٠] ، والترمذى [٧٠] ، وابن ماجة [٣٤٧] ، وكلهم عن ابن عباس رضى الله عنهما .

(2) أخرجه البخارى [٣٥٧٩] عن عبدالله بن مسعود بلفظ : كنا نعد الآيات بركةً ، وأنتم تعدونها تخويفًا ، كنا مع رسول الله ﷺ فى سفر فقل الماء ، فقال : « اطلبوا فضلة من ماء» ، فجاؤوا بإناء فيه ماء قليل ، فأدخل يده فى الإناء ثم قال : « حى على الطهور المبارك ، والبركة من الله » ، فلقد رأيت الماء ينبع من بين أصابع رسول الله ﷺ ، ولقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل .

(3) أخرجه البخارى [٣٥٨٣] عن ابن عمر بلفظ : « كان النبى ﷺ يخطب إلى جذع ، فلما اتخذ المنبر تحوَّل إليه ، فحنَّ الجذع ، فأتاه فمسح يده عليه ».

ومعنى: ﴿ وعُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ ﴾(١) [النمل: ١٦] ، أى أننا ببشريتنا لو لم يعلمنا الله لما فهمنا منطق الطير كسائر الناس، فالناس لا يفهمون منطق الطير، مع أن الطير له منطق. وعلماء اللغة يقولون: النطق خاص بالإنسان، وأما فى الطير والحيوانات الأخرى فيسمونه صوتاً ، فهذا مواء القطة، ونباح الكلب، وخوار البقر، ونقيق الضفادع، وزئير الأسد .. إلخ ، فكل شىء له تعبير؛ ولذلك حين تنظر إلى القطة تجد أن مواءها حين تجوع يختلف عن موائها حين تخاف؛ لأنها تعبر عن الحالة التى هى فيها، ولكن من الذى يفهم؟ إذا كنا نحن البشر لو لم نعلم لغة لا نستطيع أن نتكلم بها، مع أن اللغة ضرورتها اجتماعية ما دام الناس يعيشون مع بعضهم، فلابد أن يتفاهموا . ومعنى ذلك يتفقون على أن هذا اللفظ معناه: كذا ، بحيث إذا تكلم به واحد فهمه الباقون .

= النبى ﷺ (١)، وكلها فى الصحيح ، ومن ذلك تسبيح الحصى فى كفه ﷺ(٢) ومدافعة عموم هذه الآية بمجرد الاستبعادات ليس دأب من يؤمن بالله سبحانه ويؤمن بما جاء من عنده. [فتح القدير : ٣/ ٢٣٦، ٢٣٧]

(١) قال الشوكانى فى قوله تعالى : ﴿ وعُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ ﴾ [النمل: ١٦] قال سليمان هذه المقالة مخاطبا للناس ، تحدثًا بما أنعم الله به عليه، وشكر النعمة التى خصه بها وقدم منطق الطير ؛ لأنها نعمة خاصة به لا يشاركه فيها غيره . قال الفراء : منطق الطير كلام الطير فجعل كمنطق الرجل ، وأنشد قول حميد بن ثور :

عجبتُ لها أن يكون غناؤها فصيحا ولم تفغرْ بمنطقها فما

ومعنى الآية : فهمنا ما يقول الطير : قال جماعة من المفسرين : إنه علم منطق جميع الحيوانات ، وإنما ذكر الطير ؛ لأنه كان جندا من جنده يسير معه لتظليله من الشمس . وقال قتادة والشعبى : إنما علم منطق الطير خاصة، ولا يعترض ذلك بالنملة فإنها من جملة الطير ، وكثيرا ما تخرج لها أجنحة فتطير ، وكذلك كانت هذه النملة التى سمع كلامها وفهمه . [فتح القدير : ٤/ ١٢٦]

---

(١) أخرجه مسلم [٢/ ٢٢٧٧] عن جابر بن سمرة بلفظ : « إنى لأعرف حجرًا بمكة كان يُسلِّم علىَّ قبل أن أبعث ، إنى لأعرفه الآن ».

(٢) انظر الحديث [ص : ٢٢٠٠] .

فاللغة ظاهرة اجتماعية يتفاهم الناس بها، واللغة تُعرف عن طريق السماع، فاللغة بنت المحاكاة، فإذا سمعت لفظاً تستطيع أن تنطقه، وإن لم تسمعه لا تستطيع أن تنطقه حتى لو كان لفظاً عربياً ، فمثلاً لو قلت لك: إنما الحيزبون[1] والدردبيس[2] والنخاع[3] والعطلبيس ، فإذا فهمت أنت من ذلك ، فاللفظ حتى وإن كان له معنى، فلابد أن يكون السامع يعرف لأى شيء وضع هذه اللفظ حتى إذا نطق يفهمه هو، وإذا نطقه هو يفهمه غيره.

كذلك أنت تتكلم اللغة العربية؛ لأنك سمعت أباك وأمك ومن حولك يتحدثون العربية، ولم تتكلم الإنجليزية لأنك لم تسمعها، ولكن لو أخذنا طفلاً عربياً وربيناه فى بيئة انجليزية سيتكلم الانجليزية والعكس صحيح. فاللغة ليست جنساً ،أو دماً، ولكنها سماع، ما تسمعه الأذن يحكيه اللسان، وبعد ذلك يحدث التفاهم.

إذن.. قول الله تعالى: ﴿ وعُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ ﴾ [النمل: ١٦] يدل على أن للطير منطقاً ولغيره من المخلوقات أيضاً، فقد سمع نبى الله سليمان صوت النملة ففهم عنها وتبسم ضاحكاً ، وسمع من الهدهد وكلَّمه. فاللغة أن تفهم كلام غيرك وتُفهمه كلامك، فسليمان سمع النملة وفهم كلامها، وسمع الهدهد وكلمه.

---

(١) الحيزبون: العجوز . [لسان العرب : ١/ ٣١٠]

(٢) الدردبيس : خرزة سوداء كأن سوادها لون الكبد ، إذا رفعتها واستشففتها رأيتها تشف مثل لون العنبة الحمراء ، تتحبَّب بها المرأة إلى زوجها . توجد فى قبور عاد .
الليث: الدردبيس : الشيخ الكبير الهمّ ، والعجوز أيضًا يقال لها : دردبيس .
والدردبيس : الداهية . [لسان العرب : ٦/ ٨١]

(٣) النِّخاع والنُّخاع والنَّخاع: عرق أبيض فى داخل العنق ينقاد فى فقار الصُّلب حتى يبلغ عجب الذنب ، وهو يسقى العظام . [لسان العرب : ٣٤٨/٨]

وأرسله إلى ملكة سبأ فلما رجع قال لسليمان: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل: ٢٣]

فهل أوتيت بلقيس مثلما أوتى سليمان ؟ لا، ولكنها أوتيت من كل شىء مما يؤتاه البشر مثلها ،لكن سليمان أوتى أشياء لم يؤتها أحد، وهذا فضل عليه من الله مبين .

داود سخر الله الجبال والطير تسبح معه لله قال تعالى :﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٩]

فهو كان يسبح مع الجبال والطير كأنهم جميعاً فى «كورس» واحد ، فهذه مسألة عظيمة ومنزلة عالية لا يبلغها إلا من شاء الله له ذلك.

* الله سخر الريح لسليمان [1] *



قال تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِ إِلَى الأَرْضِ الَّتِى بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَالِمِينَ﴾ [الأنبياء:٨١] سليمان قد استفاد من تعليم الله لأبيه داود ، فأخذ هذه النعمة، وزوده الله بنعم أخرى خاصة به، فأعطى له الريح العاصفة تسير بأمره، وينتقل بها من مكان إلى آخر فى الأرض- التى بارك الله فيها من صحراء فلسطين حتى العراق- فكانت الريح تمثل مواصلات داخلية له فى مملكته .

وفى آية أخرى قال تعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴾[ص: ٣٦] هنا الريح رخاء ولينة وهناك الريح عاصفة، فالريح العاصفة تعطى سرعة، والريح اللينة تعطى راحة، فكأنهاجمعت بين السرعة فى ﴿عَاصِفَةً﴾ وبين اللين والنعومة فى ﴿رُخَاءً﴾.

إذن . . جمع له الحق سبحانه بين ما يعطيه السرعة إلى مراده، وبين ما يجعلها مريحة ناعمة هادئة لا تؤثر فى جسمه؛ لأن هذه السرعة قد تصيب الجسم بأضرار ، ولذلك فى السيارات يوجد رباط يسمونه حزام

(١) ذكر ابن إسحاق، قال وكان - فيما يزعمون - إذا أراد الغزو - يعنى سليمان عليه السلام - أمر بعسكره فضرب له بخشب، ثم نصب له على الخشب، ثم حمل عليه الناس والدواب وآلة الحرب كلها ،حتى إذا حمل معه ما يريد أمر العاصف من الريح، فدخلت تحت ذلك الخشب فاحتملته ، حتى إذا استقلت به أمر الرخاء، فمر به شهراً فى روحته وشهراً فى غدوته إلى حيث أراد . [تاريخ الطبرى : ١/٤٨٧]

الأمان؛ يحفظ الجسم من الاصطدام أو الإصابة من جراء السرعة، أو التوقف المفاجئ ، ولكن الله سبحانه وتعالى جمع لسليمان بين السرعة الفائقة للريح، وبين الراحة والاطمئنان خلال سفره بالريح. . وهذه لايقدر عليها إلا الله سبحانه وتعالى.

ومعنى: ﴿بَارَكْنَا فِيهَا﴾ أى أنها أرض فيها زروع وثمار وخصب ونماء، كما أن فيها النبوة وآثار النبوة ، فتسخير الريح لسليمان فى أنه يأمرها أن تهبَّ فى الاتجاه الذى يريده، فهى لا تهب إلا على مراده هو وبأمره هو، والريح مسخرة له كمواصلات داخلية وخارجية ، الداخلية وهى التى تحمله داخل مملكته، أما الخارجية فتتمثل فى قول الله تعالى : ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾. فهذه الريح للرحلات الخارجية خارج مملكته.

وقوله تعالى: ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨١] ،أى عندنا العلم الكافى لترتيب الأمور وفق ما نشاء ، بل ونجعلها تخرق القانون وتخالف طبيعتها . . هذا بالنسبة لتسخير الريح.

وهناك تسخير الشياطين أيضاً، قال تعالى: ﴿وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٢] الغوص: هو النزول إلى أعماق البحر، فالشياطين كانوا يغوصون فى البحر؛ ليخرجوا له كنوز البحر ونفائسه الموجودة فيه،ويعملون أعمالاً أخرى شاقة لايستطيع الإنسان أن يؤديها.

ولذلك يقول سبحانه فى آية أخرى : ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ

مَنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ [سبا: ١٣] . وهذه الآية بينت قوله تعالى : ﴿ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَلِكَ ﴾ [الأنبياء: ٨٢] فهذا العمل فى صناعة المحاريب والتماثيل والجفان- أى القصعة التى يأكل الناس فيها- وكلمة: ﴿ كَالْجَوَابِ ﴾ تدل على أن هذه الجفان واسعة وكبيرة، تتسع لإطعام عشرات الرجال، والقدور الراسيات هى القدر الضخمة التى لا يمكن نقلها من مكانها؛ لأنها قدر ضخمة تكفى لإطعام المئات من الناس، مثل قِدْر عبد الله ابن جدعان التى تحدث عنها النبى ﷺ . وبالنسبة للتماثيل بعض العلماء يقولون: إن هذه التماثيل كانت مباحة، ثم حرمت بعد أن عبدها الناس، ولكن نحن نقول: إن هذا لم يكن فى عهد سليمان؛ لأنه جاء بعد عهد سيدنا إبراهيم الذى حطم الأصنام التى كان يعبدها قومه، فهى محرمة منذ عهد إبراهيم؛ وسليمان جاء بعد هذا العصر ، فكيف يمتن الله على سليمان بجعل الشياطين يصنعون له التماثيل المحرمة ؟ نقول: إن التماثيل هنا قد تكون لغرض غير التعظيم والعبادة، ولكن توضع فى موضع إهانة[1].

---

(١) قال القرطبى فى قوله تعالى : ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ .

فيه ثمانى مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ ﴾ المحراب فى اللغة : كل موضع مرتفع. وقيل للذى يُصلَّى فيه : محراب ؛ لأنه يجب أن يرفع ويعظم . وقال الضحاك : ﴿ مِن مَّحَارِيبَ ﴾ أى من مساجد. وكذا قال قتادة . وقال مجاهد : المحاريب دون القصور . وقال أبو عبيدة : المحراب أشرف بيوت الدار . قال :

وماذا عليه أن ذكرت أوانسًا ... كغزلان رمل فى محاريب أقيال [1]

---

(١) البيت لامرىء القيس . والأقيال : جمع قَيْل ، وهو الملك .

= وقال عدى بن زيد :

كدمى العاج فى المحاريب أو كالـــ ـــبيض فى الروض زهره مستنير

وقيل : هو ما يرقى إليه بالدرج كالغرفة الحسنة ؛ كما قال : ﴿إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾ [ص: ٢١] ،وقوله : ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ﴾ [مريم: ١١] أى أشرف عليهم . وفى الخبر « أنه أمر أن يعمل حول كرسيه ألف محراب فيها ألف رجل عليهم المسموح يصرخون إلى الله دائبا ، وهو على الكرسى فى موكبه والمحاريب حوله ، ويقول لجنوده إذا ركب : سبحوا الله إلى ذلك العَلَم ، فإذا بلغوه قال : هللوه إلى ذلك العلم ، فإذا بلغوه قال : كبروه إلى ذلك العلم الآخر ، فتلج الجنود بالتسبيح والتهليل لجة واحدة .

الثانية : قوله تعالى : ﴿وَتَمَاثِيلَ﴾ جمع تمثال . وهو كل ما صور على مثل صورة من حيوان أو غير حيوان . وقيل : كانت من زجاج ونحاس ورخام تماثيل أشياء ليست بحيوان . وذكر أنها صور الأنبياء والعلماء ، وكانت تصور فى المساجد ليراها الناس فيزدادوا عبادة واجتهادا . قال ﷺ : « إن أولئك كان إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجدًا وصوروا فيه تلك الصور »(١) . أى ليتذكروا عبادتهم فيجتهدوا فى العبادة . وهذا يدل على أن التصوير كان مباحا فى ذلك الزمان ، ونسخ ذلك بشرع محمد ﷺ . وقيل : التماثيل طلسمات كان يعملها ، ويحرم على كل مصور أن يتجاوزها فلا يتجاوزها ،فيعمل تمثالاً للذباب أو للبعوض أو للتماسيح فى مكان، ويأمرهم ألا يتجاوزوه فلا يتجاوزه واحد أبدًا مادام ذلك التمثال قائمًا . وواحد التماثيل : تمثال بكسر التاء . قال :

ويا رب يوم قد لهوت وليلة بآنسة كأنها خط تمثال (٢)

وقيل : إن هذه التماثيل رجال اتخذهم من نحاس وسأل ربه أن ينفخ فيها الروح ؛ ليقاتلوا فى سبيل الله ولا يحيك (٣) فيهم السلاح ، ويقال : أن اسفنديار كان =

(١) أخرجه البخارى [٤٢٧، ٤٣٤ ، ١٣٤١] عن عائشة بلفظ : « إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات ،بنوا على قبره مسجدًا، وصوروا فيه تلك الصور ، فأولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة » . وأخرجه مسلم [١٦/٥٢٧].

(٢) البيت لامرئ القيس .

(٣) حاك السيف حيكا : أثر وعمل .

= منهم؛ والله أعلم . وروى أنهم عملوا له أسدين فى أسفل كرسيه ونسرين فوقه ، فإذا أراد أن يصعد بسط الأسدان له ذراعيهما ، وإذا قعد أطلق النسران أجنحتهما.

الثالثة : حكى مكى فى الهداية له : أن فرقة تُجوِّز التصوير ، وتحتج بهذه الآية .

قال ابن عطية : وذلك خطأ ، وما أحفظ عن أحد من أئمة العلم من يجوزه .

قلت : ما حكاه مكىّ ذكره النحاس قبله ، قال النحاس: قال قوم: عمل الصور جائز لهذه الآية ، ولما أخبر الله عز وجل عن المسيح . وقال قوم : قد صح النهى عن النبى ﷺ عنها ، والتوعد لمن عملها أو اتخذها ، فنسخ الله عز وجل بهذا ما كان مباحا قبله ، وكانت الحكمة فى ذلك لأنه بُعث عليه السلام والصور تُعبد ، فكان الأصلح إزالتها .

الرابعة : التمثال على قسمين : حيوان وموات . والموات على قسمين : جماد ونام؛ وقد كانت الجن تصنع لسليمان جميعه ؛ لعموم قوله : ﴿وَتَمَاثِيلَ﴾ . وفى الإسرائيليات : أن التماثيل من الطير كانت على كرسى سليمان . فإن قيل: لا عموم لقوله : ﴿وَتَمَاثِيلَ﴾ فإنه إثبات فى نكرة ، والإثبات فى النكرة لا عموم له ، إنما العموم فى النفى فى النكرة . قلنا : كذلك هو ، بيْد أنه قد اقترن بهذا الإثبات فى النكرة ما يقتضى حمله على العموم ، وهو قوله : ﴿مَا يَشَاءُ﴾ فاقتران المشيئة به يقتضى العموم له . فإن قيل : كيف استجاز الصور المنهى عنها ؟ قلنا : كان ذلك جائزًا فى شرعه ونسخ ذلك بشرعنا كما بينا ، والله أعلم . وعن أبى العالية : لم يكن اتخاذ الصور إذ ذاك محرمًا .

الخامسة : مقتضى الأحاديث يدل على أن الصور ممنوعة ، ثم جاء « إلا ما كان رقما[1] فى ثوب »[2] فخص من جملة الصور ، ثم ثبتت الكراهية فيه بقوله عليه السلام لعائشة فى الثوب: «أخريه عنى فإنى كلما رأيته ذكرت الدنيا »[3]. ثم بهتكه[4] الثوب المصور على عائشة منع منه ، ثم بقطعها له وسادتين تغيرت الصورة وخرجت عن هيئتها، فإن جواز ذلك إذا لم تكن الصورة فيه متصلة الهيئة ، ولو كانت =

(١) الرقم : النقش والوشى .

(٢) جزء من حديث أخرجه البخارى [٣٢٢٦ ، ٥٩٥٨] ، ومسلم [٢١٠٦ / ٨٥ ، ٨٦] عن أبى طلحة بلفظ: « إلا رقمًا فى ثوب » .

(٣) أخرجه مسلم [٢١٠٧/ ٩٣] بلفظ : « أخِّريه عنى » بدون الزيادة التى فى آخره .

(٤) الهتك : الخرق والشق .

. . . .

= متصلة الهيئة لم يجز ؛ لقولها فى النمرقة المصورة [١] : اشتريتها لك لتقعد عليها وتوسدها [٢] ، فمنع منه وتوعد عليه . وتبين بحديث الصلاة إلى الصور أن ذلك جائز فى الرقم فى الثوب ثم نسخه المنع منه . فهكذا استقر الأمر فيه والله أعلم ؛ قاله ابن العربى .

السادسة : روى مسلم عن عائشة قالت : كان لنا ستر فيه تمثال طائر وكان الداخل إذا دخل استقبله ، فقال رسول الله ﷺ : « حولى هذا فإنى كلما دخلت فرأيته ذكرت الدنيا »[٣] . قالت : وكانت لنا قطيفة كنا نقول علمها حرير ، فكنا نلبسها. وعنها قالت : دخل على رسول الله ﷺ وأنا مستترة بقرام [٤] فيه صورة ، فتلوّن وجهه ، ثم تناول الستر فهتكه ، ثم قال : « إن من أشد الناس عذابًا يوم القيامة الذين يشبهون بخلق الله عز وجل » [٥]. وعنها : أنه كان لها ثوب فيه تصاوير ممدود إلى سهوة [٦] ، فكان النبى ﷺ يصلى إليه فقال : « أخريه عنى»[٧] قالت : فأخرته فجعلته وسادتين . قال بعض العلماء : ويمكن أن يكون تهتيكه عليه السلام الثوب وأمره بتأخيره ورعًا ؛ لأن محل النبوة والرسالة الكمال . فتأمله .

السابعة : قال المزنى عن الشافعى : إن دعى رجل إلى عرس فرأى صورة ذات روح=

---

(١) النمرقة - بضم النون والراء وبكسرهما وبغير هاء الوسادة .

(٢) عن عائشة أنها اشترت نمرقة فيها تصاوير ، فلما رآها رسول الله ﷺ قام على الباب فلم يدخل فعرفت ، أو فعُرفتْ فى وجهه الكراهية . فقالت : يا رسول الله أتوب إلى الله وإلى رسوله فماذا أذنبت ؟ فقال رسول الله ﷺ : « ما بال هذه النمرقة ؟ » فقالت : اشتريتها لك ؛ تقعد عليها وتوسّدها فقال رسول الله ﷺ : « إن أصحاب هذه الصور يُعذبون ، ويُقال لهم : أحيوا ما خلقتم » ثم قال : « إن البيت الذى فيه الصور لا تدخله الملائكة » . أخرجه مسلم [٢١٠٧/٩٦].

(٣) أخرجه مسلم [٢١٠٧/٨٨].

(٤) القرام : الستر الرقيق .

(٥) أخرجه مسلم [٢١٠٧/٩٢] بلفظ : « يا عائشة أشد الناس عذابًا عند الله يوم القيامة : الذين يضاهون بخلق الله » .

(٦) السهوة : بيت صغير منحدر فى الأرض قليلا شبيه بالمخدع والخزانة، وقيل: هو كالصفة تكون بين يدى البيت . وقيل : شبيه بالرف أو الطاق يوضع فيه الشىء .

(٧) سبق تخريجه فى الصحة السابقة.

= أو صورا ذات أرواح ، لم يدخل إن كانت منصوبة . وإن كانت توطأ فلا بأس ، وإن كانت صور الشجر . ولم يختلفوا أن التصاوير فى الستور المعلقة مكروهة غير محرمة. وكذلك عندهم ما كان خرطا أو نقشًا فى البناء. واستثنى بعضهم « ما كان رقما فى ثوب » ، لحديث سهل بن حنيف (١).

قلت : لعن رسول الله ﷺ المصورين ولم يستثن . وقوله : « إن أصحاب هذه الصور يعذبون يوم القيامة، ويقال لهم:أحيوا ما خلقتم »(٢) ولم يستثن . وفى الترمذى عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : « يخرج عنق (٣) من النار يوم القيامة لها عينان تبصران وأذنان تسمعان ولسان ينطق يقول : إنى وكلت بثلاث : بكل جبار عنيد ، وبكل من دعا مع الله إلهًا آخر، وبالمصورين» (٤). قال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب صحيح .

وفى البخارى ومسلم عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: « أشد الناس عذابًا يوم القيامة المصورون » (٥) ، يدل على المنع من تصوير شىء ، أى شىء كان. وقد قال جل وعز : ﴿ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا ﴾ [النمل: ٦٠]،على ما تقدم بيانه فاعلمه .

الثامنة : وقد استثنى من هذا الباب لُعب البنات ، لما ثبت عن عائشة رضى الله عنها أن النبى ﷺ تزوجها وهى بنت سبع سنين ، وزُفّت إليه وهى بنت تسع ولُعَبُها معها، ومات عنها وهى بنت ثمان عشرة سنة (٦) . وعنها أيضًا قالت : كنت ألعب بالبنات عند النبى ﷺ وكان لى صواحب يلعبن معى ، فكان رسول الله ﷺ إذا =

---

(١) سبق تخريجه [ص : ٢٢١٧] ، وحديث سهل بن حنيف أخرجه الترمذى [١٧٥٠] وقال : حديث حسن صحيح . وصححه الألبانى فى صحيح الترمذى [١٤٣١].

(٢) أخرجه مسلم [٩٧/٢١٠٨] عن ابن عمر بلفظ : « الذين يصنعون الصور ... » الحديث .

(٣) العنق : القطعة .

(٤) أخرجه الترمذى [٢٥٧٤] ، وصححه الألبانى فى صحيح الترمذى [٢٠٨٣] .

(٥) أخرجه البخارى [٥٩٥٠] ، ومسلم [٩٨/٢١٠٩] واللفظ له .

(٦) أخرجه مسلم [١٤٢٢ / ٧١] .

= دخل ينقمعن (١) منه فيسربهن (٢) إلى فيلعبن معى (٣) . خرجهما مسلم . قال العلماء : وذلك للضرورة إلى ذلك وحاجة البنات حتى يتدرّبن على تربية أولادهن. ثم إنه لا بقاء لذلك ، وكذلك ما يصنع من الحلاوة أو من العجين لابقاء له ، فرخص فى ذلك ، والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ﴾ قال ابن عرفة : الجوابى جمع الجابية ، وهى حفيرة كالحوض . وقال : كحياض الإبل . وقال ابن القاسم عن مالك : كالجوابة من الأرض، والمعنى متقارب. وكان يقعد على الجفنة الواحدة ألف رجل .

قال النحاس: ﴿وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ﴾ الأولى أن تكون بالياء ، ومن حذف الياء قال: سبيل الألف واللام أن تدخل على النكرة فلا يغيرها عن حالها ، فلما كان يقال: جوابٍ ودخلت الألف واللام أقر على حاله فحذف الياء ، وواحد الجوابى جابية ، وهى القدر العظيمة ، والحوض العظيم الكبير الذى يجبى فيه الشىء أى يجمع ؛ ومنه جبيت الخراج ، وجبيت الجراد ؛ أى جعلت الكساء فجمعته فيه . إلا أن ليثا روى عن مجاهد قال : الجوابى جمع جوبة ، والجوبة الحفرة الكبيرة تكون فى الجبل فيها ماء المطر . وقال الكسائى : جبوت الماء فى الحوض وجبيته أى جمعته ، والجابية : الحوض الذى يجبى فيه الماء للإبل ، قال :

تروح على آل المحلق جفنة كجابية الشيخ العراقى تفهق (٤)

ويروى أيضًا :

نفى الذم عن آل المحلق جفنةٌ كجابية السيح.......... (٥)

ذكره النحاس .

قوله تعالى : ﴿وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ﴾ قال سعيد بن جبير : هى قدور النحاس تكون =

(١) أى يتغيبن ويدخلن فى بيت أو من وراء ستر ؛ حياء وهيبة له عليه السلام .

(٢) أى يرسلهن ويبعثهن.

(٣) أخرجه البخارى [٦١٣٠] واللفظ له ، ومسلم [٢٤٤٠/٨١] .

(٤) البيت للأعشى . والفهق الامتلاء . وخص العراقى لجهله بالمياه لأنه حضرى ؛ فإذا وجدها ملأ جابيته وأعدها ولم يدر متى يجد المياه ،وأما البدوى: فهو عالم بالمياه،فهو لا يبالى الايعدها . [ديوان الأعشى : ١٧٧-١٨٥]

(٥) السيح : الماء الظاهر الجارى على وجه الأرض .

وقوله: ﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٢] ؛ لأن الناس دائماً يخافون من الشياطين ويصيبهم الرعب منها ؛ لذلك أخفى الله هذه الشياطين بحيث إن الناس لا يرونهم وهم يعملون هذه الأعمال، ولا يحسون بهم، وقد بيَّن القرآن الكريم أن الجن المُسخرين لسليمان، كان هو وحده الذى يراهم ولا يراهم أحد غيره، ولذلك لم يشعروا بموته وهو يجلس متكئاً على عصاه، وظلوا يعملون بجد ظانين أنه يراقبهم فلما أكل السوس العصا، وانكسرت وسقط سليمان على الأرض؛ علمت الجن بموته ، وهذا يدل على أن الجن لا يعلمون الغيب، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْه الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْته إلا دَابَّةُ الأَرْضِ تَأْكُلُ منسأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَت الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾[1] [سبأ: ١٤] .

= بفارس . وقال الضحاك : هى قدور تعمل من الجبال . غيره : قد نحتت من الجبال الصم مما عملت له الشياطين ،أثافيها [1] منها منحوتة هكذا من الجبال . ومعنى : ﴿رَّاسِيَاتٍ﴾ ثوابت ، لا تُحمل ولا تحرك لعظمها . قال ابن العربى: وكذلك كانت قدور عبد الله بن جدعان، يصعد إليها فى الجاهلية بسلم . وعنها عبر طرفة بن العبد بقوله :

كالجوابى لا تنى مترعة لقرى الأضياف أو للمحتضر

قال ابن العربى : ورأيت برباط أبى سعيد قدور الصوفية على نحو ذلك ، فإنهم يطبخون جميعا ويأكلون جميعا من غير استئثار واحد منهم على أحد .

[تفسير القرطبى : ١٤/ ٢٧١-٢٧٦]

(١) قال القرطبى فى قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ﴾ اى فلما حكمنا على سليمان بالموت حتى صار كالأمر المفروغ منه ووقع به الموت ﴿ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إلادَابَّةُ الأَرْضِ تَأْكُلُ منسأَتَهُ ﴾ وذلك أنه كان متَّكئًا على المنسأة وهى العصا بلسان الحبشة ، فى قول السدى . وقيل: هى بلغة اليمن ، ذكره القشيرى فمات كذلك وبقى خافى الحال، إلى أن سقط ميتًا لانكسار العصا لأكل الأرضة إياها،فعلم موته=

(١) الأثافى جمع الأثفية : ما يوضع عليه القدر .

= بذلك ، فكانت الأرضة دالة على موته ، أى سببا لظهور موته ، وكان سأل الله تعالى ألا يعلموا بموته حتى تمضى عليه سنة . واختلفوا فى سبب سؤاله لذلك على قولين : أحدهما: ما قاله قتادة وغيره ، قال : كانت الجن تدعى علم الغيب ، فلما مات سليمان عليه السلام وخفى موته عليهم ﴿ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴾. ابن مسعود : أقام حولا والجن تعمل بين يديه حتى أكلت الأرضة منسأته فسقط . ويروى أنه لما سقط لم يُعلم منذ مات ؛

فوضعت الأرضة على العصا فأكلت منها يومًا وليلة ، ثم حسبوا على ذلك فوجدوه قد مات منذ سنة . وقيل : كان رؤساء الجن سبعة ، وكانوا منقادين لسليمان عليه السلام ، وكان داود عليه السلام أسس بيت المقدس ، فلما مات أوصى إلى سليمان فى إتمام مسجد بيت المقدس ، فأمر سليمان الجن به ؛ فلما دنا وفاته قال لأهله : لاتخبروهم بموتى حتى يتموا بناء المسجد ، وكان بقى لإتمامه سنة . وفى الخبر أن ملك الموت كان صديقه فسأله عن آية موته ، فقال : : أن تخرج من موضع سجودك شجرة يقال لها: الخرنوبة ، فلم يكن يوم يصبح فيه إلا نبت فى بيت المقدس شجرة فيسألها : ما اسمك ؟ فتقول الشجرة : اسمى كذا وكذا ؛ فيقول : ولأى شىء أنت ؟ فتقول : لكذا وكذا ؛ فيأمر بها فتقطع ، ويغرسها فى بستان له ، ويأمر بكتب منافعها ومضارها واسمها وما تصلح له فى الطب ؛ فبينما هو يصلى ذات يوم إذ رأى شجرة نبتت بين يديه ، فقال لها : ما اسمك ؟ قالت : الخرنوبة ؛ قال : ولأى شىء أنت ؟ قالت : لخراب هذا المسجد ، فقال سليمان : ما كان الله ليخربه وأنا حى ، أنت التى على وجهك هلاكى وهلاك بيت المقدس ! فنزعها وغرسها فى حائطه ، ثم قال : اللهم عم عن الجن موتى؛ حتى تعلم الإنس أن الجن لا يعلمون الغيب . وكانت الجن تخبر الإنس أنهم يعلمون من الغيب أشياء ، وأنهم يعلمون ما فى غد ؛ ثم لبس كفنه وتحنط ودخل المحراب، وقام يصلى واتكأ على عصاه على كرسيه ، فمات ولم تعلم الجن إلى أن مضت سنة وتم بناء المسجد . قال أبو جعفر النحاس: وهذا أحسن ما قيل فى الآية، ويدل على صحته الحديث المرفوع ، روى إبراهيم بن طهمان عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبى ﷺ قال : « كان نبى الله سليمان بن داود عليهما السلام إذا صلى رأى شجرة نابتة بين يديه فيسألها ما اسمك؟ فإن كانت لغرس غرست وإن كانت لدواء كتبت ؛=

= فبينما هو يصلى ذات يوم إذا شجرة نابتة بين يديه، قال ما اسمك ؟ قالت: الخرنوبة؛ فقال : لأى شىء أنت ؟ فقالت : لخراب هذا البيت ؛ فقال : اللهم عم عن الجن موتى حتى تعلم الإنس أن الجن لا يعلمون الغيب ؛ فنحتها عصا فتوكأ عليها حولا لا يعلمون فسقطت ، فعلم الإنس أن الجن لا يعلمون الغيب فنظروا مقدار ذلك فوجدوه سنة[1] ». وفى قراءة ابن مسعود وابن عباس: « تبينت الإنس أن لوكان الجن يعلمون الغيب » . وقرأ يعقوب فى رواية رويس « تُبينت الجن » غير مسمى الفاعل . ونافع وأبو عمرو « تأكل منساته » بألف بين السين والتاء من غير همز . والباقون بهمزة مفتوحة موضع الألف ، لغتان ، إلا أن ابن ذكوان أسكن الهمزة تخفيفا ، قال الشاعر فى ترك الهمزة :

إذا دببت على المنساة من كبر   فقد تباعد عنك اللهو والغزل

وقال آخر فهمز وفتح :

ضربنا بمنسأة وجهه   فصار بذاك مهينا ذليلا

وقال آخر :

أمن أجل حبل لا أباك ضربته   بمنسأة قد جرّ حبلك أحبلا

وقال آخر فسكن همزها :

وقائم قد قام من تكأته   كقومه الشيخ إلى منسأته

وأصلها من : نسأت الغنم أى زجرتها وسقتها ، فسميت العصا بذلك لأنه يزجر بها الشىء ويساق . وقال طرفة :

أمون كألواح الإران نسأتها   على لاحب كأنه ظهر برجد [2]

فسكن همزها . قال النحاس : واشتقاقها يدل على أنها مهموزة ؛ لأنها مشتقة من نسأته أى أخرته ودفعته ، فقيل لها: منسأة لأنها يدفع بها الشىء ويؤخر . وقال=

(١) ذكر الحديث الطبرى فى تفسيره [٢٢/٧٤] ، وابن كثير فى تفسير [٣/٥٠٨] وقال : وهكذا رواه ابن أبى حاتم من حديث إبراهيم بن طهمان به ، وفى رفعه غرابة ونكارة والأقرب أن يكون موقوفًا ، وعطاء بن أبى مسلم الخرسانى له غرابات وفى بعض حديثه نكارة. قلت انظر ترجمته فى [تقريب التهذيب : ٤٦٣٣]

(٢) الأمون : التى يؤمن عثارها . والإران : تابوت الموتى. واللاحب : الطريق الواضح . والبرجد : كساء مخطط.

= مجاهد وعكرمة : هى العصا ، ثم قرأ « منساته » أبدل من الهمزة ألفا ، فإن قيل : البدل من الهمزة قبيح جدًا ، وإنما يجوز فى الشعر على بعد وشذوذ ، وأبو عمرو ابن العلاء لا يغيب عنه مثل هذا لا سيما وأهل المدينة على هذه القراءة . فالجواب على هذا أن العرب استعملت فى هذه الكلمة البدل ونطقوا بها هكذا ، كما يقع البدل فى غير هذا ولا يقاس عليه،حتى قال أبو عمرو : ولست أدرى ممن هو إلا أنها غير مهموزة ؛ لأن ما كان مهموزًا فقد يترك همزه، وما لم يكن مهموزًا لم يجز همزه بوجه . المهدوى : ومن قرأ بهمزة ساكنة فهو شاذ بعيد ؛ لأن هاء التأنيث لايكون ماقبلها إلا متحركا أو ألفًا ، لكنه يجوز أن يكون ما سكن من المفتوح استخفافا، ويجوز أن يكون لما أبدل الهمزة ألفا على غير قياس قلب الألف همزة كما قلبوها فى قولهم: العألم والخأتم، وروى عن سعيد بن جبير « من » مفصولة «سأته» مهموزة مكسورة التاء ؛ فقيل : إنه من سئة القوس فى لغة من همزها ، وقد روى همزسيه القوس عن رؤبة . قال الجوهرى : سية القوس ما عطف من طرفيها ، والجمع سيات ، والهاء عوض من الواو ، والنسبة إليها سيوى . قال أبو عبيدة : كان رؤبة يهمز « سية القوس» وسائر العرب لا يمهزونها. وفى دابة الأرض قولان : أحدهما : أنها الأرضة ؛ قاله ابن عباس ومجاهد وغيرهما . وقد قرىء « دابة الأرض » بفتح الراء ، وهو جمع الأرضة ؛ ذكره الماوردى .

الثانى : أنها دابة تأكل العيدان . قال الجوهرى : والأرضة بالتحريك : دويبة تأكل الخشب ؛ يقال : أرضت الخشبة تؤرض أرضا بالتسكين فهى مأروضة إذا أكلتها .

قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا خَرَّ﴾ أى سقط ﴿تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ﴾ قال الزجاج : أى تبينت الجن موته. وقال غيره : المعنى تبين أمر الجن ؛ مثل : ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾. وفى التفسير بالأسانيد الصحاح عن ابن عباس قال : أقام سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام حولاً لا يعلم بموته وهو متكىء على عصاه ، والجن منصرفة فيما كان أمرها به ، ثم سقط بعد حول ؛ فلما خر تبينت الإنس أن لو كان الجن يعلمون الغيب مالبثوا فى العذاب المهين . وهذه القراءة من ابن عباس على جهة التفسير . وفى الخبر : أن الجن شكرت ذلك للأرضة فأينما كانت يأتونها بالماء .

قال السدى : والطين ، ألم تر إلى الطين الذى يكون فى جوف الخشب، فإنه مما يأتيها به الشياطين شكرًا ؛ وقالت : لو كنت تأكلين الطعام والشراب لأتيناك بهما . و﴿أن﴾ فى موضع رفع على البدل من الجن ، والتقدير: تبين أمر الجن ، فحذف=

= المضاف ، أى تبين وظهر للإنس وانكشف لهم أمر الجن أنهم لا يعلمون الغيب ، وهذا بدل الاشتمال . ويجوز أن تكون فى موضع نصب على تقدير حذف اللام . و﴿لَبِثُوا﴾ أقاموا . و ﴿الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ السخرة والحمل والبنيان وغير ذلك .

وعمر سليمان ثلاثا وخمسين سنة ، ومدة ملكه أربعون سنة ؛ فملك وهو ابن ثلاث عشرة سنة ، وابتدأ فى بنيان بيت المقدس وهو ابن سبع عشرة سنة . وقال السدى وغيره : كان عمر سليمان سبعا وستين سنة ، وملك وهو ابن سبع عشرة سنة . وابتدأ فى بنيان بيت المقدس وهو ابن عشرين سنة ، وكان ملكه خمسين سنة .

وحكى أن سليمان عليه السلام ابتدأ بنيان بيت المقدس فى السنة الرابعة من ملكه ، وقرب بعد فراغه منه اثنى عشر ألف ثور ومائة وعشرين ألف شاة ، واتخذ اليوم الذى فرغ فيه من بنائه عيدًا ، وقام على الصخرة رافعًا يديه إلى الله تعالى بالدعاء فقال : اللهم أنت وهبت لى هذا السلطان وقويتنى على بناء هذا المسجد ، اللهم فأوزعنى شكرك على ما أنعمت على وتوفنى على ملتك ولا تزغ قلبى بعد إذ هديتنى، اللهم إنى أسألك لمن دخل هذا المسجد خمس خصال : لا يدخله مذنب دخل للتوبة إلا غفرت له وتبت عليه . ولا خائف إلا أمنته . ولا سقيم إلا شفيته . ولا فقير إلا أغنيته . والخامس - ألا تصرف نظرك عمن دخله حتى يخرج منه ؛ إلامن أراد إلحادًا أو ظلمًا ، يا رب العالمين . ذكره الماوردى .

قلت : وهذا أصح مما تقدم أنه لم يفرغ بناؤه إلا بعد موته بسنة ، والدليل على صحة هذا: ما خرجه النسائى وغيره بإسناد صحيح من حديث عبد الله بن عمرو عن النبى ﷺ : « أن سليمان بن داود لما بنى بيت المقدس سأل الله تعالى خلالاً ثلاثة : حكما يصادف حكمه فأوتيه ، وسأل الله تعالى ملكا لا ينبغى لأحد من بعده فأوتيه، وسأل الله تعالى حين فرغ بنائه المسجد ألا يأتيه أحد لا ينهزه (1) إلا الصلاة فيه أن يخرج من خطيئته كيوم ولدته أمه » (2) . [تفسير القرطبى : ١٤/٢٧٨-٢٨٢]

(1) أى لا يحركه .

(2) أخرجه النسائى فى الكبرى [٧٧٢] واللفظ له ، وأحمد فى المسند [٢/١٧٦] ، والحاكم فى المستدرك [١/ ٣٠، ٣١ ، ٣ / ٤٣٤] وصححه الشيخ شاكر رقم [٦٦٤٤].

* جنود سليمان عليه السلام *

يقول تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ [النمل: ١٧]، ما داموا حُشروا فمعنى ذلك أنهم جُمعوا من كل مكان؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٣٦) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ (٣٧)﴾ [الشعراء]، والحشر فى الآخرة يجمع الله الخلائق من كل مكان فى الأرض إلى مكان الحشر.

لأن معنى الحشر هو: جمع الناس من أماكن متفرقة؛ وسمى حشراً لأنك حين تجمع الناس فى مكان واحد سيضيق بهم المكان، فيحشرون فيه حشراً.

ومعنى قوله: ﴿يُوزَعُونَ﴾ أى يمنعون، ويروى: إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن(١). أى أن السلطان يمكنه أن يمنع الفساد بسلطته وقوته أكثر مما يمنعه الدعاة بخطبهم ومواعظهم؛ لأنهم يستبطئون عذاب الله وعقابه لأنه آجل فى الآخرة، ويخشون عقاب السلطان؛ لأنه عاجل فى الدنيا ولذلك الأنبياء الملوك مثل داود وسليمان لم يعارضهم أحد؛ لأن السلطان والقوة كانا فى أيديهم.

---

(١) ذكره ابن الأثير فى النهاية [٥/ ١٨٠] بلفظ: «من يزع السلطان أكثر ممن يزع القرآن».

أى: من يكفّ عن ارتكاب العظائم مخافة السلطان أكثر ممن يكفه مخافة القرآن والله تعالى.

يُقال: وَزَعَه يزعه وَزْعًا فهو وازع إذا كفه ومنعه.

إذن . . ﴿ يُوزَعُونَ ﴾ هنا أى يمنع من يذهب منهم للقاء سليمان حتى يأتى الباقون، ويحضر المتخلفون فلا يفوز أحد بلقائه دون غيره (١) حتى يحدث توازن بين الرعية . ولذلك كان من صفاته ﷺ أنه كان إذا جلس فى مجلس توزعت نظراته وعيناه على كل الجالسين؛ حتى لا يعلم أحد أنه ينظر لأحد أكثر منه، فلا يتميز أحد على أحد، حتى فى نظرة النبى ﷺ، كما كان لا يُقرب منه إلا أهل الفضل، الذين يعلم أن تقربه لهم لايعطيهم بسط سلطة على الناس (٢).

---

(١) قال ابن كثير فى قوله تعالى : ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾: أى وجمع لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير يعنى ركب فيهم فى أبهة وعظمة كبيرة فى الإنس،وكانوا هم الذين يلونه والجن وهم بعدهم فى المنزلة والطير ومنزلتها فوق رأسه،فإن كان حرًا أظلته منه بأجنحتها.وقوله: ﴿فَهُمْ يُوزَعُون﴾ أى يكف أولهم على آخرهم لئلا يتقدم أحد عن منزلته التى هى مرتبة له، قال مجاهد: جعل على كل صنف وزعة يردون أولاها على أخراها؛لئلا يتقدموا فى المسير، كما يفعل الملوك اليوم . [تفسير ابن كثير : ٣/ ٣٤٧]

(٢) فى حديث الحسن بن على رضى الله عنهما قال : سألت خالى هند بن أبى هالة التميمى - وكان وصَّافًا - عن حلية النبى ﷺ وأنا أشتهى أن يصف لى منها شيئًا أتعلق به ، فقال : « لكل حال عنده عتاد لا يقصِّر عن الحق ولا يَحُوزه الذين يلونه من الناس خيارهم، أفضلهم عنده أعمهم نصيحة، وأعظمهم عنده منزلة أحسنهم مواساة ومؤازرة.

وكان ﷺ لا يجلس ولا يقوم إلا على ذكر الله عز وجل ولا يوطن الأماكن وينهى عن إيطانها، وإذا انتهى إلى قوم جلس حيث ينتهى به المجلس ، ويأمر بذلك، ويعطى كل جلسائه بنصيبه لا يحسب جليسه أن أحداً أكرم عليه منه، من جالسه أو قاومه لحاجه صابره حتى يكون هو المنصرف، ومن سأله حاجة لم يرده إلا بها أو بميسور من القول. قد وسع الناس منه بسطه وخلقه، فصار لهم أباً وصاروا عنده فى الحق سواء . . . ».

أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة [١/ ٢٨٦ - ٢٩٢] بطوله، وانظر طبقات ابن سعد [١/ ٤٢٢] ، والبداية والنهاية [٦/ ٣١] ، وتاريخ الإسلام للذهبى [٢/ ٣١١] وكتاب أخلاق النبى ﷺ لأبى الشيخ الأصبهانى [ص ٢٣ - ٢٤].

ولذلك كان رسول الله ﷺ لا يوطن الأماكن وينهى عن إيطانها[1]، فنحن الآن نرى الناس حتى فى المسجد كل واحد يأتى بسجادة ويفرشها عند الإمام، ثم بعد ذلك يذهب لقضاء مصالحه ويرجع عند الصلاة يتخطى الرقاب ليصل إلى سجادته التى حجز بها مكانا فى الصفوف الأمامية؛ وهذا لا يعلم أن الله يعلم موعد دخول كل واحد إلى المسجد، فالذى جاء أولا- حتى لو جلس فى آخر صف- له ثواب الأول، لكنّ حجْز الأماكن بهذه الصورة خطأ ؛ لأن المكان دائما لمن سبق؛ لأن هذه العملية توسع دائرة الألفة فى المجتمع؛ لأنه لو احتفظ كل إنسان بمكانه دائما فى الصلاة لن يرى إلا من يجاوره فى الصف، لكن حين تتغير الأماكن ويتغير الأشخاص، سيتعرف على إخوة جدد وسيكثر التعارف بين المصلين، كما أنه يثبت بذلك أنه ليس هناك أحد أولى من أحد، فمن يسبق يجلس فى الصف الأول ولو كان خفيرا ، ومن يتأخر يجلس فى الصف الأخير ولو كان وزيرا ، وهذه مساواة الإسلام وعدله بين الناس، لكن تخطى الرقاب وإيذاء الناس للوصول إلى الصف الأول أمر مكروه ومذموم[2] .

(١) عن عبد الرحمن بن شبل قال : « نهى رسول الله ﷺ عن ثلاث : عن نقرة الغراب، وعن فِرشة السبع ، وأن يوطن الرجل المكان الذى يصلى فيه كما يوطن البعير ». أخرجه ابن ماجة [١٤٢٩] ، والنسائى فى الكبرى [٦٩٦] ، وأحمد فى المسند [٣٢٨/٢] وحسّنه الألبانى فى صحيح ابن ماجة [١١٧٦].
وقال ابن الأثير : قيل معناه : أن يألف الرجل مكانًا معلومًا من المسجد مخصوصًا به يصلى فيه، كالبعير لا يأوى من عطن إلا إلى مبرك دَمِث قد أوطنه واتخذه مناخًا.
وقيل : معناه أن يبرك على ركبتيه قبل يديه إذا أراد السجود ، مثل بروك البعير .
يقال : أوطنت الأرض ووطّنتها واستَوْطنتها : أى اتخذتها وطنًا ومحلاً .
[النهاية فى غريب الحديث : ٢٠٤/٥]

(٢) عن جابر بن عبد الله أن رجلاً دخل المسجد يوم الجمعة ورسول الله ﷺ يخطب ، فجعل يتخطى الناس ، فقال رسول الله ﷺ : « اجلس فقد آذيْتَ وآنيْتَ » . أخرجه ابن ماجة [١١١٥] ، وصححه الألبانى فى صحيح ابن ماجة [٩١٦].

فكلمة ﴿يُوزَعُونَ﴾ أى يمنعون، فيمتنع السابق أن يسبق حتى يأتى اللاحق؛ ليكونوا سواسية فى الدخول على سليمان عليه السلام .

وفى آية أخرى يقول سليمان عليه السلام: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ﴾ [النمل: ١٩] .

فهنا معنى ﴿أَوْزِعْنِي﴾ أى أعنى على شكر نعمتك، ولما كان ﴿أَوْزِعْنِي﴾ معناها: امنعنى فمعنى الآية إذن يكون :رب امنعنى عن الغفلة عن نعمتك لأظل شاكراً لك[١] .

---

(١) قال الشوكانى فى قوله تعالى : ﴿أَوْزِعْنِي﴾ قال فى الكشاف : وحقيقة أوزعنى : اجعلنى أزع شكر نعمتك عندى وأكفه وأرتبطه، لا ينفلت عنى حتى لا أنفك شاكراً لك . انتهى [١] . قال الواحدى : أوزعنى ، أى ألهمنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على ، يقال : فلان موزع بكذا ؛ أى مولع به . انتهى . قال القرطبى : وأصله من وزع ، فكأنه قال : كفنى عما يسخطك . انتهى[٢] . والمفعول الثانى لأوزعنى هو: أن أشكر نعمتك التى أنعمت على . وقال الزجاج : إن معنى ﴿أَوْزِعْنِي﴾ : امنعنى أن أكفر نعمتك ، وهو تفسير باللازم .
[فتح القدير : ٤/١٢٧]

---

(١) الكشاف [٣/١٣٨].

(٢) تفسير القرطبى [١٣/١٧٦].

* فى وادى النمل *

قال تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لايَشْعُرُونَ ﴾ [النمل: ١٨]

قول الله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ ﴾(١) [النمل: ١٨] ؛ يدل على

---

(١) قال ابن كثير: يخبر تعالى عن عبده ونبيه وابن نبيه سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام، أنه ركب يومًا فى جيشه جميعه من الجن والإنس والطير ، فالجن والإنس يسيرون معه ، والطير سائرة معه تظله بأجنحتها من الحر وغيره ، وعلى كل من هذه الجيوش الثلاثة وزعة -أى نقباء- يردون أوله على آخره ، فلا يتقدم أحد عن موضعه الذى يسير فيه ولا يتأخر عنه. قال الله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لايَشْعُرُونَ ﴾ فأمرت وحذرت واعتذرت عن سليمان وجنوده بعدم الشعور . وقد ذكر وهب : أنه مر وهو على البساط بواد بالطائف ، وأن هذه النملة كان اسمها جرسًا ، وكانت من قبيلة يقال لهم: بنو الشيطان وكانت عرجاء وكانت بقدر الذئب. وفى هذا كله نظر ، بل فى هذا السياق دليل على أنه كان فى موكبه راكبًا فى خيوله وفرسانه ، لا كما زعم بعضهم من أنه كان إذ ذاك على البساط ؛ لأنه لو كان كذلك لم ينل النملَ منه شىء ولا وطء ؛ لأن البساط كان عليه جميع ما يحتاجون إليه من الجيوش ، والخيول ، والجمال ، والأثقال ،والخيام ، والأنعام ، والطير ، من فوق ذلك كله .
والمقصود أن سليمان عليه السلام فهم ما خاطبت به تلك النملة لأمتها من الرأى السديد والأمر الحميد ، وتبسم من ذلك على وجه الاستبشار والفرح والسرور بما أطلعه الله عليه دون غيره . وليس كما يقوله بعض الجهلة من أن الدواب كانت تنطق قبل سليمان وتخاطب الناس،حتى أخذ عليهم سليمان بن داود العهد وألجمها ،فلم=

أنهم جاءوا لهذا الوادى من أعلى الجبل، وهذا ما تفيده كلمة ﴿ عَلَىٰ ﴾ .

وربما كان المعنى: أتوا على كذا ، مثلما تقول: فلان أتى على الطعام ، كلمة أتى معناها: انتهى منه وأكله كله، وعلى ذلك يكون المعنى: أنهم أتوا على الوادى، أى قطعوه كله، وكلا التفسيرين جائز.

والمعنى إنه لما مر سليمان بالوادى سمع تحذير النملة لقومها بأن يدخلوا مساكنهم ؛ خشية أن يحطمهم سليمان وجنوده دون أن يشعروا بهم، وهذا يفيد أن هناك نملة كانت موكلة بمراقبة حركة المرور من وإلى وادى النمل وهذه مهمتها ؛ لأن النمل أمة منظمة وكل فرد له مهمة .

ولو أنك وأنت جالس فى مكانك أتيت بقطعة سكر، أو بقايا طعام، وألقيتها على الأرض، لو نظرت إلى ما يحدث لتعجبت من صنع الخالق سبحانه فى ملكه، ستجد عددامن النمل جاءوا يستطلعون الموقع ويرصدون مكان قطعة السكر هذه أو بقايا الطعام، دون أن يقتربوا منه ثم ينصرفون، هؤلاء مهمتهم الاستطلاع فقط، وبعد ذلك يذهبون إلى مكان تجمع النمل، فتجد مجموعات من النمل جاءت والتفت حول هذه القطعة من السكر أو بقايا الطعام ، وسرعان ما يحملونها إلى مسكنهم .

ولو أنك وزنت القطعة التى ألقيتها أولا، ثم ألقيت قطعة وزنها ضعف

= تتكلم مع الناس بعد ذلك . فإن هذا لا يقوله إلا الذين لا يعلمون، ولو كان هذا هكذا لم يكن لسليمان فى فهم لغاتها مزية على غيره ، إذ قد كان الناس كلهم يفهمون ذلك ، ولو كان قد أخذ عليها العهد أن لا تتكلم مع غيره ، وكان هو يفهمها لم يكن فى هذا أيضًا فائدة يعول عليها . [البداية والنهاية : ٢/ ١٨]

وعن أبى هريرة : «قرصت نملة نبياً من الأنبياء، فأمر بقرية النمل فأحرقت ، فأوحى الله إليه أن قرصتك نملة، أهلكت أمة من الأمم تسبح الله » .

أخرجه البخارى [٣٠١٩]

وزن القطعة الأولى، وحسبت عدد النمل، ستجد عدد النمل الذى التف حول القطعة الثانية ضعف العدد الذى جاء لإحضار القطعة الأولى، ومعنى ذلك أن النمل استطلع وأخبر قيادته أن الرزق الجديد يحتاج قوة قدرها كذا من النمل لإحضاره إلى المسكن، ولو أنك تتبعت النمل الذى جاء للاستطلاع وقتلته، فإنك تجد النمل يمتنع عن الحضور إلى هذا المكان؛ لأن الذى سلم منه أخبر الباقين بخطورة السير فى هذا المكان فيبتعدون عنه، فهذه هندسة محكومة بالغريزة التى أودعها الله فى مخلوقاته، والعلماء الذين يبحثون فى حياة النمل يقولون: إنه من العجيب أنك تجد فى مسكن النمل حبوبا، ولكنها مفلوقة فلقتين، والحبة إذا انفلقت لا تصلح للإنبات، ووجدوا أن هناك حبة واحدة يفلقها النمل على أربعة أجزاء وهى حبة الكزبرة؛ لأن هذه الحبة بالذات لو قسمتها نصفين فإن كل نصف منها يصلح للإنبات بمفرده؛ لذلك يقسمها النمل أربعة أقسام؛ حتى يظل يتغذى عليها فى فترة بياته الشتوى خلال البرد القارص، فسبحان الذى علَّم النمل هذا العلم .

كما وجدوا أيضا أمام بعض مساكن النمل أشياء بيضاء صغيرة، بحثها العلماء فوجدوا أنها عبارة عن جين النبات الذى يحوى خلية الإنبات، أخرجها النمل من الحبوب وألقاها خارج مسكنه؛ حتى لاتنمو بفعل الرطوبة .

فهذه المخلوقات أمم مثلنا لها نظام حياة، ولغة، ومعيشة، وتخطيط .إلخ، وصدق الحق سبحانه إذ يقول: ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ﴾ [الأنعام: ٣٨] .

الحق سبحانه سمى لغة النملة قولا؛ ﴿ قَالَتْ نَمْلَةٌ ﴾؛ النملة التى قالت وحذرت النمل، أين رأت سليمان وجنوده ومتى اكتشفتهم؟! لابد أنها رأته

قبل أن يأتى إلى وادى النمل؛حتى تستطيع أن تحذرهم وتنبههم قبل وصوله إليهم؛ حتى لا يحطمهم هو وجنوده دون أن يشعر بهم لضآلة أجسامهم.

وقول الله تعالى: ﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ ﴾ [النمل: ١٩] : يدل على أنه سمعها، فالنملة رأت قبل أن يوجد المرئى، وسليمان سمع قبل أن يصل إلى وادى النمل؛ سليمان عليه السلام تبسم ضاحكا، أى بدأ بالبسمة التى قد تصل إلى الضحك، وشعر بفضل الله الذى أنعم عليه هذه النعمة ، وقال : ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾ [النمل: ١٩] ؛ أى يارب امنعنى أن أنسى فضلك على؛ حتى أظل شاكراً حامدا لك؛ لأن هذا نعمة فوق ما أنعمت به على عامة الخلق، ونعمة فوق ما أنعمت به على من سبقنى من الأنبياء، وفوق ما أنعمت به على الملوك ، فهو أكثر من الملوك ؛لأن الله أعطاه الملك مع النبوة ،وإن كان نبينا محمد ﷺ رفض أن يكون ملكا (١) .

---

(١) روى ابن إسحاق بسنده عن محمد بن كعب القرظى ، قال: حدثت أن عتبة بن ربيعة - وكان سيداً - قال يوماً وهو جالس فى نادى قريش ورسول الله ﷺ جالس فى المسجد وحده: يا معشر قريش ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ويكف عنا؟ وذاك حين أسلم حمزة ورأوا أصحاب رسول الله ﷺ يزيدون ويكثرون، فقالوا: بلى يا أبا الوليد. فكان فيما قاله له: إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت تريد به شرفاً سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد به ملكاً ملّكناك علينا، وإن كان هذا الذى يأتيك رئيا - وكانوا يسمون التابع من الجن رئيا - لا تستطيع رده عن نفسك ، طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك =

سليمان سمع قول النملة قبل أن يصل إلى وادى النمل، فكيف حدث ذلك ؟ بعض العلماء يقولون: إن الريح نقلت له الصوت. ونحن نقول: إن هذا تفسير ميكانيكى، والمسألة ليست ميكانيكية، ولكنها عمل رب قادر على كل شىء؛ النملة لما قالت: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ ﴾ ،هذا يفيد أن لهم مجال معيشة يبحثون فيه عن رزقهم،ولهم مساكن يأوون إليها ويريحون فيها بعد جمع قوتهم - من فضلات الحلوى والطعام التى تقع على الأرض من الإنسان- فهذا المكان الذى فيه رزقهم يتجمع فيه النمل،ولكن هناك عجيبة أخرى وهى أن محلات الحلويات المملوءةبالسكر وأصناف الحلوى،لا ترى فيها نملة، مع أنك لو عندك قليل من السكر فى المنزل تجد النمل يصل إليه حتى لو كان داخل علبة فى المطبخ مثلا، فلماذا لا يوجد النمل فى محلات الحلوى المملوءة بالسكر والحلويات ؟! العلماء بحثوا طويلا فى هذه الظاهرة الغريبة، فوجدوا أن السمسم إذا وضع فى مكان لا يدخله النمل أبدا . فسبحان الله.

ومعنى﴿ لَايَحْطِمَنَّكُمْ ﴾: الحطم هو الكسر؛ولذلك يقول ربنا عز وجل:

= منه.. ثم ذكر ما كان من رد النبى ﷺ وقراءة النبى : ﴿الٓمٓ ① تَنزِيلُ الْكِتَابِ لارَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ② أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّاأَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ③ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَابَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلا شَفِيعٍ أَفَلاتَتَذَكَّرُونَ ④ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ⑤﴾ [السجدة] وانتهاءه إلى السجدة منها.

وقوله لعتبة بن ربيعة :« قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت ، فأنت وذاك».

والخبر بطوله فى السيرة النبوية لابن هشام [١/٣٦٨-٣٧١]=

﴿ كَلاَّ لَيُنبَذَنَّ فِى الْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ ﴾(1) [الهمزة] .

سليمان ضحك بسبب ثلاثة أشياء:

أولا : لأنه سمعها عن بعد، والنملة عرفت أنه سليمان قبل أن تراه.

ثانيًا : لعدالة حكمها؛ لأنها قالت لقومها :إن سليمان ليس متجبرا حتى يحطمكم هو وجنوده، ولكنهم لن يروكم لدقة أجسامكم.

ثالثًا : لأنها شهدت بحق.

فهذه النملة رأت عن بعد، ونطقت بحق، وحكمت بعدل، وعلى ذلك فأى إنسان يرى نعمة من نعم الله تطرأ عليه، يجب عليه أولا أن يحمد الله عليها. ونحن قلنا فى تفسير قول الله تعالى: ﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ [التكاثر: ٨] ، قلنا: إذا أردت أن لا يسألك الله على أى نعمة أنعمها عليك، فاشكر الله على نعمه سبحانه ؛ لأن النعمة التى تحمد الله عندها لا تسأل عنها ؛ لأنك أديت حقها .

ونحن نرى فى الريف يضعون للدجاجة التى تبيض شيئاً اسمه الرقوبة؛

= وعن الشعبى قال : لما أراد الحسين بن علىّ أن يخرج إلى العراق ، أراد أن يلقى ابن عمر، فسأل عنه ، فقيل له : إنه فى أرض له ، فأتاه ليودعه ، فقال له : إنى أريد العراق ، فقال : لا تفعل ، فإن رسول الله ﷺ قال : « خُيِّرت بين أن أكون نبيًا ملكًا ، أو نبيًا عبدًا ، فقيل لى : تواضع ، فاخترت أن أكون نبيًا عبيدًا ». وإنك بضعة من رسول الله ﷺ ، فلا تخرج .

أخرجه البزار [١٩٨٥- كشف]، وذكره الهيثمى فى المجمع [٩/ ١٩٥] وقال : رواه البزار والطبرانى فى الأوسط ورجال البزار ثقات .

(1) قال البغوى فى قوله تعالى : ﴿ فِى الْحُطَمَةِ ﴾ فى جهنم ، والحطمة من أسماء النار، مثل : سَقَر ، ولظى؛ سميت حطمة لأنها تحطم العظام وتكسرها .

[تفسير البغوى : ٨/ ٥٣٠]

لتضع الدجاجة البيض عندها، وليس هذا من أجل بيض هذه الدجاجة، ولكن من أجل من ينتفعون بهذا البيض؛ حتى يكون فى مكان ظاهر ومعروف، ويتوالى بيض الدجاج عند هذه الرقوبة؛ لأن الدجاجة يمكن أن تبيض فى مكان غير ظاهر، ويظل البيض غير معروف حتى يفسد دون أن يراه أحد، فشكر الله هو رقوبة النعمة التى تأتى، ولذلك يشرحها الله فى قوله: ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم: ٧] ، فإذا أردت أن يزيدك الله من النعم ، فأعطه المزيد من الحمد والشكر،وحتى فى العلم يعلمنا ربنا سبحانه أنه من علم علما وعمل به أورثه الله علم ما لا يعلم؛ لأنه ما دام عمل به، فهو مأمون على العلم فيزيده الله منه، ولكن الذى لا يعمل بماعلم يكون مذموما عند الله وعند الناس، ويكون علمه فى النقصان حتى ينتهى .

وقلنا: إن معنى﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ﴾ :يا رب امنعنى الشاغل الغرورى الذى يصرفنى عن نعمتك، حتى أظل شاكراً وحامدا لك على نعمتك التى أنعمتها على أنا، وعلى والدى أيضا؛ لأنه ورث منهم ﴿ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾ .

إذن ثمن النعمة أن أعمل الأعمال الصالحة وأؤدى أعمالاً وخدمات نافعة للناس؛ حتى أُرى ربى أنى مأمون على النعمة التى وهبها لى سبحانه وتعالى، وحتى أدخل فى عداد من يقول عنهم: ﴿ مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ ﴾ [الحديد: ١١]

﴿ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾ ؛ فكأن الفضل والرحمة من الله هما اللذان يفرح بهما الإنسان؛ لأنهما اللذان سيدخلانه فى عباد الله الصالحين؛ ولذلك قال رسول الله ﷺ : «لن يُدخِل أحدًا منكم عملهُ

الجنة» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله منه بفضلٍ ورحمة»(١). وذلك قول الله تعالى: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس: ٥٨] ، فإياك أن تغتر أوتفرح بعملك ولكن افرح بفضل الله وارج رحمته .

(١) أخرجه البخارى [٥٦٧٣] ، ومسلم [٢٨١٦/ ٧٥] واللفظ له .

* هدهد سليمان *

يقول الله تعالى : ﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴾[النمل: ٢٠] ؛ مادة فقد، الفاء، والقاف، والدال؛ إما أن تكون: فقد بمعنى ضاع، فتقول: فقدت الشيء؛ أى : ضاع منى، وإما تفقدته، فمعناه: أنه لم يضع ولكنك تبحث عنه فى مظانه، فالتفقد هو : بحث عن شيء فى الأماكن التى تتوقعه فيها، لكنه موجود (١)؛ والحق سبحانه وتعالى فى قصة يوسف يقول: ﴿ قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ (٧١) قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ (٧٢) ﴾[يوسف] .

---

(١) قال صديق خان فى قوله تعالى : ﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ ﴾ : التفقد تطلب ما غاب عنك ، وتعرف أحواله . والطير اسم جنس لكل ما يطير، والمعنى أنه تطلب ما فقد من الطير، وتعرف حال ما غاب منها ،وكانت الطير تصحبه فى سفره وتظله بأجنحتها . ﴿ فَقَالَ مَا لِيَ ﴾ وقُرىء بسكون الياء، ﴿ لا أَرَى الْهُدْهُدَ ﴾ ؟ أى ما للهدهد لا أراه فهذا من الكلام المقلوب الذى تستعمله العرب كثيراً .
وقيل : لا حاجة إلى ادعاء القلب ، إذ المعنى صحيح بدونه ، بل هو استفهام واستخبار عن المانع له من رؤية الهدهد ، كأنه قال : ما لى لا أراه، هل ذلك لساتر يستره عنه ؟ أو لشيء آخر ؟
قال الكلبى : ولم يكن له فى مسيره إلا هدهد واحد ، والهدهد معروف .
ثم ظهر له أنه غائب فقال : ﴿ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴾ فلم أره لغيبته . و«أم» هى المنقطعة التى بمعنى الإضراب.
عن ابن عباس أنه سئل: كيف تفقد سليمان الهدهد من بين الطير ؟ فقال: إن سليمان نزل منزلاً فلم يدر ما بعد الماء، وكان الهدهد يدل سليمان على الماء ،فأراد أن يسأله=

وقول الله تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ﴾ : يدل على أن الرئيس، أو المهيمن على شىء لابد له من المتابعة، فساعة جلس فى مجلس القضاء أو مجلس العلم أو أى مجلس كان؛ لابد وأن ينظر ليتفقد المجلس، كما نسميه نحن الآن استعراضاً ، كما يستعرض الرئيس حرس الشرف مثلاً ، وكما يحدث فى طابور العرض وغير ذلك؛ حتى يرى المسئول مدى الاستعداد والكفاءة بين العاملين معه، أو الجند أو غير ذلك، والتفقد من سليمان عليه السلام يدل على المتابعة، وكان محتاجاً للهدهد، فبحث عنه فلم يجده؛ لأن سليمان كان يريد أن يقوم برحلة فى الصحراء، والهدهد خبير فى منابع المياه فى الأرض، فهو يرى الماء فى الأرض؛ ولذلك جعل الله له منقاراً طويلاً ؛لأن ميزته أنه يأكل أى شىء على سطح الأرض،بل يأكل مما اختبأ تحت سطح الأرض.

لذلك لماتكلم عن بلقيس وقومها الذين كانوا يعبدون الشمس، استعجب من أمرهم وقال : ﴿أَلا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِى يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [النمل: ٢٥] لأن رزقه من هذا الشىء المخبوء فى الأرض.

وقول سليمان: ﴿مَا لِىَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾ ساعة يستفهم واحد عن شىء جوابه عند نفسه لا يكون هذا استفهاماً ؛لأنه يقول: ﴿مَا لِىَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ﴾ ،كأنه قد استبعد أولاً أن أحداً يتخلف عن مجلسه، فهو استفهم أولاً ثم تيقّن أنه غائب، فقال: ﴿أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾

= عنه ففقده ،قال سعيد بن جبير: لما ذكر ابن عباس رضى الله عنه هذا قيل له: كيف ذلك ،والهدهد ينصب له الفخ يلقى عليه التراب ويضع له الصبى الحبالة فيغيبها فيصيده ؟ فقال: إذا جاء القضاء ونزل القدر ذهب اللب، وعمى البصر .

[فتح البيان : ١٠/ ٢٨، ٢٩]

وما دام كان من الغائبين، لابد له من الجزاء؛ لأن أى مخالفة لا تقابل بجزاء تثمر مخالفات متعددة ، فساعة ترى موظفاً خالف فى عمله، وانحرف عن الحق ولم يحاسبه أحد، ماذا يحدث ؟ كل زملائه سيحاولون الاقتداء به، ويكون قدوة سيئة لغيره، ويستشرى الفساد والانحراف، لكن لو أن أول واحد خالف أُخذ على يده يكون عبرة لغيره وتنتهى المسألة.

والهدهد لما كان غيابه بدون إذن من سليمان، قال سليمان: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ [النمل: ٢١] ؛ هذا ليس جبروتاً من سليمان ولكنه حزم، ومع ذلك علق أمر العقوبة على حجة الهدهد[1]، مما يستخلص منه أن المرءوس إن رأى خيراً يخدم فكرة رئيسه ويخدم الفكر العام، وكان الوقت ضيقًا لا ينتظر حتى يأخذ الإذن أو الأمر، بل ينصرف ثم يخبر رئيسه بها، فمثلاً فى الحرب العالمية الأولى وجد أحد القادة الألمان من خلال أجهزة الاستطلاع، أن عدوه جاء بأعداد كثيفة من الجنود والأسلحة وليس عنده ما يقاومها؛ فأراد أن يحتال ليواجه هذا الموقف، فقال: المفهوم عند كل الجيوش أن أى قائد لا يجازف بكل قوته فى المعركة، بل يدَّخر جزءاً منها، حتى إذا حدث للمقدمة شىء فى المعركة، يكون عنده رصيد استراتيجى من القوات الاحتياطية ، لكن إن دخل المعركة بكل قواته وهُزم ، تضيع المسألة ويخسر كل شىء ، فقال: أنا أعمل حيلة وأواجه العدو بكل القوات الموجودة عندى؛ حتى يظن العدو أن هذه ليست كل قواتى، وأن عندى قوات احتياطية أخرى، وفعلاً نجح

---

(١) قال سفيان بن عيينة وعبد الله بن شداد : لما قدم الهدهد قالت له الطير : ما خلَّفك؟ فقد نذر سليمان دمك ، فقال : هل استثنى ؟ قالوا : نعم، قال : ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ قال: نجوت إذًا .قال مجاهد : إنما دفع الله عنه ببره بأمه . [تفسير ابن كثير : ٣/ ٣٤٨]

وانتصر فى هذه المعركة، مع أنه خالف القوانين والأوامر العسكرية؛ لذلك أعطوه وسام النصر .

قول سليمان عليه السلام : ﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ ، هذه الآية حلت لنا إشكالاً كبيراً ، فالمتمردون على منهج الله يريدون أن يعدلوا على أحكام الله، قالوا: النص القرآنى يقول : ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ﴾ [النور: ٢] ، فلا شىء فى عقوبة الزانى إلا الجلد ، وأنكروا عقوبة الرجم، وقالوا: هذا هو الدليل على بطلان الرجم؛ لأن الأمة حينما تزنى إن كانت غير محصنة نجلدها خمسين جلدة ؛ لأن الله تعالى قال : ﴿ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ﴾ [النساء: ٢٥] ، فإذا كانت فى الجلد تجلد نصف ماتجلد المحصنة، فإذا كانت عقوبتها الرجم، كيف نرجمها نصف رجم ؟ ولما كان الرجم لاينصف، قالوا بعدم الرجم، وأنه ليس فى عقوبات الشريعة رجم، ورد عليهم العلماء بالحجة الدامغة، فأوضحوا لهم أنهم لم يفهموا كلام الله؛ لأن الله تعالى يقول : ﴿ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ﴾ لكن الموت ليس عذاباً ولكنه إزهاق روح(١)؛ بدليل هذه الآية التى يقول الله فيها على لسان سليمان عليه السلام: ﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ ﴾ ، فالموت ليس عذاباً ، والتنصيف فى العذاب فقط وهو الجلد.

---

(١) قال القرطبى فى قوله تعالى: ﴿ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ﴾ ؛ أى الجلد، ويعنى بالمحصنات هاهنا الأبكار الحرائر ؛ لأن الثيب عليها الرجم، والرجم لايتبعض ، وإنما قيل للبكر: محصنة وإن لم تكن متزوجة ؛ لأن الإحصان يكون بها؛ كما يقال : أضحية قبل أن يضحى بها ؛ وكما يقال للبقرة : مثيرة قبل أن تثير. وقيل : ﴿ الْمُحْصَنَاتِ ﴾ المتزوجات ؛ لأن عليها الضرب والرجم فى الحديث ، والرجم لا يتبعض فصار عليهن نصف الضرب . والفائدة فى نقصان حدهن : أنهن=

. . . .

= أضعف من الحرائر . ويقال : إنهن لا يصلن إلى مرادهن كما تصل الحرائر . وقيل : لأن العقوبة تجب على قدر النعمة ؛ ألا ترى أن الله تعالى قال لأزواج النبى ﷺ : ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ ؟! فلما كانت نعمتهن أكثر جعل عقوبتهن أشد ، وكذلك الإماء لما كانت نعمتهن أقل، فعقوبتهن أقل. وذكر فى الآية حدّ الإماء خاصة ، ولم يذكر حدّ العبيد ؛ ولكن حدّ العبيد والإماء سواء : خمسون جلدة فى الزنا ، وفى القذف وشرب الخمر أربعون ؛ لأن حدّ الأمة إنما نقص لنقصان الرق، فدخل الذكور من العبيد فى ذلك بعلة المملوكية ، كما دخل الإماء تحت قوله عليه السلام : « من أعتق شركًا [(١)] له فى عبد »[(٢)]. وهذا الذى يسميه العلماء القياس فى معنى الأصل ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ الآية . [تفسير القرطبى : ٥/ ١٤٥ ، ١٤٦] وقال أيضًا : الحد الذى أوجب الله فى الزنا والخمر والقذف وغير ذلك ، ينبغى أن يقام بين أيدى الحكام ، ولا يقيمه إلا فضلاء الناس وخيارهم ، يختارهم الإمام لذلك . وكذلك كانت الصحابة تفعل ، كلما وقع لهم شىء من ذلك - رضى الله عنهم- وسبب ذلك أنه قيام بقاعدة شرعية وقربة تعبدية، تجب المحافظة على فعلها وقدرها ومحلها وحالها، بحيث لا يتعدى شىء من شروطها ولا أحكامها ؛ فإن دم المسلم وحرمته عظيمة ، فتجب مراعاته بكل ما أمكن، روى فى الصحيح عن حصين بن المنذر أبى ساسان قال : شهدت عثمان بن عفان وأتى بالوليد قد صلى الصبح ركعتين ثم قال : أزيدكم ؟ فشهد عليه رجلان- أحدهما حمران- أنه شرب الخمر، وشهد آخر أنه رآه يتقيأ ؛ فقال عثمان : إنه لم يتقيأ حتى شربها ؛ فقال : يا على قم فاجلده. فقال على: قم ياحسن فاجلده . فقال الحسن ولّ حارها [(٣)] من =

(١) اى حصة ونصيبًا .

(٢) جزء من حديث أخرجه البخارى [٢٤٩١، ٢٤٩٢ ، ٢٥٠٣، ٢٥٠٤ ، ٢٥٢٧] ، ومسلم [١٥٠١] واللفظ له .

(٣) قال الإمام النووى : وقوله :«ول حارها من تولى قارها » الحار : الشديد المكروه. والقار : البارد الهنىء الطيب، وهذا مثل من أمثال العرب، قال الأصمعى وغيره معناه: ولّ شدتها =

ثم يقول سبحانه : ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ . [النمل: ٢٢] مكث معناها: بقى أو انتظر، ولكن الهدهد لم يغب طويلاً ؛ لأنه خاف من غيابه عن مجلس سليمان بدون علمه.

والمكث: هو الاستقرار فى المكان، كما فى قول الله تعالى:﴿قَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا ﴾ [القصص: ٢٩] ، ولكن هنا الهدهد لم يمكث كثيراً، ومكث غير بعيد، أى مدة ليست طويلة. وهناك بعض الألفاظ تأخذ الشىء ومقابله، فمثلاً فى سورة الكهف قول الحق سبحانه وتعالى فى العبد الصالح مع موسى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ [الكهف: ٦٠] ، فهل معنى «لا أبرح» أى لا أترك هذا المكان ؟ لا ، معنى: «لا أبرح» هنا ، أى لا أترك السير حتى أصل مجمع البحرين ، فلا أبرح الحال الذى أنا عليه- وهو المشى- حتى أبلغ مجمع البحرين، حتى لو ظللت ماشياً مدة طويلة من الزمن.

وفى سورة يوسف يقول الحق : ﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ

= تولى قارّها -فكأنه وجد عليه - فقال : يا عبد الله بن جعفر، قم فاجلده ؛ فجلده وعلى يعد . . . الحديث (١).

فانظر قول عثمان للإمام على : قم فأجلده .

[تفسير القرطبى : ١٢/١٦٣ ، ١٦٤]

= وأوساخها من تولى هنيئها ولذاتها . والضمير عائد إلى الخلافة والولاية ، أى كما أن عثمان وأقاربه يتولون هنىء الخلافة ويختصون به ، يتولون نكدها وقاذوراتها ، ومعناه : ليتول هذا الجلد عثمان بنفسه أو بعض خاصة أقاربه الأدنين . والله أعلم .

[شرح النووى على مسلم : ٦/٢٣٦]

(١) أخرجه مسلم [١٧٠٧/٣٨].

كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾. [يوسف: ٨٠]

أى أنه لن يغادر مكانه هكذا ويرجع إلى بلده بدون أخيه. فمعنى: لن أبرح، أى أقيم على الحال الذى أنا عليه، فإن كنت سائراً أظل سائراً، وإن كنت مقيماً أظل مقيماً، وهناك قول الله تعالى عن بنى إسرائيل حينما عبدوا العجل: ﴿قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ [طه: ٩١]؛ أى يظلون على حالتهم التى يعبدون فيها العجل.

العلماء بحثوا فى العذاب الشديد الذى توعد سليمان به الهدهد، فقالوا إن الهدهد يتميز ويتفاخر على باقى الطيور بأن شكله جميل: ألوانه المخططة، وعرفه، ومنقاره الطويل، والتاج الذى فوق رأسه، فقال سليمان: هذا الريش الذى يتخايل به الهدهد سأنتفه، وألقيه إلى النمل والحشرات. أو أن العذاب الشديد للهدهد أن يرميه سليمان؛ ليعيش مع غير بنى جنسه من الطيور الأخرى، وهذا عذاب شديد له؛ لأنه لن يكون له إلف بحركتهم أو نظامهم أو التعامل معهم، فيكون غريباً طريداً بينهم، ومن العذاب أيضاً أن يجعله يخدم أقرانه من الهداهد الأخرى، أو يجمعه مع أضداده(١)؛ لأن هناك بعض الطيور يضاد بعضها بعضاً، فساعة يرى طائر طائراً من أضداده يتشاجر معه، وتقوم بينهم معركة، ولذلك يقولون: «أضيق من السجن عِشرة الأضداد».

(١) قال الشوكانى فى قوله تعالى: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ﴾: اختلفوا فى هذا العذاب الشديد ما هو؟ فقال مجاهد وابن جريج: هو أن ينتف ريشه جميعا. وقال يزيد بن رومان: هو أن ينتف ريش جناحيه. وقيل: هو أن يحبسه مع أضداده. وقيل: أن يمنعه من خدمته، وفى هذا دليل على ان العقوبة على قدر الذنب، لا على قدر الجسد. [فتح القدير ٤/١٢٨]

ومعنى: ﴿فقال﴾ أى أنه كلَّم سليمان قبل أن ينهره، وقال له بكل ثقة: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ ؛ انظروا سليمان الذى كان عنده كل هذا الملك الذى لم يؤته أحد، وحوله كل هذا الصولجان يقول له هدهد ضعيف: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾ فكيف يجرؤ على أن يقول ذلك لسليمان النبى الملك؟ ﴿مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ﴾ : تعبير قرآنى جميل يسمونه فى اللغة الجناس، والجناس أن تأتى بلفظين متشابهين فى المبنى ومختلفين فى المعنى ، مثل قول الشاعر:

رحلت عن الديار لكم أسير وقلبى فى محبتها أسير

فكلمة أسير الأولى بمعنى المشى، والثانية بمعنى الأسر، فاللفظ واحد، ولكن المعنى مختلف، وقد لايتفق اللفظ كله، فتكون أغلب الحروف متشابهة، وتختلف فى حرف واحد، ولكن يعطيها الجرس الجميل؛ مثل قوله تعالى: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ وهذا المحسِّن البديعى إذا كان جاء بتكلف يكون ثقيلاً ، ولكنه يأتى بطبيعته، بالله عليكم لو قال: وجئتك من سبأ بخبر هل يتسق المعنى؟ لا. المعنى لا يتسق ؛ لأن هذا ليس مطلق خبر، ولكنه خبر عجيب، والنبأ هو الخبر العجيب وليس الخبر العادى؛ يقول تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (١) عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ (٢)﴾ [النبأ].

فلا يقال: نبأ ، إلا إذا كان الخبر هاماً وعجيباً . ومسألة بلقيس وعرشها وقومها الذين يسجدون للشمس خبر هام جداً ، فلو قال: وجئتك من سبأ بخبر؛ لا يعنى بالمعنى المطلوب ولا يناسب أهمية الحدث، فالجناس جاء فى وضعه اللفظى، ولم يَجْنِ على المعنى، وفى آية أخرى يقول تعالى مثلاً: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ [الروم: ٥٥].

فاللفظ واحد ولكن الساعة الأولى هى القيامة، والثانية تعنى ساعة زمنية.

والنبى ﷺ يقول : «الخيل معقود فى نواصيها الخير إلى يوم القيامة»(١) .
ولكن هناك السجع المتكلف الذى ينحت صاحبه فى الكلام، مثل من قال:

كنا نمشى فنزل المطر كأفواه القرب

فوقع رجل كان يحمل العنب

ومعنى: ﴿أَحَطتُ﴾ الإحاطة معناها إدارك المعلوم من كل جوانبه فمثلاً نحن نسمى: البحر المتوسط بحراً ، ولم نسّمه محيطاً ،ونسمى البحر الأحمر ،والبحر الأسود ،والبحر الميت ، لكن البحار الضخمة الواسعة التى تحيط بالقارات هى التى نسميها بالمحيط، وتجد الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [الأنفال: ٤٧] ؛ وهذا المعنى يأخذه الناس فيسمون البساتين بالحيطان، يقولون: كان لبنى فلان حائط، أى بستان؛ لأنهم كانوا يحددون البساتين بالحوائط؛ حتى لا يجور أحد على أحد، ويقولون أيضاً : فلان يحتاط لكذا؛ أى يأتى بالمسألة من كل جوانبها ، ويعمل لكل شىء حساباً، ولو من باب الاحتياط .ومثلاً فى الهندسة يوجد : المركز والدائرة والقطر والمحيط.

فالمحيط يحيط بالمركز إحاطة مستوية من كل نقطة بأنصاف الأقطار، وهى إحاطة تامة.

ولكن هل قول الهدهد لسليمان : ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾؛ هل هذا نقص فى سليمان لأنه لا يعرفها ؟ لا، بل هذا تكريم لسليمان؛ لأن الله سخر له ناساً يخدمونه فى كل ناحية، وفرق بين أن تفعل أنت الشىء لذاتك، وبين أن يُفعل لك. فمعنى أن يُفعل لك فهذه سيادة أخرى وتكريم كبير ، ولأجل أن يُعلمنا الله سبحانه وتعالى أننا لا نكتم مواهب النَّابغين-

(١) أخرجه البخارى [٣٦٤٤] واللفظ له ، ومسلم [١٨٧٣ / ٩٨].

ونعطى لهم مجالاً أن يقولوا رأيهم ويأخذوا فرصتهم ويبرزوا مواهبهم لأن هذه خدمة لك أنت أيها الرئيس أو المسئول؛ ولمصلحتك، ولأن سليمان لم يسأل الهدهد عن سبأ، فمعنى هذا أنها كانت معروفة أو سمعوا عنها ، ولكنه لا يعرف التفاصيل التى عرفها الهدهد.

ولكن ما هذا النبأ الخطير الذى عرفه الهدهد عن سبأ ؟

قال تعالى موضحاً: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل: ٢٣].

﴿تَمْلِكُهُمْ﴾ أى: تحكمهم، ومعنى: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ أى مما يؤتاه أقرانها من الملوك، وليس مثل الذى أوتيه سليمان عليه السلام؛ لأن هذا شىء آخر. والعرش هو مكان جلوس الملك وكان عادة يتمشى مع عظمة الملك[1] ، فالعرش لجلسة المتمكن الذى يدير الأمور، وكون العرش يكون عظيماً، فهذا دليل على أن المملكة فيها عظمة، ولكن كيف يصف الهدهد عرش بلقيس بأنه عظيم، مع أن عرش الحق سبحانه وتعالى موصوف بأنه عظيم ؟! قالوا : هذا عظيم بالنسبة للملوك، إنما عرش الله عظيم بالنسبة لكل الخلق.

والهدهد أخبر سليمان عليه السلام بقوله: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ هذا فيما يتعلق بالملك؛ لأن نبى الله سليمان كان ملكاً نبياً ، فذكر له الأشياء التى رآها وتتعلق بالملك؛ وفيما يتعلق بالعقيدة التى تهم سليمان - لأنه نبى- أخبره بقوله عن ملكة

---

(١) قال ابن الأثير : كان عرشها سريرًا من ذهب مكلل بالجواهر النفيسة من اليواقيت والزبرجد واللؤلؤ . [الكامل فى التاريخ :١/ ٢٣٥]

وقال ابن جماعة : هو عرش من ذهب وفضة مكللاً بأنواع الجواهر ، وكان سعته ثمانين ذراعًا فى ثمانين، وسُمْكه كذلك وعليه سبعة أبيات . [غرر التبيان : ٣٨١]

سبأ: ﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ [النمل: ٢٤] .

فكأن الهدهد يعرف قضية العقيدة وقضية الإيمان، وأن الخلق لا يجب ولا يصح أن يعبدوا إلا الله! ولذلك يقول إنه وجدها وقومها يعبدون الشمس من دون الله، ولماذا لا يعبدون الله الذى يخرج الخبء فى الأرض؟ كيف لا يعبدون المنعم عليهم بكل النعم (١) ؟!

---

(١) قال ابن قيم الجوزية: وهذا الهدهد من أهدى الحيوان وأبصره بمواضع الماء تحت الأرض ، لا يراه غيره، ومن هدايته ما حكاه الله عنه فى كتابه أن قال لنبى الله سليمان ، وقد فقده وتوعده، فلما جاءه بدره العذر قبل أن ينذره سليمان بالعقوبة ، وخاطبه خطابا هيجه به على الإصغاء إليه والقبول منه فقال : ﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ ﴾ وفى ضمن هذا إنى أتيتك بأمر قد عرفته حق المعرفة، بحيث أحطت به وهو خبر عظيم به شأن؛ فلذلك قال : ﴿ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾، والنبأ : هو الخبر الذى له شأن، والنفوس متطلعة إلى معرفته، ثم وصفه بأنه نبأ يقين لاشك فيه ولاريب ، فهذه مقدمة بين يدى إخباره لنبى الله بذلك النبأ ، استفزعت قلب المخبَرَ لتلقى الخبر، وأوجبت له التشوق التام إلى سماعه ومعرفته ، وهذا نوع من براعة الاستهلال وخطاب التهييج ، ثم كشف عن حقيقة الخبر كشفًا مؤكدًا بأدلة التأكيد فقال : ﴿ إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ ﴾ ، ثم أخبر عن شأن تلك الملكة وأنها من أجلّ الملوك ، بحيث أوتيت من كل شيء يصلح أن تؤتاه الملوك ، ثم زاد فى تعظيم شأنها بذكر عرشها الذى تجلس عليه، وأنه عرش عظيم ، ثم أخبره بما يدعوهم إلى قصدهم وغزوهم فى عقر دارهم بعد دعوتهم إلى الله فقال: ﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ وحذف أداة العطف من هذه الجملة ، وأتى بها مستقلة غير معطوفة على ما قبلها ؛ إيذانا بأنها هى المقصودة وما قبلها توطئة لها ، ثم أخبر عن المغوى لهم الحامل لهم على ذلك ، وهو تزيين الشيطان لهم أعمالهم حتى صدهم عن السبيل المستقيم ، وهو السجود لله وحده ، ثم أخبر أن ذلك الصد حال بينهم وبين الهداية والسجود لله الذى لا ينبغى السجود إلا له، ثم ذكر أفعاله سبحانه: إخراج الخبء فى السموات والأرض ، وهو المخبوء فيهما من المطر والنبات والمعادن، وأنواع ما ينزل من السماء، وما يخرج من الأرض، وفى ذكر الهدهد هذا الشأن من أفعال الرب تعالى بخصوصه ، إشعار بما خصه الله به من إخراج الماء المخبوء تحت =

إذن.. هنا نعلم سر الحق فى قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

انظروا إلى كلام الهدهد وعقيدته ووعظه الجميل فى قوله تعالى: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لاَ يَهْتَدُونَ﴾.

والذى أحزن الهدهد أنهم يسجدون للشمس من دون الله؛ ولذلك قال مستنكراً فعلهم: ﴿أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [النمل: ٢٥].

لأن الإنسان يحتاج إلى أشياء كثيرة جداً كمقومات حياة، ومقوم الحياة الأساسى هو النبات الذى ينبت من الأرض؛ لأنه هو الذى يغذى الحيوان الذى سيأكل الإنسان لحمه، ويشرب لبنه ويستفيد منه، وهذه الحياة تحتاج إلى مطر ينزل من السماء، ونبات يخرج من الأرض، فالخبء فى السماء هو المطر ،والخبء فى الأرض هو النبات.

والهدهد خلال طيرانه فى قصر بلقيس رأى كوة أو طاقة تدخل منها الشمس، وهى مبنية بشكل هندسى بحيث تدخل منها الشمس كل يوم بعد شروقها، فتتنبه بلقيس وتستقبلها بالسجود؛ ولذلك حينما ذهب الهدهد بكتاب سليمان إليهم، وقف فى الطاقة وسدها بجناحيه، فانتظرت بلقيس دخول شعاع الشمس وارتفاعها، فصعدت إلى الطاقة لترى ما بها، فطار

= الأرض. قال صاحب الكشاف: وفى إخراج الخبء أمارة على أنه من كلام الهدهد؛ لهندسته ومعرفته الماء تحت الأرض ، وذلك بإلهام من يخرج الخبء فى السموات والأرض -جلت قدرته ولطف علمه - ولا يكاد يخفى على ذى الفراسة الناظر بنور الله مخايل كل شخص بصناعة ، أو فن من العلم فى روائه ومنطقه وشمائله ، فما عمل آدمى عملاً إلا ألقى الله عليه رداء عمله. [شفاء العليل : ١٩٢/١٩٣]

الهدهد وألقى كتاب سليمان عليه السلام، فأخذته بلقيس.

إذن . . الهدهد يستغرب أن يسجد هؤلاء القوم للشمس، ولا يسجدون لله الخالق الرازق الذى يخرج لهم رزقهم ، ويعلم سرهم وجهرهم.

ثم يقول سبحانه : ﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ [النمل: ٢٦].

فالله هو المستحق للعبادة وحده، وهو رب العرش العظيم، وقلنا إن عظمة عرش بلقيس، وعروش ملوك الدنيا كلها هى على قدر عظمة البشر وقدرتهم، ولكن عظمة عرش الله على قدر عظمته وقدرته سبحانه.

سليمان لم يأخذ كلام الهدهد حجة مسلمة، ولكنه أراد أن يتأكد فقال: ﴿ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ [النمل: ٢٧] .

النظر محل العين، والصدق والكذب لا يعرفان بالعين، ولكن كلمة النظر هنا انتقلت من العين إلى معنى العلم بالحجة؛ ولذلك فى التوقيع على كثير من الأوراق يقول "نُظر" والناس يقولون هذه مسألة فيها نظر، أى أنها لا تمر مرور الكرام ، بل لابد من بحثها والتأكد منها.

ولذلك قال سليمان: ﴿ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ ، مع أن المقابل لكلمة صدقت هو كذبت، ولكن سليمان لم يقل للهدهد سننظر أصدقت أم كذبت، ولكن قال: ﴿ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ وهذا لطف وترفق من الحاكم برعيته؛ لأن معنى: ﴿ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ أى حتى إن كذبت فأنت لم تكذب وحدك، ولكنك ستكون ضمن كثير من الكاذبين؛ لأن كثيراً من الناس يكذبون، أو أنه من الكاذبين ميلاً لهم أو قريباً لهم، وهذا يدل على أن إلهامات سليمان كنبى جعلته يعرف أنه صادق، ولكنه أراد أن يتأكد ؛ حتى لا يجامل جندياً من جنوده .

ثم يقول بعد ذلك: ﴿ اذهب بِّكِتابِى هذا فألقِه إليهِم ثمّ تولّ عنهم فانظر مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴾ [النمل: ٢٨] هذا معناه أن سليمان فكر فى الأمر(١)، وقال: نكتب لها كتاباً ونرسله مع الهدهد؛ حتى يتأكد من الرد ويعرف أبعاد الموقف.

(١) قال أبو حيان: ولما فرغ الهدهد من كلامه، وأبدى عذره فى غيبته، أخر سليمان أمره إلى أن يتبين له صدقه من كذبه فقال: ﴿ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ ﴾ فى اخبارك أم كذبت. والنظر هنا: التأمل والتصفح، و«أصدقت»: جملة معلق عنها «سننظر»، وهى فى موضع نصب على إسقاط حرف الجر؛ لأن نظر بمعنى التأمل والتفكر، إنما يتعدى بحرف الجر الذى هو «فى». وعادل الجملتين بأم، ولم يكن التركيب: أم كذبت؛ لأن قوله: ﴿ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ أبلغ فى نسبة الكذب إليه؛ لأن كونه من الكاذبين يدل على أنه معروف بالكذب، سابق له هذا الوصف قبل الإخبار بما أخبر به. وإذا كان قد سبق له الوصف بالكذب، كان متهما فيما أخبر به، بخلاف من يظن ابتداء كذبه فيما أخبر به. وفى الكلام حذف تقديره: فأمر بكتابة كتاب إليهم، وبذهاب الهدهد رسولاً إليهم بالكتاب، فقال: ﴿ اذْهَب بِّكِتَابِى هَذَا ﴾: أى الحاضر المكتوب الآن. ﴿ فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ أى: تنح عنهم إلى مكان قريب، بحيث تسمع ما يصدر منهم، وما يرجع به بعضهم إلى بعض من القول.
وفى قوله: ﴿ اذْهَب بِّكِتَابِى هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ﴾ دليل على إرسال الكتب إلى المشركين من الإمام، يبلغهم الدعوة ويدعوهم إلى الإسلام. وقد كتب رسول الله ﷺ إلى كسرى وقيصر وغيرهما ملوك العرب. وقال وهب: أمره بالتولى حسن أدب ليتنحى حسب ما يتأدب به الملوك، بمعنى: وكن قريبًا بحيث تسمع مراجعاتهم. وقال ابن زيد: أمره بالتولى بمعنى الرجوع إليه، أى ألقه وارجع. قال: وقوله: ﴿ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴾ فى معنى التقديم على قوله: ﴿ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ انتهى. وقاله أبو على، ولا ضرورة تدعو إلى التقديم والتأخير، بل الظاهر أن النظر معتقب التولى عنهم. وقرىء فى السبعة: فألقه، بكسر الهاء وياء بعدها، وباختلاس الكسرة وبسكون الهاء. وقرأ مسلم بن جندب: بضم الهاء وواو بعدها، وجمع في قوله: ﴿ إِلَيْهِمْ ﴾ الهدهد قال: ﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا ﴾. وفى الكتاب أيضًا ضمير الجمع فى قوله: ﴿ أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ ﴾، والكتاب كان فيه الدعاء إلى الإسلام لبلقيس وقومها. ومعنى: ﴿ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴾: أى تأمل واستحضره فى ذهنك. وقيل معناه: =

ومعنى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ أى أبعد عنهم قليلاً وانظر ماذا يفعلون؛ لأنهم سيراجعون بعضهم البعض؛ لأن معنى: ﴿يَرْجِعُونَ﴾ أى يراجع بعضهم بعضاً؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿أَفَلا يَرَوْنَ أَلا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلايَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا﴾ [طه: ٨٩] فالمعنى: ساعة تلقى إليهم الكتاب انظر ماذا يقول القوم، وماذا تقول ملكتهم دون أن يروك وأخبرنى بذلك.

= فانتظر. ﴿مَاذَا﴾: إن كان معنى: ﴿فَانظُرْ﴾ معنى التأمل بالفكر كان انظر معلقًا، و«ماذا»: إما كلمة استفهام فى موضع نصب، وإما أن تكون «ما» استفهامًا، و«ذا» موصول بمعنى: الذى. فعلى الأول يكون ﴿يَرْجِعُونَ﴾ خبرًا عن ماذا، وعلى الثانى يكون ذا هو الخبر، و«يرجعون» صلة ذا. وإن كان معنى ﴿فَانظُرْ﴾: فانتظر فليس فعلَ قلب فيعلق، بل يكون «ماذا» كله موصولاً بمعنى الذى، أى فانتظر، الذى يرجعون، والمعنى: فانظر ماذا يرجعون حتى ترد إلىَّ ما يرجعون من القول.

[البحر المحيط: ٨/ ٢٣٢، ٢٣٣]

* رسالة سليمان إلى ملكة سبأ *

يقول تعالى : ﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴾ [النمل: ٢٩] ، الهدهد أخذ الكتاب وطار إلى سبأ، وذهب إلى بلقيس، وألقى إليها الكتاب، فلما قرأته : ﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴾ ولكن القرآن لم يذكر هذا كله ؛ للدلالة على أن أوامر سليمان عليه السلام أوامر محوطة بالتنفيذ العاجل؛ ولذلك وصلت إجابة بلقيس فى الكلام الذى أمر به الهدهد مباشرة، دون ذكر لما حدث من الهدهد بعد صدور الأمر إليه، وكأن الهدهد بعد صدور الأمر إليه نَفَّذ الأمر بمنتهى السرعة، فوجدنا كلام بلقيس إلى قومها بعد أن تلقت كتاب سليمان عليه السلام. والملأ هم أعيان القوم وأشرافهم والمستشارون عند الملكة- بلقيس- ووصفت كتاب سليمان بأنه: ﴿ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴾ فهل كانت تسمع عن سليمان ؟ أم لأن الخطاب بهرها بخطه الجميل وورقه الراقى وختمه الغريب.

وبعد ذلك قالت : ﴿ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣٠) أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣١) ﴾ (١) [النمل] .

---

(١) قال الماوردى فى قوله تعالى : ﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴾ :
وفى صفتها الكتاب أنه كريم ، أربعة أوجه :
أحدها : لأنه مختوم ، قاله السدى .
الثانى : لحسن ما فيه ، قاله قتادة .
الثالث : لكرم صاحبه وأنه كان ملكًا ، حكاه ابن بحر . =

. . . .

= **الرابع :** لتسخير الهدهد به بحمله .

ويحتمل خامسًا : لإلقائه عليها عاليًا من نحو السماء .

قوله تعالى : ﴿ **إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ** ﴾ الآية ، أما قولها إنه من سليمان فلإعلامهم مرسل الكتاب وممن هو .

وأما قولها : ﴿ **بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ** ﴾ فلاستنكار هذا الاستفتاح الذى لم تعرفه هى ولا قومها ؛ لأن أول من افتتح ﴿ **بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ** ﴾ سليمان .

روى ابن بريدة عن أبيه قال: كنت أمشى مع رسول الله ﷺ فقال : « إنى لأعلم آية لم تنزّل على نبى قبلى بعد سليمان بن داود » ، قال : قلت يا رسول الله: أى آية هى ؟ قال: «سأعلمكها قبل أن أخرج من المسجد »، قال: فانتهى إلى الباب فأخرج إحدى قدميه فقلت : نسى، ثم التفت إلى فقال : ﴿ **إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ** ﴾ [(١)] .

حكى عاصم عن الشعبى قال : كانت كتب رسول الله ﷺ أربعة كتب كان يكتب : باسمك اللهم ، فلما نزلت : ﴿ **بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا** ﴾ كتب: باسم الله ،فلما نزلت : ﴿ **قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ** ﴾ كتب :﴿ **بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ** ﴾ ، فلما نزلت : ﴿ **إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ** ﴾كتب:﴿ **بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ** ﴾ قال عاصم: قلت للشعبى: أنا رأيت كتاب رسول الله ﷺ ؛﴿ **بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ** ﴾ ، قال: ذلك الكتاب الثالث [(٢)] .

وأما قوله : ﴿ **أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ** ﴾ فهذه كتب الأنبياء موجزة مقصورة على الدعاء إلى الطاعة من غير بسط ولا إسهاب .

وفى ﴿ **أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ** ﴾ ثلاثة أقاويل :

أحدها : لا تخالفوا علىّ ، قاله قتادة .

الثانى : لا تتكبروا على ، قاله السدى وابن زيد .

---

(١) أخرجه الطبرانى فى الأوسط [٦٢٥] وقال الهيثمى فى المجمع [٧/٨٩، ٩٠] : رواه الطبرانى فى الأوسط وفيه عبد الكريم أبو أمية وهو ضعيف وفيه من لم أعرفهم .

(٢) رواه أبو عبيد فى فضائل القرآن عن الحرث العكلى . وذكره السيوطى فى الدر المنثور [٦/٣٥٤].

وهذا يدل على أنها كانت تعرف حكاية سليمان وأنه ملك ونبى. .إلخ، وانظروا إلى كتاب سليمان وإيجازه الشديد حيث يقول: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ ؛فنَصّ الخطاب عبارة عن برقية موجزة. كلمة ﴿تَعْلُوا﴾ أى: تتغطرسون وتظنون أنفسكم ملوكاً، وتزهون بما عندكم من ملك ولا تستجيبون لدعوتى، فإياكم وهذا التعالى والتكبر؛ مثلما نقول: «هى كلمة واحدة». بلقيس حينما ألقى إليها الخطاب وقرأته، جمعت الملأ وقالت لهم: لقد وصلنى كتاب من سليمان ونصه كذا وكذا، وبعد ذلك طلبت مشورتهم وأن يشيروا عليها بما تفعل فقالت: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾ [النمل: ٣٢].

معنى: ﴿أَفْتُونِي﴾ أى: أعطونى قوة فى الحكم الذى تصدرونه، فهى سألتهم أن يفتوها فى أمرها، مع أن الأمر ليس أمرها وحدها، ولكنه أمرهم جميعاً، ولكن المقصود بقولها أن هذا الأمر قبل أن يخدش الرعية سيخدشها هى أولاً.

وقولها : ﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾ أى لا أبت فى أمر ﴿حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾ أى تحضرون عندى، وهذا يدل على أنها رغم مالها من سيطرة وهيمنة وسلطان، إلا أنها شاورت الملأ وأرادت أن تسمع رأيهم

= الثالث : لا تمتنعوا علىَّ ، قاله يحيى بن سلام .

﴿وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ فيه أربعة تأويلات:

أحدها : مستسلمين ، قاله الكلبى .

الثانى : موحدين ، قاله ابن عباس .

الثالث : مخلصين ، قاله زهير .

الرابع : طائعين ، قاله سفيان . [تفسير الماوردى : ٤/ ٢٠٦ ، ٢٠٧]

فى هذا الأمر(١).

قال تعالى: ﴿قَالُوا نَحْنُ أُوْلُوا قُوَّةٍ وَأُوْلُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ [النمل: ٣٣].

أى نحن أصحاب قوة وعندنا شجاعة وعندنا بأس، وعددنا كبير وعندنا عدد والآت وجيش قوى، وهذه كلها مظاهر قوة، فإن كنت تريدين الدخول مع سليمان فى حرب فنحن جاهزون، ونحن لا نقول هذا لندفعك إلى الحرب، ولكن الأمر والرأى الأخير لك .

لأن هذا رأى سياسى وليس رأياً حربياً ؛ لأن القائد العسكرى يستقبل الرأى من الرئيس الذى درس الموقف سياسياً، فالرأى السياسى هو الذى يوجه الرأى الحربى .

---

(١) قال القرطبى: فى هذه الآية دليل على صحة المشاورة. وقد قال الله تعالى لنبيه ﷺ : ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى الأَمْرِ﴾ إما استعانة بالآراء ، وإما مدارة للأولياء . وقد مدح الله تعالى الفضلاء بقوله : ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ . والمشاورة من الأمر القديم وخاصة فى الحرب ؛ فهذه بلقيس امرأة جاهلية كانت تعبد الشمس : ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِى فِى أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾ لتختبر عزمهم على مقاومة عدوهم ، وحزمهم فيما يقيم أمرهم ، وإمضائهم على الطاعة لها ، بعلمها بأنهم إن لم يبذلوا أنفسهم وأموالهم ودماءهم دونها لم يكن لها طاقة بمقاومة عدوها ، وإن لم يجتمع أمرهم وحزمهم وجدّهم كان ذلك عونا لعدوهم عليهم ، وإن لم تختبر ما عندهم، وتعلم قدر عزمهم لم تكن على بصيرة من أمرهم، وربما كان فى استبدادها برأيها وهن فى طاعتها ، ودخيلة فى تقدير أمرهم ، وكان فى مشاورتهم وأخذ رأيهم عون على ما تريده من قوة شوكتهم ، وشدة مدافعتهم ؛ ألا ترى إلى قولهم فى جوابهم : ﴿نَحْنُ أُوْلُوا قُوَّةٍ وَأُوْلُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ قال ابن عباس : كان من قوة أحدهم أنه يركض فرسه حتى إذا احتد ضم فخذيه فحبسه بقوته .

[تفسير القرطبى : ١٣/ ١٩٤، ١٩٥]

فقالوا لها: نحن جاهزون للحرب وعندنا القوة، والبأس، والعدد، والعدة، والجيش القوى، والأمر إليك أن أردت السلم فقولى لنا ماذا تريدين ، ونحن ننفذ ما تأمرين به.

ولكن المرأة كانت عاقلة فلم تغتر بالقوة، وحذرت قومها من دمار الحرب وآثارها، فردت عليهم بقول الله تعالى : ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [النمل: ٣٤].

لأن الذى جاء ليأخذ الملك يريد أن يأخذ المالكين، وينهب كل ماعندهم؛ لأنه ساعة يصل إلى مكان القوم لا يضمن أن ينتصر عليهم، فيخرب ما يستطيع تخريبه من ممتلكاتهم، ولا يحافظ على شىء إلا بعد أن يضمن استقرار الأمور له.

وقوله تعالى : ﴿وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾ كلام صحيح؛ لأنك إذا نظرت إلى أى حاكم يستولى على الحكم بعد حاكم آخر، أو أى نظام يخلف نظاماً فى الحكم، تجد الانتقام يكون من الحكام السابقين، وإلصاق شتى التهم بهم من فساد وغيره؛ لأن الحكم الجديد قام على أنقاضهم، وبين النظامين لدد وخصومة[1].

وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ وهذا الكلام من الله تعالى تأييداً لكلام بلقيس، فهى قالت رأيها والحق سبحانه وتعالى أيدها فيه، أى أنها صادقة فى هذا، مما يدل على أن الحق سبحانه وتعالى- رب الخلق أجمعين- إذا

(١) قال الطبرى : يقول تعالى ذكره: قالت صاحبة سبأ للملأ من قومها إذ عرضوا عليها أنفسهم لقتال سليمان إن أمرتهم بذلك : ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً﴾ عنوة وغلبة ﴿أَفْسَدُوهَا﴾ يقول: خربوها ﴿وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾ وذلك باستعبادهم الأحرار، واسترقاقهم إياهم، وتناهى الخبر منها عن الملوك فى هذا الموضع، فقال الله: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ يقول تعالى ذكره : وكما قالت صاحبة سبأ تفعل الملوك إذا دخلوا قرية عنوة . [تفسير الطبرى : ١٩/١٥٤]

سمع من عبد من عبيده كلمة حق يؤيده فيها، كما ترك الملأ القرار الأخير للملكة؛ لتفعل ما تراه مناسباً، بدأ عقلها وفطنتها يعملان، فقالت: إن كان ملكاً سيطمع فى خيرنا، وإن كان نبياً فلن يأبه بهذا الخير، فأنا سأرسل إليه بهدية.

هذه الهدية تناسب سليمان وبلقيس معاً ، فهو ملك وهى ملكة، فلابد أن تكون الهدية ثمينة جداً ؛حتى تأخذ بلب سليمان، وحتى تثبت له أنها على جانب كبير من الثراء والغنى والترف، فقالت لقومها: أنا سأرسل إليه بهدية، فإن كان من أهل الملك والدنيا سيقبل الهدية، فنعرف أنه يريد بعض الخراج والمال، وإن رد الهدية فهو نبى لا يطمع فى شيء مما فى أيدينا؛ قال تعالى على لسانها: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾[1] [النمل: ٣٥].

أى سنرى كيف يقابلهم وماذا سيقول لهم ؟ وهذا رأى جميل منها، ودليل على حصافتها[2] وذكائها، مما جعل القوم يفوضونها فى تسيير أمور مملكتهم. و﴿الْمُرْسَلُونَ﴾ هم الذين أرسلتهم بالهدية إلى سليمان عليه السلام.

---

(١) قال بدر الدين ابن جماعة فى قوله تعالى : ﴿مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ﴾ هى : غلمان وجوارى - اختلف فى عدّتهم - على خيل محلاة بالذهب ، وتاج مكلل بالدر ، والياقوت ، ولَبِن من ذهب ، وحق فيه درة عذراء ، وجزعة معوجّة الثقب ، وسألت ثقب الدرة وإدخال خيط فى الجزعة إن كان نبيًا ، ففعل ورد الهدية .

[غرر التبيان : ٣٨٢]

وقال ابن الأثير : قالت : ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ﴾ فإن قبلها فهو من ملوك الدنيا ، فنحن أعزّ منه وأقوى ، وإن لم يقبلها فهو نبى من الله.

[الكامل فى التاريخ: ١/ ٢٣٥]

(٢) الحصافة : ثخانة العقل . حَصُف بالضم حصافة إذا كان جيد الرأى محكم العقل ، وهو حَصِفٌ وحصيف بيّن الحصافة . وإحصاف الأمر : إحكامه .

[لسان العرب : ٩/ ٤٨]

* الله أعطى سليمان سراً من علم الكتاب *



ثم يقول الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴾ [النمل : ٣٦] .

أى: لما جاء الرسول سليمان بالهدية، قال له سليمان: لست بحاجة إلى مالكم؛ لأن الله أعطانى خيراً مما عندكم، وقوله لهم: ﴿ بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴾ يصح أن يكون معنى قوله أنكم أناس تفرحون بأنكم قدمتم هدية لى لتأسرونى بها، أو أن معناه أنهم يفرحون حين تأتيهم هدية من أحد، فكلاهما صحيح، أو أنا رددت الهدية وسترجع لكم وستفرحون برجوعها ؛ هذه ثلاث معان، فأنتم بهدية منكم لى تفرحون حين تأتيكم هدية، أو أننى حين أرد الهدية لكم ستفرحون برجوعها إليكم(١) .

---

(١) قال الفخر الرازى فى قوله تعالى : ﴿ بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴾ ففيه ثلاثة أوجه :

أحدها : أن الهدية اسم للمهدى ، كما أن العطية اسم للمعطى ، فتضاف إلى المهدِى وإلى المهدَى له ، والمضاف إليه ههنا هو المهدى إليه .

والمعنى : أن الله تعالى آتانى الدين الذى هو السعادة القصوى ، وآتانى من الدنيا ما لا مزيد عليه . فكيف يُستمال مثلى بمثل هذه الهدية، بل أنتم تفرحون بما يُهدى إليكم ، لكن حالى خلاف حالكم .

وثانيها : بل أنتم بهديتكم هذه التى أهديتموها تفرحون، من حيث إنكم قدرتم على إهداء مثلها .

وثالثها : كأنه قال : بل أنتم من حقكم أن تأخذوا هديتكم وتفرحوا بها .

[التفسير الكبير : ٢٤/١٩٦]

ثم قال لرسول بلقيس فى لهجة حاسمة: ﴿ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [النمل: ٣٧].

كلامه هنا يكشف كلامها الذى قالته لقومها؛ فهى قد قالت:

﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾

فكأنه من منطلق النبوة يرد عليها وعلى كلامها بالحرف.

ومعنى: ﴿لا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾ القبل: هو المقابل، أى لا يستطيع مقابلة هذا الأمر أو مواجهته، أو أنهم أضعف من أن يواجهوا هذا الأمر.

ومعنى: ﴿أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ أى يخرجهم من الملك ﴿أَذِلَّةً﴾ لأنهم كانوا ملوكاً، وسلب منهم الملك فصاروا أذلة، والصغار يكون بالأسر أو القتل.

ثم التفت سليمان حوله وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾[1] [النمل: ٣٨].

---

(١) قال أبو حيان فى قوله: ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا﴾ دليل على جواز الاستعانة ببعض الأتباع فى مقاصد الملوك، ودليل على أنه قد يخص بعض أتباع الأنبياء بشىء لايكون لغيرهم، ودليل على مبادرة من طلبه منه الملوك قضاء حاجة، وبداءة الشياطين فى التسخير على الإنس، وقدرتهم بأقدار الله على ما يبعد فعله من الإنس. [البحر المحيط: ٨/ ٢٣٩]

وقال الشوكانى فى قوله تعالى: ﴿قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ أى: قبل أن تأتينى هى وقومها مسلمين. قيل: إنما أراد سليمان أخذ عرشها قبل أن يصلوا إليه ويسلموا؛ لأنها إذا أسلمت وأسلم قومها، لم يحلّ أخذ أموالهم بغير رضاهم.

[فتح القدير: ٤/ ١٣٤]

هذه أيضاً من إلهامات النبوة، فكأن الله أعلمه أن القوم بعد أن رد إليهم هديتهم، سيأتونه مسلمين طائعين ولن يحاربوه، فكأنه قد علم أنهم سيأتون إليه، فأراد أن يرسل من يذهب إلى سبأ، ويأتيه بعرش بلقيس قبل أن يصل القوم إليه، ولأن هذا الأمر صعب التحقيق ويتطلب قدرات خاصة؛ لذلك لم يتكلم إنسان عادى؛ لأن هذا ليس فى استطاعته؛ لأن القوم فى طريقهم إلى سليمان.

ومطلوب من الذى يقوم بهذه المهمة أن يذهب إلى سبأ، ويحمل العرش، ويعود به إلى سليمان قبل أن يصل القوم إليه، فهذه مهمة شاقة لايقدر عليها إنسان عادى؛ لذلك لم يتكلم الإنس العادى؛ لأن هذه مسألة ليست فى قدرته ولم يتكلم الجن العادى ؛ لأنها أيضًا فوق قدرته.

إنما الذى تكلم عفريت من الجن ، قال العفريت : ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ﴾ [النمل : ٣٩].

قوله : ﴿ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ هذه كلمة مجملة؛لأن مقام سليمان فى مجلسه بينهم للحكم والعلم ومدارسة الأمور، مقام طويل قد يستمر ساعات، والذى يحدد هذا المقام مدة الإقامة التى كان يجلسها معهم، من أجل هذه الأمور، ومعنى هذا أن العفريت سيأتيه بعرش بلقيس قبل أن يترك مجلسه هذا، أى أنه لن يتأخر به إلى جلسة أخرى.(١)

(١) قال الماوردى فى قوله تعالى: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ ﴾:العفريت: المارد القوى، قال أبو صالح: كأنه جبل ؛ وفيه وجهان :

أحدهما :أنه المبالغ فى كل شىء ،مأخوذ من قولهم:فلان عفرية نفرية، إذا كان مبالغًا فى الأمور ، قاله الأخفش .

الثانى : أصله العفر وهو الشديد ، زيدت فيه التاء فقيل: عفريت . قاله ابن قتيبة .

﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : من مجلسك وسمى المجلس مقامًا ؛لإقامة صاحبه فيه كما قال تعالى : =

هنا القرآن لم يخبرنا أن أحداً آخر تكلم فى هذا الموضوع إلا بالوصف حيث قال تعالى : ﴿ قَالَ الَّذِى عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ [النمل : ٤٠] .

أنت لو حسبت المدة التى يستغرقها هذا الكلام ﴿ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ تجد أن طرفك ارتد خلالها مرتين أو ثلاثا، فالعفريت من الجن طلب إعطاءه مدة من الوقت، هى مدة بقاء سليمان فى مجلسه، وليكن ساعة أو ساعتين أو أكثر، لكن أن يأتى به قبل أن يرتد إليه طرفه، فهذه سرعة خارقة ؛ لأن الطرف يرتد بسرعة، ولذلك لم يقل القرآن فذهب الذى عنده علم من الكتاب فجاء بالعرش، ولكن جاء بالخبر مباشرة فى قول الله تعالى : ﴿ قَالَ الَّذِى عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّى ﴾ .

وهذا دليل على السرعة الفائقة .

= ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴾ [الدخان : ٥١] .

الثانى : أنه أراد يومًا معروفًا كان عادة سليمان أن يقوم فيه خطيبًا يعظهم ، ويامرهم، وينهاهم ، وكان مجىء اليوم تقريبًا .

الثالث : أنه أراد قبل أن تسير عن ملكك إليهم محاربًا .

﴿ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴾ لقوى على حمله . وفى الأمين ثلاثة أقاويل :

أحدها : أمين على ما فيه من جوهر ولؤلؤ ، قاله الكلبى وابن جرير (١) .

الثانى : أمين الا آتيك بغيره بدلا منه ، قاله إبن زيد .

الثالث : أمين على فرج المرأة ، قاله ابن عباس ، وحكى يزيد بن رومان أن اسم العفريت: كودى ، وحكى ابن أبى طلحة أن اسمه: صخر ، وحكى السدى أنه آصف بن السيطر بن إبليس ، والله أعلم بصحة ذلك .

[تفسير الماوردى : ٤/ ٢١٢، ٢١٣]

---

(١) جامع البيان [١٩/ ١٦٢] .

العلماء قالوا: من الذى عنده علم من الكتاب؟

أولاً ما هو الكتاب ؟ قالوا : هو اللوح المحفوظ يعلم الله فيه بعض خلقه أسرار الكون، فإذا كان العفريت- وهو مكلف- يستطيع أن يأتى به إليه قبل أن يقوم من مجلسه، فالذى عنده علم من الكتاب أسرع منه؛ لأنه لا يحتاج إلى زمن بدليل أنه قال : ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ والطرف يرتد فى أقل من كلمة.

بعض العلماء قالوا: إن هذا الرجل هو آصف بن برخيا، وكان رجلاً صالحاً أعطاه الله من أسرار قوته.

وآخرون قالوا: الذى عنده علم من الكتاب هو سليمان نفسه(١)، فكأن العفريت لما قال له : ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ قال له هو: ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾.

---

(١) قال الفخر الرازى : أما قوله : ﴿قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ﴾ ففيه بحثان :

الأول : اختلفوا فى ذلك الشخص على قولين : قيل: كان من الملائكة ، وقيل : كان من الإنس .

فمن قال بالأول اختلفوا : قيل : هو جبريل عليه السلام ، وقيل : هو ملك أيد الله تعالى به سليمان عليه السلام .

ومن قال بالثانى اختلفوا على وجوه :

أحدها : قول ابن مسعود : إنه الخضر عليه السلام .

وثانيها : وهو المشهور من قول ابن عباس : إنه آصف بن برخيا وزير سليمان ، وكان صديقًا يعلم الاسم الأعظم إذا دعا به أجيب .

وثالثها : قول قتادة : رجل من الإنس كان يعلم اسم الله الأعظم .

ورابعها : قول ابن زيد : كان رجلا صالحًا فى جزيرة فى البحر ، خرج ذلك اليوم ينظر إلى سليمان .

وخامسها : بل هو سليمان نفسه . والمخاطب هو العفريت الذى كلمه ، وأراد سليمان عليه السلام إظهار معجزة فتحداهم أولا ، ثم بين للعفريت أنه يتأتى له من سرعة الإتيان بالعرش ما لا يتهيأ للعفريت ، وهذا القول أقرب لوجوه : =

فهو إذن سليمان، لماذا ؟ قالوا : لأنه لو كان هذا الرجل واحداً غير سليمان، فمعنى هذا أن له تفوقاً فى معرفة الكتاب قبل سليمان.

ورد بعض العلماء على ذلك بقولهم : إن هذه عظمة لسليمان؛ لأنه فوق من يعرف هذا العلم ، والمزايا لا تقتضى إلا فضيلة؛ لأن هذا الرجل مع ما عنده من علم بأسرار الكون سخره الله لخدمة سليمان.

وليس بالضرورة أن يكون الرجل العظيم عارفاً بكل شيء، فلا يمكن أن نطلب من الملك أن يكون ماهراً فى بعض ما يجيده الصبية فى الصناعات اليدوية مثلاً.

فمن عظمة سليمان أن الله سخر له كل هؤلاء.

= أحدها : أن لفظة «الذى» موضوعة فى اللغة للإشارة إلى شخص معين عند محاولة تعريفه بقصة معلومة ، والشخص المعروف بأنه عنده علم الكتاب هو سليمان عليه السلام ، فوجب انصرافه إليه ، أقصى ما فى الباب أن يقال : كان آصف كذلك أيضًا ، لكنا نقول: إن سليمان عليه السلام كان أعرف بالكتاب منه ؛ لأنه هو النبى، فكان صرف هذا اللفظ إلى سليمان عليه السلام أولى .

الثانى : أن إحضار العرش فى تلك الساعة اللطيفة درجة عالية ، فلو حصلت لآصف دون سليمان ، لاقتضى ذلك تفضيل آصف على سليمان عليه السلام ، وإنه غير جائز .

الثالث : أن سليمان عليه السلام لو افتقر فى ذلك إلى آصف لاقتضى ذلك قصور حال سليمان فى أعين الخلق .

الرابع : أن سليمان قال : ﴿ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِى أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ﴾ . وظاهره يقتضى أن يكون ذلك المعجز قد أظهره الله تعالى بدعاء سليمان .

البحث الثانى : اختلفوا فى الكتاب ، فقيل: اللوح المحفوظ ، والذى عنده علم منه: جبريل عليه السلام . وقيل : كتاب سليمان ، أو كتاب بعض الأنبياء ، ومعلوم فى الجملة أن ذلك مدح ، وأن لهذا الوصف تأثيرًا فى نقل ذلك العرش ؛ فلذلك قالوا إنه الاسم الأعظم وإن عنده وقعت الإجابة من الله تعالى فى أسرع الأوقات .

[التفسير الكبير : ٢٤/١٩٧ ، ١٩٨]

* هذا من فضل ربى *

﴿ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾ [النمل : ٤٠].

وما دام سليمان قال: ﴿هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي﴾ فهذا يدل على شيئين لاثالث لهما: إما أن الله سخر له أحدًا فجاءه بالعرش، أو أن الله أعطاه علماً من الكتاب فجاء به، وإن كانت هذه أو تلك ففضل الله عليه بإعطائه هذا العلم له أو لأحد من أتباعه.

ومعنى ﴿لِيَبْلُوَنِي﴾: الابتلاء هو الاختبار ، والاختبار ليس مذموماً لذاته، ولكنه يذم لنتيجته فالذى ينجح فيه يكون سعيدا، وإن فشل يكون حزيناً، ولذلك سليمان ذكر النتيجتين معاً فقال: ﴿لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ فالشكر معناه: أنه ذكر المنعم ولم يلهه جمال النعمة عن جلال الواهب، وأما كفر النعمة: أن يقول الإنسان هذا من ذكائى وجهدى مثل قارون الذى قال: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾ [القصص: ٧٨] وقوله تعالى: ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾ أى أن الله لا يحتاج إلى شكرنا، فشكرك لا يزيد فى صفات الله صفة كمال ، ولكن هذا الشكر لمصلحتك أنت(١).

(١) قال ابن كثير فى قوله تعالى : ﴿ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي ﴾ : أى هذا من نعم الله على ﴿لِيَبْلُوَنِي ﴾ أى ليختبرنى : ﴿أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ﴾=

كذلك الذى يكفر النعمة ولا يشكر الله عليها فإن الله ﴿غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ أى غنى عن الشكر ،وكريم يعطى بغير حساب، ولذلك فى مجالات النعمة من المنعم الأعلى للمخلوق؛ الحق سبحانه وتعالى يتحدث عنها فى آيتين حيث يقول تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. [النحل: ١٨] وفى سورة أخرى يقول أيضاً:

﴿وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

بعض الناس يظن أن هذا تكرار، ولكن انظر إلى آخر الآية لتعرف أن هذا ليس تكراراً ، ففى الأولى : ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١٨].

وفى الثانية : ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم : ٣٤].

= كقوله : ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت: ٤٦] وكقوله : ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ [الروم: ٤٤] وقوله : ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ أى هو غنى عن العباد وعبادتهم، ﴿كَرِيمٌ﴾ أى كريم فى نفسه وإن لم يعبده أحد، فإن عظمته ليست مفتقرة إلى أحد ، وهذا كما قال موسى: ﴿إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٨]. وفى صحيح مسلم: «يقول الله تعالى : يا عبادى، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل منكم ما زاد ذلك فى ملكى شيئا . يا عبادى، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئًا. يا عبادى ، إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها ؛ فمن وجد خيرًا فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه»[1]. [تفسير ابن كثير : ٣/ ٣٥٢]

---

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم [٢٥٧٧/ ٥٥].

فالعبرة جاءت فى نهاية الآية، والآيتان اتفقتا فى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا﴾، و﴿إن﴾ للشك وهذا واضح، فمع ثورة المعلومات والإحصاءات والكمبيوتر.. إلخ لم نسمع عن معهد أو جامعة أو أى أحد عمل إحصاء لنعم الله فى الكون، فعدم الإقبال عليها دليل على أنه مقطوع بالعجز عنها، فلم يقم أحد بِعَدٍّ حبات الرمل مثلاً؛ لأنه مقطوع بأنه لا يستطيع أن يعدها أحد؛ ولذلك لم يقل الحق سبحانه : إذا عددتم، ولكن قال : ﴿وَإِن تَعُدُّوا﴾ وهذا يفيد الشك فلا يقبل أحد على عد شىء إلا إذا كان فى الإمكان حصره.

كما أن الحق سبحانه لم يقل: وإن تعدوا نعم الله لا تحصوها، ولكن قال: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ﴾ أى لو حاولتم أن تعدوا فوائد نعمة واحدة من نعم الله، فلن تستطيعوا حصرها، فالنعمة الواحدة لا تستطيع أن تحصى ما فيها من النعم، فما بالك بنعم الله التى تملأ الكون كله!! ولكن لماذا اختلفت نهاية الآيتين، فمرة يقول : ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ ومرة يقول ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ؟ هذه جاءت لتبين أن الإنسان يعطيه الله النعم ويمده بالعطاء، ولكنه يظلم ويكفر ويجحد النعمة.

* سليمان يختبر ذكاء بلقيس *

العرش جاء واستقر عند سليمان فأمر بنصبه وتجهيزه؛ لأن بلقيس قادمة إليه فى الطريق، وهو يريد أن يختبرها اختباراً عقلياً واختباراً إيمانياً، فأمر بأن ينكِّروا عرشها، فقال لهم: ﴿نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِى أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل: ٤١] .

كلمة: ﴿نَكِّرُوا﴾ عكس عَرِّفوا، فعرشها جاء على هيئته كما كان فى سبأ، فلو أنها جاءت ورأته كما هو ستعرفه بسهولة، ولا يعرف سليمان ذكاءها فى الجواب، فأمرهم أن ينكروا لها العرش، بأن يغيروا بعض معالمه، مثلما تقول : فلان متنكر أى غير ملامحه ؛حتى لا يعرفه أحد، فكذلك أمرهم أن يفعلوا بالعرش، لكن شكله العام ظل كما هو؛ وذلك حتى يختبر سليمان ذكاءها، فهو يريد أن يختبرها عقلياً وإيمانياً، وقوله : ﴿نَنظُرْ أَتَهْتَدِى أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لا يَهْتَدُونَ﴾ إن كان المقصود به الهداية الإيمانية فهو أن تهتدى إلى الإسلام، وإن كان عقلياً بأن تهتدى إلى الجواب الصحيح. وحينما سألها لو قال لها : أهذا عرشك كان معنى السؤال يوحى بالجواب، لكنه حاول أن يعمى عليها فى السؤال فقال لها : ﴿أَهَكَذَا عَرْشُكِ﴾ .[النمل: ٤٢] فكأنه يقول لها: إن هذا ليس عرشك، ولكنه قال: هل عرشك مثله ؟ فهو يريد أن يختبرها فصعب عليها السؤال فماذا قالت هى ؟ نظرت إلى العرش فوجدته مثل عرشها، ولكن التنكير الذى حدث له يدل على أنه ليس عرشها، فجاءت بجواب يحتمل الحالتين معاً -جواب دبلوماسى- فماذا قالت ؟

قالت : ﴿قالت كأنّه هو﴾ فعرف سليمان من هذه الإجابة أنها ذكية وحصيفة وعاقلة(١). هذا بالنسبة لهداية الإيمان. فهى لكى تعلم أنها تركت عرشها هناك فى بلادها، وجاءت إلى سليمان، فكيف جاء سليمان بالعرش بهذه السرعة مع أنها تركته خلفها؟! فلا بد أن هذه قدرة فوق مستوى البشر، وعليه فسليمان وجنوده محقون فى أنهم يدعون إلى الحق، فجاء كلام بلقيس كلاماً دبلوماسياً ، والكلام الدبلوماسى هو كلام يصلح لأى واقع بعده، وجوابها الدبلوماسى فى قولها : ﴿كَأَنَّهُ هُوَ﴾ .

ومن الكلام الدبلوماسى نجد مثلاً أن أحدًا خاط جبة عند خياط أعور،

---

(١) قال البقاعى فى قوله تعالى: ﴿قَالَ﴾:أى سليمان عليه السلام: ﴿نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا﴾: أى بتغيير بعض معالمه وهيئته ؛ اختبارا لعقلها كما اختبرتنا هى بالوصفاء والوصائف والدرة وغير ذلك ، وإليه الإشارة بقوله: ﴿نَنظُرْ أَتَهْتَدِى﴾ اى إلى معرفته ، فيكون ذلك سببا لهدايتها فى الدين ﴿أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ﴾ شانهم انهم ﴿لا يَهْتَدُونَ﴾ اى بل هم فى غاية الغباوة ، لا يتجدد لهم اهتداء بل لو هدوا لوقفوا عند الشُبه ، وجادلوا بالباطل ، وما حلوا ، وأشار إلى سرعة مجيئها إشارة إلى خضوعها بالتعبير بالفاء فى قوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْ﴾ وكان مجيئُها -على ما قيل- فى اثنى عشر ألف قَيْل من وجوه اليمن ، تحت يد كل قيل ألوف كثيرة ، وكانت قد وضعت عرشها داخل بيت منيع ، ووكلت به حراسا أشداء ﴿قِيلَ﴾ أى لها وقد رأت عرشها بعد تنكيره بتقليب نصبه وتغييره من قائل لا يقدر على السكوت عن جوابه ، لما نالها من الهيبة وخالطها من الرعب من عظيم ما رأت فقرعها بكلمة تشمل على أربع كلمات : هاء التنبيه ، وكاف التشبيه ، واسم الإشارة مصدرة بهمزة الاستفهام ، اى تنبهى﴿أَهَكَذَا﴾ أمثل ذا العرش ﴿عَرْشُكِ قَالَتْ﴾ عادلة عن حق الجواب من «نعم»أو «لا» إشارة إلى أنها غلب على ظنها أنه هو بعينه كما قالوا فى «كأن زيدا قائم» ﴿كَأَنَّهُ هُوَ﴾ وذلك يدل على ثبات كبير ، وفكر ثاقب ، ونظر ثابت، وطبع منقاد ، لتجويز المعجزات والإذعان لها مع دهشة القدوم ، واشتغال الفكر بما دهمها من هيبته وعظيم أمره . [نظم الدرر : ١٤ / ١٦٧، ١٦٨]

فجاء تفصيلها غير مضبوط؛ فيها كم طويل والآخر قصير، فتركها الرجل ولم يلبسها، فلما رآه الناس لا يلبس هذه الجبة الجديدة وعرفوا السبب، قالوا له : أنت شاعر فلماذا لا تهجوه مادام قد ضيع عليك ثوبك لسوء صنعته؟ فقال الرجل:

قلت شعراً ليس يد ... رى أمديحـاً أم هجـاء

خاط لـى عمـرو قبـ ... ـاء ليـت عينيـه سـواء

فكلمة: ليت عينيه سواء تصلح للحالتين العمى والإبصار، فهى جواب دبلوماسى.

هنا بلقيس أجابت إجابة دبلوماسية كما قلنا فقالت: ﴿كَأَنَّهُ هُوَ﴾ وقول سليمان: ﴿نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِى﴾ أى أتهتدى إلى جواب يجمع الأمرين فى المُنكر- وهو عرشها- أو تهتدى إلى أن الذى صنع ذلك إنما يكون مؤيداً من الله بأسرار الكتاب؛ فنقل العرش بهذه السرعة فتؤمن ﴿أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لا يَهْتَدُونَ﴾ فلما قيل لها : ﴿أَهَكَذَا عَرْشُكِ﴾ قالت: ﴿كَأَنَّهُ هُوَ﴾ .

وقول الله تعالى : ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ إن كان هذا الكلام تكملة كلام بلقيس(١)، فمعناه أنها أوتيت العلم قبل هذه الحادثة،

---

(١) قال الشوكانى فى قوله تعالى :﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ قيل : هو من كلام بلقيس، أى أوتينا العلم بصحة نبوة سليمان من قبل هذه الآية فى العرش ﴿وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ منقادين لأمره. وقيل : هو من قول سليمان ، أى أوتينا العلم بقدرة الله من قبل بلقيس ، وقيل : أوتينا العلم بإسلامها ومجيئها طائعة من قبلها ، أى من قبل مجيئها . وقيل : هو من كلام قوم سليمان . والقول الثانى أرجح من سائر الأقوال. [فتح القدير : ٤/ ١٣٧]

وعلمت أنه نبى خاصة بعد أن رد الهدية الثمينة، وقال لهم: ﴿بل أنتم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ [النمل: ٣٦] . إلى آخر هذه المواقف، فكأنها تقول له: نحن عرفنا قبل هذه الحادثة أنك نبى وأسلمنا. أو أن الكلام كلام سليمان عليه السلام.

* بلقيس تسلم مع سليمان لله رب العالمين *

ثم يقول تعالى : ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ [النمل: ٤٣] . أى أن سليمان بما صنع من أحداث صدها عما كانت تعبد من دون الله ؛ لأنها كانت من قوم كافرين(١).

وقوله تعالى : ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾ [النمل: ٤٤] الصرح إما أن يكون

---

(١) قال القرطبى فى قوله تعالى : ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ الوقف على ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾ حسن ؛ والمعنى : منعها من أن تعبد الله ما كانت تعبد من الشمس والقمر ، فـ«ما» فى موضع رفع . النحاس : المعنى ؛ أى صدها عبادتها من دون الله ، وعبادتها إياها عن أن تعلم ما علمناه عن أن تسلم . ويجوز أن يكون ﴿مَا﴾ فى موضع نصب ، ويكون التقدير : وصدها سليمان عما كانت تعبد من دون الله ؛ أى حال بينها وبينه . ويجوز أن يكون المعنى: وصدها الله ؛ أى منعها الله عن عبادتها غيره ، فحذفت « عن » وتعدى الفعل . نظيره : ﴿وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ﴾ [الأعراف: ١٥٥] ، أى من قومه . وأنشد سيبويه(١) :

ونبئت عبد الله بالجو أصبحت ... كرامًا مواليها لئيما صميمها

وزعم أن المعنى عنده نبئت عن عبد الله . ﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ قرأ سعيد ابن جبير : «أنها» بفتح الهمزة ، وهى فى موضع نصب بمعنى لأنها . ويجوز أن يكون بدلا من « ما» فيكون فى موضع رفع إن كانت ﴿مَا﴾ فاعلة الصد . والكسر على الاستئناف . [تفسير القرطبى : ٢٠٨/١٣]

---

(١) البيت للفرزدق، وأراد بعبد الله القبيلة ، وهى قبيلة عبد الله بن دارم.

القصر المشيد، وإما أن يكون البهو الكبير الذى يجلس فيه الملك، وإما أن يكون مثل إيوان الأكاسرة مثلاً ، لما جاءت لتدخل الصرح وجدت أمامها ماء فيه سمك، فظنت ذلك ماء يريد سليمان أن يغرقها فيه، فرفعت ثيابها وكشفت عن ساقيها، فمعنى ذلك أنها فهمت أن هذا ماء؛ لأن سليمان كان قد بناه من زجاج مثل الكريستال، ووضع تحته ماء وأسماكاً فهى ظنته ماء فشمرت ثوبها؛ حتى لا يبتل فقال سليمان: ادخلى فهذا صرح ممهد من الزجاج، فماذا كان ردها ؟﴿ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾(1) ظلمت نفسها فى ماذا ؟ الكفر أولاً.

---

(1) قال الشوكانى فى قوله تعالى : ﴿ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ ﴾:قال أبو عبيدة : الصرح: القصر . وقال الزجاج : الصرح : الصحن . يقال : هذه صرحة الدار وقاعتها . قال ابن قتيبة : الصرح: بلاط اتخذ لها من قوارير وجعل تحته ماء وسمك. وحكى أبو عبيد فى الغريب أن الصرح : كل بناء عال مرتفع، وأن الممرد : الطويل . ﴿ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ﴾ أى: فلما رأت الصرح بين يديها حسبت أنه لجة ، واللجة : معظم الماء ، فلذلك كشفت عن ساقيها لتخوض الماء ، فلما فعلت ذلك ﴿ قَالَ ﴾ سليمان : ﴿ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ﴾ الممرد : المحكوك المملس ، ومنه الأمرد ، وتمرد الرجل إذا لم تخرج لحيته ، قاله الفراء . ومنه الشجرة المرداء التى لا ورق لها. والممرد أيضًا : المطول ، ومنه قيل للحصن : مارد ، ومنه قول الشاعر :

غدوت صباحا باكرًا فوجدتهم ... قبيل الضحى فى السابرى الممرد

أى الدروع الواسعة الطويلة . فلما سمعت بلقيس ذلك أذعنت واستسلمت ، قالت: ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ﴾ أى بما كنت عليه من عبادة غيرك . وقيل : بالظن الذى توهمته فى سليمان ؛ لأنها توهمت أنه أراد تغريقها فى اللجة ، والأول أولى ﴿ وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ ﴾ متابعة له داخلة فى دينه ﴿ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ التفتت من الخطاب إلى الغيبة ، قيل : لإظهار معرفتها بالله ، والأولى أنها التفتت لما فى هذا الاسم الشريف من الدلالة على جميع الأسماء ، ولكونه علما للذات .

[فتح القدير : ٤/ ١٣٧]

إذن . . فليست هى التى قالت : ﴿ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴾ أو أنها لم تنطق بالكلمة نطقاً صريحاً ، إلا بعد أن دخلت الصرح، أو أنها ظلمت نفسها فى أنها اتهمت سليمان بأنه يريد أن يغرقها فى الماء، حينما قال لها : ﴿ ادْخُلِي الصَّرْحَ ﴾ . ومعنى : ﴿ حَسِبَتْهُ لُجَّةً ﴾ أى ظنته لجة ماء، وكونها كشفت عن ساقيها، هذه عملية قسرية لكل إنسان قد يُعَرِّضُ نفسه للسير فى الماء، فأنت حين تسير فى الطريق، أو فى الشارع، وتجد فيه ماء ترفع طرف ثوبك؛حتى لا يصيبه بلل، بعض الإسرائيليات الداخلة فى كتب التفسير تزعم أن سليمان عمل هذه العملية؛ حتى تكشف بلقيس عن ساقيها ليراها ؛ لأنه بلغه أنها مشعرة الساقين، وهذا كذب فلا يليق أن يقال هذا عن نبى من أنبياء الله صلوات الله عليهم أجمعين(١).

وفى قصة موسى والسحرة، أنهم حين ألقوا حبالهم وعصيهم، ثم ألقى موسى عصاه، فلقفت كل هذه الأشياء ،ونظر سحرة فرعون فرأوا هذا المنظر؛ لأن الساحر ينظر إلى الشىء المسحور، فيراه حقيقة لكن المسحور هو الذى يرى العصا أو الحبل ثعباناً، ولذلك نجد القرآن الكريم يقول : ﴿ سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ ﴾ [الأعراف: ١١٦] ويقول ﴿ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن

---

(١) قال ابن كثير : كان سليمان قد أمر ببناء صرح من زجاج وعمل فى ممره ماء ، وجعل عليه سقفًا من زجاج ، وجعل فيه السمك وغيره من دواب الماء ، وأمرت بدخول الصرح وسليمان جالس على سريره فيه : ﴿ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ وقد قيل: إن الجن أرادوا أن يبشعوا منظرها عند سليمان وأن تبدى عن ساقيها ليرى ما عليها من الشعر فينفره ذلك منها ، وخشوا أن يتزوجها لأن أمها من الجان فتتسلط عليهم معه . وذكر بعضهم أن حافرها كان كحافر الدابة وهذا ضعيف وفى الأول نظر . . والله أعلم . [قصص الأنبياء : ٥٥٦]

سِحرِهِم انها تسعىٰ﴾ [طه: ٦٦] فالسحرة لما رأوا العصا انقلبت حية بالفعل، خروا سجداً وآمنوا برب موسى وهارون، مع أن موسى هو الذى فعل ذلك، ولكن السحرة بخبرتهم السابقة، عرفوا أن هذه المسألة خارجة عن نطاق البشر، ولا يمكن أن تحدث إلا بمعجزة أيده الله بها؛ فآمنوا بالله رغم ما توعدهم به فرعون. كذلك الحكاية حدثت هنا .. فسليمان دانت له بلقيس، واقتنعت وقالت: أسلمت معك لله رب العالمين.

* الحرث الذى حكم فيه داود وسليمان *

يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ (٧٨) فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ (٧٩) ﴾[الأنبياء].

كلمة يحكمان تدل على أن هناك خصومة فى قضية الحرث(١).

---

(١) قال ابن كثير: فأما الحكم الذى يوافق حكم الله تعالى، فقد أثنى الله تعالى عليه وعلى أبيه فى قوله : ﴿ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ (٧٨) فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ (٧٩) ﴾ [الأنبياء] .

وقد ذكر شريح القاضى وغير واحد من السلف أن هؤلاء القوم كان لهم كرم فنفشت فيه غنم قوم آخرين - أى رعته بالليل - فأكلت شجره بالكلية ، فتحاكموا إلى داود عليه السلام ، فحكم لأصحاب الكرم بقيمته ، فلما خرجوا على سليمان قال : بِمَ حكم لكم نبى الله ؟ فقالوا : بكذا وكذا . فقال : أما لو كنت أنا لما حكمت إلا بتسليم الغنم إلى أصحاب الكرم ؛ فيستغلوها نتاجًا ودرًا حتى يصلح أصحاب الغنم كرم أولئك ، ويردوه إلى ما كان عليه ، ثم يتسلموا غنمهم ، فبلغ داود عليه السلام ذلك فحكم به . [قصص الأنبياء: ٥٦٠، ٥٦١]

وانظر [الكامل فى التاريخ لابن الأثير : ١/ ٢٢٩، ٢٣٠]

وقال القرطبى فى قوله تعالى : ﴿ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ (٧٨) فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ (٧٩) ﴾ [الأنبياء] : فيه ست وعشرون مسألة :

= الأولى : قوله تعالى ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ﴾ أى: واذكرهما إذ يحكمان ، ولم يرد بقوله : ﴿إِذْ يَحْكُمَانِ﴾ الاجتماع فى الحكم وإن جمعهما فى القول ؛ فإن حكمين على حكم واحد لا يجوز . وإنما حكم كل واحد منهما على انفراده وكان سليمان الفاهم لها بتفهيم الله تعالى إياه . ﴿فِي الْحَرْثِ﴾ اختلف فيه على قولين: فقيل : كان زرعًا ؛ قاله قتادة . وقيل : كرما نبتت عناقيده؛ قاله ابن مسعود وشريح . و« الحرث » يقال فيهما ، وهو فى الزرع أبعد من الاستعارة .

الثانية : قوله تعالى : ﴿إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ﴾ أى رعت فيه ليلاً ، والنفش الرعى بالليل . يقال: نفشت بالليل ، وهملت بالنهار ، إذا رعت بلا راع . وأنفشها صاحبها. وإبلٌ نُفَّاشٌ . وفى حديث عبد الله بن عمرو : الحبة فى الجنة مثل كرش البعير يبيت نافشا ؛ أى راعيًا ؛ حكاه الهروى : وقال ابن سيده : لا يقال الهمل فى الغنم ، وإنما هو فى الإبل .

الثالثة : قوله تعالى : ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ دليل على أن أقل الجمع اثنان. وقيل : المراد الحاكمان والمحكوم عليه ؛ فلذلك قال: ﴿لِحُكْمِهِمْ﴾.

الرابعة : قوله تعالى : ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾ : أى فهمناه القضية والحكومة ، فكنى عنها إذ سبق ما يدل عليها . وفضَّلَ حكمُ سليمان حكم أبيه فى أنه أحرز أن يبقى ملك كل واحد منهما على متاعه وتبقى نفسه طيبة بذلك ؛ وذلك أن داود عليه السلام رأى أن يدفع الغنم إلى صاحب الحرث . وقالت فرقة : بل دفع الغنم إلى صاحب الحرث ، والحرث إلى صاحب الغنم .

قال ابن عطية: فيشبه على القول الواحد أنه رأى الغنم تقاوم الغلة التى أفسدت، وعلى القول الثانى رآها تقاوم الحرث والغلة ؛ فلما خرج الخصمان على سليمان وكان يجلس على الباب الذى يخرج منه الخصوم ، وكانوا يدخلون إلى داود من باب آخر فقال : بم قضى بينكما نبى الله داود ؟ فقالا : قضى بالغنم لصاحب الحرث . فقال: لعل الحكم غير هذا، انصرفا معى. فأتى أباه فقال : يا نبى الله، إنك حكمت بكذا وكذا وإنى رأيت ما هو أرفق بالجميع . قال : وما هو ؟ قال : ينبغى أن تدفع الغنم إلى صاحب الحرث فينتفع بألبانها وسمونها وأصوافها، وتدفع الحرث إلى صاحب الغنم ليقوم عليه ، فإذا عاد الزرع إلى حاله التى أصابته الغنم فيه فى السنة=

= المقبلة ، رد كل واحد منهما ماله إلى صاحبه. فقال داود : وفقت يا بنى لا يقطع الله فهمك. وقضى بما قضى به سليمان ؛ قال معناه ابن مسعود ومجاهد وغيرهما . قال الكلبى: قوَّم داود الغنم والكرم الذى أفسدته الغنم فكانت القيمتان سواء، فدفع الغنم إلى صاحب الكرم . وهكذا قال النحاس ؛ قال : إنما قضى بالغنم لصاحب الحرث؛ لأن ثمنها كان قريبًا منه . وأما فى حكم سليمان فقد قيل : كانت قيمة ما نال من الغنم وقيمة ما أفسدت الغنم سواء أيضًا .

الخامسة : قوله تعالى : ﴿ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ ؛تأول قوم أن داود عليه السلام لم يخطىء فى هذه النازلة،بل فيها أوتى الحكم والعلم.وحملوا قوله: ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ﴾ على أنه فضيلة له على داود وفضيلته راجعة إلى داود ، والوالد تسره زيادة ولده عليه . وقالت فرقة : بل لأنه لم يصب العين المطلوبة فى هذه النازلة ، وإنما مدحه الله بأن له حكما وعلما يرجع إليه فى غير هذه النازلة : وأما فى هذه فأصاب سليمان وأخطأ داود عليهما الصلاة والسلام ، ولا يمتنع وجود الغلط والخطأ من الأنبياء كوجوده من غيرهم ، لكن لا يقرون عليه ، وإن أقر عليه غيرهم . ولما هدم الوليد كنيسة دمشق كتب إليه ملك الروم : إنك هدمت الكنيسة التى رأى أبوك تركها ، فإن كنت مصيبا فقد أخطأ أبوك ، وإن كان أبوك مصيبا فقد أخطأت أنت ؛ فأجابه الوليد ﴿ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾.وقال قوم: كان داود وسليمان عليهما السلام نبيين يقضيان بما يوحى إليهما،فحكم داود بوحى،وحكم سليمان بوحى نسخ الله به حكم داود ، وعلى هذا ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ﴾ أى بطريق الوحى الناسخ لما أوحى إلى داود ، وأمر سليمان أن يبلغ ذلك داود ؛ ولهذا قال : ﴿ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾.هذا قول جماعة من العلماء ومنهما ابن فورك. وقال الجمهور: إن حكمهما كان باجتهاد ، وهى :

السادسة : واختلف العلماء فى جواز الاجتهاد على الأنبياء فمنعه قوم ، وجوزه المحققون؛ لأنه ليس فيه استحالة عقلية ؛ لأنه دليل شرعى فلا إحالة أن يستدل به الأنبياء ، كما لو قال له الرب سبحانه وتعالى : إذا غلب على ظنك كذا فاقطع بأن ما غلب على ظنك هو حكمى فبلغه الأمة ؛ فهذا غير مستحيل فى العقل . فإن =

. . . .

= قيل: إنما يكون دليلا إذا عدم النص وهم لا يعدمونه . قلنا : إذا لم ينزل الملك فقد عدم النص عندهم ، وصاروا فى البحث كغيرهم من المجتهدين عن معانى النصوص التى عندهم . والفرق بينهم وبين غيرهم من المجتهدين أنهم معصومون عن الخطأ ، وعن الغلط ، وعن التقصير فى اجتهادهم ، وغيرهم ليس كذلك . كما ذهب الجمهور فى أن جميع الأنبياء صلوات الله عليهم معصومون عن الخطأ والغلط فى اجتهادهم . وذهب أبو على ابن أبى هريرة من أصحاب الشافعى إلى أن نبينا ﷺ مخصوص منهم فى جواز الخطأ عليهم ، وفرق بينه وبين غيره من الأنبياء أنه لم يكن بعده من يستدرك غلطه ، ولذلك عصمه الله تعالى منه ، وقد بُعث بعد غيره من الأنبياء من يستدرك غلطه .

وقد قيل : أنه على العموم فى جميع الأنبياء ، وأن نبينا وغيره من الأنبياء صلوات الله عليهم فى تجويز الخطأ على سواء ، إلا أنهم لا يقرون على إمضائه ، فلم يعتبر فيه استدراك من بعدهم من الأنبياء .

هذا رسول الله ﷺ وقد سألته امرأة عن العدة فقال لها : « اعتدى حيث شئت ». ثم قال لها : « امكثى فى بيتك حتى يبلغ الكتاب أجله » (١).وقال له رجل : أرأيت لو قتلت صبرا محتسبًا أيحجزنى عن الجنة شىء ؟ فقال: «لا». ثم دعاه =

---

(١) أخرجه أبو داود [٢٣٠٠] عن زينب بنت كعب بن عجرة : أن الفُرَيْعَةَ بنت مالك بن سنان، وهى أخت أبى سعيد الخدرى ، أخبرتها : أنها جاءت إلى رسول الله ﷺ تسأله أن ترجع إلى أهلها فى بنى خدرة ، فإن زوجها خرج فى طلب أَعْبُدٍ له أَبِقُوا حتى إذا كانوا بطرف القدوم لحقهم فقتلوه ، فسألت رسول الله ﷺ أن أرجع إلى أهلى ، فإنى لم يتركنى فى مسكن يملكه ، ولا نفقة ، قالت : فقال رسول الله ﷺ: « نعم ». قالت : فخرجت حتى إذا كانت فى الحجرة ، أو فى المسجد ، دعانى أو أمر بى فدعيت له،فقال : « كيف قلت»؟ فرددت عليه القصة التى ذكرت من شأن زوجى ، قالت: فقال: «امكثى فى بيتك حتى يبلغ الكتاب أجله». قالت : فاعتددت فيه أربعة أشهر وعشرًا، قالت : فلما كان عثمان بن عفان : أرسل إلى فسألنى عن ذلك ، فأخبرته فاتبعه وقضى به.

وأخرجه الترمذى [١٢٠٤] والنسائى فى الكبرى [٥٧٢٣، ٥٧٢٤] وابن ماجة [٢٠٣١]، وصححه الألبانى فى صحيح أبى داود [٢٠١٦].

= فقال: « إلا الدين، كذا أخبرنى جبريل عليه السلام [1]».

السابعة : قال الحسن : لولا هذه الآية لرأيت أن القضاة هلكوا. ولكنه تعالى أثنى على سليمان بصوابه ، وعذر داود باجتهاده. وقد اختلف الناس فى المجتهدين فى الفروع إذا اختلفوا . فقالت فرقة : الحق فى طرف واحد عند الله، وقد نصب على ذلك أدلة ، وحمل المجتهدين على البحث عنها ، والنظر فيها ، فمن صادف العين المطلوبة فى المسألة فهو المصيب على الإطلاق ، وله أجران أجر فى الاجتهاد وأجر فى الإصابة ، ومن لم يصادفها فهو مصيب فى اجتهاده مخطىء فى أنه لم يصب العين فله أجر وهو غير معذور . وهذا سليمان قد صادف العين المطلوبة ، وهى التى فهم . ورأت فرقة أن العالم المخطىء لا إثم عليه فى خطئه ، وإن كان غير معذور . وقالت فرقة : الحق فى طرف واحد ولم ينصب الله تعالى عليه دلائل ، بل وكل الأمر إلى نظر المجتهدين ، فمن أصابه أصاب ومن أخطأ فهو معذور مأجور ، ولم يتعبد بإصابة العين بل تُعُبِّدْنا بالاجتهاد فقط . وقال جمهور أهل السنة وهو المحفوظ عن مالك وأصحابه رضى الله عنهم : إن الحق فى مسائل الفروع فى الطرفين ، وكل مجتهد مصيب ، المطلوب إنما هو الأفضل فى ظنه ، وكل مجتهد قد أداه نظره إلى الأفضل فى ظنه ؛ والدليل على هذه المقالة أن الصحابة فمن بعدهم قرر بعضهم خلاف بعض، ولم ير أحد منهم أن يقع الانحمال على قوله دون قول مخالفه . ومنه ردّ مالك رحمه الله للمنصور أبى جعفر عن حمل الناس على « الموطأ» :«فإذا قال عالم فى أمر: حلال. فذلك هو الحق فيما يختص بذلك العالم عند الله تعالى وبكل من أخذ بقوله ، وكذا فى العكس ». قالوا : وإن كان سليمان عليه السلام =

(١) أخرجه مسلم [١٨٨٥/١١٧] عن أبى قتادة عن رسول الله ﷺ ؛ أنه قام فيهم فذكر لهم «أن الجهاد فى سبيل الله والإيمان بالله أفضل الأعمال ». فقام رجل فقال : يا رسول الله، أرأيت إن قتلت فى سبيل الله تكفر عنى خطاياى ؟ فقال له رسول الله ﷺ : « نعم إن قتلت فى سبيل الله ، وأنت صابر محتسب ، مقبل غير مدبر». ثم قال رسول الله ﷺ: «كيف قلت ؟». قال : أرأيت إن قتلت فى سبيل الله أتكفر عنى خطاياى ؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم . وأنت صابرٌ محتسب ، مقبل غير مدبر ، إلا الدين فإن جبريل عليه السلام، قال لى ذلك ». وأخرجه الترمذى [١٧١٢] ، والنسائى فى المجتبى [٦/ ٣٤] .

= فهم القضية المثلى والتى هى أرجح فالأولى ليست بخطأ ، وعلى هذا يحملون قوله عليه السلام: « إذا اجتهد العالم فأخطأ » . أى فأخطأ الأفضل .

الثامنة : روى مسلم وغيره عن عمرو بن العاص أنه سمع رسول الله ﷺ قال : « إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر»(١) . هكذا لفظ الحديث فى كتاب مسلم :« إذا حكم فاجتهد». فبدأ بالحكم قبل الاجتهاد، والأمر بالعكس؛ فإن الاجتهاد مقدم على الحكم ، فلا يجوز الحكم قبل الاجتهاد بالإجماع ، وإنما معنى هذا الحديث : إذا أراد أن يحكم ، كما قال : ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨] فعند ذلك أراد أن يجتهد فى النازلة . ويفيد هذا صحة ما قاله الأصوليون : إن المجتهد يجب عليه أن يجدد نظرا عند وقوع النازلة ، ولا يعتمد على اجتهاده المتقدم لإمكان أن يظهر له ثانيا خلاف ماظهر له أولاً ، اللهم إلا أن يكون ذاكرًا لأركان اجتهاده ، مائلاً إليه ، فلا يحتاج إلى استئناف نظر فى أمارة أخرى .

التاسعة : إنما يكون الأجر للحاكم المخطىء إذا كان عالما بالاجتهاد والسنن والقياس ، وقضاء من مضى لأن اجتهاده عبادة ولا يؤجر على الخطأ بل يوضع عنه الإثم فقط ، فأما من لم يكن محلاً للاجتهاد فهو متكلف لا يعذر بالخطأ فى الحكم بل يخاف عليه أعظم الوزر، يدل على ذلك حديثه الآخر؛رواه أبو داود: « القضاة ثلاثة. . . » الحديث (٢). قال ابن المنذر : إنما يؤجر على اجتهاده فى طلب الصواب لا على الخطأ ، مما يؤيد هذا قوله تعالى ، ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾ الآية. قال الحسن : أثنى على سليمان ولم يذم داود .

العاشرة : ذكر أبو التمام المالكى أن مذهب مالك أن الحق فى واحد من أقاويل المجتهدين، وليس ذلك من أقاويل المختلفين ، وبه قال أكثر الفقهاء. قال : وحكى=

---

(١) أخرجه البخارى [٧٣٥٢] ، ومسلم [١٧١٦/ ١٥].

(٢) أخرجه أبو داود [٣٥٧٣] عن بريدة بلفظ : « القضاة ثلاثة : واحد فى الجنة ، واثنان فى النار ، فأما الذى فى الجنة ، فرجل عرف الحق فقضى به ، ورجل عرف الحق فجار فى الحكم فهو فى النار ، ورجل قضى للناس على جهل فهو فى النار » . وصححه الألبانى فى صحيح أبى داود [٣٠٥١] .

= ابن القاسم أنه سأل مالكا عن اختلاف الصحابة ، فقال : مخطىء ومصيب ، وليس الحق فى جميع أقاويلهم وهذا القول قيل : هو المشهور عن مالك وإليه ذهب محمد ابن الحسين ، واحتج من قال هذا بحديث عبد الله بن عمرو ؛ قالوا : وهو نص على أن فى المجتهدين وفى الحاكمين مخطئًا ومصيبًا ، قالوا: والقول بأن كل مجتهد مصيب يؤدى إلى كون الشىء حلالا حرامًا ، وواجبًا ندبا ، واحتج أهل المقالة الأولى بحديث ابن عمر قال : نادى فينا رسول الله ﷺ يوم انصرف من الأحزاب: «ألا لا يصلين أحدٌ العصر إلا فى بنى قريظة ». فتخوف ناس فوت الوقت فصلوا دون بنى قريظة، وقال الآخرون : لا نصلى إلا حيث أمرنا رسول الله ﷺ وإن فاتنا الوقت ، قال :فما عنف واحدا من الفريقين (١) ؛ قالوا: فلو كان أحد الفريقين مخطئًا لعينه النبى ﷺ ، ويمكن أن يقال : لعله إنما سكت عن تعيين المخطئين لأنه غير آثم بل مأجور، فاستغنى عن تعيينه . والله أعلم . ومسألة الاجتهاد طويلة متشعبة ، وهذه النبذة التى ذكرناها كافية فى معنى الآية ، والله الموفق للهداية .

الحادية عشرة : ويتعلق بالآية فصل آخر : وهو رجوع الحاكم بعد قضائه من اجتهاده إلى اجتهاد آخر أرجح من الأول ؛ فإن داود عليه السلام فعل ذلك . وقد اختلف فى ذلك علماؤنا رحمهم الله تعالى ؛ فقال عبد الملك ومطرف فى « الواضحة » : ذلك له ما دام فى ولايته ؛ فأما إن كانت ولاية أخرى فليس له ذلك وهو بمنزلة غيره من القضاة. وهذا هو ظاهر قول مالك رحمه الله فى « المدونة ». وقال سحنون: فى رجوعه من اجتهاد فيه قول إلى غيره مما رآه أصوب ليس له ذلك؛ وقاله ابن عبدالحكم قالا : ويستأنف الحكم بما قوى عنده . قال سحنون : إلا أن يكون نسى الأقوى عنده فى ذلك الوقت ؛ أو وهم فحكم بغيره فله نقضه ، وأما إن حكم بحكم هو الأقوى عنده فى ذلك الوقت ثم قوى عنده غيره بعد ذلك فلا سبيل إلى نقض الأول؛ قاله سحنون فى كتاب ابنه. وقال أشهب فى كتاب ابن المواز: إن كان رجوعه إلى الأصوب فى مال فله نقض الأول ، وإن كان فى طلاق أو نكاح أو عتق فليس له نقضه . =

(١) أخرجه البخارى [٩٤٦، ٤١١٩] عن ابن عمر قال : قال النبى ﷺ لنا لما رجع من الأحزاب: « لا يصلين أحد العصر إلا فى بنى قريظة ». فأدرك بعضهم العصر فى الطريق ، فقال بعضهم : لا نصلى العصر حتى نأتيها ، وقال بعضهم : بل نصلى، لم يرد منا ذلك. فذُكر للنبى ﷺ فلم يُعَنِّف واحدًا منهم .

. . . .

= قلت : رجوع القاضى عما حكم به إذا تبين له أن الحق فى غيره ما دام فى ولايته أولى . وهكذا فى رسالة عمر إلى أبى موسى رضى الله عنهما ؛ رواها الدارقطنى ، ولم يفصل ؛ وهى الحجة لظاهر قول مالك . ولم يختلف العلماء أن القاضى إذا قضى تجوزًا وبخلاف أهل العلم فهو مردود ، وإن كان على وجه الاجتهاد ؛ فأما أن يتعقب قاض حكم قاض آخر فلا يجوز ذلك له ؛ لأن فيه مضرة عظمى من جهة نقض الأحكام ، وتبديل الحلال بالحرام، وعدم ضبط قوانين الإسلام ولم يتعرض أحد من العلماء لنقض ما رواه الآخر ، وإنما كان يحكم بما ظهر له .

الثانية عشرة : قال بعض الناس : إن داود عليه السلام لم يكن أنفذ الحكم وظهر له ما قال غيره . وقال آخرون : لم يكن حكما وإنما كانت فتيا .

قلت : وهكذا تؤول فيما رواه أبو هريرة عنه عليه السلام أنه قال : « بينما امرأتان معهما ابناهما جاء الذئب فذهب بابن إحداهما ، فقالت هذه لصاحبتها : إنما ذهب بابنك أنت . وقالت الأخرى : إنما ذهب بابنك . فتحاكمتا إلى داود ، فقضى به للكبرى فخرجتا على سليمان بن داود عليهما السلام فأخبرتاه؛ فقال: ائتونى بالسكين أشقه بينكما؛ فقالت الصغرى : لا؛ يرحمك الله هو ابنها ؛ فقضى به للصغرى ». قال أبو هريرة : إن سمعت بالسكين قط إلا يومئذ ، ما كنا نقول إلا المدية[1] ؛ أخرجه مسلم. فأما القول بأن ذلك من داود فتيا فهو ضعيف؛ لأنه كان النبى ﷺ وفتياه حكم . وأما القول الآخر فبعيد ؛لأنه تعالى قال: ﴿إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ﴾ فبين أن كل واحد منهما كان قد حكم . وكذا قوله فى الحديث : « فقضى به للكبرى » ؛ يدل على إنفاذ القضاء وإنجازه . ولقد أبعد من قال: إنه كان من شرع داود أن يحكم به للكبرى من حيث هى كبرى؛ لأن الكبر والصغر طرد محض عند الدعاوى كالطول والقصر والسواد والبياض، وذلك لا يوجب ترجيح أحد المتداعيين حتى يحكم له أو عليه لأجل ذلك . وهو مما يقطع به من فهم ما جاءت به الشرائع. والذى ينبغى أن يقال : إن داود عليه السلام إنما قضى به للكبرى لسبب اقتضى عنده ترجيح قولها. ولم يذكر فى الحديث تعيينه إذ لم تدع حاجة إليه، فيمكن أن الولد كان بيدها، وعلم عجز الأخرى عن إقامة البينة، فقضى به لها إبقاء لما كان على ماكان. وهذا التأويل أحسن ما قيل فى هذا الحديث، وهو الذى تشهد له قاعدة =

(١) أخرجه البخارى [٣٤٢٧، ٦٧٦٩] ، ومسلم [١٧٢٠] واللفظ له .

= الدعاوي الشرعية التى يبعد اختلاف الشرائع فيها. لا يقال : فإن كان داود قضى بسبب شرعى فكيف ساغ لسليمان نقض حكمه ؟ فالجواب: أن سليمان عليه السلام لم يتعرض لحكم أبيه بالنقض ، وإنما احتال حيلة لطيفة ظهر له بسببها صدق الصغرى ؛ وهى أنه لما قال : هات السكين أشقه بينكما. قالت الصغرى : لا ؛ فظهر له من قرينة الشفقة فى الصغرى ، وعدم ذلك فى الكبرى ، مع ما عساه انضاف إلىّ ذلك من القرائن ما حصل له العلم بصدقها فحكم لها . ولعله كان ممن سوغ له أن يحكم بعلمه . وقد ترجم النسائى على هذا الحديث: « حكم الحاكم بعلمه » . وترجم له أيضًا « السعة للحاكم أن يقول للشىء الذي لا يفعله: أفعل ، ليستبين الحق ».وترجم له أيضًا: «نقض الحاكم لا يحكم به غيره ممن هو مثله أو أجل منه » . ولعل الكبرى اعترفت بأن الولد للصغرى عندما رأت من سليمان الحزم والجد فى ذلك ، فقضى بالولد للصغرى ؛ ويكون هذا كما إذا حكم الحاكم باليمين، فلما مضى ليحلف حضر من استخرج من المنكر ما أوجب إقراره ، فإنه يحكم عليه بذلك الإقرار قبل اليمين وبعدها ، ولا يكون ذلك من باب نقض الحكم الأول ، لكن من باب تبدّل الأحكام بحسب تبدل الأسباب،والله أعلم. وفى هذا الحديث من الفقه أن الأنبياء سوغ لهم الحكم بالاجتهاد ؛ وقد ذكرناه . وفيه من الفقه استعمال الحكام الحيل التى تستخرج بها الحقوق ، وذلك يكون عن قوة الذكاء والفطنة ، وممارسة أحوال الخلق ؛ وقد يكون فى أهل التقوى فراسة دينية، وتوسمات نورية ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء . وفيه الحجة لمن يقول : إن الأم تستلحق؛وليس مشهور مذهب مالك ، وليس هذا موضع ذكره.وعلى الجملة فقضاء سليمان فى هذه القصة تضمنها مدحه تعالى له بقوله: ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ﴾ .

الثالثة عشرة : قد تقدم القول فى الحرث والحكم فى هذه الواقعة فى شرعنا: أن على أصحاب الحوائط حفظ حيطانهم وزروعهم بالنهار،ثم الضمان فى المثل بالمثليات، وبالقيمة فى ذوات القيم . والأصل فى هذه المسألة فى شرعنا ما حكم به محمد نبينا ﷺ فى ناقة البراء بن عازب . رواه مالك عن ابن شهاب عن حرام بن سعد ابن مُحيِّصة: أن ناقة للبراء دخلت حائط رجل فأفسدت فيه، فقضى رسول الله ﷺ أن على أهل الحوائط حفظها بالليل ،وأن ما أفسدت المواشى بالليل ضامن [1]على=

(١) ضامن بمعنى مضمون .

. . . .

= أهلها (١) ، هكذا رواه جميع الرواة مرسلا . وكذلك رواه أصحاب ابن شهاب عن ابن شهاب ، إلا ابن عيينة فإنه رواه عن الزهرى عن سعيد وحرام بن سعد ابن محيصة : إن ناقة . . . فذكر مثله بمعناه . ورواه ابن أبى ذئب عن ابن شهاب أنه بلغه أن ناقة البراء دخلت حائط قوم ؛ مثل حديث مالك سواء إلا أنه لم يذكر حرام بن سعد بن محيصة ولا غيره . قال أبو عمر : لم يصنع ابن أبى ذئب شيئًا ؛ إلا أنه أفسد إسناده . ورواه عبد الرزاق عن معمر عن الزهرى عن حرام بن محيصة عن أبيه عن النبى ﷺ ولم يتابع عبد الرزاق على ذلك وأنكروا عليه قوله عن أبيه. ورواه ابن جريج عن ابن شهاب قال : حدثنى أبو أمامة بن سهل بن حنيف أن ناقة دخلت فى حائط قوم فأفسدت؛ فجعل الحديث لابن شهاب عن أبى أمامة ، ولم يذكر أن الناقة كانت للبراء. وجائز أن يكون الحديث عن ابن شهاب عن ابن محيصة، وعن سعيد ابن المسيب ، وعن أبى أمامة - والله أعلم - فحدث به عمن شاء منهم على ما حضره وكلهم ثقات . قال أبو عمر : وهذا الحديث وإن كان مرسلاً فهو حديث مشهور أرسله الأئمة : وحدث به الثقات ، واستعمله فقهاء الحجاز وتلقوه بالقبول ، وجرى فى المدينة العمل به ، وحسبك باستعمال أهل المدينة وسائر أهل الحجاز لهذا الحديث .

الرابعة عشرة :ذهب مالك وجمهور الأئمة إلى القول بحديث البراء،وذهب أبو حنيفة وأصحابه وجماعة من الكوفيين إلى أن هذا الحكم منسوخ ، وأن البهائم إذا أفسدت زرعا فى ليل أو نهار أنه لا يلزم صاحبها شىء، وأدخل فسادها فى عموم قوله ﷺ: « جرح العجماء جبار » . فقاس جميع أعمالها على جرحها . ويقال : إنه ما تقدم أبا حنيفة أحد بهذا القول ولا حجة له ولا لمن اتبعه فى حديث العجماء ، وكونه ناسخا لحديث البراء ومعارضًا له ؛ فإن النسخ شروطه معدومة ، والتعارض إنما يصح إذا لم يكن استعمال أحدهما إلا بنفى الآخر ، وحديث:« العجماء جرحها جبار » عموم متفق عليه (٢) ، ثم خص منه الزرع والحوائط بحديث البراء ؛ لأن =

(١) أخرجه مالك فى الموطأ ، كتاب الأقضية- باب القضاء فى الضوارى والحريسة ، والدارقطنى [٣٢٨٩] .

(٢) أخرجه البخارى [١٤٩٩، ٢٣٥٥، ٦٩١٢، ٦٩١٣] ، ومسلم [١٧١٠/٤٥، ٤٦] عن أبى هريرة بلفظ : « العجماء جَرحها جبار ، والبئر جبار ، والمعدن جبار ، وفى الرِّكاز الخُمْس » .

= النبى ﷺ لو جاء عنه فى حديث واحد : العجماء جرحها جبار نهارا لا ليلا وفى الزرع والحوائط والحرث ، لم يكن هذا مستحيلا من القول ؛ فكيف يجوز أن يقال فى هذا: متعارض ؟! وإنما هذا من باب العموم والخصوص على ما هو مذكور فى الأصول .

الخامسة عشرة : إن قيل : ما الحكمة فى تفريق الشارع بين الليل والنهار ، وقد قال الليث ابن سعد : يضمن أرباب المواشى بالليل والنهار كل ما أفسدت ، ولا يضمن أكثر من قيمة الماشية ؟ قلنا : الفرق بينهما واضح ، وذلك أن أهل المواشى لهم ضرورة إلى إرسال مواشيهم ترعى بالنهار ، والأغلب عندهم أن من عنده زرع يتعاهده بالنهار ويحفظه عمن أراده ، فجعل حفظ ذلك بالنهار على أهل الزروع ؛ لأنه وقت التصرف فى المعاش ، كما قال الله سبحانه وتعالى : ﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ [النبأ: ١١] فإذا جاء الليل فقد جاء الوقت الذى يرجع كل شىء إلى موضعه وسكنه ؛ كما قال الله تعالى : ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [القصص: ٧٢] وقال : ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [الأنعام: ٩٦] ، ويرد أهل المواشى مواشيهم إلى مواضعهم ليحفظوها ، فإذا فرط صاحب الماشية فى ردها إلى منزله ، أو فرط فى ضبطها وحبسها عن الانتشار بالليل حتى أتلفت شيئًا فعليه ضمان ذلك ، فجرى الحكم على الأوفق والأسمح ، وكان ذلك أرفق بالفريقين وأسهل على الطائفتين ، وأحفظ للمالين، وقد وضح الصبح لذى عينين ، ولكن لسليم الحاستين ؛ وأما قول الليث : لايضمن أكثر من قيمة الماشية ، فقد قال أبو عمر : لا أعلم من أين قال هذا الليث بن سعد إلا أن يجعله قياسا على العبد الجانى لا يفتك بأكثر من قيمته ولا يلزم سيده فى جنايته أكثر من قيمته ، وهذا ضعيف الوجه ؛ كذا قال فى « التمهيد»، وقال فى « الاستذكار» : فخالف الحديث فى « العجماء جرحها جبار » وخالف ناقة البراء ، وقد تقدمه إلى ذلك طائفة من العلماء منهم عطاء . قال ابن جريج: قلت لعطاء : الحرث تصيبه الماشية ليلا أو نهارًا ؟ قال : يضمن صاحبها ويغرم . قلت : كان عليه حظرا أو لم يكن ؟ قال : نعم ، يغرم . قلت : ما يغرم ؟ قال : قيمة ما أكل حماره ودابته =

. . . .

= وماشيته .وقال معمر عن ابن شبرمة : يقوم الزرع على حاله التى أصيب عليها دراهم . وروى عن عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز رضى الله عنهما : يضمن رب الماشية ليلا أو نهارًا ، من طرق لا تصح .

السادسة عشرة : قال مالك : ويقوم الزرع الذي أفسدت المواشي بالليل على الرجاء والخوف . قال : والحوائط التى تحرس والتى لا تحرس ، والمحظَّر عليها وغير المحظَّر سواء، يغرم أهلها ما أصابت بالليل بالغا ما بلغ ، وإن كان أكثر من قيمتها . قال : وإذا انفلتت دابة بالليل فوطئت على رجل نائم لم يغرم صاحبها شيئًا ، وإنما هذا فى الحائط والزرع والحرث ؛ ذكره عنه ابن عبد الحكم . وقال ابن القاسم : ما أفسدت الماشية بالليل فهو فى مال ربها، وإن كـان أضعاف ثمنها ؛ لأن الجناية من قبله إذا لم يربطها ، وليست الماشية كالعبيد ؛ حكاه سحنون وأصبغ وأبو زيد عن ابن القاسم .

السابعة عشرة : ولا يستأنى بالزرع أن ينبت أو لا ينبت كما يفعل فى سن الصغير . وقال عيسى عن ابن القاسم : قيمته لو حل بيعه . وقال أشهب وابن نافع فى المجموعة عنه : وإن لم يبد صلاحه . ابن العربى : والأول أقوى لأنها صفته فتقوَّم كما يقَوَّم كل متلَف على صفته .

الثامنة عشرة : لو لم يقض للمفسد له بشىء حتى نبت والجبر فإن كان فيه قبل ذلك منفعة رعى أو شىء ضمن تلك المنفعة ، وإن لم تكن فيه منفعة فلا ضمان . وقال أصبغ : يضمن ؛ لأن التلف قد تحقق والجبر ليس من جهته فلا يعتد له به .

التاسعة عشرة : وقع فى كتاب ابن سحنون أن الحديث إنما جاء فى أمثال المدينة التى هى حيطان محدقة ، وأما البلاد التى هى زروع متصلة غير محظرة ، وبساتين كذلك، فيضمن أرباب النَّعم ما أفسدت من ليل أو نهار ؛ كأنه ذهب إلى أن ترك تثقيف الحيوان فى مثل هذه البلاد تَعَدٍّ ؛ لأنها ولا بد تفسد . وهذا جنوح إلى قول الليث .

الموفية عشرين : قال أصبغ فى المدينة : ليس لأهل المواشى أن يخرجوا مواشيهم إلى قرى الزرع بغير ذوّاد ؛ فركب العلماء على هذا أن البقعة لا تخلو أن تكون بقعة زرع، أو بقعة سرح ، فإن كانت بقعة زرع فلا تدخلها ماشية إلا ماشية تحتاج ، وعلى أربابها حفظها ، وما أفسدت فصاحبها ضامن ليلا أو نهارا . وإن كانت بقعة سرح فعلى صاحب الذى حرثه فيها حفظه ولا شىء على أرباب المواشى . =

= **الحادية والعشرون** : المواشى على قسمين : ضوارى وحريسة وعليهما قسمها مالك . فالضوارى هى المعتادة للزرع والثمار ، فقال مالك : تغرب وتباع فى بلد لا زرع فيه؛ رواه ابن القاسم فى الكتاب وغيره . قال ابن حبيب : وإن كره ذلك ربها ، وكذلك قال مالك فى الدابة التى ضريت فى إفساد الزرع : تغرب وتباع . وأما مايستطاع الاحتراس منه فلا يؤمر صاحبه بإخراجه .

الثانية والعشرون : قال أصبغ : النحل والحمام والإوز والدجاج كالماشية ، لا يمنع صاحبها من اتخاذها وإن ضريت ، وعلى أهل القرية حفظ زروعهم. قال ابن العربى: وهذه رواية ضعيفة لا يلتفت إليها . من أراد أن يتخذ ما ينتفع به مما لا يضر بغيره مكن منه ، وأما انتفاعه بما يتخذه بإضراره بأحد فلا سبيل إليه . قال عليه السلام: «لا ضرر ولا ضرار » (١) وهذه الضوارى عن ابن القاسم فى المدينة لا ضمان على أربابها إلا بعد التقدم . ابن العربى : وأرى الضمان عليهم قبل التقدم إذا كانت ضوارى .

الثالثة والعشرون: ذكر عبد الرزاق عن معمر عن قتادة عن الشعبى أن شاة وقعت فى غزل حائك فاختصموا إلى شريح ، فقال الشعبى : انظروه فإنه سيسألهم ليلا وقعت فيه أو نهارا ؛ ففعل . ثم قال : إن كان بالليل ضمن وإن كان بالنهار لم يضمن ، ثم قرأ شريح ﴿إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ﴾ [الأنبياء: ٧٨] قال : والنفش بالليل والهمل بالنهار .

قلت: ومن هذا الباب قوله ﷺ: « العجماء جرحها جبار » الحديث. قال ابن شهاب: والجبار الهدر والعجماء البهيمة . قال علماؤنا : ظاهر قوله : العجماء جرحها جبار إن ما انفردت البهيمة بإتلافه لم يكن فيه شىء ، وهذا مجمع عليه . فلو كان معها قائد أو سائق أو راكب فحملها أحدهم على شىء فأتلفته لزمه حكم المتلف ؛ فإن كانت جناية مضمونة بالقصاص وكان الحمل عمدا كان فيه القصاص ولا يختلف فيه؛ لأن الدابة كالآلة . وإن كان عن غير قصد كانت فيه الدية على العاقلة. وفى الأموال الغرامة فى مال الجانى .

الرابعة والعشرون : واختلفوا فيمن أصابته برجلها أو ذنبها ، فلم يضمّن مالك والليث والأوزاعى صاحبها ، وضمنه الشافعى وابن أبى ليلى وابن شبرمة . واختلفوا فى الضارية فجمهورهم أنها كغيرها ، ومالك وبعض أصحابه يضمنونه . =

(١) أخرجه ابن ماجة [٢٣٤٠] ، وصححه الألبانى فى صحيح ابن ماجة [١٨٩٥] .

....

= **الخامسة والعشرون** : روى سفيان بن حسين عن الزهرى عن سعيد بن المسيب عن أبى هريرة قال: قال رسول ﷺ : « الرجل جبار » (١) قال الدارقطنى : لم يروه غير سفيان بن حسين ولم يتابع عليه، وخالفه الحفاظ عن الزهرى، منهم مالك وابن عيينة ويونس ومعمر وابن جريج والزبيدى وعقيل وليث بن سعد ، وغيرهم كلهم رووه عن الزهرى فقالوا : « العجماء جبار والبئر جبار والمعدن جبار ». ولم يذكروا الرجل وهو الصواب . وكذلك رواه أبو صالح السمان وعبد الرحمن الأعرج، ومحمد ابن سيرين، ومحمد بن زياد وغيرهم عن أبى هريرة ، ولم يذكروا فيه « والرجل جبار»، وهو المحفوظ عن أبى هريرة .

السادسة والعشرون : **قوله** : « والبئر جبار »: قد روى موضعه . «والنار جبار » (٢) قال الدارقطنى : حدثنا حمزة بن القاسم الهاشمى حدثنا حنبل بن إسحاق قال: سمعت أبا عبد الله أحمد بن حنبل يقول فى حديث عبد الرزاق : حديث أبى هريرة « والنار جبار » ليس بشىء لم يكن فى الكتاب، باطل ليس هو بصحيح . حدثنا محمد بن مخلد حدثنا أبو إسحاق إبراهيم بن هانىء قال: سمعت أحمد بن حنبل يقول: أهل اليمن يكتبون النار النير ويكتبون البير ؛يعنى مثل ذلك. وإنما لقن عبد الرزاق « النار جبار»وقال الرمادى: قال عبد الرزاق: قال معمر: لا أراه إلا وهما . قال أبو عمر : روى عن النبى ﷺ حديث معمر عن همام بن منبه عن أبى هريرة عن النبى ﷺ أنه قال : « النار جبار ». وقال يحيى بن معين : أصله البئر ولكن معمرا صحفه. قال أبو عمر : لم يأت ابن معين على قوله هذا بدليل ، وليس هكذا ترد أحاديث الثقات . ذكر وكيع عن عبد العزيز بن حصين عن يحيى بن يحيى الغسانى قال: أحرق رجل سافى قراح (٣) له فخرجت شرارة من نار حتى أحرقت شيئًا لجاره. قال: فكتب فيه إلى عمر بن عبد العزيز ابنُ حصين فكتب إلىَّ أن رسول الله ﷺ قال : « العجماء جبار » وأرى أن النار جبار . وقد روى «والسائمة جبار »=

---

(١) أخرجه الدارقطنى [٣٢٧٥].

(٢) أخرجه أبو داود [٤٥٩٤] ، وابن ماجة [٢٦٧٦] ، والدارقطنى [٣٢٧٨] وصححه الألبانى فى صحيح أبى داود .

(٣) قراح : مزرعة .

والحرث هو إثارة تربة الأرض مثلما يحرث الفلاح الأرض، سمَّى ربُّنا الزرع والثمر والحدائق بالحرث قال تعالى : ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ﴾ [البقرة: ٢٠٥].

فمعنى: ﴿ يُهْلِكَ الْحَرْثَ ﴾ أى يهلك ما نشأ من الحرث من زروع وثمار وفواكه، فيسمى الزروع حرثاً مع أن الحرث هو إعداد الأرض للزرع، وهذا يوضح لنا أنه لا يمكن زرع إلا بحرث؛ لأن الحرث إهاجة لتربة الأرض؛ لأن الماء حينما يروى الأرض، يصنع طبقة زبدية على سطحها، فتسد مسام الأرض، فحين تسد هذه المسام تمنع المياه الجوفية من التبخر، وحين تظل المياه الجوفية بدون تبخر، تصيب شعيرات جذور النبات بالعطب، مما يجعل الزرع يذبل ويموت؛ لأن الزرع يحتاج إلى ماء قليل وإلى هواء أيضاً ، فإذا كان الماء كثيراً حجب الهواء عن الجذور وأضر بها، ولذلك يقولون: إن الأرض التى تكون طينتها صلدة[1]، ليست جيدة للزراعة، وكذلك الأرض الرملية؛ لأن الطينة تحفظ الماء الذى يعطب الجذور، والرملية يتسرب منها الماء فلا يفيد النبات، فالأرض الصفراء التى هى وسط بين الطينية والرملية هى التربة المثالية للزراعة، ربنا سمى الزرع حرثاً ؛ لأن الحرث يهيج تربة الأرض، فيزيل الطبقة المزبدة التى تكونت على سطح الأرض؛ حتى لا تسد المسام، ويجعل الهواء ينفذ إلى جذور النبات فيغذيها؛ ولذلك يقولون: لا

= بدل العجماء فهذا ما ورد فى ألفاظ هذا الحديث، ولكل معنى لفظ صحيح مذكور فى شرح الحديث وكتب الفقه. [تفسير القرطبى : ١١/٣٠٧-٣١٩]

(١) حجر صلد وصَلُود : بيِّن الصَّلادة والصُّلُود، صلب أملس ، والجمع من كل ذلك أصلاد . قال الله عز وجل : ﴿ فَتَرَكَهُ صَلْدًا ﴾ ؛ قال الليث : يقال: حجر صلد ، وجبين صلد: أى أملس يابس ، فإذا قلت : صلت فهو مستو. ابن السكيت : الصفا العريض من الحجارة الأملس. قال : والصِّلْداء والصِّلْداءة : الأرض الغليظة الصلبة . [لسان العرب : ٣/٢٥٦، ٢٥٧]

زرع إلا بحرث، والحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٤)﴾ [الواقعة] .

وقصة الحرث التى حكم فيها داود وسليمان عليهما السلام، أن رجلاً عنده زرع ورجل عنده غنم، فراعى الغنم غفل عن غنمه فهربت إلى الزرع وأكلته. صاحب الزرع اشتكى لنبى الله داود ،وداود لأول وهلة قال لصاحب الغنم: أعط الغنم لصاحب الأرض وانصرف. فى هذا الوقت كان عمر سليمان أحد عشر عاماً ،فلما خرج الراعى وصاحب الأرض من عند داود قال لهما : ماذا قضى أبى ؟ قالا له: قضى بأن يأخذ صاحب الأرض الغنم .

وتأويل ذلك : ربما وجد داود أن قيمة الزرع الذى أكلته الغنم، يساوى قيمة الغنم، فحكم هذا الحكم.

لما قص الرجلان قصتهما على سليمان لم يقل هذا ظلم أو جور،ولكن قال: هناك حل أرفق . . فلما قال هذا الكلام وبلغ داود أرسل إليه، وقال له: ما هو الأرفق الذى تراه فى هذه القضية؟ قال له: نعطى الغنم لصاحب الزرع،فيستفيد بلبنها وأصوافها،ونترك صاحب الغنم يزرع الأرض حتى تثمر،وتصبح كما كانت قبل اعتداء الغنم عليها،وعندئذ يأخذ صاحب الغنم غنمه، ويأخذ صاحب الأرض أرضه.

فربنا هو الذى فهم حل هذه المسألة لسليمان، وهذا ليس طعناً فى داود؛ لأن الله آتى كل واحد منهما حكماً وعلما.

* السحر .. ومملكة سليمان *

قال تعالى: ﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾(1) [البقرة: ١٠٢].

ولنا أن نلحظ أن هذه الآية قد نزلت بعد قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾(2) [البقرة: ١٠١].

---

(١) قال ابن الجوزى فى قوله تعالى: ﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ ﴾ فى سبب نزولها قولان:
أحدهما: أن اليهود كانوا لا يسألون النبى عن شىء من التوراة إلا أجابهم، فسألوه عن السحر وخاصموه به، فنزلت هذه الآية، قاله أبو العالية.
والثانى: أنه لما ذُكر سليمان فى القرآن قالت يهود المدينة: ألا تعجبون لمحمد يزعم أن ابن داود كان نبيًا حرًا ؟! والله ما كان إلا ساحرًا. فنزلت هذه الآية، قاله ابن إسحاق.
[زاد المسير: ١/١٠٤، ١٠٥] وانظر [الجزء ٢٢، ص ١٧٣٩] من هذا الكتاب

(٢) وقال فى قوله تعالى: ﴿ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ يعنى اليهود، والكتاب: التوراة. وفى قوله تعالى: ﴿ كِتَابَ اللَّهِ ﴾ قولان:
أحدهما: أنه القرآن.
والثانى: أنه التوراة؛ لأن الكافرين بمحمد ﷺ قد نبذوا التوراة.
[زاد المسير: ١/١٠٤]، وانظر تفسير القرطبى [٢/٤١]

وهكذا يتضح لنا أن بعضاً من بنى إسرائيل قد ترك كتاب الله المصدق لما معهم من التوراة ، ولم يقفوا عند الترك لآيات الحق ، بل اتبعوا ما جاء به الباطل. إذن. . فالكتاب الذى كان يجب أن يتبعوه تركوه وخالفوه، والبهتان الذى كان يجب أن يجتنبوه اتبعوه، وهذا سلوك مخالف لقضية الحق بين الخير والشر.

وقلنا: إن الآية الكريمة تعرضت لأمر قد شاع عند بعض من بنى إسرائيل، لقد قالوا: إن سليمان إنما صار ملكاً وثرياً بفضل ما تعلمه من سحر. وهذا قول باطل، برأ الله سليمان منه فى قوله: ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ ﴾ إن سليمان لم يكفر، إنما تلقى نعمة الله بالعرفان والشكر، وسخر الله له ما شاء من خلقه تكريماً له، وإرادة الحق فى ذلك لها حكمة بالغة، ومن حكمته تعالى أن يعطيه ملكاً لاينبغى لأحد من العالمين، لقد شاءت إرادة الحق ذلك؛ ليكون سليمان رسولاً له مكانة فى قومه ، مكانة تليق بالزمن الذى جاء فيه سليمان.

إن المتأمل للموكب الرسالى يجد أن كل رسول قد صادف فى قومه المكابرين والمعاندين والكافرين والمتربصين به الدوائر لماذا ؟

لأن الرسول لا يجىء إلا وقد استشرى الشر، ومادام الشر قد استشرى، فلابد أن للشر قوماً ينتفعون به، وحين يأتى رسول لينهى سيادة الشر فى الأرض، فهو يواجه أول ما يواجه المنتفعين بالشر، ولا يتبع النبى غالبا إلا الضعفاء؛ ليخلصهم الرسول برسالته من شر الأقوياء، وقد أراد الله برسالة سليمان أن يبين لنا طبيعة الإنسان. . حين يؤيد رسولاً بملك لايمكن لأحد أن يخالفه ، إنه رسول وملك من نوع خاص.

فالملوك يملكون ما يدخل تحت قدرتهم بالإمكانات المادية، لكن الله أعطى سليمان ملكاً لا ينبغى لأحد من العالمين؛ لأنه سخر له القوى التى

لا يمكن أن تسخر لبشر عادى، فكأن الله يريد أن ينبه الإنسان أنه لو أراد حكماً من السماء «سنوداً بحكم ملكى، فلن يستطيع إنسان أن يرفع رأسه؛ لأن الخالق جل وعلا قادر على أن يسخر لمثل ذلك الحكم ما يجعله يقهر الجميع على أن يذعنوا له لكن الحق لا يريد ذلك، إنما يريد سبحانه طواعية الإيمان واختيارية اليقين.

لذلك يترك الرسل ضعفاء؛ ليعلم من يقبل عليهم بنداء الإيمان لا بمجرد القهر.

ولذلك خُير رسول الله ﷺ أن يكون نبياً ملكاً ، فرفض رسول الله. لماذا؟ لأنه إذا كان ملكاً نبياً ستكون له من أسباب القوة مالا يستطيع أحد أن يخالف دعوته ، قهرًا وعنوة ؛ لذلك اختار رسول الله الرسالة والنبوة دون الملك. . اختار أن يدعو الناس إلى الله، فيأتونه رغباً فى منهج الله لا رهباً من ملكه هو.

ولقد اتهم بعض من بنى إسرائيل سليمان بأنه كفر، ويقرر الحق : ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ﴾ ويدلنا الحق أن الكفر كان من الشياطين الذين يعلمون الناس السحر، ونكتشف من ذلك أن نبى الله سليمان لم يكن يعلم السحر، وأن ملكه واستتباب الأمر له لم تكن قضية سحر، إنما هى مشيئة الحق سبحانه.

* نبى الله إشعيا بن أمصيا *

قال ابن كثير: قال محمد بن إسحاق [1] : وكان قبل زكريا ويحيى وهو ممن بشر بعيسى ومحمد عليهما السلام . وكان فى زمانه ملك اسمه حزقيا على بنى إسرائيل ببلاد بيت المقدس ، وكان سامعًا مطيعًا لإشعيا فيما يأمره به وينهاه عنه من المصالح ، وكانت الأحداث قد عظمت فى بنى إسرائيل، فمرض الملك وخرجت فى رجله قرحة وقصد بيت المقدس ملك بابل فى ذلك الزمان وهو سنحاريب. قال ابن إسحاق: فى ستمائة ألف راية .

وفزع الناس فزعًا شديدًا . وقال الملك للنبى إشعيا : ماذا أوحى الله إليك فى أمر سنحاريب وجنوده ؟ فقال : لم يوح إلى فيهم شىء بعد ، ثم نزل عليه الوحى بالأمر للملك حزقيا بأن يوصى ويستخلف على ملكه من يشاء ، فإنه قد اقترب أجله. فلما أخبره بذلك أقبل الملك على القبلة فصلى وسبح ودعا وبكى فقال وهو يبكى ويتضرع إلى الله عز وجل بقلب مخلص وتوكل وصبر : اللهم رب الأرباب وإله الآلهة يارحمن يا رحيم ، يا من لا تأخذه سنة ولا نوم، اذكرنى بعملى وفعلى وحسن قضائى على بنى إسرائيل، وذلك كله كان منك فأنت أعلم به من نفسى، وسرى وإعلانى لك .

قال : فاستجاب الله له ورحمه، وأوحى الله إلى إشعيا أن يبشره بأنه قد رحم بكاءه وقد أخر فى أجله خمس عشرة سنة وأنجاه من عدوه سنحاريب، فلما قال له ذهب منه الوجع وانقطع عنه الشر والحزن وخر ساجدًا وقال فى سجوده : اللهم أنت تعطى الملك من تشاء ، وتنزعه ممن تشاء ، وتعز من تشاء ، وتذل من تشاء، عالم الغيب والشهادة، فأنت الأول والآخر والظاهر والباطن ، وأنت ترحم وتستجيب دعوة المضطرين . =

(١) إسناده ضعيف: أخرجه الطبرى [١٥/ ١٨-١٩] فى تفسيره ، وفى تاريخه [١/ ٥٣٢- ٥٣٤] بسنده عن ابن إسحاق .
فى سنده ابن حميد شيخ الطبرى من الضعفاء ، وذكره ابن إسحاق تعليقًا .

= فلما رفع رأسه أوحى الله إلى إشعيا أن يأمره أن يأخذ ماء التين فيجعله على قرحته فيشفى ويصبح آدم برىء . ففعل ذلك فشفى .

وأرسل الله على جيش سنحاريب الموت فأصبحوا وقد هلكوا كلهم سوى سنحاريب وخمسة من أصحابه منهم بختنصر أرسل ملك بنى إسرائيل فجاء بهم فجعلهم فى الأغلال وطاف بهم البلاد على وجه التنكيل بهم والإهانة لهم سبعين يومًا ويطعم كل واحد منهم كل يوم رغيفين من شعير ،ثم أودعهم السجن، وأوحى الله تعالى إلى إشعيا أن يأمر الملك بإرسالهم إلى بلادهم لينذروا قومهم ما قد حل بهم ، فلما رجعوا جمع سنحاريب قومه وأخبرهم بما قد كان من أمرهم فقال له السحرة والكهنة: إنا أخبرناك عن شأن ربهم وأنبيائهم فلم تطعنا ، وهى أمة لا يستطيعها أحد من ربهم فكان أمر سنحاريب مما خوفهم الله به. ثم مات سنحاريب بعد سبع سنين.

قال ابن إسحاق: ثم لما مات حزقيا ملك بنى إسرائيل مرج(١) أمرهم واختلطت أحداثهم وكثر شرهم، فأوحى الله تعالى إلى إشعيا فقام فيهم فوعظهم وذكرهم وأخبرهم عن الله بما هو أهله وأنذرهم بأسه وعقابه إن خالفوه وكذبوه فلما فرغ من مقالته عدوا عليه وطلبوه ليقتلوه ، فهرب منهم فمر بشجرة فانفلقت له فدخل فيها وأدركه الشيطان فأخذ بهدبة ثوبه فأبرزها فلما رأوا ذلك جاءوا بالمنشار فوضعوه على الشجر فنشروها ونشروه معها ، فإنا لله وإنا إليه راجعون .

[قصص الأنبياء : ٥٧١-٥٧٣]

(١) مَرَجَ : أى اضطرب أمرهم واختلطت أفعالهم .

قال ابن كثير: وقد قيل: إنه الخضر. رواه الضحاك عن ابن عباس. وهو غريب وليس بصحيح (١) .

وقال ابن عساكر : جاء فى بعض الآثار أنه وقف على دم يحيى بن زكريا وهو يفور بدمشق فقال : أيها الدم . . فتنت الناس فاسكن . فسكن ورسب حتى غاب (٢).

وقال أبو بكر بن أبى الدنيا : عن عبد الله بن عبد الرحمن قال : قال أرميا : أىْ رب ، أىّ عبادك أحب إليك ؟ قال : أكثرهم لى ذكرًا ، الذين يشتغلون بذكرى عن ذكر الخلائق ، الذين لا تعرض لهم وساوس الفناء ولا يحدثون أنفسهم بالبقاء ، الذين إذا عرض لهم عيش الدنيا قَلْوهُ وإذا زوى عنهم سروا بذلك ، أولئك أنحلهم محبتى أعطيهم فوق غاياتهم (٣).

[قصص الأنبياء : ٥٧٣]

(١) إسناده موضوع : انظر تهذيب ابن عساكر [٢/ ٣٨٤] .

(٢) انظر : تهذيب تاريخ ابن عساكر [٢/ ٣٨٤] .

(٣) أخرجه ابن عساكر فى تاريخه انظر التهذيب [٢/ ٣٨٦] وفيه على بن أبى مريم لم أقف عليه .

* دانيال عليه السلام *

قال ابن كثير: روى بسنده عن عبد الله بن أبى الهزيل قال : ابن أبى الدنيا : أحضر بختنصر أسدين فألقاهما فى جب ، وجاء بدانيال فألقاه عليهما فلم يهيجاه ، فمكث ما شاء الله، ثم اشتهى ما يشتهى الآدميون من الطعام والشراب؛ فأوحى الله إلى أرميا وهو بالشام أن أعدد طعامًا وشرابًا لدانيال. فقال : يارب ، أنا بالأرض المقدسة ودانيال بأرض بابل من أرض العراق . فأوحى الله إليه : أن أعدد ما أمرناك به فإنا سنرسل من يحملك ويحمل ما أعددت. ففعل وأرسل إليه من حمله وحمل ما أعده حتى وقف على رأس الجب،فقال دانيال : من هذا ؟ قال : أنا أرميا . فقال:ما جاء بك ؟ فقال: أرسلنى إليك ربك . قال : وقد ذكرنى ربى ؟ قال:نعم . فقال دانيال: الحمد لله الذى لا ينسى من ذكره . والحمد لله الذى يجيب من رجاه ، والحمد لله الذى مَن وثق به لم يكله إلى غيره، والحمد لله الذى يجزى بالإحسان إحسانًا ، والحمد لله الذى يجزى بالصبر نجاة ، والحمد لله الذى هو يكشف ضُرَّنا بعد كرْبنا، والحمد لله الذى يقينا حين يسوء ظننا بأعمالنا ، والحمد لله الذى هو رجاؤنا حين تنقطع الحيل عنا (١).

وقال أبو العالية قال : لما افتتحنا تستر وجدنا فى مال بيت الهرمزان سريرًا عليه رجل ميت عند رأسه مصحف ، فأخذنا المصحف فحملناه إلى عمر بن الخطاب فدعا له كعبًا فنسخه بالعربية ، فأنا أول رجل من العرب قرأه، قرأته مثل ما أقرأ القرآن هذا . فقلت لأبى العالية ، ما كان فيه ؟ قال : سيركم وأموركم ولحون كلامكم وما هو كائن بعد . قلت: فما صنعتم بالرجل ؟ قال : حفرنا بالنهار ثلاثة عشر قبرًا متفرقة، فلما كان بالليل دفناه؛ وسوينا القبور كلها لنعميه على الناس فلا ينبشونه قلت: فمايرجون منه ؟ قال : كانت السماء إذا حبست عنهم برزوا بسريره فيمطرون. قلت: من كنتم تظنون الرجل ؟ قال : رجل يقال له : دانيال .

قلت: منذ كم وجدتموه قد مات ؟ قال:منذ ثلاثمائة سنة. قلت: ما تغير منه شىء ؟ قال : إلا شعرات من قفاه ، إن لحوم الأنبياء لا تبليها الأرض ولاتأكلها السباع(٢).=

(١) إسناده حسن : أخرجه ابن أبى الدنيا فى القناعة [١٤٧] وفى الشكر [ص/٥٣].

(٢) إسناده ضعيف : فيه عنعنة ابن إسحاق ، وهو من المدلسين ، وباقى رجاله ثقات .

= وهذا إسناد صحيح إلى أبى العالية ، ولكن إن كان تاريخ وفاته محفوظًا من ثلاثمائة سنة فليس بنبى بل هو رجل صالح ؛ لأن عيسى بن مريم ليس بينه وبين رسول الله ﷺ نبى بنص الحديث الذى فى البخارى(١)، والفترة التى كانت بينهما أربعمائة سنة، وقيل: ستمائة. وقيل: ستمائة وعشرون سنة ، وقد يكون تاريخ وفاته من ثمانمائة سنة وهو قريب من وقت دانيال ، وإن كان كونه دانيال هو المطابق لما فى نفس الأمر ، فإنه قد يكون رجلاً آخر إما من الأنبياء أو الصالحين ، ولكن قربت الظنون أنه دانيال؛ لأن دانيال كان قد أخذه ملك الفرس فأقام عنده مسجونًا كما تقدم .

وقد روى بإسناد صحيح إلى أبى العالية أن طول أنفه شبر ، وعن أنس بن مالك بإسناد جيد أن طول أنفه ذراع ، فيحتمل على أن يكون رجلا من الأنبياء الأقدمين قبل هذه المدد . . والله تعالى أعلم .

وروى أبو بكر بن أبى الدنيا فى كتاب « أحكام القبور » : عن أبى الأشعث الأحمرى، قال : قال رسول الله ﷺ : « إن دانيال دعا ربه عز وجل أن تدفنه أمة محمد ». فلما افتتح أبو موسى الأشعرى تستر وجده فى تابوت تضرب عروقه ووريده (٢)، وقد كان رسول الله ﷺ قال: « من دل على دانيال فبشروه بالجنة »(٣) .

فكان الذى دل عليه رجل يقال له: حرقوص فكتب أبو موسى إلى عمر يخبره فكتب إليه عمر : أن ادفنه وابعث إلى حرقوص ، فإن النبى ﷺ بشره بالجنة .

وهذا مرسل من هذا الوجه وفى كونه محفوظًا نظر . . والله أعلم .

ثم قال ابن أبى الدنيا : حدثنا قاسم بن عبد الله عن عنبسة بن سعيد – وكان عالماً قال وجد أبو موسى مع دانيال مصحفًا وجرة فيها ودك (٤) ودراهم وخاتمه ، فكتب=

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « أنا أولى الناس بابن مريم ، والأنبياء أولاد عِلات ليس بينى وبينه نبىّ» . أخرجه البخارى [٣٤٤٢] واللفظ له ، ومسلم [٢٣٦٥].

(٢) تضرب عروقه : أى تظهر عروقه ووريده ، وذلك كناية عن بقاء بدنه سليما معافا مع امتداد الزمن .

(٣) إسناده مرسل.

(٤) ودك : أى دسم اللحم وهو الدهن والشحم . وقيل : السمن . وكلاهما ممكن مراد هنا.

= أبو موسى بذلك إلى عمر فكتب إليه عمر : أما المصحف فابعث به إلينا ، وأما الودك فابعث إلينا منه ومر من قبلك من المسلمين يستشفون به واقسم الدراهم بينهم ، وأما الخاتم فقد نفلناكه[1] .

وروى ابن أبى الدنيا من غير وجه : أن أبا موسى لما وجده،وذكروا له أن دانيال التزمه وعانقه وقبله ، وكتب إلى عمر يذكر له أمره، وأنه وجد عنده مالاً موضوعًا قريبًا من عشرة آلاف درهم ، وكان من جاء اقترض منها فإن ردها وإلا مرض وإن عنده ربعه، فأمر عمر بأن يغسل بماء وسدر ويكفن ويدفن ويخفى قبره فلا يعلم به أحد ، وأمر بالمال أن يرد إلى بيت المال وبالربعة فتحمل إليه ونفله خاتمه .

وروى عن أبى موسى أنه أمر أربعة من الأسراء فسكروا نهرًا وحفروا فى وسطه قبرًا فدفنه فيه، ثم قدم الأربعة الأسراء فضرب أعناقهم فلم يعلم موضع قبره غير أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه [2] .

وروى ابن أبى الدنيا : عن عبد الرحمن بن أبى الزناد عن أبيه قال : رأيت فى يد ابن أبى بردة ابن أبى موسى الأشعرى خاتمًا نقْش فصّه أسدان بينهما رجل يلحسان ذلك الرجل ، قال أبو بردة : وهذا خاتم ذلك الرجل الميت الذى زعم أهل هذه البلدة أنه دانيال، أخذه أبو موسى يوم دفنه ، قال أبو بردة : فسأل أبو موسى علماء تلك القرية عن نقش ذلك الخاتم، فقالوا : إن الملك الذى كان دانيال فى سلطانه جاءه المنجمون وأصحاب العلم فقالوا له : إنه يولد كذا وكذا غلام يعور ملكك ويفسده . فقال الملك : والله لا يبقى تلك الليلة غلام إلا قتلته ، إلا أنهم أخذوا دانيال فألقوه فى أجمة الأسد فبات الأسد ولبؤته يلحسانه ولم يضراه، فجاءت أمه فوجدتهما يلحسانه فنجاه الله بذلك حتى بلغ ما بلغ، قال أبو بردة: قال أبو موسى : قال علماء تلك القرية : فنقش دانيال صورته وصورة الأسدين يلحسانه فى فص خاتم ؛ لئلا ينسى نعمة الله عليه فى ذلك . إسناد حسن [3] .

[قصص الأنبياء : ٥٨٣ - ٥٨٦]

(١) إسناده معضل .
(٢) كلها مراسيل فلا حجة فيها .
(٣) إسناده لا بأس به .

* نبى الله العزير عليه السلام[1] *



قال الله تعالى: ﴿ أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِى هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ

---

(١) هو عزير بن شرخيا، كان من السبايا الذين كانوا ببابل فرجع إلى الشام، وكانت التوراة قد استبيت من بنى إسرائيل، فخرج هائماً ببطون الأودية والفلوات يبكى، فبينما هو كذلك فى حزنه على التوراة وبكائه عليها إذ أقبل عليه رجل وهو جالس، فقال له: يا عزير، ما يبكيك؟ قال: أبكى على كتاب الله وعهده، كان بين أظهرنا فبلغت بنا خطايانا وغضب ربنا علينا أن سلط علينا عدونا فقتل رجالنا وأخرب ديارنا وأحرق كتاب الله الذى بين أظهرنا، الذى لا يصلح دنيانا وآخرتنا غيره. أو كما قال، فعلام أبكى إذا لم أبك على هذا! قال: أفتحب أن يرد ذلك عليك؟ قال: وهل إلى ذلك سبيل؟ قال: نعم؛ ارجع وصم وتطهر وطهر ثيابك، ثم موعدك هذا المكان غداً، فرجع عزير، وفعل ما أمر به، ثم لما كان من الغد عمد إلى المكان الذى وعده فجلس فيه فأتاه ذلك الرجل بإناء فيه ماء - وكان ملكا بعثه الله إليه - فسقاه من ذلك الإناء، فمثلت التوراة فى صدره فرجع إلى بنى إسرائيل فوضع لهم التوراة يعرفونها بحلالها وحرامها وسننها وفرائضها وحدودها، فأحبوه حباً لم يحبوه شيئاً قط، وأقام عزير مؤدياً لحق الله ثم قبضه الله على ذلك، ثم حدثت فيهم الأحداث، قالوا لعزير هو ابن الله . [تاريخ الرسل والملوك ١/٥٥٦]

وقال الحافظ أبو القاسم ابن عساكر: هو عزيز بن جروة ، ويقال: ابن سوريق بن عديا ابن أيوب بن درزنا بن عرى بن تقى بن أسبوع بن فنحاص بن العاذر بن هارون ابن عمران .

ويقال: عزيز بن سروخا جاء فى بعض الآثار أن قبره بدمشق .

وقال وهب بن منبه : كان فيما بين سليمان وعيسى عليهما السلام .

وقد روى ابن عساكر عن أنس بن مالك وعطاء بن السائب أن عزيراً كان فى زمن =

يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١) [البقرة: ٢٥٩]

عندما ننظر إلى الآية .. نجدها تبدأ بـ ﴿أَوْ﴾ ،وما بعد «أو» يكون معطوفا على ما قبلها،فكأن الحق يريد أن يقول لنا: ألم ترَ إلى مثل الذى مرَّ على قرية، ونحن أيضا عندما نسمع كلمة ﴿قَرْيَةٍ﴾ فإنها تفيد مجمع جماعة من الناس ، ونفهم أن الذى مر على هذه القرية ليس من سكانها، إنما هو قد مر عليها سياحة فى رحلة ،ونلحظ كذلك أن الحق لم يشأ أن يأتى لنا باسم القرية ، أو باسم الذى مر عليها. قال البعض: إنه أرميا، وقال بعض آخر: إنه الخضر ، وقال بعض ثالث: إنه عزير، ونحن نقول:

= موسى بن عمران ،وأنه استأذن عليه فلم يأذن له ، يعنى لما كان من سؤاله عن القدر وأنه انصرف وهو يقول : مائة موتة أهون من ذل ساعة .

[قصص الأنبياء لابن كثير : ٥٨٨، ٥٩٢]

(١) الذى مر: هو عزير ،وقيل: أرميا بن حلقيا، وقال مجاهد : هو رجل من بنى إسرائيل. [تفسير ابن كثير : ١/ ٢٩٧]

وذكر القرطبى فى الجامع لأحكام القرآن [٣/ ٢٨٩] أنه إشعيا .والأول هو الأشهر .

وقال البغوى : اختلفوا فى تلك القرية ، فقال وهب وعكرمة وقتادة : هى بيت المقدس ، وقال الضحاك : هى الأرض المقدسة ، وقال الكلبى : هى دير سابر أباد، وقال السدى : سلما باذ ، وقيل : دير هرقل ، وقيل : هى الأرض التى أهلك الله فيها الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف، وقيل:هى قرية العنب وهى على فرسخين من بيت المقدس . [معالم التنزيل : ١/ ٣١٧]

وقوله: ﴿طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ﴾ :قيل كان معه تين وعنب وعصير. وقيل: لبن، فوجده كما تقدّم لم يتغير منه شىء .

و ﴿الْعِظَامِ﴾: هى عظام حماره . [معالم التنزيل ١/ ٢٣٤]

وقيل : عظام نفسه. وقيل: عظام موتى القرية . [جامع البيان للطبرى ٣/ ٤١]

إن التشخيص لا يعنينا؛ لأن الحق حين يبهم التشخيص، فذلك لأمر يريده هو سبحانه ، والآية هنا فى مجال عرض قدرة الخالق.

ونلحظ أن الحق قد وصف القرية بأنها: ﴿خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ ، وعندما يقول إنسان: «إنى خويان» فمعنى ذلك أنه جائع؛ لأن بطنه خال من الطعام، والقرية الخاوية على عروشها، الخالية من السكان، وقد تكون أبنيتها موجودة ومهدمة، إنها أبنية بلا عروش والعروش السقوف، أى أبنية خربة، والعرش حين يكون على البيت فالمقصود به الفسطاط المصنوع مما تصنع منه السقوف، فكأن العرش قد سقط أولا على الأرض وتراكمت الجدران مهدمة من فوقه .ويقول الذى مر على هذه القرية: ﴿أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾، والذى مر على القرية عندما يتكلم عن إحياء القرية بعد الموت ، فكأنه يسأل عن حياة الناس الذين هم أهل القرية. فالقرية لا حياة لها بدون أهل، إن القرية تكون خربة بدون أناس يسكنونها، فالقرآن الكريم حين يذكر القرية فى بعض الأحيان فهو يريد الحديث عن أهلها، كما قال الحق: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ إن أبناء يعقوب عليه السلام لما عادوا من مصر، وتركوا أخاهم الأصغر مع يوسف عليه السلام، قالوا لأبيهم: أرسل من يأتيك بشهادة أهل مصر، واسأل بنفسك زملاءنا الذين كانوا معنا فى القافلة عن أننا قد تركنا أخانا بمصر. لكن السؤال الذى جاء بالقرآن هو سؤال للقرية.

إذن.. فسؤال الذى مر على القرية الخاوية على عروشها هو سؤال أهلها عن أنها قرية خربة.. وهكذا نفهم أن عمارة المكان من لوازم الكائن الحى وهو الإنسان، والقرية الخاوية على عروشها هى : قرية بلا سكان.

وعندما يقول الذى مر على هذه القرية: ﴿أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ

مَوْتِهَا ﴾[1] [البقرة : ٢٥٩] ؛ساعة تسمع﴿ أَنَّى ﴾فاعلم أنها تأتى على معنيين :

المعنى الأول : كيف ، وتعنى الاستبعاد .

والمعنى الثانى: أين. والمناسب لها هنا هو: كيف يحيى الله هذه القرية بعد موتها؟ إن إحياء هذه القرية يتطلب أن يوجد فيها بشر لإقامة الجدران والعروش؛ وذلك حتى يتحقق العمران، إن الإنسان لازم للزوم هو العمران وهو دليل الحياة ،عندما يسأل واحد مثل هذا السؤال : كيف يحيى الله هذه القرية بعد موتها ؟ التساؤل لا يدل على أنه مؤمن ويشك فى أن قضية الحياة أو الموت من عند الله، إنما هو يريد أن يتعرف الكيفية التى يتم بها الإحياء ، ومرَّ هذا المعنى فى قصة إبراهيم عليه السلام حين قال: ﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ﴾ [البقرة: ٢٦٠] ؛ إن إبراهيم عليه السلام لايشك فى أن الله هو الذى يحيى الموتى، إنما يريد الكيفية ، إنه متأكد من وجود الحدث، ولكنه يتساءل عن كيفية صنع المبدع، ومثال ذلك: والمثال للتقريب، لا للتشبيه؛ لأن لله المثل الأعلى من قبل ومن بعد ؛ نحن نرى الأهرام ولا شك فى أن الأهرام قد تم بناؤها بهذا الشكل ،لكن عندما نراها فإننا نتساءل : كيف تم بناؤها؟ وكيف نقل المصريون القدماء هذه الأحجار الضخمة ؟ وكيف رتبوها هذا الترتيب البديع ؟ وكيف رفعوها إلى هذا المسافات والارتفاعات فى زمان لم يكن به آلات رفع كالآلات المعاصرة ؟

---

(١) عن على رضى الله عنه قال :«خرج عزير نبى الله من مدينته وهو رجل شاب، فمر على قرية وهى خاوية على عروشها قال : أنى يحيى هذه الله بعد موتها ، فأماته الله مائة عام ثم بعثه ، فأول ما خلق عيناه فجعل ينظر إلى عظامه ينظم بعضها إلى بعض، ثم كسيت لحمًا ونفخ فيه الروح وهو رجل شاب ، فقيل له : كم لبثت ؟ قال : يومًا أو بعض يوم . قال : بل لبثت مائة عام ، قال : فأتى بالمدينة وقد ترك جارًا له إسكافًا شابًا ، فجاء وهو شيخ كبير ».
أخرجه الحاكم فى المستدرك [٢/ ٢٨٢] وصححه ، ووافقه الذهبى .

إذن . . فتساؤل العبد المؤمن عن كيفية عمارة الله لهذه القرية، وتساؤل إبراهيم عليه السلام عن كيفية الإحياء بعد الموت هو التعجب . والتعجب فرع الإيمان بالحدث، والسؤال عن الكيفية معناه تيقن للحدث وإيمان بصانع الحدث، فعندما يسأل السائل أنى يحيى الله القرية بعد موتها ؟ فهذا السائل لا يشك فى قدرة الله على الإحياء، ولكنه يريد أن يعرف الكيفية، والكيفية ليست مناط اعتقاد أو مناط إيمان. إن الله لم يتعبَّدنا بأن نعرف الكيفية، وإنما تعبَّدنا بأن نؤمن بأنه قادر على الإيجاد لهذا الحدث؛ لأنه القادر على كل شىء.

وفى المجال البشرى - ولله المثل الأعلى وهو المنزه سبحانه وتعالى - تجد أن إنسانا يقوم بتفصيل وحياكة ثوب غاية فى الجمال، فتتعجب أنت من جمال الثوب . إن حدث تفصيل الثوب قد تم . . وعندما تتعجب أنت من الصنعة تقول للصانع: بالله كيف أتقنت صناعتك هكذا ؟ إنك فى هذه الحالة تعبر عن إعجابك بجمال الصنعة؛ فاشتقت إلى معرفة كيف صارت هذه الصنعةجميلة؛ لتعيش فى تعجب من إبداع الخالق سبحانه فى المخلوقات،إذ هو الذى وهب البشر مواهب متعددة يتقنون بها ما يفعلون .

وأنت ترى لوحة قام برسمها رسام،فتقول له:كيف مزجت هذه الألوان الجميلة ؟ إنك بسؤالك لا تشك فى أنه مزج الألوان بموهبة أعطاها له الحق الوهاب .

إذن . . فقول السائل : كيف يحيى الله هذه القرية بعد موتها ؟ وقول إبراهيم خليل الرحمن : ﴿أَرِنِى كَيْفَ تُحْيِى الْمَوْتَىٰ﴾؟ هذان القولان لا ينفيان الإيمان عن السائل عن عمارة القرية بالحياة ، ولا عن إبراهيم عليه السلام، ولكن كليهما مشتاق إلى معرفة الكيفية ؛ ليعيش فى جو الإبداع

لمن أنشأ هذه الصنعة؛ وعندما يسأل الرجل المؤمن: ﴿أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ فنحن نجد لازما وملزوما ، والمراد الاثنان ،إنه يتكلم عن قرية خاوية على عروشها،ويتساءل عن الإحياء. والإحياء كما نعرف يكون للبشر الذين سيقومون بالحركة التى تعمر وجود تلك القرية، فكأن الناس لهم حياة ولهم موت، والقرية بأنقاضها لها حياة ولها موت .

وسؤال العبد المؤمن: ﴿أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ ؟ جاءت الإجابة لسؤاله إجابة عملية .

لقد كان سؤال العبد المؤمن عن الكيفية . وهناك شيء نقتنع به بالدليل ، وشيء تقتنع به بالمشاهدة ، وقد أراد الله أن يجعل الدليل إيمان مشهد ﴿فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ﴾ ،لم يجعل الله الدليل المشهدى فى القرية ، إنما جعل الله الدليل المشهدى فى ذات السائل ،قال تعالى: ﴿فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ ويخبرنا الحق سبحانه بحوار دار بينه وبين هذا العبد .فإما أن يكون الحق سبحانه قد كلمه كما كلَّم موسى عليه السلام ، أو سمع العبد المؤمن صوتا أو ملكا ، المهم أن سؤالا قد حدث :﴿كَمْ لَبِثْتَ﴾ ؟

فأجابه الرجل : ﴿لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ .إن إجابة الرجل تعنى أنه قد تشكك ، وقد قال المفسرون: إنه وَجَدَ اليوم قد قارب على الانتهاء، أو انتهى: أو أنه عندما رأى الشمس مشرقة أجاب هذه الإجابة، قال ذلك لأنه لا يستطيع أن يتحكم فى تقدير الزمن، فهل هو صادق فى قوله أم كاذب؟ إنه صادق لماذا ؟ لأنه لم ير شيئا قد تغير فيه؛ ليحكم بمقدار التغيير .

لو كان قد نام بشعر أسود ،وقام بعد ذلك بشعر أشيب، لو حدثت أية تغييرات فيه لكان قد لمسها . لكنه لم يجد تغييراً فماذا كان جواب الحق ؟

﴿ بَل لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ ، إننا هنا أمام قولين؛ ويكاد الأمر يصبح لغزا ، قول الرجل الذى يقول : ﴿ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ ، وقول ربنا تعالى: ﴿ لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ ﴾ الحق سبحانه صادق ومنزه، والعبد المؤمن صادق فى حدود ما رأى من أحواله. ونريد دليلا على هذا ودليلا على ذلك، نريد دليلا على صدق العبد فى قوله: ﴿ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ ونريد من الحق سبحانه وتعالى دليلا على أن الرجل قد مات مائة عام وعاد إلى الحياة .

ونحن نقول: إن فى القصة ما يؤيد صدق الرجل فى أنه تصور الزمن الذى مرّ عليه يوما أو بعض يوم ، وما يؤيد صدق قول الحق سبحانه: ﴿ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ ﴾، لماذا ؟ لأن الرجل كان معه حماره، وكان معه طعامه وشرابه من عصير وعنب وتين، وأراد الحق سبحانه أن يدلل على الصدق فى القضيتين معا فقال الحق: ﴿ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ ﴾ ونظر الرجل إلى طعامه وشرابه فوجد الطعام والشراب لم يتغير منهما شىء . ومعنى عدم التغير أنه لم يمكث إلا يوما أو بعض يوم . هذا دليل صدق الرجل .

وبقيت مسألة موت الرجل مائة عام، قال الحق سبحانه للرجل: ﴿ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ﴾، وحين يقول الحق: ﴿ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ﴾ ، فهذا يدل على أن شيئاً عجيبا قد حدث. . إنه آية، والآية تعنى: شيئاً عجيبا ؛ وأراد الله له أن يبين بطلب النظر إلى الحمار، أن يجد الرجل عظام الحمار مبعثرة، ولا يمكن أن يحدث ذلك فى يوم وليلة، لايمكن أن يموت الحمار ويرم جسمه ثم ينتهى لحمه إلى رماد ، ثم تبقى العظام مبعثرة ! إن حدوث ذلك للحمار يتطلب زمانا طويلا، لا يتسع له

إلا مائة عام، فكأن نظرة الرجل إلى الحمار تجعله يصدق أنه لبث مائة عام، ونظرة الرجل إلى الطعام تجعله يصدق أنه لبث يوما أو بعض يوم[1].

فالقضية هى قضية عجيبة ،إذن. كيف طُوِىَ الزمن فى مسألة الطعام ؟ وكيف بُسِطَ الزمن فى مسألة الحمار ؟

إن الله يريد أن يثبت أنه هو القابض شىء والباسط ، إنه الله الذى يقبض الزمن فى حق شىء ويبسط الزمن فى شىء آخر، والشيئان متعاصران معا، وتلك العملية لا يمكن أن تكون إلا لقدرة الله الخالق سبحانه .

إن الحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ﴾ ، من هم الناس الذين سيجعل الله من قضية الذى مر على تلك القرية ﴿آيَةً﴾ لهم؟ كان لابد أن يوجد أُناس فى القصة، لكن القرية كانت خاوية على عروشها،

(١) قال الشوكانى فى قوله تعالى : ﴿وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾ :اختلف المفسرون فى معناه ، فذهب الأكثر إلى أن معناه : انظر إليه كيف تفرقت أجزاؤه ، ونخرت عظامه ثم أحياه الله وعاد كما كان . وقال الضحاك ووهب بن منبه : انظر إلى حمارك قائمًا فى مربطه لم يصبه شىء بعد أن مضت عليه مائة عام ، ويؤيد القول الأول قوله تعالى : ﴿وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا﴾ ويؤيد القول الثانى مناسبته لقوله : ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ ، وإنما ذكر سبحانه عدم تغير طعامه وشرابه ، بعد إخباره أنه لبث مائة عام ؛ مع أن عدم تغير ذلك الطعام والشراب لا يصلح أن يكون دليلاً على تلك المدة الطويلة ؛ بل على ما قاله من لبثه يوما أو بعض يوم ، لزيادة استعظام ذلك الذى أماته الله تلك المدة ؛ فإنه إذا رأى طعامه وشرابه لم يتغير ، مع كونه قد ظن أنه لم يلبث إلا يومًا أو بعض يوم زادت الحيرة ، وقويت عليه الشبهة ، فإذا نظر إلى حماره عظامًا نخرة تقرر لديه أن ذلك صنع من تأتى قدرته بما لا تحيط به العقول ؛ فإن الطعام والشراب سريع التغير ، وقد بقى هذه المدة الطويلة غير متغير، والحمار يعيش المدة الطويلة ،وقد صار كذلك ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤] . [فتح القدير : ١/ ٣٥٥]

فلا إنسان ولا بنيان. فهل هم الناس الذين كانوا فى القرية أم سواهم ؟ قال البعض من المفسرين هذا ، وقال البعض من المفسرين ذاك. وأصدق شىء يتصل بصدق الله فى قوله: ﴿وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ﴾[1] كدليل على قبض الله الزمن فى حق شىء وبسطه فى حق شىء آخر، هو ما يلى : إن عزيراً هو الذى مر على تلك القرية كما قال جمهرة العلماء، وعزير كان من الأربعة الذين يحفظون التوراة. إن أربعة فقط هم الذين حفظوا التوراة هم:

(١) قال القرطبى فى قوله تعالى : ﴿وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ﴾ قال الفراء : إنما أُدخل الواو فى قوله ﴿وَلِنَجْعَلَكَ﴾ دلالة على أنها شرط لفعل بعده ، معناه: ﴿وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ﴾ ،ودلالة على البعث بعد الموت جعلنا ذلك . وإن شئت جعلت الواو مقحمة زائدة . وقال الأعمش: موضع كونه آية هو أنه جاء شابا على حاله يوم مات، فوجد الأبناء والحفدة شيوخا . عكرمة : وكان يوم مات ابن أربعين سنة . وروى عن على رضوان الله عليه أن عزيرا خرج من أهله وخلف امرأته حاملاً ، وله خمسون سنة فأماته الله مائة عام ، ثم بعثه فرجع إلى أهله وهو ابن خمسين سنة وله ولد من مائة سنة، فكان ابنه أكبر منه بخمسين سنة . وروى عن ابن عباس قال : لما أحيا الله عزيرًا ركب حماره فأتى محلته فأنكر الناس وأنكروه ، فوجد فى منزله عجوزًا عمياء كانت أمة لهم ، خرج عنهم عزير وهى بنت عشرين سنة ، فقال لها : أهذا منزل عزير ؟ فقالت: نعم ! ثم بكت وقالت : فارقنا عزير منذ كذا وكذا سنة ! قال : فأنا عزير؛ قالت: إن عزيرا فقدناه منذ مائة سنة . قال : فالله أماتنى مائة سنة ثم بعثنى. قالت: فعزير كان مستجاب الدعوة للمريض وصاحب البلاء فيفيق، فادع الله يرد على بصرى ؛ فدعا الله ومسح على عينيها بيده فصحت مكانها، كأنها أنشطت من عقال. قالت : أشهد أنك عزير ! ثم انطلقت إلى ملأ بنى إسرائيل وفيهم ابن لعزير شيخ ابن مائة وثمانية وعشرين سنة ، وبنو بنيه شيوخ ، فقالت: يا قوم، هذا والله عزير ! فأقبل إليه ابنه مع الناس فقال ابنه : كانت لأبى شامة سوداء مثل الهلال بين كتفيه ؛ فنظرها فإذا هو عزير . وقيل : جاء وقد هلك كل من يعرف ، فكان آية لمن كان حيا من قومه إذ كانوا موقنين بحاله سماعا . قال ابن عطية : وفى إماتته هذه المدة ثم إحيائه بعدها أعظم آية، وأمره كله آية غابر الدهر، ولا يحتاج إلى تخصيص بعض ذلك دون بعض . [تفسير القرطبى : ٣/ ٢٩٤، ٢٩٥]

موسى ،وعيسى ابن مريم ،وعزير ، ويوشع ، عليهم السلام.

أراه الله العظام كيف ينشزها بقدرته جل وعلا، ثم يكسوها لحما ،فإن عزيرا قد رأى رأى العين عملية الإحياء. لقد قال عزير من قبل: كيف يحيى الله هذه القرية بعد موتها ؟ والحق سبحانه أراه التجربة عمليا؛ قال له: انظر إلى عظام حمارك ننشزها : أى نرفعها، أى نرفع كل عظمة من الأرض، ونركّب كل عظمة فى مكانها وبعد ذلك تأتى الحياة لتدب فى الحمار، لقد وجد عزير الحياة فى نفسه ،ورآها فى الحمار .

وبعد ذلك تذكر عزير قرية قد خرج منها وأراد أن يعود إليها ،ولما عاد إلى تلك القرية وجد أمرها قد تغير تغيرا يتناسب مع مرور مائة عام. وكان فى هذه القرية مولاة لأسرة العزير- أى أمة أو جارية- وكانت هذه الأمة قد عميت،فلما دخل العزير عليها وقال : أنا العزير، قالت الأمة: ذهب العزير من مائة عام ولا ندرى أين ذهب ولم يعد ، فكرر عليها القول: أنا العزير، قالت الأمة: إن للعزير علامة، وهذه العلامة أنه كان مجاب الدعوة، فإن كنت حقا العزير فادع الله أن يرد على بصرى، وأن يخرجنى من قعودى هذا . إن الأمة لا تنسى نفسها والعزير أراد أن يؤكد لها أنه هو .فدعا الله لها برد البصر والقيام من القعود فبرئت الأمة، ولما برئت الأمة نظرت إليه فوجدته هو العزير، فذهبت إلى قومها وأعلنت أن العزير قد عاد .

بعد ذلك ذهب العزير ليرى ابنه ،فوجده رجلا طاعنا فى السن قد بلغ من العمر مائة عام ،وكان العزير لا يزال شابا،ولنقل:إنه كان فى الخمسين من عمره ؛ولذلك نرى الشاعر يقول ملغزا :

وما ابن رأى أباه وهو فى ضعف عمره ؟

لأن العزير قد مات فى عمر الخمسين، وقد بعثه الله على نفس عمره أما ابنه فقد بلغ من العمر مائة عام لأنه لم يمت ولم يبعث، بل عاش حياة متواصلة، وهكذا أصبح الولد فى عمر المائة، وأصبح الوالد فى عمر الخمسين، فقال ابن العزير: إننى كنت أعرف لأبى علامة إنها شامة بين كتفيه، فلما كشف له العزير كتفيه وجد الابن العَلامة التى يعرفها فى أبيه .

وقال بعض المفسرين شيئا آخر : إن بختنصر حينما جاء إلى مدينة بيت المقدس وخربها حرق التوراة ،إلا أن رجلا قال: إن أباه قد دفن فى مكان من كرم نسخة من التوراة ، فجاءوا بالنسخة فقال العزير : وأنا أحفظها وقرأ عزير التوراة كما وجدت فى النسخة، فصدق الناس أنه العزير(١) . تلك هى الآية، وتعجب الناس أن الابن فى سن مائة والأب فى سن الخمسين، وهذه هى الآية للناس .

﴿ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ؛هذا القول يأتى على لسان العزير، فهل معنى ذلك أنه لم يكن يعلم من قبل أن الله على كل شىء قدير ؟ لا .لقد كان يعلم علم الاستدلال، ولأنه قد أصبح يعلم علم الشهادة ، علم الضرورة وليس مع العين أين .

إذن.. قول العزير:﴿ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾، ما الذى تبين له ؟ لقد تبين له قدرة الله على أن يبسط الزمن ويقبض الزمن، لقد كان

---

(١) قال ابن كثير: المشهور أن عزيراً نبى من أنبياء بنى إسرائيل ، وأنه كان فيما بين داود وسليمان وبين زكريا ويحيى ، وأنه لما لم يبق فى بنى إسرائيل من يحفظ التوراة ، ألهمه الله حفظها فسردها على بنى إسرائيل ، كما قال وهب من منبه : أمر الله ملكًا فنزل بمغرفة من نور ، فقذفها فى عزيز ، فنسخ التوراة حرفًا بحرف حتى فرغ منها.
[قصص الأنبياء : ٥٩١]

يعلم من قبل علم اليقين والآن أصبح يعلم حق اليقين.

وهذه المسألة تفسر ما يقوله العلم الحديث عن تعليق الحياة، وهو يشبه ما تفعله بعض الثعابين عندما تقوم بالبيات الشتوى ،أى تنكمش فى الشتاء فى ذاتها ولا تبدى حركتها ، وتظل هكذا إلى أن يذهب الشتاء ، ومدة البيات الشتوى لا تحسب من عمر الثعابين؛ لأنه لا تحدث لها عملية الأيض؛ ولذلك يقال: إن ذلك هو تعليق الحياة ، ومعنى تعليق الحياة هو أننا لو استطعنا أن نأتى بإنسان لتعليق حياته، وندخله فى ثلاجة؛ ليمكث فيها عشرين أو ثلاثين سنة، وبعد ذلك نخرجه من هذه الثلاجة، فيصبح عمره كما دخل هذه الثلاجة ، هذا ما يسمى الحياة المعلقة .

وهذه العملية التى قد تفسر بها مسألة أهل الكهف .فأهل الكهف أيضا مرت عليهم نفس العملية؛ ﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [الكهف : ١٩] ،إنهم لم يروا شيئا قد تغير فيهم وبعد ذلك قال الحق سبحانه: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ [الكهف: ٢٥] ،إن الله قد حدد الزمن الذى لبثوه، بينما هم قالوا: إن الزمن هو يوم أو بعض يوم، ومعنى ذلك أنهم عندما ناموا هذا اللون من النوم واستيقظوا ،وجدوا أنفسهم على حالتهم التى كانوا عليها لهم قبل هذا اللون من النوم . إذن فقد علق الله حياتهم.

* دعوى باطلة *



يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾(١) [التوبة: ٣٠] ؛نقول: إن هذا الادعاء فيه مساس بجلال الله، فالإنسان يتخذ ولدا لعدة أسباب،إما لأنه يريد أن يبقى ذكره فى الدنيا بعد أن يرحل،والله سبحانه وتعالى هو الحى الذى لا يموت،وإما لكى يعينه ابنه عندما يكبر ويضعف،والله سبحانه وتعالى هو القوى، وإما ليرث ماله وما يملك، والله تباركَ وتعالى يرث الأرض ومن عليها، وإما ليكون عزوة له والله جل جلاله العزيز دائماً، وهكذا تنتفى كل الأسباب التى يمكن أن تؤدى إلى هذا الادعاء، ولا يعقل أن يرسل الله سبحانه وتعالى رسولا ليبين للناس منهج الحق فيقول : إنه ابن الله .

ثم يقول سبحانه:﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ

---

(١) قال ابن كثير : روى ابن عساكر عن ابن عباس أنه سأل عبد الله بن سلام عن قول الله تعالى : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ ﴾ : لِمَ قالوا ذلك ؟ فذكر له ابن سلام ما كان من كتْبه لبنى إسرائيل التوراة من حفظه ، وقول بنى إسرائيل : لم يستطع موسى أن يأتينا بالتوراة إلا فى كتاب وإن عزيراً قد جاءنا بها من غير كتاب.فرماه طوائف منهم وقالوا:عزير ابن الله .

ولهذا يقول كثير من العلماء : إن تواتر التوراة انقطع فى زمن العزير ، وهذا متجه جدًا إذا كان العزير غير نبى،كما قاله عطاء بن أبى رباح والحسن البصرى.

[قصص الأنبياء : ٥٩٢]

ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لا إِلَهَ إِلا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١]؛ الحق سبحانه وتعالى استهل هذه الآية بقوله: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا﴾ وهذا مناف لما أمروا به؛ لأنهم أمروا بأن يعبدوا الله الواحد الأحد؛ والأرباب هنا منافية للألوهية الواحدة (١)؛ وقوله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا﴾ فالمسيح رسول الله، ولا يمكن أن يأتى بأوامر ونواه من عنده؛ لأنه جاء ليعدل ميزان إيمان الناس بربهم، ومعنى أنهم قالوا: إن المسيح ابن الله، أنهم ألهوه لأن يعبد؛ وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا﴾ أعطت الوحدانية لله من جانب إثبات الألوهية، وقوله تعالى: ﴿لا إِلَهَ إِلا هُوَ﴾ [التوبة: ٣١] ؛ نفت وجود إله إلا الله سبحانه وتعالى، فكأن الله جاء بها من جانبى الإثبات والنفى .

وقوله تعالى: ﴿سُبْحَانَهُ﴾ [التوبة: ٣١] ، تنزيه لله سبحانه وتعالى عن أى شيء يوجد فى البشر، فهناك صفات يوصف بها البشر، ولكن الصفة على إطلاقها لا توجد إلا لله، فالغنىُّ على إطلاقه هو الله، والرحيم على إطلاقه هو الله، وعندما أسرى الله برسوله ﷺ قاس الكفار الإسراء على قدرة البشر، ونسوا أن الإسراء تم بقدرة الله، ولكن الله سبحانه وتعالى قال:

---

(١) عن عدى بن حاتم قال : أتيت النبى ﷺ ، وفى عنقى صليب من ذهب ، فقال : «يا عدىّ اطرحْ عنك هذا الوثن » وسمعته يقرأ فى سورة براءة : ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١] قال : « أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم ، ولكنهم كانوا إذا أحلُّوا لهم شيئًا استحلُّوه ، وإذا حرَّموا عليهم شيئًا حرَّموه » . أخرجه الترمذى [٣٠٩٥] وقال : حديث غريب ، وحسَّنه الألبانى فى صحيح الترمذى [٢٤٧١].

﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ ﴾ [الإسراء: ١] ، ولا تقارن قدرة الله سبحانه وتعالى بقدرة البشر مهما كان، بل إن العمل ينسب لقدرة صاحبه، وكلما زادت القوة زادت القدرة، والله هو القوى. وقوله تعالى: ﴿ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ : تنزيه لله، ولا تجد بشرا يقول لبشر: سبحانك، حتى بين الكافرين والمشركين، فلا تقال إلا لله، حتى الكفار الذين يعاندون الله لا يُطلقون هذه الكلمة على قدرة بشر، والناس تضع أسماء أولادها، فالأسماء مقدور عليها من البشر، ولكنك لا تجد كافرا معاندا محاربا لدين الله يسمى ابنه «الله»، المؤمن لا يجرؤ على هذه التسمية بإيمانه، والكافر لا يجرؤ عليها أبدا بقدرة الله وقهره؛ لذلك فكلمة﴿ سُبْحَانَهُ ﴾ ولفظ الجلالة «الله» لا تقال إلا لله سبحانه وتعالى. لذلك يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾ [مريم: ٦٥] .

إذن. . فالله سبحانه وتعالى بالقدرة والقهر حجز ألسنة البشر جميعا أن يقول أحدهم لأحد: «سبحانك»، أو أن يسمى أحد ابنه «الله» .

الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ لا إِلَهَ إِلا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُون ﴾ ، وموقف المشركين وأهل الكتاب واقع تحت هذه الآية، لماذا؟ لأن منهج الله لا يأتى إلا إذا عم الفساد، والله يريد من الإنسان أن يكون مصلحا، وأقل درجات الصلاح أن تترك الصالح فلا تفسده، فإن استطعت أن ترتقى به يكون ذلك أحسن؛ فإذا كانت هناك بئر يشرب منها الناس، فالصلاح أن تترك هذه البئر ولا تردمها، والأصلح منه أن تحمى جدرانها بالطوب؛ حتى لا تنهار الأتربة وتسدها، وأن تحاول أن تسهل حصول الناس على الماء من البئر، والأصلح منه أن تصنع خزانا عاليا، ومن هذا الخزان تمد المواسير؛ ليصل الماء إلى الناس فى منازلهم بدون تعب. هذا إصلاح .

لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى عن ذى القرنين: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا (٨٤) فَأَتْبَعَ سَبَبًا (٨٥)﴾[الكهف] ؛ أى أن الله سبحانه وتعالى أعطى ذا القرنين الأسباب، وهو زاد باجتهاده أسبابا .

إذن . . فالله جل جلاله يريد من الإنسان أن يصلح فى الأرض، والمجتمع كله يسعد بأى إصلاح فى الأرض؛ ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى يعطى اختيارات فى أشياء ولا يعطيها فى أشياء أخرى، فالإنسان له اختيار فى أن يصلى أو لا يصلى، يتصدق أو لا يتصدق، يعمل أو لا يعمل إلى آخر مانعلمه، ولكن الكون الأعلى محكوم بالقهر؛ فالشمس والقمر والنجوم والهواء والماء كل هذا له نظام دقيق، فلا الشمس ولا القمر ولا النجوم ولا غيرها من الكون الأعلى تخضع لاختيار الإنسان، وإلا لفسد الكون وكل شىء مقهور سليم بالفطرة لا يحدث فسادا أبداً ، والشىء الذى فيه اختيار للإنسان هو الذى يأتى منه الفساد فى الكون؛ لأن الاختيار يتبع الشهوة وهوى النفس، حتى المخلوقات المقهورة كالحيوانات التى سخرها الله للإنسان لايأتى منها فساد ، حتى مخلفاتها تستخدم فى زيادة خصوبة الأرض، ولكن الأشياء التى صنعها الإنسان ملأت أجواء الدنيا بالسموم ولوَّثت الجو؛ لأن الأولى المقهورة مخلوقة بهندسة إلهية، والثانية بهندسة بشرية، عَلِم صانعها أشياء وغابت عنه أشياء.

وقد يعتقد الناس أن معظم هذه الاكتشافات قد حلت مشاكل الكون، ثم بعد ذلك وعندما تمر السنوات يعرفون أنها جاءت بالشقاء للبشرية، ولعل التلوث الذى بدأ يوثر على حياة الكون أخيراً يلفتنا إلى ذلك، فالتلوث ملأ جو الأرض، حتى إن الإنسان الذى قطع الأشجار وأزال الغابات التى خلقها الله فى الكون؛ لتكون مصدراً للهواء النقى، وأنشا بدلا منها مصانع ومدنا، بدأ الآن يحاول أن يعيدها بعد أن علم أن تدخُّله فى الكون أفسد جوه. ولو أن الإنسان المختار عاش فى الدنيا وفقا لمنهج الله، لاستقام أمر الدنيا كما استقام الكون كله.

* نبى الله زكريا عليه السلام(1) *

زكريا هو الذى كفل مريم وقام على خدمتها ؛ وكأن الله تعالى اختاره لهذه المهمة؛ لأن القوم حينما تسابقوا إلى كفالة مريم واستهموا على ذلك، كان هذا الشرف من نصيب زكريا عليه السلام.

انظروا . . الناس كانت تتسابق فى الخير، وكانوا يفهمون أن كفالة مريم شرف كبير ، فضربوا قرعة على هذا الأمر ،فجاءوا بالأقلام وألقوها فى

---

(1) هو نبى الله زكريا بن برخيا، ويقال: ابن دان، ويقال: ابن لدن،بن مسلم ابن صدوق ابن حشبان بن داود بن سليمان بن مسلم بن صديقة ، ينتهى نسبه إلى سليمان ابن داود عليهما السلام. هو أبو يحيى النبى سمىّ الله، عليهما السلام، وقد قيل غير ذلك فى نسبه.

انظر [تهذيب تاريخ ابن عساكر: ٥/٣٨١]،و[قصص الأنبياء لابن كثير:٥٩٥].

وهو الذى كفل مريم ابنة عمران أم نبى الله عيسى عليهما السلام، وكان كلما دخل عليها محرابها وجد عندها فاكهة فى غير أوانها، فعلم أن الرازق للشىء فى غير أوانه قادر على أن يرزقه ولداً،وإن كان قد طعن فى السن، وكانت امرأته عاقراً. فدعا ربه خفية، فرزقه الولد ووهب له يحيى لم يكن له من قبل سميا،فورثه فى النبوة والحكم فى بنى إسرائيل.

واختلفت الرواية:هل مات زكريا عليه السلام موتاً أو قتل قتلاً ،على روايتين فقيل : هرب من قومه فدخل شجرة فجاءوا فوضعوا المنشار عليهما، فلما وصل المنشار إلى أضلاعه أنّ ،فأوحى الله إليه:لئن لم يسكن أنينك لأقلبن الأرض ومن عليها. فسكن أنينه حتى قيل: قطع باثنتين.وقيل: الذى انصدعت له الشجرة هو إشعيا، فأما زكريا فمات موتاً. فالله أعلم. [قصص الأنبياء : ٦٠٣]

وعن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « كان زكريا نجّارًا ».

أخرجه مسلم [٢٣٧٩].

البحر، والقلم الذى يطفو هو الذى يكفل صاحبه مريم . وذلك قول الله تعالى : ﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾(١) [آل عمران: ٤٤] ، مما يدل على أنهم فهموا أن كفالة مريم شرف كبير يسعى إليه كل إنسان، ولا يصح لأحد أن يناله دون اقتراع ،والقرعة هى وزن للمسائل حتى لا يغضب أحد.

وكان زكريا كلما دخل على مريم يجد عندها رزقا لم يأت به هو؛ فيستغرب، ويسألها: من أين أتاها هذا الرزق ؟ فتخبره أنه من عند الله وذلك قول الله تعالى: ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾(٢) [آل عمران: ٣٧] .

---

(١) قال ابن كثير : قال الله تعالى : ﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾ أى بسبب غلبه لهم فى القرعة كما قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ . قالوا : وذلك أن كلا منهم ألقى قلمه معروفًا به . ثم حملوها ووضعوها فى موضع،وأمروا غلامًا لم يبلغ الحنث فأخرج واحدا منها وظهر قلم زكريا عليه السلام، فطلبوا أن يقترعوا مرة ثانية وأن يكون ذلك بأن يلقوا أقلامهم فى النهر، فأيهم جرى قلمه على خلاف جرية الماء فهو الغالب، ففعلوها فكان قلم زكريا هو الذى جرى على خلاف جرية الماء ، وسارت أقلامهم مع الماء ثم طلبوا منه أن يقترعوا ثالثة فأيهم جرى قلمه مع الماء ويكون بقية الأقلام قد انعكس سيرها صعدًا فهو الغالب، ففعلوا فكان زكريا هو الغالب لهم فكفلها إذ كان أحق بها شرعًا وقدرًا لوجوه عديدة .

[قصص الأنبياء : ٦١٤]

(٢) قال القرطبى : كان زكريا إذا دخل عليها يجد عندها فاكهة الشتاء فى القيظ ، وفاكهة القيظ فى الشتاء فقال : ﴿ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ﴾ ؟ فقالت : ﴿ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ﴾ .

[تفسير القرطبى : ٤/ ٧١]

وهذا يعلمنا أن الإنسان المسئول عن الإنفاق على أهل بيته إذا وجد شيئاً فى البيت لم يحضره هو،عليه أن يسأل: من أين جاء هذا الشيء ؟ لأنه ربما يكون أتى من طريق غير شرعى ؛ لأنه هو المسئول عن أهل بيته، والله سبحانه سائله عنهم وعليه أن لا يغض بصره عن هذه الأشياء؛ لأنها مداخل الشر، وهذا ما نسميه بقانون «من أين لك هذا ». فهذا القانون لم يهتد الناس إليه إلا بعد أن شقوا وعانوا من المفسدين والمرتشين واللصوص وقد سبق الإسلام فيه الناس جميعاً.

فلما دخل زكريا ووجد الرزق المنوَّع عند مريم ،وقالت له عن مصدره: ﴿هو مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران: ٣٧] هنا تساءل زكريا: كيف فاتنى هذا الأمر ولذلك يقول الحق عن زكريا: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ ساعة أن قالت له: إن الرزق من عند الله، وإنه الذى يرزق من يشاء بغير حساب، وأيقظت فيه القضية الإيمانية ، قال زكريا لنفسه: فلنطلب من ربنا أن يرزقنا ما نرجوه لأنفسنا، وكونه قال ذلك، فمعنى هذا أن زكريا صدق مريم فى قولها بأن هذا الرزق الذى يأتيها هو من عند الله، ودليل آخر فى التصديق هو أنه لابد وقد رأى أن الأشياء التى توجد عند مريم ليست فى بيئته وليست فى زمانه، إنها أشياء متعددة ، إنه يدخل عليها المحراب وكلما دخل وجد عندها رزقا.

ونحن نعرف أن المحراب كلمة يراد بها بيت العبادة [1]، كما يقول الحق:

---

(١) المحراب : صدر البيت ، وأكرم موضع فيه ، والجمع : المحاريب وهو أيضًا الغرفة والمحراب عند العامة : الذى يقيمه الناس اليوم مقام الإمام فى المسجد . وقال الزجاج فى قوله تعالى : ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴾ [ص: ٢١]؛ قال : المحراب أرفع بيت فى الدار ، وأرفع مكان فى المسجد . =

﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣]
والمحراب هو مكان الإمام فى المسجد، أو هو حجرة يصعد إليها بسلم كالمبلغات التى تقام فى بعض المساجد، وما دامت مريم قد أخبرت زكريا وهى فى المحراب بأن الرزق من عند الله، وأيقظت تلك القضية الإيمانية لديه؛ فقد دعا زكريا فى أثناء وجوده فى المحراب: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ ؛ إنه هنا يطلب الولد، ولكن لابد لنا أن نلاحظ ،هل كان طلبه للولد لما يطلبه الناس العاديون من أن يكون زينة للحياة أو عزوة أو ذكراً ؟ لا ؛ إنه يطلب الذرية الطيبة، وذِكر زكريا للذرية الطيبة تفيد معرفته أن هناك ذرية غير طيبة.

وفى قول زكريا : ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾. [مريم: ٦] أى أن يكون وعاء لإرث النبوة وإرث المناهج وإرث القيم، هكذا طلب زكريا الولد لقد طلبه لمهام كثيرة وكبيرة، وقول زكريا ﴿هَبْ لِي﴾ تعنى أنه استعطاء شىء بلا مقابل،إنه يعترف ويقول: أنا ليس لى المؤهلات التى تجعل لى ولدا ؛ لأنى كبير السن وامرأتى عاقر، إذن فعطاؤك يا رب هو هبة ليس حقاً لى[1] ،كأن الذى عنده استعداد لأن يكون هذا الأمر

= والمحراب : القِبْلة . ومحراب المسجد أيضًا : صدره وأشرف موضع فيه ، ومحاريب بنى إسرائيل : مساجدهم التى كانوا يجلسون فيها ، وفى التهذيب : التى يجتمعون فيها للصلاة .

وقوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ﴾ [مريم: ١١] قالوا : من المسجد ، والمحراب : أكرم مجالس الملوك ، عن أبى حنيفة . وقال أبو عبيدة : المحراب سيد المجالس ، ومقدّمها وأشرفها . قال : وكذلك هو من المساجد .

[لسان العرب : ١/ ٣٠٥، ٣٠٦]

(١) قال أبو حيان فى قوله تعالى : ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾: هذه الجملة =

حقاً، فعليه أن يعرف أن عطاء الله له يظل هبة، فإياك أن تظن أن اكتمال الأسباب والشباب هى التى تعطى الأبناء، إن الحق سبحانه ينبهنا ألا نقع فى خديعة غش أنفسنا بالأسباب ؛ يقول تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٥٠)﴾ [الشورى] إن فى ذلك لَفتاً واضحاً وتحذيراً محدداً ألا نفتن بالأسباب.

= شرح للدعاء وتفسير له ، وناداه بلفظ : رب إذ هو مربيه ومصلح حاله ، وجاء الطلب بلفظ : هب لأن الهبة إحسان محض ليس فى مقابلتها شيء يكون عوضًا للواهب ، ولما كان ذلك يكاد يكون على سبيل ما لا تسبب فيه : لا من الوالد لكبر سنه ، ولا من الوالدة لكونها عاقرًا لا تلد ، فكان وجوده كالوجود بغير سبب ، أتى هبة محضة منسوبة إلى الله تعالى بقوله : من لدنك ، أى من جهة محض قدرتك من غير توسط سبب .

ولدن : لما قرب ، و« عند» لما قرب ولما بعد ، وهى أقل إبهامًا من : لدن ، الا ترى أن : عند ، تقع جوابًا لـ: أين؟ ، ولا تقع له جوابًا : لدن ؟ .

﴿مِن لَّدُنكَ﴾ متعلق : بهب ، وقيل : فى موضع الحال من : ذرية ؛ لأنه لو تأخر لكان صفة ، فعلى هذا تتعلق بمحذوف ، والذرية جنس يقع على واحد ، فأكثر . وقال الطبرى : أراد بالذرية هنا واحدًا دليل ذلك طلبه : وليًا ، ولم يطلب: أولياء . قال ابن عطية : وفيما قاله الطبرى تعقب ، وإنما الذرية والولى اسما جنس يقعان للواحد فما زاد ، وهكذا كان طلب زكريا . انتهى .

وفسر : طيبة ، بأن تكون سليمة فى الخلق وفى الدين تقية . وقال الراغب : صالحة، واستعمال الصالح فى الطيِّب كاستعمال الخبيث فى ضده ، على أن فى الطيب زيادة معنى على الصالح . وقيل : أراد : بطيبة ، أنها تبلغ فى الدين رتبة النبوة ، فإن كان أراد بالذرية مدلولها من كونها اسم جنس ، ولم يقيد بالوحدة ، فوصفها : بطيبة ، واضح ! وإن كان أراد ذكرًا واحدًا ، فأنث لتأنيث اللفظ .

وفى قوله : ﴿هَبْ لِى﴾ دلالة على طلب الولد الصالح ، والدعاء بحصوله، وهى سنة المرسلين والصديقين والصالحين . [البحر المحيط : ٣/١٢٦، ١٢٧]

إذن.. فكل عطاء من الله هو هبة والأسباب لا تعطى أحداً ما يريد، إن زكريا يقول: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ﴾ وساعة أن تقول: من لدنك، فهو يعنى: هب لى من وراء أسبابك لماذا ؟ لأن الكل من الله، ولكن هناك فرقاً بين عطاء الله بسبب، كأن يذهب إنسان ليتعلم العلم ويمكث عشرين عاماً ليتعلم، وهناك إنسان ينعم الله عليه بموهبة ما، وساعة أن تسمع ﴿مِن لَّدُنكَ﴾ فاعلم أنه قد انعزلت الأسباب.

إن دعاء زكريا ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ﴾ ؛ كلمة هب توضح ما جاء فى سورة مريم من قول زكريا: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ [مريم: ٨] إن «هب» هى التى توضح لنا هذه المعانى، هكذا كان دعاء زكريا: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ (١)، هل المراد أن يسمع الله الدعاء أم أن يجيب الله الدعاء؟ إنه يضع كل أمله فى الله، كأنه يقول: إنك يا رب فور أن تسمعنى ستجيبنى إلى طلبى بطلاقة قدرتك، لماذا ؟ لأنك يا رب تعلم صدق نيتى فى أننى أريد الغلام، لا لشىء من أمور قرة العين والذكر والعز وغيرها، إنما أريد الولد ليكون وارثاً لى فى حمل منهجك فى الأرض.

---

(١) قال أبو حيان فى قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾: لما دعا ربه بأنه يهب له ولداً صالحًا، أخبر بأنه تعالى مجيب الدعاء. وليس المعنى على السماع المعهود، بل مثل قوله: سمع الله لمن حمده. عبرَّ بالسماع عن الإجابة إلى المقصد، واقتفى فى ذلك جده الأعلى إبراهيم عليه السلام إذ قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩].

[البحر المحيط: ٣/ ١٢٧]

* بشارة الملائكة لزكريا *



يقول الحق : ﴿ فَنَادَتْهُ الْمَلائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [آل عمران : ٣٩] ؛ هل صنعت الملائكة جوقة[1] لتنادى زكريا ؟ لا ؛ لأن جبريل عليه السلام هو الذى ناداه، ولماذا جاء قول الحق سبحانه على هذا النحو؟ لنفطن إلى أن الصوت له جهة يأتى منها، فالصوت القادم من الملأ الأعلى لا يعرف الإنسان من أين يأتيه ؛ وكأنه يأتى من كل الجهات.

إن العصر الحديث ارتقى فى الصوتيات، لدرجة أن الإنسان أصبح بفضل الله عليه لا يجعل المؤثر الصوتى يأتى من جهة واحدة، إنما يأتى من جهات متعددة؛ وتلك صفة البشر ، فما بالك بأمر الخالق سبحانه!!

إذن . . فقول الحق : ﴿ فَنَادَتْهُ الْمَلائِكَةُ ﴾[2]، فهذا يعنى أن الصوت قد جاء لزكريا من جميع الجهات ﴿ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ

---

(١) الجوقة : الجماعة من الناس . قال ابن سيده : وأحسبه دخيلاً .
[لسان العرب: ١٠/ ٣٧]

(٢) قال الشوكانى فى قوله تعالى :﴿ فَنَادَتْهُ الْمَلائِكَةُ ﴾ : قيل : المراد هنا جبريل ، والتعبير بلفظ الجمع عن الواحد جائز فى العربية ، ومنه : ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ ﴾ وقيل : ناداه جميع الملائكة وهو الظاهر من إسناد الفعل إلى الجمع، والمعنى الحقيقى مقدم فلا يُصار إلى المجاز إلا لقرينة. [فتح القدير : ١/ ٤١٥]

الصَّالِحِينَ﴾ . لقد نادته الملائكة حال صلاته لله ؛ أو هو حينما دعا أخذ ما علمه الله الأنبياء إذا حزبهم أمر قاموا إلى الصلاة، وعلى كل واحد منا عندما يصعب عليه شيء وتتأزم الأمور وتمتنع الأسباب، أن يقوم فيتوضأ ويقف بين يدى الله ويسأله من فضله ورحمته، ويطلب منه سبحانه أن ييسر له أمره ويعينه على قضاء حاجته(١) .

ومعنى حزبه أمر أى: أن أسبابه ضاقت، لذلك يذهب إلى الصلاة بخشوع إلى الله خالق الأسباب، إنها ذهاب إلى المسبب، وبدلاً من أن تتشعَّب نفسك وتتحيَّر، اذهب إلى الله من أقصر الطرق وهو الصلاة، لماذا تتعب نفسك ولك رب حكيم؟! إن من له أب لا يحمل هماً والذى له رب أليس أولى بالاطمئنان ؟ إن زكريا قد دعا الله فى حاجة له ، دعاء الواثق من ربه فما كان إلا أن نادته الملائكة وهو يصلى، إنها لم تنتظر إلى أن ينتهى من الصلاة؛ لأنه لابد لها من الإسراع فى إبلاغ أمر الله، لا تأخير ولا انتظار ، دعا الله فاستجاب له ونادته الملائكة وهو واقف بين يدى ربه يناجيه: ﴿أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ﴾ والبشارة هى إخبار بخير زمنه لم يأت، فإذا كانت البشارة بخير زمنه لم يأت؛ فلننظر من الذى يخبر بالبشارة، أيقدر

(١) هذا النوع من الصلاة يشبه صلاة الحاجة ، أخرج الترمذى [٤٧٩] عن عبد الله ابن أبى أوفى، قال: قال رسول الله ﷺ : « من كانت له إلى الله حاجة أو إلى أحد من بنى آدم فليتوضأ فليحسن الوضوء، ثم ليصل ركعتين، ثم ليُثْنِ على الله وليصل على النبى ﷺ ، ثم ليقل: لا إله إلا الله الحليم الكريم، سبحان الله رب العرش العظيم، الحمد لله رب العالمين، اللهم إنى أسألك موجبات رحمتك وعزائم مغفرتك والغنيمة من كل بر والسلامة من كل إثم، لا تدَعْ لى ذنبا إلا غفرته ولا همًا إلا فرَّجته ولاحاجة هى لك رضًا إلا قضيتها يا أرحم الراحمين». وقال : حديث غريب وفى إسناده مقال . وأخرجه ابن ماجة [١٣٤٨] ، وضعفه الألبانى فى ضعيف الترمذى [٧٣].

على إيجاد ذلك الخير أم لا يقدر؟ فإذا كان الله سبحانه هو الذى يبشّر؛ فهو إذن . . القادر سبحانه ،فالبشارة قادمة لا محالة.

قوله تعالى: ﴿أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ﴾ لقد قال الله له سأعطيك، وزيادة على العطاء سماه الله بـ :يحيى، وفوق كل ذلك: ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾، ولننظر إلى دقة البلاغ فى قوله تعالى: ﴿بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا﴾ هذا دليل على أنه سيعيش بمنهج الله، ودليل على أنه سيعمل الطاعات وهو مصدق، وهو سيأتى بكلمة من الله، أو هو يأتى ليصدق بكلمة من الله ؛فهو عليه السلام أول من آمن برسالة عيسى عليه السلام.

وقد وصفه الحق سبحانه بقوله: ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ أى ممنوعاً من كل ما حرم عليه، وهو نبى(١) أى قدوة فى الاتباع.

---

(١) قال ابن كثير فى قوله تعالى : ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ : روى العوفى وغيره عن ابن عباس وقال الحسن وقتادة وعكرمة ومجاهد وأبو الشعثاء والسدى والربيع بن أنس والضحاك وغيره فى هذه الآية : ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ أى بعيسى ابن مريم . وقال الربيع بن أنس : هو أول من صدق بعيسى ابن مريم ، وقال قتادة : وعلى سننه ومنهاجه. وقال ابن جريج: قال ابن عباس فى قوله ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ قال: كان يحيى وعيسى ابنى خالة، وكانت أم يحيى تقول لمريم : إنى أجد الذى فى بطنى يسجد للذى فى بطنك، فذلك تصديقه له فى بطن أمه وهو أول من صدق عيسى وكلمة الله عيسى ، وهو أكبر من عيسى عليه السلام . وهكذا قال السدى أيضًا .

وقوله : ﴿وَسَيِّدًا﴾ : قال أبو العالية والربيع بن أنس وقتادة وسعيد بن جبير وغيرهم: الحليم ، وقال قتادة : سيدًا فى العلم والعبادة . وقال ابن عباس والثورى والضحاك: السيد: الحليم التقى . قال سعيد بن المسيب : هو الفقيه العالم ، وقال عطية : السيد فى خلقه ودينه ، وقال عكرمة : هو الذى لا يغلبه الغضب، وقال ابن زيد : هو الشريف، وقال مجاهد وغيره : هو الكريم على الله عز وجل .

وقوله : ﴿وَحَصُورًا﴾ :روى عن ابن مسعود وابن عباس ومجاهد وعكرمة =

= وسعيد بن جبير وأبي الشعثاء وعطية العوفي أنهم قالوا :الذى لا يأتى النساء. وعن أبى العالية والربيع بن أنس : هو الذى لا يولد له ولا ماء له . وقال ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى الحصور : الذى لا ينزل الماء .

وقد قال القاضى عياض فى كتابه الشفاء : اعلم أن ثناء الله تعالى على يحيى أنه كان « حصورًا » ليس كما قاله بعضهم : إنه كان هيوبًا أو لا ذكر له ، بل قد أنكر هذا حذاق المفسرين ، ونقاد العلماء وقالوا : هذه نقيصة وعيب ولا يليق بالأنبياء عليهم السلام، وإنما معناه أنه معصوم من الذنوب ، أى لا يأتيها كأنه حصور عنها ، وقيل: مانعًا نفسه من الشهوات ، وقيل: ليست له شهوة فى النساء. وقد بان لك من هذا أن عدم القدرة على النكاح نقص ، وإنما الفضل فى كونها موجودة ثم يمنعها؛ إما بمجاهدة كعيسى أو بكفاية من الله عز وجل كيحيى عليه السلام ، ثم هى فى حق من قدر عليها وقام بالواجب فيها ولم تشغله عن ربه: درجة عليا،وهى درجة نبينا ﷺ الذى لم يشغله كثرتهم عن عباده ربه ، بل زاده ذلك عبادة بتحصينهن وقيامه عليهن ، وإكسابه لهن ، وهدايته إياهن ، بل قد صرح أنها ليست من حظوظ دنياه هو ، وإن كانت من حظوظ دنيا غيره فقال : «حُبِّب إلى من دنياكم »(١) هذا لفظه.

والمقصود أنه مدح ليحيى بأنه حصور ليس أنه لا يأتى النساء ، بل معناه كما قاله هو وغيره : أنه حصور من الفواحش والقاذورات، ولا يمنع ذلك من تزويجه بالنساء الحلال وغشيانهن وإيلادهن ، بل قد يفهم وجود النسل له من دعاء زكريا المتقدم حيث قال : ﴿ رب هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ﴾ ؛كأنه قال: ولدًا له ذرية ونسل وعقب ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

وقوله: ﴿ وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾ هذه بشارة ثانية بنبوة يحيى بعد البشارة بولادته وهى أعلى من الأولى،كقوله لأم موسى: ﴿ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ .

[تفسير ابن كثير : ١/ ٣٤١، ٣٤٢]

وعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : « ما من أحد من ولد آدم إلا قد أخطأ أو همَّ بخطيئة ، ليس يحيى بن زكريا ، وما ينبغى لأحد أن يقول: أنا خير من يونس=

(١) أخرجه النسائى فى الكبرى [٨٨٨٧] عن أنس بلفظ : « حُبِّب إلىّ من الدنيا :النساء والطيب وجُعل قرة عينى فى الصلاة » . وأخرجه أحمد فى المسند [١٢٨/٣] ، والحاكم فى المستدرك [١٦١/٢] وصححه ، ووافقه الذهبى .

لما دعا زكريا ،وتلقى البشارة بيحيى عندئذ قال زكريا ببشريته : ﴿رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٤٠] ، إن زكريا وهو الطالب تعجَّب من الاستجابة؛ فيتساءل: كيف يكون ذلك(١) ؟

الحق سبحانه يورد ذلك ليعلمنا أن النفس البشرية دائماً تكون فى دائرات التلوين، وليست فى دائرات التمكين؛ وذلك ليعطى خلقه الذين لا يهتدون إلى الصراط المستقيم الأسوة فى أنه إذا حدث لهم ابتلاء، فعليهم الرجوع إلى الله.

يقول زكريا: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾؛ إن بلوغ الكبر ليس نصاً فى أنه غير قادر على إخصاب امرأة، ذلك أن الإخصاب بالنسبة للرجال ليس أمراً يتحكم فيه تقدُّم العمر، إن لم يكن عاقراً، ولكن المرأة هى الطرف المهم فى ذلك، فإن كانت عاقراً فذلك قمة العجز فى الأسباب، ولو أن زكريا قال فقط: وامرأتى عاقر، لكان أمراً غير مستحب

= ابن متَّى عليه السلام » . أخرجه أحمد فى المسند [١/ ٢٥٤، ٢٩٢] ، وصححه الشيخ شاكر برقم [٢٢٩٤، ٢٦٥٤] .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « خلق الله يحيى بن زكريا فى بطن أمه مؤمنًا ،وخلق فرعون فى بطن أمه كافرًا » . أخرجه الطبرانى فى الكبير [١٠/ ١٠٥٤٣] وذكره الهيثمى فى المجمع [٧/ ١٩٦] وقال : رواه الطبرانى وإسناده جيد . وقال الألبانى فى السلسلة الصحيحة [١٨٣١] : إسناده جيد .

(١) قال القرطبى: فى معنى الاستفهام وجهان :

أحدهما : أنه سأل: هل يكون له الولد وهو وامرأته على حاليهما أو يُرَدّان إلى حال من يلد ؟

الثانى : سأل هل يُرزق الولد من امرأته العاقر أو من غيرها .

وقيل : المعنى بأىّ منزلة أستوجب هذا وأنا وامرأتى على هذه الحال ؛ على وجه التواضع. [تفسير القرطبى : ٤/ ٧٩]

بالنسبة لزوجته؛لذلك أوردها من أولها: ﴿قَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾؛ تأمل دقة القول فى بلغنى الكبر، إنه لم يقل: بلغت الكبر، إنه يقول: إن الكبر هو الذى جاءنى، ولم أجئ أنا إلى الكبر ؛ لأن بلوغ الشىء يعنى أن هناك إحساس ورغبة بأن تذهب إليه.

وقال زكريا: ﴿وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾، وذلك تعميم لطلاقة القدرة عند من يستمع القصة، لقد أورد كل القوالب البشرية، وبعد ذلك يأتى القول الفصل: ﴿قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ إنها طلاقة القدرة التى فوق الأسباب؛ لأنها قدرة خالق الأسباب.

* من أين تعلّم زكريا أن الله يعطى وإن عزت الأسباب ؟ *

﴿ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٩] ؛ نحن نعرف قصة زكريا وكيف دعا ربه أن يهبه غلاماً بعد أن بلغ من الكبر عتيا ، فهو دعا ربه أن يمنحه مولوداً يرث النبوة ، فلما بشرته الملائكة أن الله سيهبه غلاماً اسمه يحيى، تعجب من هذا الأمر واستغرب كيف يعطيه الله غلاماً ؟! وهو الذى تقدم به العمر وامرأته، لم يصدق البُشرى من فرط سعادته، فأراد أن يتأكد منها؛ لذلك قال : ﴿ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴾ [مريم: ٨] .

فأوحى إليه أن يطرح الأسباب التى عرفها؛ لأن الذى يكلمه هو الخالق عز وجل ، الذى قال له: ﴿ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴾[مريم: ٩] ، ولكن من أين تعلّم زكريا أن الله يعطى وإن عزت الأسباب؟ عرف هذا لأنه كان موصولا بالله عز وجل.

وأنه حينما سأل مريم عن مصدر الرزق الذى عندها، وأخبرته أنه ﴿ مِنْ عِندِ اللَّهِ ﴾ و﴿ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ ؛ كانت هذه الحقيقة غائبة عنه، فحينما سمعها منها لجأ إلى الله وعطائه غير المحدود، ففى هذه اللحظة دعا ربه أن يهبه غلاماً يرث النبوة من بعده ويقوم بأعبائها، قال تعالى : ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾[آل عمران: ٣٨] ، طالما﴿ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾

فلماذا لا يسأله أن يعطيه غلاماً حتى وإن كانت الأسباب تمنع حدوث هذا الشيء ؛ لذلك دعا زكريا ربه أن يهبه غلاماً.

واستجاب الله سبحانه وتعالى دعاء زكريا ووهبه يحيى قال تعالى : ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾(1) [الأنبياء: ٩٠] ، فالله سبحانه وهب لزكريا غلاماً رغم تعطل الأسباب، وفوق ذلك هو الذى سماه ﴿ يَحْيَى ﴾ ،إن لله سرا فى هذه التسمية؛ لأن الناس يضعون الأسماء بمسمياتها، وكل واحد حر فى أن يضع اسما لأى مسمى، فلو أن امرأة زنجية أنجبت بنتاً واختارت لها اسم «قمر» لا يستطيع أحد أن يمنعها من ذلك، فالناس أحرار فى تسمية ما يريدون،فالاسم يخرج من معناه الأصلى إلى أن يصير علماً على هذا المسمى، وإن حاد عنه المعنى؛ فتسمى واحدا «سعيد» وهو شقى،وتسميه « فاضل» وليس عنده شيء من الفضل؛ لأن الناس يسمون هذه الأسماء تفاؤلا أن يكون المولود كذلك، فأنت إذا سميت ابنك «يحيى» لا تملك له أن يحيا أو يعيش، ولكن إذا سماه من يملك الموت والحياة فلابد أن يحيا والذى يقوله الله فيه لابد أن يظل ذكره حتى بعد موته؛ ولذلك ﴿ يَحْيَى ﴾ شاء له الله أن يموت شهيداً ؛ حتى يظل حياً وكلمة: ﴿ وَوَهَبْنَا ﴾ : معناها أن هذا المولود لم يجئ عن طريق القانون التكوينى للناس،ولكن جاء هبة من الله رغم كبر والده وعقم أمه.

---

(1) روى ابن أبى حاتم بسنده عن عبد الله بن حكيم قال : خطبنا أبو بكر رضى الله عنه ثم قال : أما بعد فإنى أوصيكم بتقوى الله، وتثنوا عليه بما هو له أهل، وتخلطوا الرغبة بالرهبة،وتجمعوا الإلحاف بالمسألة؛ فإن الله عز وجل أثنى على زكريا وأهل بيته فقال: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾ .
[تفسير ابن كثير : ١٨٩/٣]

وقديماً قال الشاعر :

فسميته يحيا ليحيا فلم يكـ ـــن لرد قضاء الله فيه سبيل

ولكن الله لم يرد ذلك فمات الابن لماذا ؟ لأن المسمى من البشر ليس هو الذى يُحيى، إن الذى سمى: إنسان قدرته عاجزة، ولكن الله المحيى: له طلاقة القدرة، فحينما يسمى من له طلاقة القدرة فهل يحيا أم لا يحيا ؟ إنه يحيا لذلك سماه الله ﴿ يَحْيَى ﴾ [1]، وحتى لا تفهم أن الحياة التى أشار الله إليها بقوله: اسمه ﴿ يَحْيَى ﴾ بأنها الحياة المعروفة للبشر عادة؛ لأن الرجل حينما يسمى ابنه: ﴿ يَحْيَى ﴾ يأمل أن يحيا الابن كما يحيا الناس ستين عاماً أو سبعين، لكن الله حينما يسمى: ﴿ يَحْيَى ﴾ فإنه لا يتوفى ﴿ يَحْيَى ﴾ على قدر ما يتوفى الناس، فلابد أن يعطيه أطول من حدود أعمار الناس ، بل إنه لا يموت أيضاً لكن الكل من البشر يموت، الحق سبحانه يهيِّىء ليحيى من خصومه ومن أعدائه من يقتله؛ ليكون شهيداً وهو بالشهادة يصير حياً ، فكأنه يحيا دائماً . انظروا إلى لمحة التسمية لأن لقائل أن يقول: ما حكاية أن يقول الله سأسميه ﴿ يَحْيَى ﴾ ؟ إنه يريد المسمى، لكن المسمى يسميه الله من عنده، والله سبحانه حين يسميه فنحن على قدر علمنا فى التسمية نتفاءل، ونتمنى أن يتحقق المسمى، وحين يسمى من يقدر فالاسم يشيع على أعمار الناس فيكون ﴿ يَحْيَى ﴾ قد حيى، لكن بهذا القول نقول: لا، لابد أن تكون حياة ﴿ يَحْيَى ﴾ الذى سماه الله، على طلاقة قدرة الله؛ لذلك يسخر له من أعدائه ومن خصومه ما يحقق مراد الله به من تسميته ﴿ يَحْيَى ﴾ حتى يموت شهيداً [2] وما دام مات

(١) قيل : إنما سماه يحيى ؛ لأن الله تعالى أحياه بالإيمان ، وسمّاه بهذا الاسم قبل مولده. [تفسير الماوردى: ١/ ٣٩٠] ، وانظر [تفسير ابن كثير: ١/ ٣٤١]، وغيرهم.

(٢) قال ابن كثير فى بيان سبب قتل يحيى عليه السلام: وذكروا فى قتله أسبابًا، من أشهرها: أن بعض ملوك ذلك الزمان بدمشق كان يريد أن يتزوج بعض محارمه أو =

شهيداً فالشهداء أحياء عند ربهم. إذن فيحيا كحياة الناس، ويحيا حياة أطول من حياة الناس إلى أن تقوم الساعة.

وأيضاً نأخذ ملحظاً فى أن زكريا حينما بشر بأن الله سيهبه غلاماً ويسميه يحيى، نجده قد استقبلها بالعجب، كيف يستقبل زكريا المسألة بالعجب مع

= من لا يحل له تزويجها ، فنهاه يحيى عليه السلام عن ذلك فبقى فى نفسها منه. فلما كان بينها وبين الملك ما يحب منها استوهبت منه دم يحيى، فوهبه لها فبعثت إليه من قتله وجاء برأسه ودمه فى طست إلى عندها ، فيقال أنها هلكت من فورها وساعتها.
وقيل : بل أحبته امرأة ذلك الملك وراسلته فأبى عليها ، فلما يئست منه تحيلت فى أن استوهبته من الملك ، فتمنع عليها الملك ثم أجابها إلى ذلك، فبعث من قتله وأحضر إليها رأسه ودمه فى طست .
ثم اختلف فى مقتل يحيى بن زكريا: هل كان فى المسجد الأقصى أم بغيره، على قولين:
فقال الثورى عن الأعمش عن شملة بن عطية قال : قتل على الصخرة التى ببيت المقدس سبعون نبيًا ، منهم يحيى بن زكريا عليه السلام (١) .
وعن سعيد بن المسيب قال : قدم بختنصر دمشق ، فإذا هو بدم يحيى بن زكريا يغلى ، فسأل عنه فأخبروه ، فقتل على دمه سبعين ألفا فسكن (٢) . وهذا إسناد صحيح إلى سعيد بن المسيب ، وهو يقتضى أنه قتل بدمشق وأن قصة بختنصر كانت بعد المسيح، كما قاله عطاء والحسن البصرى . . فالله أعلم .
وعن زيد بن واقد ، قال : رأيت رأس يحيى بن زكريا حين أرادوا بناء مسجد دمشق أخرج من تحت ركن من أركان القبلة الذى يلى المحراب مما يلى الشرق ، فكانت البشرة والشعر على حاله لم يتغير (٣) . وفى رواية : كأنما قتل الساعة.

(١) إسناده ضعيف : أخرجه ابن عساكر فى تاريخه ، كما فى الدر المنثور [٤/ ٢٦٤] وفى سنده الأعمش يرويه بالعنعنة ، وهو من المدلسين ، انظر ترجمته فى [تقريب التهذيب : ٢٦٣٠].

(٢) إسناده صحيح : أخرجه الطبرى فى تفسيره [١٥/ ٢٣] ، وابن كثير فى تفسيره [٣/ ٢٥] ، وانظر الدر المنثور [٤/ ١٦٥].

(٣) إسناده ضعيف : أخرجه ابن عساكر فى « تاريخه » وفيه عنعنة الوليد بن مسلم ، وهو من المدلسين ؛ انظر ترجمته فى [تقريب التهذيب : ٧٥٠٦].

أنه رآها فى مريم ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ ؟! ولنا أن نقول: أكنت تحب أن يمرر زكريا هذا الأمر الخارق للعادة والخارق للناموس كأنه أمر عادى يمر عليه بدون أن يندهش ويتعجب؟! لا، لابد أن يندهش ويتعجب، لذلك: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلامٌ﴾.

ومعنى: ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾؛ أى جعلناها صالحة للإنجاب بعد أن كانت عاقراً.

إذن.. ﴿يَحْيَىٰ﴾ جاء بقدرة الله وحده بغير الأسباب الكونية للميلاد؛ لأن الله تعالى أراد ذلك، فربنا سبحانه أصلح الزوجة التى كانت غير صالحة للإنجاب.

وعملية الإنجاب هذه ليست عملية ميكانيكية، ولكنها متعلقة بإرادة الخالق ومشيئته، فأحياناً تجد زوجين صالحين للإنجاب ومع ذلك يتأخر الحمل شهوراً أو سنوات، لأن الله تعالى لم يأذن بالذرية، وأحياناً تجد زوجين استمرت حياتهم الزوجية سنوات طويلة دون إنجاب، وربما يحدث طلاق بينهما وتتزوج الزوجة فتنجب، ويتزوج الرجل فينجب فهذه أشياء ليست ميكانيكية، ولكنها تخضع لمشيئة الخالق، قال تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾(1) [الشورى].

ربنا سبحانه بين لنا بعد ذلك العلة من هذا العطاء الذى وهبه لزكريا رغم كبر سنه وعقم زوجته فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا

(1) قال ابن كثير: يخبر تعالى أنه خالق السموات والأرض ومالكها والمتصرف فيهما، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه يعطى من يشاء ويمنع من يشاء، ولا مانع لما أعطى ولا معطى لما منع، وأنه يخلق ما يشاء ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا﴾ اى يرزقه البنات فقط. =

رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ ولذلك فعلى المسلم الذى يبتلى بالعقم ويستنفذ الأسباب أن يكثر من فعل الخيرات ويدعو الله سبحانه ويلح عليه فى الدعاء .

ومعنى :﴿خَاشِعِينَ ﴾ أى راضين بقدرهم فى وجود العقم، ولا يرفع قضاء حتى يرضى صاحبه به، فإذا كنت عقيماً فلا تبخل بمالك وتضن به على المحتاجين، وانظر إلى أولاد الناس على أنهم أولادك،وانزع من نفسك الحقد والكراهية التى قد يسببها لك عدم الإنجاب، وسارع فى الخيرات، وادع الله سبحانه أن يعطيك من فضله؛ لأنه هو سبحانه ولى

= قال البغوى : ومنهم لوط عليه الصلاة والسلام . ﴿وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴾ أى: يرزقه البنين فقط . قال البغوى : كإبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام لم يولد له أنثى . ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا ﴾ أى : ويعطى لمن يشاء من الناس الزوجين الذكر والأنثى ، أى من هذا وهذا ؛ قال البغوى : كمحمد ﷺ . ﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا ﴾ أى لا يولد له . قال البغوى : كيحيى وعيسى عليهما الصلاة والسلام، فجعل الناس أربعة أقسام : منهم من يعطيه البنات ، ومنهم من يعطيه البنين ، ومنهم من يعطيه من النوعين ذكورًا وإناثًا ، ومنهم من يمنعه هذا وهذا فيجعله عقيمًا لا نسل له ولا ولد له ، ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ ﴾ أى بمن يستحق كل قسم من هذه الأقسام، ﴿قَدِيرٌ ﴾ أى : على ما يشاء من تفاوت الناس فى ذلك ، وهذا المقام شبيه بقوله تبارك وتعالى عن عيسى عليه الصلاة والسلام : ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ﴾ أى دلالة لهم على قدرته تعالى وتقدس ، حيث خلق الخلق على أربعة أقسام : فآدم عليه الصلاة والسلام مخلوق من تراب لا من ذكر ولا أنثى ، وحواء عليها السلام مخلوقة من ذكر بلا أنثى ، وسائر الخلق سوى عيسى عليه السلام من ذكر وأنثى ، وعيسى عليه السلام من أنثى بلا ذكر ، فتمت الدلالة بخلق عيسى ابن مريم عليهما الصلاة والسلام . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ﴾ فهذا المقام فى الآباء ، والمقام الأول فى الأبناء ، وكل منهما أربعة أقسام . فسبحان العليم القدير .

[تفسير ابن كثير : ٤/١٢٣]

ذلك والقادر عليه، وبعد ذلك اخشع لله، ومعنى الخشوع: هو الاطمئنان لمقادير الخالق فى الخلق، فترضى بقدر الله فيك بأنك عقيم، وبعد هذا الرضا تدعوه أن يهبك من فضله ذرية صالحة مع رضائك التام وتسليمك بقدر الله ،مع يقينك الكامل فى قدرته على كل شىء، وحكمته البالغة فى كل ما كتبه على الناس من أقدار.

* لماذا طلب زكريا آية على الحمل ؟ *



قال تعالى : ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزًا وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ﴾ (1) [آل عمران:٤١] ؛ إن زكريا يطلب علامة على

(١) قال القرطبى فى قوله تعالى : ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزًا وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ﴾ : فيه أربع مسائل :
الأولى : قوله تعالى : ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً﴾ « جعل » هنا بمعنى صير لتعديه إلى مفعولين . و«لى» فى موضع المفعول الثانى . ولما بشر بالولد ولم يبعد عنده هذا فى قدرة الله تعالى طلب آية - أى علامة - يعرف بها صحة هذا الأمر وكونه من عند الله تعالى ؛ فعاقبه الله تعالى بأن أصابه السكوت عن كلام الناس لسؤاله الآية بعد مشافهة الملائكة إياه ؛ قاله أكثر المفسرين . قالوا : وكذلك إن لم يكن من مرض خرس أو نحوه ففيه على كل حال عقاب ما . قال ابن زيد : إن زكريا عليه السلام لما حملت زوجه منه بيحيى أصبح لا يستطيع أن يكلم أحدًا ، وهو مع ذلك يقرأ التوراة ويذكر الله تعالى ؛ فإذا أراد مقاولة أحد لم يطقه.
الثانية : قوله تعالى : ﴿إِلاَّ رَمْزًا﴾ الرمز فى اللغة الإيماء بالشفتين ، وقد يستعمل فى الإيماء بالحاجبين والعينين واليدين ؛ وأصله الحركة . وقيل : طلب تلك الآية زيادة طمأنينة .
المعنى : تمم النعمة بأن تجعل لى آية ، وتكون تلك الآية زيادة نعمة وكرامة ؛ فقيل له : ﴿آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ﴾ أى تمنع من الكلام ثلاث ليال ؛ دليل هذا القول قوله تعالى بعد بشرى الملائكة له :﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ أى أوجدتك بقدرتى فكذلك أوجد لك الولد . واختار هذا القول النحاس وقال : قول قتادة: إن زكريا عوقب بترك الكلام، قول مرغوب عنه؛ لأن الله عز وجل لم يخبرنا=

= أنه أذنب ولا أنه نهاه عن هذا ؛والقول فيه أن المعنى: اجعل لى علامة تدل على كون الولد ، إذ كان ذلك مغيبًا عنى . و﴿رَمْزًا﴾ نصب على الاستثناء المنقطع ؛ قاله الأخفش . وقال الكسائى : رمز يرمُز ويرمِز . وقرئ « إلا رمزا» بفتح الميم و«رُمُزا» بضمها وضم الراء ، الواحدة رمزة.

الثالثة : فى هذه الآية دليل على أن الإشارة تنزل منزلة الكلام، وذلك موجود فى كثير من السنة ، وآكد الإشارات ما حكم به النبى ﷺ من أمر السوداء حين قال لها : «أين الله؟ » فأشارت برأسها إلى السماء فقال : « أعتقها فإنها مؤمنة» (١). فأجاز الإسلام بالإشارة الذى هو أصل الديانة الذى يحرز الدم والمال وتستحق به الجنة وينجى به من النار ، وحكم بإيمانها كما يحكم بنطق من يقول ذلك ؛ فيجب أن تكون الإشارة عاملة فى سائر الديانة ، وهو قول عامة الفقهاء . وروى ابن القاسم عن مالك أن الأخرس إذا أشار بالطلاق أنه يلزمه. وقال الشافعى فى الرجل يمرض فيختل لسانه: فهو كالأخرس فى الرجعة والطلاق . وقال أبو حنيفة : ذلك جائز إذا كانت إشارته تعرف ، وإن شك فيها فهى باطل ، وليس ذلك بقياس وإنما هو استحسان . والقياس فى هذا كله أنه باطل ؛ لأنه لا يتلكم ولا تعقل إشارته . قال أبو الحسن بن بطال : وإنما حمل أبا حنيفة على قوله هذا أنه لم يعلم السنن التى جاءت بجواز الإشارات فى أحكام مختلفة فى الديانة . ولعل البخارى حاول بترجمته « باب الإشارة فى الطلاق والأمور » الرد عليه . وقال عطاء : أراد بقوله: ﴿ألا تُكَلِّمَ النَّاسَ﴾ صوم ثلاثة أيام . وكانوا إذا صاموا لا يتكلمون إلا رمزًا . وهذا فيه بعد . والله أعلم .

الرابعة : قال بعض من يجيز نسخ القرآن بالسنة : إن زكريا عليه السلام منع الكلام وهو قادر عليه ، وإنه منسوخ بقوله عليه السلام : « لا صمت يوما إلى الليل »(٢). وأكثر العلماء على أنه ليس بمنسوخ ، وأن زكريا إنما منع الكلام بآفة دخلت عليه منعته إياه ، وتلك الآفة عدم القدرة على الكلام مع الصحة ؛ كذلك قال المفسرون . وذهب كثير من العلماء إلى أنه : « لا صمت يوما إلى الليل » إنما معناه عن ذكر =

---

(١) أخرجه أحمد فى المسند [٢/ ٢٩١] ، والطبرانى فى الأوسط [٢٥٩٨] عن أبى هريرة رضى الله عنه ، وصححه الشيخ شاكر برقم [٧٨٩٣].

(٢) أخرجه أبو داود [٢٨٧٣] عن على بن أبى طالب بلفظ :« لا يُتْم بعد احتلام ، ولا صُمَات يوم إلى الليل » . وصححه الألبانى فى صحيح أبى داود [٢٤٩٧].

أن القول انتقل إلى فعل، لماذا يطلب علامة إذا كان الله قد: ﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ [مريم: ٩] لقد كان هذا القول تأكيداً لا شك فيه، فبمجرد أن قال الرب انتهى الأمر، فماذا يريد زكريا من بعد ذلك ؟ إنه يطلب ﴿آيَةً﴾ أى علامة على أن ﴿يَحْيَى﴾ قد تم إيجاده فى رحم أمه، فكانت استغاثة زكريا: يا رب لاتتركنى أفهم بالعلامات الظاهرة المحسة؛ لأننى أريد أن أعيش فى إطار الشكر لك عليه، فبمجرد أن يحدث الإخصاب لابد أن أحيا فى نطاق الشكر؛ لأن النعمة قد تأتى وأنا غير شاكر، إنه يطلب ﴿آيَةً﴾ ليعيش فى نطاق الشكر، إنه لم يطلب ﴿آيَةً﴾ عن شكٍّ فى قدرة الله، معاذ الله، ولكن لأنه لا يريد أن يفوِّت على نفسه شكر النعمة من أول وجودها.

والذى يعطينا هذا المعنى هو قول الحق سبحانه: ﴿قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزًا وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ﴾، فهل معنى ذلك أن يمتنع هو عن الكلام ؟ أو أن معناه أن يرغب فى

= الله، وأما عن الهذر وما لا فائدة فيه، فالصمت عن ذلك حسن.

قوله تعالى: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ﴾ أمره بالا يترك الذكر فى نفسه مع اعتقال لسانه؛ على القول الأول. وقال محمد بن كعب القرظى: لو رخص لأحد فى ترك الذكر لرخص لزكريا بقول الله عز وجل ﴿أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزًا وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا﴾ ولرخص للرجل يكون فى الحرب بقول الله عز وجل: ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأنفال: ٤٥]. وذكره الطبرى.

﴿وَسَبِّحْ﴾ أى صل؛ سميت الصلاة سُبْحَة لما فيها من تنزيه الله تعالى عن السوء.

و« العشى » جمع عشية. وقيل: هو واحد. وذلك من حين نزول الشمس إلى أن تغيب؛ عن مجاهد. وفى الموطأ عن القاسم بن محمد قال: ما أدركت الناس إلا وهم يصلون الظهر بعشى ﴿وَالإِبْكَارِ﴾ من طلوع الفجر إلى وقت الضحى.

[تفسير القرطبى: ٤/ ٨٠-٨٢]

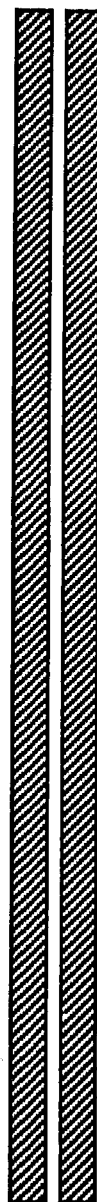
الكلام فلا يستطيع؛ إن هناك فارقاً بين أن يقدر على الكلام ولا يتكلم، وبين ألا يقدر على الكلام، وما دامت الآية هبة من الله، فالحق هو الذى قال له سأمنعك من أن تتكلم مع الناس إلا رمزاً . أى: بالإشارة، كفاقد القدرة على الكلام، وحتى نعرف أن الآية قادمة من الله، وأن زكريا لايريد أن تمر عليه لحظة من نعم الله بدون شكر لله عليها، فإننا نعلم أن الله سينطقه.

وقوله: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيراً وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ﴾ ؛ لقد أراد زكريا أن يعيش من أول لحظة مع المنعم شكراً ، وجعل كل وقته ذكراً ، فلم ينشغل بالناس أو كلام الناس .

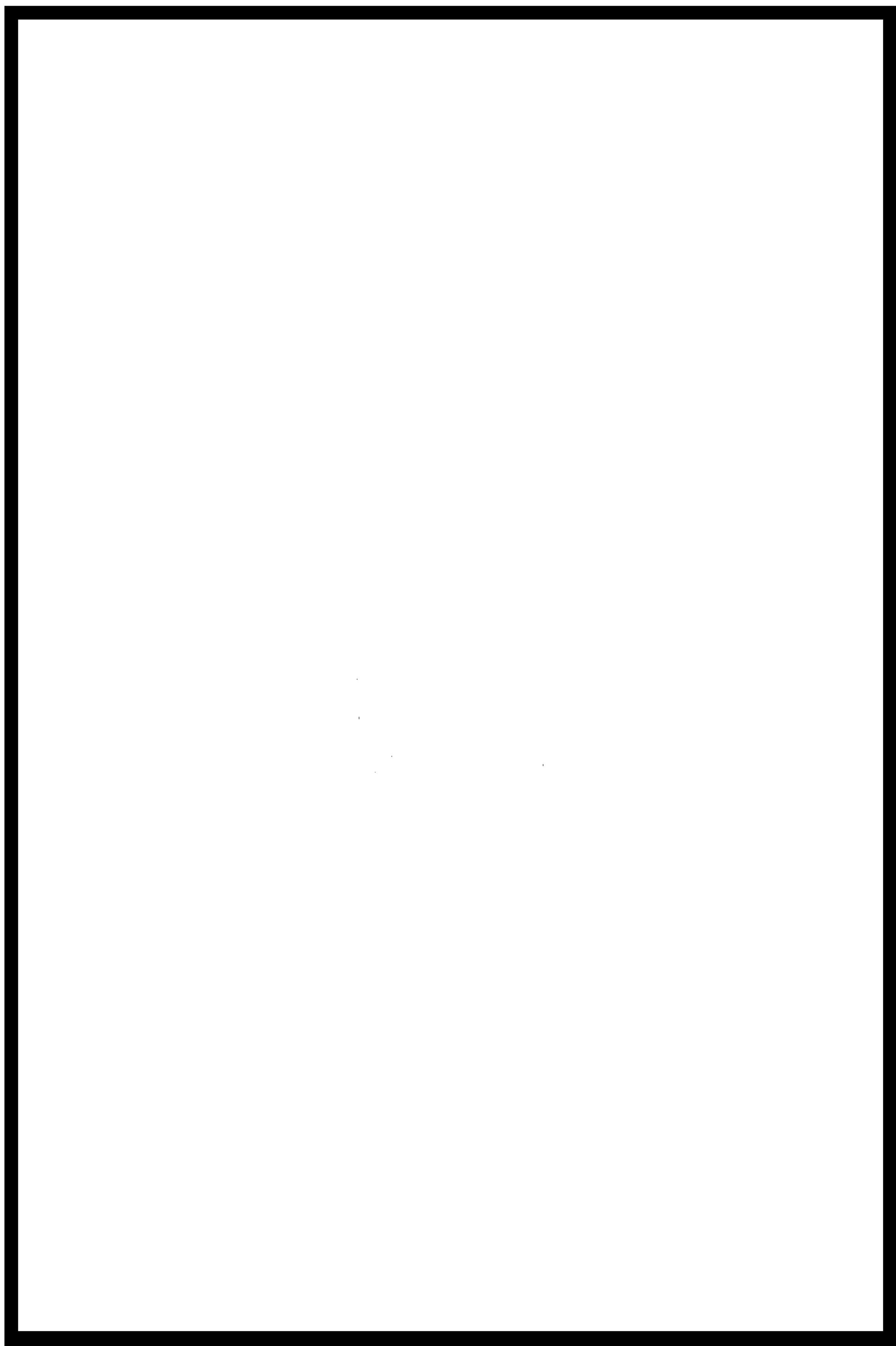
إن قوله تعالى :﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيراً﴾ تفيد أن زكريا قادر على الذكر، وغير قادر على كلام الناس، لذلك لا يريد الله أن يشغله بكلام الناس، وكأن الله يريد أن يقول: مادمت قد أردت أن تعيش مع النعمة شكراً ، أجعلك غير قادر على الكلام مع الناس لكنك قادر على الذكر. والذكر مطلقاً هو: ذكر الله بآلائه وعظمته وقدرته، وصفات الكمال؛ والتسبيح هو التنزيه لله؛ لأن ما فعله له الله لا يمكن أن يحدث من سواه، فـ«سبحان الله» معناها: تنزيه الله ؛ لأنه سبحانه هو القادر على أن يفعل ما لا تفعله الأسباب ولا يقدر على صنعه أحد .

لذلك كانت الآية قوله تعالى : ﴿أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزاً وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيراً وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ﴾ . الحق جعل الآية ألا يكلم زكريا الناس ثلاثة أيام إلا بالإشارة، وقد يكون عدم الكلام فى نظر الناس مرضاً . . لا ، إنه ليس كذلك؛ لأن الحق يقول له : ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيراً وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ﴾ إن الحق يجعل زكريا قادراً على التسبيح وغير قادر على الكلام ، إنها قدرة أخرى من طلاقة قدرة الله، إن اللسان

الواحد غير قادر على الكلام إلا بالرمز، ولو حاول أن يتكلم لما استطاع، ولكن هذا اللسان نفسه أيضاً يصبح قادراً فقط على التسبيح بالعشى والإبكار، وذكر الله؛ إنه ذَكَرَ الله باللسان وسمعه الناس، إنها بيان لطلاقة القدرة.



قصة
بنى إسرائيل



* من أين جاء اسم اليهود؟ *



﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢]، إننا نفهم من قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أن المقصود بها هؤلاء القوم الذين ورثوا الإيمان من أيام آدم أو إدريس أو نوح.

ونفهم من قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ أنهم أتباع موسى عليه السلام، وقد سُمُّوا ﴿الَّذِينَ هَادُوا﴾؛ لأنهم تابوا عن عبادة العجل، واستقبلوا غضب موسى من عبادتهم العجلَ بالتوبة والندم، وجاءهم موسى عليه السلام بألواح التوراة؛ التي فيها الهدى والرحمة.

وذهب مع موسى سبعون رجلاً لميعاد حدّده الحق ليستغفروه عن عبادة العجل.

وذلك قول الله تعالى: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ (١٥٥) وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦)﴾ [الأعراف].

إن اليهود الذين عاشوا فى عهد الرسول ﷺ أخذوا اسمهم - اليهود- من تصور أنهم أبناء هؤلاء القوم الذين ذهبوا ليستغفروا الله بعد عبادتهم العجلَ، وسألوه سبحانه أن يكشف عنهم البلاء، ويتوب على من عبد العجل منهم؛ فأخذتهم فى هذا المكان زلزلة شديدة غُشى عليهم بسببها؛ ذلك أنهم لم يفارقوا قومهم عندما عبدوا العجل، ولم ينهوا عن المنكر، وهنا دعا موسى ربه أن يعفو عنهم؛ لأن الله لو شاء لأهلكهم من قبل التوبة، وإن عبادة العجل هى فتنة من الله يكشف بها ويميز المؤمن الحق من الإنسان الضالّ .

هنا يقول موسى مناجيًا ربه: ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾، أى رجعنا إليك. وهنا يقول الحق لموسى: ﴿قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

من هنا جاء اسم اليهود؛ من هؤلاء الذين تصوروا أنهم أبناء هؤلاء القوم الذين هادوا إلى الله؛ أى رجعوا إلى الله. وقال البعض: إن «اليهود» جاءت من تصور أنهم من ذرية يهوذا، وهو سبط من الأسباط من أولاد يعقوب، وهذا هو معنى: ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا﴾(١).

---

(١) قال القاسمى فى قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ أى تهودوا . يقال : هاد يهود ، وتهوّد، إذا دخل فى اليهودية . وهو هائد ، والجمع هوّد . وهم أمة موسى عليه السلام، وإنما لزمهم هذا الاسم ، لأن الإسرائيليين الذين رجعوا من جلاء سبعين سنة، ومن سبى بابل إلى وطنهم القديم ، كان أكثرهم من نسل يهوذا بن يعقوب «بالذال المعجمة فقلبتها العرب دالاً مهملة » . [تفسير القاسمى : ٢/ ١٤٣]
وقيل : سُموا بذلك لتوبتهم عن عبادة العجل . [تفسير القرطبى: ١/ ٤٣٣]

* لماذا يخاطبهم الحق : يا بنى إسرائيل ؟ *

إن الله تعالى أراد أن يعرض لنا بعض قصة بنى إسرائيل؛ لأن فيها الكثير من سلوكهم وضلالهم وتعنتهم مع أنبيائهم، وحين يعرضها الحق لنا فى كتابه بذلك الحيز الضخم الذى جاءت به فى أكثر من سورة من سور القرآن، ففى ذلك تثبيت لقلب رسول الله ﷺولقلوب السابقين معه، على الإيمان.

ولنا أن نعرف أن بنى إسرائيل الذين أنزل الله قصتهم فى القرآن ، قد ظنوا أنهم مستمرون فى الحياة دون أن يخالطوا أجناسًا أخرى ، وبهذا الظن يحبسون أنفسهم فى كل مجتمع عن بقية البشر، لكن ذلك الظن خاطئ ؛ لأن التتبع العلمى المعاصر أثبت أن كثيراً من الذين يتبعون منهج بنى إسرائيل، ليسوا عرقًا صافيًا خالصًا من إسرائيل وهو نبى الله يعقوب ، إنما هم بشر ينتمون إلى جماعات متفرقة وأوطان شتى، وصدَّقوا وهمهم أنهم أبناء وأحفاد لنبى الله يعقوب .

وإذا كان فى أسلوب بنى إسرائيل المعاصرين بعض من ظلال سلوكهم وعنتهم، الذى عاشه وعاناه نبى الله موسى معهم، فليس ذلك لأنهم أصفياء العِرق والدم كما يدّعون، ولكن التفافهم حول منهج من أضلوهم جعلهم يتوهمون ضمن ما يتوهمونه أنهم أصفياء العرق والدم. ولنا أن ننظر إلى قصة موسى عليه السلام وهو من أولى العزم من الرسل. ونجد فى القصة: الميلاد أولاً، والتربية ثانيًا، والبعث وهو الأمر الثالث، وعلاجًا لفئة اتبعت منهجًا أتعب رسول الله موسى، وأتعب أنبياء بنى إسرائيل من بعده.

والحق تبارك وتعالى حينما يخاطب كل البشر يقول : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ ﴾ ، فلماذا يخاطب الله البشر ببنوتهم لآدم ؟ إن ذلك الخطاب إنما هو تذكير لنا بالنعمة الأصيلة التى منحها الله إيانا، وهى أننا من نسل آدم الذى خلقه الله بيده، وأكرمه وعلمه، وأسجد له الملائكة وأنه أُهبط إلى الأرض بمنهج قيم، وضعه الله لآدم وأبنائه من بعده فى الحياة وسخر له الكون كله ليخدمه فى مهمته فى الأرض .

هكذا نفهم من نداء الخالق لنا بـ ﴿ يَا بَنِي آدَمَ ﴾ ، ونتعرف على أن كل ما وصلنا من علم ومعرفة إنما ينتهى إلى آدم الذى علمه الله كل الأسماء(١)، وعلم آدمُ أبناءَ ما علمه الله له من أسماء، واستخدم الأبناء

(١) عن أنس أن النبى ﷺ قال : « يجمع الله المؤمنين يوم القيامة كذلك ، فيقولون : لو استشفعنا إلى ربنا حتى يريحنا من مكاننا هذا ، فيأتون آدم فيقولون : يا آدم أما ترى الناس ؟ خلقك الله بيده وأسجد لك ملائكته ، وعلمك أسماء كل شىء، اشفع لنا إلى ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا فيقول : لست هناك، ويذكر لهم خطيئته التى أصاب ، ولكن ائتوا نوحًا فإنه أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض ، فيأتون نوحًا فيقول : لست هناك ويذكر خطيئته التى أصاب ، ولكن ائتوا إبراهيم خليل الرحمن، فيأتون إبراهيم فيقول : لست هناكم ويذكر لهم خطاياه التى أصابها ، ولكن ائتوا موسى عبدًا آتاه الله التوراة وكلَّمه تكليمًا ، فيأتون موسى فيقول : لست هناكم ويذكر لهم خطيئته التى أصابها ، ولكن ائتوا عيسى عبد الله ورسوله وكلمته وروحه فيأتون عيسى فيقول : لست هناكم ، ولكن ائتوا محمدا ﷺ عبدًا غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، فيأتونى فأنطلق فأستأذن على ربى، فيؤذن لى عليه فإذا رأيت ربى وقعت له ساجدًا ، فيدعنى ما شاء الله أن يدعنى ثم يقال لى : ارفع محمد قل يسمع وسل تعطه واشفع تُشَفَّع ، فأحمد ربى بمحامد علَّمنيها ، ثم أشفع فيحدّ لى حدًا فأدخلهم الجنة، ثم أرجع فإذا رأيت ربى وقعت ساجدًا ، فيدعنى ما شاء الله أن يدعنى ثم يقال: ارفع محمد وقل يسمع وسل تعطه واشفع تُشَفَّع ، فأحمد ربى بمحامد علمنيها، ثم أشفع فيحد لى حدًا ، فأدخلهم الجنة، ثم أرجع فإذا رأيت ربى وقعت ساجدًا فيدعنى ما شاء الله أن يدعنى ثم يقال: ارفع محمد، قل يسمع وسل =

العلمَ الذى وهبه الله لآدم فى استكشاف الكون، وهكذا يتعرف أبناء آدم أن مصدر كل العلم هو الله، وحين يذكرنا الله بذلك حتى نخرج من دائرة الغرور بما ورثناه نحن، وحتى لا نقع فى وهم أن كل ما نملك من علم هو من صنعة الإنسان؛ فإننا يجب ألا نقع فى ذلك الغرور؛ لأن كل علمنا ينتهى إلى آدم ، وآدم علَّمه الله .

لكن حين يقول الحق سبحانه وتعالى مناديًا أبناء إسرائيل: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [البقرة: ٤٠]، فهذا التخصيص ليذكرهم بأبيهم نبى الله يعقوب الذى ابتلاه الله كثيرًا ،فحاول أبناؤه قتل أخيهم يوسف ، وحزن يعقوب حزنًا شديدًا، وصبر على ابتلاءات الحق؛ لأنه يعلم أن الابتلاء كان طريقا ليصطفيه الله، ولنا أن نعرف أن لفظ «إسرائيل» مأخوذ من كلمتين من العبرية: «إسر» يعنى: عبد مصطفى مختار و«ائيل» معناه: الله ، أى أن الكلمة بترجمتها هى «صفى الله»، أو عبد الله ، وقد أخذ نبى الله يعقوب هذا الاسم؛ لأنه أُبتلى بلاء كبيراً استحق فيه أن يكون صفيًا لله، ولذلك فحين يقول الحق: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ فإنه يذكِّر أبناء إسرائيل ما كان لأبيهم من منزلة عند الله،وما تحمَّله من الابتلاءات فى دينه وحياته(١) ،

= تعطه واشفع تُشَفَّع. فأحمد ربى بمحامد علمنيها، ثم أشفع فيحد لى حدًا فأدخلهم الجنة ثم أرجع، فأقول : يا رب ما بقى فى النار إلا من حبسه القرآن ، ووجب عليه الخلود. فقال النبى ﷺ: يخرج من النار من قال: لاإله إلا الله وكان فى قلبه من الخير ما يزن شعيرة ،ثم يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله وكان فى قلبه من الخير ما يزن برة ، ثم يخرج من النار من قال : لا إله إلا الله وكان فى قلبه ما يزن من الخير ذرة » .أخرجه البخارى [٧٤١٠] .

(١) قال أبو حيان : أضافهم إلى لفظ إسرائيل ، وهو يعقوب ، ولم يقل: يا بنى يعقوب؛ لما فى لفظ إسرائيل من أن معناه: عبد الله أو صفوة الله، وذلك على أحسن تفاسيره ، فهزهم بالإضافة إليه ، فكأنه قيل : يا بنى عبد الله ، أو يا بنى صفوة الله، فكان فى ذلك تنبيه على أن يكونوا مثل أبيهم فى الخير ، كما تقول : يا ابن الرجل الصالح =

ويذكّرهم الحق تبارك وتعالى بوصية والدهم يعقوب حين جاءه الموت بناء على وصية إبراهيم عليهما السلام له ولابنيه إسحاق وإسماعيل : ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٣٢) أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٣) ﴾ [البقرة]. هكذا نعلم أن إبراهيم خليل الرحمن أوصى إسماعيل وإسحاق - وابن إسحاق يعقوب- بأن الله اصطفى الإسلام دينًا؛ فيجب ألا يموت أحدهم إلا وهو مسلم لله، وهكذا نعلم أن يعقوب عندما حضرته الوفاة أوصى أولاده بوصية جده إبراهيم أن يكونوا مسلمين لله، كانت هذه هى الوصية الأخيرة ليعقوب(١).

ولنا أن نفرق الآن بين «التعليم» و «العظة» و «الوصية» :

= أطع الله ، فتضيفه إلى ما يحركه لطاعة الله ؛ لأن الإنسان يجب أن يقتفى أثر آبائه ، وإن لم يكن بذلك محمودًا ، فكيف إذا كان محمودًا ؟ ألا ترى : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ ﴾ [الزخرف] ، ﴿ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾ [البقرة: ١٧٠] ، وفى قوله: ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ [البقرة: ٤٠] دليل على أن من انتمى إلى شخص ، ولو بوسائط كثيرة ، يطلق عليه أنه ابنه ، وعليه: ﴿ يَا بَنِي آدَمَ ﴾ [الأعراف: ٢٦] ، ويسمى ذلك أبًا. قال تعالى : ﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ﴾ [الحج:٧٨]، وفى إضافتهم إلى إسرائيل تشريف لهم بذكر نسبتهم لهذا الأصل الطيب، وهو يعقوب بن إسحاق ابن إبراهيم خليل الرحمن . ونقل عن أبى الفرج بن الجوزى : أنه ليس لأحد من الأنبياء غير نبينا محمد ﷺ اسمان إلا يعقوب ، فإنه يعقوب ، وهو إسرائيل .
[البحر المحيط ١٩/ ٢٨١]

(١) قال القرطبى : ومعنى : ﴿ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ ﴾ أى مقدّماته وأسبابه ؛ وإلا فلو حضر الموت لما أمكن أن يقول شيئًا . وعبر عن المعبود بـ﴿ مَا ﴾ ولم يقل: من ؛ لأنه أراد أن يختبرهم ، ولو قال: «من » لكان مقصوده أن ينظر من لهم الاهتداء منهم ؛=

فـ «التعليم» :هو ما ينقله إنسان لإنسان فيتلقاه الإنسان المتعلم من المعلم؛ ليتأمله ويأخذ جزءا منه يجربه فى الحياة، ويضيف إليه، أو يعلن فشل جزء مما تعلمه ويكشف جديدًا يعلمه لآخرين،إذن. . فالتعليم أخذ وعطاء وتطوير بعد اختيار.

و«العظة» :هى أن يعطى إنسان لإنسان آخر خلاصة تجربة ما ليتذكرها.

وأما «الوصية» فتطلق عادة على ما ينطقه الإنسان من خلاصة التجارب والأحلام والآمال، وإذا ما تحدد الزمن الذى تقال فيه الوصية بأنه قبل الوفاة؛ فلابد أن تكون الوصية متضمنة ما يقتنع به الإنسان أنه خلاصة الحق ؛ ذلك أن الإنسان يعرف لحظتها ، حتى لو كان أثناء حياته مسرفًا على نفسه أن لقاء الله قد اقترب؛ ولذلك يستحيى الإنسان أن ينصح إلا بكل حق وخير؛ لأن الإنسان فى تلك اللحظات المشهورة يحب ألايترك أبناءه إلاعلى خير؛ لأنه مقبل على لقاء الحق الأعلى،الله جل وعلا، كان الحق يذكر بنى إسرائيل أنهم أبناء عبد صالح، وكانت وصيته قبل الوفاة أن يكون أبناؤه على دين الله الذى هو الإسلام، ومن ذلك نستنبط أن الأب لا يمكن أن يخدع أبناءه، فما بالنا بأب صالح هو يعقوب ؟

إن الأب لا يغش أبدًا أبناءه حتى ولو خدع الدنيا كلها، ويحاول أن يجنب أبناءه كل المتاعب التى صادفها فى حياته، والفارق بين حب الأب

= وإنما أراد تجربتهم فقال: ﴿مَا﴾ ،وأيضا فالمعبودات المتعارفة من دون الله جمادات كالأوثان والنار والشمس والحجارة ؛ فاستفهم عما يعبدون من هذه . ومعنى: ﴿مِنْ بَعْدِى﴾ أى من بعد موتى . وحُكى أن يعقوب حين خُيِّرَ كما تُخير الأنبياء اختار الموت وقال : أمهلونى حتى أوصى بنى وأهلى ؛ فجمعهم وقال لهم هذا ؛ فاهتدوا وقالوا : ﴿نَعْبُدُ إِلَهَكَ...﴾ الآية . فأروه ثبوتهم على الدين ومعرفتهم بالله تعالى . [تفسير القرطبى : ١٣٧/٢]

وحب الرب كبير، إذا كان الأب لا يغش ابنه؛ فلا لشيء إلا لأن الأب سبب فى وجود الابن، ولكن الرب هو خالق كل موجود إن كلمة ابن مأخوذة من مادة البناء[1]، والبناء يكون دائمًا على أساس، فكأن الأب هو أساس للابن، والجد أساس للأب ، وهكذا حتى نصل إلى آدم.

(١) قال الراغب الأصفهانى : ابن أصله بنو؛ لقولهم الجمع أبناء وفى التصغير بنى ، قال تعالى : ﴿ يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ ﴾[يوسف:٥] ،﴿ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ ﴾[الصافات:١٠٢] ، ﴿يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ ﴾ ؛ وسمى بذلك لكونه بناء للأب، فإن الأب هو الذى بناه وجعله الله بناء فى إيجاده، ويقال لكل ما يحصل من جهة شيء ، أو من تربيته، أو بتفقده ، أو كثرة خدمته له، أو قيامه بأمره هو: ابنه، نحو فلان ابن حرب،وابن السبيل للمسافر،وابن الليل،وابن العلم . [معجم مفردات غريب القرآن : ٦٠]

* من هم النصارى؟ ومن هم الصابئة؟ *

أما معنى كلمة: ﴿ النَّصَارَىٰ ﴾ [البقرة: ٦٢]: فهى مأخوذة من قول الحواريين الذين قالوا: نحن أنصار الله. وقال عنهم الحق فى كتابه: ﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾(١) [آل عمران: ٥٢].

لقد جاء المسيح عيسى ابن مريم رسولا إلى بنى إسرائيل؛ ليهديهم عن ضلالهم الذى غرقوا فيه، ونسوا عهدهم مع الله، وحرفوا فى التوراة، لقد كان المسيح عيسى بن مريم رسولاً محدد المهمة لقوم محددين، قال الذين آمنوا منهم: ﴿ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ ﴾﴿ آمَنَّا بِاللَّهِ ﴾ وأسلموا إيمانا بالله.

واليهود والنصارى عندهم فى كتبهم البشارة بمقدم رسول الله، وفى ذلك يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

(١) نَصرى ونَصْرى وناصِرة ونصورية: قرية بالشام، والنصارى منسوبون إليها؛ قال ابن سيده: هذا قول أهل اللغة، قال: وهو ضعيف إلا أن نادر النسب يسعه. الجوهرى: ونَصْرانُ قرية بالشام ينسب إليها النصارى، ويقال: ناصرة.

[لسان العرب ٥/ ٢١١، ٢١٢]

أما قول الحق: ﴿ وَالصَّابِئِينَ ﴾ [البقرة: ٦٢] فشرحُ معنى: «الصابئة» اختلف فيه العلماء:

بعضهم يرى أنهم أتباع نوح عليه السلام.

وبعضهم يرى أنهم الذين عبدوا الوسائط فى الكون كالكواكب والنجوم.

وبعض العلماء قال: إن «الصابئة» هم الذين مالوا عن العقيدة التى كانوا يعاصرونها إلى دين آخر، وهم الذين تحنفوا قبل الإسلام. أى: هؤلاء القوم العقلاء، الذين استعملوا عقولهم فرفضوا عبادة الأصنام.

قيل لواحد منهم: كيف تعبد هذه الأصنام، والأصنام تقع وتُكَبُّ على أنوفها، ونحن الذين نعدل من وضعها، ونداوى التشققات التى تحدث لها عندما تنكسر، ونحن الذين نقوم بنحتها، فكيف نعبد آلهة لا تضر ولاتنفع، آلهة من اختراعنا نحن؟ ولهذا امتنع هؤلاء القوم من العقلاء عن عبادة الأصنام وتحنفوا.

وقال عنهم العرب: إنهم صبئوا عن دين آبائهم، وإن لم يتبعوا دينًا جديداً. لقد كان عند هؤلاء القوم اقتناع بأن عبادة الأصنام أمر باطل. وقد اتهمت قريش محمدًا رسول الله ﷺ والذين آمنوا معه بأنهم صبئوا عن دين آبائهم.

والصبأ: مأخوذ من الصبوة، أى: الميل إلى دين غير الدين الذى كان يسود فى ذلك الزمان (١).

---

(١) صبا إليه صبوةً وصُبُوًا: حَنَّ، وكانت قريش تسمى أصحاب النبى ﷺ صُبَاةً. وفى التنزيل العزيز فى خبر يوسف عليه السلام: ﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ ﴾ [يوسف: ٣٣]. قال أبو الهيثم: صبا فلان إلى فلانة وصبا لها يصبو صبًا منقوص، وصبوة، أى مال إليها. اهـ. [لسان العرب: ١٤/٤٥١] =

إذن.. لقد جاء الإسلام ليصفى مواقف كل الرسالات، ويكون محمد النبى الخاتم إلى الناس كافة؛ ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾؛ إن الحق يقرر أن الرسول محمدًا عليه الصلاة والسلام نبى مرسل إلى الناس كافة، لا فرق بين أبيض وأسود ، يهودى أو نصرانى أو مجوسى، كل البشر مدعوون للإيمان برسالة محمد رسول الله، أرسله الخالق الأكرم، الذى له الملك كله يحيى ويميت، هو الأجدر بالاتباع؛ لأنه يدعو إلى الإيمان بالله وبرسله وبالكتب المنزلة على الرسل، والمنهج الذى جاء به محمد هو المنهج الشامل الجامع الكامل الذى يهدى إلى الصواب.

ولنا أن نتساءل: لماذا جاءت ﴿ وَالصَّابِئُونَ ﴾ [المائدة: ٦٩] مرفوعة فى آية سورة المائدة وجاءت منصوبة فى آية سورة البقرة؟

إن ذلك أمر متعلق بقواعد الإعراب فى اللغة العربية؛ لقد جاءت منصوبة فى سورة البقرة؛ لأنها معطوف على اسم «إنّ»، ونحن نعرف أن«إنّ» تنصب

= قال ابن الجوزى : وفى الصابئين سبعة أقوال :

أحدها : أنه صنْف من النصارى ألين قولاً منهم ، وهم السائحون المحلّقة أوساط رؤوسهم . روى عن ابن عباس .

والثانى : أنهم قوم بين النصارى والمجوس ، ليس لهم دين ، قاله مجاهد .

والثالث : أنهم قوم بين اليهود والنصارى ، قاله سعيد بن جبير .

والرابع : قوم كالمجوس ، قاله الحسن والحكم .

والخامس : فرقة من أهل الكتاب يقرءون الزبور ، قاله أبو العالية .

والسادس : قوم يصلون [إلى القبلة]، ويعبدون الملائكة، ويقرءون الزبور ، قاله قتادة .

والسابع : قوم يقولون : لا إله إلا الله ، فقط ، وليس لهم عمل ولا كتاب ولا نبى، قاله ابن زيد . اهـ . [زاد المسير : ١/ ٧٨]

الاسم وترفع الخبر. وجاءت: ﴿وَالصَّابِئُونَ﴾ مرفوعة فى آية سورة المائدة؛ لأنها جاءت متوسطة بين اليهود والنصارى، وأخذت عطف الجمل؛ لأنها جمع مذكر سالم؛ لذلك جاءت مرفوعة. ونحن نعرف دقة العرب فى النحو والإعراب على الفطرة؛ لذلك كان مجيئها على هذا الأسلوب نوعًا من اللفت الظاهر لفتا قسريا؛ ليعرف الناس أن ﴿وَالصَّابِئِينَ﴾، يدخلون أيضًا فى دائرة التصفية للعقائد وتوحيدها فى دين الإسلام(١).

---

(١) قال القرطبى فى قوله تعالى: ﴿وَالصَّابِئُونَ﴾ معطوف على المضمر فى ﴿هَادُوا﴾ فى قول الكسائى والأخفش. قال النحاس: سمعت الزجاج يقول – وقد ذكر له قول الأخفش والكسائى –: هذا خطأ من جهتين؛ إحداهما: أن المضمر المرفوع يقبح العطف عليه حتى يؤكد.

والجهة الأخرى: أن المعطوف شريك المعطوف عليه، فيصير المعنى أن الصابئين قد دخلوا فى اليهودية وهذا محال.

وقال الفرّاء: إنما جاز الرفع فى ﴿وَالصَّابِئُونَ﴾ لأن ﴿إِنَّ﴾ ضعيفة فلا تؤثر إلا فى الاسم دون الخبر؛ و﴿الَّذِينَ﴾ هنا لا يتبين فيه الإعراب، فجرى على جهة واحدة الأمران؛ فجاز رفع الصابئين رجوعا إلى أصل الكلام.

قال الزّجاج: وسبيل ما يتبين فيه الإعراب وما لايتبين فيه الإعراب واحد.

وقال الخليل وسيبويه: الرفع محمول على التقديم والتأخير، والتقدير: « إن الذين آمنوا والذين هادوا من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون والصابئون والنصارى كذلك ».

وقيل: ﴿إِنَّ﴾ بمعنى «نعم» فالصابئون مرتفع بالابتداء، وحذف الخبر لدلالة الثانى عليه، فالعطف يكون على هذا التقدير بعد تمام الكلام وانقضاء الاسم والخبر.

[تفسير القرطبى: ٦/٢٤٦]

* موقف النبى من اليهود أول الدعوة *

الله سبحانه وتعالى أمر رسول الله ﷺ أن يصفح عن الخيانات التى تحدث من اليهود، لعل الوعى الإيمانى يستيقظ فيهم ويقولون: « لَمْ يعاملنا بمثل ما عاملناه به.. » ويؤمنون به نبيًا من عند الله تعالى ، ولا يقفون فى وجه دعوته، لكن، هل يظل العفو والصفح هما كل الأوامر التى جاءت من الله سبحانه إلى نبيه محمد ﷺ ؟ لا.. لقد تدرَّج الأمر الإلهى بمراحل متعددة، فالرسول ﷺ يخاطب النفس الإنسانية بأن يدعُوها بالإحسان والعدل، فإن لم يؤثر فيها الإحسان والعدل، فلابد أن يشمر النبى ﷺ عن الساعد، ويفعل ما يأمره به الله، ولنقرأ قول الحق: ﴿ **وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ [البقرة: ١٠٩]. إذن فهناك أمر آخر هو: ﴿ **حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ** ﴾ ؛ إن الحق قد أمر بأن يتركهم الرسول مع الصفح والعفو لمرحلة تالية يأتى فيها الأمر بتأديبهم(١)، وهذه عملية نفسية، وعملية إنسانية فطرية، عرفها

(١) عن عروة بن الزبير عن أسامة بن زيد رضى الله عنهما أخبره أن رسول الله ﷺ ركب على حمارٍ على قطيفة فَدَكِيَّة (١) وأردف أسامة بن زيد وراءه يعود سعد بن عبادة فى بنى الحارث بن الخزرج قبل وقعة بدر، قال : حتى مر بمجلس فيه عبد الله ابن أبى بن سلول، وذلك قبل أن يسلم عبد الله بن أُبى فإذا فى المجلس أخلاط من=

(١) قال الحافظ فى الفتح: قطيفة فدكية: أى كساء غليظ منسوب إلى فَدَك ، وهى بلد مشهور على مرحلتين من المدينة. [٩/ ١٠٠] وقوله : « مرحلتين» : المرحلة : المسافة يقطعها السائر فى نحو يوم ، أو ما بين المنزلين والجمع مراحل . [المعجم الوسيط : ٣٣٥]

العربى الجاهلى وخبرها قبل أن يأتى الإسلام. فقد كان العربى يحسن إلى عدوه مرة وثانية وثالثة، وعندما يجد أن الإحسان لم يثمر ثمرته فإنه يقاتل العدو.

= المسلمين والمشركين عبدة الأوثان واليهود والمسلمين وفى المجلس عبد الله بن رواحة، فلما غشيت المجلس عَجاجة[1] الدابة، خمَّر عبد الله بن أبى أنفه بردائه ثم قال: لاتُغبِّروا علينا، فسلم رسول الله ﷺ عليهم ثم وقف فنزل فدعاهم إلى الله وقرأ عليهم القرآن فقال عبد الله ابن أبى بن سلول: أيها المرء إنه لا أحسن مما تقول إن كان حقًا فلا تؤذينا به فى مجلسنا، ارجع إلى رحلك فمن جاءك فاقصص عليه، فقال عبد الله بن رواحة: بلى، يا رسول الله فاغشنا به فى مجالسنا؛ فإنا نحب ذلك فاستبَّ المسلمون والمشركون واليهود، حتى كادوا يتثاورون، فلم يزل النبى ﷺ يخفضهم حتى سكنوا، ثم ركب النبى ﷺ دابته فسار حتى دخل على سعد بن عبادة، فقال له النبى ﷺ: «يا سعد ألم تسمع ما قال أبو حباب - يريد عبدالله بن أبى - قال كذا وكذا». قال سعد بن عبادة: يا رسول الله، اعف عنه واصفح عنه، فوالذى أنزل عليك الكتاب لقد جاء الله بالحق الذى أنزل عليك، لقد اصطلح أهل هذه البحيرة على أن يتوِّجوه فيعصِّبونه بالعِصابة[2]، فلما أبى الله ذلك بالحق الذى أعطاك الله شَرِق بذلك، فذلك فعل به ما رأيت. فعفا عنه رسول الله ﷺ. وكان النبى ﷺ وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب كما أمرهم الله ويصبرون على الأذى؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا...﴾ الآية. وقال الله: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم...﴾ إلى آخر الآية. وكان النبى ﷺ يتأوَّل العفو ما أمره الله به حتى أذن الله فيهم، فلما غزا رسول الله ﷺ بدرًا فقتل الله به صناديد كفار قريش قال ابن أبى بن سلول ومن معه من المشركين وعبدة الأوثان: هذا أمر قد توجَّه، فبايعوا الرسول ﷺ على الإسلام فأسلموا. أخرجه البخارى [٤٥٦٦].

---

(١) عجاجة الدابة: أى غبارها.

(٢) أى: يُرئِّسوه عليهم ويُسوِّدوه.

كما يقول الشاعر:

أَنَاة فإن لم تغْنِ قدِّم بعدها وعيدا فإن لم يغن أغنت عزائمهْ
من الحلم أن تستعمل الحزم دونه إذا لم تسَعْ بالحلم ما أنت عازمهْ

وقال الشاعر :

صفحنا عن بنى ذهل وقلنا القوم إخوان
عسى الأيام أن يرجعْـ ـنَ قوما كالذى كانوا
فلما صرَّح الشر وأمسى وهو عريان
مشينا مشية الليث غدا والليث غضبان
بضرب فيه تأييم وتفجيع وإرنان
وطعن كفم الزق غدا والزق ملآن
وفى الشر نجاة حيـ ـنَ لا ينجيك إحسان
ويعض الحلم عند الجهْـ ـلِ للذلة إذعان

موقف النصارى مشابه لليهود، ومثل ما جرى للنبى ﷺ مع اليهود ، حدث مع النصارى، وأورد الحق سبحانه وتعالى هذا القول: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ ؛ لقد قالوا إنهم نصارى، وأخذ الحق الميثاق منهم إما ميثاق الذر، أو ميثاقهم لنبيهم عيسى ابن مريم ، فنسوا حظا مما ذكروا به، ولقد تركوا ما أمرهم به الإنجيل ونقضوا الميثاق ، فتفرقوا فى عداء ملحوظ بين فرَق شتى ، وسيظلون على ذلك إلى يوم القيامة.

لقد فعلوا مثلما فعل اليهود من إخفاء للمنهج، وجاء أمر الله : ﴿يَاأَهْلَ

الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥] ، كأن الحق سبحانه وتعالى يعطيهم الفرصة والعذر؛ حتى لا يقولن أحد منهم: لم يبلغنى عن رسولى شىء ، وهناك فترة لم يأت فيها رسول. وها هو رسول من الله يأتى حاملاً لمنهج متكامل، ويجىء الرسول فرصة لتجديد ميثاق الإيمان، لقد أخفوا من كتبهم بعض الأحكام مثل الرجم والربا، وقال بعض من بنى إسرائيل فى الربا ما ذكره القرآن عنهم: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران: ٧٥] ؛أى أنهم أقروا الإقراض بالربا لمن هم على غير دينهم، ولكن لا ربا فى تعاملهم مع أبناء دينهم . لقد أخفوا بعضًا من أصول كتبهم المنزلة بالمنهج عليهم(١).

(١) عن البراء بن عارب ، قال : مُرَّ على رسول الله ﷺ بيهودى محمم - مجلود - فدعاهم فقال: « هكذا تجدون حد الزانى؟ ». فقالوا : نعم ! فدعا رجلاً من علمائهم قال : «نشدتك بالله الذى أنزل التوراة على موسى ، هكذا تجدون حد الزانى فى كتابكم؟ ». فقال: اللهم لا! ولولا أنك نشدتنى بهذا لم أخبرك ، نجد حد الزانى فى كتابنا الرجم ، ولكنه كثر فى أشرافنا ، فكنا إذا أخذنا الرجل الشريف تركناه ، وإذا أخذنا الرجل الضعيف أقمنا عليه الحد ، فقلنا : تعالوا فنجتمع على شىء نقيمه على الشريف والوضيع فاجتمعنا على التحميم والجلد ، وتركنا الرجم. فقال رسول الله ﷺ: « اللهم إنى أول من أحيا أمرك إذ أماتوه » فأمر به فرجم. فأنزل الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ ﴾ [المائدة:٤١] إلى قوله: ﴿ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا﴾ إلى قوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [المائدة:٤٤] فى اليهود إلى قوله : ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [المائدة:٤٥] فى اليهود إلى قوله: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [المائدة:٤٧] قال: هى فى الكفار كلها، يعنى هذه الآية. =

وأراد رسول الله ﷺ أن يجمع الشمل، وأن يجعل أيديهم مع يده؛ لأنه نبى انتظروه. وعندهم فى كتبهم البشارة به. وأن يقف الجمع المؤمن أمام موجة الإلحاد فى الأرض حتى يسيطر نظام السماء على حركة الأرض.. لذلك قال الحق: ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ﴾ [المائدة: ١٥] ؛ومعنى ذلك أن كتمانهم لبعض منهج الله قد صنع ظلمةً فى الكون، وما دام قد حدثت ظلمة فى الكون- وخاصة ظلمة القيم- إذن فالكون قد صار فى حاجة إلى من ينير الطريق. ونحن نعرف أن النور هو ما نتبين به الأشياء.

الحق سبحانه وتعالى حينما يعرض لنا قضية النور الحسى .. يريد أن يأخذ بأيدينا من النور الحسى إلى النور المعنوى، فالنور الحسى يبدد للإنسان ظلام الطريق، فالإنسان إذا سار فى ظلام فهو يصطدم بالأشياء، أو يقع فى هوة، أو يكسر شيئاً ، لكن عندما يحمل الإنسان نوراً فهو يمشى على بيّنة من أمره . إن النور الحسى يمنع من تصادم الحركات فى المخلوقات؛ لأن تصادم الحركات فى المخلوقات يبدد الطاقة، وتبديد الطاقة

= أخرجه أبو داود [٤٤٤٨] ، وصححه الألبانى فى صحيح أبى داود [٣٧٣٨].

وقال القرطبى فى قوله تعالى : ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا﴾ يعنى اليهود ﴿ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ ﴾ قيل : إن اليهود كانوا إذا بايعوا المسلمين يقولون : ليس علينا فى الأميين سبيل - أى حرج فى ظلمهم - لمخالفتهم إيانا. وادعوا أن ذلك فى كتابهم؛ فأكذبهم الله عز وجل وردّ عليهم فقال: ﴿ بَلَىٰ﴾ أى: بلى عليهم سبيل العذاب بكذبهم واستحلالهم أموال العرب . قال أبو إسحاق الزجاج: وتم الكلام. ثم قال: ﴿مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ ﴾ . ويقال : إن اليهود كانوا قد استدانوا من الأعراب أموالاً فلما أسلم أرباب الحقوق قالت اليهود : ليس لكم علينا شىء ؛ لأنكم تركتم دينكم فسقط عنا دينْكم . وادعوا أنه حكم التوراة، فقال الله تعالى : ﴿بَلَىٰ﴾ ردًا لقولهم: ﴿ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ ﴾ أى: ليس كما تقولون .

[تفسير القرطبى : ٤/ ١١٨]

يرهق الكون ولايتم إنجازًا ما . وفى حياتنا العادية نحن نطفىء أنوار منازلنا ليلاً ، ونترك فيها «صباحاً ضيئل الضوء من أجل ألا يصطدم أحد بأى شىء عندما يستيقظ ليلاً، وكذلك النور فى الكون كله، إن الشمس أثناء النهار تضىء الكون، ثم يأتى القمر من بعد الشمس؛ ليعطى بعضاً من الضوء، وكذلك النجوم بمواقعها لتهدى الناس.

لقد جعل الله هذه الكائنات من أجل ألا تتصادم الحركة المادية للموجودات، فإذا كان الله قد صنع نورًا مادياً حتى لا يصطدم مخلوق بمخلوق، فهو القادر على ألا يترك القيم والمعانى والموازين بدون نور. إن الإنسان بقيمه ومعانيه لا بمبانيه، فإذا كان الحق قد قدّر للمبانى ألا تصطدم، وألا تتأثر بأشياء، فخلق لنا النور لنمشى على هدى، ولما كان النهار محل الحركة الاجتماعية، صنع لنا الحق فيه نوراً هو الشمس، ولما كان الليل محل السكون صنع لنا الحق فيه نور القمر، وجعل لنا النجوم لتهدينا: ﴿ وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ (١) [النحل: ١٦] .

---

(١) قال الشوكانى فى قوله تعالى : ﴿ وَعَلامَاتٍ ﴾ :أى وجعل فيها علامات ، وهى معالم الطرق، والمعنى : أنه سبحانه جعل للطرق علامات يهتدون بها ﴿ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ المراد بالنجم: الجنس،أى يهتدون به فى سفرهم ليلا. وقرأ ابن وثاب: «وبالنُجُم » بضم النون والجيم ، ومراده : النجوم ، فقصره ، أو هو جمع نجم كسقف . وقيل : المراد بالنجم هنا : الجدى ، والفرقدان . قاله الفراء. وقيل : الثريا. وقيل: العلامات : الجبال. وقيل: هى النجوم؛ لأن من النجوم ما يهتدى به . ومنها ما يكون علامة لا يهتدى بها . وذهب الجمهور إلى أن المراد فى الآية : الاهتداء فى الأسفار . وقيل : هو الاهتداء إلى القبلة. ولا مانع من حمل ما فى الآية على ماهو أعم من ذلك. قال الأخفش: تم الكلام عند قوله: ﴿ وَعَلامَاتٍ ﴾ . وقوله: ﴿ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ كلام منفصل عن الأول .

[فتح القدير : ٣/١٥٧]

إذن . . ألا يُوجِدُ الحق نوراً للقيم؟

إن الحق خلق نور القيم ليهدى الإنسان سواء السبيل، فإذا كان الكافر أو الملحد يتساوى مع المؤمن فى الاستفادة بالنور المادى لحماية الحركة المادية فى الأرض - ولم نجد أحداً يقول: إننا فى غير حاجة للانتفاع بالنور المادى- فإننا نقول للكافرين والملحدين : ما دمتم قد انتفعتم بهذا النور، فكان يجب أن تقولوا: إن لله نوراً فى القيم يجب أن نتبعه، ويلخصه المنهج : «افعل ولا تفعل».

إن المنهج نور من الله ولتقرأ: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥] إنه يأخذ بيدنا فى الطريق بالنور المادى الذى يستفيد منه الكل، سواء كان مؤمناً أو غير ذلك(١)، ويضرب الحق لنا مثل النور: ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ [النور: ٣٥] والمشكاة: هى الطاقة التى توجد فى الجدار، وهى غير النافذة،إنها كُوَّة فى الجدار يوضع فيها المصباح الزيتى أو الكيروسينى، وتوجد فى المبانى البدائية قبل أن يخترع الإنسان المصابيح الكهربية، والثريات والكوة بالنسبة للحجرة لا تتجاوز مساحتها ثلاثين سنتيمتراً، ولا

---

(١) قال الماوردى فى قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ : فيه أربعة أقاويل :

أحدها : معناه الله هادى السموات والأرض ، قاله ابن عباس ، وأنس .

الثانى : الله مدبر السموات والأرض ، قاله مجاهد .

الثالث : الله ضياء السموات والأرض ، قاله أُبى .

الرابع : منور السموات والأرض .

فعلى هذا فيما نورهما به ثلاثة أقاويل :

أحدها : الله نوَّر السموات بالملائكة ، ونوَّر الأرض بالأنبياء .

الثانى : أنه نوَّر السموات بالهيبة ، ونور الأرض بالقدرة .

الثالث : نوَّرهما بشمسهما وقمرهما ونجومهما ، قاله الحسن ، وأبو العالية .

[تفسير الماوردى : ٤/ ١٠١، ١٠٢] .

يزيد عمقها عن خمسة عشر سنتيمترًا . . أما الحجرة فمساحتها تزيد أحيانا على ثلاثة أمتار، فى الطول والعرض والارتفاع. ويتحدث الحق عن الكوة فقط ولا يتحدث عن الحجرة، إن أى مصباح فى الكوة قادر على إنارة الحجرة(١)، ولننتبه إلى أن المصباح غير عادى . . إنه مصباح فى زجاجة، وهو من الارتقاءات الفكرية للبشر، فالمصابيح قديماً كانت بدون زجاج، وكان يخرج منها ألسنة من السناج(٢) الذى يسود حولها ، وقد ينطفئ المصباح؛ لأن الهواء يهب من كل ناحية . ثم وضع الإنسان حول شمعة المصباح زجاجة تحمى النار، وتوضح النور، وتعكس الأشعة، ويأخذ المصباح من الهواء من خلال الزجاجة على قدر احتياج الاشتعال ﴿ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ﴾ [النور: ٣٥] ؛أى أن النور من هذا المصباح أشد قوة؛ لأن الزجاجة تعكس أشعة المصباح، وتنشر الضوء

---

(١) المشكاة من كلام العرب ، قال: ومثلها ، وإن كان لغير الكوة،الشكوة ، وهى معروفة ، وهى الزُّقَيْق الصغير أول ما يعمل مثله ؛ قال أبو منصور : أراد - والله أعلم - بالمشكاة قصبة الزجاجة التى يُستصبح فيها ، وهى موضع الفتيلة، شُبهت بالمشكاة وهى الكوَّة التى ليست بنافذة . [لسان العرب : ١٤/ ٤٤١]
وقال الماوردى فى قوله تعالى : ﴿ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾ فيه خمسة أقاويل :
أحدهما : أن المشكاة كوة لا منفذ لها والمصباح السراج ، قاله كعب الأحبار .
الثانى : المشكاة القنديل والمصباح الفتيلة ، قاله مجاهد .
الثالث : المشكاة موضع الفتيلة من القنديل الذى هو كالأنبوب ، والمصباح الضوء، قاله ابن عباس .
الرابع : المشكاة الحديد الذى يعلق به القنديل وهى التى تسمى السلسلة، والمصباح هو القنديل ، وهذا مروى عن مجاهد أيضًا .
الخامس: أن المشكاة صدر المؤمن والمصباح القرآن الذى فيه والزجاجة قلبه، قاله أُبى، قال الكلبى : والمشكاة لفظ حبشى معرب . [تفسير الماوردى : ٤/ ١٠٢ ، ١٠٣]
(٢) ابن سيده : السِّناج أثر دخان السِّراج فى الجرار والحائط .

فى كل المكان [1]. والزجاجة التى يوجد فيها هذا المصباح ليست عادية ﴿الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ [النور:٣٥] ؛ إن الكوكب نفسه مضىء ، وتكون الزجاجة كأنها هذا الكوكب الدرى فى ضيائه ولمعانه.

والمصباح يوقد من ماذا؟ ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مبارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ﴾ [النور: ٣٥] إنه ارتقاء فى إضاءة المصباح من زيت شجرة زيتون، والشجرة غير عادية ﴿لاشَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ﴾[1] [النور: ٣٥]؛ إنها شجرة يتوافر بها أدق أنواع الاعتدال ﴿نورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ [النور: ٣٥] إن ذلك هو من قدرة الله فى نور الكونيات المادية؛ ولذلك فليس من المعقول أن يترك القيم والمعنويات دون نور . فكما اهتدى الإنسان فى الماديات، كذلك لابد من هداية المعنويات؛

بدليل أن الله قال: ﴿يَهْدِى اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [النور: ٣٥] ، يهدى الله بنور القيم والمنهج والمعانى من يريد. إن الملحد قد يهتدى بنور الشمس المادى إلى الماديات، ولكن بصره أعمى عن رؤية نور المنهج والقيم ؛ لذلك فالحق يوضح أن هناك نوراً إلهياً هو المنهج.

والحق ضرب هذا المثل ليوضح المعانى الغيبية المعنوية بالمعانى الحسية. ونحن على مقاديرنا نستضىء. فالفقير أو البدائى يستضىء بمصباح غازى، والذى فى سعة من العيش قد يشترى مولدا كهربياً ، وكل إنسان يستضىء

---

(١) قال الزجاج : النور فى الزجاج وضوء النار أبين منه فى كل شىء وضوؤه يزيد فى الزجاج ؛ ووجه ذلك : أن الزجاج جسم شفاف يظهر فيه النور أكمل ظهور.
[فتح القدير : ٤/ ٣٤]

(٢) عن الحسن فى قوله : ﴿زَيْتُونَةٍ لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ﴾ قال : لو كانت فى الأرض هذه الزيتونة لكانت شرقية أو غربية ، ولكن والله ما هى فى الأرض ، وإنما هو مثل ضربه الله لنوره ». [تفسير الحسن البصرى : ٢/ ١٥٩]

بحسب قدرته . ولكن عندما تشرق الشمس فى الصباح ما الذى يحدث ؟

إن الإنسان يطفئ تلك المصابيح، فالشمس هى نور أهداه الله لكل بنى الإنسان ولكل الكون . كذلك إذا فكرنا بعقولنا فيما ينير حياتنا فكل منا يفكر بقدرة عقله، ولكن إذا نزل من عند الله نور فهو يغنى عن كل نور آخر.

وكما نفعل فى الماديات نفعل فى المعنويات ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ﴾ [النور: ٣٥] .

والذى يدلنا على أن النور الثانى هو نور القيم - الذى يكشف لنا بضوء «افعل ولا تفعل» - أن الله قال بعد ذلك: ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ﴾ ولو بحثت عن متعلق الجار والمجرور فى قوله : ﴿فِى بُيُوتٍ﴾ لم تجد، كأن النور على النور يأتى من مطالع الهدى فى مساجده، إنها بيوت الله نقبل عليها ليفيض منها نور الحق على الخلق(١).

﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ ،وقوله:

---

(١) قال الرازى فى قوله تعالى: ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ﴾ :يقتضى محذوفًا يكون فيها، وذكروا فيه وجوها :

أحدها : أن التقدير: كمشكاة فيها مصباح فى بيوت أذن الله، وهو اختيار كثير من المحققين.

وثانيها : التقدير توقد من شجرة مباركة فى بيوت أذن الله أن ترفع .

وثالثها : وهو قول أبى مسلم أنه راجع إلى قوله: ﴿وَمَثَلاً مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ﴾ اى ومثلا من الذين خلوا من قبلكم فى بيوت أذن الله أن ترفع ، ويكون المراد بالذين خلوا : الأنبياء والمؤمنين ، والبيوت : المساجد .

[تفسير الرازى : ٤ / ٢، ٣]

﴿ لاتُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ ﴾ [النور: ٣٦، ٣٧]، لا يعنى تحريم التجارة، فإن للإنسان الحق فى التجارة؛ بشرط ألا تلهيه عن ذكر الله ، وليكن ذكر الله على لسان المؤمن دائماً . فعندما يكون الإنسان على ذكرٍ لله ؛ فالله يعطيه من مدده(١) .

ولذلك قال الحق عن صلاة الجمعة : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً ﴾ [الجمعة: ١٠] .

وإياكم أن تقولوا: إن لله منفعةً فى اللقاء به ساعة نادانا للصلاة، بل إن النفع كله لنا . وكلما استقبل الإنسان خيرًا من الله يشكره؛ لأنه صاحب كل عطاء، وكلما استقبل الإنسان نعمة فليشكر معطيها ، فليس لله أوقات محددة للقاء به ؛ إنما كل الحياة متصلة بعطائه سبحانه وتعالى.

إذن . . يا أهل الكتاب ، النور قد جاء ، وبيّن لكم الرسول كثيراً مما تختلفون فيه، وتسامح عن كثير من أخطائكم. ويريد الرسول أن يجرى لكم تصفيه شاملة . ومادام النور قد جاء؛ فيصح أن تلتفتوا وتنتبهوا، وتعدّلوا من موقفكم تجاه هذا الدين الجديد . ومادام النور المعنوى قد جاء بالمنهج الشامل؛ فلتبحثوا ماذا يريد الله بهذا المنهج؟ إن الله تعالى ضرب

---

(١) قال الجصاص : وقوله تعالى : ﴿ رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ ؛ روى عن الحسن فى هذه الآية : « والله كانوا يتبايعون فى الأسواق ، فإذا حضر حق من حقوق الله بدءوا بحق الله حتى يقضوه ثم عادوا إلى تجارتهم » .
وعن عطاء قال : « شهود الصلاة المكتوبة » .
وقال مجاهد : ﴿ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ قال : « عن مواقيت الصلاة » .
ورأى ابن مسعود أقوامًا يتّجرون ، فلما حضرت الصلاة قاموا إليها ، قال: « هذا من الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿ رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ ».
[أحكام القرآن : ٣/ ٤٧٧]

المثل بالنور، وهذا النور يهدى إلى: «افعل ولا تفعل» ، ومن الذى يقول لنا: إن هذا النور قادم من الله ؟ إنه الرسول . ومن الذى يدلنا على أن هذا الرسول صادق فى البلاغ عن الله ؟ إن الذى يدل على صدقه هو قول الله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤] .

فالذى جاء أولاً هو البرهان على أن رسول الله صادق فى البلاغ عن الله، وعندما نعرف أن الرسول صادق ؛ فهو يبلغنا أن الكتاب قد جاء بالمنهج، والقرآن يتميز بأنه البرهان على صدق النبى، وهو المنهج النورانى، فالبرهان هو الحجة على صدق الرسول فى البلاغ عن الله(١).

هذا الكون فيه معطيات،وهو كون محكم. نحن نرى إحكامه فيما لا دخل لحركتنا فيه : ﴿لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ [يس: ٤٠] ،إنه كون موزون بالسماء والأرض وحركة الرياح وغير ذلك.

إن الأمور التى لا دخل للإنسان فيها نجد القوانين فيها مستقيمة تمام الاستقامة . فإن أراد الإنسان أن يأخذ المعطيات من الكون ؛ فيجب عليه أن يأخذها من ذلك الكون الذى لا دخل له به، وليأخذ فى اعتباره النظر إلى الأمور التى للإنسان دخل فيها. وسوف يجدها تتعرض للفساد؛ ذلك

---

(١) قال القرطبى: قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ يعنى محمدا ﷺ؛ عن الثورى ؛ وسماه برهانا لأن معه البرهان وهو المعجزة .
وقال مجاهد : البرهان ههنا الحجة والمعنى متقارب ؛ فإن المعجزات حجته ﷺ .
والنور المنزل هو القرآن ؛ عن الحسن ، وسماه نوراً ؛ لأن به تتبين الأحكام ويهتدى به من الضلالة ، فهو نور مبين ، أى واضح بيِّن . اهـ .
[تفسير القرطبى : ٦/٢٧]

أن الهوى البشرى له مدخل على هذه الأشياء. لكن الخالق الأعلى لا تطوله ولا تتناوله أمور الهوى؛ ولذلك يقول الحق: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٧] ،فلا السماء تنطبق على الأرض ، ولا كوكب يزاحم كوكبًا آخر.

ويبين لنا الحق كيفية السير بنظام للكون: ﴿أَلا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾ فإن أردتم أن تكون حركتكم منتظمة فانظروا إلى ما ليس لأيديكم دخل فيه، واصنعوه كما ليس لأيديكم دخل فيه: ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾(١) [الرحمن: ٩] ، فإن كنتم معجبين باتزان الكون الأعلى؛ فذلك لأنه مصنوع بنظام دقيق لا دخل للإنسان فيه. وإذا كان الحق قد وضع لنا نظامًا دقيقًا، هو المنهج بـ «افعل كذا ولا تفعل كذا» . فذلك حتى لا تفسد حركتك الاختيارية إن اتبعت المنهج، وتصرفت فى حياتك بمنهج الله؛ وذلك حتى يكون الميزان معتدلا.

إن الحق سبحانه وتعالى قد أعطانا معطيات عندما ينظر الإنسان فيها نظرا فطريا بدون هوى؛ فإنها تأخذ بيده إلى الإيمان بأن هذه الكائنات الموزونة لابد لها من خالق ؛ لأن الإنسان طرأ عليها، ولم تأت هى من

---

(١) قال ابن كثير فى قوله تعالى : ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ يعنى : العدل ، كما قال تعالى : ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ وهكذا قال ههنا : ﴿أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾ اى خلق السموات والأرض بالحق والعدل ؛ لتكون الأشياء كلها بالحق والعدل ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ اى لا تبخسوا الوزن، بل زنوا بالحق والقسط ، كما قال تعالى : ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾.

[تفسير ابن كثير : ٤/ ٢٧٢]

بعد خلق الإنسان، ومادام الإنسان قد جاء إلى الوجود ووجَدَ هذا الكون؛ فلا أحد من البشر يدعى أنه صنع هذا الكون. إذن.. لابد من البحث عمن صنع هذا الكون الدقيق، والدعوَى حين تسلم من الضعف: أتكون صادقة أم غير صادقة ؟ مثلاً عندما نجلس فى حجرة بها بعض الناس، وبعد انصرافهم نجد حافظة بها نقود فنحن نتساءل : من الذى سقطت منه هذه الحافظة ؟ ونستعرض أسماء الذين كانوا حضورًا ، ونرسل إلى كل منهم لنسأله إن كان فقد شيئًا ، وقال الجميع: إنهم لم يفقدوا أى شىء إلا واحدًا قال: أنا ضاعت منى حافظة نقودى ولم يدَّع واحد من الحضور أنها محفظته، فإن هذا الرجل تسلم له محفظته؛ لأنه ادعاها . فما بالنا بالله الذى قال أنه خلق السماء والأرض والكون ؟!هل جاء أحد وادعى وقال: أنا الذى خلقت؟ لم يأت .

إذن.. يثبت الأمر لله إلى أن يوجد مدع، ولن يوجد. وضربت من قبل مثلاً : قد يوجد إنسان فى الصحراء بدون طعام أو شراب، وأصابه من التعب نوم فنام، ثم استيقظ ووجد مائدة عليها أطايب الطعام والشراب، ألا يفكر فى الذى أحضر له هذه المائدة؟ بالله ألم يكن من الواجب بعد أن نطرأ على الكون وفيه هذا الإعجاز، ونرى كل هذه الخيرات أن نتساءل : كيف تم صنع كل ذلك ؟

إن الإنسان الذى يسير فى الصحراء ،ويمر بموقف العثور على طعام ومائدة من بعد غفوة لابد أن يسأل عن الذى صنعها وأحضرها، ويفكر فى شكر الصانع والواهب قبل أن يأكل من هذا الطعام.

فإذا ما علم مكانه يذهب إليه ويشكره، فما بالنا بهذا الكون الدقيق النظام وبهذه الحكمة! هل تخدمنا الشمس من تلقاء نفسها، وكذلك

الأرض، وكذلك الهواء، وكذلك الماء؟ كان لابد أن تكون مهمة العقل البشرى أن يفكر ويقدح الذهن؛ ليتعرف على صانع هذا الكون، وكان لابد أن يتوجه بالشكر لمن جاء ليحل هذا اللغز.

وقد جاءت الرسل لتحل لنا هذا اللغز، إن الرسل قد جاءت لتدلنا على مطلوب عقلى فطرى[1]، ولم يقتحموا علينا حياتنا، ولكنهم جاءوا بالمطلوب لنا ولو أننا سلسلنا الوجود لوجدنا أن الإنسان هو سيد هذا الوجود.. لماذا؟

لأن كل الكائنات فى خدمته، ومن هذه الكائنات التى تخدم الإنسان الحيوان، ويتميز عنه الإنسان بالعقل، وهناك جنس تحت الحيوان هو النبات فيه النمو، وهناك جنس أدنى وهو الجماد. وكل هذه الأجناس مهمتها خدمة الإنسان، والجماد ليس هو الشىء الجامد، بل إن الهواء جماد، والشمس والتربة جماد، وكل ذلك يمارس مهمته فى الوجود لخدمة الأجناس الأعلى منه، ويستفيد منها الإنسان. إن الحيوان يستفيد من الجماد، وكذلك النبات يستفيد من الجماد، والحيوان يستفيد من النبات والجماد، والمحصلة النهائية هى خدمة الإنسان.

إذن.. أليس من اللائق والواجب أن يسأل الإنسان نفسه: من الذى

---

(١) قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُوا فِى الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [النحل: ٣٦]، قال البقاعى فى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ﴾ اى والله لقد ﴿بَعَثْنَا﴾ اى على ما لنا من العظمة التى من اعترض عليها أخذ ﴿فِى كُلِّ أُمَّةٍ﴾ من الأمم الذين قبلكم ﴿رَّسُولاً﴾ فما بقى فى الأرض أحد لم تبلغه الدعوة. [نظم الدرر: ١١/١٥٦]

وهبه كل هذه المكانة؟ فإذا جاء الرسول ليحل هذا اللغز، ويبلغنا أن الذى خلق الكون هو الله، وهذه هى صفاته ، ويطلب الرسول من البشر اتباع المنهج، ويبلِّغك أن هذا المنهج جاء من الله، ويحمل معه معجزة دليل صدق البلاغ عن الله، وهى معجزة لا يقدر عليها البشر ، ويتحدى الرسول البشر أن يأتوا بمثل معجزته. إذن لابد أن يؤمن كل البشر لو صدقوا الفهم وأخلصوا النية .

ما هو البرهان إذن؟ البرهان: هو المعجزة الدالة على صدق الرسول فى البلاغ عن الله . هذا البلاغ عن الله الذى بحث عنه العقل الفطرى، وآمن أنه لابد أن يكون واجب الوجود لكنه لم يتعرف على أنه الله . إن الرسول هو الذى يبلغنا عن «الله»، وهو الذى يقدم لنا المنهج .

إذن.. فمجىء الرسل أمر منطقى تحتمه الفطرة ويحتمه العقل .

* اليهود والكذب على الله *

يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴾ [الكهف: ٤] ، مع أنه سبحانه قال قبل ذلك: ﴿ لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ ﴾ [الكهف: ٢] ، إلا أنه أكد الإنذار هنا لمن يدعى على الله كذباً بأنه سبحانه اتخذ ولداً، فكأن الإنذار الأول لمطلق كفران ومعصية، والإنذار الثانى إنذار خاص للذين ادَّعوا أن لله تعالى ولداً، مع أنهم داخلون فى الإنذار الأول [1]، ولكن الحق سبحانه خصهم بإنذار موجه لهم ؛ نتيجة افترائهم على الله، ولذلك يقول الحق سبحانه فى آية أخرى: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (٨٩) تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (٩٠) أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا (٩١) وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا (٩٢) إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا (٩٣) ﴾ [مريم] [2] .

---

(١) قال ابن الجوزى فى قوله تعالى : ﴿ لِّيُنذِرَ بَأْسًا ﴾ أى : عذابًا ﴿ شَدِيدًا ﴾ ، ﴿ مِّن لَّدُنْهُ ﴾ أى : من عنده ومن قِبَله ، والمعنى لينذر الكافرين .
﴿ وَيُنذِرَ ﴾ بعذاب الله ﴿ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴾ [الكهف:٤] ، وهم اليهود حين قالوا: عزير ابن الله، والنصارى حين قالوا: المسيح ابن الله، والمشركون حين قالوا: الملائكة بنات الله. [زاد المسير : ٥/٧٣]

(٢) عن أبى موسى الأشعرى قال : قال رسول الله ﷺ : « لا أحد أصبر على أذى يسمعه من الله عز وجل ،إنه يُشرك به ، ويُجعل له الولد ، ثم هو يعافيهم ويرزقهم ». أخرجه البخارى [٦٠٩٩ ، ٧٣٧٨] ، ومسلم [٤٩/٢٨٠٤] واللفظ له.

هذه القضية التى قالوها لا علم لهم بها، فليس عندهم عنها علم ذاتى أو علم موروث؛ لأن العلم إما أن يكون ذاتيا رأيته أنت، وإما أن تكون ورثته عن أحد. فهذا الزعم الذى افتروه على الله لا علم لهم به، ولم يرثوه عن أحد. فهو أمر لا واقع له.

وعدم العلم ينشأ من أمرين: إما لأن الشىء موجود وأنت لم تعلم به؛ لأنه مستور عنك.

وإما أن الشىء ليس له وجود، فأنت لا تعلم أنه غير موجود.

لذلك رد الحق سبحانه على زعمهم بقوله تعالى: ﴿ **مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلا لآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا** ﴾ [الكهف: ٥]

﴿ **كَبُرَتْ** ﴾: أى عظمت؛ لأنها مسألة فظيعة جداً أن تخرج هذه الكلمة من أفواههم، والكلمة هى: ما قالوه من أن الله اتخذ ولداً، وهذه جملة وليست كلمة، ولكن فى اللغة تطلق الكلمة ويراد بها الكلام.

ولذلك نحن نقول: فلان ألقى كلمة فى افتتاح مؤتمر كذا، وأعجب بها الناس وصفقوا له. فهو لم يلق كلمة واحدة ولكنه تكلم كثيراً.

وأنت أحياناً تتحدث مع إنسان فترة طويلة - وربما يختلف معك أو يجادل - فتقول له فى نهاية الحديث: انظر، هى كلمة واحدة، لابد من عمل كذا وكذا وأنت حر.

فالكلمة تطلق ويراد بها الكلام الكثير، مثل قول الله تعالى: ﴿ **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ** ﴾ [آل عمران: ٦٤] ، فهذه ليست كلمة واحدة ولكنها كلام كثير(١)،

---

(١) الكَلِمة: بفتح الكاف وكسر اللام لغة أهل الحجاز. وتميم تقول: كِلْمة: بكسر الكاف=

وعظمت الكلمة؛ لأنها خرجت من أفواههم، ولكن لو كتموها ولم يعلنوها لكانوا مؤمنين؛ لأنهم استعظموا أن يقولوا ما فى نفوسهم. ولذلك لما جاء وفد اليمن إلى الرسول ﷺ، قالوا: يا رسول الله، إننا تدور بخواطرنا أفكار عن الله نتعاظم أن نقولها، أى: لا نقدر أن نقولها، فقال الرسول ﷺ: «ذلك صريح الإيمان» (١) .

إذن.. فالمعيب عليهم أنهم أخرجوها من أفواههم؛ لأن هذا كذب وادّعاء فى القمة؛ لأنهم يقولون ذلك عن الحق سبحانه وتعالى .

= وسكون اللام. وحكى الفراء فيها ثلاث لغات: كَلِمة بفتح فكسر، وكِلْمة بكسر فسكون وكَلْمة بفتح فسكون مثل: كَبِد وكِبْد وكَبْد .

الكلمة فى اللغة:

تطلق الكلمة فى اللغة على الحرف الواحد من حروف الهجاء. وتقع على لفظة مؤلفة من جماعة حروف ذات معنى. وتقع على القصيدة بكمالها والخطبة بأسرها، يقال: قال الشاعر فى كلمته أى فى قصيدته، وتقع على الجملة المفيدة. فتطلق على كلمة التوحيد، قال تعالى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾ [الزخرف: ٢٨] قال الزجاج: عنى بالكلمة كلمة التوحيد وهى: «لا إله إلا الله» جعلها باقية فى عقب إبراهيم لايزال من ولده من يوحد الله عز وجل.

وقال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ .

وفسر الكلمة بعد ذلك بقوله: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٦٤]

[مرشد المريد فى النحو بين التقليد والتجديد : ٦٨-٦٩]

(١) أخرجه مسلم [٢٠٩/١٣٢] عن أبى هريرة بلفظ: جاء ناس من أصحاب النبى ﷺ فسألوه: إنا نجد فى أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به. قال: «وقد وجدتموه؟» قالوا: نعم: قال: «ذاك صريح الإيمان».

وأخرجه أحمد فى المسند [٤٥٦/٢] بلفظ: عن أبى هريرة عن النبى ﷺ أنهم قالوا: يا رسول الله، إن أحدنا يحدث نفسه بالشىء ما يُحبُ أن يتكلم به وأن له ما على الأرض من شىء؟ قال: «ذاك محض الإيمان». وأخرجه ابن حبان [١٤٦] وقال الأرناؤوط: إسناده حسن.

والكذب: ألا يطابق كلامك واقع الأمر، ومعنى: ﴿**إن يقولون إلا كذبا**﴾ أى: ما يقولون إلا كذباً وافتراء، والعاقل قبل أن يتكلم يمرر الكلام على عقله قبل أن ينطق به لسانه .

فإذا قلتُ مثلا: محمد مجتهد. فقبل أن أقول لك: محمد مجتهد، جال بخاطرى أن أخبرك عن اجتهاد محمد، فهذه تسمى نسبة ذهنية، وبعد ذلك حدثتك به فتصير نسبة كلامية. تُرى هل يوجد واحد اسمه محمد وهو مجتهد فعلا؟ إن كان موجوداً تكون النسبة الذهنية ـ التى جعلتْ النسبة الكلامية تأتى ـ سبقتها نسبة واقعية فيكون الخبر صادقا . فالنسبة الكلامية إن كان لها واقع قبلها مطابق لها فهذا صدق، وإن لم يكن لها واقع فلا يوجد محمد، أو يوجد ولكنه غير مجتهد؛ فالنسبة الكلامية لم تطابق الواقع. وإن كانت النسبة الواقعية لم تحدث بعد، مثلما أقول لك: ذاكر دروسك، فقبل أن أكلمك ورد هذا الكلام فى ذهنى؛ فالنسبة الكلامية جاءت بعد النسبة الذهنية ، فالواقع سيحدث بعد أن أتكلم.

إذن. .الكلام الذى يسمونه إنشاء هو الذى تتأخر نسبته عن الكلام، والكلام الذى يسمونه خبرا هو الذى تتقدم نسبته عن الكلام، فإن كانت النسبة الخارجية مثل النسبة التى تقولها فهذا صدق، وإن كانت النسبة التى تقولها غير النسبة الخارجية فهذا كذب. وعلى ذلك فالكلام إما أن تكون له نسبة خارجية قبل الكلام أو لا تكون، فإن كان له نسبة خارجية وطابقها كلامك فهو صدق، وإن لم يطابقها فهو كذب، وإن كانت النسبة الخارجية ستحدث بعد أن تتكلم فهذا كلام إنشاء وليس خبرا (١) .

---

(١) الخبر: كلام يحتمل الصدق والكذب لذاته .

والإنشاء: كلام لا يحتمل صدقاً ولا كذباً لذاته . [جواهر البلاغة : ٥٣ ، ٧٥]

إذن . . الكذب ألا تطابق النسبة الكلامية الواقع، ولكن ماذا لو خالفت الاعتقاد؟ التدقيق العلمى يجعلنا نقول : فيه اعتقاد وفيه واقع، فالصدق الحقيقى أن النسبة الكلامية تطابق الاعتقاد والواقع، وإن كنت تعتقد فى شيء ولكنه لم يحدث؛ ففى هذه الحالة النسبة كاذبة وأنت غير كاذب . فهناك فرق بين الخبر وبين المخبر.

فمثلا القرآن حين تحدث عن المنافقين قال: ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾ [المنافقون: ١] .

فقولهم: إنك لرسول الله قضية موافقة للواقع، ولكنها لم توافق معتقدهم فالذى قالوه موافق لقول الله سبحانه، ولكنه سبحانه وتعالى قال: ﴿ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾ [المنافقون: ١] ، مع أنهم شهدوا أنه رسول الله . . لماذا؟ لأن كلامهم لا يطابق واقعهم، وإن قالوه باللسان وأنكروه فى أنفسهم. أو لأن التكذيب لم يرد على المقول، وإنما ورد على الجملة كلها؛ لأنهم قالوا: ﴿ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ﴾ ، فالله يكذبهم فى أنهم يشهدون أنه رسول الله؛ لأن الشهادة أن يطابق الكلام الواقع [1] وهم قالوا بألسنتهم وأنكروا بقلوبهم. هنا لما قالوا: ﴿ وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴾ هذه نسبة كلامية ولكن ليس لها واقع، ومادام ليس لها واقع فهى كذب.

(١) قال الراغب الاصفهانى: والشهادة قول صادر عن علم حصل بمشاهدة بصيرة أو بصر. [المفردات فى غريب القرآن: ٢٧٥]

* الحقد يأكل قلوبهم *



﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [فاطر: ٨] إن الذين فقدوا التمييز وضلوا، وزين لهم الشيطان أعمالهم، أو زينت لهم أنفسهم الكفر والضلال، فرأوا ذلك حسنا - هؤلاء هم الذين اختاروا الضلال طريقا لهم، أما الذين اختاروا الإيمان واهتدوا فهؤلاء هم الذين أنقذوا أنفسهم بالإيمان، لذلك فلا تهلك نفسك بالحسرة يا محمد حزنا على الضالين، ذلك أن الله محيط بما يصنعون.

إن الحق جل وعلا لن يسأل رسوله عن الذين اختاروا الجحيم مصيرا لهم، ذلك أن الحق قد خلق الخلق ولهم الخيار فى الإيمان أو المعصية، إن الحق يعلم أن الرحمة فى قلب رسوله تأمل أن يذوق الضالون حلاوة الإيمان بالمنهج، لكن ذلك أمر زائد فى التكليف الرسالى، إن الضالين هم أصحاب الجحيم، وإذا سمعنا كلمة «الجحيم» فلنا أن نعرف أنها مأخوذة من «جحمت النار» أى تأججت واضطرمت وتداخل لهبها مع لهيبها، ويتداخل كل لهب مع الآخر فلا تنتهى النار بالخمود، وإنما هى دائمة الاشتعال واللمعان ولافتة للنظر (١).

---

(١) جحم: الجحمة شدة تأجج النار ومنه الجحيم، وجحم وجهه من شدة الغضب، استعارة من جحمة النار وذلك من ثوران حرارة القلب.

[المفردات فى غريب القرآن: ٨٦]

ولقد طمع الرسول الكريم فى أن يذوق هؤلاء الضالون حلاوة الإيمان،(1) بينما كان هؤلاء الضالون من أهل الكتاب يكيدون لرسول الله ﷺ، لقد طلبوا هدنة، وادعوا كذبا أنهم فى هذه الهدنة سوف ينظرون فى أمر اتباع الرسول الكريم، ويريد الله أن يقطع عليهم سبيل المكر برسوله، فيقول الحق لرسوله منبها إلى غرق هؤلاء القوم من أهل الكتاب فى الضلال: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠] ، إن هؤلاء الذين طلبوا الهدنة حتى يتبعوا المنهج القادم من عند الله والمنزّل على رسوله محمد ﷺ إنما يريدون المكر بالرسول الكريم، إنهم يريدون أن يتبع الرسول والمؤمنون معه ملتهم، ويحاولون ذلك بالمكر والخديعة.

لقد اجتمع اليهود والنصارى فى أمر واحد، هو عدم الرضا عن المنهج القادم من عند الله، والمنزل على رسول الله، وإن اختلفوا فى غير ذلك. اليهود ترى أن الجنة لن يدخلها النصارى، والنصارى يرون أن الجنة لن يدخلها اليهود، وكل فئة - رغم اختلافهما - تحاول أن تجذب الرسول والمؤمنين بالقرآن إلى الملّة التى تدين بها (2)؛ والملّة: هى الأمر الذى التزم

---

(1) عن أنس رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «ثلاث من كُنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار» أخرجه البخارى: [١٦].

(2) قال القاسمى فى قوله تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠] : أى لأنهم يريدون أن يكونوا متبوعين على الإطلاق. وفيه مبالغة فى الإقناط من إسلامهم، وتنبيه على أنه لا يرضيهم إلا ما لا يجوز وقوعه منه، عليه السلام، ﴿قل﴾ لا يتبع رسول إلا الهدى ﴿إِنَّ هُدَى﴾ أى الذى هو الإسلام ﴿هُوَ الْهُدَىٰ﴾ أى فليس وراءه هدى. وما تدعون إليه ليس بهدى، بل هو=

به الإنسان، ودان به، ومال إليه[1] .فإن كان الإسلام فهو الحق من عند الله، وما كان غير ذلك فهو الباطل .

ومادام المكر هو وسيلة الفئتين فإن الحق يوضح المنهج الهادى: ﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِى جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ [البقرة: ١٢٠]؛ إن الحق يبلغ الرسول الكريم أن ما أنزل عليه من قرآن كريم هو الهداية الصحيحة إلى المنهج، وهو الموصل إلى مطلوب الله من العباد، فأتباع التوارة حرفوها رغم أن الله استحفظهم عليها، وأتباع الإنجيل بدلوا فيه رغم أن الله استحفظهم عليه، أما القرآن فهو المنهج المحفوظ، لا بحفْظ البشر ولكن بحفْظ الله[2]، إن القرآن هو المنهج الهادى للإسلام، وهو الموصل إلى مطلوب الله من عباده، وهدى الله هو الهدى الصحيح، أما هدى البشر فيختلف من رغبة إلى أخرى.

= هوى. كما يعرب عنه قوله: ﴿ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم ﴾ أى آراءهم الزائغة الصادرة عنهم بقضية شهوات أنفسهم ﴿ بَعْدَ الَّذِى جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ﴾ بأن دين الله هو الإسلام، أو من الدين المعلوم صحته بالبراهين الواضحة ﴿ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ ﴾ يلى أمرك ﴿ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ يدفع عنك عقابه. وإنما أوثر خطابه ﷺ ليُدخل دخولاً أوليا من اتبع أهواءهم بعد الإسلام من المنافقين تمسكا بولايتهم؛ طعما فى نصرتهم.

قال الإمام الرازى: فى الآية دلالة على أن اتباع الهوى لا يكون إلا باطلا. فمن هذا الوجه تدل على بطلان التقليد. انتهى.

وفى فتح البيان ما نصه: وفى هذه الآية من الوعيد الشديد الذى ترجف له القلوب وتتصدع منه الأفئدة، ما يوجب على أهل العلم الحاملين لحجج الله سبحانه، والقائمين ببيان شرائعه ـ ترك الدهان لتاركى العمل بالكتاب والسنة، المؤثرين لمحض الرأى عليهما. ا هـ. [تفسير القاسمى: ٢/ ٢٤١]

(١) الملة: الدين، كملَّة الإسلام، والنصرانية، واليهودية، وقيل: هى معظم الدين، وجملة ما يجىء به الرسل. وتملل وامتلَّ: دخل فى الملة.

[لسان العرب: ١١/ ٦٣١]

(٢) قال الله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩].

إن مصلحة البشر في اتباع هدى الله، وليس الميل إلى هوى أى فئة، بل إن وصف الحق لملة اليهود والنصارى بأنها من الأهواء؛ إنما ليبلِّغ الرسول والمؤمنين معه أن هؤلاء القوم قد بدلوا فى منهج الله الذى سبق أن نزله عليهم، وتعاهدوا فيه بالإيمان برسالة رسول الله، لكنهم خرجوا عن منهج الله، فصارت الملة هوى بشريا لا منهجا ربانيًا.

إن الحق يبلغ رسوله أن العلم القرآنى الذى نزل إليك بالوحى؛ هو العلم الصحيح الهادى إلى مطلوب الله من الخلق. فإن مال أحد إلى ملة أهل الأهواء من اليهود أو النصارى فلن ينصره الله، ولن يكون وليّا له، إن الله تعالى يقول: ﴿ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِى جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِى وَلَا نَصِيرٍ ﴾ [البقرة: ١٢٠] . ولنا أن نعرف أن «الأهواء» مأخوذة من الهواء، ولأن الهواء متقلب ومتغير، فذلك دليل الضلال وعدم الثبات على المنهج (١)، ومن يفعل ذلك فلن يجد من دون الله وليا يحفظه، أو نصيراً ينتصر له.

وبعد ذلك يقول الحق: ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [البقرة: ١٢١] ، إن الحق جل وعلا يوضح هنا جلال عدالته وكمال إنصافه، فبعد الحملة العنيفة على من حرفوا الكتب من أهل الكتاب وعلى المشركين، فإن الحق جل وعلا يقدم الحماية لمن لم يأخذهم تحريف التوراة، ويقدم الحماية للذين اهتدوا

---

(١) قال الراغب الأصفهانى: الهواء ما بين الأرض والسماء وقد حمل على ذلك قوله: ﴿ أَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴾ [إبراهيم: ٤٣] إذ هى بمنزلة الهواء فى الخلاء، ورأيتهم يتهاوون فى المهواة: أى يتساقطون بعضهم فى أثر بعض، وأهواه أى رفعه فى الهواء وأسقطه، قال تعالى: ﴿ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴾ [النجم: ٥٣] .

[المفردات فى غريب القرآن: ٥٤٥ ـ ٥٤٦]

بالفطرة السليمة إلى الإيمان، وليعلم الذين فكروا واهتدوا ولم يحرفوا فى التوراة، وليعلم الذين اهتدوا بالفطرة والعقل إلى الإيمان أنهم فى حماية الحق.

إن هؤلاء الذين اهتدوا بمعرفة صحيحة للتوراة، وبما فيها من بشارة برسول الله، وأولئك الذين اهتدوا بالفطرة إلى الإيمان، هؤلاء وأولئك لابد لهم أن يعرفوا أنه سبحانه عليم بخبايا أنفسهم.

إن الحق يصون احتمال الإيمان؛ ليهتدى الخلق الذين يصلون إلى الاقتناع بأن ما جاء به الرسول من عند الله هو الحق المطلق. إن الذين لم يحرفوا الكتاب، أو الذين اهتدوا بالفطرة إلى الإيمان - والحق يقدم لهم النجاة من اللجة الطاغية- يعلمون أن الرسول المبلغ عن الله يبلغهم أن الله يعلم خبايا نفوسهم، ومن هؤلاء جماعة جاءوا مع جعفر بن أبى طالب فى سفينة وكانوا أربعين من اليهود، وحضروا ليشهدوا أمام الرسول الكريم أنهم قرءوا التوراة غير محرفة، وآمنوا بما فيها، وصدقوا رسالة رسول الله لأنه مذكور فيها، ذكرًا يشير إليه بكل الوقائع، وهؤلاء يدخلون مع الذين قال عنهم الحق: ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ (١) [البقرة: ١٢١] .

(١) قال الشيخ صديق خان فى قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ ﴾ [البقرة: ١٢١] : هم اليهود والنصارى، قاله قتادة، وقيل: هم المسلمون، والكتاب هو القرآن، وقيل: من أسلم من أهل الكتاب، وقال ابن عباس: نزلت فى أهل السفينة الذين قدموا مع جعفر بن أبى طالب، وكانوا أربعين رجلاً : ثمانية من رهبان الشام منهم بحيرى الراهب والباقى من الحبشة، وقيل: هم المؤمنون عامة ﴿ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ ﴾ أى يقرءونه كما أنزل لا يغيرونه ولا يحرفونه ولا يبدلون ما فيه من نعت رسول الله ﷺ، وقيل: المراد بالتلاوة أنهم يعملون بما فيه فيحللون حلاله ويحرمون حرامه ، فيكون من تلاه يتلوه إذا اتبعه أى يتبعونه حق اتباعه ، ومنه قوله =

إن الذين لا يحرفون فى التلاوة، ويأخذون بعمق التفكير والتدبر والتأمل، ويأخذون الحقائق صافية غير مشوشة بهوى البشر، هؤلاء القوم الذين يربطون حركة حياتهم بمنهج الله، ولا يحرفون منهج الله، ولا ينقلون ما أمر به الله إلى دائرة ما حرمه الله، هؤلاء الذين يأخذون عن الله دون إدخال للهوى فى تحريف هذه الأوامر، هؤلاء هم المؤمنون بمنهج الله، وبرسالة رسول الله ﷺ . ذلك أن التحريف معناه: أن تنقل شيئاً من حق إلى باطل يراه إنسان ما فى مصلحته. فالمؤمنون هم الناجون، والكافرون هم الخاسرون، إنها نتيجة امتحان طويل، واختبار متجدد يستمر طوال حياة الإنسان، من ينجح فله الفوز والنجاح ولذة الجنة ونعيمها، ومن يفشل فله عذاب النار.

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿**يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٢٢) وَاتَّقُوا يَوْمًا لا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ (١٢٣)**﴾ [البقرة] .

إن الله يذكّر بنى إسرائيل بنعمه، ويطالبهم بالوفاء بالعهد، ويذكّرهم بأرقى النعم، ألا وهو المنهج الذى أنزله عليهم، وفيه البشارة برسالة رسول الله ﷺ وذلك هو الفضل الذى كان عليهم أن يتعرفوا من خلاله على رسول الله ﷺ ويؤمنوا به ، ويتبعوه.

= تعالى: ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا﴾ [الشمس: ٢] أى اتبعها ، قاله ابن عباس، وقال عمر ابن الخطاب: يعنى إذا مر بذكر الجنة يسأل الجنة، وإذا مر بذكر النار تعوذ من النار، وقال زيد بن أسلم: يتكلمون به كما أنزل ولا يكتمونه، عن قتادة قال: هم أصحاب محمد ﷺ، وعن الحسن قال: يعملون بمحكمه ويؤمنون بمتشابهه، ويكلون ما أشكل عليهم إلى عالمه، وقيل: يتدبرونه حق تدبره ويتفكرون فى معانيه وحقائقه وأسراره. [فتح البيان: ١/٢٦٨]

لقد كان يهود المدينة فى البداية ينقمون على أنفسهم، ويحسدون العرب أن جاء رسول الله منهم، لقد كانوا يحبون أن تظل النبوة فى بنى إسرائيل، وكانوا قبل ذلك يستفتحون على العرب؛ لأنهم كانوا أهل كتاب منزل من عند الله ، وهو التوراة، ولكن لما جاء الرسول من العرب إلى الناس كافة، بدأ الحسد يطفو من أعماق اليهود إلى سلوكهم، وبدأ الغيظ يعلو(١) ، وعندما جاء أمر الحق بتحويل القبلة ازداد الحسد والغيظ والحقد، لقد نسوا أن بيت المقدس هو بيت لله من اختيار خلق الله؛ لكن الكعبة التى تم تحويل القبلة إليها هى بيت لله باختيار الله.

---

(١) عن ابن إسحاق قال: وكانت الأحبار والرهبان من أهل الكتابين، هم أعلم برسول الله، قبل مبعثه، وبزمانه الذى يُترقب فيه من العرب؛ لما يجدونه فى كتبهم من صفته، وما أثبت فيما عندهم من اسمه، وبما أخذ عليهم من الميثاق له، فى عهد أنبيائهم وكتبهم، فى اتباعه، فيستفتحون به على أهل الأوثان من أهل الشرك، ويخبرونهم أن نبياً يبعث بدين إبراهيم عليه السلام اسمه: أحمد ﷺ، يجدونه كذلك فى كتبهم، وعهد أنبيائهم. يقول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ﴾ إلى قوله: ﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧] وقال: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾[الصف:٦] ، وقال: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٢٩] ، وقوله: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إلى قوله: ﴿فَبَاءُو بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [البقرة:٨٩].

[دلائل النبوة للبيهقى : ٢/ ٧٤ ـ ٧٥]

ثم إن إبراهيم عليه السلام لم يكن يهودياً ولا نصرانياً، إنه أبو الأنبياء؛ أبو إسماعيل ومن نسله العرب، وأبو إسحاق ومن نسله يعقوب ثم بنو إسرائيل بما فيهم يوسف وموسى وعيسى ابن مريم عليهم السلام.

إذن.. فحين تجيء النبوة إلى الناس كافة من العرب، فهذا ليس تكريما للعرب وحدهم، ولكنه تكريم للناس كافة، أما الذين يتوهمون أن أفضلية البشر تأتى من جنس معين فهم الواهمون، فالكل لآدم، وآدم من تراب[1].

---

(١) قال الإمام على كرم الله وجهه فى فضل العلم من بحر البسيط :

الناس من جهة الآباء أكفاء ... أبوهم آدم والأم حواء

وإنما أمهات الناس أوعية ... مستودعات وللأحساب آباء

فإن يكن لهم من أصلهم شرف ... يفاخرون به فالطين والماء

[ديوان الإمام على: ٢٥]

❋ أهل الكتاب ليسوا سواء ❋

لم يكن اليهود فى موقفهم من الدعوة سواء ، فمنهم من عرف الحق والتزمه؛ ولذلك كان لابد أن يفصل الله بينهم؛ حتى لا يكون الحكم حكماً عاماً ، لذلك يقول سبحانه : ﴿ لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾(1) [آل عمران: ١١٣] .

وهذا ما حدث بالفعل، لكن: أى آيات الله كانوا يتلونها؟ إنها الآيات المهيمنة، آيات القرآن. لكن لماذا يقول الحق: ﴿ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾ هل هناك قراءة للقرآن ساعة السجود؟ حتى نعرف ذلك لابد لنا أن نعرف أن اليهود لا يصلون العتمة، وحتى يعطيهم الله السمة الإسلامية قال عنهم: ﴿ يَسْجُدُونَ ﴾ ، ويعرفهم بأنهم يقيمون صلاة العتمة، وهى صلاة المسلمين. إنهم يصلون العتمة ويسجدون، إذن فهم مسلمون ﴿ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾.

إن الصلاة عنوان الخضوع والسجود، وأخضع ما يكون العبد وهو فى الصلاة، ونحن نعرف أن من السنن المعروفة قراءة القرآن وصلاة التهجد

---

(1) عن ابن مسعود قال: أخَّر رسول الله ﷺ صلاة العشاء، ثم خرج إلى المسجد، فإذا الناس ينتظرون الصلاة ، قال : « أما إنه ليس من أهل هذه الأديان أحد يذكر الله هذه الساعة غيركم» قال: وأنزل هؤلاء الآيات ﴿ لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ حتى بلغ: ﴿ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴾ أخرجه أحمد فى المسند [١/ ٣٩٦] وصححه الشيخ شاكر برقم [٣٧٦٠].

فى الليل وهذه من مدارج العملية الإيمانية التى يدخل بها الإنسان إلى مقام الإحسان .(١)

وآناء جمع إنْىً، مثلها مثل «أمعاء»، وهى جمع «معًى»، و«الآناء»: هى مجموعة الأوقات فى الليل، وليست فى «إنى» واحد(٢) . وكان المؤمنون يقطعون الليل فى قراءة القرآن .

والذى يدخل مع ربه فى مقام الإحسان، فهو لا يصلى فقط صلاة العتمة ـ وهى ستأخذ «آناً» واحدا، أى وقتاً واحداً - ولكنه عندما يصلى فى آناء الليل فذلك دليل على أنه يكرر الصلاة، وزاد عن المفترض، ومادام قد زاد عن المفترض، فمعنى ذلك أنه لا يكتفى بالإيمان، ولكنه يدخل فى مقام الإحسان (٣) ،أى أنه وجد ربه أهلا لأن يصلى له أكثر مما

---

(١) عن أبى موسى الأشعرى عن النبى ﷺ قال : « مثل الذى يقرأ القرآن كالأترجة، طعمها طيب وريحها طيب، والذى لا يقرأ القرآن كالتمرة طعمها لا ريح فيها. ومثل الفاجر الذى يقرأ القرآن كمثل الريحانة ريحها طيب، وطعمها مر، ومثل الفاجر الذى لا يقرأ القرآن، كمثل الحنظلة طعمها مر، ولا ريح لها ».

أخرجه البخارى [٥٠٢٠].

عن أبى إسحاق عن الأسود قال: سألت عائشة رضى الله عنها: كيف صلاة النبى ﷺ بالليل؟ قالت: «كان ينام أوله، ويقوم آخره فيصلى، ثم يرجع إلى فراشه، فإذا أذن المؤذن وثب، فإن كانت به حاجة اغتسل، وإلا توضأ وخرج».

أخرجه البخارى [١١٤٦].

(٢) الأَنى والإِنى : الوَهْن أو الساعة من الليل . وقيل : الساعة منه أىّ ساعة كانت والإِنى : واحد آناء الليل ، وهى ساعاته . وفى التنزيل العزيز : ﴿ وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ ﴾ قال أهل اللغة ومنهم الزجاج : آناء الليل: ساعاته، واحدها: إِنىٌ، وإنىً، فمن قال: إنىٌ، فهو مثل: نِحْيٍ وأنحاء، ومن قال: إِنىً، فهو مثل مِعىً وأمعاء.

[لسان العرب :١٤/ ٤٩ ، ٥٠]

(٣) عن أبى هريرة قال: كان النبى ﷺ بارزا يوما للناس، فأتاه رجل فقال: ما الإيمان؟ قال: « الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته، وبلقائه، ورسله، وتؤمن بالبعث». قال: =

افترضه عليه، كأنه قد قال لنفسه: أنت كلفتنى يارب بخمس صلوات لكنك يارب تستحق الصلاة أكثر من ذلك، كأنهم بدأوا فى الإسلام بجد واجتهاد فصلوا آناء الليل.

ولنر قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦)﴾[1] [الذاريات].

والمحسن هو الذى عبد الله تعالى بأكثر مما افترضه عليه، وذلك من جنس ما افترضه عليه.

إن أحداً لا يخترع عبادة، لكن المؤمن يجود من جنس ما افترضه الله، فمثلاً تعبدنا الله بخمس صلوات، فنجود بأن نصلى سنن ونوافل، وتعبدنا الله بصيام شهر فى العام، فنصوم كل شهر عدداً من الأيام، وتعبدنا الله بالزكاة بالنصاب، فنزيد من الصدقات وتعبدنا سبحانه بالحج مرة، فنزيد من العمرة والزيارة، والحج بذلك يدخل العبد فى مقام الإحسان. ولابد

= ما الإسلام؟ قال: «الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به، وتقيم الصلاة، وتؤدى الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان». قال: ما الإحسان؟ قال: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك». قال: متى الساعة؟ قال: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل. وسأخبرك عن أشراطها: إذا ولدت الأمة ربها، وإذ تطاول رعاة الإبل البُهْم فى البنيان، فى خمس لا يعلمهن إلا الله. ثم تلا النبى ﷺ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾. ثم أدبر. فقال: «ردوه». فلم يروا شيئا. فقال: «هذا جبريل جاء ليعلم الناس دينهم». قال أبو عبد الله: جعل ذلك كله من الإيمان.

أخرجه البخارى: [٥٠] واللفظ له، ومسلم [٨/١].

(١) ولسائل إن يسأل عن معنى قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ كيف يجوز أن يكون فى الجنة فى عيون، وإنما العيون فى الجنة؟

والجواب: إنهم فى الجنات والعيون محدقة بهم من كل ناحية، ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ﴾ [القمر: ٥٤]. [الروض الريان فى أسئلة القرآن: ٢/ ٤٣٤]

أن يكون ذلك بأداء عبادات من جنس ما تعبده الله به، فالعبد لا يخترع أو يقترح العبادة التى يعبد بها الله، ولكنه يزيد من جنس ما افترضه الله .

لذلك فهؤلاء الذين آمنوا بالله من أهل الكتاب؛ ويحدثنا عنهم القرآن قد اجتهدوا فى قراءة القرآن وصلاة الليل ولذلك دخلو ضمن زمرة الذين قال الله فيهم: ﴿ كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾ [الذاريات: ١٧] .

وهكذا نعرف أن أهل الكتاب ليسوا سواء، فمنهم من دخل الإسلام من باب الإحسان؛ فقال فيهم الحق: ﴿ لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾ [آل عمران: ١١٣] .

وكأن الحق بهذا الاستثناء الواضح يؤكد لنا أننا لا يجب أن نظن أن أهل الكتاب جميعهم جاء فيهم قوله: ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ [آل عمران: ١١٢]، فليس أهل الكتاب سواء، وليس حكم الله منسحباً عليهم جميعهم؛ فمن أهل الكتاب جماعة قائمة بتلاوة القرآن آناء الليل وهم يسجدون، إنهم أمة قائمة. وكلمة قائم هى ضد «قاعد»، والقعود غير الجلوس، والجلوس غير الاضطجاع، فتقول: كان مضطجعاً فجلس، وتقول: كان قائماً فقعد، والقعود فى الصلاة مريح، أما القيام فهو غير مريح، ونحن نعرف أن الرسول ﷺ كان يقف فى الصلاة حتى تتورم قدماه؛[1] لأن الثقل كله على القدمين . لكن

(١) عن المغيرة رضى الله عنه : قال: قام النبى ﷺ حتى تورمت قدماه، فقيل له: غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «أفلا أكون عبداً شكورا».

أخرجه البخارى [٤٨٣٦].

عندما نقعد فنحن نوزع الثقل على جملة أعضاء، لكن أثناء الوقوف يكون الثقل كله على القدمين.

فعندما يصفهم الحق: ﴿مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾[آل عمران: ١١٣] ، فمعنى ذلك أنهم أخذوا من أداء الفروض أعنف الحركات، ومادامت أمة قائمة[1]، فمعنى ذلك أنها تؤدى الصلاة ، فليس هناك من يقرأ القرآن وهو واقف.

وفى الآية التالية يقص علينا الحق صفاتهم فيقول جل جلاله : ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: ١١٤] .

إن لنا أن نلاحظ أنهم بالإيمان بالله واليوم الآخر، وبالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إنما أخذوا صفات أمة الحبيب محمد ﷺ التى هى خير أمة أخرجت للناس.

إن الجماعة التى دخلت الإسلام، من أهل الكتاب دخلوا من أول الأمر فى مقام الإحسان؛ لأنهم كانوا مستشرفين لظهور النبى الجديد الذى كان مكتوبًا عندهم فى التوراة والإنجيل وينتظرونه، وبمجرد أن علموا ببعثته سارعوا إليه ، وبعد أن استوثقوا منه، وعلموا أنه هو النبى المنتظر والذى حان وقت ظهوره وذلك من صفاته وأوصافه التى علموها من كتبهم دخلوا فى دين الله وصارزوا من خير أمة أخرجت للناس.

وقول الحق سبحانه: ﴿وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ وهو كمثل قوله

---

(١) وأمة قائمة أى: مستقيمة من أقمت العود فقام، أى استقام.

قال مجاهد والحسن وابن جريج: عادلة.

وقال ابن عباس وقتادة والربيع: قائمة على كتاب الله وحدوده مهتدية.

وقال السدى: قانتة مطيعة، وكلها راجع للقول الأول . [البحر المحيط: ٣/ ٣٠٩]

سبحانه وتعالى للمؤمنين: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾[1] [آل عمران: ١٣٣]

ولنا أن نعرف أن هناك فرقا بين: السرعة والعجلة، والسرعة والعجلة يلتقيان فى تقليل الزمن بالنسبة للحدث.[2]

---

(١) عن أبى هريرة قال: جاء رجل إلى النبى، فقال: يا محمد، أرأيت جنة عرضها السموات والأرض، فأين النار؟ قال: «أرأيت الليل الذى قد ألبس كل شيء فأين جعل النهار ؟ » قال: الله أعلم، قال: « كذلك الله يفعل ما يشاء».

أخرجه الحاكم فى المستدرك : [٣٦/١] وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولا أعلم له علة، ولم يخرجاه ووافقه الذهبى .

(٢) السرعة: نقيض البطء. سَرُعَ يَسْرُعُ سَرَاعة وسِرْعاً وسَرْعاً وسِرَعاً وسَرَعاً وسُرْعة، فهو سَرِع وسَرِيع وسُراع، والأنثى بالهاء، وسَرْعان والأنثى سَرْعى، وأَسْرُعَ وسَرُع، وفرق سيبويه بين سرع وأسرع فقال: أسرع طلب ذلك من نفسه وتكلفه، كأنه أسرع المشى، أى عجله، وأما سرع فكأنها غريزة. واستعمل ابن جنى أسرع متعدياً ، فقال يعنى العرب: فمنهم من يخف ويسرع قبول ما يسمعه، فهذا إما أن يكون يتعدى بحرف وبغير حرف، وإما أن يكون أراد إلى قبوله فحذف وأوصل. وَسَرَّعَ: كأسرع؛ قال ابن أحمر:

الا لا أرى هذا المُسَرِّع سابقا ولا أحداً يرجو البقية باقيا

وأراد بالبقية البقاء. وقال ابن الأعرابى: سَرِعَ الرجل إذا أسرع فى كلامه وفعاله. قال ابن برى: وفرس سريع وسراع؛ قال عمرو بن معد يكرب:

حتى تروه كاشفا قناعه تعدو به سلهبة سراعة

وأسرع فى السير، وهو فى الأصل متعد. وعجبت من سرعة ذاك وسرع ذاك، مثال صغر ذاك؛ عن يعقوب. وفى حديث تأخير السحور: « فكانت سرعتى أن أدرك الصلاة مع رسول الله ﷺ[1] ؛ يريد اسراعى، والمعنى: أنه لقرب سحوره من طلوع الفجر يدرك الصلاة بإسراعه. ويقال: أسرع فلان المشى والكتابة وغيرهما، وهو فعل مجاوز. ويقال: أسرع إلى كذا وكذا؛ يريدون أسرع المضى إليه، وسارع بمعنى أسرع؛ يقال ذلك للواحد، وللجميع سارعوا. [لسان العرب: ١٥١/٨] =

---

(١) أخرجه البخارى [٥٧٧] عن سهل بن سعد بلفظ : « كنت أتسحَّر فى أهلى ثم يكون سُرعة بى أن أدرك صلاة الفجر مع رسول الله ﷺ ».

مثال ذلك: أن يقطع إنسان المسافة من مكان إلى مكان فى زمن معين .

إن الذى يسرع فى قطع المسافة هو الذى يستغرق من الزمن أقل وقت ممكن، وبين السرعة والعجلة اختلاف. خلاف بين السرعة والعجلة، وخلاف فى المقابل، فمقابل السرعة الإبطاء. فيقال: فلان أسرع وعلان أبطأ، ومقابل العجلة هو الأناة، فيقال: فلان تأنَّى فى اتخاذ قراره، فالسرعة ممدوحة ومقابلها - وهو الإبطاء - مذموم، والعجلة مذمومة ومقابلها - وهو التأنى - ممدوح؛ لأن السرعة: هى التقدم فيما ينبغى التقدم فيه، والعجلة: هى التقدم فيما لا ينبغى التقدم فيه؛ ولذلك فمقابل السرعة وهو الإبطاء مذموم، ومقابل العجلة وهو التأنى ممدوح، ولذلك قيل فى الأمثال: فى العجلة الندامة وفى التأنى السلامة. وقال الحق: ﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [آل عمران: ١٣٣] .

= عجل: العَجَل والعَجَلة: السرعة خلاف البطء. ورجل عَجِل وعَجُل وعَجْلان وعاجل وعجيل من قوم عَجالى وعُجالى وعِجال، وهذا كله جمع عجلان، وأما عَجِل وعَجُل فلا يكسر عند سيبويه، وعَجِل أقرب إلى حد التكسير منه؛ لأن فَعِلاً فى الصفة أكثر من فَعُل، على أن السلامة فى فَعِلٍ أكثر أيضاً لقلته وإن زاد على فَعُل، ولا يجمع عجلان بالواو والنون؛ لأن مؤنثه لا تلحقه الهاء. وامرأة عَجْلى مثال رَجْلى ونسوة عَجالى، كما قالوا رَجالى، وعِجال أيضاً كما قالوا رجال.

والاستعجال والإعْجال والتَّعجُّل واحد: بمعنى الاستحثاث وطلب العجلة. وأعْجَله وعَجَّله تعجيلا إذا استحثه، وقد عَجِل عَجَلا وعَجَّل وتَعجَّل. واستعجل الرجل: حثه وأمره أن يعجل فى الأمر. ومرَّ يستعجل، أى: مر طالباً ذلك من نفسه متكلفاً إياه؛ حكاه سيبويه، ووضع فيه الضمير المنفصل مكان المتصل. وقوله تعالى: ﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ ﴾ [طه: ٨٣]؛ أى كيف سبقتهم. يقال: أعجلنى فعجلت له. واستعجلته أى تقدمته فحملته على العجلة. واستعجلته: طلبت عجلته؛ قال القطامى:

فاستعجلونا، وكانوا من صحابتنا كما تعجل فراط لوراد

وعاجله بذنبه إذا أخذه به ولم يمهله. [لسان العرب: ١١/ ٤٢٥]

إذن . . قوله تعالى: ﴿ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ ﴾ يعنى أنه كلما لمحت لهم بارقة فى الخير يسرعون إليها، أى: أنهم يتقدمون فيما ينبغى التقدم فيه. . لماذا؟

لأن الإسراع إلى الخير حدث، والحدث يقتضى حركة، والحركة تقتضى متحركاً، و المتحرك يقتضى حياة . . فما الذى يضمن لك أن تستمر حياتك للأناة وللإبطاء؟ لذلك يجب أن تسرع إلى الخيرات.

وتروى كتب التاريخ والبر أن الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه كان ينام القيلولة، وكان حاجبه يمنع الناس عن إيقاظ الخليفة، فجاء ابن عمر بن عبد العزيز وقال للحاجب:

أنا أريد أن أدخل على أمير المؤمنين الساعة فمنعه الحاجب، وقال: إنها ساعة يستريح فيها، وهو لا يستريح الليل أو النهار، فدعه يسترح. وسمع الخليفة الضجة فسأل الحاجب: ما المشكلة؟ قال الحاجب: إن ابنك يريد أن يدخل عليك،وأنا أمنعه من الدخول حتى تستيقظ،فقال عمر بن عبد العزيز للحاجب: دعه يدخل.

فلما دخل الابن على أبيه، قال الابن: يا أبى، بلغنى إنك ستُخرج ضيعة كذا لتنفقها فى سبيل الله، قال عمر بن عبد العزيز: أفعل إن شاء الله، غدا نبرمها. قال الابن متسائلاً : أَوَ أبقاك الله إلى غد؟ فقال عمر بن عبد العزيز وهو يبكى : الحمد لله الذى جعل من أولادى من يعيننى على الخير.

لقد أراد الابن من أبيه أن يسرع إلى الخير، فمادامت هبة الخير قد هبّت عليه، فعلى الإنسان أن يأخذ بها؛ لأن الإنسان لا يدرى أغيار الأحداث فى نفسه، لذلك عليه أن يسارع إلى اقتناص هبة الخير.

إن الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ ولنا أن نسأل لأى عمل هم صالحون؟ نحن نقول فى حياتنا: إن فلانا رجل صالح، ومقابله رجل طالح. إن الرجل الصالح صالح للخلافة؛ فقد جعل الله آدم وذريته خلفاء فى الأرض، إنه رجل صالح لأن يكون مستخلفا فى الأرض، إن الرجل الصالح يعرف التمييز، فيرى الشيء الصالح فى ذاته، فيترك هذا الشيء على ما هو عليه، أما الشيءالذى يرى أن يزيده صلاحا فهو يفعل. أما الرجل الطالح أو المفسد فهو يأتى إلى الشيء الصالح فيفسده ، ولا يفعل صلاحا.

إن الرجل قد يجد بئرا يأخذ منه الناس الماء، فإن لم يكن من أهل العزم فإنه يتركه على حاله، وإن كان الرجل طالحاً فقد يردم البئر بالتراب، وإن كان الرجل من أهل الصلاح والعزم فهو يهرع لخدمة الناس التى تستسقى من البئر؛ فيبنى مثلاً خزانا عاليا ويسحب الماء من البئر بآلة رافعة، ويخرج من الخزان أنابيب ويمررها إلى البيوت، فيأخذ الناس المياه وهم فى المنازل. إن هذا الرجل قد استخدم فكره فى زيادة صلاح البئر لخدمة الناس.

إذن. . فكلمة رجل صالح تعنى أنه صالح أن يكون خليفة فى الأرض، بأن يترك الصالح فى ذاته أو يزيده صلاحاً، كما أنه يُصلح غير الصالح . والرجل الصالح عندما يعمل، فإنه يجعل عمله عن عمق علم، فلا يَقْدِمُ على العمل الذى يعطى سطحية نفع ثم يسبب الضرر من بعد ذلك. مثال ذلك: حين اخترعوا المبيدات الحشرية ظنوا أنهم تغلبوا على الآفات فى الزراعة، لكنهم لم يعرفوا أنهم قد أضروا بالزراعة وبالبيئة بأكثر مما أفادوا؛ لذلك عادوا يقولون :«لا تستعملوا هذه المبيدات لأنها ذات أضرار جمة».

لهذا لابد أن نقرأ قول الله سبحانه وتعالى، حتى يكون كل عمل مبنيًا

على قواعد علمية سليمة: ﴿وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾ (١)[الإسراء: ٣٦].

والحق سبحانه يقول عمن حبط عمله لأنه لا يرعى وجه الله

---

(١) قال القرطبى فى قوله تعالى: ﴿وَلا تَقْفُ﴾ اى لا تتبع مالا تعلم ولا يعنيك.

قال قتادة: لا تقل رأيت وأنت لم تر، وسمعت وأنت لم تسمع، وعلمت وأنت لم تعلم؛ وقاله ابن عباس رضى الله عنهما. قال مجاهد: لا تذم أحداً بما ليس لك به علم؛ وقاله ابن عباس رضى الله عنهما أيضاً.

وقال محمد بن الحنفية: هى شهادة الزور.

وقال القتى: المعنى لا تتبع الحدس والظنون؛ وكلها متقاربة.

وأصل القفو: البهت والقذف بالباطل؛ ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «نحن بنو النضر بن كنانة لا نقفوا أمنا ولا ننتفى من أبينا» (١) أى: لا نسبُّ أمنا.

وقال الكميت:

فلا أرمى البرىء بغير ذنب ولاأقفو الحواصن إن قفينا.

يقال: قفوته أقفوه، وقفته أقوفه، وقفيته إذا أتبعت أثره. ومنه القافة لتتبعهم الآثار وقافية كل شيء آخره، ومنه قافية الشعر؛ لأنها تقفو البيت. ومنه اسم النبى ﷺ المقفى؛ لأنه جاء آخر الأنبياء. ومنه القائف، وهو الذى يتبع أثر الشبه.

يقال: قاف القائف يقوف إذا فعل ذلك. وتقول: فقوت الأثر، بتقديم الفاء على القاف. ابن عطية: ويشبه أن يكون هذا من تلعب العرب فى بعض الألفاظ، كما قالوا: رَعَمْلِى فى لَعَمْرِى. وحكى الطبرى عن فرقة أنها قالت: قفا وقاف، مثل عتا وعات.

وذهب منذر بن سعيد إلى أن قفا وقاف مثل جبذ وجذب. وبالجملة فهذه الآية تنهى عن قول الزور والقذف، وما أشبه ذلك من الأقوال الكاذبة والرديئة. وقرأ بعض الناس فيما حكى الكسائى «تقف» بضم القاف وسكون الفاء.

وقرأ الجرّاح: «والفاء» بفتح الفاء، وهى لغة لبعض الناس، وأنكرها أبو حاتم وغيره. [تفسير القرطبى: ١٠/ ٢٥٧، ٢٥٨]

---

(١) أخرجه ابن ماجة [٢٦١٢] من حديث الأشعث بن قيس، وأحمد فى المسند [٥/ ٢١١]، وحسّنه الألبانى فى صحيح ابن ماجة [٢١١٥].

فيه، وبالتالى لا دقة فى هذا العمل: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤)﴾ (١) [الكهف].

لقد أكرم الله من آمن من أهل الكتاب، فبعد أن وصفهم الوصف الحقيقى: بأنهم يتلون آيات الله آناء الليل، وهم يسجدون، ويؤمنون بالله واليوم الآخر، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويسارعون فى الخيرات. يحكم الحق عليهم حكما عاماً، بأنهم من الصالحين لعمارة الكون والخلافة فى الأرض، يقول سبحانه : ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١١٥] إنه سبحانه يعطيهم الجزاء المعادل، وإن شيئاً لايضيع عنده ، وإن الخير الذى يفعلونه لن يُجْحَد لهم أو يستر عن الناس، والله سبحانه عليم بالمتقين؛ لأنه من الجائز أن يصنع إنسان الأعمال ولا يراها أحد له؛ لذلك فالحق هو الذى يرى كل عمل، وهو الذى يملك حسن الجزاء عليه .(٢)

---

(١) قال المراغى: أى قل أيها الرسول لهؤلاء الذين يجادلونك بالباطل من أهل الكتابين اليهود والنصارى: هل نخبركم بالذين أتعبوا أنفسهم فى عمل يبغون به ثوابا وفضلا، فنالوا به هلاكا وبوارا كالمشترى سلعة يرجو بها ربحا، فخاب رجاؤه، وخسر بيعه، ووكس فى الذى رجا فضله؟
وخلاصة ذلك أنهم عملوا بغير ما أمرهم الله به، وظنوا أنهم بفعلهم هذا مطيعون له، وأنهم يحسنون صنعا، ثم استبان لهم أنهم كانوا مخطئين، وفى ضلال مبين، وأن سعيهم الذى سعوه فى الدنيا ذهب هباء، فلم يُجْدِهم نقيرا ولا قطميرا.
[تفسير المراغى: ١٦/٢٣].

(٢) قال صديق خان فى قوله تعالى: ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ﴾ أى خير كان ﴿ فَلَن يُكْفَرُوهُ﴾ أى: لن تعدموا ثوابه، كأنه قيل: فلن تحرموه، كما قاله الزمخشرى، بل يشكره لكم ويجازيكم به، وفيه تعريض لكفرانهم نعمته وأنه تعالى لا يفعل مثل =

ويشاء الحق أن يكون تصوير القرآن فى منتهى الدقة، ذلك أن من بين بنى إسرائيل من آمن بالله، فانسلخ بقلبه عن هؤلاء الذين يزيفون التوراة، فليس كل بنى إسرائيل سواء. إن الله يعلمنا أن نفرق بدقة بين من يتبعون السوء، ومن يتبعون طريق الصواب. إن الحق جل وعلا يعلم أن كل إنسان مسئول عن معتقداته، فمن يملك القدرة على التخلص من أدران الزور والتزييف فأهلا به فى رحاب الإيمان بالله. إن الله لا يظلم عباده، إنما يساوى بينهم جميعاً وهو يطرح عليهم قضية الإيمان. لو كان القرآن يظلم بنى إسرائيل لما قال عنهم: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾ فمنهم أهل عدل واستقامة يقرأون كتاب الله فى آناء الليل، وهم يؤدون الصلاة، ويؤمنون بالله الواحد القهار، ويصدقون كل الرسالات السماوية، ويعرفون أن يوم القيامة حق ويأمرون بطاعة تكاليف الله، وينهون عما نهى عنه الله، ويسارعون إلى فعل الخير، هؤلاء عند الله فى عداد القوم الصالحين، وما يفعلوا من خير فسوف يجدون أجره عند الله، ذلك أن الله هو العليم سبحانه بسلوك العباد ونواياهم، هكذا يؤنس القرآن الكريم وحشة من يؤمنون بالله، ويرغبون فى إعلان الإيمان برسالاته.

ويلفتنا العزيز الحكيم إلى التفرقة بين من امتلأت قلوبهم بالكفر والبهت، ومن ملأ الإيمان قلوبهم من أهل الكتاب؛ يقول سبحانه: ﴿وَمِنْ أَهْلِ

= فعلهم، وجيء به على لفظ المبنى للمفعول لتنزيهه عن إسناد الكفر إليه، وقرىء بالياء التحتية فى الفعلين.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ أى كل من ثبتت له صفة التقوى، وقيل: المراد من تقدم ذكره وهم الأمة الموصوفة بتلك الصفات، ووضع الظاهر موضع المضمر مدحاً لهم، ورفعاً من شأنهم، وفيه بشارة لهم بجزيل الثواب، ودلالة على أنه لا يفوز عنده إلا أهل الإيمان والتقوى. [فتح البيان: ٢/٣١٧]

الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران: ٧٥] إن من أهل الكتاب من يستطيع المؤمن بالله أن يستأمنه على قنطار من الذهب أو الفضة، ويرده إليه كاملاً غير منقوص، ومنهم من تستأمنه على دينار واحد فلا يؤده إليك؛ لأنه يظن أن من لا يعرف القراءة والكتابة يمكن خداعه؛ لذلك لا يرد الدينار إلا إذا أحرجه المسلم وداوم على مطالبته.(١)

كما بين سبحانه أن من بين أهل الكتاب من يحرفون كلام الله ويعدلون به عن القصد ،يقول سبحانه : ﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ

---

(١) عن عكرمة فى قوله: ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ ﴾ قال: هذا من النصارى، ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ ﴾ قال: هذا من اليهود، ﴿ إِلا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ﴾ قال: إلا ما طلبته واتبعته.

وعن الحسن فى قوله: ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ ﴾ قال: كانت تكون ديون لأصحاب محمد عليهم، فقالوا: ليس علينا سبيل فى أموال أصحاب محمد إن أمسكناها. وهم أهل الكتاب أمروا أن يؤدوا إلى كل مسلم عهده.

وعن مالك بن دينار قال: إنما سمى الدينار لأنه: دين، ونار، قال: معناه أن من أخذه بحقه فهو دينه، ومن أخذه بغير حقه فله النار.

وأخرج الخطيب فى تاريخه عن على بن أبى طالب أنه سئل عن الدرهم لم سمى درهماً، وعن الدينار لم سمى ديناراً ؟ قال: أما الدرهم فكان يسمى دارهم، وأما الدينار فضربته المجوس فسمى ديناراً.

وعن مجاهد فى قوله: ﴿ إِلا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ﴾ قال: مواظبا.

وعن السدى فى قوله: ﴿ إِلا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ﴾ يقول: يعترف بأمانته ما دمت عليه قائما على رأسه، فإذا قمت ثم جئت تطلبه كافرك الذى يؤدى والذى يجحد.

[الدر المنثور: ٢/٢٤٣].

عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾[آل عمران:٧٨] (١)، وهكذا يفرق الله فى كتابه الكريم بين أهل الزيف؛ وأهل الإنصاف منهم ؛ إن أهل الزيف يحللون سرقة مال المسلم، ويحاولون صرف كلام الله عن معناه بتحويره وتحريفه. وأهل الإنصاف يرون أن الله عليم بالظاهر والباطن.

ولنا فى واحد من أحبار اليهود وعلمائها هو مخيرق خير مثل، يسمع « مخيرق» كلمات الله عن أهل الكتاب فيعلن إيمانه بالله ورسوله، ويدخل مع المسلمين معركة أحد دفاعا عن الإسلام، ويقول: إن أُصبت فمالى كله

---

(١) قال صديق خان: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا﴾ أى طائفة من اليهود ﴿يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ﴾ أصل اللى الميل والفتل، تقول: لوى برأسه إذا أماله، ولويت عنقه أى: فتلته، والمصدر: اللى والليان، ثم يطلق اللى على المراوغة فى الحجج والخصومة تشبيهًا للمعانى بالأجرام، قاله السمين: أى يميلون ويحرفون ويعدلون به عن القصد، ويعطفون، وتحريف الكلام تقليبه عن وجهه؛ لأن المحرف يلوى لسانه عن سنن الصواب بما يأتى به من عند نفسه.

والألسنة: جمع لسان، وهذا على لغة من يذكره، وأما على لغة من يؤنثه فيقول: هذه لسان، فإنه يجمع على ألسن، وقال الفراء: لم نسمعه من العرب إلا مذكراً، ويعبر باللسان عن الكلام؛ لأنه ينشأ منه وفيه ، ويجرى فيه أيضاً التذكير والتأنيث.

﴿لِتَحْسَبُوهُ﴾ أى: لتظنوا أن المحرف الذى جاءوا به ﴿مِنَ الْكِتَابِ﴾ الذى أنزله الله على أنبيائه ﴿وَمَا هُوَ﴾ أى: الذى حرفوه وبدلوه ﴿مِنَ الْكِتَابِ﴾ فى الواقع وفى اعتقادهم أيضاً، والجملة حالية ﴿وَيَقُولُونَ﴾ على طريقة التصريح لا بالتورية والتعريض مع ما ذكر من اللىّ والتحريفَ ﴿هُوَ﴾ أى: المحرف ﴿مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ الحال أنه ﴿وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ إنما كرر هذا بلفظين مختلفين مع اتحاد المعنى لأجل التأكيد ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ أى: الأعم مما ذكر من التحريف واللى ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنهم كاذبون مفترون.

قال ابن عباس نزلت فى اليهود والنصارى جميعاً ؛ وذلك أنهم حرَّفوا التوارة والإنجيل وألحقوا فى كتاب الله ما ليس منه. أ هـ . [فتح البيان : ٢/ ٢٧١]

لمحمد يضعه حيث يشاء، ويموت فى المعركة شهيداً وما صلى لله ركعة واحدة . لماذا؟ لأنه اندفع بالإيمان للدفاع عن حقيقة الإيمان (١) ، لذلك لا الإسلام، ولا نبى الإسلام، ولا القرآن يصدرون حكما واحداً على كل أهل الكتاب. . لماذا؟ لأن هناك عملية أرادها الله للمؤمنين اسمها: صيانة الاحتمال. إن هناك احتمالا أن يدخل الإيمان فى قلب أى واحد من أهل الكتاب. القرآن صان احتمال إيمان أى واحد من أهل الكتاب أو غيرهم من البشر فى هذا الكون، وذلك دليل على عمومية الدعوة الإسلامية، وأن محمداً رسول من الله إلى الناس كافة.

إن الإنسان من أهل الكتاب عندما يرى هذا الإنصاف فى كتاب الله؛ فإنه يكتشف بنفسه أن محمداً لم يقل شيئاً من عنده، بل هو الوحى الإلهى.

---

(١) قال ابن سعد: أخبرنا محمد بن عمر، أخبرنا يحى بن سعيد بن دينار عن أبى وجزة يزيد بن عبيد السعدى قال: كان مخيريق أيسر بنى قينقاع، وكان من أحبار يهود وعلمائها بالتوارة، فخرج مع رسول الله ﷺ إلى أحد ينصره وهو على دينه، فقال محمد ابن مسلمة وسلمة بن سلامة: إن أصبت فأموالى إلى محمد ﷺ، يضعها حيث أراه الله عز وجل، فلما كان يوم السبت وانكسفت قريش ودفن القتلى، وجد مخيريق مقتولاً به جراح فدفن ناحية من مقابر المسلمين ولم يصل عليه، لم يسمع رسول الله ﷺ، يومئذ ولا بعده يترحم عليه، ولم يزده على أن قال: مخيريق خير يهود. فهذا أمره. [الطبقات الكبرى: ١/ ٥٠٢]

* كذبهم على الله *



قال تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [البقرة ١١١] لقد ادَّعى بعض أهل الكتاب من اليهود أن الجنة حكر عليهم وحدهم، وادعى بعض أهل الكتاب من النصارى أن الجنة حكر عليهم وحدهم؛ ذلك أن كلاً من الفئتين أنكرت على الفئة الأخرى إيمانها، ودليل ذلك قوله الحق: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ ﴾ [البقرة: ١١٣] لقد أنكرت كل فئة إيمان الفئة الأخرى، أنكر اليهود إيمان النصارى وادَّعوا أن الجنة لهم وحدهم، وأنكرت النصارى إيمان اليهود وادعوا أن الجنة لهم وحدهم، وكل هذا إنما هو ضرب من الأمانيّ (١). والأماني هى

(١) قال ابن كثير: يبيِّن تعالى اغترار اليهود والنصارى بما هم فيه حيث ادّعت كل طائفة من اليهود والنصارى أن لن يدخل الجنة إلا من كان على ملتها، كما أخبر الله عنهم فى سورة المائدة أنهم قالوا: ﴿ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ﴾ [المائدة: ١٨] فأكذبهم الله تعالى بما أخبرهم أنه معذبهم بذنوبهم، ولو كانوا كما ادّعوا لما كان الأمر كذلك، وكما تقدم من دعواهم أن لن تمسهم النار إلا أياما معدودة، ثم ينتقلون إلى الجنة وردّ عليهم تعالى فى ذلك، وهكذا قال لهم فى هذه الدعوى التى ادعوها بلا دليل ولاحجة ولا بينة فقال: ﴿ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ﴾ قال أبو العالية أمانى تمنوها على الله بغير حق، وكذا قال قتادة، والربيع بن أنس، ثم قال تعالى: ﴿ قُلْ ﴾ أى يا محمد ﴿ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ﴾ قال أبو العالية، ومجاهد، والسدى، والربيع بن أنس: حجتكم وقال قتادة: بيِّنتكم على ذلك ﴿ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أى: فيما تدعونه. أ هـ
[تفسير ابن كثير: ١/ ١٤٧]

مجرد وهم ضال لايسنده العمل، لذلك تظل الأمانى مجرد أمانى؛ لذلك فإن هذه الأمانى حين يستروح بها الإنسان عن نفسه تكون حلماً من أحلام اليقظه، ما يلبث أن يتبدد لأنه بلا رصيد من العمل.

إن الأمانى هى مطايا الحمقى؛ لأنها بلا رصيد من العمل على ضوء منهج ربانى، لذلك يقول الحق: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ إن الحق يعلم أنهم بلا برهان وأنهم غير صادقين؛ لذلك لا يقدرون على إثبات صدقهم، ولا على الإتيان ببرهان يؤيد حجتهم.

ولذلك قال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ١١٢] ونحن نعرف أن كلمة ﴿بَلَى﴾ تعنى النفى لما قبلها، أى أنها تنفى فى ذلك المجال ثلاثة أمور:

الأمر الأول: هو ادعاء أهل الكتاب أن الجنة لهم وحدهم.

والأمر الثانى: كذبهم فى هذا الادعاء.

والأمر الثالث: أنه لا برهان بالفعل والواقع على صدق مثل هذا الادعاء.(١) إن مثل تلك الأقوال هى مجرد أمانى لا يقوم عليها دليل أو برهان.

---

(١) قال الفخر الرازى: أما قوله تعالى ﴿بَلَىٰ﴾ ففيه وجوه:

الأول: أنه إثبات لما نفوه من دخول غيرهم الجنة.

الثانى: أنه تعالى لما نفى أن يكون لهم برهان أثبت أن لمن أسلم وجهه لله برهاناً.

الثالث: كأنه قيل لهم: أنتم عليه لا تفوزون بالجنة، بلى إن غيرتم طريقتكم وأسلمتم وجهكم لله وأحسنتم فلكم الجنة، فيكون ذلك ترغيباً لهم فى الإسلام، وبياناً لمفارقة حالهم لحال من يدخل الجنة؛ لكى يقلعوا عما هم عليه، ويعدلوا إلى هذه الطريقة، فأما معنى: ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ فهو إسلام النفس لطاعة الله، وإنما خصَّ الوجه بالذكر لوجوه:

أحدها: لأنه أشرف الأعضاء من حيث أنه معدن الحواس والفكر والتخيل، فإذا تواضع الأشرف كان غيره أولى. =

إن الجنة لمن أسلم وجهه لله، أى أسلم كل شىء لله، فمن يسلم أشرف ما فيه وهو وجهه، فإنه يسلم كل شىء لله، إن الوجه هو المميز للإنسان والمشخص له، وفيه اللسان الذى ينطق به ويعبر عن أفكاره، والإنسان هو الكائن المستوى القامة. وهو متميز عن الحيوان بأن وجهه مرفوع على جسمه؛ لذلك فعندما يسلم وجهه لله فهو يسلم بأشرف ما فيه، ولذلك

= وثانيها: أن الوجه قد يكنى به عن النفس ؛ قال الله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨]، ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ﴾ [الليل: ٢٠].

وثالثها : أن أعظم العبادات السجدة وهى إنما تحصل بالوجه، فلا جرم بخص الوجه بالذكر، ولهذا قال زيد بن عمرو بن نفيل:

وأسلمت وجهى لمن أسلمت له الأرض تحمل صخراً ثقالاً
وأسلمت وجهى لمن أسلمت له المزن تحمـل عـذباً زلالا

فيكون المرء واهباً نفسه لهذا الأمر بإذلالها، وذكر الوجه وأراد به نفس الشىء؛ وذلك لا يكون إلا بالانقياد والخضوع وإذلال النفس فى طاعته وتجنب معاصيه، ومعنى ﴿لِلَّهِ﴾ أى: خالصاً لا يشوبه شرك، فلا يكون عابداً مع الله غيره، أو معلقا رجاءه بغيره، وفى ذلك دلالة على أن المرء لا ينتفع بعمله إلا إذا فعله على وجه العبادة فى الإخلاص والقربة.

أما قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أى لابد وأن يكون تواضعه لله بفعل حسن، لا بفعل قبيح، فإن الهند يتواضعون لله لكن بأفعال قبيحة، وموضع قوله: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ موضع حال، كقولك: جاء: فلان وهو راكب، أى: جاء فلان راكباً، ثم بين أن من جمع بين هذين فله أجره عند ربه، يعنى به الثواب العظيم، ثم مع هذا النعيم لايلحقه خوف ولا حزن، فأما الخوف فلا يكون إلا من المستقبل، وأما الحزن فقد يكون من الواقع والماضى، كما قد يكون من المستقبل ؛ فنبَّه تعالى بالأمرين على نهاية السعادة؛ لأن النعيم العظيم إذا دام وكثر وخلص من الخوف والحزن، فلا يحزن على أمر فاته، ولا على أمر يناله، ولا يخاف انقطاع ما هو فيه وتغيره فقد بلغ النهاية، وفى ذلك ترغيب فى هذه الطريقة، وتحذير من خلافها الذى هو طريقة الكفار المذكورين من قبل. [التفسير الكبير : ٤/ ٤٢٣]

يكون العبد قريباً من ربه وهو ساجد لله ؛ لأن وجهه يستوى مع قدميه حال سجوده لله .

إن قول الله تعالى : ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ .

يمثل مواقف الفئات التى جاء الإسلام لهدايتها، لكن هذه الفئات تناحرت فيما بينها: اليهود أنكروا على النصارى والمشركين أى صلة لهم بمنهج الله، والنصارى أنكروا على اليهود والمشركين أى صلة لهم بمنهج الله، والمشركون أنكروا على اليهود والنصارى معا أى صلة لهم بمنهج الله. ولقد واجه الإسلام الطوائف الثلاثة؛ طائفتان منهم لهما إيمان بمنهج نُزل على الرسل، وطائفة لا علاقة لها بالرسل ولا بالكتب المنزلة، والخلاف بين كل طائفة من الطوائف الثلاثة كبير، وكان الأجدر بهم أن يهتدوا إلى الإسلام الذى جاء من عند الله ، هداية ورحمة للبشرية كلها ، ولكنهم أبو واستكبروا، فالله تعالى يفصل بينهم يوم القيامة فيما فيه يختلفون ، ليس هذا فقط ، بل يجزيهم الجزاء المناسب على عدم إيمانهم برسالة النبى الخاتم الذى يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، وذلك من كتبهم التى بأيديهم. وليحذر المؤمنون بالإسلام من التناحر والفرقة والاختلاف فى الدين؛ حتى لا يكونوا كالذين فرقوا دينهم وكانوا شيعًا، وليعتصموا بحبل الله جميعًا ، وليستمسكوا بالذى أنزل إليهم من ربهم، فلا عاصم لهم من عذاب الله إلا اتباع منهجه[1].

---

(١) قال القاسمى قال الرازى: وأعلم أن هذه الواقعة بعينها قد وقعت فى أمة محمد ﷺ، فإن كل طائفة تكفر الأخرى. مع اتفاقهم على تلاوة القرآن. انتهى.

فها هنا تسكب العبرات بما جناه التعصب فى الدين على غالب المسلمين، من الترامى بالكفر، لا بسنة ولا قرآن، ولا لبيان من الله ولا لبرهان، بل لمَّا غلت مراجل العصبية فى الدين، تمكَّنَ الشيطان من تفريق كلمة المسلمين: =

. . . .

يأبى الفتى إلا اتباع الهوى ومنهج الحق له واضح

مع أن الله تعالى أمر بالجماعة والائتلاف. ونهى عن الفرقة والاختلاف. فقال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣] وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩]. وقال تعالى: ﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ [آل عمران: ١٠٥]. وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣]. وقد امتاز أهل الحق، من هذه الأمة، بالسنة والجماعة، عن أهل الباطل الذين يزعمون أنهم يتبعون الكتاب، ويعرضون عن سنة رسول الله ﷺ، وعما مضت عليه جماعة المسلمين. [تفسير القاسمي: ٢/٢٢٦، ٢٢٧]

* كذبهم على المؤمنين *

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٧٦] الحق سبحانه قسم الناس بالنسبة لمواقفهم من الإيمان إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول: المؤمنون، والمؤمن انسجم مع نفسه ؛ وانسجم مع الكون.

القسم الثانى: الكافرون، والكافر هو من انسجم مع نفسه، لأنه لم يؤمن بالله، ولم يخالف ما يعتنقه، وإن لم ينسجم مع الكون الذى خلقه الله.

القسم الثالث: المنافقون، والمنافق هو الذى افتقد الانسجام مع النفس، وافتقد الانسجام مع الكون، وقد افتقد الانسجام مع النفس؛ لأنه فى واقع الأمر لا يؤمن بالله، ورغم ذلك يعلن الإيمان بالله، وبذلك يفتقد الانسجام الداخلى والخارجى، ويمتلك المنافق نفساً ممزقة وملكات متباعدة، ولا يرتاح فى أعماقه، بل إن أى شىء يطيعه يلعنه، إن زمانه يلعنه، ومكانه يلعنه، والأدوات المسخرة له تلعنه، ولن ينسجم فى الآخرة؛ لأن مكانه هو الدرك(١) الأسفل من النار، إنه فى قاع النار حيث يختلف فى

---

(١) قال الراغب الأصفهانى: الدرك كالدرج، لكن الدرج يقال اعتباراً بالصعود، والدرك اعتباراً بالحدور، ولهذا قيل: درجات الجنة ودر كات النار، ولتصور الحدور فى النار سميت هاوية، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥] والدرك أقصى قعر البحر. ويقال للحبل الذى يوصل به حبل آخر ليدرك الماء: درك، ولما يلحق الإنسان من تبعة درك كالدرك. [المفردات فى غريب القرآن : ١٧٠]

عذابه عمن هم دون ذلك فى العذاب ؛ لأن موقعه فى النار أعمق.

لقد كان هناك فى المدينة منافقون من أهلها، وهم من غير اليهود، ولكن لهم شياطين من اليهود يزينون لهم الكفر، كان المنافقون ومستشاروهم من اليهود عندما يلتقون بالذين آمنوا يقولون: نحن مؤمنون. وكأنهم يظنون أن الإيمان قول فقط. وما أشبه الليلة بالبارحة [1] حينما يزين الشيطان لواحد أن الإيمان مسألة قول فقط، رغم أن الإيمان بالله قول نابع من يقين قلبى، وله تعبير بالسلوك، إن القول هو استدلال على الإيمان فقط، أما اختيار الإيمان فهو السلوك على مقتضى الإيمان، ولذلك فقد يوجد إنسان يسلك سبيل المسلمين، لكن بلا يقين قلبى ولا إيمان حقيقى، إنما هو مداهنة ورياء، وهو بذلك لا يمكن أن يكون من المؤمنين. ومن عظمة الإسلام أنه أعطى لمن ينطق يقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله، وأقام فى الظاهر أركان الإسلام سلوكاً وعبادةً نفس حقوق المسلمين، أما حسابه كمنافق فذلك أمر يقوم به الحق يوم القيامة.

ولقد كان المنافقون فى عهد رسول الله ﷺ هم أوائل الناس فى الصفوف، لماذا؟ لأنهم يريدون ستر نفاقهم.

ومن أوصافهم التى أخبرنا بها الله تعالى: ﴿هَا أَنتُمْ أُوْلاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١١٩] إن المنافقين قد يظفرون بشىء من حب وتعاطف المؤمنين، ولكن المنافقين

---

(١) هذه العبارة شطر بيت للمتنبى ونصه:

كلهم أروغ من ثعلب   ما أشبه الليلة بالبارحة.

لايبادلونهم المحبة بمثلها، إنهم متعصبون للنفاق، الغيظ يملأ قلوبهم ويفتك بملكاتهم(١).

وفى آية أخرى يقول الحق جل وعلا: ﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَد دَّخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾ [المائدة: ٦١] ويقول سبحانه: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٧٦] وهكذا يتضح غباء الحرص على الدنيا لا ذكاء الفهم لحقيقة الدين، بأنه دنيا وآخرة فى آن واحد (٢).

لقد كان هؤلاء المنافقين يعرفون صفة النبى ﷺ من التوراة، ويعتبرون ذلك من باب الفتح من الله، ورغم ذلك يكتمون هذا الفتح، مما يدل على انطماس البصيرة، وغباء الحرص على الدنيا، مع نسيان أن الدين دنيا وآخرة .

إن من غبائهم أنهم عرفوا أن العلم بمقدم رسول الله ، سوف يكون موقع حساب لهم فى الآخرة .

---

(١) قال ابن الجوزى وفى معنى محبة المؤمنين لهم أربعة أقوال:
أحدها: أنها الميل إليهم بالطباع، لموضع القرابة والرضاع والحلف، وهذا المعنى منقول عن ابن عباس.
والثانى: أنها بمعنى الرحمة لهم، لما يفعلون من المعاصى التى يقابلها العذاب الشديد، وهذا المعنى منقول عن قتادة.
والثالث: أنها لموضع إظهار المنافقين الإيمان، وروى عن أبى العالية.
والرابع: أنها بمعنى الإسلام لهم، وهم يريدون المسلمين على الكفر، وهذا قول المفضل، والزجاج. والكتاب: بمعنى الكتب، قاله الزجاج. [زاد المسير: ٢/ ٢٢]
(٢) قال الله سبحانه وتعالى : ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٧] .

إنهم ضحايا التخبط، فمرة يعلنون الإيمان، ومرة يعضون الأنامل بالانفعال من الغيظ، ومرة يتحدثون بما فتح الله عليهم فى كتبهم من البشارة برسول الله ﷺ، ومرة يتآمرون ويقررون إنكار رسالته ﷺ إن أمرهم هو قمة التخبط، وينسون ما كان يجب أن يتذكروه من قدرة الله: ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ ؟ [البقرة: ٧٧] إن المؤمنين لا ينسون علم الله بالسر والعلن؛ ذلك أن الإشعاع الإيمانى ينطلق من القلب إلى الجوارح، فيتجدد الإيمان، أما أهل التخبط والنفاق فأمرهم مختلف، ينسون أن الحق يعلم السر والعلن؛ ولنا أن نسأل: ما العلن وما السر؟ الأمر العلن: هو السلوك الذى يصدر من الإنسان فيدركه من يملك أدوات الإدراك من سمع أو بصر .

والأمر السر: هو الذى يبطنه الإنسان فلا يراه من يملك أدوات الإدراك من سمع وبصر ولمس وغيرها(١).

والحق يعلمنا أنه غيب مستتر عن حواسنا وعن إدراكاتنا المحدودة؛ لذلك يقدم لنا علمه بالسر من نوايانا قبل علمه بالعلن من سلوكنا، إن علم الله شامل ومطلق، علم الظاهر والباطن.

إن قول الحق: ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [البقرة: ٧٧] إنما هو إيضاح بأن الحق يعلم ما نهمس به إلى غيرنا وما لا نهمس به؛ لذلك يقول تبارك وتعالى: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧] ونحن نعلم أن السر هو: ما نهمس به إلى الغير، ومادمنا قد همسنا به، فلم يعد

---

(١) أسرَّ الشيء: كتمه وأظهره، وهو من الأضداد. [لسان العرب: ٤/٣٥٦ ، ٣٥٧]
وعلن الأمر يَعْلُن عُلُونا ويَعْلِن وعَلِنَ يَعْلَن عَلَنًا وعَلانية فيهما إذا شاع وظهر.
[لسان العرب: ١٣/٢٨٨، ٢٨٩]

سرًا ، إنما أصبح شيئاً معلوما ومحصوراً بين عدد من الأفراد الذين يتداولونه، لكن ما الذى يكون أخفى من السر؟

إن علم الله سابق بما سوف تقوله، أو يمر بالخاطر حتى قبل أن يمر بالخاطر، أما العلن فهو ما نجاهر به ويعلمه عنا الآخرون.

فالحق يعلمنا أنه يدرك ما هو فوق إدراكنا من سرّ وعلن، وما هو أخفى من السر ؛ ذلك علم الله، فإذا تقدمت فى تلك الآية معرفة الله للسر قبل العلن؛ فذلك ليعلمنا الله بأنه يحيط علما بكل ما خلق فى الكون.

* ضربت عليهم الذلة والمسكنة *



﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٢] ونحن نستخدم كلمة «ضرب» فى النقود عندما نقول: «ضرب هذا الجنيه الفضى فى مصر»، ومعنى ذلك أن الصانع يصنع قالباً من مادة أكثر صلابة من الفضة، ويصنع فيها الحفريات التى تبرز الكتابة والصور على وجهى الجنيه الفضى، ثم يصب المادة الفضية فى ذلك القالب، وكذلك المادة الذهبية أو النيكل.. إلخ.. التى تخضع للقالب الذى يدخل إلى مكبس، فتبرز الكتابة والصور، ولا تتأبى المادة على القالب، كأن «ضُرِب» معناها: «أُلزِم» بالبناء للمجهول فيهما ، كأن المادة المصنوعة تلزم القالب الذى تصب فيه، ولايمكن أن تتشكل إلا به.

إذن.. فالضرب معناه الإلزام والقصر على الفعل، وعندما يقول الحق: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ﴾ أى: لازمتهم الذلة لزوما لا يستطيعون الانفكاك عنه أبدا، كما لا يستطيع المعدن المضروب نقداً أن ينفك عن القالب الذى صُكَّ عليه، وكأن الذلة قُبَّة عليهم وقالب لهم(١).

(١) قال أبو حيان: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ﴾: معنى الضرب هنا: الإلزام والقضاء عليهم، من ضرب الأمير البعث على الجيش، وكقول العرب: ضربة لازم، ويقال: ضرب الحاكم على اليد، وضرب الدهر ضرباته، أى: ألزم إلزاماته، وقيل:=

والذلة: هى المشقة التى تؤدى إلى الانكسار، أما المسكنة: فهى شىء فى الأعماق يجعل الهيئة منكسرة، مثلما كان يحدث مع قوم موسى عندما كانوا يدفعون الجزية؛ لذلك كانوا يدعون المسكنة؛ حتى يتهربوا من دفع الجزية، وكانوا يلبسون ثيابًا غاية فى الرخص حتى لا يدفعوا من الجزية إلا القليل.

إذن فقول الله تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٢] إن الآية تحدد مدى تشوه أعماق من يرتبط بتلك العقيدة التى تدعى لأفرادها التمايز عن بقية البشر؛ فتفسد أعماقهم بالإحساس المهين، لا ينقذهم من ذلك الإحساس إلا إذا عاهدوا نبيًا، كما حدث فى عهد رسول الله، وعاشوا فى حمى العهد، أو كما آمن بعضهم برسالة رسول الله، فخرجوا من دائرة العقيدة التى تشوه أعماق الإنسان، أو أن يرتبط أبناء تلك العقيدة مع دولة كبرى تساندهم فى طغيانهم النابع من إحساس مضخم بالمهانة.

وفى عصرنا نجد أحفادهم يضخمون من أحاسيس المهانة، ويتشبثون بأى تحالف مع دولة قوية، ويحاولون بعد ذلك استخدام تلك القوة ضد أصحاب الحقوق الطبيعية وضد أصحاب العقائد الأخرى، هكذا نجد أنهم يأخذون «حبلاً» من الناس ويدعون «المسكنة» رغم عدوانهم الظاهر؛ ولذلك باءوا بغضب من الله، وعندما يقال: «باء بالغضب» أى: نال من الغضب

= معناه الإحاطة بهم والاشتمال عليهم مأخوذ من ضرب القباب. ومنه قول الفرزدق:

ضربت عليك لعنكبوت بنسجها   وقضى عليك به الكتاب المنزل.

[البحر المحيط: ١/ ٣٨٠]

ما يساوى سوء ما صنع، وهكذا باءوا بغضب من الله؛ لأنهم يكفرون بنعم الله ولا يذكرونها بالشكر، ولا يديمون ولاءهم للمنعم بها، أنكروا نعم الله عليهم عندما أخرجهم من مذلة آل فرعون لهم، وأنجاهم من الذبح والقتل، وأنقذهم من قوم فرعون، ففلق أمامهم البحر، وتاب عليهم بعد اتخاذهم العجل إلها، وظلّل عليهم الغمام، واستجاب لطلب موسى بالسقيا لهم، وأنزل عليهم المن والسلوى، واستجاب لدعاء موسى بأن يكون لهم الطعام الذى أرادوه، وبعد كل نعمة ينكرون على المنعم الشكر!! ولا يكتفون بذلك، بل يقتلون الأنبياء بغير حق، ويعصون ربهم ويعتدون على حرمات غيرهم، ولنا أن نتصور ماذا تكون عليه مشاعر قتلة الأنبياء من البلادة[1].

وقول الحق : ﴿أَيْنَ مَا ثُقِفُوا﴾ تفيد أنهم أذلاء أينما وجدوا فى أى مكان، ولكن هناك استثناء لذلك، ما هو ؟ إنه قول الحق : ﴿إِلا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ﴾[2] إنهم لا يعانون من الذلة فى حالة وجود عهد من الله أن يأمنوا، أو عهد من أناس أقوياء أن يقدموا لهم الحماية، فلما كانوا

---

(١) صدر عن مكتبة التراث الإسلامى سلسلة « قتلة الأنبياء» وهى من ثلاثة أجزاء عن صفات وأوصاف وأحلام قتلة الأنبياء، وكلها مأخوذة من « التوراة» كتابهم المقدس . وحرى بكل مسلم أن يطلع عليها ويعى ما فيها ليتعرف على أعداء الله ، ويكون على بينة حتى لا يقع فيما وقعوا فيه لئلا ينال ما نالوا .

(٢) قال الشوكانى: ﴿إِلا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ أى إلا أن يعتصموا بحبل من الله، قاله الفراء، أى بذمة الله أو بكتابه. ﴿وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ﴾ أى بذمة من الناس وهم المسلمون. وقيل المراد بالناس: النبى ﷺ. [فتح القدير: ١/٤٥٣]

وقال الخازن فى قوله تعالى : ﴿إِلا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ يعنى إلا بعهد من الله وهو أن يسلموا فتزول عنهم الذلة، ﴿وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ﴾ يعنى المؤمنين ببذل الجزية. والمعنى: ضُربت عليهم الذلة فى عامة الأحوال إلا فى حال اعتصامهم بحبل الله وحبل الناس وهو ذمة الله وعهده وذمة المسلمين وعهدهم، لا عزّ لهم إلا هذه الواحدة ، وهى التجاؤهم إلى الذمة لما قبلوه من بذل الجزية ، وإنما سمى العهد حبلاً ؛ لأنه سبب يوصل إلى الأمن وزوال الخوف . [تفسير الخازن : ١/٥٢٢]

فى عهد الله أولا، وعهد رسوله ساعة دخل رسول الله ﷺ المدينة، وأعطاهم العهد كانوا آمنين، فلما خانوا العهد ولم يوفوا به، ماذا حدث؟ ضربت عليهم الذلة مرة أخرى.

إذن . . هم كانوا فى عهد الله آمنين؛ فلما خانوا العهد انقطع حبل الله عنهم؛ فأهيجوا الإهاجة التى عرفناها، وهو ما حدث لبنى قينقاع، وبنى النضير، وبنى قريظة، ويهود خيبر.

أما عن حبل الناس فذلك لأنهم لا يملكون أى عزة ذاتية؛ إنهم دائما فى ذلة إلا أن يبتغوا العزة من جانب عهد وحبل من الله، أو من جانب حماية من الناس، وهكذا نحن نراهم فى حياتنا. . إننا لا نراهم إلا وهم يعيشون فى حضن أحد؛ لذلك فعندما حاربنا إسرائيل فى حرب أكتوبر/ رمضان انتصرنا عليهم، إلى أن تدخلت أمريكا بثقلها العسكرى، فقال رئيس الدولة المصرى الراحل محمد أنور السادات : « لا طاقة لى بمحاربة أمريكا». ولو كانت الحرب بيننا وبينهم فقط لانتهت قوتهم.

إذن . . هم لا عزة ذاتية لهم.

وفى قول الحق سبحانه: ﴿ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ﴾ نلاحظ أن الذلة لها استثناء، فهم ينالون العزة لو كانوا بجانب حبل من الله أو حبل من الناس، أما المسكنة فلا استثناء فيها. وقال الحق فيهم فى موضع آخر من القرآن الكريم: ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ﴾ [البقرة: ٦١] لماذا حكم الله عليهم بالمسكنة وقررها هكذا كطابع لهم، ولا استثناء لهم منها؟ لأن المسكنة أمر ذاتى فى النفس، إنهم مساكين بأمر من الله، أما الذلة فقد يأتى لهم من يعزهم ويقف بجانبهم. إن الذلة أمر خارج، أما المسكنة فهى فى ذاتيتهم. وعندما تكون المسكنة

فى الذاتية، فلا إنقاذ لهم منها؛ لأنه لا حبل من الله ينجيهم منها، ولاحبل من الناس يعصمهم من فعلها أو آثارها.(١)

أما قول الحق: ﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ فهل رأيتم غضباً أكبر من أن الحق قد قطّعهم فى الأرض؟

الله تعالى يقول عنهم: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا﴾ (٢) [الأعراف: ١٦٨] المكان الوحيد الذى آواهم فى زمن رسول الله ﷺ، هو فى الجزيرة العربية فى يثرب، واستقروا قليلاً، وصارت لهم سيادة علمية؛ لأنهم أهل كتاب، وصارت لهم سيادة اقتصادية، وكذلك سيادة حربية. والعجيب أن المكان الذى آواهم من

---

(١) قال أبو حيان: أما الذلة فقيل: هى هوانهم بما ضرب عليهم من الجزية التى يؤدونها عن يد وهم صاغرون، وقيل: هى ما ألزموا به من إظهار الزى ليعلم أنهم يهود، ولا يلتبسوا بالمسلمين، وقيل: فقر النفس وشحها، فلا ترى ملة من الملل أذل وأحرص من اليهود. وأما المسكنة: فالخشوع، فلا يرى يهودى إلا وهو بادى الخشوع، أو الخراج، وهو الجزية، قاله الحسن وقتادة، أو الفاقة والحاجة، قاله أبو العالية، أو ما يظهرونه من سوء حالهم؛ مخافة أن تضاعف عليهم الجزية، أو الضعف، فتراه ساكن الحركات قليل النهوض. واستبعد صاحب المنتخب قول من فسر الذلة بالجزية؛ لأن الجزية لم تكن مضروبة عليهم من أول أمرهم. [البحر المحيط: ١/ ٣٨١]
وقال المراغى: أى إن الله عاقبهم على كفران تلك النعم بالذل الذى يهوّن على النفس قبول الضيم والاستكانة والخضوع فى القول والعمل، وتظهر آثار ذلك فى البدن، فالذليل يستخذى ويسكن إذا طاف بخياله يد تمتد إليه، أو قوة قاهرة تريد أن تستذله وتقهره، وترى الذل والصغار يبدو فى أوضاع أعضائه وعلى ظاهر وجهه. [تفسير المراغى: ١/ ١٣٢]

(٢) قال ابن عطية: ﴿وَقَطَّعْنَاهُم﴾ معناه فرقناهم فى الأرض، قال الطبرى عن جماعة من المفسرين: ما فى الأرض بقعة إلا وفيها معشر من اليهود، والظاهر فى المشار إليهم فى هذه الآية أنهم الذين بعد سليمان عليه السلام وقت زوال ملكهم، والظاهر أنه قبل مدة عيسى عليه السلام؛ لأنه لم يكن فيهم صالح بعد كفرهم بعيسى ﷺ، وفى التواريخ فى هذا الفصل روايات مضطربة. [المحرر الوجيز: ٢/ ٤٧١]

الشتات فى الأرض هو نفس المكان الذى تمردوا عليه. والسبب الذى من أجله جاءوا إلى يثرب هو ما كانوا يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة، من أنه فى هذا المكان سيظهر نبى ولابد أن يتبعوه؛ لأن الله أخذ عليهم العهد والميثاق من خلال أنبيائهم أن يؤمنوا بالرسول القادم وينصروه ، وقد بلَّغت به رسلهم ، وكان الأجدر بهم أن يكونوا أول الناس إيمانًا واتباعًا لرسول الله ، وذلك قول الله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [آل عمران : ٨١] .

إن هذا الميثاق يقضى بأن يتولى الرسل بلاغ الأمم التى بعثوا إليها، وأن يبلغ أهل الإيمان بالرسل التابعين لهم والقادمين من بعدهم بأن هناك رسولاً مبلغاً عن الله، قادماً بالمنهج الكامل. إنهم لم يأتوا إلى يثرب إلا على أمل أن يتلقفوا النبى المنتظر ليؤمنوا به، وبعد ذلك يكونون حرباً على الكافرين بالله. لكن ما الذى حدث؟ إن الحق يخبرنا بما حدث منهم فى قوله: ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ﴾ [البقرة: ٨٩] فما السبب الذى جعلهم باءوا بغضب من الله، وختم على قلوبهم بالمسكنة ؟

نعلم الإجابة عن هذا السؤال من قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ [آل عمران: ١١٢] كأن العصيان سبب لأن تضرب عليهم الذلة، وأن يبوءوا بغضب من الله ، وأن تضرب عليهم المسكنة، وكل ذلك ناشىء من فعلهم.

إن هناك فرقا بين أن يبدأهم الله بفعل، وأن يعاقبهم الله على فعل، وحتى نفهم ذلك فلنقرأ قول الحق : ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ

أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيراً ﴾ [النساء:١٦٠] هكذا نعرف أنهم هم الذين ظلموا أنفسهم، لقد حرم الله عليهم الطيبات بظلمهم لأنفسهم؛ لأن معنى تحريم الطيبات أن الله حرمهم متعة فى طيب؛ وذلك لأنهم استحلوا متعة فى غير طيب. وانظروا فى أمر الذى يقتل مورثه ماذا صنع الشارع فيه؟

إنه يحرمه من الميراث. إن القاتل للمورِّث يهدف التعجل لأخذ الميراث، لذلك يقول الشارع: مادمت تعجلت أمر الميراث، فنعاملك على عكس نيتك فتحرم من الميراث.(١) إن الحق سبحانه أنزل بهم العقاب لظلمهم أنفسهم.

---

(١) عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قتل رجل ابنه عمداً، فرفع إلى عمر ابن الخطاب رضى الله عنه، فجعل عليه مائة من الإبل، ثلاثين حقة (١)، وثلاثين جذعة(٢)، وأربعين ثنية(٣)، وقال: لا يرث القاتل، ولولا أنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يقتل والد بولده » لقتلتك.
أخرجه أحمد فى المسند [١/ ٤٨] وضعفه الشيخ شاكر برقم[٣٤٦].

---

(١) الحِقّ من أولاد الإبل :الذى بلغ أن يُركب ويُحمل عليه ويُضرب . يعنى : أن يضرب الناقة. [لسان العرب : ١٠/ ٥٤]
(٢) الجَذع : الصغير السِّنْ . فأما البعير فإنه يُجذع لاستكماله أربعة أعوام ، ودخوله فى السنة الخامسة ، وهو قبل ذلك حِقّ . والذكر : جَذَع ، والأنثى : جَذعة .
[لسان العرب ٨/ ٤٣]
(٣) الثَّنى من النوق : التى وضعت بطنين ، وثِنْيها : ولدها ، وكذلك المرأة . ولا يُقال: ثِلْث ولا فوق ذلك . [لسان العرب : ١٤/ ١٢٠]

* ميثاق الله لبنى إسرائيل *

قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [البقرة: ٨٣] فى هذه الآية ثمانى نقاط ضمن الميثاق الذى أخذه الله على بنى إسرائيل ، هذه النقاط الثمانى هى :

١- عبادة الله وحده لا شريك له.

٢- معاملة الوالدين بالإحسان.

٣- معاملة ذى القربى بالإحسان.

٤- معاملة اليتامى بالإحسان.

٥- معاملة المساكين بالإحسان .

٦- القول الصادق للناس بلاغا عن الله.

٧- إقامة الصلاة.

٨- إيتاء الزكاة.

ولسوف نتوقف عند كل نقطة من هذه النقاط بالتفصيل، ولكن قبل أن ندخل إلى تفاصيل النقاط الثمانى لابد لنا من وقفة مع كلمة : الميثاق

نحن نعرف أن الميثاق هو العهد الموثق، أى الاتفاق الوثيق الرباط،[1] أو

---

(١) الميثاق من المواثقة والمعاهدة؟ ومنه الموثق. تقول واثقته بالله لأفعلن كذا وكذا. ا هـ [لسان العرب: ١٠/٣٧١] =

هو عهد الفطرة الإيمانية التى فطر الله كل البشر عليها، أو هو عهد الذر[1] الذى أشهد فيه الحق ذرية آدم على أنه الواحد الأحد، خالق السموات والأرض وكل الكون، وأنه الواحد القهار الذى لا تجوز عليه الغفلة، أو هو العهد الذى أخذه الله على الرسل جميعا أن يبشروا برسالة الرسول الخاتم ﷺ، أو هو العهد الذى أخذه الله على أهل الكتاب ألا يكتموا ما عندهم من آيات الله، والبشارة برسوله محمد عليه الصلاة والسلام.

الميثاق إذن.. هو كل شىء فيه تكليف من الله، وهو عهد مع الله، للإيمان به، وإطاعة ما أمر، واجتناب ما نهى.

والميثاق يأتى عادة لحمل النفس على الابتعاد عن لذة عاجلة بالمقارنة إلى لذة آجلة أطول، وهذا يتضح لنا فى صفقات الأمور الدنيوية، فالإنسان يرى أكثر الأمور نفعا وكسباً ويصنعها، ويبتعد عن الأمور التى تسبب له الهلاك والدمار.

ولم ترد كلمة: الميثاق مصحوبة بكلمة: غليظ إلا فى أمر واحد: هو علاقة الرجل بالمرأة فى قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا (١٩) وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا

= وقال المراغى: الميثاق: العهد الشديد المؤكد وهو قسمان: عهد خلقة وفطرة، وعهد نبوة ورسالة. [تفسير المراغى: ١/ ١٥٥]

(١) وهو قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾ ﴾(١) [النساء] من هذه الآيات يتضح لهؤلاء الناكرين لفضل

(١) قال ابن كثير فى قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾ وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾ ﴾.

روى البخارى بسنده عن ابن عباس : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا ﴾ قال : كانوا إذا مات الرجل كان أولياؤه أحق بامرأته إن شاء بعضهم تزوجها ، وإن شاءوا زوَّجوها ، وإن شاءوا لم يزوِّجوها، فهم أحق بها من أهلها ؛ فنزلت هذه الآية: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا ﴾ (١).

وروى أبو داود بسنده عن ابن عباس قال : ﴿ لا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ﴾ وذلك أن الرجل كان يرث امرأة ذى قرابته فيعضلها حتى تموت أو ترد إليه صداقها، فأحكم الله تعالى عن ذلك ، أى نهى عن ذلك. تفرَّد به أبو داود (٢).

وقوله : ﴿ وَلا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ ﴾ أى: لا تضاروهن فى العشرة؛ لتترك ما أصدقتها أو بعضه أو حقًا من حقها عليك ، أو شيئًا من ذلك على وجه القهر لها والإضرار . وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله : ﴿ وَلا تَعْضُلُوهُنَّ ﴾ يقول: ولا تقهروهن ﴿ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ ﴾ يعنى: الرجل تكون له المرأة وهو كاره لصحبتها، ولها عليه مهر فيضرها لتفتدى به، وكذا قال الضحاك وقتادة وغير واحد ، واختاره ابن جرير. وروى ابن المبارك وعبد الرزاق بسنده عن ابن السلمانى قال: نزلت هاتان الآيتان إحداهما فى أمر الجاهلية ، والأخرى فى =

(١) أخرجه البخارى [٤٥٧٩، ٦٩٤٨].

(٢) أخرجه أبو داود [٢٠٩٠]، وقال الألبانى فى صحيح أبى داود [١٨٤٠] : حسن صحيح.

= أمر الإسلام . قال عبد الله بن المبارك يعنى قوله : ﴿ لا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا ﴾ فى الجاهلية ﴿ وَلا تَعْضُلُوهُنَّ ﴾ فى الإسلام .

وقوله: ﴿ إِلا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ﴾ قال ابن مسعود ، وابن عباس، وسعيد ابن المسيب، والشعبى، والحسن البصرى، ومحمد بن سيرين، وسعيد بن جبير، ومجاهد، وعكرمة، وعطاء الخراسانى، والضحاك، وأبو قلابة، وأبو صالح السدى، وزيد بن أسلم، وسعيد بن أبى هلال: يعنى بذلك الزنا، يعنى: إذا زنت فلك أن تسترجع منها الصداق الذى أعطيتها، وتضاجرها حتى تتركه لك وتخالعها، كما قال تعالى فى سورة البقرة : ﴿ وَلا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلا أَن يَخَافَا أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ ﴾ [البقرة: ٢٢٩] الآية .

وقوله تعالى : ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾أى: طيبوا أقوالكم لهن، وحسِّنوا أفعالكم وهيئاتكم بحسب قدرتكم ، كما تحب ذلك منها فافعل أنت بها مثله ، كما قال تعالى: ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِى عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ [البقرة: ٢٢٨] وقال رسول الله ﷺ: «خيركم خيركم لأهله ؛ وأنا خيركم لأهلى » (١) وكان من أخلاقه ﷺ أنه جميل العشرة دائم البشر ؛ يداعب أهله ، ويتلطف بهم ويوسعهم نفقة ، ويضاحك نساءه، ويجمع نساءه كل ليلة فى بيت التى يبيت عندها ، فيأكل معهن العشاء فى بعض الأحيان، ثم تنصرف كل واحدة إلى منزلها ، وكان ينام مع المرأة من نسائه فى شعار واحد، يضع عن كتفيه الرداء وينام بالإزار ، وكان إذا صلى العشاء يدخل منزله يسمر مع أهله قليلاً قبل أن ينام؛ يؤانسهم بذلك ﷺ . وقد قال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب: ٢١] .

وقوله تعالى : ﴿ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ أى: فعسى أن يكون صبركم فى إمساكهن مع الكراهة فيه خير كثير لكم فى الدنيا والآخرة ، كما قال ابن عباس فى هذه الآية : هو أن يعطف عليها فيرزق منها ولدًا ويكون فى ذلك الولد خير كثير . وفى الحديث الصحيح: « لا يفرك مؤمن مؤمنة إن سخط منها خلقًا رضى منها آخر » (٢) . =

(١) أخرجه ابن ماجه [١٩٧٧] عن ابن عباس رضى الله عنهما ، وصححه الألبانى فى صحيح ابن ماجة [١٦٠٨] ، وانظر الصحيحة [٢٨٥] .

(٢) أخرجه مسلم [٦٣/١٤٦٩] عن أبى هريرة رضى الله عنه .

. . . .

= وقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ أى: إذا أراد أحدكم أن يفارق امرأة ويستبدل مكانها غيرها ، فلا يأخذن مما كان أصدق الأولى شيئًا ، ولو كان قنطارًا من مال .

وفى هذه الآية دلالة على جواز الإصداق بالمال الجزيل . وقد كان عمر بن الخطاب نهى عن كثرة الإصداق ثم رجع عن ذلك ؛ كما روى الإمام أحمد بسنده عن عمر ابن الخطاب : « ألا لا تغالوا فى صداق النساء ، فإنها لو كانت مكرمة فى الدنيا أو تقوى عند الله كان أولاكم بها النبى ﷺ ؛ ما أصدق رسول الله ﷺ امرأة من نسائه ولا أصدقت امرأة من بناته أكثر من اثنتى عشرة أوقية ، وإن كان الرجل ليبتلى بصدقة امرأته حتى يكون لها عداوة فى نفسه، وحتى يقول: كلفت إليك علق القربة»(١) .

وعن عمر بن الخطاب قال : «لا تزيدوا فى مهور النساء وإن كانت بنت ذى القصة - يعنى يزيد بن الحصين الحارثى - فمن زاد ألقيت الزيادة فى بيت المال »، فقالت امرأة من صفة النساء طويلة، فى أنفها فطس : ما ذاك لك، قال : «ولم» ؟ قالت : إن الله قال : ﴿ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا ﴾ الآية . فقال عمر : « امرأة أصابت ورجل أخطأ »؛ ولهذا قال منكرًا: ﴿ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ﴾ ؟!

أى: وكيف تأخذون الصداق من المرأة وقد أفضيت إليها وأفضت إليك. قال ابن عباس ومجاهد والسدى وغير واحد : يعنى بذلك الجماع ؛ وقد ثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال للمتلاعنين بعد فراغهما من تلاعنهما: « الله يعلم أن أحدكما كاذب ، فهل منكما تائب؟» قالها ثلاثًا ، فقال الرجل : يا رسول الله مالى - يعنى ما أصدقها - قال: « لامال لك ، إن كنت صدقت فهو بما استحللت من فرجها ، وإن كنت كذبت عليها فهو أبعد لك منها » (٢) .

ولهذا قال تعالى : ﴿ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ روى عن ابن عباس ومجاهد وسعيد=

---

(١) أخرجه الترمذى [١١١٤م] وقال : حديث حسن صحيح ، وابن ماجة [١٨٨٧] ، وأحمد فى المسند [١/ ٤٠، ٤١] ، وصححه الألبانى فى صحيح الترمذى [٨٨٩].

(٢) أخرجه البخارى [٥٣١٢، ٥٣٤٩] ، ومسلم [١٤٩٣/٥].

الإسلام فى تكريم المرأة أن الحق يخاطب عباده المؤمنين بألا يجعلوا النساء كالمتاع، فيدخل الرجل بالمرأة دون صداق أو وهن كارهات لهذا الزواج ، وليس على المؤمن أن يضيِّق على المرأة حتى تتنازل له عما أقره الشرع من مهر أو نفقة أو مال، فذلك لا يحل لرجل إلا إذا أتت المرأة بفاحشة أو إثم بيِّن أو فجور، والحق يأمر كل مؤمن أن يحسن معاملة زوجته بالقول والعمل، وإذا حلت الكراهية محل الحب فى الزواج فعلى الرجل أن يصبر وألا يتعجل الطلاق، فعسى أن يجعل الله فيما كرهه الرجل خيرا وتعود المودة من جديد، فعلم هذه الأمور عند الله، أما إذا استحالت الحياة الزوجية، وأراد الرجل أن يطلق زوجته ويرغب فى الزواج من أخرى؛ فليس له أن يأخذ من المرأة أى شىء مما أعطاه لها؛ لأن ذلك هو الباطل والإثم المبين. كيف يسوغ لمؤمن أن يسترد المهر أو المتاع الذى وهبه لزوجته وقد امتزج بها جسدا وروحا؟ كيف يمكن لمؤمن أن يسترد ما وهبه للمرأة بعد هذا الميثاق الغليظ؟ إن الميثاق الغليظ الذى يربط المؤمن بالمؤمنة يحل به للاثنين أشياء لا تحل بين أحدهما وبين أى انسان آخر.

إن الرجل قد يرى زوجته عارية، وقد ترى المرأة زوجها وهو عار، ويبث كل منهما الآخر نجواه وشكواه ومتاعبه وأحلامه وآماله، بما لا يمكن أن يتبادله مع أحد آخر ، ويشترك الاثنان فى إدارة أمور حياتهما بتساند ومودة ورحمة، إن الميثاق بين الرجل والمرأة يأخذ غلظته من أنه دخل فى مناطق

= ابن جبير: أن المراد بذلك العقد؛ عن ابن عباس فى قوله: ﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ قال: إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان . .

وفى صحيح مسلم عن جابر فى خطبة حجة الوداع أن النبى ﷺ قال فيها: «واستوصوا بالنساء خيرًا فإنكم أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله »(١) . [تفسير ابن كثير : ١/ ٤٤٠-٤٤٣] بتصرف.

---

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم [١٢١٨/١٤٧].

العورات وأباحها للزوجين، والميثاق بين الرجل والمرأة فى الزواج أخذ غلظته ـ أى شدته وعمقه ـ من صلة الإفضاء، فكل يفضى بما عنده من مشاعر وأحاسيس وامتزاج روحى وجسدى، تقوم على أساسه الأسرة ورعاية الأبناء وذلك قول الحق تعالى: ﴿وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ ومن آداب العشرة بين الرجل والمرأة فى الإسلام ما يوضحه قول الخالق الحكيم: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٨٧] .

إن الحق تبارك وتعالى يُعلمنا أن صيام رمضان لا يعنى عدم المعاشرة الزوجية ، فقد عَلِمَ الله أن المؤمنين ينقصون حظ نفوسهم ويظلمونها، لذلك أذن لهم بالمباشرة ليلة الصيام ولا حرج فى ذلك، ولكن ما أن يظهر الخيط الأبيض من الخيط الأسود؛ وهو موعد بدء الصيام، فعلى الرجل والمرأة أن يمتنعا عن المباشرة كما امتنعا عن الطعام والشراب، كذلك تمتنع المباشرة حال الاعتكاف بالمسجد، وتلك حدود الله، وعلى المؤمنين الالتزام بها.

ولو كان بنو إسرائيل آمنوا بالتوراة وبموسى نبيا مرسلا من عند الله لآمنوا بالقرآن؛ لأنه لا يخالف أوامر الله الموجودة فى التوراة المنزله على موسى ففيها الأمر بعبادة الله وحده؛ لأنه هو الذى أوجد، وهو الذى أنعم، وفيها معاملة الوالدين بالإحسان لأنهما السبب المباشر فى الوجود، وكما

ربى الله عباده بالنعم فالوالدان مكلفان من الحق أن يربيا الابن صغيرا، والإحسان للوالدين ليس مجرد نفقة مادية يؤديها الإنسان على كره منه(1).

(1) عن طيسلة بن ميَّاس قال: كنت مع النَّجَدَات(1)، فأصبت ذنوباً لا أراها إلا من الكبائر، فذكرت ذلك لابن عمر قال: ما هى؟ قلت: كذا وكذا. قال: ليست هذه من الكبائر، هن تسع:
الإشراك بالله، وقتل نسمة، والفرار من الزحف، وقذف المحصنة، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، وإلحاد فى المسجد، والذى يستسخر(2)، وبكاء الوالدين من العقوق. قال لى ابن عمر: أتفرق(3) من النار وتحب أن تدخل الجنة؟ قلت: أى، والله! قال: أحىّ والدك؟ قلت: عندى أمى. قال: فو الله! لو ألنت لها الكلام وأطعمتها الطعام لتدخلن الجنة ما اجتنبت الكبائر. أخرجه البخارى فى الأدب المفرد [٨] وصححه الألبانى فى صحيح الأدب المفرد [٦].
وعن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: «لا يجزى ولد والده، إلا أن يجده مملوكاً، فيشتريه فيعتقه». أخرجه البخارى فى الأدب المفرد [١٠] وصححه الألبانى فى صحيح الأدب المفرد [٨].
وعن أبى بردة أن شهد ابن عمر، ورجل يمانى يطوف بالبيت، حمل أمه وراء ظهره يقول:

إنى لها بعيرها المذلَّل   إن أذعرتْ ركابها لم أُذعَرْ

ثم قال: يا ابن عمر! أترانى جزيتها ؟ قال: لا، ولا بزفرة واحدة(4)، ثم طاف ابن عمر فأتى المقام فصلى ركعتين ثم قال: يا ابن أبى موسى! إن كل ركعتين تكفران ما أمامهما. أخرجه البخارى فى الأدب المفرد [١١] وصححه الألبانى فى صحيح الأدب المفرد [٩].
وعن عبد الله بن عمرو قال: جاء رجل إلى النبى ﷺ يبايعه على الهجرة، وترك أبويه يبكيان، فقال: « ارجع إليهما وأضحكهما كما أبكيتهما » أخرجه البخارى فى الأدب المفرد [١٣] وصححه الألبانى فى صحيح الأدب المفرد [١٠]. =

(1) النجدات : أصحاب نجدة بن عامر الخارجى ، وهم قوم من الحروريّة.
(2) يستسخر : الاستخسار من السخرية .
(3) تفرق من النار : الفَرَق ؛ الخوف والفزع .
(4) ولا بزفرة واحدة : المرة من الزفير ، وهو تردد النفس حتى تختلف الأضلاع ، وهذا يعرض للمرأة عند الوضع .

ويأتى الأمر الثالث فى نقاط الميثاق التى تضمنتها الآية الكريمة ، وهو معاملة ذى القربى بالإحسان، إن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يعُمَّ التكافل قطاعات المجتمع الأمر الذى يؤدى إلى النهضة بكل قطاعات المجتمع ، فعندما يعمل الإنسان لينتج عمله ثمارا تسع الإحسان بالوالدين، وتسمح بالارتفاع إلى مقام الإحسان فى معاملة الأقارب ، عندما يعمل كل إنسان بهذا الأسلوب فلابد أن المجتمع كله يرتقى؛ لأننا سوف نجد دوائر الأقارب تلتقى فى مستوى إنسانى راق، لا يسمح بفوارق شاسعة فى مستويات الحياة، ولسوف تتلاحق دوائر القربى، وتزدهر العلاقات الانسانية بما ينقى النفوس من جشع الثراء ولو على حساب أقرب الأقربين، أو جشع تدمير الآخرين.

إن الإحسان فى معاملة ذى القربى، يجعل من المجتمع الإنسانى مجتمعا متكافلا متآزرا، فلن نجد فقيرا يعانى العوز ، ولن نجد مسكينا إلا فى أقل القليل، ولذلك لنا أن نلحظ أن الحق لم يشرع نظام الزواج وعلانيته إلا ليضمن سعادة الأفراد ومعرفة الأنساب، وضرورة التكافل الاجتماعى؛ فيحمل الإنسان مسئولية إيمانية برعاية والديه وأقاربه.

= وعن عروة – أو غيره ـ أن أبا هريرة أبصر رجلين، فقال لأحدهما: ما هذا منك؟ فقال: أبى، فقال: لا تسمه باسمه، ولا تمش أمامه، ولا تجلس قبله. أخرجه البخارى فى الأدب المفرد [٤٤] وصححه الألبانى فى صحيح الأدب المفرد [٣٢].

وعن المغيرة عن النبى ﷺ قال: «إن الله حرَّم عليكم عقوق الأمهات، ومنعاً وهات، ووَأْد البنات، وكره لكم قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال».

أخرجه البخارى [٥٩٧٥].

وعن عبيد الله بن أبى بكر، قال: سمعت أنس بن مالك رضى الله عنه، قال: ذكر رسول الله ﷺ: الكبائر أو سئل عن الكبائر، فقال: « الشرك بالله، وقتل النفس وعقوق الوالدين» فقال: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟» قال: «قول الزور ـ أو قال ـ شهادة الزور» قال شعبة: فأكثر ظنى أنه قال: «شهادة الزور».

أخرجه البخارى [٥٩٧٧]

لن نجد فى دائرة القربى لرجل استخلفه الله فى مال كثير وهو حسن الإيمان من يشكو العوز؛ لأن الارتفاع إلى مقام الإحسان يتطلب من الغنى أن يرعى حق الله فى ذوى قرباه[١] .

وبعد ذلك يأتى فى الميثاق نقطة الإحسان لليتامى : واليتيم من بنى آدم هو فاقد الأب[٢] ؛لأن الأب مسئول عن رعاية الابن مادياً ومعنوياً، لكن اليتيم فى عالم الحيوان هو من فقد الأم، ذلك أن الابن عند الحيوان يعتمد فى نموه وطعامه وتدريبه على الأم،كما أن النسب فى حالة الإنسان يكون واضحا،الأبناء ينسبون لآبائهم،أما فى الحيوانات فيصعب أن نجد النسب؛ ذلك أن الحيوانات لا تعرف نظام الزواج الذى كرم الله به الإنسان، والأم

---

(١) عن ابن عمر قال: أتى رسول الله ﷺ: رجل فقال: يا رسول الله، إنى أذنبت ذنباً كبيراً، فهل لى من توبة؟ فقال له رسول الله ﷺ: «ألك والدان؟ » قال: لا، قال: «فلك خالة؟ » قال: نعم، فقال رسول الله ﷺ: « فبرَّها إذن».

أخرجه أحمد [٢/ ١٤] وأخرجه ابن حبان فى صحيحه [٤٣٥] وصححه الأرنؤوط، وصححه الشيخ شاكر برقم [٤٦٢٤].

وعن أنس أن رسول الله ﷺ قال فى مرضه: « أرحامكم، أرحامكم ».

أخرجه ابن حبان فى صحيحه [٤٣٦] وصححه الأرنؤوط.

وعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: « من سرَّه أن يبسط له فى رزقه أو ينسأ فى أثره فليصل رحمه». أخرجه البخارى [٢٠٦٧].

(٢) اليتم: الانفراد؛ عن يعقوب. و اليتيم: الفرد. واليُتْم واليَتَم: فقـدان الأب، وقـال ابن السكيت: اليُتم فى الناس من قبل الأب، وفى البهائم من قبل الأم، ولا يقال لمن فقد الأم من الناس يتيم، ولكن منقطع. قال ابن برى: اليتيم الذى يموت أبوه، والعجىّ الذى تموت أمه، واللطيم الذى يموت أبواه. وقال ابن خالويه: ينبغى أن يكون اليُتم فى الطير من قبل الأب والأم ؛ لأنهما كليهما يزقّان فراخهما، وقد يَتِم الصبى، بالكسر، يَيْتَم يُتْما ويَتْما، بالتسكين فيهما. ويقال: يَتَم ويَتِم وأَيْتَمه الله، وهو يتيم حتى يبلغ الحلم. الليث: اليتيم الذى مات أبوه فهو يتيم حتى يبلغ، فإذا بلغ زال عنه اسم اليتم، والجمع أيتام ويتامى ويَتَمَة. [لسان العرب: ١٢/ ٦٤٥]

فى المجتمع الإنسانى ترعى وتعطى حنانا وقيما ، والأب يعطى قدوة فى الحصول على الرزق الحلال،ورحم الله أمير الشعراء أحمد شوقى حين قال:

ليس اليتيمُ من انتهى أبواه من ... همِّ الحياة وخلَّفاه ذليلا
فأصاب بالدنيا الحكيمة منهما ... وبحسنِ تربيةِ الزمان بديلا !
إن اليتيم هو الذى تلقى له ... أُما تخلَّتْ أو أَبًا مشغولا(١)

ونحن نرى فى هذا العصر الكثير من النساء المتخليات عن الأبناء ، ونرى أن مهمة الأم فى الحياة شاقة: حمل، ورضاعة، ورعاية لثلاثين شهرا، لقد حملته كرها، ووضعته ألما. ومهمة الأب فى الحياة شاقة: إنه قدوة سلوكية للابن، ورعاية كاملة عاطفياً وعقلياً للأسرة؛ لذلك فالرحمة واجب إيمانى من الابن لأبويه.

وتأتى النقطة التالية فى مواد الميثاق الذى أخذه الله على بنى إسرائيل ، وهى الحث على الإحسان على المسكين ، والمسكين(٢): هو من سكن عن القدرة على الحركة فى الحياة. فأصبحت قدرته على حركة الحياة قليلة ، مما قد يورثه بعض الذلة، لقد أسكنته الحاجة، فلم يعد يملك الحيوية الكاملة

---

(١) من قصيدة العلم ، والتعليم ، وواجب المعلم . [الشوقيات :١/١٤١]

(٢) والِمسْكين والمَسْكين؛ الأخيرة نادرة؛ لأنه ليس فى الكلام مَفْعيل: الذى لا شىء له، وقيل: الذى لا شىء له يكفى عياله، قال أبو إسحاق: المسكين الذى أسكنه الفقر، أى: قلَّل حركته، وهذا بعيد لأن مسكيناً فى معنى فاعل، وقوله: الذى أسكنه الفقر، يخرجه إلى معنى مفعول، والفرق بين المسكين والفقير مذكور فى موضعه، وسنذكر منه هنا شيئاً، وهو مفعيل من السكون، مثل المنطيق من النطق. قال ابن الأنبارى: قال يونس: الفقير أحسن حالاً من المسكين، والفقير الذى له بعض ما يقيمه، والمسكين أسوأ حالاً من الفقير، وهو قول ابن السكيت؛ قال يونس: وقلت لأعرابى أفقير أنت أم مسكين؟ فقال: لا والله بل مسكين، فأَعْلَمَ أنه أسوأ حالاً من الفقير.

[لسان العرب: ١٣/٢١٤]

لأداء عمله بشكل يشبع احتياجاته، والارتفاع إلى مرتبة الإحسان على المسكين له درجة إيمان، ودرجة من ترابط المجتمع وتآزره.

العنصر التالى لما سبق من عناصر الميثاق ألا وهو: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ فهذا هو العنصر السادس من عناصر الميثاق، لقد أراد الحق سبحانه وتعالى أن يبين للمعاصرين لرسالة محمد عليه الصلاة والسلام أن الذى جاء به لم يفاجئ الذين سبق أن أنزل عليهم كتاب من السماء؛ ذلك أن مناهج التكليف الربانية واضحة فى الكتب التى أنزلها الله على الرسل، لكن الغفلة والتحريف هما السبب وراء إحساس البشر بالمفاجأة عند نزول كتاب؛ لذلك قرر الحق سبحانه وتعالى أن يكون كتابه الخاتم منزه عن التحريف؛ فصار معجزة ومنهجاً.

والحق سبحانه وتعالى فى أخذه للميثاق على بنى إسرائيل إنما كان يضع نموذجا للتكاليف الإيمانية التى يجب أن تسير عليها المجتمعات، فالتوحيد وعبادة الخالق عز وجل هى أساس الإيمان، ثم تتواصل بعد ذلك الأساليب التى تصون المجتمع الإنسانى من الانهيار، أو الأمراض الاجتماعية التى تمزق الإنسان من داخله وفى علاقاته بالآخرين، ومن أسس اطمئنان الإنسان للإنسان أن يكون القول حسنا، وأن يكون ذلك القول الحسن متبادلا بين الناس وبعضهم البعض(١)، وكلمة حُسن- بوضع الضمة على حرف الحاء- وكلمة

(١) عن عدى بن حاتم رضى الله عنه قال: كنت عند رسول الله ﷺ فجاءه رجلان: احدهما يشكو العيلة، والآخر يشكو قطع السبيل. فقال رسول الله ﷺ: «أما قطع السبيل فإنه لا يأتى عليك إلا قليل حتى تخرج العير إلى مكة بغير خفير. وأما العيلة فإن الساعة لا تقوم حتى يطوف أحدكم بصدقته لا يجد من يقبلها منه. ثم ليقفن أحدكم بين يدى الله ليس بينه وبينه حجاب ولا ترجمان يترجم له، ثم ليقولن له: ألم أوتك مالاً؟ فليقولن: بلى. ثم ليقولن: ألم أرسل إليك رسولاً؟ فليقولن: بلى. فينظر عن يمينه فلا يرى إلا النار، ثم ينظر عن شماله فلا يرى إلا النار. فليتقين أحدكم النار ولو بشق تمرة، فإن لم يجد فبكلمة طيبة». أخرجه البخارى [١٤١٣]

حَسن - بوضع الفتحة على الحاء- هاتان الكلمتان يراد بهما القول الحسن، وإذا سألنا وما المراد بالقول الحسن؟ فإن البديهة تجيب : القول الحسن هو ما أجاده الإنسان وأتقنه وجعله جميلا ،شكلاً وقولاً وعملاً،والحسن هو ما حسَّنه الشرع،وما حسنه العقل المؤمن مما لم يرد فيه نص من تحسين الشرع،ذلك أن العقل المؤمن هو الذى يجرد نفسه من الهوى؛ ليطابق القول على الفعل، فلا ينطق إلا بما يتفق ومنهج الله.

أما العقل الذى يخضع للهوى ، فهو يفسد بالهوى ما كان يجب أن يكون حسنا، إن الذى يفسد الأداء دائما هو الهوى ، بل إن الهوى يفسد أيضا حكم العقل فى بعض الأحيان، ولذلك قد نجد رأيا معقولا ومقبولا عند إنسان، وقد نجد هذا الرأى غير معقول وغير مقبول عند إنسان آخر، فما الذى يرجعنا جميعاً إلى رأى حسن مجمع عليه؟ إنه الشرع ؛ ذلك أن الشرع لا هوى له إلا مصلحة من شرع له ، فإذا كان المشرع هو الحق جل وعلا فلابد أن ما شرعه الله حسن بالنسبة للإنسان. ذلك أن الإنسان مخلوق لله، والله يحب خلقه ويشرع لهم ما ينفعهم؛ لا فى الدنيا فقط ولكن فى الدنيا والآخرة.

إذن.. فمن هم الناس الذين يجب أن نقول لهم القول الحسن؟ إن القول الحسن للمساوين فى الإيمان يكون أمرًا بالمعروف ونهيًا عن المنكر، وهناك شرط هام فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر؛ إنه شرط القول بالحكمة والموعظة الحسنة،وإذا كان القول من مسلم إلى غير مسلم ولا يرتبط كلاهما بأخوة الإيمان، فعلى المسلم أن يضرب بالقول الحسن القدوة لغير المسلم؛لذلك لابد أن يكون قول المسلم لغير المسلم هو القول الحسن امتثالاً لقول الحق جل وعلا: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾[النحل: ١٢٥] ولماذا كان الأمر الربانى بأن نجادل غير المسلمين بالتى

هى أحسن؟حتى لا تجتمع على المنصوح أو الموعوظ مرارتان؛ المرارة الأولى : أن تخرجه النصيحة مما اعتاد وألف .

والمرارة الثانية: أن يخاطبه مسلم بما يكره .

إذن. .القول الحسن بين المؤمنين بعضهم البعض يكون تواصٍ بالحق وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر، وكذلك يجب أن يكون قول المؤمن حسنا لغير المؤمن؛ حتى لا يؤلمه بتفاخر أو تعال، أو يدعوه بغلظة إلى الخروج مما اعتقد وألف، إنما الدعوة إلى الإيمان تكون بالجدال الحسن.(١)

وننتقل بعد ذلك إلى العنصر السابع فى الميثاق وهو قول الحق: ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ ﴾. إنه أمر بإقامة الصلاة، إن الحق لم يقل: « صلوا»، ولكنه قال: ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ ﴾،وهناك فارق ؛ إن إقامة الصلاة تعنى أداء الصلاة على الوجه الذى يجعل الصلاة مقبولة عند الله . إن تقويم الأمر معناه: إخراجه على الهيئة التى تؤدى الغاية المطلوبة منه(٢)، وهكذا نجد أن الأمر

---

(١) وذلك امتثالاً لقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

(٢) قال الراغب الأصفهانى: الإقامة فى المكان الثبات وإقامة الشيء توفية حقه، وقال: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ ﴾ [المائدة: ٦٨] أى توفوا حقوقهما بالعلم والعمل وكذلك قوله: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ ﴾ ولم يأمر تعالى بالصلاة حينما أمر ولا مدح به حينما مدح.إلا بلفظ الإقامة تنبيها أن المقصود منها توفية شرائطها الإتيان بهيئاتها، نحو ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ ﴾ فى غير موضع: ﴿ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاةَ ﴾ [النساء: ١٦٢] وقوله: ﴿ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ ﴾ [النساء: ١٤٢] فإن هذا من القيام لا من الإقامة وأما قوله: ﴿ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ ﴾ [إبراهيم: ٤٠] أى: وفقنى لتوفية شرائطها وقوله: ﴿ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ ﴾ [التوبة: ٥] فقد قيل عنى به إقامتها بالإقرار بوجوبها لا بأدائها.

[المفردات فى غريب القرآن: ٤٣٣]

بإقامة الصلاة إنما يتضمن أمرين :

الأمر الأول : أن يصلى الإنسان للخالق .

والأمر الثاني :أن يؤدى الإنسان الصلاة على المستوى اللائق بها،أداء لفريضة فرضها الحق تبارك وتعالى. ويجب أن نعلم أن إقامة الصلاة تستدعى اليقظة والحرص عليها، والخشوع عند إقامتها؛ فالصلاة هى الركن الإسلامى الذى لا يتخلى الإنسان المسلم المؤمن بالله أبدًا عنه . (١)

---

(١) قال ابن القيم: والناس فى الصلاة على مراتب خمسة:

أحدها: مرتبة الظالم لنفسه المفرط،وهو الذى انتقص من وضوئها ومواقيتها وحدودها وأركانها.

الثاني: من يحافظ على مواقيتها وحدودها وأركانها الظاهرة ووضوئها، لكنه قد ضيع مجاهدة نفسه فى الوسوسة، فذهب مع الوساوس والأفكار.

الثالث: من حافظ على حدودها وأركانها وجاهد نفسه فى دفع الوساوس والأفكار، فهو مشغول بمجاهدة عدوه ؛ لئلا يسرق صلاته، فهو فى صلاة وجهاد.

الرابع: من إذا قام إلى الصلاة أكمل حقوقها وأركانها وحدودها،واستغرق قلبه مراعاة حدودها وحقوقها؛لئلا يضيع شيئا منها ،بل همه كله مصروف إلى إقامتها كما ينبغى وإكمالها وإتمامها، قد استغرق قلبه شأن الصلاة وعبودية ربه تبارك وتعالى فيها.

الخامس: من إذا قام الصلاة قام إليها كذلك، ولكن مع هذا قد أخذ قلبه ووضعه بين يدى ربه عز وجل، ناظراً بقلبه إليه، مراقباً له، ممتلئاً من محبته وعظمته، كأنه يراه ويشاهده، وقد اضمحلَّت تلك الوساوس والخطرات، وارتفعت حجبها بينه وبين ربه، فهذا بينه وبين غيره فى الصلاة أفضل وأعظم مما بين السماء والأرض، وهذا فى صلاته مشغول بربه عز وجل قرير العين به.

فالقسم الأول معاقب،والثانى محاسب،والثالث مكفر عنه، والرابع مثاب، والخامس مقرب من ربه؛لأن له نصيباً ممن جعلت قرة عينه فى الصلاة، فمن قُرَّت عينه بصلاته فى الدنيا ، قُرَّت عينه بقربه من ربه عز وجل فى الآخرة، وقُرَّت عينه أيضاً به فى الدنيا، ومن قُرَّت عينه بالله قُرَّت به كل عين، ومن لم تقرّ عينه بالله تعالى تقطعت نفسه على الدنيا حسرات. [الوابل الصيب: ٤٠، ٤١]

كما أن الصلاة تربى العبودية المستطرقة فى الناس جميعا، فيعرف البشر أنهم متساوون أمام الحق وإن اختلفت أقدارهم فى الحياة، ذلك أن اختلاف الأدوار والمهام فى الحياة، إنما هو اختيار من الحق للخلق؛ ليعرف أيهم أحسن عملا. ومساواة العباد فى الصلاة أمام الحق إنما ليعرف كل إنسان أنه ضعيف أمام الله؛ فلا يتعالى ولا يتجبر على غيره من خلق الله.

وبعد ذلك يأتى العنصر الثامن فى الميثاق، إنه قول الحق: ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ وقد يتبادر إلى الذهن أن الأمر بإيتاء الزكاة نوع من التكرار؛ ذلك أن الله قد أوصى من قبل بذى القربى واليتامى والمساكين. إن الحق تبارك وتعالى حين يوصى بذى القربى، فإن لذى القربى حقا على المؤمن؛ وإن لم يكن هؤلاء الأقرباء فقراء، وكذلك اليتيم له حق على المؤمن وإن لم يكن فقيرا أو مسكيناً؛ وذلك ليحس اليتيم أنه فى بيئة إيمانية متكافلة، حتى ولو كان ذلك اليتيم غنياً، فإن له على المؤمن حقاً أن يؤنسه بالسؤال عنه أو البشاشة فى وجهه؛ حتى لا يشعر أنه بموت أبيه قد انقطعت صلته بالبيئة الإيمانية.

أما إيتاء الزكاة فهى مسئولية المؤمن الذى سعى بجده واجتهاده، وأفاض الله عليه الرزق بما يكفيه؛ لذلك عليه أن يخرج زكاته؛ لأنها ترعى الفقير فى البيئة الإيمانية؛ فيعرف الفقير أنه غير منبوذ ولا مقطوع الصلة بالإخوة فى الإيمان، وإن لم يكن يتيما أو من ذوى القرابة لأغنياء.

إذن.. إذا كان الفقير يتيما فله حقان، وليس له حق واحد على المؤمن القادر، وإذا كان الفقير من ذوى القربى فله حقان، وليس له حق واحد على المؤمن القادر.

ومن رحمة الله عز وجل بعباده، فإنه يوجه إليهم النداء فى هذه الآية: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٣] وهنا يدعو

الله بنى إسرائيل إلى أن ينضموا إلى الموكب الإيمانى الجديد الجامع ، إن الدعوة لبنى إسرائيل هنا للصلاة هى دعوة للاندماج مع الموكب الإيمانى الجديد، فالمعروف أنه كانت هناك صلاة خاصة لبنى إسرائيل تختلف عن الصلاة التى فرضها الله فى الإسلام؛ من إقامة وقراءة لفاتحة الكتاب ثم ما تيسر من آيات القرآن ثم الركوع ثم السجود.. وهكذا، إنما الصلاة أقوال وأفعال يبدؤها الإنسان بالتكبير، ويختمها بالتسليم بشرائط مخصوصة تتضمن القيام بعناصر القيام وعناصر الركوع وعناصر السجود [1] .

إذن.. فالدعوة هنا لبنى إسرائيل هى دعوة للإيمان بالرسول محمد عليه الصلاة والسلام واتباع تعاليم دينه؛ وذلك حتى لا يظن بنو إسرائيل أن إيمانهم بموسى عليه السلام وبالتوراة فيه إعفاء لهم من اتباع دين الإسلام بتعاليمه، ولا يكفى أن يقول بنو إسرائيل إن ديننا كافينا وإن الإسلام قد جاء لمن لا دين لهم، وهم العرب الذين لا دين لهم، لا، إن القرآن واضح ومحدد ودعوته لبنى إسرائيل للدخول إلى الإسلام دعوة واضحة ومحددة؛ لذلك يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٣] أى أن الحق تبارك وتعالى يعلن لبنى إسرائيل أنه لن يقبل عبادة منهم إلا بشرط الانضمام إلى الموكب الإيمانى الجديد الذى أرسل الله به محمدا ﷺ، لكن لماذا أصدر الله الأمر لبنى إسرائيل بأن يؤتوا الزكاة ؟

(١) قال الزمخشرى فى قول الله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ . يعنى صلاة المسلمين وزكاتهم ﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ منهم؛ لأن اليهود لاركوع فى صلاتهم وقيل الركوع الخضوع والا نقياد لما يلزمهم فى دين الله، ويجوز أن يراد بالركوع الصلاة، كما يعبر عنها بالسجود وأن يكون أمرا بأن يصلى مع المصلين يعنى فى الجماعة، كأنه قيل: وأقيموا الصلاة وصلّوها مع المصلين لا منفردين.
[الكشاف: ١/ ٦٦]

إن لنا أن نتأمل قول الحق قبل هذه الآية عندما حذر الخالق جل وعز بنى إسرائيل: ﴿وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾ [البقرة: ٤١] إن الحق بعد أن يوجه الدعوة لبنى إسرائيل إلى الإيمان بما جاء به الرسول ﷺ، ويحذرهم أن يكفروا به، ويحذرهم أن يشتروا بآيات الله ثمنا قليلا، ويأمرهم أن يتقوه فى هذه الدنيا، بعد ذلك يأمرهم الله بالاتجاه إلى الصفقة الرابحة؛ الصفقة الأخلد والأكثر نفعا؛ صفقة الإيمان بالإسلام. إن الاستكبار والادعاء بأن لهم دينا آخر يؤمنون به ؛ هذا الاستكبار لا يعفيهم من ضرورة الإيمان بالدين الجديد -الإسلام- وأن يكونوا خاضعين لمنهج الله الكامل- الإسلام- وأن يقفوا وراء رسول الله مصلين لله خاضعين له، وأن يدفعوا من أموالهم زكاة، لا أن يحزنوا؛ لأن هناك من ضاعت عليهم أموالهم من قيود الدين الجديد الذى حرّم الربا (١) .

إن الأمر بإيتاء الزكاة لا يصدر إلا ليبعث على الحركة الصحيحة فى الحياة، وأن يعمل الإنسان عملا صالحا ينتج منه دخلا حلالا، فتتسع هذه الأموال لحاجته وحاجة من لا يقدر على الحركة. كأن الحق سبحانه وتعالى يأمر بنى إسرائيل بألا يتكبروا على الإيمان بالإسلام؛ لذلك يأمرهم بالصلاة والزكاة. إن الإيمان بموسى عليه السلام بمفرده، وبالتوراة وحدها ليس كافيا لأن يصل الإنسان عند ربه إلى مرتبة المؤمن، ولا يمكن أن يتخذ أحد من

---

(١) موقف الإسلام من الربا حاسم وقاطع:
قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾ [البقرة: ٢٧٥].
وفى الحديث عن جابر، قال: لعن رسول الله ﷺ: آكل الربا ومؤكِلَهُ وكاتبه وشاهديه، وقال: «هم سواء». أخرجه مسلم [١٥٩٨]

دينه الذى جاء قبل رسالة رسول الله ستارا من التكبر؛ يخفى به عدم الإيمان برسالة رسول الله محمد عليه الصلاة والسلام ، إن الأمر هنا بالصلاة والزكاة والركوع مع الراكعين لله فى ظل الإسلام هو خلع لهذا الاستكبار ، إن الصلاة كما قلنا هى استحضار للعبد لوقفته أمام ربه، وحين يستحضر العبد وقفته بين يدى ربه، فإن كبرياءه يزول ويخشع أمام الكبرياء الأعظم؛ كبرياء الخالق الأكرم ، إن الذى يجعل الإنسان يتكبر هو الغفلة عن رؤية من هو أكبر منه؛ لذلك كانت الصلاة فى الإسلام .

* حتى يبرأ بنو إسرائيل من الكبر .. *



يحدد الله لبنى إسرائيل ما يجب عليهم حتى يبرءوا من الكبر، ومن كتم صفات رسول الله التى جاءت فى التوراة، بأمرين هما :

الأمر الأول : أن ينضموا إلى الموكب الإيمانى الجديد، وأن يصلوا الصلاة - ذات الركوع والسجود- التى جاء بها رسول الله ﷺ.

والأمر الثانى: أن يؤتوا الزكاة، أى: أن يدفعوا نصيبا مما كسبوا من حركتهم فى الحياة؛ ذلك أن العبد المؤمن حين يعطيه الله مقومات الحركة فى الحياة التى هى:

١- الفكر الذى يخطط به.

٢- والطاقة التى تنفعل لمطلوب الفكر وطاقته .

إن النعم التى أنعم الله بها على الإنسان يجب ألا تُهدر، إنما يجب أن يعمل الإنسان عملا صالحا يتسع له بالإنتاج؛ ليشمل ذاته ويشمل من لايقدرون على الحركة، وعلينا أن نعلم أن الحق حين يأمر الإنسان بالحركة فى الحياة ، فإنه يأمره بأن يبذل كل الجهد؛ لينتج أقصى ما يستطيع بكل ما وهبه الله للإنسان من طاقة، وذلك حتى يأخذ الإنسان ما يحتاجه، ويبقى لمن يحتاج نصيب، هذا هو مغزى الأمر من الله للإنسان بالحركة فى الكون.

* ميثاق النواهى لبنى إسرائيل *

بعد أن ذكر الحق بعضا من عناصر الميثاق الذى أخذه على بنى إسرائيل، ما الذى حدث منهم ؟ قال تعالى: ﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلا قَلِيلاً مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴾(1)[البقرة: ٨٣]

إن الأغلبية منهم أعرضت عن ذلك الميثاق ، ولم تطع ما جاء فيه، إلا أقلية منهم انصاعت لأمر الله، وأخذت الدين كما أراده الله، وهكذا نجد أن القرآن الكريم لا يحمل على اليهود أجمعين، إنما يحمل على المخالفين منهم، إن الحق يتكلم بإنصاف الخالق للمخلوق؛ وذلك حتى يثبت لنا أن منهج الله إنما ينزل ليحكم حركة الأرض؛ ليظل الخير موجودا ولو فى قلة من الناس.

إن الحق-صيانة للاحتمال الإيمانى فى قلوب أهل الكتاب - يقول فى كتابه الكريم: ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران: ٧٥].

إن الحق يقرر أن الأمانة صفة فى بعض أهل الكتاب، وأيضا الغدر موجود فيهم، فمنهم مَنْ يظن أن خيانة الأمانة لمن لايعرفون القراءة والكتابة

---

(1) قال أبو الحسن النيسابورى : أى أعرضتم عن العهد والميثاق ، ﴿إلا قَلِيلاً مِّنكُم﴾ يعنى : من كان ثابتًا على دينه ، ثم آمن بمحمد ﷺ ﴿وأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾ كأوائلكم فى الإعراض عما عهد إليكم فى كتابكم، ومعنى الإعراض : الذهاب عن المواجهة إلى جهة العرض . [الوسيط فى تفسير القرآن: ١/ ١٦٧]

مسألة لاعقاب عليها،لكن ذلك قول زور يعاقب عليه الله سبحانه وتعالى.

والحق أيضا- صيانة للاحتمال - يقول عن أهل الكتاب: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٤)﴾ [آل عمران] .

الحق إذن ينصف الخلق وينزل منهجه؛ ليحكم حركة الأرض ويحفظ ذلك المنهج ولو فى قلة من الناس.. لماذا ؟ ليظل الخير موجودا، والشاعر يقول :

إن الذى جعل الحقيقة علقما لم يُخْلِ من أهل الحقيقة جيلا

أى : لم يأت جيل إلى الدنيا خاليًا من حراس الحقيقة رغم مرارتها فى بعض الأحيان؛ وذلك لاستبقاء الحقيقة.

ولنا أن ننظر إلى دقة القرآن حين يورد كلمة: ﴿تَوَلَّيْتُمْ﴾ هنا بمعنى الإعراض (١) ، وهو يوضح ذلك المعنى بشكل قاطع ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلا قَلِيلاً مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾،لنأخذ هنا الدقة الأدائية فى الفهم عن الله،إن تولى بنى إسرائيل وإعراضهم،إلا قلة منهم،يعنى أن الذين تولوا، أعرضوا

(١) قال الراغب الأصفهانى: قولهم : تولَّى : إذا اعدُّى بنفسه: اقتضى معنى الولاية ، وحصوله فى أقرب المواضع منه . يُقال : ولّيت وجهى كذا ؛ أقبلت به عليه .
وإذا عُدِّى بعن، لفظاً أو تقديراً : اقتضى معنى الإعراض وترك قُرْبه، فمن الأول قوله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١]. ﴿وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ . ومن الثانى قوله:﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾[آل عمران:٦٣]، ﴿إِلا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ﴾ [الغاشية: ٢٣]. والتولى قد يكون بالجسم وقد يكون بترك الإصغاء والائتمار. [المفردات فى غريب القرآن: ٥٧١]

عن منهج الله، لكن التولى يأتى فى آية أخرى؛ ليبين بالدقة اختلاف أنواع التولى، حين يقاتل المؤمنون الكافرين ، فإن الحق يوضح الفروق بين ألوان التولى يقول تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلا تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ (١٥) وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٦) ﴾ [الأنفال]

،إن الحق تبارك وتعالى يُحذِّر المؤمنين أن يعطوا ظهورهم فرارا أثناء قتال الكافرين؛ ذلك أن المؤمنين هم الذين صدَّقوا بالحق، وهم الذين يدافعون عنه، ومن يعط ظهره للأعداء فى القتال هربا فله عذاب من الله،لكن المسموح به أن يولى الكفار ظهره؛ ليلتحم مع فئة مؤمنة أخرى تقاتل فى سبيل الله،أو يستخدم الكر والفر بدهاء وحنكة ليهزم الكافرين (١) .

هكذا يصبح التولى بالنية،والمطلع على النوايا والخبايا هو الله جل وعلا،

---

(١) ولذلك قال النبى ﷺ: «أنا فئة كل مسلم» (١) وقال عمر بن الخطاب لما بلغه أن أبا عبيد بن مسعود استقتل يوم الجيش حتى قتل، ولم ينهزم: رحم الله أبا عبيد لو انحاز إلى لكنت له فئة! فلما رجع إليه أصحاب أبى عبيد قال: أنا فئة لكم، ولم يعنِّفهم. وهذا الحكم عندنا ثابت ما لم يبلغ عدد جيش المسلمين اثنى عشر ألفًا لا يجوز لهم أن ينهزموا عن مثليهم إلا متحرفين لقتال،وهو أن يصيروا من موضع =

---

(١) أخرجه أحمد فى المسند [٢/ ١٠٠] عن ابن عمر بلفظ: لقينا العدو، فحاص المسلمون حيصة(١)، فكنت فيمن حاص، فدخلنا المدينة، قال: فتعرضنا لرسول الله ﷺ حين خرج للصلاة، فقلنا: يا رسول الله، نحن الفرَّارون، قال: «لا، بل أنتم العكَّارون(٢)، إنى فئة لكم». وصححه الشيخ شاكر برقم [٥٧٥٢].

---

(١) أى جالوا جولة يطلبون الفرار والمحيص والمهرب والمحيد . [لسان العرب : ٧ / ٢٠]

(٢) رجل عكَّار فى الحرب : عطّاف كرّار ، والعكْرة :الكرّة . وفى الحديث : « أنتم العكّارون» أى: الكرَّارون إلى الحرب والعطّافون نحوها . [لسان العرب : ٤/ ٥٩٩]

فمن تولى بنية الإعراض فله عقاب، ومن تولى بنية الإقبال فله حسن الجزاء،لذلك فالأعمال كلها بالنيات(١)،ويعبر عنها آخر الأمر سلوك واضح. وفى الحياة العادية نحن نرى مؤمنا يولى ظهره لإنسان؛ كالدائن المؤمن لا يريد أن يجرح شعور المدين المؤمن، هنا يكون مثل هذا النوع من التولى بنية حسنة،وليس بنية الإعراض الكارهة للمؤمن الضعيف، ولهذا كان الحكم على نية القلب لحظة التولى: هل هى نية الكرّ المصاحبة للتولى أم لا ؟

وهكذا نجد أن الميثاق الذى أخذه الحق سبحانه على بنى إسرائيل، وأنزله فى كتابه؛ ليكون عظة للمؤمنين بالله من بعد ذلك ؛ هذا الميثاق قد تضمن ثمانية عناصر إيجابية هى: عبادة الحق، والإحسان للوالدين، والإحسان

= إلى غيره مكايدين لعدوهم من نحو خروج من مضيق إلى فسحة، أو من سعة إلى مضيق أو يكمنوا لعدوهم، ونحو ذلك مما لا يكون فيه انصراف عن الحرب، أو متحيزين إلى فئة من المسلمين يقاتلونهم معهم. فإذا بلغوا اثنى عشر ألفاً فإن محمد ابن الحسن ذكر أن الجيش إذا بلغوا كذلك، فليس لهم أن يفروا من عدوهم وإن كثر عددهم، ولم يذكر خلافًا بين أصحابنا فيه، واحتج بحديث الزهرى عن عبيد الله ابن عبد الله أن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ:«خير الأصحاب أربعة،وخير السرايا أربعمائة،وخير الجيوش أربعة آلاف،ولن يؤتى اثنا عشر ألفًا من قلة ولن يغلب» (١). [أحكام القرآن للجصاص: ٣/ ٧٤]

(١) عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها ، أو إلى امرأة ينكحها ، فهجرته إلى ما هاجر إليه ».أخرجه البخارى [١، ٥٤، ٢٥٢٩، ٣٨٩٨، ٥٠٧٠، ٦٦٨٩، ٦٩٥٣] ، واللفظ له ، ومسلم [١٩٠٧/ ١٥٥].

---

(١) أخرجه أبو داود [٢٦١١] عن ابن عباس ولفظه:«خير الصحابة أربعة وخير السرايا أربعمائة، وخير الجيوش أربعة آلاف ولن يغلب اثنا عشر ألفاً من قلة» وصححه الألبانى فى صحيح أبى داود [٢٢٧٥].

لذى القربى، والمساكين، واليتامى، والقول الحسن للناس، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، هذه أوامر إيجابية تعزز الإيمان، وتجعل المؤمنين بمنهج الله مترابطين، ولكن بنى إسرائيل أعرضوا عنها.

بعد ذلك تأتى عناصر النواهى فى الميثاق الذى أخذه الله على بنى إسرائيل: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾ [البقرة: ٨٤]، وعندما نتأمل هذا الميثاق نجد الأمر واضحا بألا يسفكوا دماءهم (١)، وهنا نعرف أن مقابلة جمع بجمع تعنى أن الأمر ينسحب أيضا على المفرد بالمفرد، فعندما يقول الحق: ﴿ لا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ ﴾ فهذا القول يعنى الأمر القاطع بألا تسفك جماعة دم جماعة أخرى، وألا يسفك فرد دم فرد آخر.

إن الحكم الإلهى يُخاطب به المؤمنون كوحدة واحدة؛ لذلك يقول الرسول الكريم ﷺ: «مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثلُ الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى» (٢). فكأن المؤمن إذا اعتدى على مؤمن آخر فكأنه يعتدى على نفسه؛ لأن الإيمان جعل من المؤمنين وحدة واحد.

ومثال آخر على أن المؤمنين وحدة واحدة؛ هو قول الحق تبارك وتعالى:

---

(١) قال القاسمى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ﴾. إخبار فى معنى النهى. والمراد به النهى الشديد عن تعرض بعض بنى إسرائيل لبعض بالقتل والإجلاء؛ أى: لا يقتل بعضكم بعضاً ولا يخرجه من منزله، ﴿ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ ﴾ أى: أظهرتم الالتزام بموجب المحافظة على الميثاق المذكور: ﴿ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾ بلزومه. فهو توكيد للإقرار، كقولك: أقرَّ فلان شاهداً على نفسه. [محاسن التأويل: ٢/ ١٨١]

(٢) أخرجه البخارى [٦٠١١]، ومسلم [٢٥٨٦] واللفظ له، عن النعمان بن بشير.

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ⑩ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ⑪ ﴾ [الحجرات] إن الحق يوضح حقوق الوحدة المؤمنة بأن المؤمنين إخوة، جمع الإيمان بين قلوبهم، فإن ظهر خلاف بين اثنين من المؤمنين، فعلى بقية المؤمنين مسئولية إصلاح هذا الخلاف؛ رعاية لحق الأخوة الإيمانية؛ وذلك حتى يجعل المؤمنون وقاية بينهم وبين عذاب الله، بالامتثال لأوامره واجتناب نواهيه، وفى ذلك رحمة من الله، ويحذر الحق المؤمنين من أن يسخر رجال منهم برجال آخرين؛ لأن قيمة كل مؤمن هى عند الله؛ وهو سبحانه المطلع على خفايا الصدور والقلوب، وقد يكون المؤمن الذى هو محل سخرية أفضل عند الله من الذى سخر منه .

وكذلك يحذر الحق النساء من أن تسخر إحداهن من الأخرى، ويجب ألا يعامل المؤمنون بعضهم البعض بإطلاق ألقاب مستنكرة أو غير لائقة؛ ذلك أن مثل هذا التنابز بالألقاب يؤدى إلى الفسوق بعد الإيمان(1)، ويردع

---

(1) قال المراغى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ . أى أنهم منتسبون إلى أصل واحد وهو الإيمان الموجب للسعادة الأبدية، وفى الحديث: «المسلم أخو المسلم؛ لا يظلمه، ولا يعيبه، ولا يخذله، ولا يتطاول عليه فى البنيان فيستر عليه الريح إلا بإذنه، ولا يؤذيه بقتار قدره إلا أن يغرف له غرفة، ولا يشترى لبنيه الفاكهة فيخرجون بها إلى صبيان جاره ولا يطعمونهم منها»، ثم قال: «احفظوا، ولا يحفظ منكم إلا قليل»(1) وفى الصحيح =

---

(1) أخرجه مسلم [٢٥٨٠] عن سالم عن أبيه ولفظه: «المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يسلمه، من كان فى حاجة، أخيه كان الله فى حاجته ومن فرَّج عن مسلم كربة، فرَّج الله عنه بها كربةً من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة».

= أيضا: «إذا دعا المسلم لأخيه بظهر الغيب؛ قال الملك: آمين، ولك بمثله» (١).
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾. أى لا يهزأ ناس من المؤمنين بآخرين: ثم ذكر العلة فى ذلك فقال: ﴿عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾. أى: فقد يكون المسخور منهم خيراً عند الله من الساخرين، كما جاء فى الأثر: «فرب أشعث أغبر ذى طمرين لا يُؤْبه له(٢)، لو أقسم على الله تعالى لأبره» (٣).
فينبغى ألا يجترئ أحد على الاستهزاء بمن تقتحمه عينه لرثاثة حاله، أو لكونه ذا عاهة فى بدنه، أو لكونه غير لبق فى محادثته، فلعله أخلص ضميرا وأنقى قلبا ممن هو على ضد صفته، فيظلم نفسه بتحقير من وقره الله تعالى: ﴿وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾؛ أى: ولا يسخر نساء من نساء؛ عسى أن يكون المسخور منهن خيرا من الساخرات، وأتى بالجمع فى الموضعين، من قبل أن الأغلب فى السخرية أن تكون فى مجامع الناس، وكم من متلذذ بها، وكم من متألم منها.
روى الترمذى عن عائشة قالت: حكيت للنبى ﷺ رجلا فقال: «ما يسرنى أنى حكيت رجلا وأن لى كذا وكذا». قالت: فقلت: يا رسول الله، إن صفية امرأة - وقالت بيدها هكذا- تعنى أنها قصيرة، فقال: «لقد مزجت بكلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته»(٤).
وروى مسلم عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»(٥). وفى هذا إيماء إلى أن المرء لا يقطع بمدح أحد أو عيبه؛ كما يرى عليه من صور أعمال الطاعة أو المخالفة؛ فلعل من يحافظ على الأعمال الظاهرة، يعلم الله من قلبه وصفا مذموما لا تصح معه تلك =

---

(١) أخرجه مسلم [٢٧٣٢/ ٨٧] عن أبى الدرداء بلفظ: «من دعا لأخيه بظهر الغيب، قال الملك الموكل به: آمين، ولك بمثل». وأخرجه أبو داود [١٥٣٤].
(٢) ذى طمرين: أى صاحب ثوبين خلقين. لا يُؤْبه له: لا يُبالى به ولا يُلتفت إليه.
(٣) أخرجه الترمذى [٣٨٥٤] عن أنس بن مالك: ولفظه: «كم من أشعث أغبر ذى طمرين لا يُؤْبَهُ له لو أقسم على الله لأبره، منهم البراء بن مالك». وصححه الألبانى فى صحيح الترمذى[٣٠٢٨]
(٤) أخرجه الترمذى [٢٥٠٢] بلفظ: «... لو مزجت بها ماء البحر لمزجت» بدلا من: «لو مزجت بماء...». وصححه الألبانى فى صحيح الترمذى [٢٠٣٤]
(٥) أخرجه مسلم [٢٥٦٤/ ٣٤].

الله من لا يرجع عن ذلك؛ لأنه ظالم لنفسه ولغيره.

وسلوك المؤمن يتجلى ويتضح أكثر وأكثر فى قول الله تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً﴾[النور: ٦١]؛ إن الحق يأمر عباده المؤمنين بأنهم إذا دخلوا بيوتا مؤمنة، فلابد أن يقوموا بتحية أهل هذه البيوت، بالسلام على أهلها الذين هم وحدة من المؤمنين؛ ذلك أن الحق جعل الأمة الأسلامية وحدة واحدة. لذلك فعندما ينهى الحق فى ميثاقه لبنى إسرائيل ألا يقتلوا أنفسهم، فذلك يعنى أن من يقتل مؤمنا برسالة الله، إنما يقتل نفسه[1].

= الأعمال، ولعل من رأينا منه تفريطا أو معصية يعلم الله من قلبه وصفا محمودا يغفر له بسببه؛ فالأعمال أمارات ظنية، لا أدلة قطعية.

﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ﴾ أى: ولا يعب بعضكم بعضا؛ بقول أو إشارة على وجه الخفية. وفى قوله: ﴿أَنفُسَكُمْ﴾ تنبيه إلى أن العاقل لا يعيب نفسه، فلا ينبغى أن يعيب غيره لأنه كنفسه، ومن ثم قال النبى ﷺ: «المؤمنون كجسد واحد إن اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى» [1].

[تفسير المراغى: ٢٦/ ١٣٣-١٣٤] بتصرف.

(١) قال السمرقندى فى قوله تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا﴾، قال مقاتل: يعنى دخلتم بيوتًا للمسلمين، ﴿فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾، يعنى: بعضكم على بعض كما قال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩] يعنى: بعضكم بعضًا.

وروى عمرو بن دينار عن ابن عباس قال: فإذا دخلتم بيوتًا قال: هو المسجد فسلموا على أنفسكم؛ فقولوا: السلام علينا من ربنا. ﴿تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ يعنى السلام، ﴿مُبَارَكَةً﴾ بالأجر ﴿طَيِّبَةً﴾ بالمغفرة. وقال إبراهيم النخعى: ﴿فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾، إذا كان فى البيت إنسان يقول: السلام عليكم، وإذا لم يكن فيه أحد يقول: السلام علينا من ربنا وعلى عباد الله الصالحين، وهكذا قال مجاهد، وقال الحسن والكلبى: ﴿فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾ يعنى بعضكم على بعض. =

(١) سبق تخريجه.

وقوله تعالى: ﴿لا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ﴾ : سفك الدم - وهو صب الدم - يعنى إزهاق الحياة، والدم كما نعرف هو سائل الحياة الحامل للغذاء إلى أجزاء الجسم وإلى المخ، والذى يضخه القلب بحركة لا إرادية للإنسان ولا دخل له فيها؛ لأنها من إرادة الحق واهب الحياة الذى جعل لكل عمر أجلا، وأى إزهاق للروح أو سفك للدم دون قصاص عادل؛ فذلك خروج عن منهج الله، وكذلك أيضا إخراج البعض للبعض. إن من يعتدى على جماعته المؤمنة أو على فرد فيها، فكأنه يعتدى على نفسه؛ لأن الحق جعل الإيمان وجماعته وحدة واحدة، يرتبط كل مؤمن فيها بجماعته.

وبعد ذلك يقول الحق: ﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾(١) [البقرة: ٨٤]

والإقرار هو الاعتراف. والاعتراف هو سيد الأدلة، ويتبع هذا الإقرار الشهادة، والشهادة تعنى التعريف أو الإخبار بشىء كأنه مشاهد وواقع؛ ولذلك المزور فى الشهادة هو من يقول غير الواقع، أى يجعل الأمر غير الواقع؛ واقعاً.

= وروى أبو ذر رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال: «أبخل الناس الذى يبخل بالسلام» (١) ويقال معنى السلام: إذا قال: السلام عليكم يعنى: السلامة لكم منى، فكأنه أمنه من شر نفسه، ويقال: يعنى: حفظكم الله من الآفات، ويقال: السلام هو الله، فكأنه الله حفيظ عليكم ومطلع على ضمائركم، فإن كنتم فى خير فزيدوا، وإن كنتم فى شر فانزجروا، ﴿تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ وأصل التحية هو البقاء والحياة كقوله: حيَّاك الله، وإنما صار نصبًا على المصدر. [بحر العلوم: ٢/ ٤٥٠]

(١) قال البيضاوى فى قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ توكيد؛ كقولك: أقرّ فلان شاهدًا على نفسه، وقيل: وأنتم أيها الموجودون تشهدون على إقرار أسلافكم، فيكون إسناد الإقرار إليهم مجازًا. [أنوار التنزيل وأسرار التأويل: ١/٧٣]

وقال الراغب الأصفهانى: يضاد الإقرار الإنكار، وأما الجحود فإنما يقال فيما ينكر باللسان دون القلب. [المفردات فى غريب القرآن: ٤١٣]

(١) جزء من حديث ذكره الهيثمى فى المجمع [٢/١٢٣] عن عبد الله بن مغفل وقال: رواه الطبرانى فى الثلاثة ورجاله ثقات.

إن الحق يخاطب بنى إسرائيل المعاصرين لرسول الله ﷺ، فيُذكّرهم بما كان من آبائهم الأولين وموقفهم من موسى عليه السلام، ذلك أن هؤلاء القوم المعاصرين لرسول الله قد طبقوا أشياء جاءت بها التوراة؛ لأنها وافقت أهواءهم، ولم يطبقوا الأخرى لأنها لم توافق أهواءهم، ولنا أن نلحظ أن هذه الآيات كانت تشرح ما لاقاه رسول الله من عنت وخبث يهود المدينة، فالرسول الكريم عندما هاجر إلى المدينة كانت هجرته هى انتقال من دار شرك- التى هى مكة - فى ذلك الوقت ، إلى دار إيمان- التى هى المدينة - ومعنى دار إيمان: أن هناك إيمانا قد سبق الرسول إليها؛ ذلك أن هناك قوما من المدينة جاءوا إلى العقبة، وعاهدوا الرسول على الإيمان بما جاء به من رسالة الحق، وأرسل الرسول ﷺ مصعب بن عمير ليعلمهم أمر دينهم(١).

---

(١) قال الدكتور محمد أبو شهبة : لما انصرف القوم من الأوس والخزرج إلى المدينة كتبوا إلى رسول الله ﷺ: أن ابعث إلينا من يقرئنا القرآن ، وقد صادف هذا هوًى من نفس النبى ﷺ ، فأرسل إليهم الصحابى الجليل مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف ابن عبد الدار بن قصى ، وأمره أن يُقرئهم القرآن ، ويُعلّمهم الإسلام ، ويُفقههم فى الدين ، وأن يؤمهم فى الصلاة ؛ وذلك أن الأوس والخزرج كره كل منهم أن يؤمه الآخر ، وكان يسمى بالمدينة « المقرئ » و « القارئ» ، وكان نزوله بالمدينة على السيد الصحابى الجليل السابق إلى الخير سيد الخزرج ، ونقيب بنى النجار: أسعد بن زرارة ابن عدس بن أبى أمامة .

وقد نجح داعية الإسلام بالمدينة فى إسلام الكثيرين من أهلها ، ومن أجلّهم سعد ابن معاذ، وأسيد بن حضير، وبإسلامهما أسلم الكثيرون من بنى عبد الأشهل وغيرهم وإليك قصة مصعب معهما، فإن فيها أسوة حسنة لكل داع إلى الله وإلى الإسلام بإخلاص وعقيدة وتفان فى سبيل الدعوة.

ذلك أن مصعب بن عمير نزل على أسعد بن زرارة سابق الأنصار إلى الإسلام ، فخرج أسعد بمصعب يريد دار بنى عبد الأشهل ، ودار بنى ظفر ، فدخل به أسعد =

. . . .

= حائطا [1] من حيطان بنى ظفر على بئر يقال لها : بئر مرق ، فجلسا فى الحائط ، واجتمع إليهما رجال ممن أسلم ، وكان سعد بن معاذ ، وأسيد بن حضير سيدى قومهما من بنى عبد الأشهل ، وكانا مشركين على دين قومهما ، فلما سمعا بمصعب بن عمير ونشاطه فى الدعوة إلى الإسلام قال سعد لأسيد : لا أبا لك ، انطلق إلى هذين الرجلين اللذين أتيا دارينا ليسفّها ضعفاءنا فازجرهما ، وانههما أن يأتيا دارينا ، فإنه لولا أسعد بن زرارة منى حيث قد علمت، كفيتك ذلك ؛ هو ابن خالتى ولا أجد عليه مقدمًا .

فأخذ أسيد بن حُضير حربته ثم أقبل عليهما ، فلما رآه أسعد بن زرارة قال : هذا سيد قومه وقد جاءك فأصدق الله فيه . قال مصعب : إن يجلس أكلمه : فوقف عليهما متشتمًا ، فقال : ما جاء بكما تسفهان ضعفاءنا ؟! اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة . فقال له مصعب بلسان المؤمن الهادئ الواثق من سماحة دعوته : أوَ تجلس فتسمع ، فإن رضيت أمرًا قبلته ، وإن كرهته كف عنك ما تكره ؟!

قال أسيد : أنصفت. ثم ركز حربته ، وجلس إليهما ، فكلمه مصعب بالإسلام ، وقرأ عليه القرآن ، فقالا فيما يذكر عنهما : والله لعرفنا فى وجهه الإسلام قبل أن يتكلم؛ فى إشراقه وتسهله . ثم قال : ما أحسن هذا الكلام وأجمله ! كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا فى هذا الدين ؟ قالا له : تغتسل فتطهر وتطهر ثوبيك ، ثم تشهد شهادة الحق ، ثم تصلى . فقام فاغتسل وطهر ثوبيه وتشهد شهادة الحق ، ثم قام فركع ركعتين ، ثم قال لهما : إن ورائى رجلا إن اتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه، وسأرسله إليكم الآن : سعد بن معاذ.

ثم أخذ حربته وانصرف إلى سعد وقومه وهم جلوس فى ناديهم ، فلما نظر إليه سعد مقبلا قال : أحلف بالله لقد جاءكم أسيد بن حضير بغير الوجه الذى ذهب به من عندكم !! فلما وقف على النادى قال له سعد : ما فعلت ؟ قال : كلمت الرجلين فوالله ما رأيت بهما بأسا وقد نهيتهما فقالا : نفعل ما أحببت ، وقد حدثت أن بنى حارثة خرجوا إلى أسعد بن زرارة ليقتلوه ؛وذلك أنهم عرفوا أنه ابن خالتك ليحقروك [2]. =

---

(١) حائطًا : بستانًا .

(٢) كان غرض أسيد إثارة حمية سعد ليقوم ويذهب إلى أسعد وصاحبه مصعب، ويسمع منه .

إذن.. هذه الهجرة تختلف عن الهجرة السابقة عليها من بعض المؤمنين إلى الحبشة، حيث هاجروا إلى دار آمنة(1)، أى: يأمنون فيها على أنفسهم من سوء المعاملة.

= فقام سعد مغضبًا مبادرًا مخوفًا للذى ذكر له من أمر بنى حارثة، وأخذ الحربة فى يده ثم قال: والله ما أراك أغنيت شيئًا، ثم خرج إليهما سعد فوجدهما مطمئنين، فعرف أن أسيدًا إنما أراد أن يسمع منهما، فوقف متشتمًا، ثم قال لأسعد بن زرارة: والله يا أبا أمامة، لولا ما بينى وبينك من القرابة ما رمت هذا منى، أتغشانا فى دارنا بما نكره وكان أسعد قد قال لمصعب: لقد جاءك - والله - سيد مَنْ وراءه من قومه، إن يتبعك لا يتخلف منهم اثنان. فقال له مصعب: أو تقعد فتسمع؟ فإن رضيت أمرًا ورغبت فيه قبلته، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره. فقال سعد: أنصفت. ثم ركز الحربة وجلس فعرض عليه الإسلام، وقرأ القرآن، وذكر موسى بن عقبة أنه قرأ عليه أول سورة الزخرف، قالا: فعرفنا - والله - فى وجهه الإسلام قبل أن يتكلم فى إشرافه وتسهله.

ثم قال لهما: كيف تصنعون إذا أنتم أسلمتم، ودخلتم فى هذا الدين؟ قالا: تغتسل، فتطهر وتطهر ثوبيك، ثم تشهد شهادة الحق، ثم تصلى ركعتين. فقام فاغتسل، وطهر ثوبيه، وشهد شهادة الحق، ثم ركع ركعتين، ثم أخذ حربته فأقبل عائدًا إلى نادى قومه ومعه أسيد بن حضير، فلما رآه قومه مقبلا قالوا: نحلف بالله لقد رجع إليكم سعد بغير الوجه الذى ذهب به من عندكم. فلما وقف عليهم قال: يا بنى عبد الأشهل، كيف تعلمون أمرى فيكم؟ قالوا: سيدنا وأفضلنا رأيًا وأيمننا نقيبة. قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم على حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله. قال: فوالله ما أمسى فى دار بنى عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلمًا أو مسلمة.

ورجع أسعد ومصعب إلى منزل أسعد بن زرارة فأقام عنده يدعو الناس إلى الإسلام، حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال مسلمون ونساء مسلمات، إلا ما كان من الأصيرم وهو عمرو بن ثابت بن وقش، فإنه تأخر إسلامه إلى يوم أحد فأسلم، واستشهد بأحد، ولم يصل لله سجدة قط، وأخبر رسول الله ﷺ أنه من أهل الجنة. [السيرة النبوية فى ضوء القرآن والسنة: ١/ ٤٤٠-٤٤٣]

(1) قال الحسن بن عمر بن حبيب فى الهجرة إلى الحبشة: خرج من الصحابة اثنا عشر رجلا، وأربع نسوة سرًا، حيث سمعوا من قريش ما يكرهون ولقوا منهم شرًا، =

أما الهجرة إلى المدينة فكانت هجرة إلى دار إيمان، وجاء الرسول ﷺ إلى المدينة وبها خميرة إيمانية؛ لأنه أخذ العهد عليهم أن ينصروه فيما ينصرون فيه أنفسهم، وما إن دخل الرسول ﷺ إلى المدينة؛ حتى أصبح هذا الدخول إفسادا لخطة اليهود فى زرع الشقاق بين القبائل والسيطرة عليهم، وفرض الوصاية عليهم، وكانيهود المدينة؛ كما نعلم، هم: بنو قينقاع، وبنو النضير ، وبنو قريظة.

وكانت القبيلتان العربيتان الكبيرتان هما: الأوس والخزرج، وكان بينهما عداوة وحروب دائمة، يؤججها ويشعلها اليهود، وحتى يضمن اليهود السيطرة على إشعال الفتنة بين القبيلتين؛ قسموا أنفسهم بين القبيلتين؛

= حتى انتهوا إلى الشُّعيبة [1] البحرية ، فوجدوا بها قومًا ذوى أثنيةٍ عطرية ، فرفقوا وحملوهم ، وإلى أرض الحبشة فى السفينة نقلوهم .

وخرجت قريش فى طلبهم ، فلم يصلوا من اللحاق بهم إلى إربهم .

فلما قدموا إلى الأرض المذكورة ، جاوروا ملكًا (٢) بها سيرته مشكورة ، وأقاموا آمنين على أنفسهم ودينهم ، مشتغلين بعبادة هاديهم ومعينهم .

ثم سمعوا أن قريشًا أسلموا ، وتأخروا عن هوة الهوى وأحجموا ، فعادوا إلى مكة ورجعوا ، فلما دخلوها وجدوا الأمر بخلاف ما سمعوا ، فاشتد عليهم القوم ، وقابلوهم بالتعنيف واللوم ، فأذن لهم النبى ﷺ بالخروج فخرجوا ، وإلى عشهم الذى أتوا منه درجوا (٣) .

وكانوا ثلاثة وثمانين من الرجال ، وثمانى عشرة من ذوات الحجال ، أقاموا عند النجاشى حينًا من الدهر ، وهو يحسن إليهم ويتفضل عليهم فى السر والجهر.

فلما بلغتهم الهجرة الشريفة ، وأتى لهم خبر النقلة المنيفه ؛ رجع بعضهم إلى ناصب علم تمييزهم ، وتأخر الباقون إلى أن كتب الملك بتجهيزهم ، فحملهم فى السفينة ، حسب الأمر إلى المدينة . [المقتفى من سيرة المصطفى : ٦٤، ٦٥]

---

(١) الشعيبة : كانت مرفأ السفن إذ ذاك .

(٢) هو النجاشى .

(٣) درجوا : عادوا .

الكبيرتين، انضم قسم من اليهود إلى الأوس، وقسم آخر مع الخزرج؛ وذلك ليشعلوا الفتنة، ويضمنوا فى نفس الوقت السلامة لو فازت قبيلة على أخرى، وكأنه نفس المنهج الذى يمارسونه فى العصر الحديث، يتسللون إلى المناصب الحساسة فى بعض الدول، ويشعلون فتنة وادعاء اضطهاد؛ ليستدروا عطف الدول الأخرى، ويمهد يهود آخرون لأنفسهم؛ ليتسللوا إلى المراكز الحساسة فى الدول الأخرى، ويمارسون ضغوطا وابتزازا على هذه الدول برفع شعار معاداة السامية مثلا لمزيد من الابتزاز، ومن خلال ذلك الابتزاز فى العالم، يمارسون العدوان على العرب والمسلمين. وهكذا نرى أنهم يحاولون احتواء القوى السياسية ليضمنوا الفوز.

وعلى عهد الرسول ﷺ كان اليهود من بنى النضير، وبنى قينقاع مع الخزرج، وكان بنو قريظة مع الأوس، وكان إذا حدث اشتباك مسلح دموى بين الأوس والخزرج، وانتهت المعركة فما الذى كان يحدث ؟ كان الأسير من اليهود المتحالفين مع الخزرج يجد من اليهود المتحالفين مع الأوس مساندة ومساعدة وفدية لفك أسره، وإذا انتصرت الأوس وأخذت أسرى من اليهود، كان اليهود المتحالفون مع الخزرج سباقين إلى فك أسر اليهود المتحالفين مع الأوس والمأسورين لديها؛ وذلك استنادا إلى مبدأ فى العقيدة اليهودية، بأن على اليهودى أن يفك أسر اليهودى مهما كان المعسكر الذى ينضم إليه، وهكذا نجد أنهم كانوا يسفكون دم بعضهم البعض أثناء القتال، ويخرجون بعضهم البعض من الديار أثناء القتال بحكم تحالفهم بين معسكرين، ثم لا يلبثون إلا قليلا، ثم يتعاونون على فك أسر بعضهم البعض .

لذلك جاء فى ميثاق النواهى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ (٨٤) ثُمَّ أَنتُمْ هَؤُلاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم

بالإثم والعدوان وإن يأتوكم أسارى تفادوهم وهو محرم عليكم إخراجهم أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون (٨٥)﴾[البقرة]. كأن قتالهم لبعضهم البعض وسفك دمائهم بعضهم البعض أثناء انقسامهم بين معسكرى القبيلتين: هو نوع من العبث بآيات الله؛ إنهم لا يقبلون الإيمان بمنهج الله الكامل الذى أنزله إليهم مع موسى، لكنهم يؤمنون ببعضه ويكفرون ببعضه، إنهم يخرجون بعضهم البعض من ديارهم ،حسب انتماء بعضهم البعض إلى معسكرى القبيلتين، إنهم يتظاهرون على بعضهم بالإثم والعدوان، ثم بعد ذلك يعملون على فك أسر اليهودى الذى وقع فى المعسكر المنتصر، رغم أنه محرم عليهم إخراجهم؟!

لذلك فالحق سبحانه يخبر نبيه ﷺ أن مثل هذا السلوك المتواطئ ، يعنى أنهم قوم نسوا تعاليم الإيمان، أو أخذوا بعضا من الكتاب يؤمنون به حسب هواهم، وكفروا بالبعض الآخر الذى ليس على هواهم[١]، هكذا يقومون بتبعيض الإيمان رغم أن الإيمان وحدة واحدة، وأن ما قاموا به من عمل فى ظاهرة الإيمان لم يكن الدافع إليه هو الحق أو قضية الإيمان، إنما لأنه وافق هوى فى أنفسهم؛ ذلك أن هناك فارقا بين أن ينفذ إنسان الحكم لأن الإيمان قد فرضه، وبين أن ينفذ الإنسان الحكم لأن مصلحته وافقت مطلوب الإيمان. لقد كان اليهود بعد انتهاء القتال بين القبيلتين إما أن يفتدوا الأسرى بالمال أو بتبادل الأسرى. والأسير[٢] تُجمع فى اللغة

---

(١) قال السمرقندى فى قوله تعالى : ﴿أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض﴾ لأنهم كانوا إذا أسروا من غيرهم قتلوا الأسرى ولا يفادوهم، وإن أسر منهم أحد يأخذوهم بالفداء. [بحر العلوم : ١/ ١٣٥]

على طريقتين: مرة تجمع أسرى، ومرة تجمع أسارى، والأصل فى كلمة أسير: أنه مقيد الحركة، ونحن نعرف أن الأسير إنما هو مقاتل كان يشترك فى معركة، كل طرف يكاد يبيد الآخر، وكل غرائز العدوان والدفاع تنطلق من إسارها، ويكاد كل واحد أن يفتك بعدوه.

عندما يحدث الأسر لواحد من معسكر الطرف الخصم، فإن فى ذلك الأسر تهدئة لسعار القتال والفتك، وكأن الحق قد أراد أن يحمى البشرية من شراسة نفوس الجماعات المتقاتلة وقت الحرب، فيأمرهم بأن يأسروهم، بحيث لا يقتل إنسان آخر إلا مضطرا؛ لأنه إن لم يقتله فقد يكون الآخر قاتله، لكن إذا استطاع إنسان مقاتل أن يأسر واحدا من معسكر العدو، فهو يعلم أن أخذه لهذا الأسير يفيد فى عملية تبادل الأسرى، كأن الله يحفظ بذلك دماء الناس حتى وقت اشتداد الحرب، وكأن تشريع الأسرى من رحمة الله بعباده؛ لأنه لولا ذلك التشريع لقتل كل قوم الأسير الذى يأسرونه، وهذا التشريع الإسلامى فيه حقن لدماء الناس.

إن بعضا من خصوم الإسلام يأخذون على الإسلام أنه أباح قتل الأسرى متأولين خطأ لقول الله تعالى سبحانه : ﴿**مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾(1) [الأنفال: ٦٧] ولهؤلاء نقول: أنتم لم تفهموا روح العقائد التى

---

(٢) قال أبو إسحاق: يجمع الأسير على أسرى، قال: وفَعْلى جمع لكل ما أصيبوا به فى= = أبدانهم أو عقولهم، مثل: مريض ومرضى، وأحمق وحمقى، وسكران وسكْرى؛ قال: ومن قرأ: أسارى وأُسارى، فهو جمع الجمع. يقال: أسير وأسرى، ثم أسارى جمع الجمع. [لسان العرب: ٤/ ١٩]

(١) قال الكيا الهراسى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾.

فأباح بهذه الآية أسرهم إذا أثخناهم بالجراح وغيره. وبين أن أمرهم إلى الإمام، فإن شاء من عليهم بإطلاق من غير فداء، وإن شاء فادى، وإن شاء قتل، على ما يراه

شرعت الأسر وفداء الأسير وشرعت أيضا عقاب مجرم الحرب. إن الآية الكريمة نزلت على رسول الله ﷺ؛ لتضع دستورًا واضحًا فى معاملة مجرمى الحرب؛ الذين يزرعون أسبابها ويعتدون. إن الرسول لم يهاجم قريشا، ولكن قريشا هى التى جاءت لقتال رسول الله فى بدر، وهذه الموقعة دخلها المسلمون، ولم يكن الله قد مكَّن لهم فى الأرض؛ لذلك ينبه الله رسوله ﷺ أنه ما كان للمسلمين أن يتخذوا أسرى من هؤلاء الذين أصابهم سعار الحرب، إنهم ليسوا محاربين، ولكنهم مشعلو فتنة ومسعّرو حرب، ورغم ذلك التنبيه على الرسول ﷺ إلا أنه يتلقى من الله وحيا يعفو به عن خطأ فى الاجتهاد، ويأمر المسلمين بأن يقتسموا غنائم الحرب التى آزرهم فيها الله ونصر الفئة القليلة على الفئة الكثيرة الباغية، وهكذا نفهم أن الإسلام يفرق بين: أسير الحرب، ومجرم الحرب، إن الأسير هو الذى دفعه آخرون للقتال، وعندما يقع فى الأسر، فإن المؤمنين يكفون شره كقاتل مدفوع إلى ذلك، أما مشعل الفتنة ومثير الحروب، فإن التشريعات المعاصرة تحاكمه بعد انتهاء الحرب. فلماذا إذن أخذوا هذا المبدأ عن الإسلام؟

فى شريعة الإسلام هناك أسس وقواعد تأتى أثناء عرض الحق لأسلوب مواجهة الكافرين أثناء الحرب: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾﴾(١) [محمد] إن على المؤمنين بالله ضوابط

الأصلح للإسلام والمسلمين. [أحكام القرآن: ٣ / ٣٧٣]

(١) قد اختلف العلماء فيما دلت عليه الآية الكريمة فى مواضع: منها المراد بالذين كفروا،

فذهب بعضهم: إلى أنهم المشركون، وهو مروى عن ابن عباس. وذهب بعضهم إلى=
= أن المراد: كل من ليس بيننا وبينهم عهد ولا ذمة، ويظهر أن هذا هو الصحيح؛ إذ الآية عامة، والتخصيص لا دليل عليه.
وقد اختلف أيضًا فى المراد من ضرب الرقاب؛ فذهب السدى: إلى أن المراد منه القتال، وذهب جماعة على أن المراد منه: قتل الأسير صبراً، والظاهر الأول، فإنه الذى ينساق إليه الذهن من قول الله: ﴿فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ﴾، إذ جعل الإثخان- وهو الإضعاف- غاية لضرب الرقاب، فأين قتل الأسير صبرًا ؟ وهو إنما يقع فى الأسر بعد إثخانه وضعفه ،وكذلك اختلف العلماء فى المراد من الفداء، فقال بعضهم: المراد من المفاداة العتق. وقال بعضهم: إن المراد إطلاق سراحهم فى مقابل ما يأخذه المسلمون منهم، وقد يكون المقابل أسرى من المسلمين عند الكفار، عن طريق التبادل، حسبما يتيسر عند المفاداة، وقد يكون المقابل مالا، أو عتادًا يأخذه المسلمون فى نظير أسرى الحرب.
واختلفوا كذلك فى المراد من وضع الحرب أوزارها، بعد الذى علمت من معانى الأوزار، فقال بعضهم: إن وضع الأوزار كناية عن الإيمان ، والمعنى: حتى يؤمنوا ويذهب الكفر، وقال بعضهم: بل المراد حتى ينزل عيسى عليه السلام، وأنت لو نظرت إلى قول الله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٣]. رجحت الأول على الثانى، نعم إن نزول عيسى قد ورد فيه أنه حين يكون لا يكون على ظهر الأرض كافر، ولكن نزول عيسى أمرٌ لا شىء فى الآية، ولا فى غيرها مما جاء فى القرآن، يشعر به.
بقى بعد كل هذا خلاف العلماء فى الأحكام التى دلت عليها الآية من التخيير بين الاسترقاق والإطلاق دون مقابل، والفداء، الا تزال هذه الأحكام معمولا بها، أم نسخ العمل بها، وتغيرت الأحكام؟
فذهب بعضهم إلى أنها منسوخة بقوله تعالى: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ .
وذهب البعض إلى أن النسخ إنما هو فى بعض ما تناولته فقط، فهى منسوخة فى حق عُبّاد الأوثان، فهؤلاء لا يُمنّ عليهم، ولا يُفادون؛ لأننا منهيون عن معاهدتهم، وقال الضحاك: لا نسخ فيها، بل هى باقية الحكم فى كل ما دلّت عليه.
ويرى سعيد بن جبير أن الكفار بعد أن يثخنوا ويضعفوا، فالحكم فيهم باق لا يتغير،

عندما يدخلون قتالا مع غير المؤمنين الكفار، فمهامهم القتالية هى أن يضربوا الرقاب؛ حتى يضعف عدد المحاربين من الكفار، ولكن إذا تم أخذ أسرى فعلى المؤمنين أن يحكموا أسرهم فى مكان أمين، بعيد عن متناول الكفار أثناء القتال، وبعد فراغ القتال فللمسلمين أن يمنوا على الأسرى بفك أسرهم دون أى مقابل، وإما أن يأخذوا الفدية فى كل أسير، ويعد الله المقاتلين فى سبيله ومن استشهدوا فى سبيل نصرة دينه؛ الجنة التى يعرفونها .

إذن.. فالأسير فى الإسلام لا يكون عبدا أو رقيقا، إنما أمامه أحد أمرين: إما أن يدفع أهله عنه الفدية، وإما أن يطلق المؤمنون سراحه دون فدية. ويشرع الله تبادل الأسرى بعد انتهاء القتال، والذى وصل إلى المسلمين من تعاليم الحق منذ أربعة عشر قرنا؛ تأخذ به الآن الدول كأرقى صورة فى معاملة الأسرى.

إن الذين لايفهمون الإسلام يحاولون أن يشوهوا صورته بأنه كان يعامل الأسرى معاملة الرقيق، وهذا كلام أحمق غير واع وغير عادل، إن الإسلام حين يأسر عددا من الأعداء، فهو لا يقتلهم؛ إنما يحتفظ بهم ويعاملهم كأسرى يبادلهم مع معسكر الخصوم بعد الحرب، أو يعفو عنهم، أو يأخذ عنهم الفدية، ولم يكن الإسلام يهدف إلى أن يجعل الأسرى رقيقا كما ادعى البعض، لكن الإسلام شرع أسلوبا واضحا كريما فى معاملة الأسير: إما مبادلته، وإما تلقى الفدية عنه، وإما إطلاق سراحه بعد انتهاء القتال.

لقد شرع الحق التشريع اللائق بإنسانيه الإنسان، بصرف النظر عن كونه

أما قبل أن يضعفوا، فلا يجوز أن يكون هناك منّ ولا فداء، وهذا يتفق مع ما أشير= = إليه فى قوله سبحانه وتعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾ [الأنفال: ٦٧]. وقد اختلف فقهاء الأمصار فى ذلك أيضاً.

مؤمنا أو كافرا، لكن بنى إسرئيل لا يكفون عن اللغط[1]، ويحاولون إحراج الرسول ﷺ ، والبحث عن منافذ ينفذون منها لتدمير الدعوة ، وتمزيق المجتمع الإيمانى الوليد، فعلى سبيل المثال: جاءوا فى مسألة الزنا وذهبوا إلى رسول الله؛ ليطلبوا منه الحكم فى الزنا، فأخبرهم الرسول بأن الحكم فى الزنا موجود فى التوراة، قالوا: إن التوراة تكتفى بفضح الزانى، وتلطيخ وجهه بالقاذورات. ويخبرهم الرسول بكذب مايدعون على التوراة؛ ذلك أن الرجم موجود كعقاب للزنا فى التوراة، لكنهم كانوا يحتكمون إلى رسول الله؛ لعل حكمه يخالف أحكام التوراة ويوافق أهواءهم، لكن الحق لا يشرع فى الإسلام وفق هوى بشر، إنما يشرع الحق التشريع اللازم لسعادة الخلق فى الدنيا والآخرة [2].

[تفسير آيات الأحكام : ٤ / ٤٤٩ ، ٤٥٠]

(١) اللَّغْط واللَّغط: الأصوات المُبهمة المختلطة، والجَلَبَة لا تُفهم. اللغط : صوت وضجّة لا يُفهم معناه ، وقيل : هو الكلام الذى لا يتبين .

[لسان العرب : ٧/٣٩١]

(٢) عن عبد الله بن عمر؛ أن رسول الله ﷺ أتى بيهودى ويهودية قد زنيا . فانطلق رسول الله ﷺ حتى جاء يهود. فقال: « ما تجدون فى التوراة على من زنى؟ » قالوا: نُسَوِّد وجوههما ونحملهما ، ونخالف بين وجوههما، ويُطَاف بهما . قال: « فأتوا بالتوراة إن كنتم صادقين » فجاءوا بها فقرءوها. حتى إذا مرُّوا بآية الرجم وضع الفتى الذى يقرأ، يده على آية الرجم، وقرأ ما بين يديها وما وراءها ، فقال له عبد الله بن سلام، وهو مع رسول الله ﷺ : مره فليرفع يده . فرفعها ، فإذا تحتها آية الرجم، فأمر بهما رسول الله ﷺ ، فرجُما .

قال عبد الله بن عمر : كنت فيمن رجمهما . فلقد رأيته يقيها من الحجارة بنفسه .

* الأحبار والكهان حرفوا التوراة *

﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلا يَظُنُّونَ ﴾ [البقرة: ٧٨] ، ولقد شاء الحق أن يصنف لنا القوم الذين نزلت إليهم الكتب السماوية، وعلمنا أن أهل الكتاب هم الذين يعلمون منهج الله ويقرءون التوراة والإنجيل، وهم المكلفون بأن يحملوا منهج الله لمن لا يقرأ، وفى ذلك جاء قوله الحق: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾ [آل عمران: ١٨٧]. إن الحق تبارك وتعالى يوضح أن هناك عهدا مأخوذاً على أهل الكتاب الذين يعرفون القراءة أن يبلغوه لمن لا يعرفون، وأن يوضحوا ما جاء بآيات الحق، لكنهم أخفوا هذه الآيات عن الأميين منهم، وألقوا بآيات الرحمن خلف ظهورهم، واستبدلوا بآيات الحق متاع الدنيا، وهو ثمن بخس رخيص لمن طلب الدنيا دون منهج الله (١).

(١) قال ابن كثير : هذا توبيخ من الله وتهديد لأهل الكتاب الذين أخذ الله عليهم العهد على ألسنة الأنبياء أن يؤمنوا بمحمد ﷺ ، وأن ينوهوا بذكره فى الناس فيكونوا على أهبة من أمره ، فإذا أرسله الله تابعوه ، فكتموا ذلك وتعوضوا عما وعدوا عليه من الخير فى الدنيا والآخرة بالدون الطفيف ، والحظ الدنيوى السخيف ، فبئست الصفقة صفقتهم، وبئست البيعة بيعتهم. وفى هذا تحذير للعلماء أن يسلكوا مسلكهم فيصيبهم ما أصابهم ، ويسلك بهم مسلكهم. فعلى العلماء أن يبذلوا ما بأيديهم من العلم النافع ، الدال على العمل الصالح ، ولا يكتموا منه شيئًا ، فقد ورد فى الحديث =

وهكذا نعرف أن من علموا بآيات الله ولم يبلغوها للأميين يحملون وزر عدم التبليغ، ونفهم أن هناك بعضاً من أهل الكتاب لايعرفون القراءة والكتابة؛ لذلك فالأحبار الذين استحفظهم أنبياؤهم على مهمة الإبلاغ عن الله لم يؤدوا الأمانة على وجهها الصحيح، لذلك قال بعض من قوم بنى إسرائيل لمن لا يعرفون آيات الله الحقة إنهم أميون، وسبق بيان أن الأمى هو المنسوب إلى «الأم»، أى الذى لم يأخذ ثقافة من أحد، والنبى الكريم محمد عليه الصلاة والسلام كانت أميته[1] شرفا له؛ لأن معلمه هو الحق جل وعلا، أما الأمية لأى إنسان آخر فهى منزلة تقل عن منزلة الذى تعلَّم ؛ ذلك أنَّ التعلم هو العملية التى يخرج بها الإنسان من الأمية، ويكون اكتسابه العلم ممن يعلم، واكتساب العلم يعطى خصوصية للإنسان بأن يصبح عارفاً ومتعلماً، فلم يكن العلم متاحًا لكل إنسان فى العصور السابقة، كما يحدث فى هذا العصر؛ بل كان التعليم فى عهد الرسول الكريم مقصوراً على فئات قليلة، هم أحبار أهل الكتاب وقليل من الناس، ولذلك كانت الأمة كلها لا تعلم كل ما يعرفه المتعلمون فى ذلك الوقت.

وكان هناك بشر ظلوا كما وُلدوا، وكما خلقوا، أى: لم يتعلموا شيئاً، بل ظلوا على الخلقة الأولى، وهكذا نرى أن معنى كلمة ﴿أُمِّيُّونَ﴾: هى إما نسبة إلى الأم، أى: لا يعلم الإنسان الأمى شيئاً، أو نسبة إلى الأمَة،

= المروى من طرق متعددة عن النبى ﷺ أنه قال: « مَنْ سُئِل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار »[1] . [تفسير ابن كثير : ١/ ٤١٢]

(١) قال عليه الصلاة والسلام: «إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب، الشهر هكذا وهكذا». أخرجه البخارى[١٩١٣]

---

(١) أخرجه أبو داود [٣٦٥٨] ، والترمذى [٢٦٤٩] وقال : حديث حسن ، وابن ماجة [٢٦٤، ٢٦٦] واللفظ له ، عن أبى هريرة رضى الله عنه ، وصححه الألبانى فى صحيح ابن ماجة [٢١٢، ٢١٣] .

والأمَة فى ذلك الزمان لم تكن تعلم إلا ما يقوله لها المتعلمون، أو نسبة إلى الخِلقة التى خلقها الله(١). وأراد الحق بذلك أن يصنف لنا هذا المعسكر الثانى الذى ناهض الدعوة الإسلامية، لقد كان المعسكر الأول فى مكة من المشركين، والمعسكر الثانى كان فى المدينة من أهل الكتاب.

وكان معسكر المدينة غالبيته من اليهود المنتسبين لموسى عليه السلام، وأقليته من المنتسبين إلى عيسى عليه السلام، فقد كانت الكثرة الغالبة من اليهود.

إذن. . فالمقصود بقول الحق: ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلا يَظُنُّونَ ﴾(٢) [البقرة: ٧٨] : هو تصنيف اليهود، الذين لهم جمهرة ولهم جماعة كبيرة، ولهم تواجد فى المدينة بعد أن هاجر إليها رسول الله.

وقد قصّ القرآن عنهم بالتبعيض لهم، أى بالتجزىء لهم، ولم يترك الأمر دون إيضاح، بل جاء القرآن الكريم بعد ذلك بالمقابل: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ [البقرة: ٧٩] إذن،

---

(١) قال أبو حيان: والأمى الذى هو على صفة أمة العرب: « إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب»(١) فأكثر العرب لا يكتب ولا يقرأ، قاله الزجاج، وكونه أمياً من جملة المعجز، وقيل: نسبة إلى أم القرى وهى مكة. [البحر المحيط: ٥/ ١٩٤]

(٢) قال أبو الحسن النيسابورى فى قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ ﴾ عبد الله : من اليهود: ﴿ أُمِّيُّونَ ﴾ قال الحجاج : معنى الأمى فى اللغة المنسوب إلى ما عليه جبلة (٢) الأمة، أى : لا يكتب ، فهو فى أنه لا يكتب على ما ولد عليه . =

---

(١) أى خلقة .

(٢) الحديث سبق تخريجه .

فنحن أمام قسمين واضحين من اليهود:

القسم الأول : لا يعرف القراءة، وهم الكثرة الغالبة، ويتلقون العلم من قلة هي التى كتبت التوراة، وعرفتها على حقيقتها بما فيها من بشارة برسول الله ﷺ وصفاته ونعته الكامل.

والقسم الثانى : أخفى ما فى التوراة من البشارة بالرسول القادم إلى الناس كافة وهم قلة (١).

= وقال غيره : قيل للذى لا يكتب أمى ؛ لأن الكتابة مكتسبة ، أى: هو على ما ولدته أمه لم يتعلم الكتابة . وقوله تعالى: ﴿ **لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ** ﴾ قال الكلبى لا يحسنون قراءة الكتاب ولا كتابته. ﴿ **إلا أَمَانِيَّ** ﴾ قال ابن عباس : إلا أحاديث لا يعلمون إلا ما حُدثوا به، وقال الفراء: الأمانى: الأحاديث المفتعلة يقول الله تعالى: ﴿ **لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ** ﴾ ؛ولكن أحاديث مفتعلة ليست - كتاب الله - يسمعونها من كبرائهم وهى كلها أكاذيب، والعرب تقول: أنت إنما تتمنى هذا القول ، أى : تختلقه.

وقال أحمد بن يحيى : التمنى: الكذب ، يقول الرجل : والله ما تمنيت هذا الكلام ولا اختلقته . وقال الحسن وأبو العالية وقتادة : فى قوله تعالى : ﴿ **إلا أَمَانِيَّ** ﴾ أى: إلا أن يتمنوا على الله الباطل والكذب، مثل قولهم : ﴿ **لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إلا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً** ﴾ [البقرة: ٨٠] وقولهم : ﴿ **لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إلا مَن كَانَ هُودًا** ﴾ [البقرة: ١١١] ، وقولهم : ﴿ **نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ** ﴾ [المائدة: ١٨].

قال ابن الأنبارى: والاستثناء على هذا التأويل منقطع عن الأول، يريد لا يعلمون الكتاب البتة ، لكنهم يتمنون على الله ما لا ينالون .

وقوله تعالى : ﴿ **وَإِنْ هُمْ إلا يَظُنُّونَ** ﴾ قال ابن عباس : لا يعلمون ولا يدرون ما هم فيه، وهم يجحدون نبوتك بالظن. وقال أصحاب المعانى : ذمَّ الله بهذه الآية قومًا من اليهود لا يحسنون شيئًا، وليسوا على البصيرة إلا ما يحدثون به ، وإلا ما يقرءونه من غير علم به ، ففيه حث على تعلم العلم ؛ حتى لا يحتاج الإنسان إلى تقليد غيره وأن يقرأ شيئًا لا يكون له به معرفة.

[الوسيط فى تفسير القرآن: ١/ ١٦١- ١٦٣]

(١) عن عبد الله بن عباس قال: يا معشر المسلمين كيف تسألون أهل الكتاب عن شىء =

وكأن الحق تبارك وتعالى يوضح لرسوله أن الكثرة الغالبة من أهل الكتاب لا يعرفون صفات الرسول القادم، ووجوب الإيمان به، وجهل هذه الكثرة هو السبب فى عدم إقبالهم على الإيمان بما جاء به رسول الله. إن هذه الغالبية من الأميين لا تعرف أن الإيمان بما جاء به رسول الله ضرورة فرضتها عليهم كتبهم السماوية، وبذلك يكشف الحق بآيات القرآن أن قلة قليلة هى التى تعرف أن الكتب السابقة- على القرآن - تضمنت وجوب الإيمان برسالة رسول الله، لكن هذه القلة القليلة ارتضت لنفسها أن تخرج عن طاعة الحق، وعبثت أيديهم بالآيات والصفات التى جاءت بها كتبهم وحرفوها، فكان عقابهم عند الله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٩].

إن جهل غالبية اليهود بشريعة التوراة الحقة هو جريمة ارتكبها الحمقى من قومهم، الذين لم ينقلوا إليهم العلم بآيات الله، والكتاب المقصود هنا التوراة؛ ذلك أن التوراة تنبأت بالرسول محمد (١). وقد يقول قائل: ولماذا

= وكتابكم الذى أنزل الله على نبيكم ﷺ أحدث الأخبار بالله محضاً لم يُشب؟ وقد حدثكم الله أن أهل الكتاب قد بدّلوا من كتب الله وغيّروا، فكتبوا بأيديهم قالوا: هو من عند الله، ليشتروا بذلك ثمناً قليلا أوَلا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم، فلا والله ما رأينا رجلاً منهم يسألكم عن الذى أنزل عليكم. أخرجه البخارى[٧٥٢٣]

(١) قال ابن كثير: فى الكتب المتقدمة البشارة به، كما أخبر الله تعالى أن ذلك فى التوراة والإنجيل مكتوب، وكما أخبر عن نبيه عيسى عليه السلام أنه قال: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦]، وروى البخارى (١) عن عبد الله بن عمرو أنه وجد صفته ﷺ فى التوراة وذكرها. =

(١) أخرجه البخارى [٢١٢٥، ٤٨٣٨] من حديث عطاء بن يسار قال: لقيت عبد الله ابن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قلت: أخبرنى عن صفة رسول الله ﷺ فى التوراة، قال: أجل، والله إنه لموصوف فى التوراة ببعض صفته فى القرآن: « يا أيها=

= وفى التوراة اليوم التى يُقر اليهود بصحتها فى السفر الأول أن الله تعالى تجلى لإبراهيم وقال له ما معناه: « فاسلك فى الأرض طولاً وعرضًا لولدك تعظيمًا » (١) . ومعلوم أنه لم يملك مشارق الأرض ومغاربها إلا محمد ﷺ ، كما جاء فى الصحيح عنه أنه قال : « إنه زوى لى الأرض مشـارقها ومغاربها ، وسيبلغ ملك أمتى ما زوى لى منها » (٢).

وفيه أيضًا: إن الله تعالى قال لإبراهيم: إن إسحاق يكون لك منه نسل، وأما إسماعيل فإنى باركته وكثَّرته وعظَّمته ، وجعلت ذريته بنجوم السماء ... »، إلى أن قال : «وعظمته بماذ ماذ - أى بمحمد ،وقيل : بأحمد - وقيل :جعلته عظيمًا عظيمًا وجعل حلذًا » (٣).

وفيه : « إن الله وعد إبراهيم أن ولده إسماعيل تكون يده عالية على كل الأمم ، فكل الأمم تحت يده ، وبجميع مساكن إخوته يسكن »(٤) ، وقد علم أهل الكتاب وغيرهم أن إسماعيل لم يدخل قط الشام ولا علت يده على إخوته ، وإنما كان هذا لولده محمد ﷺ ، ولا ملك الشام ومصر من العرب أحدٌ قبل أمة محمد ﷺ ، فإن فتحهما كان فى خلافة الصديق والفاروق رضى الله عنهما .

وفى السفر الرابع من التوراة التى بأيديهم اليوم ما معناه : « نبى أقيم لهم من أقاربهم من أخيهم مثلك يا موسى ، أجعل نُطقى بفيه »(٥).ومعلوم لهم ولكل أحد أن الله=

= النبى إنا أرسلناك شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا ، وحرزًا للأميين ، أنت عبدى ورسولى، سميتك المتوكل ليس بفظٍّ ولا غليظ ولا سخّاب فى الأسواق،ولا يدفع بالسيئة السيئة ، ولكن يعفو ويغفر ، ولن يقبضه الله حتى يقيِّم به الملة العوجاء بأن يقولوا : لا إله إلا الله ، ويُفتَح بها أعين عمى وآذان صم وقلوب غُلْفٌ » .

(١) السفر الأول [إصحاح : ١٣ - آية : ١٥- ١٨].

(٢) جزء من حديث أخرجه مسلم [٢٨٨٩/١٩] عن ثوبان قال : قال رسول الله ﷺ : «إن الله زوى لى الأرض ، فرأيت مشارقها ومغاربها ،وإن أمتى سيبلغ ملكها ما زُوى لى منها ... ».

(٣) سفر التكوين [إصحاح : ١٦ آية : ٢٠] .

(٤) سفر التكوين [إصحاح ١٦- آية : ١٣].

(٥) سفر التثنية [إصحاح : ١٨- آية: ١٧-٢٢] .

لم يقل الحق: إن الكتاب هو التوراة؟ ونقول: إن الحديث فى هذه الآيات عن قوم موسى والكتاب الذى أنزله الله إليهم معه، إنما المقصود بالكتاب هنا التوراة، ولنا أن نعرف أن كلمة الكتاب عندما تطلق فى سياق الحديث عن أى رسول؛ المقصود بها الكتاب المنزل من الله إلى رسوله ليبلغه إلى أمته.

ولكن حين يأتى ذكر الكتاب السماوى بشكل عام، فلا ينصرف ذلك إلا إلى القرآن الكريم؛ ذلك أن الحق قد استحفظ الناس من قبل على منهجه، فنسوا منه جزءاً وحرفوا منه أجزاء، وأخفوا منه بعض آياته، وأخذتهم أطماع الحياة عن منهج الله، ثم إن كل الكتب السابقة على القرآن الكريم كانت محددة بأقوام مقصودة بتلك الكتب، أما القرآن الكريم فهو كتاب مرسل من الحق إلى الناس كافة، ليس لهم فى حفظه من الاندثار قوة ما، إنما هو محفوظ بقدرة الحق(١) ؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا

= عز وجل لم يبعث من نسل إسماعيل سوى محمد ﷺ، بل لم يكن فى بنى إسرائيل نبى يُماثل موسى إلا عيسى عليه السلام، وهم لا يقرون بنبوته، ثم ليس هو من إخوتهم، بل هو منتسب إليهم بأمه صلوات الله وسلامه عليه، فتعين ذلك فى محمد ﷺ.

وكذا زبور داود عليه السلام والنبوءات الموجودة الآن بأيدى أهل الكتاب فيها البشارات به ﷺ، كما يخبر بذلك من أسلم منهم قديمًا وحديثًا.

وفى الإنجيل ذكر « الفارقليط » موصوفًا بصفات محمد ﷺ سواء بسواء.

[سيرة الرسول : ١٧٢-١٧٥] بتصرف.

(١) **سؤال**: لم اشتغلت الصحابة رضى الله عنهم بجمع القرآن فى المصحف، وقد وعد الله تعالى بحفظه، وما حفظه الله لا يخاف عليه؟

والجواب: إن جمعهم إياه فى المصحف كان من أسباب حفظ الله له؛ فإنه لما أراد الله تعالى حفظه، وأخبر بذلك هداهم إلى جمعه، وألهمهم كتابته وتوفيقهم إلى ذلك.

[الروض الريان فى أسئلة القرآن: ١/ ١٧١]

لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩] وفى القرآن تجلت معجزة الحق التى أرسلها مع نبيه الكريم محمد عليه الصلاة والسلام، وعندما نتأمل قول الحق: ﴿ لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلا أَمَانِيَ ﴾ [البقرة: ٧٨]، فذلك يعنى أن جمهرة الأميين من اليهود الذين كانوا بالمدينة ، لا يعلمون عن التوراة إلا قليلاً.

وعندما ننظر إلى كلمة: ﴿ أَمَانِيَ ﴾ فى ضوء اللغة فنحن نجدها تنطق مرة مخففة، فنقول: «أمانِى» بدون تشديد الياء، وهى جمع «أمنية» بدون تشديد الياء أيضاً ،وتنطق: «أمانىّ» مرة ثانية بتشديد الياء، وهى جمع «أمنيّة» بتشديد الياء. ما هى الأمنية؟

ولنستعرض الكلمة فى القرآن الكريم، ولقد وردت فى قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا ﴾ [النساء: ١٢٣] وفى تلك الآية يقرر الحق تبارك وتعالى أن الجزاء من جنس العمل، فمن عمل سيئاً لن يجد نصرا من الله، وليس على مرتكب العمل السيئ أن يتمنى الثواب عليه، فذلك أمر لا مجال فيه للتمنى(١).

وتأتى كلمة (التمنى) فى موضع آخر بالقرآن الكريم، إذ يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ

---

(١) عن عائشة زوج النبى ﷺ أن رجلا تلا هذه الآية: ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ﴾ قال: إنا لنجزى بكل عملنا هلكنا إذا؟ فبلغ ذاك رسول الله ﷺ فقال: «نعم، يجزى به المؤمنون فى الدنيا فى مصيبة فى جسده، فيما يؤذيه».
أخرجه أحمد فى المسند [٦٦/٦] ، والحاكم فى المستدرك [٣٠٨/٢] وصححه، ووافقه الذهبى .

عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الحج:٥٢] ومن هنا نعرف أن الأمنية هى الشىء الذى يتمناه المخلوق، ويكون مستحيلاً.

إذن.. التمنى: هو نوع من أنواع الطلب المستحيل، والذى ليس له وجود، ولذلك عرّف العرب التمنى بأن بعضاً من معانيه اختلاف الأشياء، وهناك قول لصحابى جليل: «ما تمنيت منذ أسلمت» أى: ما عرف الكذبُ أو الاختلاق طريقاً إلى لسان هذا الصحابى الجليل؛ منذ أن نطق بشهادة لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله.

ومن معانى التمنى أيضاً القراءة، فيقول القائل: «تمنى كتاب الله أول الليل» أى: قرأ كتاب الله فى أول الليل (١).

وهناك قصة للآية التى جاءت فى سورة الحج عن إلقاء الشيطان لبعض أمنياته فى قول الرسل (٢). وهذه القصة يجب أن نوردها ونحن بصدد كلمة «التمنى»؛ لأنها مدخل الكثير من المضلين الذين يريدون أن يشككوا

---

(١) التمنِّى: الكذب. وفلان يتمنَّى الأحاديث أى يفتعلها، وهو مقلوب من المَيْن، وهو الكذب. وفى حديث عثمان، رضى الله عنه: «ما تغنَّيت ولا تمنَّيت ولا شربت خمراً فى جاهلية ولا إسلام» (١) ،وفى رواية: «ما تمنيت منذ أسلمت»، أى: ما كذبت. والتمنى: الكذب، تَفَعُّل من مَنَى يَمْنِى إذا قدَّر ؛ لأن الكاذب يقدر فى نفسه الحديث ثم يقوله، ويقال للأحاديث التى تُتمنى: الأمانى، واحدتها أمنيّة؛ وفى قصيدة كعب:

فلا يغرنك ما منت وما وعدت   إن الأمانى والأحلام تضليل!

وتمنى: كذب ووضع حديثاً لا أصل له. وتمنى الحديث: اخترعه. وقال رجل لابن دأْب وهو يحدث: أهذا شىء رويته أم شىء تمنيته؟ معناه افتعلته واختلقته ولا أصل له. ويقول الرجل: والله ما تمنيت هذا الكلام ولا اختلقته. [لسان العرب: ١٥/ ٢٩٥]

(٢) وهى الآية ٥٢ من سورة الحج .

---

(١) أخرجه ابن ماجه [٣١١] عن عقبة بن صُهبان بلفظ: « سمعت عثمان بن عفان يقول: ما تغنيت ،ولا تمنيت ولا مسست ذكرى بيمينى ، منذ بايعت بها رسول الله ﷺ »، وقال الألبانى فى ضعيف ابن ماجه [٦٥] : ضعيف جدًا .

فى صدق كتاب الله، القرآن المنزل بالوحى على رسول الله ﷺ، والقصة تبدأ بقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ (٢) وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ (٥) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ (٦) وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَىٰ (٧) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ (٩) فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ (١٠) مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ (١١) أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ (١٢) وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ (١٣) عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ (١٤) عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ (١٥) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ (١٦) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ (١٧) لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ (١٨) أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّىٰ (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَىٰ (٢٠)﴾ [1] [النجم] .

---

(١) قال الخازن فى قوله عز وجل: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّىٰ﴾ هذه أسماء أصنام اتخذوها آلهة يعبدونها ؛واشتقوا لها أسماء من أسماء الله عز وجل ، فقالوا : من الله اللات ومن العزيز العزى . وقيل : العزى تأنيث الأعز . والمعنى : أخبرونا عن هذه الآلهة التى تعبدونها من دون الله ، هل لها من القدرة والعظمة التى وصف بها رب العزة شىء ؟

وكان اللات بالطائف ؛ وقيل : بنخلة كانت قريش تعبده ، وقُرِئ: اللات بالتشديد. عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « كان اللات رجلاً يلت السويق للحاج [1]» .

قيل: فلما مات عكفوا على قبره يعبدونه . وقيل : كان فى رأس جبل له غنيمة يسلؤ منها السمن ، ويأخذ منها الأقط ، ويجمع رسلها ، ثم يتخذ حيسًا فيطعم الحاج . وكان ببطن نخلة ، فلما مات عبدوه ، وهو اللات . وقيل: كان رجلاً من ثقيف يقال : صرمة بن غنم وكان يسلؤ السمن فيضعه على صخرة، فتأتيه العرب فتلتُّ به أسوقتهم ، فلما مات الرجل حوَّلها ثقيف إلى منازلها، فمرت الطائف على موضع اللات .

وأما العزى فقيل : هى شجرة بغطفان كانوا يعبدونها ؛ فبعث رسول الله ﷺ خالد ابن الوليد فقطعها فجعل يضربها بالفأس ويقول :

يا عز كفرانك لا سبحانكْ ... إنى رأيت الله قد أهانكْ =

---

(١) أخرجه البخارى [٤٨٥٩].

إن هذه الآيات تبدأ بقسم من الله عز وجل أن محمداً رسوله على طريق الحق،لا ينطق عن هوى فى نفسه، إنما هو وحى من الله بواسطة

= فخرجت منها شيطانة ناشرة شعرها داعية بويلها واضعة يدها على رأسها ، ويقال : إن خالدًا رجع إلى النبى ﷺ ، فقال: قد قطعتها. فقال: « ما رأيت» ؟ فقال: ما رأيت شيئًا. فقال «ما قطعت». فعاودها ومعه المعول فقطعها واجتثت أصلها ، فخرجت منها امرأة عريانة فقتلها ، ثم رجع إلى النبى ﷺ فأخبره بذلك فقال : «تلك العزى ولن تعبد أبدًا ».

وقيل : هى صنم لغطفان وضعها لهم سعد بن سالم الغطفانى . وقيل : إنه قدم مكة فرأى الصفا والمروة ورأى أهل مكة يطوفون بينهما ، فرجع إلى بطن نخلة ، فقال لقومه : إن لأهل مكة الصفا والمروة ، وليستا لكم، ولهم إله يعبدونهم وليس لكم ، قالوا : فما تأمرنا ؟ قال : أنا أصنع لكم كذلك ، فأخذ حجرًا من الصفا وحجرًا من المروة ونقلهما إلى نخلة ، فوضع الذى أخذ من الصفا ، وقال : الصفا ثم وضع الذى أخذ من المروة ، وقال : هذه المروة ، ثم أخذ ثلاثة أحجار وأسندها إلى شجرة . وقال : هذا ربكم فجعلوا يطوفون بين الحجرين ، ويعبدون الحجارة الثلاث ، حتى افتتح رسول الله ﷺ مكة وأمر برفع الحجارة، وأمر خالد بن الوليد بالعزى فقطعها . وقيل : هى بيت بالطائف كانت تعبده ثقيف . وقوله تعالى : ﴿ وَمَنَاةَ ﴾ قيل : هى لخزاعة كانت بقديد . وقالت عائشة رضى الله تعالى عنها فى الأنصار :كانوا يهلون لمناة وكانت حذو قديد . وقيل:هى بيت بالمشلل كانت تعبده بنو كعب . وقيل : مناة ، صنم لهذيل وخزاعة ، وكانت تعبدها أهل مكة .

وقيل : اللات والعزى ومناة أصنام من الحجارة كانت فى جوف الكعبة يعبدونها. ﴿ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ﴾ الثالثة: نعت لمناة إذ هى الثالثة فى الذكر ، وأما الأخرى : فإن العرب لا تقول: الثالثة الأخرى ؛ وإنما الأخرى هنا نعت للثلاثة ؛ قال الخليل : قالها لوفاق رؤوس الآية، كقوله : ﴿ مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴾ [طه: ١٨] ولم يقل : أخر .

وقيل: فى الآية تقديم وتأخير تقديره :أفرأيتم اللات والعزى الأخرى ومناة الثالثة .

وقيل:هى صفة ذم،كأنه تعالى قال: ومناة الثالثة المتأخرة الذليلة. فعلى هذا فالأصنام ترتب مراتب ؛ وذلك لأن اللات كان صنمًا على صورة آدمى ، والعزى شجرة فهى نبات، ومناة صخرة فهى جماد ، وهى فى أخريات المراتب .

[تفسير الخازن : ٦/٤٧ ، ٤٨]

الملك جبريل، وما أنكر رسول الله اقتراب الوحى منه، وكيف كشف له الوحى أمر التوحيد بالحق العظيم، وقد رأى محمد عليه الصلاة والسلام الملك جبريل وأطلعه على آيات الله وعجائبه العظيمة، وذلك ما جعل الرسول الكريم يدعو إلى عبادة الله دون عبادة الأصنام، لكن بعضًا من الكفار أرادوا أن يحرفوا فى القرآن الكريم فقالوا: إن الرسول قد قال فى وصف اللات والعزى: «تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى»(١) وكان ذلك من

---

(١) قال الدكتور محمد أبو شهبة فى معرض حديثه عن قصة الغرانيق: وهذه القصة غير ثابتة لا من جهة النقل، ولا من جهة العقل والنظر.

أما جهة النقل: فقد طعن فيها كثير من المحققين والمحدثين. قال البيهقى وهو من كبار رجال السنة: هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل. وقال القاضى عياض فى «الشفاء»: إن هذا حديث لم يخرجه أحد من أهل الصحة، ولا رواه ثقة بسند سليم متصل، وإنما أولع به وبمثله المفسرون والمؤرخون، والمولعون بكل غريب، المتلقفون من الصحف كل صحيح وسقيم، ومن حكيت عنه هذه المقالة من المفسرين والتابعين، لم يسندها أحد منهم ولا رفعها إلى صحابى، وأكثر الطرق عنهم فيها ضعيفة واهية، والمرفوع منها حديث شعبة، عن أبى البشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فيما أحسب -الشك فى وصل الحديث- أن النبى كان بمكة.. وذكر القصة . قال أبو بكر البزار: هذا الحديث لا نعرفه يروى عن النبى بإسناد متصل، إلا هذا، ولم يسنده عن شعبة إلا أمية بن خالد، وغيره يرسله عن سعيد بن جبير، وإنما يعرف عن الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس.

فقد بيَّن أبو بكر أنه لا يعرف عن طريق يجوز ذكره سوى هذا، وفيه من الضعف ما نبه عليه. مع وقوع الشك فيه، الذى لا يوثق به ولا حقيقة معه، وأما حديث الكلبى: فمما لا يجوز الرواية منه، ولا ذكره لقوة ضعفه وكذبه .ا.هـ.

وكذا أنكر القصة القاضى أبو بكر بن العربى وطعن فيها من جهة النقل، وسُئل محمد بن إسحاق بن خزيمة، عن هذه القصة، فقال: هذا من وضع الزنادقة، وصنف فى ذلك كتاباً. وذهب إلى وضعها الإمام: أبو منصور الماتريدى، فى كتاب «حصص الأتقياء» حيث قال: الصواب أن قوله: «تلك الغرانيق العلى» من جملة إيحاء الشياطين إلى أوليائه من الزنادقة؛ حتى يلقوا بين الضعفاء وأرقاء الدين؛ ليرتابوا فى صحة الدين، والرسالة بريئة من مثل هذه الرواية.

[الإسرائيليات والموضوعات فى كتب التفسير: ٣١٥ - ٣١٦]

دس الشيطان؛ ذلك أن مثل هذا القول لا يتفق مع منطق الرسالة التى تدعو إلى توحيد الله، وكان هذا نفث من الشيطان؛ لذلك أنزل الحق على رسوله تكملة الآيات بما يتفق مع منطق الدعوة إلى التوحيد؛ يقول تعالى: ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَىٰ (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ (٢٢) إِنْ هِيَ إِلا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾ [النجم] وهكذا صحح الحق نفث الشيطان، إن للشيطان أمنيات ينفثها فى أقوال الرسل، لكن الحق يصحح للنبى أو الرسول .

وهكذا صحح الله وصفى علامة الحق من نفث الشيطان؛ لذلك فلو فطن قارئ القرآن إلى قول الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الحج: ٥٢] لو فطن قارئ القرآن إلى هذا القول، لعرف أن الشيطان قد حاول أن ينفث بعضًا من قوله فى أقوال الأنبياء، لكن الله يصفى وينسخ ما يلقيه الشيطان، وبذلك نطمئن إلى أن كل ما وصلنا من رسول الله ﷺ مصفى، لكن ما الذى جعلنا نتعرف إلى أن الحق قد نسخ نفث الشيطان؟ إن علينا أن نبحث المسألة فى ضوء العقل.

إن الرسول - أى رسول - هو إنسان أوحى الله إليه بمنهج يبلغه، وهذا المنهج مصحوب بمعجزة توضح للناس أنه رسول من عند الله، وعندما يضيف الحق إلى كلمة الرسول: ﴿وَلا نَبِيٍّ﴾ فلنا أن نعرف أن أى نبى هو من يقوم بالشرع الذى جاء به رسول من قبله ويدعو إليه، ولقد اجتمعت الرسالة والنبوة لمحمد عليه الصلاة والسلام، كان أميًا لا يقرأ ولا يكتب؛ لذلك عندما نزل إليه المنهج المعجزة - وهو القرآن - كان القرآن ناسخاً

لما قبله من الكتب السابقة؛ لأنه تم تحريفها، وكان القرآن مصفّى من أى نفث للشيطان؛ لأننا نعرف أن النبى محمداً عليه الصلاة والسلام كان يقرأ القرآن على جبريل كل رمضان، وقرأه الرسول الكريم على جبريل مرتين فى رمضان الأخير من حياته[1] ، وكلنا نعلم دقة جمع القرآن من الصحف التى كان يكتبها الصحابة .

لقد اجتمعت فى رسالة محمد الرسالة والنبوة معا؛ لأنه جاء بشرع الله القرآن يبلغه للناس كافة، وكان نبينا يعمل بذلك الشرع، لقد أبلغ الرسولُ المنهج، وعمل به، لقد كانت أمنية الرسول أن يشيع منهج القرآن، فكان مبلغا له، وكان مطبقاً لسلوكياته أمام الله والناس[2]، لكن العداوة المسبقة بين الشيطان والإنسان لا تترك الناس لتتلقى البلاغ بمنهج الله عن الرسول، إن الشيطان ينفث فى صدور الناس.

وهكذا يضع الشيطان العراقيل أمام أمنية الرسول،لقد كانت أمنية الرسول أن يسود منهج الله فى الأرض؛لتنتظم حركة الناس،لكن الشيطان لم يترك الناس تتلقى المنهج،بل وضع العقبات فى طريق تلقى الناس للرسالة، ولنا أن نسأل: هل رأى أحد رسولا خذله الله عن رسالته؟ لم يحدث ذلك قط، لقد كان الرسل السابقون على رسالة محمد عليه الصلاة والسلام يبلغون منهج الله إلى الناس، فإن اتبع الناس الشيطان، فإن رب السماء يتولى تأديب العباد، كأن تبرق السماء بصاعقة تأخذ الناس، أو تخسف الأرض بالقوم الظالمين للرسول.

(١) عن أبى هريرة قال: « كان يُعرض على النبى ﷺ القرآن كل عام مرة، فعُرض عليه مرتين فى العام الذى قُبض فيه، وكان يعتكف كل عام عشراً، فاعتكف عشرين فى العام الذى قُبض فيه». [أخرجه البخارى: ٤٩٩٨]

(٢) عن حكيم بن أفلح قال : قلتُ : يا أم المؤمنين أنبئينى عن خُلُق رسول الله ﷺ ، قالت : « ألست تقرأ القرآن ؟» قلتُ : بلى ، قالت : « فإن خُلُق نبى الله ﷺ كان القرآن ». جزء من حديث أخرجه مسلم [٧٤٦ / ١٣٩] .

لقد كان الحق يهلك من يخالف الرسل، وينجى الذين آمنوا كما أنجى الله الذين آمنوا برسالة نوح، وأنجى الذين آمنوا من قوم موسى، ولو تتبعنا الرسل لوجدنا النجاة هى حظ الذين آمنوا، وكان الهلاك مصير الذين كفروا.

إن قول الحق سبحانه: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [الحج: ٥٢] إن الفهم المدقق لهذه الآية يرى أن أمنية الرسول والنبى، وحبَّه العارم هى أن يصبح كل الناس مؤمنين، لكن الشيطان يضع العراقيل أمام ذلك، وينصب الفخاخ للناس؛ ليأخذهم عن منهج الرسول والداعية، والحق تبارك وتعالى لا يترك الشيطان لينتصر فى مهمته مع كل الناس، إن الله ينسخ نفث الشيطان، ويحكم آياته، وعلى ضوء هذا الفهم ندرك أن الله قد صفى رسالة محمد عليه الصلاة والسلام من كل نفث للشيطان.

نعود الآن إلى قول الحق: ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلا يَظُنُّونَ ﴾ [البقرة: ٧٨] إن هذه الآية توضح أن الجمهرة الغالبة من أهل الكتاب؛ إنما يتلقون معرفتهم بكتبهم السماوية من الذين يقرءون الكتاب السماوى وهم أتباع لهم؛ ذلك أنهم لا يملكون القدرة على المناقشة والترجيح والمعرفة والتثقيف؛ لذلك يصدقون قول المسئولين عن التبليغ، وهم الدعاة، إن العامة من الناس يصدقون الدعاة، وكأن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا وينبهنا إلى أن فساد كثير من المذاهب الدينية فى الأرض؛ إنما ينشأ من المبلغين، لماذا؟ لأن هناك أناساً يأتمنون رجال الدعوة على أن يقولوا لهم ما وصلهم من أوامر الحق؛ لذلك نجد واحداً من العامة غير المثقفين يسأل عالما عن حكم من الأحكام الشرعية، فيأخذ الحكم ويطبقه مسلماً به ولا يناقشه؛ لأنه لا يملك أداة نقاش، ولا معلومات

يرجح بها أو يستنبط بواسطتها أوامر الله؛ ذلك أنه لو كان من أهل الترجيح لأخذ الأدلة واستنبط هو، ولذلك فعلى كل داعية أن يدقق جيداً فيما يقدم للناس من أحكام شرعية؛ وذلك حتى لا يؤاخذ الله صاحب العلم بما أفتى به، ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾(1) [النحل: ٢٥].

إن الذى يقدم الفتوى دون علم، إنما يقدم الضلال للآخرين الذين قد يثقون فى قوله ثقة مطلقة، فيحمل إثم الفتوى بغير علم، ولذلك يبعثه الله يوم القيامة وهو يحمل أوزاره وأوزار من أفتى لهم بالضلال، وقد يقول قائل: ألا يتعارض ذلك مع قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [فاطر:١٨] .

ونحن نقول: إن حسن الاستنباط لكل من الآيتين يكشف أن لا تعارض بينهما، لماذا؟ لأن الحق تبارك وتعالى يوضح أن أى إثم يرتكبه الإنسان بعلم منه، فإنه يحمل ذنبه وإثمه، ولا يستطيع أن يدعو أحدا ليحمل معه ذنوبه وآثامه، وأن النبى محمدا عليه الصلاة والسلام جاء بشيراً ونذيراً، يقدم البشارة للمؤمنين؛ والإنذار للضالين؛ ليؤمنوا بالله الحق، ويقيموا الصلاة، ويحسنوا التطهر من دنس الذنوب .

---

(١) عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه ، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه ، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئًا » .

أخرجه مسلم [٢٦٧٤]

أما الذى يضل الآخرين ويفتى لهم لإضلالهم، فذلك هو الذى يحمل ذنوبه وذنوب غيره الذين صدقوا فتواه.

إذن. . فوزر الضلال الذى يرتكبه الإنسان بمفرده لا يمكن قياسه بوزر الضلال والإضلال معا، إن من يسأل واحدا عن فتوى فى أمر الدين إنما يستأمنه على دينه.

ولذلك يجب أن ينتبه الإنسان إلى عدم الفتوى فيما لايعرف، وأنا أنصح كل إنسان لا يعرف حكمًا لله أو استنباطَه فعليه ألا يكتفى بسؤال عالم واحد، إنما عليه أن يسأل أكثر من مصدر، وأن يراجع الفتوى على أكثر من عالم؛ ليتعرف إلى الحق فيتبعه. وبعد إيضاح الحق لموقف الأميين الذين لا يعرفون كل أمور دينهم، ويتلقون ذلك من أولى العلم بكتاب الله، يحذِّر الله سبحانه وتعالى المحرفين والمزورين لكلام الله وشرعه فيقول سبحانه وتعالى: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ [البقرة: ٧٩].

إن الحق تبارك وتعالى يوضح لنا أن المنافقين الذين استقبلوا الرسول بالمدينة كانوا شقين:

الشق الأول : لا يعرفون أمر النبوءة بالرسول فى التوراة.

والشق الثانى: هم الذين يقودون هؤلاء الأميين إلى الضلال.

وأوضح لنا الحق جزاء كل منهم. إن جزاء الذين يتبعون الظن هو أنهم لم يجتهدوا فى فهم دينهم، إنما تركوا غيرهم يقودونهم إلى الضلال، وهؤلاء المضلين الذين زينوا التوراة لهم الويل .

هكذا يفاجئهم القرآن الكريم بالجزاء، إنه الويل، والويلُ: كلمة تستخدم للتعبير عن الهلاك والتقبيح والتحسُّر من رؤية هول الجزاء على حماقة ارتكبها الإنسان عن قصد، ولا يمكن أن يتداركها الإنسان بعد ذلك، إنها الخزى الشديد(١). إن القرآن يوضح ويفصل بين جزاء الذين اتبعوا الظن فانساقوا إلى الضلال، وجزاء الذين أصروا على الضلال والإضلال، إنه عذاب مضاعف، إن الذين يحرفون كتاب الله ينالون العذاب المضاعف؛ لأنهم يحملون وزر ضلالهم ووزر إضلال غيرهم، وليس معنى ذلك أن الأميين لن يتلقوا العذاب، لا، إنهم سوف يتلقون العذاب أيضًا، إن الويل والخزى والهلاك ومضاعفة العذاب لمن حرَّفوا التوراة، أو مَنْ أمر بتحريفها،

(١) قال أبو حيان : والويل : معناه الفضيحة والحسرة ، وقال الخليل : الويل : شدة الشر ، وقال المفضل وابن عرفة: الويل : الحزن ، يقال: تويَّل الرجل: دعا بالويل، وإنما يقال ذلك عند الحزن والمكروه . وقال غيره : الويل : الهلكة ، وكل من وقع فى هلكة دعا بالويل ، وقال الأصمعى: هى كلمة تفجع ، وقد يكون ترحُّما ، ومنه :

ويل أمه مسعر حرب

[البحر المحيط : ١/ ٤٣٦]

وقال أبو الحسن فى قوله تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ﴾ :روى أبوسعيد الخدرى أن النبى ﷺ قال: «ويل واد فى جهنم يهوى فيه الكافر أربعين خريفًا قبل أن يبلغ قعره » (١) .

وقال عطاء بن يسار : الويل واد فى جهنم لو سيرت فيه الجبال لانماعت (٢) من حرّه . وقال الزجاج : الويل كلمة يستعملها كل واقع فى هلكة .

وقال الكلبى -عن ابن عباس -فى قوله: ﴿ فَوَيْلٌ ﴾ قال: الشدة من العذاب. ﴿ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ﴾ يعنى : يغيرُّون صفة محمد رسول الله ﷺ فى كتابهم =

(١) أخرجه الترمذى [٣١٦٤] وقال : حديث غريب ، واللفظ له ،وأحمد فى المسند [٣/ ٧٥] ، والحاكم فى المستدرك [٢/ ٥٠٧] وصححه ، ووافقه الذهبى ، وضعّفه الألبانى فى ضعيف الترمذى [٦١٧].

(٢) أى : ذابت .

فمن فعل ذلك يتلقى العقاب، ومن أمر بذلك يتلقى العقاب أيضاً، إن العذاب يشمل هؤلاء الذين كانت بأيديهم زمام السلطة الزمنية فى أمور الناس فى ذلك الوقت، والذين قدموا فتاوى مزيفة إلى أهل الكتاب، ففى ذلك الزمن كان من الطبيعى- كما فى كل زمن - أن يذهب الناس إلى الذين يتولون الأمر؛ليسألوهم الفتوى،وكان غالبية اليهود يذهبون إلى الأحبار والكهان ليسألوهم الفتوى فى الأمر العظيم الذى جاء به محمد رسول الله ﷺ .

هؤلاء الأحبار والكهان زيّفوا الأمر على الأتباع،ولذلك أنقذ الله أمة الإسلام بأن تشريعها غير قابل للتزوير، إنه محفوظ بإرادة الله، إنه تشريع يحفظ لكل الناس كبرياءهم أمام بعضهم البعض؛ولذلك نجد أن رجال الأديان الأخرى غير الإسلام،عندما أخذوا السلطة الزمنية كان الحكم يختلف من إنسان لآخر، فمن ارتقى بمقامه الاجتماعى أو ثروته، وكان لرجال الدين عنده حاجة، فإنهم يزيفون له الفتوى والحكم(١). أما الإسلام فالكل سواء أمام القرآن الكريم، الدستور الواضح الذى تكفّل الله تعالى

= فجعلوه آدم سبطًا (١) طويلا ، وكان ربعة أسمر(٢). وكتبوا صفته على غير ما كانت فى التوراة ؛ وذلك لما كانوا يأخذونه من المآكل (٣) من سائر اليهود،فخافوا أن تذهب مأكلتهم إن هم بيّنوا الصفة ؛ فذلك قوله : ﴿ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾.

[الوسيط فى تفسير القرآن : ١/ ١٦٣]

(١) عن البراء بن عازب قال : مرّ على النبى ﷺ بيهودى محممًا مجلودًا ، فدعاهم ﷺ فقال : « هكذا تجدون حد الزانى فى كتابكم ؟ » قالوا : نعم، فدعا رجلاً من علمائهم . فقال : « أنشدك بالله الذى أنزل التوراة على موسى ! أهكذا تجدون حد الزانى فى كتابكم ؟ » قال : لا . ولولا أنك نشدتنى بهذا لم أخبرك. نجده الرجم =

(١) سبطًا : أى غير جعد . يقال : شعر سبط أى : مسترسل غير جعد .

(٢) الربعة فى صفة النبى ﷺ بمعنى : المربوع الذى ليس بطويل ولا قصير .

(٣) المآكل : اسم لما يؤكل .

بحفظه عن التحريف ، فظل كما هو عليه من ساعة أوحى به جبريل للنبى وإلى أن تقوم الساعة ، محفوظا بأمر الله لا يُحرف ولا يبدل .

إن الذين يأخذون من آيات الله ما يوافق أهواءهم، ويتركون ما لا يوافق أهواءهم ،فهؤلاء لهم عذاب شديد.

لقد كان أحبار اليهود والكهان يزيفون آيات التوراة ويقولون: إنها من عند الله، وبذلك يخلعون صفة التقديس على ما يقولونه، فيأخذ الناس الحكم دون مناقشة، لهؤلاء الويل كل الويل، ولنا فى القياس اعتبار، لنا أن نقول لأى إنسان يأتى بأمر على هواه ويقول: ﴿ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ ﴾ بينما هو يخدم هوى فى نفسه، فلذلك الإنسان نفس الدرجة من الويل؛ لأن تزيين التشريعات الفاسدة أو تبريرها، ثم القول بأن ذلك من عند الله، إنما هو خداع لله وللبشر، ولا أحد قادر على أن يخدع الله. إن الذين يستغلون الدين فى تبرير الهوى، وهم يعلمون أن وتر الدين حساس فى النفوس، لهؤلاء نقول: احذروا عقاب الله؛ لأنكم بهذا تشترون بآيات الله ثمنًا قليلاً.

= ولكنه كثر فى أشرافنا . فكنا إذا أخذنا الشريف تركناه . وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد . قلنا : تعالوا فلنجتمع على شيء نقيمه على الشريف والوضيع . فجعلنا التحميم والجلد مكان الرجم . فقال رسول الله ﷺ : «اللَّهمَّ إنى أول من أحيا أمرك إذ أماتوه » . فأمر به فرُجم،فأنزل الله عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ ﴾ إلى قوله : ﴿ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ ﴾[المائدة: ٤١] يقول : ائتوا محمداً ﷺ فإن أمركم بالتحميم والجلد فخذوه . وإن أفتاكم بالرجم فاحذروا . فأنزل الله تعالى﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾[المائدة : ٤٤] ، ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾[المائدة : ٤٥] ،﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾[المائدة : ٤٧]. فى الكفار كلها .

أخرجه مسلم [١٧٠٠]

ومن المعلوم أن الإنسان لا يشترى ثمناً، إنما الإنسان يشترى شيئاً ما ويدفع فيه ثمناً، إن الإنسان يدفع نقوداً ليأخذ سلعة، لكن الله هنا يعرض لنا الموقف؛ ليبين لنا بشاعة مثل ذلك الفعل، إنهم يحوّلون شريعة الله لشراء سلعة هى السلطة الزمنية، إنهم يدفعون الكثير لقاء القليل. إن أمور التكليف من الله لا تقدر بثمن، ولا يمكن أن تكون سلعة؛ ولذلك فمن يشترى بآيات الله فهو يشترى الثمن القليل؛ لأنه يقدم حياته وإيمانه ويقينه ثمنا يشترى به عرض الدنيا. إن الإيمان واليقين والتكاليف الإيمانية أكرم من أن تكون ثمناً لأى عرض من الدنيا؛ لأن أى ثمن هو قليل فى ذلك المجال؛ ولأن الانتفاع بعرض الدنيا قليل وموقوت النفع وموقوت المدة؛ لذلك فكل ثمن هو قليل مقابل منهج الله .

ويؤكد الحق لفظة: «الويل» ثلاث مرات فى هذه الآية؛ ليوضح خطورة مثل ذلك الفعل، تبدأ الآية: ﴿ **فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً** ﴾، وفى منتصف الآية يقول سبحانه: ﴿ **فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ** ﴾، وفى آخر الآية يقول: ﴿ **وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ** ﴾، إن الويل يلاحق كل مرحلة من مراحل تزييف أوامر الحق، ففى اللحظة التى يزيف فيها أحد حكما لله لقاء ثمن قليل يتلقى الويل، وفى اللحظة التى يتم فيها استغلال هذا الحكم يتلقى الويل، وفى اللحظة التى يتم فيها تنفيذ هذا الحكم يتلقى الويل، وكأن تكرار الويل إنما هو تحذير وإيضاح لجسامة تزوير أوامر الحق، فقد يزوِّر واحد ولا يستفيد بما زوره، ورغم ذلك له الويل، وقد يكتب واحد أوامر الله مزورة، ويستفيد من ذلك التزوير، وذلك له الويل، وقد يُزوِّر واحد ويستفيد من التزوير ويتلقى التزوير عنه واحد آخر، وذلك أيضاً له الويل.

وعندما ننظر إلى قوله: ﴿وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ فنحن نرى أن كلمة: «كسب» تدل على عمل من أعمال الجوارح. إن الكسب دائماً هو رغبة فى جلب نفع أو دفع ضر، ونلاحظ أن كلمة: «الكسب» تأتى فى الشيء المالى، ونلاحظ أن كلمة اكتسب تأتى فى الآثام، وكأن الحق جل وعلا يلفتنا إلى حقيقة أن الإنسان يجب ألا يستعمل جوارحه إلا فيما يعود بالنفع، فإن حاول الإنسان أن يجعل جوارحه تُقبل على حدث أو عمل يجلب الضر، فذلك كسب غير طبيعى، إنه قهر على فعل يجب ألا يقوم به الإنسان، ولنا أن نعرف أن قهر الإنسان لنفسه على عمل بالجوارح غير موافق لمنهج الله؛ إنما يكتسب الإنسان به الإثم. وهكذا نرى أن القول يجب أن يرتبط بالعمل رغم أن ظاهرهما قد يوحى بغير ذلك(١).

فالحق يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ (٣)﴾ [الصف] إن الحق يحذِّر المؤمن أن يقول ما لا يفعل؛ لأنه حين يقول فهذا القول هو فعل، فالقول فعل من

---

(١) كسب: الكسب: طلب الرزق، وأصله الجمع. كَسَبَ يَكْسِب كَسْباً، وتكسَّب واكتسب.
قال سيبويه: كسب أصاب، واكتسب: تصرَّف واجتهد، قال ابن جنى: قوله تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦]. عبرَّ عن الحسنة بكسبت، وعن السيئة باكتسبت؛ لأن معنى كَسَب دون معنى اكْتَسب لما فيه من الزيادة؛ وذلك أن كسب الحسنة- بالإضافة إلى السيئة- أمر يسير ومستصغر؛ وذلك لقوله عزَّ اسمه: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَىٰ إِلا مِثْلَهَا﴾. أفلا ترى أن الحسنة تَصْغُر بإضافتها إلى جزائها، ضِعف الواحد إلى العشرة؟ ولما كان جزاء السيئة إنما هو بمثلها لم تُحتقر إلى الجزاء عنها، فعُلم بذلك قوة فعل السيئة على فعل الحسنة، فإذا كان فعل السيئة ذاهباً بصاحبه إلى هذه الغاية البعيدة المترامية، عظَّم قدرها وفخَّم لفظ العبارة عنها، فقيل: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾، فزيد فى لفظ فعل السيئة، وانتقص من لفظ فعل الحسنة؛ لما ذكرنا.
[لسان العرب: ١/٧١٦]

اللسان يجب أن يتبعه سلوك يعبر عن هذا القول.

إذن.. فالقولُ فعلٌ والعمل فعلٌ أيضا، والفعل والقول كلاهما عمل؛ لذلك لنا أن نتيقن جيدا أن القول فعل من عمل اللسان، وعلى الإنسان أن يتبعه بسلوك يتناسب مع الفعل(١)، إن الإنسان عندما ينطق بشهادة: لا إله إلا الله محمد رسول الله ، إنما يتحرك بلسانه من دائرة الغفلة عن منهج الله إلى دائرة أخرى، هى دائرة القبول الكامل لمنهج الله، ويقوده هذا القول إلى تسليم قلبى، وسلوك وعمل إيمانى يتبع هذا القول، هكذا نفهم أن العمل هو توجيه أى جارحه من الجوارح لتؤدى مهمتها، والفعل هو توجيه جارحة غير اللسان لتؤدى مهمتها، والقول فعل يقتضى توجيه اللسان ليواجه مهمته، لذلك فالقول والفعل فى الإيمان متلازمان، يُعبِّر عنهما معا عمل الإنسان؛ ليتسق سلوك الإنسان المؤمن مع جوارحه، ولا ينطق لسانه إلا بما يعمر به قلبه وجوارحه من إيمان، ويكون فى عمله دائما خاشعاً لله، يبتغى به وجهه سبحانه.

---

(١) قال النخعي: ثلاث آيات منعتني أن أقص على الناس: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٤]، ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾ [هود: ٨٨]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢].

[تفسير القرطبى: ١٨/ ٨٠]

* بنو إسرائيل ضلوا وأضلوا *



﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ﴾ [النساء: ٤٤] جاءت هذه الآية ورسول الله يعاصره قوم من اليهود، ورأى منهم بالفعل أنهم أوتوا نصيبا من الكتاب؛ لأنهم أهل كتاب، ومع ذلك يشترون الضلالة لا يقولون الحق، وهذا أمر يراه رسول الله رأى العين(١) ، فقد أرسل الله الرسول ﷺ خاتما للأنبياء، ختم به الله موكب النبوة . ومعنى ذلك أن النبوة كان لها موكب، فكل عصر من العصور يأتى فيه نبى على قدر اتساع الحياة، وعلى قدر التقاء الكائنين فى الحياة، وعلى قدر الأدواء والأمراض التى تسرى فى المجتمع، ولكن الله علم أزلا أن رسول الله ﷺ سيأتى فى فترة نتظم فيها كل قضايا الزمن إلى أن تقوم الساعة.

والزمن الذى تنتظم كل قضاياه إلى قيام الساعة، زمن يعلم الله أن فوارق

---

(١) قال ابن الجوزى فى قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾ :

اختلفوا فيمن نزلت على ثلاثة أقوال:

أحدها: أنها نزلت فى رفاعة بن زيد بن التابوت.

والثانى: أنها نزلت فى رجلين كانا إذا تكلم النبى ﷺ لويا ألسنتهما وعاباه، روى القولان عن ابن عباس.

والثالث: أنها نزلت فى اليهود، قاله قتادة.

وفى النصيب الذى أوتوه قولان:

أحدهما: أنه علم نبوة محمد النبى ﷺ.

والثانى: العلم بما فى كتابهم دون العمل. [زاد المسير: ٢/ ١٣٢]

المواصلات فيه ستنتهى، وفوارق الحواجز فيه ستنتهى، فيحدث الخبر فى أدنى الشرق وأعلاه، فنسمعه فى أدنى الغرب، والداء يوجد مرة فى أمريكا، وبعد يوم أو يومين يظهر فى أى بلد من البلاد الأخرى.

إذن . . فالمسافات انتهت، والمواصلات جعلت من العالم كأنه قطعة واحدة. إذن . . فالأدواء فى المجتمع بعد أن كانت فى القديم معزولة انعزالا إقليميا، وكل داء فى جماعة قد لا يصل إلى جماعة أخرى، لذلك فكل جماعة كان يأتى لها رسول ليعالج داءها، لكن بعد أن التحم العالم هذا الالتحام، فلا بد أن يأتى الرسول جامعا للناس جميعاً . . لماذا؟

لأن الأدواء التى جاء الرسل ليعالجوها ستصير أدواء منتشرة ، وهذا ما نراه فى زماننا الحديث، ونرى من تلك الأدواء العجب .

إذن . . كان لابد أن تتوحد الرسالة، وحين تتوحد الرسالة لا يأتى رسول ليستدرك.

لذلك جاء رسول الله ﷺ خاتما، ولذلك أخذ الله العهد على كل رسول أن يبشر قومه بأنه سيأتى رسول خاتم، فيكون عند أهل كل ديانة خلية تطمئنهم على أنه إذا جاء رسول، فهم الناس أن الرسول قادم ببلاغ عن الله، وقد سبق التنبؤ به والبلاغ عن مقدمه، فلا مفاجأة فى بعث الرسول، ولا مجال لتكذيبه ﷺ؛ وذلك قول الله تعالى : ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ** ﴾ [آل عمران : ٨١] .

إذن . . فرسول الله مشهود له من كل الرسل؛ ولذلك أكد رسالات كل الرسل، لقد جاء دينه مصدقا لدين كل الرسل؛ لأنهم كلهم من مشكاة

واحدة، والذين يؤمنون بالرسالات السابقة إذا جاءهم خبر رسالة جديدة فإن تعصبهم لدينهم قد يجعلهم ينصرفون عنه(١). وحتى يمنع الحق ذلك، جاءت النبوءة بالرسول ﷺ كرسول خاتم، وكانت هذه النبوءة موجودة فى كتب بنى إسرائيل فى التوراة والإنجيل.

إذن . . فالله أعطاهم نصيبًا من الكتاب، وانظروا إلى دقة الأداء القرآنى فى قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾(٢) [النساء: ٤٤] لقد قال عنهم الحق أنهم يشركون وينسون عهد الله الذى أخذه عليهم بأن يؤمنوا بالنبى ﷺ وبرسالته؛ لأنه سبحانه قال فى آية أخرى: ﴿وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾(٣) [المائدة: ١٣]، لكن ماذا عن الذين يملكون الكفاية بحكم قوله تعالى: ﴿أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾ ؟كان المفروض أنهم حينما

---

(١) قال الرازى: اعلم أن المقصود من هذه الآيات تعديد تقرير الأشياء المعروفة عند أهل الكتاب مما يدل على أن نبوة محمد ﷺ؛ قطعاً لعذرهم وإظهارًا لعنادهم، ومن جملتها ما ذكره الله تعالى فى هذه الآية، وهو أنه تعالى أخذ الميثاق من الأنبياء الذين آتاهم الكتاب، والحكمة، بأنهم كلما جاءهم رسول مصدق لما معهم آمنوا به ونصروه، وأخبر أنهم قبلوا ذلك وحكم تعالى بأن من رجع عن ذلك كان من الفاسقين، فهذا هو المقصود من الآية، فحصل الكلام أنه تعالى أوجب على جميع الأنبياء الإيمان بكل رسول جاء مصدقا لما معهم. [التفسير الكبير: ٨/ ١١٤]

(٢) كان رفاعة بن زيد بن التابوت من عظماء يهود ، إذا كلَّم رسول الله ﷺ لوى لسانه، وقال : أرْعِنا سمعك يا محمد حتى نفهمك ، ثم طعن فى الإسلام وعابه ؛ فأنزل الله عز وجل فيه : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ﴾ [النساء: ٤٤] إلى قوله: ﴿فَلا يُؤْمِنُونَ إِلا قَلِيلاً﴾ .
[دلائل النبوة للبيهقى : ٢/ ٥٣٤]

(٣) قال البغوى فى تفسير قوله تعالى: ﴿وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ : أى: وتركوا نصيب أنفسهم مما أُمروا به من الإيمان بمحمد ﷺ وبيان نعته.
[معالم التنزيل: ٣/ ٣١]

أوتوا نصيبا من الكتاب أن تكون آذانهم مستشرفة إلى صوت داعية الحق الخاتم، وكان ذلك موجوداً لديهم؛ لذلك يقول الحق: انظروا جيدا إليهم ﴿ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ [البقرة: ٨٩]؛ كانوا يقولون لأهل الشرك: نحن ننتظر النبى الذى سيرسله الله منكم؛ لنسبقكم إلى الإيمان به، فإذا ما سبقناكم إلى الإيمان به وظللتم على كفركم، سنقتلكم به قتل عاد وإرم.

إذن.. هم متعصبون لرسالتهم، ويقولون لعبدة الأوثان من العرب: إن هناك رسولا خاتماً سوف يأتى، وسنكون أول المؤمنين به، وعندما نتبعه سنقتلكم إن ظللتم على كفركم، فإذا قالوا هذا القول وهم - كما يعلم العرب - أهل كتاب، فماذا يكون الموقف؟ إن كفار قريش لم يقولوا إنهم أهل كتاب، ولكنهم كانوا على فترة من الرسل؛ لذلك كان من المفروض أن يؤمنوا برسول الله الذى توعدوا بمجيئه، وأن يعلن أهل الكتاب المسارعة إلى الإيمان به.

لكن من لؤمهم لم ينتفعوا بها؛ يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾(١) [الرعد: ٤٣] لقد جعلكم الله شهودا على صدق الدعوة، إنه سبحانه شاهد وأنتم أيضا شهود، إنها منزلة كبرى أن يذكر الله أنه شاهد على رسالة

---

(١) قال الماوردى فى قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾: فيه ثلاثة أقاويل:

أحدها: أنهم عبد الله بن سلام وسلمان وتميم الدارى، قاله قتادة.

الثانى: أنه جبريل، قاله سعيد بن جبير.

الثالث: هو الله تعالى، قاله الحسن ومجاهد والضحاك.

وكانوا يقرءون ﴿ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾ أى: من عند الله علم الكتاب، وينكرون على من قال: هو عبد الله بن سلام وسلمان؛ لأنهم يرون السورة مكية وهؤلاء أسلموا بالمدينة، والله تعالى أعلم بالصواب. [تفسير الماوردى: ٣/١١٩]

رسول الله، وكذلك أهل الكتاب، لكن ما الذى حدث ؟ ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ﴾ [البقرة:٨٩] .

وهنا يجب أن نفطن إلى أن الحق سبحانه وتعالى حينما يرسل قضية عقدية فى الكون فيخالفها مخالف؛ قد يظن هذا المخالف بغباء أنه يضار الله، لكن الحقيقة الإيمانية تقول للمخالف: أنت فعلت ذلك لشهوة نفسك، إن المكذب لمراد الله من إرسال محمد عليه الصلاة والسلام يضع نفسه فى دائرة الغافلين، فليس أحد بقادر على مصادرة مرادات الله .

لقد كذب هؤلاء القوم من أهل الكتاب، ولكن الحق قد جعلهم ينبئون المشركين من قبل بخبر محمد رسول الله ﷺ، وليرَ هؤلاء المكذبون ماذا فعلت كلمتهم للكفار، إنهم بإنكارهم قد قدموا للإيمان فوق ما تصوروا، لقد فهموا أنهم حاربوا الإيمان، ولكن الواقع أنهم أيدوا الإيمان، ولكن بجهل وعدم فهم وعليهم الوزر، فلما جاء رسول الله ﷺ وأعلن دعوته ، قال المشركون الوثنيون من أهل يثرب: إن هذا هو النبى الذى توعدتنا به يهود، فهيا نسبق إلى الإيمان به قبل أن يسبقونا.

إذن . .فقد أيد المنكرون لرسالة الله من أهل الكتاب قضية الإيمان برسول الله، فلا يظنن عاص أنه قادر على إطفاء نور الله؛ لأن الله متم نوره ولو كره الكافرون: ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ [الصف: ٨] .

ومثال ذلك لما أذن الله تعالى بتحويل القبلة وأمر رسوله ﷺ بذلك فى قوله سبحانه وتعالى: ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾ [البقرة: ١٤٤]. وأخبره تعالى: أن السفهاء من الناس سيقولون: ﴿ مَا وَلاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ﴾ [البقرة: ١٤٢] .

ومع ذلك ، ومن فرط جهلهم أنهم قالوا نفس الكلام، ولو كان بهم ذرة من بصيرة لامتنعوا أن يقولوا قول السفهاء(١) .

وذلك يدل على أن الكفر مضلل، والكافر فى ضلال، ولا يستطيع أن ينصر نفسه. لقد أراد الله بذلك الكفر وسيلة للإيمان، فلو كانوا على ذكاء وبصيرة لقالوا لأنفسهم: مادام القرآن قد قال: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ﴾ فلابد أن نجمع بعضنا، ونرفض أن نقول مثل هذا القول؛ حتى لا نكون من السفهاء، ولكن الله غالب على أمره.

والله سبحانه يجعل من الكفر وسيلة للإيمان، وصدق رسول الله ﷺ: «إن الله لينصر هذا الدين بالرجل الفاجر» (٢) .

إن الحق سبحانه وتعالى يقول عن هؤلاء: ﴿أُوتُوا نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ﴾ وكان المفروض أنهم ما داموا قد أوتوا نصيبا من الكتاب أن يكونوا أول من آمن، لكنهم لم يؤمنوا وهذه أول مرتبة، ويا ليتهم انتصروا فى الشر على هذه، فلو فعلوا ذلك لقصرت المسألة عليهم، ولكنهم: ﴿يَشْتَرُونَ الضَّلالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ﴾ هذه هى المرتبة الثانية، فهناك من يضل فى ذاته، هذا وزره، ولكن هناك آخر ضال ويحاول أن يضل الآخرين . لماذا؟

---

(١) سفه: السَّفه والسَّفاه والسَّفاهة: خفة الحلم، وقيل: نقيض الحلم، وأصله الخفة والحركة، وقيل: الجهل وهو قريب بعضه من بعض. وقد سَفِه حِلْمَه ورأيه ونفسه سَفَهًا وسَفاهاً وسَفاهة: حمله على السفه. [لسان العرب: ١٣/٤٩٧]

(٢) جزء من حديث أخرجه مسلم [١١١] عن أبى هريرة، قال: شهدنا مع رسول الله ﷺ حنينا، فقال لرجل ممن يُدْعى بالإسلام: «هذا من أهل النار» فلما حضرنا القتال قاتل الرجل قتالاً شديداً فأصابته جِرَاحَة(١). فقيل: يا رسول الله! الرجل الذى قلت =

---

(١) جَرَحه يَجْرحه جَرْحًا : أثّر فيه بالسلاح . والجِراحة : اسم الضربة أو الطعنة ، والجمع : جراحَات وجِراح . [لسان العرب : ٢/٤٢٢]

لأن الضال أو المنحرف أو الذى لا يسير على طريق مستقيم يعرف الصواب، ويعرف الطريق المستقيم؛ لكن الصعوبة أنه لا يستطيع أن يحمل نفسه على الطريق المستقيم، فإذا ما وجد الضال إنسانا آخر يحمل نفسه على الطريق المستقيم، فالضال يستصغر نفسه ويتساءل: لماذا يفعل ذلك الإنسان الصواب وأنا لا أفعله ؟ لذلك يحاول بالحقد أن يجذب الذى يسير على صواب إلى صف الضلال ؛حتى لا يظل الضال وحده هو المنحرف، ونحن نرى ذلك عندما نجد قوما منحرفين، ويرون واحدا على صراط مستقيم، فهم يتضاءلون أمامه، وينظرون له نظرة تقدير، لكنهم يقولون: لماذا يكون هو بمفرده المستقيم؟ إننا يجب أن نجذبه إلى الفساد . ولذلك فالمجدون فى الطاعة يجب أن ينتبهوا جيدا إلى أن شياطين الإنس لن تتركهم فى طاعتهم، بل سيحاولون استمالة أهل الطاعة، لماذا؟ لأن شياطين الإنس غزيز عليهم أنهم لا يقدرون على أنفسهم ، ويحز فى نفوسهم أكثر أن يجدوا بشراً مثلهم قدروا على أنفسهم وصاروا أهل طاعة، ولذلك يقولون: هيا لنصبح جميعًا فى الضلالة سواء، إنهم يريدون ألا يرفع مؤمن رأسه عليهم بالطاعة.

إنهم يدعون إلى الكذب؛ لأن الكذاب إذا رأى الصادق يحقد عليه، والخائن ساعة يرى الأمين كذلك، إن الشارد عن الطاعة يرغب أن يكون الجميع شاردين مثله .

وهذا هو معنى: ﴿يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ﴾ إنهم

= له آنفا: «إنه من أهل النار» فإنه قاتل اليوم قتالاً شديداً، وقد مات. فقال النبى ﷺ: «إلى النار» فكاد بعض المسلمين أن يرتاب. فبينما هم على ذلك إذ قيل: إنه لم يمت. ولكن به جراحاً شديداً! فلما كان من الليل لم يصبر على الجراح فقتل نفسه. فأخبر النبى ﷺ فقال: «الله أكبر! أشهد أنى عبد الله ورسوله». ثم أمر بلالاً فنادى فى الناس: «إنه لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة، وإن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر».

ضلوا ويريدون إضلال غيرهم، وهنا يجب أن ينتبه المجدون فى الطاعة إلى ذلك(١).

إنهم يحاولون السخرية من الإنسان الجاد؛ لأنهم ساعة يرونه مقبلا على الطاعة وهم غير قادرين عليها، يتضاءلون أمام أنفسهم؛ قال سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ (٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلاءِ لَضَالُّونَ (٣٢) ﴾ [المطففين]، إنهم يعودون إلى أهلهم بلون من السرور؛ لأنهم سخروا من مؤمن، كما أنهم يتهمون أهل الإيمان بالضلال: ﴿ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلاءِ لَضَالُّونَ ﴾؛ وهاهو الحق سبحانه وتعالى يُبشر المؤمنين بأنهم سيضحكون من الكفار يوم القيامة؛ وذلك فى قوله تعالى: ﴿ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤) عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (٣٥) هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) ﴾ [المطففين].

إن الكفار يكونون موضع سخرية المؤمنين يوم القيامة، ومن يضحك أخيرا فهو الفائز (٢).

(١) قال الزمخشرى: ﴿ يَشْتَرُونَ الضَّلالَةَ ﴾: يستبدلونها بالهدى وهو البقاء على اليهودية، بعد وضوح الآيات لهم على صحة نبوة رسول الله ﷺ، وأنه هو النبى العربى المبشر به فى التوراة والإنجيل، ﴿ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا ﴾ أنتم أيها المؤمنون سبيل الحق كما ضلوه، وتنخرطوا فى سلكهم، لا تكفيهم ضلالتهم بل يحبون أن يضلّ معهم غيرهم؛ وقرئ: « أن يضلوا » بالياء بفتح الضاد وكسرها. [الكشاف: ١/ ٢٧١]

(٢) قال القرطبى فى قوله تعالى: ﴿ فَالْيَوْمَ ﴾ يعنى هذا اليوم الذى هو يوم القيامة، ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ بمحمد ﷺ، ﴿ مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴾ كما ضحك الكفار منهم فى الدنيا. وذكر ابن المبارك: أخبرنا محمد بن بشار عن قتادة فى قوله تعالى: ﴿ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴾ قال: ذكر لنا أن كعبا كان يقول: إن بين الجنة والنار كوى، فإذا أراد المؤمن أن ينظر إلى عدو كان له فى الدنيا، اطّلع من بعض الكوى؛ قال الله=

والمعنى : ألم تر يا محمد أن الذين أوتوا نصيبا من الكتاب- وهم اليهود، وهم الذين قد نسوا حظا مما ذكروا به - يشترون الضلالة. وساعة نسمع كلمة: «يشترى» فنحن نعرف أن هناك معاوضة ومبادلة،أى سلعة وثمن،وبأى ثمن يشترون الضلالة؟

الآية تقول: ﴿ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَىٰ ﴾[البقرة: ١٦]. أى: أنهم دفعوا الهدى ثمنا للضلالة،وعادة المدفوع يخرج من تحت تصرفنا،وما نشتريه هو الذى يبقى فى أيدينا، فساعة يشترى الواحد منا سلعة بنقود، فإن النقود تذهب إلى حوزة البائع، وتبقى للواحد منا السلعة التى اشتراها، وحين يقول الحق: ﴿ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَىٰ ﴾هنا نسأل: هل كان معهم هدى وقدموها ليأخذوا الضلالة؟ وتكون الإجابة: نعم، كان معهم هدى الفطرة. إن كل كائن معه هدى الفطرة، وإياكم أن تظنوا أن العقل السليم ينتظر رسولا ليدله على الله، إنما هو ينتظر الرسول ليبلغه منهج الله .

= تعالى فى آية أخرى: ﴿ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴾ [الصافات: ٥٥] قال: ذكر لنا أنه اطلع فرأى جماجم القوم تغلى. وذكر ابن المبارك أيضا : أخبرنا الكلبى عن أبى صالح فى قوله تعالى: ﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ . قال: يقال لأهل النار وهم فى النار: اخرجوا، فتفتح لهم أبواب النار، فإذا رأوها قد فتحت أقبلوا إليها يريدون الخروج، والمؤمنون ينظرون إليهم على الأرائك، فإذا انتهوا إلى أبوابها غلقت دونهم؛ فذلك قوله: ﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾. ويضحك منهم المؤمنون حين غلقت دونهم فذلك قوله تعالى: ﴿ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾. ومعنى: ﴿ هَلْ ثُوِّبَ ﴾ أى هل جوزى بسخريتهم فى الدنيا بالمؤمنين إذا فعل بهم ذلك. وقيل: إنه متعلق بـ ﴿ يَنظُرُونَ ﴾ أى: ينظرون هل جوزى الكفار؟ فيكون معنى: ﴿ هَلْ ﴾ التقرير وموضعها نصبا بـ ﴿ يَنظُرُونَ ﴾ وقيل: استئناف لا موضع له من الإعراب. وقيل: هو إضمار على القول، والمعنى؛ يقول بعض المؤمنين لبعض: ﴿ هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ ﴾. أى: أثيب وجُوزى. وهو من ثاب يثوب أى رجع؛ فالثواب ما يرجع على العبد فى مقابلة عمله، ويستعمل فى الخير والشر. [تفسير القرطبى: ١٩/٢٦٨]

ولذلك نحن نرى الإنسان عندما يرى الدنيا بعين فاحصة، فهو يرى أشياء كثيرة فى الدنيا مسخرة لخدمته، ولا تتخلف هذه الأشياء عن خدمة الإنسان أبدا، مثال ذلك: الشمس تشرق كل يوم، والهواء له مسارات معروفة بتيارات محسوبة، والأرض ساعة يزرعها الإنسان فهى تعطيه، والماء يتدفق على الإنسان، فهل للإنسان قدرة على هذا؟ هل ادعى أحد من البشر أن له قدرة على هذه الأشياء المسخرة؟ لا. . إن كل إنسان يعرف أنه طرأ على هذه الأشياء، لقد فوجئ آدم من بعد خلقه بأن النعم موجودة، لقد طرأ آدم على النعمة ولم تطرأ النعمة عليه. ونسل آدم كذلك، فبالله؛ مادام الإنسان قد طرأ على النعمة، ألا يتساءل من الذى أعطاه هذه النعمة ؟!

إن الإنسان بفطرته يعرف أن هناك خالقا أعلى لهذه النعم، ونحن ضربنا مثلاً من قبل عن إنسان قد انقطعت به الوسائل، وكان فى الصحراء ولم يجد ماءً، ثم يئس فنام، ثم استيقظ فوجد مائدة عليها أطايب الطعام. ألا يسأل هذا الإنسان عن صانع هذه المائدة ؟!!

إن الإنسان قد ورد على هذا الكون بخيره كله ، ولم يقل أحد أنه صنع لك هذا الكون، لا والد الإنسان قد قال له ذلك، ولا جدّ هذا الإنسان قد أبلغ الوالد، لذلك على الإنسان أن يتنبه.

إذن. . فقول الحق: ﴿ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَىٰ ﴾ يفسِّر لنا أن كل إنسان مولود ومعه هدى الفطرة(1) .

ولذلك حينما سئل الإمام على رضى الله عنه: أعرفت ربك بمحمد أم

(1) عن أبى هريرة؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يُهوِّدانه ويُنصِّرانه ويُمجِّسانه. كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء. هل تحسون فيها من جدعاء؟» ثم يقول أبو هريرة: واقرءوا إن شئتم: ﴿ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴾ [الروم: ٣٠].

أخرجه البخارى [٤٧٧٥] ، ومسلم [٢٦٥٨]

عرفت محمدا بربك؟فقال: لو عرفت محمدا بربى، ما احتجت إلى رسول. لذلك أفسد الإمام على مقولة: أعرفت ربك بمحمد، ثم قال الإمام على: ولو عرفت ربى بمحمد لصار محمد أوثق عندى من ربى، وهذه أيضا لا تصلح .

لذلك قال الإمام على رضى الله تعالى عنه: عرفت ربى بربى، وجاء محمد فبلغنى مراد ربى منى[1].

إذن. . فالذين اشتروا الضلالة بالهدى، باعوا هدى الفطرة واشتروا الضلالة، وهنا فى هذه الآية التى نحن بصددها: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ﴾ إنه هنا لم يذكر مسألة أنهم قايضوا الهدى بالضلالة. وهذا يدل على أن الفطره انطمست عندهم انطماسا، بحيث لم يقدموا ثمنا للضلالة .

فالعلة فى الآية الأولى: أنه أورد الهدى دليلاً على أنهم امتلكوا هدى الفطرة. أما العلة فى هذه الآية: أنه حذف الهدى دليلا على انطماس هدى الفطرة عند هؤلاء القوم.

---

(١) وقد ورد عنه أيضاً: «من عرف نفسه فقد عرف ربه».
[مائة كلمة للإمام أمير المؤمنين على بن أبى طالب: ٢٢]
أى من عرف نفسه بالحدوث فقد عرف ربه بالقِدَم، ومن عرف ربه بالبقاء عرف نفسه بالفناء. [المقاصد الحسنة : ١١٤٩]

* غضب الله على اليهود *

﴿ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ [البقرة: ٩٠]

الحق سبحانه وتعالى يُخبرنا أن اليهود جعلوا الإيمان بالله سلعة تباع وتشترى، لقد ظنوا أنهم متفوقون فى مسائل المادة والحساب، لكن تفوقهم قد خاب فى الصفقة الكبرى، صفقة الإيمان. لقد باعوا أنفسهم بالكفر، والكفر هو طريقهم إلى جهنم، ولا يقتصر الأمر على الآخرة لكن لهم الخزى فى الدنيا أيضًا، ذلك أن الحق تبارك وتعالى يُعجِّل ببعض العقوبات فى الدنيا؛ ليستقيم ميزان الأمور حتى عند من لم يؤمن بالآخرة؛ وذلك حتى يتضح لمن لا يؤمنون بوجود إله أن الخلق له مُدبِّر.

إن من لا يؤمن بالله عندما يرى إنسانا يعتدى على الناس، ثم يرى هذا المعتدى فى وضع المغلوب والمقهور، عند ذلك يعرف أن هناك إلها حقا.

إن عقاب الدنيا ضرورى؛ لاعتدال ميزان الكون. فعندما يرى الناس المرابى مثلا، وقد جمع أمواله من دماء الناس ثم يُفاجَئُون به وقد تحول إلى متسول يسأل الناس، هنا يعرف الجميع قدرة الحق جل وعلا .

ولذلك يدعو المسلمون على الظالمين بقولهم: «يارب، إن القوم قد غرهم حلمك، واستبطئوا آخرتك، فخذهم ببعض ذنوبهم أخذ عزيز مقتدر»(١).

(١) قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ (٤١) كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ (٤٢) ﴾ [القمر] .
=

والحق سبحانه يجيب المضطرين الذين استنفذوا أسبابهم، فتأتى قدرة الله لتفتك بالباغين وتصرع الظالمين.

ووقع الفتك ببنى إسرائيل الذين لم يؤمنوا برسالة محمد عليه الصلاة والسلام، وقد كانوا :

- زعماء العلم فى المدينة .
- وحصونهم قادرة على صدّ أى حرب.
- وكانوا يتحكمون فى تجاره السلاح.
- وكانوا يملكون زمام الربا والمال.

ثم لما جاء الإسلام وكرهوا ما أنزل الله وعادَوا النبى ﷺ ؛ انقلبت عزتهم ذلة؛

- فأُجلوا عن ديارهم وحصونهم.
- وضاعت أموالهم.
- وسُبيت نساؤهم.

هذا هو خزى الدنيا. والخزى قد جاء ويجىء دائما عند البغى، والبغى هو تجاوز الحد(1).

= وقال السمرقندى : قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ ﴾ يعنى: الرسل وهو موسى وهارون ﴿ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا ﴾ يعنى: بالآيات التسع ﴿ فَأَخَذْنَاهُمْ ﴾ يعنى: عاقبناهم عند التكذيب ﴿ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ يعنى : عقوبة منيع بالنقمة على عقوبة الكفار ، مقتدرًا يعنى : قادرًا على عقوبتهم وهلاكهم . [بحر العلوم : ٣/٣٠٢]

(١) قال الراغب الأصفهانى: البغى: طلبُ تجاوز الاقتصاد فيما يُتحرَّى ، تَجاوزَه أو لم يتجاوزه ، فتارة يُعتبر فى القَدْر الذى هو الكمِّية ، وتارة يُعتبر فى الوصف الذى هو الكيفية . يُقال : بغيت الشىء : إذا طلبت أكثر ما يجب وابتغيت كذلك . والبغى على ضربين : أحدهما : محمود ، وهو تجاوز العدل إلى الإحسان ، والفرض إلى=

إن لله حدودا فى كل أمر فلا يجب أن يتعداها أحد، ولا يقترب منها، لقد ظن رسول الله ﷺ أنه بمجرد أن يوجه الدعوة بالإيمان لبنى إسرائيل؛ سيسارعوا إلى الإيمان برسالته؛بما عندهم من علم به وبأوصافه وزمن مبعثه، لكنهم استكثروا على العرب أن يختَار الحق رسولا منهم.

لقد أعماهم التمايز الذى ما زال دأبهم حتى الآن،رغم أنه لا تمايز بين خلق الله، إلا بالعمل الصالح ، وتقوى الله عز وجل ، والتزام منهجه.

إن الحق حين يُطلق أيدينا كبشر ويُملكنا الأسباب؛ فعلينا ألا ننسى أن هذا الفضل هو منحة من الله سبحانه ،وليس أمرا ذاتيا فينا؛إن الذى وهبنا الأسباب قادر على تعطيلها،لذلك فالمؤمن الحق هو الذى لا يختال بالأسباب التى منحها له الله.

نجد دائما أن قمة الكمالات البشرية من يتفوق فيها بالتتابع، ولا تقف الكمالات البشرية عند حد، ففى الطب قد يبلغ طبيب حد الكمال فى زمان، ويأتى زمان تالٍ تسقط عن ذلك الطبيب قدرة الكمال؛ لتنمو فى طبيب آخر، وفى الهندسة والرياضة وكل فروع الحياة نجد أن أسباب الحق ليست ذاتية فى البشر، لكن هى منحة من الله؛ ولذلك فالمؤمن لا يغتر أبدا بالأسباب التى وهبها له الحق .

إن المؤمن يعرف أنه متغير، وأن الحق سبحانه وحده الذى لا يتغير. إن المؤمن ساعة يرى نعمة الله- بالأسباب الموهوبة له من الله- يقول: ﴿مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إلا بِاللَّهِ﴾ [الكهف: ٣٩] ؛ وهذا يحرس النعمة للمؤمن(١).

= التطوع . والثانى : مذموم ، وهو تجاوز الحق إلى الباطل ، أو تجاوزه إلى الشُّبَه.
[المفردات فى غريب القرآن: ٥٣]

(١) قال ابن كثير: قال بعض السلف:من أعجبه شىء من حاله أو ماله أو ولده فليقل: ﴿مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إلا بِاللَّهِ﴾. [تفسير ابن كثير : ٣/ ٨٢]

لقد كان فضل الله الذى أراده للعرب، أن يكون منهم الرسول، وأن يكون الرسول يتيما وسط أقوياء، فقيرا وسط أغنياء، أمينا وسط قوم ضالين وكان كفر بنى إسرائيل برسالة الرسول ﷺ لأنه ليس منهم، كما كان كفر أغنياء مكة بالرسالة حسدًا لرسول الله ﷺ .

قال تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ (٣٠) وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٣٢) ﴾ [الزخرف] لقد كان الكفار فى مكة يعرفون صدق القرآن الكريم، ورغم ذلك يدَّعون أنه سحر ، ولكن رغم كفرهم يقدِّرون عظمة القرآن الكريم، ويتهامسون: ﴿ لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾[1]، كأن الاعتراض ليس على القرآن الكريم فى ذاته، ولكن الاعتراض على النبى الموحى إليه بالقرآن .

ونسوا أو تناسوا أن الله تعالى هو الذى يقسم رحمته بين عباده، لقد قسم للكافرين معيشتهم كما قسمها للمؤمنين، وفضل البعض على البعض فى الرزق ، وقدر للبعض أن يعمل عند البعض، كل ذلك وفق نظام وضعه الله تعالى لخلقه أجمعين .

المؤمن يعرف أنه مُستخلف فيما وهبه الله، لذلك يُحسن معاملة الذين

---

(١) قال ابن إسحاق : الوليد بن المغيرة ، قال : أينزل على محمد وأترك ، وأنا كبير قريش وسيدها ؟ ويترك أبو مسعود عمرو بن عمير الثقفى سيد ثقيف ؟ فنحن عظيما القريتين ، فأنزل الله تعالى فيه فيما بلغنى : ﴿ وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف: ٣١] إلى قوله : ﴿ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [الزخرف: ٣٢].

[السيرة النبوية لابن هشام : ١/ ٤٥٣]

يعملون معه مؤمنين كانوا أو كافرين، أما الكافر فيظن أنه مالك للأسباب، فيطغى ويتجبّر .

إن رحمة الله لا يتركها لأحد؛ إنما يقسمها سبحانه بمشيئته. إن يهود المدينة فعلوا فعل الكافرين فى مكة، كلاهما اعترف بعظمة القرآن الكريم، ولكنهم كفروا بمن جاء بالرسالة، لذلك كان القول الفصل: ﴿ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ ونفهم من ذلك أنهم استحقوا غضبين:

الغضب الأول : أنهم لا يقيمون التوراة.

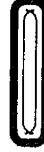
والغضب الثانى:أنهم لم يؤمنوا بالرسول الجديد الذى بشرت به التوراة، والذى يحمل المنهج الجامع الذى لا عوج فيه، والناسخ لكل ما قبله؛ لذلك استحقوا غضب الله مرتين(١)، وكان لهم العذاب المهين (٢).

---

(١) قال القرطبى: قيل : الغضب الأول لعبادتهم العجل.
والثانى: لكفرهم بمحمد ﷺ ، قاله ابن عباس.
وقال عكرمة: لأنهم كفروا بعيسى ثم كفروا بمحمد. [تفسير القرطبى: ٢/٢٨]
وقال السمرقندى : يقال : الغضب الأول : حين عبدوا العجل .
والغضب الثانى : حين استحلّوا السمك فى يوم السبت. [بحر العلوم : ١/١٣٧]

(٢) قال البيضاوى فى قوله تعالى : ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾: يراد به إذلالهم ، بخلاف عذاب العاصى فإنه طهرة لذنوبه .
[أنوار التنزيل وأسرار التأويل : ١/٧٥]

* لماذا لُعن اليهود ؟ *



قال تعالى : ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [المائدة:٧٨] إن موقف اليهود من الإسلام ونبيه ليس بدعًا ولا هو بجديد عليهم؛ الحق سبحانه وتعالى يقصُّ على رسوله مايُسرِّى عنه ويثبِّت فؤاده لما يلاقيه من خصومه من أهل الكتاب، وكأنه يقول له: إن هذا الأمر ليس بجديد؛ لأن تاريخهم الطويل يؤيد هذا، فها هو موقفهم من نبى الله داود، وكذلك موقفهم من عيسى ابن مريم عليهما السلام، فالمسألة ليست خاصة بك وحدك، وإنما هى طبيعة فيهم(١).

يقول تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣] فما الذى قالوه عن الرسول ﷺ ؟ قالوا : إنه مجنون.

---

(١) عن عبد الله بن مسعود ، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أول ما دخل النقص على بنى إسرائيل، كان الرجل يلقى الرجل فيقول: يا هذا اتق الله ودع ما تصنع؛ فإنه لا يحلّ لك. ثم يلقاه من الغد فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض». ثم قال: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ إلى قوله :﴿فَاسِقُونَ﴾ . ثم قال: «كلا والله لتأمرنَّ بالمعروف ولتنهونَّ عن المنكر ولتأخذنَّ على يدى الظالم ولتأطرنَّه على الحق أطْراً ولتقصرنّه على الحقّ قَصْراً».

أخرجه أبو داود[٤٣٣٦]واللفظ له، وابن ماجة [٤٠٠٦]، وأحمد فى المسند [١/٣٩٢] وضعفه الشيخ شاكر برقم [٣٧١٣] ، وضعفه الألبانى فى ضعيف أبى داود [٩٣٢].

ومرة أخرى قالوا: ساحر.

ومرة ثالثة قالوا: كذاب.

وهم أول من يعرف أنهم كاذبون، فعلى الرغم من اتهامهم للرسول بالكذب والجنون والسحر؛ فإنهم لا يأمنون أحداً على مصالحهم إلا رسول الله؛ فهو الأمين دائما،خاصة عندما يكون هناك شيء نفيس يخشى عليه، فلا يُؤتَمنُ عليه إلا الأمين الصادق، محمد بن عبد الله، ما هذا الأمر العجيب إذن؟!

إن الذى دعاهم للتمسك بضلالهم وادعائهم كذبًا وزورًا على رسول الله هو تمسكهم بالسلطة الزمنية؛ودليل ذلك أنهم تركوا لدى رسول الله آماناتهم وما يخشون عليه، وفى الهجرة استبقى رسول الله ابن عمه علىّ ليؤدى الأمانات التى ائتمنه الناس عليها لأهلها.

إذن.. قوله تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ﴾(١) أى أنك يا رسول الله عندهم الصادق الأمين، ولو لم تقل أنك رسول من الله لكانوا قد رفعوك إلى أعلى المنازل؛لأنك - ببلاغك عن الله - زلزلت سلطتهم الزمنية، ولقد حاولوا أن يثنوك عن الرسالة، فعرضوا عليك الملك، وعرضوا عليك الثراء، ولو كنت تقصد شيئاً من

---

(١) عن ناجية بن كعب عن على رضى الله عنه قال: قال أبو جهل للنبى ﷺ: قد نعلم يا محمد، أنك تصل الرحم وتصدق الحديث ولا نُكذِّبك ولكن نُكذِّب الذى جئت به؛ فأنزل الله عز وجل: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾. أخرجه الحاكم فى المستدرك [٢/٣١٥] وقال: حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وتعقّبه الذهبى بقوله : ما خرجا لناجية شيئًا.

ذلك لكان مرادك قد تحقق، ولكنك تختار البلاغ الأمين عن الله، لقد عرضوا عليك الملك طواعية، لقد عرضوا عليك الثروة باقتراح منهم، لقد زينوا لك أمر السيادة فيهم؛ بشرط أن تتخلى عن الرسالة(١)، لكنك تختار السبيل الواضح الذى لا لبس فيه؛ رغم ما فيه من متاعب، إنك تختار السبيل الذى يكلفك أمنك وأمن من يتبعك.

ومن بعد ذلك حاصروك فى الشِّعب(٢)، وفرضوا عليك وعلى من معك

---

(١) عن ابن عباس. قال: اجتمع عِلْيَةٌ من أشراف قريش - وعدَّد أسماءهم - بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة، فقال بعضهم لبعض: ابعثوا إلى محمد فكلموه، وخاصموه حتى تعذروا فيه، فبعثوا إليه: إن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليُكلِّموك، فجاءهم رسول الله ﷺ سريعًا- وهو يظن أنه قد بدا لهم فى أمره بدء، وكان حريصًا يحب رشدهم ويعزّ عليه عنتهم - حتى جلس إليهم. فقالوا: يا محمد إنا قد بعثنا إليك لنعذر فيك، وإنا والله لا نعلم رجلا من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك. لقد شتمت الآباء، وعِبْت الدين، وسفَّهت الأحلام، وشتمت الآلهة وفرّقت الجماعة، وما بقى من قبيح إلا وقد جئته فيما بيننا وبينك. فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت إنما تطلب الشرف فينا سوَّدناك علينا، وإن كنت تريد ملكا ملَّكناك علينا، وإن كان هذا الذى يأتيك بما يأتيك رئيًا تراه قد غلب عليك - وكان يسمون التابع من الجن: الرئى- فربما كان ذلك، بذلنا أموالنا فى طلب الطب حتى نبرئك منه أو نعذر فيك؟ فقال رسول الله ﷺ: « ما بى ما تقولون: ما جئتكم بما جئتكم به أطلب أموالكم، ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثنى إليكم رسولاً، وأنزل علىَّ كتابًا، وأمرنى أن أكون لكم بشيرًا ونذيرًا، فبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم، فإن تقبلوا منى ما جئتكم به فهو حظكم من الدنيا والآخرة، وإن تردوه على أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم ». [البداية والنهاية لابن كثير: ٣/٤٨]

(٢) قال ابن إسحاق: فلما رأت قريش أن أصحاب رسول الله ﷺ قد نزلوا بلدًا أصابوا به أمنًا وقرارًا، وأن النجاشى قد منع من لجأ إليه منهم، وأن عمر قد أسلم فكان هو وحمزة بن عبد المطلب مع رسول الله ﷺ وأصحابه، وجعل الإسلام يفشو فى القبائل، اجتمعوا وائتمروا أن يكتبوا كتابًا يتعاقدون فيه على بنى هاشم وبنى المطلب: =

حصار التجويع . ورغم ذلك ما تنازلت عن البلاغ، وكان يجب أن يفطنوا إلى أنك يا رسول الله لا تأكل من زكاة أحد،لا أنت ولا أهلك(1).

وكان يجب أن يتساءلوا: لماذا تدخل بنفسك إلى هذه الحرب الضارية؟ فلا أنت طالب لمتعة من تلك المتع، ولا أنت طالب جاه، ولا أنت طالب مال(2)!

كان يجب أن يأخذوا العبرة، فهم يعرضون عليه كل هذه الأشياء وهو يرفضها.

= على أن لا ينكحوا إليهم ، ولا ينكحوهم ، ولا يبيعوهم شيئًا ، ولا يبتاعوا منهم ، فلما اجتمعوا لذلك كتبوا فى صحيفة ، ثم تعاهدوا وتواثقوا على ذلك ، ثم علقوا الصحيفة فى جوف الكعبة توكيدا على أنفسهم وكان كاتب الصحيفة منصور ابن عكرمة بن عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصى .

قال ابن هشام : ويقال : النضر بن الحارث، فدعا عليه رسول الله ﷺ فشلّ بعض أصابعه . [السيرة النبوية لابن هشام : ١/ ٤٣٩]

وعن أبى هريرة قال : قال لنا رسول الله ﷺ ، ونحن بِمنى: « نحن نازلون غدًا بخيف بنى كنانة . حيث تقاسموا على الكفر » .

وذلك إن قريشًا وبنى كنانة تحالفت على بنى هاشم وبنى المطلب ، أن لا يناكحوهم، ولا يبايعوهم ، حتى يسلموا إليهم رسول الله ﷺ . يعنى بذلك ، المحصب .

أخرجه مسلم [١٣١٤/ ٣٤٤]

(1) أخرج البخارى [٢٥٧٦] عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : « كان رسول الله ﷺ إذا أتى بطعام سأل عنه: « أهديه أم صدقة ؟» فإن قيل: صدقة. قال لأصحابه: « كلوا» ولم يأكل. وإن قيل: هدية، ضرب بيده ﷺ فأكل معهم ». وأخرجه مسلم [١٠٧٧].

وعن ربيعة بن الحارث أن النبى ﷺ قال: « إن الصدقة لا تنبغى لآل محمد ،إنما هى أوساخ الناس ». جزء من حديث أخرجه مسلم [١٠٧٢/ ١٦٧].

وعن أبى هريرة قال : أخذ الحسن تمرة من تمر الصدقة ، فجعلها فى فيه ، فقال النبى ﷺ: «كَخْ كَخْ» ليطرحها . ثم قال : « أما شعرت أنا لا نأكل الصدقة».

أخرجه البخارى [١٤٩١] واللفظ له ، ومسلم [١٠٦٩/ ١٦١].

(2) قال تعالى : ﴿ أَلا تَعْبُدُوا إِلا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴾ [هود: ٢].

إذن، كان يجب على الناس أن يفطنوا إلى أن النبوة حينما تأتى؛ إنما تأتى لتلفت الناس إلى منهج الله، ولتنتظم حركة حياتهم فى الكون وفق هذا المنهج.

كان يجب أن يلتفتوا إلى أن المنتفع أولا وأخيراً بالمنهج هم أنفسهم[1]، وهم الذين يشقون لو لم يتبعوا منهج الله[2].

فليجرد الإنسان نفسه من كل شىء وليتأمل منهج الله، وسوف يجد أن هذا المنهج فى صالحه[3]؛ فها هو سليمان الذى دانت له الدنيا، وأُعطِىَ ملكاً لم يُعطه أحدٌ من العالمين: سخَّر الله له الريح، وسخر له الجن يفعلون له ما يشاء. ويروى عنه عليه السلام أنه كان يعطى الدقيق النقى للعبيد؛ ليستمتعوا بالطيبات، ويأكل هو ما تبقى من نخالة الدقيق.

وقد كانت مقاومة بنى إسرائيل لنبى الله داود شديدة، وأنهم اعتدوا فى يوم السبت، فدعا عليهم داود عليه السلام فمسخهم الله قردة، ولعنهم فى الزبور.

---

(١) قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦].

وعن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله ﷺ: «لو أنكم كنتم توكَّلون على الله حقّ توكُّله لرُزقتم كما يُرزق الطير، تغدو خماصًا وتروح بطانًا». أخرجه الترمذى [٢٣٤٤] وقال: حديث حسن صحيح. واللفظ له، وابن ماجة [٤١٦٤]، وأحمد فى المسند [١/ ٣٠، ٥٢]، وصححه الألبانى فى صحيح ابن ماجة [٣٣٥٩]، وصححه الشيخ شاكر برقم [٢٠٥، ٣٧٠].

(٢) قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢٤].

(٣) قال الله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾ [سبأ: ٤٦].

وكذلك قالوا الإفك فى عيسى ابن مريم، وكفروا به وحاربوه ، وآذوه فحُقَّت عليهم لعنة الله فى الإنجيل.

وقول الله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ العصيان هو: العصيان فى ذات الإنسان، وفى أموره الخاصة التى لا تتعدى إلى الغير(١)، أما الاعتداء: فهو أيضًا معصية، ولكنها متعدية إلى الغير. مثال ذلك: الحاقد، إنما يعاقب نفسه، أما السارق أو المرتشى؛ فهو يضر بالغير؛ إذن فهناك معصية تعود على صاحبها دون أن تتعدى إلى الغير . لكن الاعتداء فهو أخذ حق من الغير للنفس، وضرر يرتكبه الفرد فينتقل أثره إلى الغير(٢).

ومن أعمالهم القبيحة أنهم : ﴿كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾(٣) ؛ إن اتباع منهج الله يعطى الإنسان السلامة فى حركة الحياة على الأرض، والحق سبحانه وتعالى قد جعل فى النفس البشرية مناعة ذاتية، فساعة توجد فى الإنسان دوافع لأى لون من الشهوات؛ سواء الجنس، أو المال، أو الجاه، فقد يحاول الوصول إليها بأى طريق، لا يمنعه من ذلك إلا ضميره الإيمانى الذى يعترض عليه أن يسير فى غير الطريق الصحيح، وهو الذى يلوم الإنسان إن أقدم على المعصية.

---

(١) العصيان: خلاف الطاعة. عصى العبد ربه إذا خالف أمره، وعصى فلان أميره يعصيه عَصْيًا وعِصْيانًا ومَعْصِية ؛ إذا لم يطعه. [لسان العرب: ١٥/ ٦٧]

(٢) الاعتداء، والتَّعدى، والعدوان: الظلم. [لسان العرب: ١٥/ ٣٣]

(٣) قال أبو الحسن النيسابورى فى قوله تعالى : ﴿كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ : التناهى : تفاعل من النهى ، أى : كانوا لا ينهى بعضهم بعضًا عن المناكير .

قال ابن عباس : كان بنو إسرائيل ثلاث فرق : فرقة اعتدت فى السبت ، وفرقة نهتهم ولكنهم لم يدعوا مجالستهم ولا مواكلتهم ، وفرقة لما رأوهم يعتدون ارتحلوا عنهم ، وبقيت الفرقتان المعتدية والناهية المخالطة فلعنوا جميعًا .

[الوسيط فى تفسير القرآن : ٢/ ٢١٥، ٢١٦]

ولنتأمل الوصف الدقيق للنفس البشرية فى حالاتها المتقلبة، فها هو قابيل بعد أن : «طوعت له نفسه قتل أخيه» هابيل، ماذا حدث؟ لقد هدأت النفس من سعار الغضب وسعار الحقد، وساعتها ﴿ فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴾ لقد أغواه الشيطان إلى أن قتل أخاه وأفقده الحياة، ثم عزّ عليه أن يُرِيَه الغراب كيف يوارى جثمان أخيه، لقد انتقل بالندم من مرحلة أنه لم يرع حق أخيه فى الحياة، فأراد أن يرعى حق مماته!!

إذن.. فالنفس البشرية وإن كانت لها شهوات إلا أن لها اعتدالاً مزاجيًا، وهذا الاعتدال المزاجى يتدخل بالندم عندما يرتكب الإنسان إثما أو معصية، ولذلك نجد كثيراً من الناس يعانون من المتاعب؛ لأنهم ارتكبوا معاصى، ولكنهم يريدون الاعتراف بها لأى إنسان. وهذا الإنسان الذى يتلقى الاعتراف ليست لديه القدرة على تدارك تلك المتاعب؛ لأنها وقعت وانتهى الأمر، لكن لماذا الاعتراف بتلك الأخطاء؟ إنه اعتراف للتنفيس؛ فكل حركة فى النفس البشرية ينتج عنها تأثير بعد النزوع. فعندما يغضبك أحد فإنك ترغب فى الانتقام؛ ولذلك ساعة أن تغضب عليك أن تغير من وضعك وذلك حتى تصرف الطاقة السعارية عندك، فإن أغضبك أحد وأنت قاعد قف، وإن كنت واقفا فاقعد، وإن كنت ثابتاً فى مكان فلتتحرك بضع خطوات (١).

إذن .. عليك أن تقوم بأى عمل يأخذ الطاقة الزائدة، التى تسبب لك الغليان حتى تنتهى، و الشاعر العربى يقول :

---

(١) عن أبى ذر قال: إن رسول الله ﷺ قال: «إذا غضب أحدكم وهو قائم، فليجلس، فإن ذهب عنه الغضب وإلا فليضطجع». أخرجه أبو داود [٤٧٨٢]، وأحمد فى المسند [٥/ ١٥٢]، وصححه الألبانى فى صحيح أبى داود [٤٠٠٠].
وفى المسند [٤/ ٢٢٦]، وأبى داود [٤٧٨٤] أن رسول الله ﷺ قال: «إن الغضب من الشيطان، وإن الشيطان خُلق من النار، وإنما تُطفأ النار بالماء، فإذا غضب أحدكم فليتوضأ». وضعفه الألبانى فى ضعيف أبى داود [١٠٢٥].

لا بد من شكوى إلى ذى مروءة   يواسيــك أو يسليك أو يتوجَّعُ

إنك عندما تُظهر المشاركة لصاحب الشكوى، فإنك تريحه وتهديه إلى الاطمئنان، والشاعر إنما ينصحك أن تضع شكواك عند ذى المروءة، لماذا؟ لأن ذا المروءة إنما يستمع لك جيدًا ، ويكون معك بمشاعره ويواسيك ، وتستطيع أن تستأمنه على سرك، وكأنك تضع أسرارك فى خزانة لن يعرف أحد ما بداخلها، إنك بمثل هذا القول تريح نفسك، وتصرف انفعالك إلى شىء آخر.

والنفس عندما تكرر فعل السوء ولا تجد من ينبهها أو ينهاها، فإن السوء يعمُّ وينتشر،هنا يتدارك الله الناس برحمته وعقابه فيرسل رسولاً ؛ ليعيد الناس إلى منهج الله. وكأنه سبحانه يقول لنا: إن السبب فى إرسال رسول لهؤلاء الناس أنهم: ﴿ **كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ** ﴾.

والتناهى عن المنكر، إنما يكون بالتواصى بالحق والتواصى بالصبر. فكل مؤمن بمبدأ إيمانى لا يظنن أنه بمنجاة عن خواطر السوء فى نفسه؛ لأن كلا منا بشر، وكلا منا عرضة للتغيير، لكن من لطف الله أنه عندما يُهب خاطر السوء على مؤمن، فإن من حقه على أخيه المؤمن ،أن يواصيه بالحق ويواصيه بالصبر(١).

وكذلك يتبادل المؤمنون التناهى بالتواصى؛ فمرة يكون الإنسان ناهيًا،

---

(١) أخرج البخارى [٢٤٤٤] عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا » .قالوا : يا رسول الله ، هذا ننصره مظلومًا ، فكيف ننصره ظالم؟ قال : « تأخذ فوق يديه » .

قال ابن حجر: قوله: « باب أعِن أخاك ظالمًا أو مظلومًا » ترجم بلفظ الإعانة ، وأورد الحديث بلفظ النصر، فأشار إلى ما ورد فى بعض طرقه ، وذلك فيما رواه خديج بن معاوية عن أبى الزبير عن جابر مرفوعًا:«أعن أخاك ظالمًا أو مظلومًا .=

ومرة يكون منهيًا، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَالْعَصْرِ ① إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ② إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ③ ﴾[1] [العصر]، إن الحق لم يخصص قوما ليكونوا الناهين، ولم يخصص قوما ليكونوا المنهيين .. لا، فكل واحد منا عرضة أن يكون

= وقوله: « انصر أخاك ظالما أو مظلومًا»، فقال رجل: يا رسول الله، أنصره إذا كان مظلومًا، أفرأيت إذا كان ظالما كيف أنصره ؟ قال: «تحجزه عن الظلم فإن ذلك نصره». قوله: فقال: «تأخذ فوق يديه» كنى به عن كفه عن الظلم بالفعل إن لم يكف بالقول، وعبر بالفوقية إشارة إلى الأخذ بالاستعلاء والقوة، وفي رواية: «فقال يكفه عن الظلم، فذاك نصره إياه». ولمسلم في حديث جابر نحو الحديث وفيه: « إن كان ظالما فلينهه فإنه له نصرة ». قال ابن بطال: النصر عند العرب الإعانة، وتفسيره لنصر الظالم بمنعه من الظلم من تسمية الشيء بما يؤول إليه، وهو من وجيز البلاغة، قال البيهقي: معناه أن الظالم مظلوم في نفسه فيدخل فيه ردع المرء عن ظلمه لنفسه حسًا ومعنى. [فتح الباري: ٥/ ٣٨٧]

(١) قال الشافعي رضي الله عنه: لو فكر الناس كلهم في هذه السورة لكفتهم .

وبيان ذلك أن المراتب أربع باستكمالها يحصل للشخص غاية كماله :

إحداها : معرفة الحق .

الثانية : عمله به .

الثالثة : تعليمه من لا يحسنه .

الرابعة : صبره على تعلمه والعمل به وتعليمه .

فذكر تعالى المراتب الأربعة في هذه السورة، وأقسم سبحانه في هذه السورة بالعصر أن كل أحد في خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وهم الذين عملوا بما علموه من الحق فهذه مرتبة أخرى، وتواصوا بالحق ووصى بعضهم بعضًا بالصبر عليه والثبات فهذه مرتبة رابعة، وهذا نهاية الكمال؛ فإن الكمال أن يكون الشخص كاملاً في نفسه مكملاً لغيره، وكماله بإصلاح قوتيه به العلمية والعملية؛ فصلاح القوة العلمية بالإيمان، وصلاح القوة العملية بعمل الصالحات، وتكميله غيره بتعليمه إياه وصبره عليه وتوصيته بالصبر على العلم والعمل .

فهذه السورة على اختصارها هي من أجمع سور القرآن للخير بحذافيره، والحمد لله=

ناهيًا إن اتجهت خواطر صاحبه إلى الحرام، ويكون منهيا إن كانت نفسه تتجه إلى الحرام.

ومن ثم نتبادل النهى والتناهى؛ ولذلك يسمون ذلك «المفاعلة»؛ مثلما نقول: شارك زيد محمدًا؛ ذلك أنه لا يشارك الإنسانُ نفسه إنما يشارك غيره، ومعنى ذلك أن يكون هناك شخص فاعل مرة، ومرة أخرى مفعول به، والحق سبحانه يقول: ﴿كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ كيف تكون صيغة التفاعل هذه؟ إنها مثل «تشارك وتضارب»، أى لابد أن يأتى هذا الفعل من اثنين.

إذن .. من السهل أن ينهى إنسان صديقاً له، أو ينهاه صديقه، وقد

= الذى جعل كتابه كافيًا عن كل ما سواه، شافيًا من كل داء، هاديًا إلى كل خير.

[مفتاح دار السعادة: ٦١]

وقال الله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١].

قال الشوكانى: أى قلوبهم متحدة فى التوادّ والتحابب والتعاطف بسبب ما جمعهم من أمر الدين ومنحهم من الإيمان بالله، ثم بيّن أوصافهم الحميدة فقال: ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أى: بما هو معروف فى الشرع غير منكر، ومن ذلك توحيد الله سبحانه وترك عبادة غيره، ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ أى: عما هو منكر فى الدين غير معروف، وخصص إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة بالذكر من جملة العبادات؛ لكونهما الركنين العظيمين فيما يتعلق بالأبدان والأموال. ﴿وَيُطِيعُونَ اللَّهَ﴾ فى صنع ما أمرهم بفعله أو نهاهم عن تركه، والإشارة بـ ﴿أُوْلَئِكَ﴾ إلى المؤمنين والمؤمنات المتصفين بهذه الأوصاف، و«السين» فى ﴿سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ﴾ للمبالغة فى إنجاز الوعد. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ لا يُغالب ﴿حَكِيمٌ﴾ فى أقواله وأفعاله.

[فتح القدير: ٢/ ٤٠٠]

نفسرها على أن الجميع ينهى نفسه بفعل القوة الفطرية المركوزة فى كل نفس؛ أى أن كل نفس تنهى نفسها.

إذن.. فالتفاعل إما أن يكون فى النفس، وإما أن يكون فى المجتمع: ﴿كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ ولنتبين هنا، إلى أنهم قد فعلوا المنكر بالفعل، فكيف يكون التناهى عن المنكر؟ هنا يمكن أن نفهم العبارة على أساس أنهم كانوا لا يتناهون عن منكر أرادوا فعله؛ أى أن الإنسان منهم كان يرى الآخر يتهيأ لارتكاب منكر فلا ينهاه.

ومثلها فى ذلك قول الله تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ﴾ [المائدة: ٦]، وهذا القول لا يعنى أبدًا أن الإنسان يتوضأ بعد أن يصلى؛ إنما هذا القول يعنى أن نبدأ الوضوء لحظة الاستعداد للصلاة، وهكذا نفهم معنى قول الله تعالى: ﴿كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ ، وذلك القول يجعلنا فى حالة انتباه وفراسة إيمانية ويقظة، وأن يلتفت كل منا إلى نفسه .

وكذلك يجب أن ينتبه الإنسان إلى جيرانه وأخلائه، حتى نتناهى عن أى منكر، فلا نقع أبداً فى دائرة الحكم: ﴿كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ فكأننا جميعا علينا أن نحيا فى يقظة إيمانية وأن نقول: «لا» لكل بادرة، ولأى حركة من حركات المنكر.

وقوله تعالى: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٩] ساعة نسمع ﴿لَبِئْسَ﴾ فلنعرف أن اللام قد سبقت للقسم، وحين يقسم الله فهذا تأكيد للقضية، فهل هذا تأكيد على طريقتنا نحن البشر؟

لا.. نحن فى حياتنا نعرف الأدلة على الحق؛ إما إقرارًا وإما شهادةً

وإما قسمًا، والقاضى لايحكم إلا بإقرار المتهم أوبشهادة الشهود أو باليمين.

والحق حين يأتى بالحكم، فهو يأتى به على معرفة الخلق، وعدم التناهى عن المنكر هو فعل وقول معا. وبما أن الحق لم يقل: «لبئس ما كانوا يقولون» ذلك أن القول مقابل للفعل، وكلاهما أيضاً عمل، فالقول: هو عمل جارحة اللسان. والفعل: هو عمل الجوارح كلها. ويجمع القول والفعل وصف العمل. ولنا أن نلحظ أن المسألة لا تقتصر على القول، إنما هى عمل ناتج وفعل. والنبى ﷺ يقول: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان» (١) .

إذن .. قول الله تعالى : ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ دليل على أنهم كانوا يفعلون المنكر قولاً وعملاً.

ثم يقول الحق من بعد ذلك: ﴿تَرَىٰ كَثِيراً مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ ؛ ولنا أن نلحظ الفارق بين أن يخبر الحق رسوله بأمور حدثت من قبل، مثل قوله تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ ، وبين الواقع الذى يجرى على زمن رسول الله ﷺ، والخبر الأول هو خبر عن جزئياتهم مع من سبق من الرسل، لكن هناك أشياء تحدث منهم فى زمن رسول الله ويراها بنفسه، وهذا دليل على أن كفرهم لم يكن نزوة وانتهت، لا .. إنها ملكة وصارت طبيعة فيهم.. كيف ؟

نحن نعلم أن الإسلام حينما جاء واجه معسكرات شتى، وهذه المعسكرات كانت تفسد حركة الإنسان فى الحياة، والحق سبحانه وتعالى خلق الكون

---

(١) أخرجه مسلم [٤٩/٧٨] عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه .

مسخراً للإنسان،وعلى الإنسان أن يظل حارسًا لصلاح الكون، وألا يسمح بتسرب الفساد إليه.

هذا هو جوهر منهج الله للإنسان. إن هدف المنهج أن يحمى حركة الحياة كلها من الفساد،فعملنا يكون دائمًا لصالحنا؛ فليس هناك عمل يفعله بشر يعود على الله سبحانه وتعالى بصفة زائدة، لماذا؟ لأن الحق له كمال الصفات، وهو الذى خلقنا وأوجدنا .

واجه رسول الله ﷺ معسكرات هى :

- ❑ معسكر أهل الشرك فى مكة.
- ❑ معسكر أهل الكتاب، وكان المفترض فيهم أن لهم صلة بالنبوة، ولهم إلف بمناهج الرسل ، وعندهم البشارة برسول الله ﷺ فى كتبهم .
- ❑ ومعسكر المنافقين الذين ظهروا بعد أن قويت شوكة الإسلام فى المدينة .

وعندما نتوقف عند معكسر أهل الكتاب، فإننا نجد أنه كان المنتظر منهم أن يؤمنوا بالرسول؛ لأنه جاء بالمنهج الذى يقوى من صلتهم بكتبهم، وكانوا يزعمون أنهم صادقين وحريصين على تلك الصلة، وكثيراً ما تباهوا بمقدم النبى قبل أن تأتى الرسالة، فقد كانوا يقولون للأوس والخزرج: أظلَّ علينا زمان نبى يأتى، سنتبعه ونقتلكم به قتل عاد وإرم[1].

(١) روى ابن إسحاق بسنده : لم يكن أحد من العرب أعلم بشأن رسول الله ﷺ ، منا : كان معنا يهود ، وكانوا أهل كتاب ، وكنا أصحاب وثن ، وكنا إذا بلغنا منهم مايكرهون ، قالوا : إن نبيًا مبعوثًا الآن ، قد أظل زمانه ، نتبعه ، فنقتلكم قتل عاد وإرم . فلما بعث الله عز وجل رسوله ﷺ ،اتبعناه وكفروا به، ففينا والله وفيهم =

وذلك قول الحق سبحانه : ﴿ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ﴾ [البقرة: ٨٩] وفى كتبهم أن النبى إنما يأتى فى الأرض ذات النخل، أى: فى الحجاز.

إذن.. فقد عرفوا المكان وأيضًا عرفوا الصفات، وعرفوا الجبهات التى سيحارب فيها؛ لأنه قد سبق لأنبيائهم أن حاربوا فيها.

لكن ما الذى حدث منهم عندما بعث النبى ﷺ ؟ لقد اهتزت سلطتهم الزمنية، هم أرادوا أن يستبقوا السلطة الزمنية منهجًا ليس هو منهج رب السماء، وجاء محمد ﷺ بالمنهج الربانى؛ ليعيد حركة الكون إلى الإيمان، وقد حدث أن دخل رسول الله ﷺ المدينة، بينما كانوا ينسجون الإكليل كتاج للملك ينصبونه من بينهم .

وهكذا أوقف رسول الله سلطتهم الزمنية، ولم يعد لهم الجاه، ووحد الأوس والخزرج وكانوا يعيشيون على الشتات بينهم، كانوا يبيعون لهم الأسلحة، ويقرضونهم المال بالربا، ومع مجىء محمد ﷺ تهدم بنيان سلطتهم الزمنية؛ لذلك حاولوا أن يشجعوا خصوم رسول الله ﷺ ساعة كان فى مكة ليهزموا الدين الجديد؛ حتى لا يزحف الدين إلى المدينة، ويسلبهم سلطتهم الزمنية.. وذلك قول الحق سبحانه: ﴿ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً ﴾ ؛ والثمن القليل: هو الأُبهةُ والرئاسةُ وسُدةُ الحكم، وها هو كعب ابن الأشرف كبير اليهود، وله ثراء ولسان، يخرج إلى قريش ليناقشهم فى ضرورة وأد الدين الجديد، فقالت له قريش: إنك من أهل الكتاب، ولك

= انزل الله عز وجل : ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ . [دلائل النبوة للبيهقى : ٢/٧٦]

صلة بالسماء. فقال لهم: إنكم أهدى منه سبيلاً (١).

كيف يصير المشركون عبدة الأصنام أهدى من محمد سبيلاً؟!

وذلك قوله تعالى: ﴿ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾لقد تحالفوا مع معسكر الشرك الذى كان بينهم وبينه خصومة، حدث ذلك عندما رأوا أن السلطة الزمينة ستزول من أيديهم؛ لذلك تعاونوا مع الذين أشركوا لإيقاف زحف الدين الجديد، ﴿ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴾ و﴿ يَتَوَلَّوْنَ ﴾: أى ينصرونهم، ويعينونهم، ويجعلونهم على حق، وكأن الدين الجديد على باطل. ويقسم الحق هنا: إنه بئس ما زيَّنت لهم النفس الأمارة بالسوء؛ ذلك أنهم افتقدوا النفس اللوامة، وغلبت عليهم النفس الأمارة بالسوء فكان: ﴿ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴾ وينشأ عن السخط(٢) بُعْدٌ وابتعادٌ عن طريق الهداية، والبعد عن طريق الهداية يقود إلى العذاب الخالد .

---

(١) عن ابن عباس قال: لما قدم كعب بن الأشرف مكة قالت له قريش: أنت خير أهل المدينة وسيدهم، قال: نعم، قالوا: ألا ترى إلى هذا الصنبور (١) المنبتر من قومه يزعم أنه خير منا، ونحن أهل الحجيج وأهل السدانة وأهل السقاية، قال: أنتم خير منه، قال : فأنزلت: ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾ [الكوثر: ٣]. وأنزلت: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ ﴾ [النساء]. [الصحيح المسند من أسباب النزول: ٦٧]

(٢) سخط : السُّخط والسَّخَط: ضد الرضا مثل العُدْم والعَدَم ، والفعل منه سَخِط يسخط سَخَطًا وتسخَّط، وسَخِط الشيء سَخَطًا : كرهه. وسخط أى غضب ، فهو ساخط .=

---

(١) الصنبور: الرجل الفرد الضعيف الذليل بلا أهل وعقب وناصر ، واللئيم .
[القاموس المحيط : ٧٣]

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيراً مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ [المائدة: ٨١] ، فلو كان عندهم إيمان بالله وبالنبى وبالمنهج المنزل على النبى؛ ما اتخذوا أهل الشرك أولياء، ولكن أكثرهم فاسقون، ولنا أن نلحظ أن الكثير فاسق، وهذا يعنى أن القليل غير فاسق .

= وأسخطه: أغضبه تقول: أسخطنى فلان فَسَخِطت سَخَطًا. وتسخَّط عطاءه أى: استقله ولم يقع موقعًا. يقول: كلما عملت له عملاً تَسَخَّطه أى : لم يرضه. وفى حديث هرقل: فهل يرجع أحد منهم سخطة لدينه ؟ السَّخَط والسُّخْط: الكراهية للشىء وعدم الرضا به. ومنه الحديث: « إن الله يسخط لكم كذا (١)» أى يكرهه لكم ويمنعكم منه ويعاقبكم عليه أو يرجع إلى إرادة العقوبة عليه .

[لسان العرب: ٧/ ٣١٢، ٣١٣]

(٢) أخرجه مسلم [١١/١٧١٥] عن أبى هريرة رضى الله عنه بلفظ : « إن الله يرضى لكم ثلاثًا ويسخط لكم ثلاثا : فيرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا ،وأن تعتصموا بحبل الله جميعًا ، ويسخط لكم : قيل وقال ، وكثرة السؤال، وإضاعة المال » .

* ومُزِّقوا فى الأرض وعزلوا فيها *

قال سبحانه وتعالى : ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾ [الأعراف:١٦٠] ؛ قطع الشيء: هو أن يكون له تمام ثم تقطعه قطعاً؛لتصبح كل قطعة مستقلة بذاتها،و ﴿أَسْبَاطًا﴾ السبط:هو ولد الولد، والأسباط فى الأصل:هم أولاد يعقوب عليه السلام[1]، وكانوا اثنى عشر ولدا رزق بهم يعقوب من أمهات مختلفات، وعندما تتعدد الأمهات تختلف ميول الأبناء ولذلك عندما رأى يوسف عليه السلام أحد عشر كوكبًا والشمس والقمر يسجدون له؛قال له يعقوب: ﴿لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ [يوسف: ٥]وهذا،يعطينا الحكم على أنهم مختلفون.

وعندما استسقى موسى لقومه، يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿إِذِ اسْتَسْقَاهُ

---

(١) قال أبو العباس : سألت ابن الأعرابى : ما معنى السِّبْط فى كلام العرب ؟ قال : السِّبْط والسِّبطان والأسباط : خاصة الأولاد والمُصاص منهم .وقيل : السِّبْط : واحد الأسباط وهو ولد الولد .

ابن سيده : السِّبط : ولد الابن والابنة . والسِّبط من اليهود : كالقبيلة من العرب، وهم الذين يرجعون إلى أب واحد ، سمى سبطًا ليُفرَّق بين ولد إسماعيل وولد إسحاق. وجمعه: أسباط. قالوا :والصحيح أن الأسباط فى ولد إسحاق بن إبراهيم بمنزلة القبائل فى ولد إسماعيل عليهم السلام ، فولد كلّ ولد من ولد إسماعيل : قبيلة ، وولد كلّ ولد من ولد إسحاق : سِبْط ؛ وإنما سُمى هؤلاء بالأسباط وهؤلاء بالقبائل، ليُفصل بين ولد إسماعيل وولد إسحاق عليهما السلام.

[لسان العرب : ٧/ ٣١٠]

قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ﴾ [الأعراف: ١٦٠] حتى الماء لم يشتركوا فيه ؛ جعل الله لكل فرقة منهم عيناً مستقلة؛ وذلك لكى يعالج ما فيهم من الغيرة .

إذن .. قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَقَطَّعْنَاهُمُ ﴾ معناه: أنهم كانوا شيئًا واحداً ثم قُطِّعوا كل سبط وأولاده، والأسباط فى أولاد يعقوب يقابلون القبائل فى أولاد إسماعيل ، فاليهود يسمونهم أسباطاً، والعرب يطلقون عليهم قبائل.

وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ ﴾ يدل على أنها جمع مؤنث؛ لأن لفظ :اثنين يُستخدم للذكور واثنتين للإناث، والعدد المركب دائما يكون تمييزه مفردًا، نقول: أحد عشر كوكباً، فإذا قلنا: اثنتى عشرة، دل على أنه مؤنث؛ ولكن سبط مذكر، فإذا جمعت الأسباط كانت مؤنثاً، والحق سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى أنهم كانوا شيئاً واحدًا ثم قُطِّعوا، فجاء بأسباط؛ مكان قبيلة؛ حتى يدلنا على أنهم كانوا وحدة واحدة، قبيلة مفردة، ونحن نقول : اثنتا عشرة قبيلة، ولا نقول : اثنتا عشرة قبائل، إذن فالقبيلة هى الأسباط[1]. فكأن

---

(١) قال الرازى: مميز ما عدا العشرة مفرد، فما وجه مجيئه مجموعا ؟وهلا قيل: اثنى عشر سبطا؟

والجواب: المراد وقطّعناهم اثنتى عشرة قبيلة، وكل قبيلة أسباط، فوضع أسباطا موضع قبيلة.

السؤال الثانى قال: ﴿ وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا ﴾ . مع أن السبط مذكر لا مؤنث؟

الجواب قال الفراء: إنما قال ذلك؛ لأنه تعالى ذكر بعده أمما فذهب التأنيث إلى الأمم.

ثم قال: ولو قال: اثنى عشر لأجل أن السبط مذكر، كان جائزا. وقال الزجاج: المعنى: ﴿ وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ ﴾ فرقة ﴿ أَسْبَاطًا ﴾. فقوله: ﴿ أَسْبَاطًا ﴾ نعت لموصوف محذوف، وهو الفرقة. وقال أبو على الفارسى: ليس قوله: ﴿ أَسْبَاطًا ﴾. تمييزا، ولكنه بدل من قوله: ﴿ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ ﴾. [التفسير الكبير: ١٥/ ٣٣]

الله قد قطعهم إلى اثنى عشر جزءًا، كل جزء أمة بخصوصيتها، ولكنهم مع عزلتهم يحتفظون بشكلهم الخاص، فلا يذوبون فى المجتمعات الكبيرة التى يعيشون فيها، وهذا هو حالهم حتى اليوم.

فهم فى الأمم الكبيرة التى يعيشون فيها لا يذوبون فيها أبدًا، ولذلك تجد فى كل دولة - بل فى كل مدينة - حيًا لليهود، معزولاً عن المجتمع الذى يعيش فيه، بل إنهم- بعد أن أعانتهم الدول الكبرى على اغتصاب أرض فلسطين وإنشاء وطن قومى لهم فيها - ظلوا معزولين داخل هذا الوطن؛ فترى هناك اليهود الشرقيين، واليهود الغربيين، ويهود الحبشة.. إلخ، كل فرقة منهم تعيش معزولة عن باقى الفرق .

إذن.. فقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾ هو حكم أزلى من الله عليهم بأنهم سيعيشون متفرقين، حتى لو اجتمعوا فى مكان واحد؛ ولذلك تجدهم فى الأرض كلها منعزلين.

ويقول الحق سبحانه وتعالى فى سورة الإسراء: ﴿وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ﴾ أى من بعد موسى :﴿لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الأَرْضَ﴾ [الإسراء: ١٠٤] وهنا نتساءل ونقول: السكن لا يكون إلا فى الأرض، فلماذا جاءت دون تحديد مكان معين؟ أى اسكنوا فى الأرض كلها، دون أن يكون لكم وطن تتجمعون فيه، ثم تأتى الآية بعد ذلك وتخبرنا بما سيحدث لهم؛ فيقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ [الإسراء: ١٠٤] أى: عندما يأتى هذا الوعد الذى ستلاقونه، سنأتى بكم من كل أرجاء الأرض، ونجمعكم فى مكان واحد، وهذا هو الوطن القومى الذى يفرحون به الآن، نقول لهم: لا تفرحوا كثيرًا، لقد جمع الله جموعكم من كل وطن تعيشون فيه؛ لتأتوا إلى هذا المكان؛ لتوجه الضربة إليكم، التى قال الحق سبحانه

وتعالى عنها فى سورة الإسراء: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوؤُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيراً﴾ [الإسراء: ٧] فكأن قوله تعالى فى آخر سورة الإسراء: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفاً﴾ [الإسراء: ١٠٤] يوضحه ما جاء فى أول السورة: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوؤُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الإسراء: ٧] أى أنهم يُجمعون فى هذا الوطن القومى؛ ليُحاربوا ويُقضى عليهم؛ لأن أى حرب ضدهم مستحيلة وهم يسكنون فى دول مختلفة؛ لأن معنى ذلك أن نحارب دول الأرض جميعاً.

قول الله تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأَرْضِ أُمَماً مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ﴾ [الأعراف: ١٦٨] جاءت لتدلنا على أن اليهود لن يتفقوا أبدًا؛ ولذلك سيظلون أمما مقطعة فى الأرض، وقد يكونون أولاداً وإخوة، ولكنهم غير متفقين، ومعنى: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمَ﴾ أنهم بعد أن حدث لهم التمزيق إلى قطع، ظلّ فيهم نوع من التماسك؛ فأنت إذا جئت بشىء وقطعته قطعًا فإن كل قطعة منه تظل متماسكة، ولا تذوب فى المكان التى هى فيه، ولذلك قلنا: إن اليهود لا يذوبون فى المجتمعات أبداً، فى كل دولة- بل فى كل مدينة- لهم مكان خاص يسمى: «حى اليهود».

وقلنا: إن السبب فى ذلك أن الله سبحانه وتعالى عندما قال لهم: ﴿ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [المائدة: ٢١] ماذا قالوا ؟

قالوا: ﴿إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَداً مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤] فقال الله سبحانه وتعالى: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾ ومادامت محرمة عليهم، فمعنى ذلك: أنه لن يكون لهم وطن يتجمعون

فيه، بل هم مشتتون فى الكون كله؛ لأنهم لو كانوا متجمعين فإن فسادهم يكون فى مكان واحد، ولكن الله قضى أن تعرف الدنيا كلها فسادهم، أى: أن يكون فساداً عاماً، وبذلك تعرف كل دول الأرض أن اليهود فاسدون فتخرجهم هذه الدولة، وتطردهم الثانية، وتعذبهم الثالثة . . . وهكذا .

وقلنا: إن قول الله سبحانه وتعالى لبنى إسرائيل: ﴿اسْكُنُوا الأَرْضَ﴾ مع أن السكنى لا تكون إلا فى الأرض؛ مقصود منه أنهم يسكنون الأرض كلها، فإذا جاء وعد الآخرة جاء الله بهم من كل مكان ليُجمعوا حتى تُساء وجوههم، كما يقول الله فى سورة الإسراء: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا

---

(١) قال القاسمى فى قوله تعالى: ﴿لِيَسُوؤُوا وُجُوهَكُمْ﴾ متعلق بجواب «إذا» المحذوف.
أى: بعثناهم ليسوءوا وجوهكم، أى: ذواتكم بالإذلال والقهر.
قال الشهاب عُديت المساءة إلى الوجوه، وإن كانت عليهم؛ لأن آثار الأعراض النفسانية إنما تظهر فى الوجه. كنضارة الوجه وإشراقه بالفرح، وكلوحه وسواده بالخوف والحزن.
فالوجه بمعنى الذات، مجاز مرسل، أو استعارة تبعية. وقيل: الوجوه بمعنى الرؤساء. وهو تكلف. واختير هذا على: « ليسوءوكم» مع أنه أخصر وأظهر؛ إشارة إلى أنه جمع عليهم ألم النفس والبدن، المدلول عليه بقوله: ﴿وَلِيُتَبِّرُوا﴾. انتهى.
وقوله تعالى: ﴿وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ﴾ أى: الأقصى ﴿كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا﴾ أى: يدمروا ﴿مَا عَلَوْا تَتْبِيراً﴾ أى: عظيماً فظيعاً، والتتبير: التدمير. وكل شىء كسرته وفتَّته فقد تبَّرته. ثم أشار إلى أن فعله تعالى ليخلصوا توبتهم وأعمالهم بقوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ﴾ أى: إذا أخلصتم للإنابة، وأحسنتم الأعمال، وأقمتم الكتاب وما نزل إليكم؛ لأنكم علمتم من سنته تعالى أنه لا ينزل بلاء إلا بذنب، ولا يرفعه إلا بتوبة. ولذا قال: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ﴾ أى: بعد هذه التوبة والإنابة=

﴿تَتْبِيراً﴾ [الإسراء:٧] فكأن تجمع اليهود هو لتحقيق وعيد الله لهم(١) .

= إلى الاستكبار ﴿عُدْنَا﴾ أى إلى تسليط الأعداء ،وسلب الأموال والأولاد فى الدنيا.
﴿وَجَعَلْنَا﴾ أى: يوم القيامة ﴿جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً﴾ أى محبساً وسجناً يحصرهم فى العذاب والحرمان عن الثواب.
قال الشهاب: إن كان -﴿حَصِيراً﴾ -اسماً للمكان، فهو جامد لا يلزم تذكيره وتأنيثه. وإن كان بمعنى حاصراً أى: محيطاً بهم، وفعيل بمعنى: فاعل، يلزم مطابقته. فإما لأنه على النسب كلابن وتامر. أو لحمله على: «فعيل» بمعنى: «مفعول». أو لأن تأنيث جهنم غير حقيقى أو لتأويلها بمذكر. انتهى.
وقيل: ﴿حَصِيراً﴾ ، أى: بساطا كما يبسط الحصير. مثل قوله تعالى: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾ [الأعراف: ٤١] فهو تشبيه بليغ. والحصير بهذا المعنى، بمعنى محصور؛ لحصر بعض طاقاته على بعض. كما قاله الراغب.
تنبيه:
رُوى أن بنى إسرائيل كان الأمر مستتبًا لهم فى فلسطين إلى موت سليمان عليه السلام. فلما ملك ابنه بعده، وذلك قبل المسيح بما ينيف على تسعمائة سنة، وقع من الاختلال فى عهده ما أفضى إلى تقريره عبادة الأوثان. فعوجل، بعد خمس سنين من ملكه بأخذ ملك مصر بيتَ المقدس وسلب كنوز هيكلها -المسجد الأقصى- ونهب ما فيها. ولما ساء تصرفه تمرد عليه شعبه وخلعوا طاعته. فانقسمت مملكته إلى قسمين:
أحدهما : دعى مملكة يهوذا ، وهى المؤلفة من سبطى يهوذا وبنيامين، بقيا خاضعين لابن سليمان.
وثانيهما: دعى مملكة إسرائيل وهى المؤلفة من بقية الأسباط العشرة. وكان أول ملك على مملكة إسرائيل رجل يقال له: يربعام. خاف من رجوع رعاياه إلى طاعة ابن سليمان إذا صعدوا إلى أورشليم فى الأعياد الاحتفالية؛ ليعبدوا الله فى الهيكل، ويقرّبوا ذبائحهم هناك، فأقام فى مملكته عجلين من ذهب. وأمر رعيته بعبادتهما. ورتّب لهم أعياداً احتفالية وكهنة. وقامت حروب هائلة بين ملوك هاتين الطائفتين. وكان يتخللهما من الملوك من ينزع عبادة الأوثان، إلا أنه لا يلبث الحال حتى يأتى ملك آخر، فيعيد الوثنية. واستمرت مملكة إسرائيل نحواً من مائتين وخمسين سنة. وفى نهاية أمرهم عظمت خطيئاتهم؛ فسلط عليهم ملك أشّور، ففتح السامرة=

= -بلدهم- وسباهم إلى أشُّور، وانقرضت مملكة العشرة الأسباط ولم يسمع ذكرهم بعد.
ثم أرسل ملك أشُّور قوماً من بلاده وأسكنهم مدن السامرة، ليعمروها مع من بقى من أهلها. وأرسل معهم كاهنا من اليهود ليقيم لمن بقى طقوسهم. فعادوا إلى شركهم وعبادة الأوثان مع الله تعالى. وأما مملكة يهوذا فبقيت بعد انقراض مملكة إسرائيل ما ينيف على عشرين سنة. وفى أواخر أيامها قام فيها ملك شرير، فزحف إليه ملك بابل نبوخذ نصر- بختنصر - فسبى قسماً من شعبه، وكان السبى الأول.
ثم قام بعد ذلك الملك الشرير، ابنُه. فسار على طريقة أبيه. فعاد إليه ملك بابل المذكور.
واستأسره هو وآله ورؤساءه وقسما من الشعب. وسلب الهيكل. وكان هذا السبى الثانى بعد ثمانى سنين من الأول.
ثم قام فيهم ملك أشَرّ ممن تقدم -وهو آخر ملوكهم- وفى أيامه حاصر ملك بابل المذكور أيضا بيت المقدس، وأسره إلى بابل، وأحرق المدينة والهيكل، وسبى كل شعب يهوذا- ما عدا مساكين الأرض- إلى بابل. وهذا هو السبى الثالث والأخير.
وهكذا انقرضت هذه المملكة. وكانت إقامتهم فى بابل سبعين سنة. ثم أُطلقوا من الأسر فعادوا إلى بيت المقدس. وجددوا عمارتها وقيام الهيكل. وبقيت اليهود تحت تسلط ملوك فارس إلى أن ظهر الإسكندر الكبير. وغلبت اليونان الفرس وجاء الإسكندر إلى سورية فدخل بنو إسرائيل تحت حكم اليونان. وبعد وفاة الإسكندر انقسم ملكه إلى أربعة أقسام:
منها: مملكة سورية ومصر. وكانت بينهما حروب متصلة. والإسرائيليون، لما كانوا بينهما، كانوا تارة تحت تملك مصر وأخرى تحت تسلط سورية، واتفق فى خلال ذلك أن رفض كثير من اليهود الديانة اليهودية، وتمسكوا بديانة اليونانيين.
ثم استولى الرومانيون على فلسطين. وجرت حروب هائلة بينهم وبين اليهود، أفضى الأمر إلى تسلط الرومانيين عليهم. وتملكوا بيت المقدس. وهدم تيطس- أحد ملوكهم- الهيكل إلى أساسه. وأحرق كتب اليهود، وتشتت امرهم، ولم يبق لهم ملك ولا رئاسة بعده. وزعموا أن ذلك بعد رفع المسيح بنحو أربعين سنة. وزعموا أن الهيكل تراجع للعمارة ورُمِّم، إلى أن سارت هيلانة، أم قسطنطين، إلى القدس وبنت كنيسة على القبر، الذى يزعم النصارى أنه قبر المسيح ، وخربت الهيكل وأمرت أن تلقى فيه قمامات البلد وزبالته فصار موضع الصخرة مزبلة. وبقى كذلك حتى قدم عمر =

. . . .

ولكن مع تقطيع الحق لهم، بقيت الخميرة الإيمانية موجودة فى عدد منهم؛ ولذلك عندما سكنوا المدينة مثلا، وكانوا أهل الكتاب، وأهل الثراء والمال، وجاء رسول الله ﷺ إلى المدينة ؛كان منهم من آمن به؛ لأن الله تعالى يقول فيهم: ﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ وكان بين بنى إسرائيل عدد من الصالحين، الذين يعتنقون الإسلام، ويؤمنون برسالة محمد عليه الصلاة والسلام، وذلك قول الله تعالى: ﴿ مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ﴾ [الأعراف: ١٦٨] وقوله: ﴿ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الأعراف: ١٦٨] .

= ابن الخطاب رضى الله عنه وفتح القدس. فأمر بتنظيفه وبنى فى قبته مسجداً، إلى أن ملك الوليد بن عبد الملك، فجدد بناءه على أساسه القديم وبنى قبة الصخرة.

وتفصيل هذه الماجريات معروفة فى كتب التاريخ. ونحن لم نورد ما أوردناه على أنه تفسير للآية؛ لأنها بإيجازها غنية عنه، وفى تفسيرنا لألفاظها كفاية فى فهمها، إلا أن أكثر المفسرين تطرّفوا لبعض ماجريات اليهود هنا، فنقحنا منها أحسن ما حرّره المؤرخون المتأخرون؛ إيضاحاً لأفاعيلهم التى أشارت إليها الآيات الكريمة.

[تفسير القاسمى : ١٠/٣٩٠٣-٣٩٠٧]

(١) قال ابن كثير : يقول تعالى مخبرًا عن بنى إسرائيل: إن منهم طائفة يتبعون الحق ويعدلون به، كما قال تعالى: ﴿ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾ [آل عمران: ١١٣]. وقال تعالى: ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ [آل عمران: ١٩٩]. وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا =

وأما قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ﴾ أى المفسدون، إذن. منهم الصالحون وهم قلة، ومنهم المفسدون وهم الكثرة الغالبة(١).

وقوله تعالى فى الآية الكريمة: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٨] من قبلها: ﴿وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ﴾ جعلنا نعرف أن هناك قلة صالحة، وكثرة مفسده كافرة، فلعلهم يرجعون إلى الإيمان.

وقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ﴾ بلونا أى: اختبرنا (١)، والإنسان يختبر بالسيئة، ولكن هل يختبر بالحسنة؟.

نقول : نعم، إنه يختبر بالنعمة، لماذا؟ ليكون الإنسان شهيداً على نفسه.

فمثلاً يعطى الله الإنسان المال، ومن الناس من يستخدم المال فى الإفساد فى الأرض، ومنهم من يستخدمه فى الصدقة والخير.

ويعطى الله الإنسان الصحة والقوة، ومنهم من يستخدمها فى إعانة الناس، ومنهم من يستخدمها فى إيذاء الضعيف؛ لذلك فالله يختبرنا بالنعمة، وهل تغيرنا الأسباب فيها عن السبب الذى وهبت لنا من أجله أم لا؟

ويقول الله سبحانه وتعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝٦ أَن رَّآهُ

= صَبَرُوا...﴾ الآية. وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ الآية. وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ۝١٠٧ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ۝١٠٨ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۝١٠٩﴾ [الإسراء].

[تفسير ابن كثير: ٢/ ٢٤٥]

(١) قال الراغب الأصفهانى : وبلوته اختبرته كأنى أخلقته من كثرة اختبارى له.

[المفردات فى غريب القرآن : ٥٩]

اسْتَغْنَىٰ (٧)﴾ [العلق] أى: إذا أعطاه الله كفر. وفى قصة سليمان عليه السلام مع بلقيس ملكة سبأ لما كان عند سيلمان رجلاً آتاه الله علما من الكتاب؛ ليكون فى خدمة سليمان، فأتاه بعرش بلقيس قبل أن يرتد إليه طرفه ، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠].

وهكذا تأتى النعمة اختبارا للإنسان؛ ليرى الحق سبحانه وتعالى: هل سيؤدى حقها، أم سيكفر بها ويطغى؟

إذن. . فهناك ابتلاء بالنعم وابتلاء بالنقم، فالابتلاء بالنعم؛ لاختبار الشكر، والابتلاء بالنقم لاختبار الصبر، يقول تعالى: ﴿فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ

(١) قال ابن الجوزى فى قوله عز وجل : ﴿فَأَمَّا الْإِنسَانُ﴾: فيمن عُنِىَ به؛ أربعة أقوال :
أحدها : عتبة بن ربيعة، وأبو حذيفة بن المغيرة ، رواه عطاء عن ابن عباس .
والثانى : أُبى بن خلف ، قاله ابن السائب.
والثالث : أمية بن خلف ، قاله مقاتل.
والرابع : أنه الكافر الذى لا يؤمن بالبعث .
قال الزجاج : وابتلاه بمعنى اختبره بالغنى واليُسر، ﴿فَأَكْرَمَهُ﴾ بالمال ، ﴿وَنَعَّمَهُ﴾ بما وسَّع عليه من الإفضال، ﴿فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾ فتح ياء «ربى» «أكرمنى» «ربى» «أهاننى» أهل الحجاز وأبو عمرو، أى : فضلنى بما أعطانى، ويظن إنما أعطاه من الدنيا لكرامته عليه، ﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ﴾ بالفقر، ﴿فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ﴾ وقرأ أبو جعفر، وابن عامر: «فقدّر» بتشديد الدال، والمعنى: ضيَّق عليه بأن جعله على مقدار البُلْغة ﴿فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ﴾ أى هذا الهوان منه لى حين أذلنى بالفقر.
واعلم أن من لا يؤمن بالبعث، فالكرامة عنده زيادة الدنيا، والهوان قِلَّتها.
[زاد المسير : ٨/٢٤٦]

﴿فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴿١٦﴾﴾[1] [الفجر] نقول: إن الاثنين معاً لم يفهما الحقيقة؛ الذى قال: ﴿رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾، والذى قال: ﴿رَبِّي أَهَانَنِ﴾ كلاهما لم يصل إلى الحكمة من الابتلاء، فليست النعمة دليل الإكرام، ولا سلب النعمة دليل الإهانة، ولكن الإكرام يأتى فى استقبال النعمة بالشكر، واستقبال النقمة بالصبر[1] .

نقول: إن الذى قال: ﴿رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾ ربما لا يعلم أن هذه النعمة قد تحرك فيه نوازع الشر، ويستخدمها فيما يغضب الله، فيزداد بذلك إثماً. والذى قال: ﴿رَبِّي أَهَانَنِ﴾ قد يعلم أن هذه النعمة تحرك فيه القدرة على الصبر، فتزداد الحسنات بالصبر عليها؛ ولذلك يقول الله- سبحانه وتعالى- بعدها: ﴿كَلَّا﴾ أى ليست النعمة إكراماً، ولا النقمة إهانة، ﴿كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾[2] [الفجر] أى: إنكم لا تستخدمون النعمة فى تنفيذ منهج الله، تأخذون المال الذى هو نعمة فلا تكرمون منه يتيما، ولا تطعمون منه مسكينًا .

إذن. . فالمال فى هذه الحالة لا يكون نعمة، ولكنه يكون نقمة عليكم؛

---

(١) عن صهيب قال: قال رسول الله ﷺ: « عجبًا لأمر المؤمن، إن أمره كله خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن؛ إن أصابته سرَّاء شكر، فكان خيرًا له، وإن أصابته ضرَّاء صبر، فكان خيرًا له». أخرجه مسلم [٢٩٩٩]

(٢) قال القرطبى فى قوله تعالى: ﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ﴾ أى: ميراث اليتامى. وأصله الوُرَاث من ورثت، فأبدلوا الواو تاء؛ كما قالوا فى تُجاه وتُخَمة وتُكَأة وتُؤَدة ونحو ذلك. ﴿أَكْلًا لَّمًّا﴾ أى: شديدا؛ قاله السدى. قيل ﴿لَّمًّا﴾: جمعا؛ من قولهم: لممت الطعام لمًّا، إذا أكلته جمعا؛ قاله الحسن وأبو عبيدة. وأصل اللَّم فى كلام العرب: الجمع؛ يقال: لَمَمْتُ الشيء ألُمّه لمًّا: إذا جمعته، ومنه يقال: لمَّ الله شعثه، أى: جمع ما تفرق من أموره. [تفسير القرطبى: ٢٠/ ٥٣]

لأنكم استخدمتموه فى الإفساد، ولم تستخدموه فى الإصلاح.

فالابتلاء يكون بالحسنة والسيئة، فكأن الله سبحانه وتعالى يُذكِّر بنى إسرائيل بأنه أخذهم بالنعمة، وأخذهم بالشدة، فلا النعمة جعلتهم يعودون إلى منهج الله، ولا الشدة جعلتهم يفيقون، ويتركون المعاصى، ويتوبون عنها، وأن عدم استجابتهم لأمر الله دليل على أن ذلك طبع متأصل فيهم.

قضى الله على بنى إسرائيل أن يكونوا متفرقين فى الأرض، ينتسبون لشعوب متباينة وعادات مختلفة ؛ لأنهم ليسوا أبناء هدف واحد ، إنما هم ممزقون فى الوسائل ويقلبونها غايات، ولننظر إلى دقة البيان القرآنى؛ يقول الحق سبحانه : ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٨] إن الحق تبارك وتعالى لا يصادر حق بنى إسرائيل فى أن منهم صالحين، ولا يصنفهم جميعا ضمن التمايز الذى يتفاخرون هم به، بأنهم أرقى شعوب الأرض، لا. . إنهم بشر عاديون منهم الصالح، وأغلبهم فاسدون فلا يمكن أن نصفهم بالصلاح، وقد اختبرهم الله -كما اختبر جميع الخلق- بالنعم والنقم.

ونلحظ فى قول الله تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأَرْضِ أُمَمًا﴾ أن الله أراد لهم أن يكونوا متفرقين بين أهل الأرض، وهم أرادوا لأنفسهم أن يتمايزوا عن سكان كل بلد، فأقاموا أحياء معزولة؛ يظنون أنهم بذلك يصنعون تمايزا لأنفسهم، غافلين عن أن الشعوب فى حركتها تهضم كل السلالات، فلا يتمايز أحد عن أحد، إنما يكتسب كل فرد السمات الموجودة فى مجتمعه؛ لذلك تجد التضارب والتنافر بينهم حين أرادوا لأنفسهم كيانا ، إن كل العمليات العلمية للصهر فى بوتقة واحدة لا تفيد، لماذا؟ لأنهم من

أمم شتى، ونقاء النوع خرافة باطلة.

يقول الحق: ﴿وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ [الإسراء: ١٠٤] إن الحق تبارك وتعالى يقص الواقع الذى حدث لبنى إسرائيل، إنهم بعد الخروج مع موسى عليه السلام من مصر تفرقوا فى الأرض جميعا بين شعوبها وأممها، وعندما يؤكد الحق أن بنى إسرائيل إنما عليهم أن يسكنوا الأرض، فهذا معناه أنهم متفرقون فى الأرض بين الأمم وغير مجتمعين، إنما هم فى أقاليم متعددة ينتمون إلى أجناس شتى.

وإذا جاء وعد الله فإن الله سوف يأتى بهم: ﴿لَفِيفًا﴾ واللفيف هو الجمع غير المتجانس(١). لقد انساح اليهود فى الأرض وحاولوا أن يحتفظوا بخرافة العزلة من أجل نقاء الجنس اليهودى، وثبت خرافة ذلك الأمر، ولم ينالوا منه إلا العزلة فى كل مجتمع، عزلة أرادوها لأنفسهم فكتبها الله عليهم.

قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ تبوءوا يعنى: أقاموا بيوتا، أى: أقاموا مساكن خاصة(٢)، والإقليم فيه سكن عام، السكن العام أنت حر الحركة فيه أنت وغيرك، ولكن البيت لحركتك وحدك، كلما ازداد الإنسان مالا تكون له خصوصية المكان.

---

(١) قال الشوكانى فى قوله تعالى: ﴿جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾: قال الجوهرى: اللفيف: ما اجتمع من الناس من قبائل شتى، يقال: جاء القوم بلفهم ولفيفهم، أى: بأخلاطهم، فالمراد هنا: جئنا بكم من قبوركم مختلطين من كل موضع، قد اختلط المؤمن بالكافر. قال الأصمعى: اللفيف جمع وليس له واحد، وهو مثل الجمع. [فتح القدير: ٣/ ٢٦٩]

(٢) تبوأتُ منزلاً أى: نزلته. وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ﴾ جعل الإيمان محلاً لهم على المثل، وقد يكون أراد: وتبوءوا مكان الإيمان، وبلد الإيمان، فحذف. وتبوأ المكان: حلَّه، وتبوأ فلان منزلا، أى: اتخذه. [لسان العرب: ١/ ٣٩]

إذن . . فهناك فرق بين تبوُّؤ البيوت وتبوُّؤ المواطن، والله سبحانه وتعالى قال لموسى وهارون: ﴿أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾ [يونس: ٨٧] أى: أقيما البيوت لقومكما فى مصر، ومصر هى الإقليم الذى يملكه العموم، حين يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا﴾ [يونس: ٩٣]، إذن فالمسألة بتيسير من الله، وقوله: ﴿مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾، الصدق: هو جماع الخير، ولذلك فالمؤمن قد يكون جبانًا أو بخيلاً، لكنه لا يصح أبدًا أن يكون كذابًا (١)؛ لأن الصدق هو الصفة التى لا يتخلى عنها المؤمن، فكل خصال الخير أن تكون: ﴿مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ أى أن تدخل مدخل صدق، وليس مدخل الكذب.

والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٠] .

ويقول تعالى : ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤] .

ويقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [يونس: ٢] .

والجزاء على الصدق فى كل الأمور يجعل الإنسان فى منزلة عالية؛

---

(١) عن صفوان بن سليم، أنه قال: قيل لرسول الله ﷺ: أيكون المؤمن جبانا؟ فقال: «نعم». فقيل له: أيكون المؤمن بخيلا؟ فقال: «نعم». فقيل له: أيكون المؤمن كذابا؟ فقال: «لا». أخرجه مالك فى الموطأ، كتاب الكلام-باب ما جاء فى الصدق والكذب.
وعن عبد الله بن مسعود عن النبى ﷺ قال : « إن الصدق يهدى إلى البر ، وإن البر يهدى إلى الجنة ، وإن الرجل ليصدق حتى يكون صدِّيقًا ، وإن الكذب يهدى إلى الفجور ، وإن الفجور يهدى إلى النار ، وإن الرجل ليكذب حتى يُكتب عند الله كذَّابًا » . أخرجه البخارى [٦٠٩٤] واللفظ له ، ومسلم [٢٦٠٧/١٠٣].

(٢) قال السمرقندى فى قوله تعالى : ﴿مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ يعنى : منزل صدق ، وهو أرض=

مصداقاً لقول الحق جل جلاله: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ .

وقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ يعنى: أسكناهم فى الشام ومصر(٢)، ورزقناهم من الطيبات؛ لأن هذه الأرض مليئة بالطيبات، وكان المفترض فيهم بعد ذلك أن تستقيم أمورهم، ولكن الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ أى: بدأ الخلاف يحدث بينهم وبدأت المعاصى، فبماذا عاقبهم الله فى الدنيا؟

يقول تعالى : ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[الأعراف: ١٦٨] ويجب أن تعى جيداً قوله تعالى : ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا﴾ قطعناهم أى: جعلناهم قطعا متماسكة منفصلة عن بعضها البعض، أى أنهم لا يذوبون فى المجتمعات التى يعيشون فيها، بل يكون لهم مكان خاص بهم، و ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ أى: فى كل أنحاء الأرض، و﴿أُمَمًا﴾أى جماعات منفصلة محتفظة بشخصيتها ، وهذا هو الحادث لهم الآن.

فإذا قرأنا قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ﴾ [الإسراء:١٠٤] أى أن الله حكم على بنى إسرائيل من بعد موسى أن يسكنوا الأرض، بعض الناس يقولون: كلنا نسكن الأرض، ولكن الحقيقة أننا كلنا نسكن قطعة محددة من الأرض، هذا يسكن القاهرة، وهذا

= مصر ، وذلك أن الله تعالى قد وعد لهم بأن يورثهم أرض مصر . فلما غرق فرعون رجع موسى عليه السلام ببنى إسرائيل إلى أرض مصر ، فنزلوا بها وسكنوا الديار . ويقال :﴿مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ يعنى : أرضًا كريمة ، يعنى أرض الأردن وفلسطين . ويقال: منزل حسن . وقال قتادة : أرض الشام ، ويقال : الأرض المقدسة .
[بحر العلوم : ٢/ ١١٠]

يسكن الإسكندرية، وهذا يسكن لندن، وهذا يسكن واشنطون، فكأن الله سبحانه وتعالى يقول لليهود: أنتم ليس لكم وطن، ولكنكم ستكونون مبعثرين في الأرض، وهذا معنى الآية الكريمة : ﴿ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأَرْضِ أُمَمًا ﴾ فإذا رأينا هذه الأيام أنهم قد أصبح لهم وطـن، مـع أن الله سبحانه وتعالى يقول: إنهم لن يكون لهم وطـن، لا يخـرج أحـد ليقـول: إن هـذا يتعـارض مع القرآن الكريم؛ لأن الله قـال فى سـورة الإسـراء : ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء: ٤] .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾ [الإسراء: ١٠٤] البعض يقول: إن معنى ﴿ اسْكُنُوا الأَرْضَ ﴾، أى: الأرض المقدسة التى كتبها الله لهم(١)، لكن كلمة الأرض إذا تجرَّدت عن الوصف تعنى أى أرض فى أى مكان، ونحن نعرف أن الأرض المقدسة هى بيت المقدس، وقوله: ﴿ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ أى : من بعد فرعون، ويصح أن تكون من بعد موسى، والإنسان بطبيعته يسكن الأرض ويعيش عليها، ولكن أنت حين تأمرنى وتقول لى: اسكن. أى استقر وتوطن، لابد أن تحدد لى مكانا، فتقول: اسكن القاهرة، أو اسكن

---

(١) قال الخازن : يعنى أرض مصر والشام. [تفسير الخازن : ٤/ ١٤١]
وقال السمرقندى : انزلوا أرض الأردن وفلسطين ومصر. [بحر العلوم : ٢/ ٢٨٦]
وقال البيضاوى : أرض مصر ، أو الأرض مطلقًا .
[أنوار التنزيل وأسرار التأويل : ١/ ٥٨٤]
وقال ابن عطية : ﴿ الأَرْضَ ﴾ أرض مصر ،ومتى ذكرت الأرض عمومًا، فإنما يراد بها ما يناسب القصة المتكلَّم فيها. [المحرر الوجيز : ٣/ ٤٩٠]

طنطا، أو الإسكندرية، أو غير ذلك؛ لكن أن تقول لى اسكن الأرض وأنا موجود فيها، فلابد أن تحدد لى مكاناً للسكنى، ولكن الله لم يقل هذا، بل قال تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأَرْضِ أُمَمًا﴾ أى: لم نجعل لهم منطقة يجتمعون فيها كوطن، بل كل منطقة لهم جيب فيها، والواقع أيّد ذلك؛ لأنهم كانوا فى كل بلد أو كل مدينة يعيشون فى مناطق منعزلة خاصة بهم، فحتى إن كانوا متفرقين فى شتى البلاد إلا أنهم لا يذوبون فى المجتمعات أبداً، بل تجدهم فى كل مكان تجدهم مستقلين فى حى اليهود.

إذن.. ﴿وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ﴾ أى: من بعد موسى﴿اسْكُنُوا الأَرْضَ﴾أى: تفرقوا فى كل أنحاء الأرض أى ليس لهم وطن يجمعهم.

وقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا (٤) فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولاً (٥)﴾ [الإسراء]، وهذا ما حدث أيام الرسول ﷺ فى المدينة مع اليهود لما نقضوا العهد وتآمروا على قتله، فأجلاهم عن المدينة وأراح الناس من شرهم، وبعد ذلك خَفَتَ صوتُهم ولم يعد للمسلمين احتكاك بهم، وعاشوا فى كنف الإسلام. لكن الحق سبحانه وتعالى أخبر فى القرآن الكريم أنه سيرد لهم الكرة على المسلمين؛ وذلك فى قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا﴾ [الإسراء: ٧] أى: إذا جاء موعد الإفساد الثانى لليهود، سيجمع الله المسلمين على رجل صالح منهم وتدور رحى الحرب بين المسلمين واليهود، وتكون الغلبة بإذن الله للمسلمين حتى أن الحجر يقول:

يا عبد الله يا مسلم خلفى يهودى تعال فاقتله.

ولكن هل يستطيع المسلمون أن ينقضُّوا على اليهود وهم فى شتيت الأرض وموزعين فى كل بلد؟ لا..لا يمكن، فلابد أن يعطيهم فكرة التجمع فيتجمعوا فى وطن واحد؛حتى يسهل معاقبتهم والانتقام منهم شر انتقام(1).

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأعراف: ١٦٧]
الكلام هنا بالنسبة لبنى إسرائيل،والحق سبحانه وتعالى يبين لنا أن مواقفهم الإيمانية ستظل متقلبة مترددة دائما فيها الفساد والإفساد؛ ولذلك فإن الله يسلط عليهم بذنوبهم من يسومهم سوء العذاب،لماذا ؟ لأنهم منسوبون إلى الله، والإنسان حين يكون غير مؤمن أو ملحد؛ فإن كفره وإلحاده يخرجانه من كونه منسوبًا لدين الله، ولكن المؤمن المنسوب لدين الله كتابًا ومنهجًا وطريقاً ، إذا أفسد وخرج عن هذا المنهج؛ يكون عذابه فى الدنيا أكبر، لماذا؟ لأنه تابع لنبى، وله منهج نزل من الله، فإذا أفسد لا يقال: هذا ملحد، بل يقال : انظر إلى ما يفعل أتباع موسى، أو أتباع عيسى، أى أنه

---

(١) مما ورد فى أشراط الساعة : عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود . فيقتلهم المسلمون . حتى يختبئ اليهودى من وراء الحجر والشجر . فيقول الحجر أو الشجر : يا مسلم !! يا عبد الله ! هذا يهودى خلفى . فتعال فاقتله إلا الغرقد . فإنه من شجر اليهود ». أخرجه مسلم [٢٩٢٢].
وقال النووى: قوله ﷺ : « إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود » والغرقد : نوع من شجر الشوك معروف ببلاد بيت المقدس ، وهناك يكون قتل الدجال واليهود ، وقال أبو حنيفة الدينورى :إذا عظمت العوسجة صارت غرقدة .
[شرح النووى على مسلم : ٩/ ٢٧٤]

يكون قدوة سيئة، وأسوة فى الفساد بالنسبة للناس؛ ولذلك يكون عذابه فى الدنيا أكبر؛ لأنه لم يفسد فقط، ولكنه حرَّض غيره على الإفساد بسلوكه.

قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾ من الإذن، ﴿تَأَذَّنَ﴾ أى: أعلم إعلامًا مؤكدًا(١)؛ لأن بنى إسرائيل سيظلون على انحراف دائم إلى يوم القيامة؛ وسيسلط الله عليهم بذنوبهم من يسومهم سوء العذاب، ومن جهة الإيمان فمعروف ماذا فعل رسول الله باليهود بعد أن خانوه وتحالفوا مع الكفار ضده؟(٢) ولكن الحق سبحانه وتعالى حين يريد أن يسلط العذاب،

---

(١) قال القرطبى فى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾ أى: أعلم أسلافهم أنهم إن غيروا ولم يؤمنوا بالنبى الأمى، بعث الله عليهم مَن يعذّبهم. وقال أبو على: «آذن» بالمد: أعلم، و«أذَّن» بالتشديد: نادى. وقال قوم: آذن وأذّن بمعنى: أعلم؛ كما يُقال: أيقن وتيّقن. [تفسير القرطبى: ٧/ ٣٠٩]

(١) عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: حاربت قريظة والنضير، فأجلى بنى النضير وأقرَّ قريظة، ومنَّ عليهم حتى حاربت قريظة، فقتل رجالهم وقسم نساءهم وأولادهم، وأموالهم بين المسلمين إلا بعضهم لحقوا بالنبى ﷺ فآمنهم وأسلموا وأجلى يهود المدينة كلهم: بنى قينقاع وهم رهط عبد الله بن سلام ويهود بنى حارثة وكل يهود المدينة. أخرجه البخارى [٤٠٢٨] واللفظ له، ومسلم [١٧٦٦].

وعن أبى هريرة قال: بينا نحن فى المسجد خرج رسول الله ﷺ فقال: «انطلقوا إلى يهود». فخرجنا معه حتى جئنا بيت المدارس، فقام النبى ﷺ فناداهم فقال: «يامعشر يهود أسلموا تسلموا». فقالوا: بلغت يا أبا القاسم. قال: فقال لهم رسول الله ﷺ: «ذلك أريد أسلموا تسلموا». فقالوا: قد بلغت يا أبا القاسم. فقال لهم رسول الله: «ذلك أريد»، ثم قالها الثالثة فقال: «اعلموا أنما الأرض لله ورسوله، وإنى أريد أن أجليكم من هذه الأرض، فمن وجد منكم بماله شيئًا فليبعه، وإلا فاعلموا أنما الأرض لله ورسوله». أخرجه البخارى [٣١٦٧، ٦٩٤٤، ٧٣٤٨] واللفظ له، ومسلم [١٧٦٥].

وعن جابر بن عبد الله قال: أخبرنى عمر بن الخطاب؛ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب، حتى لا أدع إلا مسلمًا». أخرجه مسلم [١٧٦٧/٦٣].

فإنه لا يرسل إنسانًا مؤمنًا ليأخذ القصاص من رجل ظالم؛ لأن المؤمن فى قلبه رحمة ،وهو يؤثر العفو ولا ينتقم حتى لنفسه،ولكن الله سبحانه وتعالى حين يريد أن ينتقم من الظالم يسلط عليه من هو أظلم منه؛ وذلك لأن توافر الحقد وشهوة الانتقام تضمن ردع الظالم ومعاملته بالقسوة التى يستحقها، واقرأ قول الحق سبحانه : ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا﴾ [الأنعام: ١٢٩]

على أننا نلاحظ أن قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾ إعلام مؤكد من الله على أن العذاب واقع على بنى إسرائيل، ولماذا هو إعلام مؤكد؟ لأن البشر قد يقولون شيئاً ،ولكن قدرتهم فى تنفيذه غير مضمونة؛ لأنهم لا يملكون أدوات التنفيذ،ولكن حين يقول الله فهو يملك كل شىء؛ولذلك يكون التنفيذ مؤكدا،وتلفتنا إلى ذلك الآية الكريمة: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾[القمر: ٤٥] هذه الآية نزلت والمسلمون فى مكة ضعاف لا يستطيعون حماية أنفسهم، يعذبون ولا يحميهم أحد،وإذا بالآية الكريمة تنزل: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ فقال عمر بن الخطاب: أى جمع هذا؟ لكن الله الذى يعلم كل شىء جعل الآية تتحقق،

---

(١) عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال وهو فى قُبَّة يوم بدر : « اللهم إنى أنشدك عهدك ووعدك ، اللهم إن تشأ لا تُعبد بعد اليوم » ، فأخذ أبو بكر بيده، فقال : حسبك يا رسول الله ، ألْحَحْتَ على ربك وهو يَثِب فى الدِّرْع ، فخرج وهو يقول : ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ . أخرجه البخارى [٤٨٧٥، ٤٨٧٧] .
وعن أنس أن عمر بن الخطاب، قال: لما نزلت: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ قلت: أى جمع هذا ؟ فلما كان يوم بدر، رأيت رسول الله ﷺ وبيده السيف مصلتا، وهو يقول : ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾. أخرجه الطبرانى فى الأوسط [٣٨٢٩]

ويهزم الكفار وينتصر المسلمون(١).

إذن.. فقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ ﴾ تأكيد بأن هذا لابُدَّ أن يحدث، وقوله تعالى: ﴿ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ﴾ يكون بنص القرآن هناك مبعوث ليتم هذه المهمة(١)؛ لأن الحق يقول: ﴿ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ ﴾ يعني مبعوثاً هذه مهمته من الله، ولكن المعنى لا يقف عند هذا، والمهم أن الله سبحانه وتعالى سيخلي بين هذا المبعوث وبين بني إسرائيل؛ ليسومهم سوء العذاب مثل قوله سبحانه وتعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴾ [مريم: ٨٣] ليس معنى هذا أن الشياطين مرسلون، ولكن معناها أن الله خلّى بينهم وبين الذين يستمعون إليهم فاتبعوهم، على أن قول الحق: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ

---

(١) قال ابن كثير في قوله تعالى: ﴿ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ ﴾ أي: على اليهود ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ﴾ أي: بسبب عصيانهم ومخالفتهم أوامر الله وشرعه واحتيالهم على المحارم، ويقال: إن موسى عليه السلام ضرب عليهم الخراج سبع سنين، وقيل: ثلاث عشرة سنة وكان أول من ضرب الخراج، ثم كانوا في قهر الملوك من اليونانيين والكشدانيين والكلدانيين، ثم صاروا إلى قهر النصارى وإذلالهم إياهم؛ وأخذهم منهم الجزية والخراج، ثم جاء الإسلام ومحمد ﷺ فكانوا تحت قهره وذمته، يؤدون الخراج والجزية. قال العوفي عن ابن عباس في تفسير هذه الآية قال: هي المسكنة وأخذ الجزية منهم. وقال علي بن أبي طلحة عنه: هي الجزية، والذي يسومهم سوء العذاب محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأمته إلى يوم القيامة. وكذا قال سعيد بن جبير وابن جريج والسدي وقتادة. وروى عبد الرزاق بسنده عن سعيد بن المسيب قال: يستحب أن تبعث الأنباط في الجزية، قلت: ثم آخر أمرهم أنهم يخرجون أنصاراً للدجال؛ فيقتلهم المسلمون مع عيسى ابن مريم عليه السلام وذلك آخر الزمان.

[تفسير ابن كثير: ٢/٢٤٨، ٢٤٩] بتصرف.

لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ يؤكد المعنى فى أنه لن يكون هناك مبعوث مرسل من الله؛ لأنه لا يوجد إنسان مهما طال عمره سيعيش من بعد موسى إلى يوم القيامة، ولكن الآية تقول لنا: إنه سيكون فى الكون دائمًا إلى أن تقوم الساعة من يذيق بنى إسرائيل العذاب، هذه هى مهمة الشر فى الوجود، تصحيح الفساد؛ ذلك أن الشر بمساوئه وما يعانيه الناس منه، يجعل الناس يتهافتون على الحق وعلى الخير، فالذى يهيج الخير فى الوجود هو وجود الشر.

لذلك نجد أن الإسلام يكون أقوى ما يكون فى نفوس الناس حين يُضطهد بلد مسلم، حينئذٍ حتى ضعاف الإيمان نجد الإيمان يشتعل فى قلوبهم، ومهمة الباطل فى الوجود أنه يهيج عناصر الحق، ولو لم يحدث ذلك ما أقبل إنسان على الخير وعلى الحق بحمية وحرارة.

وقول الله سبحانه وتعالى: ﴿يَسُومُهُم﴾ ومادتها: سوم ويقال: البهيمة سائمة أى ليست مملوكة لأحد، أى: أنها تطلب مقومات حياتها من أى مكان، ولا يكون لها صاحب يعد هذه المقومات. إذن.. فكلمة «سام» تعنى: طلب، وبهيمة سائمة تعنى: تطلب رزقها من أى مكان، ويقال: سام العذاب

---

(١) سامت الراعية والماشية والغنم تسوم سَوْمًا : رعت حيث شاءت ، فهى سائمة . والسوام والسائمة: الإبل الراعية . وأسامها هو : أرعاها وسَوَّمها وأَسَمْتها أنا : أخرجتها إلى الرَّعى ؛ قال الله تعالى: ﴿فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ [النحل: ١٠] . والسائم : الذاهب على وجهه حيث شاء. وسامه الأمر سَوْمًا: كلَّفه إياه، وقال الزجاج : أولاه إياه ، وأكثر ما يستعمل فى العذاب والشر والظلم . وفى التنزيل : ﴿يَسُومُونَكُم سُوءَ الْعَذَابِ﴾ وقال أبو إسحاق : يسومونكم : يولونكم ؛ التهذيب: والسَّوْم من قوله تعالى : ﴿يَسُومُونَكُم سُوءَ الْعَذَابِ﴾ قال الليث : السَّوم أن تُجَشِّم إنسانًا مشقة أو سوءًا أو ظلمًا ، وقال شمر: ساموهم أرادوهم به ، وقيل عرضوا عليهم . [لسان العرب : ١٢/ ٣١١، ٣١٢]

أى: طلب هو العذاب(١)، وهل يطلب الإنسان العذاب قولاً ؟ لا .. ولكنه يطلبه بذنوبه، ويطلبه بإفساده ، ويطلبه بظلمه.

وقول الحق تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ السرعة هى أن يأخذ الشيء زمنًا أقل مما يتوقع له، فالسرعة هى اختصار الزمن؛ ومعنى: ﴿الْعِقَابِ﴾ هل هو عقاب الدنيا أو عقاب الآخرة، إن كان عقاب الدنيا فإنه بمجرد أن يعترفوا بالذنوب والخطايا يسلط عليهم العذاب، أما بالنسبة للآخرة، فإن العذاب يمكن أن يأتى بنهاية الأجل؛ لأنه من مات فقد قامت قيامته(١).

إذن.. هناك سرعة لحساب الآخرة، ولكن فلنفرض أننا نتحدث عن

---

(١) قال ﷺ : « من مات فقد قامت قيامته» .
قال العراقى : رواه ابن أبى الدنيا من حديث أنس بسند ضعيف . انتهى.
قلت: وعند ابن لال فى مكارم الأخلاق، والديلمى: من حديث أنس :« إذا مات أحدكم فقد قامت قيامته، واعبدوا الله كأنكم ترونه، واستغفروه كل ساعة».
وروى العسكرى فى الأمثال من حديث أنس:« أكثروا ذكر الموت، فإنكم إن ذكرتموه فى غنى كدره عليكم ،وإن ذكرتموه فى ضيق وسعه عليكم. الموت القيامة إذا مات أحدكم فقد قامت قيامته، يرى ماله من خير وشر».
وفيه: داود بن المحبر، كذاب، عن عنبسة بن عبد الرحمن، متروك متهم، عن محمد ابن زارات قال البخارى: لا يُكتب حديثه، ورواه ابن لال فى المكارم بلفظ: «أكثروا ذكر الموت فإن ذلك تمحيص للذنوب وتزهيد فى الدنيا ،الموت القيامة » ، وعند ابن أبى الدنيا: « فإنه يمحص الذنوب ويزهد فى الدنيا» وسنده ضعيف جدًا. وروى الطبرانى من طريق زياد بن علاقة عن المغيرة بن شعبة قال: « يقولون القيامة القيامة، وإنما قيامة الرجل موته» ومن رواية سفيان عن أبى قيس قال: «شهدت جنازة فيها علقمة، فلما دفن قال: أما هذا فقد قامت قيامته».
قال ابن السبكى [٦/ ٣٥٩] : لم أجد له إسنادًا .
[تخريج أحاديث إحياء علوم الدين : ٥/ ٢١٣٤]

آخِرِ واحد سيموت قبل يوم القيامة، نقول: إن الله سريع العقاب، إذن هناك سرعة، كيف ؟ سرعة فى الدنيا والآخرة، السرعة فى الدنيا أن تتلاحق عليهم موجات العذاب، والسرعة فى الآخرة بأنهم لحظة الموت يرون العذاب الذى ينتظرهم.

لنفرض أن رجلاً مات الآن، ورجلاً سيموت بعد عشرين سنة، هل يتساوى الاثنان معاً فى سرعة العقاب، نقول: نعم، الذى مات الآن واجه ما واجهه من رؤية عذاب الآخرة، والذى بقى حيًا فإن كل يوم يمر يقرِّبه من العذاب، فكأنه يقترب كل لحظة من العذاب وهذه سرعة العقاب.

نلاحظ أن الحق تبارك وتعالى بعد أن قال : ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ قال: ﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لكن الحديث هنا عن العذاب، فما الذى جاء بالرحمة؟ مجيء العذاب نفسه بالنسبة للظالم رحمة للمظلوم، فكأن معاقبة الله للظالم بالعذاب تشفى صدر المظلوم وهو يرى الظالم وما يحدث له، وفى الوقت نفسه ترحمه من عذاب هذا الظالم، فكأن المفسد الذى يسرع الله له بالعقاب يكون ذلك؛ لأن الله غفور رحيم بأولئك الذين يعانون من عذابه وظلمه.

* بل الله يزكى من يشاء *

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾ [النساء: ٤٩] والتزكية كما نعرفها: هى التطهير والنماء، ومنها أخذت كلمة: «الزكاة»، والتطهير يزيل الأقذار، والنماء يربى المادة فتنمو[١] . إذن . . فالتزكية تعنى عدم وجود أقذار ووجود نماء، فلا أحد يأتى لقذر ويطلب منه أن ينمو؛ لأنه إن نما فهو ينمو بقذارته، وحتى ينمو لابد له من الطهر. إذن . . درء المفسدة مقدم دائماً على جلب المصلحة.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ﴾ ماذا قالوا تزكية لأنفسهم ؟

لقد قالوا : ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ [المائدة: ١٨] .

وقالوا: ﴿لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ﴾ [البقرة: ١١١] .

إنهم يقومون بتزكية أنفسهم[٢].

---

(١) قال أبو جعفر النحاس : « أصل الزكاء : النماء فى الصلاح .
[معانى القرآن الكريم : ١/١٠٨]

(٢) قال الحسن وقتادة: نزلت هذه الآية وهى قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ﴾ فى اليهود والنصارى حين قالوا : نحن أبناء الله وأحباؤه ، وفى قولهم :﴿لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ﴾ [البقرة: ١١١] .وقال العوفى عن ابن عباس فى قوله : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ﴾، وذلك أن اليهود قالوا : إن أبناءنا توفوا ، وهم لنا قربة ويشفعون لنا ويزكوننا ؛ فأنزل الله على محمد : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ﴾ الآية. وعن ابن عباس : كان اليهود يقدمون صبيانهم يصلون بهم . ويقربون قربانهم ويزعمون أنهم لا خطايا لهم ولا ذنوب .وكذبوا ؛ قال الله=

إذن. . الإنسان منهى عن أن يزكى نفسه[1]، والتزكية تقتضى تطهير النفس من العيب، فماذا إن كانت التزكية حقاً؛ أممنوع على الإنسان أن يزكى نفسه؟ إن التزكية التى قاموا بها لأنفسهم كأهل كتاب كانت تزكية باطلة، فليس لله أبناء، وليس صحيحًا أن الجنة لن يدخلها إلا هم.

إذن. . نعرف هنا أن الممنوع هو أن يزكى الإنسان نفسه بالباطل، لكن إذا كانت التزكية بحق، وتطلب فى وقت من الأوقات التى لا تحتمل التجربة، مثال ذلك: عندما تركب جماعة زورقاً، ويكون القائد -الذى يجدف أو يمسك الشراع- متوسط الموهبة، ثم قامت عاصفة فإن ذلك القائد لن

= إنى لا أطهر ذا ذنب بآخر لا ذنب له؛ وأنزل الله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ﴾.

وقيل: نزلت فى ذم التمادح والتزكية. [تفسير ابن كثير: ١/ ٤٨٤، ٤٨٥]

(١) عن أبى بكرة قال: مدح رجل رجلا عند النبى ﷺ فقال: «ويحك قطعت عنق صاحبك، قطعت عنق صاحبك - مرارًا - إذا كان أحدكم مادحًا صاحبه لا محالة، فليقل: أحسب فلانًا، والله حسيبه. ولا أزكّى على الله أحدًا، أحسبه، إن كان يعلم ذاك كذا وكذا». أخرجه مسلم [٣٠٠٠ / ٦٥].

وعن أبى معمر قال: قام رجل يثنى على أمير من الأمراء، فجعل المقداد يحثى عليه التراب، وقال: «أمرنا رسول الله ﷺ أن نحثى فى وجوه المداحين التراب».
أخرجه مسلم [٣٠٠٢/٦٨]

وعن خارجة بن زيد بن ثابت أن أم العلاء - امرأة من الأنصار بايعت النبى ﷺ - أخبرته أنه اقتسم المهاجرون قرعة، فطار لنا عثمان بن مظعون فأنزلناه فى أبياتنا، فوجع وجعه الذى توفى فيه، فلما توفى وغسل وكفن فى أثوابه دخل رسول الله ﷺ، فقلت: رحمة الله عليك أبا السائب، فشهادتى عليك لقد أكرمك الله فقال النبى: «وما يدريك أن الله أكرمه؟» فقلت: بأبى أنت يا رسول الله، فمن يكرمه الله؟ فقال عليه السلام: «أما هو فقد جاءه اليقين والله إنى لأرجو له الخير، والله ما أدرى -وأنا رسول الله- ما يُفعل بى». قالت: فوالله لا أزكى أحدًا بعده أبدًا.
أخرجه البخارى [١٢٤٣، ٢٦٨٧، ٣٩٢٩، ٧٠٠٣].

يقوى على قيادتها، هنا يتقدم إنسان يفهم فى قيادة الزوارق أثناء العواصف، ويقول لمتوسط الموهبة: ابتعد عن القيادة فأنا أكثر فهماً منك، ويزحزحه ويمسك القيادة بدلاً منه. فهذه تزكية للنفس مطلوبة؛ لأن الوقت ليس وقت تجربة، وهو يزكى نفسه بحق؛ لأن العمل الذى يقبل عليه سيفضحه، فإن لم تستقر المسائل على حُسْن قيادة فلسوف يفضح نفسه.

وهذا لون من تزكية النفس بالحق، أما تزكية النفس بالباطل فهى كتزكية بنى إسرائيل لأنفسهم. والحق سبحانه وتعالى حين يضرب الأمثال للناس فهو يختار من حياتهم ما يقرب المعانى لهم؛ لذلك يعطى المثل المعنوى بأمر محسوس.

ويقول الحق تعالى: ﴿وَلا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾ أى: أنه سبحانه منزه عن ظلم عبد من العباد، ولو بقدر بسيط، والفتيل: هو الجزء البسيط المتبقى من التمرة فى النواة، لقد ضرب الله بالنواة مثلا حتى يقرب لنا المعانى[1].

ويقول تعالى: ﴿انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ٥٠] إن الآية تبدأ بفعل أمر هو ﴿انظُرْ﴾، وهو أمر من الله لرسوله ﷺ، وكل خطاب لرسول الله ﷺ خطاب لأمته، والافتراء: هو الكذب المتعمد[2]، لقد افتروا الكذب على الله عندما أرادوا تزكية أنفسه.

---

(١) قال ابن الجوزى: وفى الفتيل قولان:
أحدهما: أنه ما يكون فى شق النواة. رواه عكرمة.
والثانى: أنه ما يخرج بين الأصابع من الوسخ إذا دلكن. رواه العوفى.
[زاد المسير: ٢/١٣٧]

(٢) الفرية: الكذب. فَرَى كذبًا فَرْيًا وافتراه: اختلقه. ورجل فَرِىّ ومِفْرىً وإنه لقبيح الفِرْية؛ عن اللحيانى. الليث: يقال فرى فلان الكذب يفريه إذا اختلقه، والفِرْية من الكذب. وقال غيره: افترى الكذب يفتريه: اختلقه. وفى التنزيل العزيز: ﴿أَمْ يَقُولُونَ=

وقالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ [المائدة: ١٨] وقالوا : ﴿لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ﴾ [البقرة: ١١١] .

لقد افتروا الكذب، وكفى بذلك إثمًا مبينا. لماذا ؟ لأن الإنسان إن كذب على مثله ممن قد يصدقة، فهذا أمر قد يتوقعه بعض الناس من الكذاب، لكن أن يكذب إنسان ويدعى أنه ينقل عن الإله سبحانه وتعالى، فهذا منتهى القبح، إن الكذب بين البشر هو الإثم، لكن الكذب المبين هوالافتراء بالادعاء نقلاً عن الله .

= افْتَرَاهُ﴾ [هود:٣٥] أى: اختلقه. وفرى فلان كذا إذا خلقه، وافتراه : اختلقه، والاسم الفرية . [لسان العرب : ١٥/ ١٥٤]

* وقالوا : لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة *

قال تعالى : ﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٨٠] إن «المس» فى اللغة هو اقتراب شىء من شىء آخر دون أن يحس أحدهما بالآخر، كأن يضع إنسان يده على يد إنسان آخر برهة وجيزة للغاية، لا يحس فيها الاثنان بأية درجة من حرارة الجلد أو نعومة البشرة ، هذا هو «المس»، إنه اقتراب سريع دون إدراك.

أما اللمس فهو مختلف. إن اللمس فيه الإدراك ، وهو يعنى أن هناك فترة زمنية يتم فيها اقتراب شيئين بما يجعل كل شىء يحس بالحرارة أو البرودة أو النعومة أو الخشونة(١).

وهكذا نكتشف عجز هؤلاء المحرفين لكلام الله عن إدراك واقعهم ومصيرهم. إنهم يخادعون أنفسهم فيتخيلون أن النار لن تمسهم، رغم أنهم سيغمسون فيها،وخداعهم لأنفسهم يتمثل فى تخيلهم قصر المدة التى سيقضونها فى النار، إنهم يتخيلون أن بقاءهم فى النار إنما يكون لأيام معدودة.

(١) اللمس : الجس ، وقيل : اللمس : المس باليد، لمسه يَلْمِسه ويَلْمُسه لمسًا ولامسه . وقال ابن الأعرابى : لمسته لمسًا ولامسته ملامسة ، ويفرق بينهما فيقال : اللمس قد يكون مسَّ الشىء بالشىء ، ويكون معرفة الشىء ، وإن لم يكن ثمَّ مسّ لجوهر على جوهر ، والملامسة أكثر ما جاءت من اثنين .
والمسّ : مسّك الشىء بيدك . ويقال : مسست الشىء أمسّه مسًا : إذا لمسته بيدك.
[لسان العرب : ٦/٢٠٩-٢١٨]

وهكذا يوضح القرآن عدم قدرتهم على الإدراك.

إن «المس» لا يمكن أن يتطلب أياما معدودة، إنما يتطلب جزءًا أقل من الثانية، فما بالهم حتى بالبقاء فى النار أياما معدودة؟ إنه انصهار فى النار وليس مجرد مس، ولنا أن نعرف أنهم تَقَوَّلوا على الله بغير علم فى تصورهم لما سوف يحدث لهم فى الآخرة، إنهم يقولون: ﴿**لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً**﴾..

والشيء إذا قيل عنه: إنه «معدود»، فالمقصود بذلك أنه قليل أما الشيء الذى لا يحصره العدد فهو كثير، ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿**وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ [النحل: ١٨]. ﴿**إِن**﴾ حرف يأتى فى مقدمة هذه الآية للشك فى قدرة الإنسان على أن يحصى نعم الله عليه، فلا أحد له طاقة على حصر شيء هو فوق الحصر، ونعم الله فوق كل حصر.

إن بنى إسرائيل الذين نزلت فيهم هذه الآية لم يفهموا طبيعة العذاب الذى سوف يحيق بهم. قال بعض المفسرين: إن المقصود بأن عذابهم لن يستمر إلا أياما معدودة، المقصود به هو المدة التى عبد فيها بنو إسرائيل العجل، وكأنهم ظنوا أن عذابهم لن يكون إلا على خطأ عبادة العجل، ونسوا أن التحريف فى التوراة أمر شديد الإثم؛ لأنه يترتب عليه فساد وإفساد فى الكون(١).

---

(١) قال ابن الجوزى فى تأويل قول الله تعالى: ﴿**أَيَّامًا مَّعْدُودَةً**﴾ عنوا بهذه الأيام قولان:

أحدهما: أنهم أرادوا أربعين يومًا، قاله ابن عباس وعكرمة، وأبو العالية، وقتادة، والسدى. ولماذا قدروها بأربعين؟ فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أنهم قالوا: بين طرفى جهنم مسيرة أربعين سنة، ونحن نقطع مسيرة كل سنة فى يوم، ثم ينقضى العذاب وتهلك النار، قاله ابن عباس. =

ويأمر الحق تعالى رسوله ﷺ أن يقول لهم فى قرآن يتلى إلى يوم القيامة شاهدًا على افترائهم وكذبهم : ﴿ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ ﴾[البقرة: ٨٠] وبالطبع لم يكن عندهم عهد من الله ؛ ذلك أن مسألة الجزاء وتحديد ميعاد الجزاء لا يكون إلا من المجازى، والحق تبارك وتعالى لم يعط عهدًا إلا لمن يتبعون منهجه ولا يمكن أن يعطى الله عهدا لمن غيرّوا وحرفوا فى منهجه وكلماته (١).

ولذلك يأمر رسوله أن يقول لهم: ﴿ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾

= والثانى : أنهم قالوا: عتب علينا ربنا فى أمر ، فأقسم ليعذبنا أربعين ليلة، ثم يدخلنا الجنة، فلن تمسنا النار إلا أربعين يومًا تحلة القسم ، وهذا قول الحسن وأبى العالية.

والثالث : أنها عدد الأيام التى عبدوا فيها العجل، قاله مقاتل.

والقول الثانى : أن الأيام المعدودة سبعة أيام؛ وذلك لأن عندهم أن الدنيا سبعة آلاف سنة، والناس يعذبون لكل ألف سنة يومًا من أيام الدنيا، ثم ينقطع العذاب، قاله ابن عباس. [زاد المسير : ١/ ٩١ ، ٩٢]

(١) قال السمرقندى فى قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا ﴾ قال الزجاج : معناه أعهد إليكم الا يعذبكم إلا هذا المقدار إن كان لكم عهد، ﴿ فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ ﴾ أى: وعده . ويقال : أعقدتم عند الله عقدًا وهو عقد التوحيد، فلن يخلف الله عهده ، أى وعده . وقد قيل : هل أنزل عليكم بذلك آية : ﴿ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ أى : بل تقولون على الله ما لا تعلمون . وروى فى الخبر : أنهم إذا مضت عليهم فى النار تلك المدة قالت لهم الخزنة يا أعداء الله ذهب الأجل وبقى الأبد ، فأيقنوا بالخلود(١) . [بحر العلوم : ١/ ١٣٣]

---

(١) ذكر ابن كثير فى تفسيره [١/ ١١٣] ، والطبرى فى تفسيره [١/ ٣٨٢] عن عكرمة قال : خاصمت اليهود رسول الله ﷺ فقالوا : لن ندخل النار إلا أربعين ليلة ، وسيخلفنا فيها قوم آخرون- يعنون محمدًا ﷺ وأصحابه - فقال رسول الله ﷺ بيده على رؤوسهم : «بل أنتم خالدون مخلّدون لا يخلفكم فيها أحد » ؛ فأنزل الله جل ثناؤه : ﴿ وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ﴾.

إن رسول الله يفضح اختلاقهم وهم يعلمون أنهم يختلقون ذلك الكذب، ويعرفون أنهم كاذبون، والحق جل وعلا الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور، يعلم كذبهم.

وإذا أراد أى من المكذبين أن يستخدم مهارة لَيِّ الحقائق وتغيير الأمور فهو أولا وأخيرا يعرف كذبه، ويعرف إفك حديثه؛ ولذلك قال النبى ﷺ: «إنما أنا بشر، وإنكم تختصمون إلىَّ، ولعل أحدكم ألحن بحجته فأقضى له، فمن قضيت له بشىء من حق أخيه فلا يأخذه، فإنما أقطع له قطعة من النار» (١) .

إن النبى ﷺ يعلم أن المواهب التى وهبها الله للبشر قد يسخرها البعض فى أمور كذب،أو ضلال،أو نشر زور،أو بهتان،بل إن البعض قد يستخدمها فى اقتناص ما ليس له،وقد يلجأ إلى الرسول ليقضى له فى أمر،أو حق ليس له ويستخدم ما حباه الله به من ذكاء أو طلاقة لسان؛ لإثبات ذلك فيقضى له الرسول،لذلك نجد الرسول ﷺ يحذر أصحابه من ذلك؛لأن الذى يأخذ شيئاً ليس له فإنما يأخذ قطعة من نار.

إن الرسول يعلمنا أنه ليس لأحد أن يستخدم ما وهبه الله من قدرة على الإقناع ،أو موهبة ما فى أخذ ما ليس له،أو الدعوة إلى أمر يغضب الله .

إن الكاذب يعرف أنه كاذب،لكن الأمر يختلف بالنسبة للمكذوب عليه. إن المكذوب عليه قد يصدق الكاذب فترة إلى أن يفضح الله ذلك الكاذب .

---

(١) عن أم سلمة قالت : قال رسول الله ﷺ : « إنكم تختصمون إلىّ ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض ، فأقضى له على نحو مما أسمع منه ، فمن قطعت له من حق أخيه شيئًا فلا يأخذه ، فإنما أقطع له به قطعة من النار » .
أخرجه البخارى [٢٦٨٠، ٧١٨١] ، ومسلم [١٧١٣/ ٤، ٦] واللفظ له .

إن الحق جل وعلا أنزل ذلك القول الحكيم؛ لمنع كل كذاب أو مضلل عن الضلال، وليعود كل إنسان غلبه الهوى إلى مسيرة الحق.

إن الحق يوضح الأمر بشكل قاطع، ويبين أن كل إنسان عليه أن يختار بين منهج الله أو منهج البشر، فمن اختار منهج الله فقد ألزم نفسه الطاعة، ومن كفر بمنهج الله فله عذاب شديد على كفره وعصيانه، أما أن يأخذ الإنسان من تكاليف الحق مجالا للكذب، فذلك له عقاب شديد؛ والويل له مما يكسب من الكذب، والويل له مما يكتب من كذب على الله، والويل له من ضلال ما يكسب فى الدنيا.

وإذا خيل لأحد من المضلين أنه لن يلقى العذاب الرادع ، فذلك وَهْم يسوقه الشيطان؛ ليزين لأهل الضلال ضلالهم، فليس هناك عهد بين الله وبين المضلين، وإذا استخدم المضلون ما وهبهم الله من مواهب فى إضلال الناس، فذلك مصيره إلى زوال .

ولنا أن نسأل: ولماذا كان هذا الإيضاح حازما؟ والإجابة من الزمن الذى نزل فيه القرآن.

كان هناك أميون لا يعلمون من أمور الكتب السماوية شيئاً ،وكان هناك العامة الذين لم تتح لهم فرص الحياة التعمق فى طلب الهدى الإيمانى، واكتفوا بما ينقله إليهم رجال الدين من أحبار وكهنة ؛ لذلك كان لابد أن يوضح الحق بالحسم والحزم أن كل من له صلة بعامة الناس، وعليه مهمة إبلاغهم بمنهج الله، لابد أن يكون جديرا بالإبلاغ عن الله، لا يحرِّف كلام الله، ولا يظن ظان أن أى كسب يناله من التحريف سيكون له منفعة ، حاشا وكلا ، بل سيكون ضرره والعقاب عليه شديد فى الدنيا والآخرة.

إن النبى محمدا ﷺ قد فضح هؤلاء القوم حينما أوضح لهم إفكهم

وكذبهم على الله تعالى، وأنهم لا يملكون عهدا من عنده سبحانه، ودعواهم بأن النار لن تمسهم إلا أياما معدودة، دعوى باطلة كاذبة ، والصحيح : ﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾[البقرة: ٨١] إن ﴿ بَلَىٰ ﴾حرف جواب تأتى لتناقض ما قبلها، وهى فى موضعها هنا توضح النفى لتصور الذين يحرفون منهج الله(١) . هذا التصور القائل بأنه لن تمسهم النار إلا أياما معدودة، وتنفى وجود عهد بين الله تعالى، وبين المحرفين لمنهج الله، إن هؤلاء كسبوا السيئة؛ سيئة الخروج عن منهج الله أو سيئة الشرك بالله تبارك وتعالى. هؤلاء تحيط بهم خطاياهم وهم خالدون فى النار .

إن القرآن الجامع الناسخ لما قبله من التشريعات السماوية التى حرفها القائمون على الدعوة لها، يأتى بالحكم النهائى فى مثل ذلك الموقف، إن النار تفرح بهؤلاء الذين حرفوا منهج الله، إنهم أصحاب النار الذين تعشقهم ، وتقول عنهم وعن أمثالهم : هل من مزيد.

إن صُحبتهم للنار فيها تجاذب متبادل، هم مغموسون فيها بأمر الحق

(١) قال القرطبى قوله تعالى : ﴿ بَلَىٰ ﴾ أى ليس الأمر كما ذكرتم . قال سيبويه : ليس ﴿ بَلَىٰ ﴾ و«نعم» اسمين. وإنما هما حرفان مثل «بل» وغيره؛ وهى رد لقولهم : ﴿ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ ﴾ وقال الكوفيون : أصلها بل التى للإضراب عن الأول ، زيدت عليها الياء ليحسن الوقف، وضمنت الياء معنى الإيجاب والإنعام. فـ «بل» تدل على رد الجحد ، والياء تدل على الإيجاب لما بعد . قالوا: ولو قال قائل : ألم تأخذ دينارا؟ فقلت : نعم ؛ لكان المعنى: لا ،لم آخذ؛ لأنك حققت النفى وما بعده. فإذا قلت : بلى ؛ صار المعنى قد أخذت . قال الفراء : إذا قال الرجل لصاحبه : مالك على شىء ؛ فقال الآخر : نعم؛ كان ذلك تصديقا؛ لأن لا شىء له عليه، ولو قال: بلى ، كان ردًا لقوله ، وتقديره : بلى لى عليك.

[تفسير القرطبى : ٢/ ١١ ، ١٢]

سبحانه، وهى تعذبهم ؛ لأنها تؤدى المهمة التى من أجلها خلقها الله تعالى. إن من يكسب مثل هذه السيئة - وهى التحريف فى منهج الله - بدعوى أن هناك عهدا بينه وبين الله، ذلك العهد مكذوب؛ لأن الله لايعاهد إلا المؤمنين المتبعين لطاعة منهجه. إن الذى يكسب سيئة من هذا النوع تحيط به وتحاصره خطيئته من كل اتجاه، فيكون كمركز الدائرة ، لا يجد من خطيئته منفذا؛ لذلك كان أنسب فهم لقول الحق: ﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُوْلَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ هو الشرك بالله(١) ؛ذلك أن الشرك بالله هو السيئة التى لو أحاطت بالإنسان فلا فكاك له من النار، ومصداق ذلك من كتاب الله سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ [النساء:٤٨] إن الذين أحاطت بهم سيئة التحريف فى منهج الله، ويصرون على ذلك التحريف ابتغاء كسب ثمن قليل، فمأواهم فى النار خالدين فيها؛ لأن خطيئتهم قادتهم إلى الشرك بالله، بدليل أنهم خالدون فى النار ، وذلك يعنى أنهم وصلوا إلى ذروة الكفر، أما أصحاب الصغائر من الذنوب فقد يتجاوز عنها الله سبحانه، أو قد تكَفِّرها حسناته ، أو يُعذَّب العذاب المحدد لعمله ، ثم بعد ذلك يدخله الله الجنة (٢).

(١) قال الماوردى : وقوله :﴿مَن كَسَبَ سَيِّئَةً﴾ اختلفوا فى السيئة ها هنا على قولين :
أحدهما : أنها الشرك ، وهذا قول مجاهد.
والثانى : أنها الذنوب التى وعد الله تعالى عليها النار ، وهذا قول السدّى .
[تفسير الماوردى: ١/١٥٣]

(٢) عن أبى هريرة أن الناس قالوا : يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ فقال رسول الله ﷺ : «هل تضارون فى القمر ليلة البدر ؟» قالوا : لا يا رسول الله، قال: «فهل تضارون فى الشمس ليس دونها سحاب؟» قالوا: لا، يا رسول الله. قال : «فإنكم ترونه كذلك، يجمع الله الناس يوم القيامة فيقول :من كان يعبد شيئًا فليتبعه، فيتبع=

= من كان يعبد الشمس الشمس، ويتبع من كان يعبد القمر القمر، ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت، وتبقى هذه الأمة فيها شافعوها أو منافقوها» شك إبراهيم «فيأتيهم الله فيقول: أنا ربكم فيقولون : هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا، فإذا جاء ربنا عرفناه، فيأتيهم الله فى صورته التى يعرفون، فيقول : أنا ربكم فيقولون : أنت ربنا، فيتبعونه ويضرب الصراط بين ظهرى جهنم، فأكون أنا وأمتى أول من يجيزها ، ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل ودعوى الرسل يومئذ، اللهم سَلِّم سَلِّم، وفى جهنم كلاليب مثل شوك السعدان(١)، هل رأيتم السعدان»؟ قالوا: نعم يا رسول الله قال : «فإنها مثل شوك السعدان، غير أنه لا يعلم قدر عظمها إلا الله ، تخطف الناس بأعمالهم ، فمنهم الموبق بقى بعمله أو الموثق، ومنهم المخردل أو المجازى أو نحوه، ثم يتجلّى حتى إذا فرغ الله من القضاء بين العباد وأراد أن يخرج برحمته من أراد من أهل النار أمر الملائكة أن يُخرجوا من النار مَنْ كان لا يشرك بالله شيئًا ، ممن أراد الله أن يرحمه ممن يشهد أن لا إله إلا الله، فيعرفونهم فى النار بأثر السجود؛ تأكل النار ابن آدم إلا أثر السجود؛ حرَّم الله على النار أن تأكل أثر السجود، فيخرجون من النار قد امتحشوا(٢)، فيُصبُّ عليهم ماء الحياة، فينبتون تحته كما تنبت الحبة فى حميل السيل(٣)، ثم يفرغ الله من القضاء بين العباد ويبقى رجل مقبل بوجهه على النار هو آخر أهل النار دخولاً الجنة، فيقول: أى: رب اصرف وجهى عن النار، فإنه قد قشبنى(٤) ريحها وأحرقنى ذكاؤها(٥)، فيدعو الله بما شاء أن يدعوه، ثم يقول الله: هل عسيت إن أعطيت ذلك أن تسألنى غيره؟ فيقول: لا وعزتك لا أسألك غيره، ويعطى ربه من عهود ومواثيق ما شاء، فيصرف الله وجهه عن النار، فإذا أقبل على الجنة ورآها سكت ما شاء الله أن يسكت، ثم يقول: أى رب قدّمنى إلى باب الجنة، فيقول=

(١) السعدان : جمع سعدانة ، وهو نباتٌ ذو شوك يُضرب به المثل فى طيب مرعاه .

(٢) أى : احترقوا . والمحش : احتراق الجلد وظهور العظم .

(٣) ينبتون نبات الحبة : بذور الصحراء والجمع : حبب . وهو فى الأصل: كل ما حمله السيل من عيدان وورق وبذور . والمراد به هنا : ما حمله من البذور خاصة .

(٤) قال الخطابى : قشبه الدخان إذا ملأ خياشيمه وأخذ يكظمه ، وأصل القشب خلط السم بالطعام ، يُقال : قشبه إذا اسمَّه ثم استعمل فيما إذا بلغ الدخان والرائحة الطيبة منه غايته .

(٥) ذكاؤها : أى كثر لهبها واشتد اشتعالها ووهجها .

[فتح البارى : ١٣/ ٢٨٢، ٢٨٧، ٢٨٨، ٢٨٩]

وكأن المراد هنا أن هؤلاء القوم المحرفين لمنهج الله، والذين كتموا البشارة برسول الله ﷺ فى التوراة، قد قصدوا بذلك الكفر برسالة رسول الله، ورسالة رسول الله ليس منشئها محمد، إنما الذى أرسله هو الله، وما محمد إلا رسول مبلغ لكلام الله ، فمن يكفر بهذه الرسالة إنما هو كافر بالله جل وعلا. إن المنهج الذى جاء به رسول الله هو منهج قد نسخ كل الشرائع السابقة، وأصبح منهجًا جامعًا ناسخًا مانعًا خاتمًا، ومن يُحرِّف فى هذا المنهج، فإن الخطيئة تحيط به من كل جانب، ولنا أن نفرق بين إنسان ارتكب معصية، ولكنه يعلم أن الكسب بهذه المعصية موقوت، وأن نفسه قد غلبته، فهو يندم ويكره أن يعود إلى هذه المعصية. وآخر يرتكب معصية دون أن يعرف أنها معصية، وساعة يعرف أن ما فعله كان من المعاصى، يسرع إلى الندم والتوبة، ولا يعود إلى المعصية مرة أخرى أبدًا، وذلك قول الحق جل وعلا: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ

= الله له: ألست قد أعطيت عهودك ومواثيقك أن لا تسألنى غير الذى أعطيت أبدا؟ ويلك يا ابن آدم ما أغدرك فيقول: أى رب ويدعو الله حتى يقول : هل عسيت إن أعطيت ذلك أن تسأل غيره؟ فيقول : لا وعزتك لا أسألك غيره ، ويعطى ما شاء من عهود ومواثيق فيقدمه إلى باب الجنة، فإذا قام إلى باب الجنة انفقهت(1) له الجنة فرأى ما فيها من الحَبْرة والسرور، فيسكت ما شاء الله أن يسكت ثم يقول: أى رب أدخلنى الجنة ، فيقول الله : ألست قد أعطيت عهودك ومواثيقك أن لا تسأل غير ما أعطيت؟ فيقول: ويلك يا ابن آدم ما أغدرك. فيقال: أى رب لا أكوننَّ أشقى خلقك، فلا يزال يدعو حتى يضحك الله منه ، فإذا ضحك منه قال له : ادخل الجنة فإذا دخلها قال الله له: تمنه ، فسأل ربه وتمنى حتى إن الله ليذكره يقول : كذا وكذا حتى انقطعت به الأمانى ، قال الله: ذلك لك ومثله معه».

أخرجه البخارى [٧٤٣٧]

(١) أى : انفتحت واتسعت . [الفائق فى غريب الحديث : ٥٨/٣]

بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً ﴾ [النساء: ١٧].

أما الذى يرتكب معصية ويفرح بها ويكررها؛ ليحصل على الكسب القليل منها، ثم يفرح بهذا الكسب القليل ويدمن المعصية، فذلك فى دائرة الذين قال ،منهم الحق: ﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ ذلك أن من يفرح بالسيئة ويصر عليها، إنما يحيط نفسه بهذه السيئة، فتصبح خطاياه محيطة به، ولا مهرب له منها، ولا نجاة له من النار.

لكن هل يكتفى بالعقاب فقط دون الثواب؟ لا.. إن الحق جل وعلا وهو الودود الرحيم بعباده، المحب لهم، هؤلاء العباد الذين آمنوا بمنهجه تعالى، وكان عملهم دائما فى طاعته سبحانه؛ لذلك كان المقابل للذين الذين آمنوا وعملوا الصالحات: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [البقرة: ٨٢] إن الحق يفرح بعبده المؤمن فيزحزحه عن النار، ويدخله الجنة، فيرى فى الزحزحة عن النار نعمة ولذة، وفى الفوز بنعيم الجنة نعمة أخرى ولذة (١).

---

(١) قال تعالى: ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

وقال ابن كثير: أى من جُنِّب النار ونجا منها وأدخل الجنة؛ فقد فاز كل الفوز.

[تفسير ابن كثير: ١/ ٤١١]

وعن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن موضع سوط فى الجنة لخير من الدنيا وما فيها، اقرءوا إن شئتم: ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾.

أخرجه الترمذى [٣٠١٣] وقال: حديث حسن صحيح، واللفظ له، وأحمد فى المسند [٢/ ٤٣٨]، وابن حبان فى صحيحه [٧٤١٧]، والحاكم فى المستدرك [٢/ ٢٩٩]=

وصححه ، ووافقه الذهبى ، وحسّنه الألبانى فى صحيح الترمذى [٢٤١١].

وعن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال : « فمن أحب أن يُزحزح عن النار ويدخل الجنة، فلتأته منيّته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر ولْيَأْتِ إلى الناس الذى يحب أن يؤتى إليه. . . » جزء من حديث أخرجه مسلم [٤٦/١٨٤٤] .

* بنو إسرائيل فى التيه *

﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾(١) [المائدة: ٢١] إنه بلاغ من موسى بما أوحى الله به إليه، فمتى حدث ذلك؟

نحن نعرف من القصة أن صلة بنى إسرائيل بمصرَ كانت منذ أيام يوسف

(١) قال ابن كثير: قال تعالى مُخْبِرًا عن تحريض موسى عليه السلام لبنى إسرائيل على الجهاد والدخول إلى بيت المقدس الذى كان بأيديهم فى زمان أبيهم يعقوب، لما ارتحل هو وبنوه وأهله إلى بلاد مصر أيام يوسف عليه السلام، ثم لم يزالوا بها حتى خرجوا مع موسى، فوجدوا فيها قومًا من العمالقة الجبارين قد استحوذوا عليها وتملكوها؛ فأمرهم رسول الله موسى عليه السلام بالدخول إليها وبقتال أعدائهم وبشَّرهم بالنصرة والظفر عليهم، فنكلوا وعصوا وخالفوا أمره؛ فعوقبوا بالذهاب فى التيه والتمادى فى سيرهم حائرين لا يدرون كيف يتوجهون إلى مقصد مدة أربعين سنة؛ عقوبة لهم على تفريطهم فى أمر الله تعالى. فقال تعالى مخبرًا عن موسى أنه قال: ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ﴾ أى: المطهرة. وقال سفيان الثورى عن الأعمش عن مجاهد عن ابن عباس فى قوله: ﴿ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ﴾ قال: هى الطور وما حوله، وكذا قال مجاهد وغير واحد. وروى سفيان الثورى عن أبى سعد البقال عن عكرمة عن ابن عباس قال: هى أريحاء، وكذا ذكر عن غير واحد من المفسرين وفى هذا نظر؛ لأن أريحاء ليست هى المقصودة بالفتح ولا كانت فى طريقهم إلى بيت المقدس، وقد قدموا من بلاد مصر حين أهلك الله عدوهم فرعون. اللهم إلا أن يكون المراد بأريحاء أرض بيت المقدس، كما قاله السدى فيما رواه ابن جرير عنه، لا أن المراد بها هذه البلدة المعروفة فى طرف الطور شرقى بيت المقدس . وقوله تعالى: ﴿الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ أى: التى وعدكموها الله على لسان أبيكم إسرائيل أنه وراثة من آمن منكم، ﴿وَلا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ﴾ [المائدة: ٢١] أى: ولا تنكلوا عن الجهاد .

[تفسير ابن كثير: ٢/ ٣٦]

عليه السلام، وعندما جاء يوسف بأبيه وإخوته وعاشوا بمصر، أقاموا شريعةَ بنى إسرائيل، ومكَّن الله ليوسف فى الأرض فعاشوا فى تلك الفترة.

ولم نعرف نحن تلك الأحداث إلا بعد مجيء الحملة الفرنسية على مصر.

إن الحملة الفرنسية عندما جاءت إلى مصر، جاءت معها بعثة علمية، وهذه البعثةُ العلميةُ كانت تنقِّب عن المعلومات الأثرية؛ ليتعرفوا على سر حضارة المصريين، وسر تقدم العرب القديم، الذى سبق أوربا بقرون وأخذت منه أوربا العلوم والفنون، فى حين صار هذا العالمُ العربىُ إلى غفلة. فقد اخترع العرب المسلمون من قبل أشياء ذُهل لها العالم الغربى، ويحكى لنا التاريخ عن هدية من أحد ملوك العرب إلى «شارلمان» ملك فرنسا، وكانت هى الساعة الدقاقة، وظن الناس من أهل فرنسا أن هذه الساعة الدقاقة بها شيطان، وكانت تقوم فكرة الساعة على الماء؛ ذلك أن العَالِم الذى صممها وضع فيها إناء فيه الماء وبه ثقب صغير، تنزل منه قطرة واحدة، وتنزل هذه القطرة بثقلها على شيء يشبه عقرب الساعة، فتتحرك الساعة دقيقة واحدة من الزمن. إنها ساعة تسير بنقطة الماء وكان ضبطها فى منتهى الدقة، وكانت كمية الماء تنتهى عندما تنتهى ساعات النهار. وساعة رآها الناس فى بلاط «شارلمان»، ظنوا أنها ساعة بداخلها شيطان.

وعندما جاء الفرنسيون إلى القاهرة، كان بصحبتهم حملة علمية ومعهم مطبعة، وعرض هؤلاء العلماء الفانوس السحرى، وجعلوا الناس البسطاء يذهلون من تقدمهم العلمى، لقد كانت الحملة العلمية تريد أن تستر عملها الفعلى بعروض أقرب إلى الأكروبات، ولقد كان عمل العلماء هو البحث عن سر حضارة المصريين المسلمين؛ لأنهم يعلمون أن الحضارة الإسلامية انتقلت إلى مصر، بالإضافة إلى حضارة المصريين القدماء، وكانوا يعرضون

ألعابهم السحرية العلمية فى منطقة «درب الجماميز»؛ وذلك حتى ينبهر الناس بالحضارة الفرنسية، وكان علماؤهم فى نفس الوقت يكتشفون حجر رشيد، وهو الحجر الذى اكتشفه ضابط فرنسى شاب اسمه «شامبليون»، وعلى هذا الحجر كتبت الكلمات الهيروغليفية، واستطاع «شامبليون» أن يفصل أسماء الأعلام الهيروغليفية، ومن خلال ذلك استطاع أن يصل إلى أبجدية تلك اللغة .

إن فى كل لغة شيئاً اسمه «الأعلام»، ومثال ذلك أن يوجد اسم رجل، وهذا الاسم مكون من حروف لا تتغير، مثال ذلك نأخذه من اللغة الإنجليزية، لقد كان اسم رئيس وزراء إنجلترا فى وقت من الأوقات هو «تشرشل» ، وهو كلمة إذا ترجمناها ترجمة حرفية لم تدل على صاحبها ولم تُعَرِّفنا به. فنحن عندما نترجمها نكتفى بكتابة الاسم بالحروف العربية بدلاً من اللاتينية.

إذن. . فالأعلام لا يتغير نطقها، وكشف «شامبليون» عن الحروف التى لم تتغير، واهتدى إلى فكِّ طلاسم حروف اللغة الهيروغليفية، فعرف كيف يقرأ المكتوب على حجر رشيد ، واستطاع أن يقدم لنا بدايات اكتشاف تاريخ مصر القديمة ، ولقد استطاع هذا الرجل أن يفك اللغة المرسومة على ذلك الحجر .

عرض لنا القرآن الكريم الحضارات القديمة وقصص الأمم السابقة؛ لنأخذ العبرة والعظة من تاريخهم، وأنهم لما طغوا ، أخذهم الله أخذ عزيز مقتدر؛ يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ

(١) قال السمرقندى فى قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴾ يعنى: ألم تعلم ؟ ويقال: ألم تخبر ؟ واللفظ لفظ الاستفهام والمراد به التقرير، يعنى: فذلك خبر عاد. ﴿ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ يعنى: عاقبة قوم عاد . وقال بعضهم: هما عادان، أحدهما عاد وإرم والآخر هم قوم هود. وقال بعضهم: كلاهما واحد؛ يقال: إرم اسم للجنة التى =

ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ (٨)﴾(١) [الفجر] وإرم ذات العماد هى التى فى الأحقاف فى الجزيرة العربية، ولم نكتشفها بعد ولم نعرف عنها حتى الآن شيئا، وهى التى قال عنها: ﴿الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ﴾ ثم تكلّم بعدها عن فرعون فقال: ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ﴾(١)، والأهرام أقيمت بالفعل على أوتاد وكذلك المسلات المصرية القديمة والمعابد.

إذن.. لابد أن تكون حضارة عاد حضارة قوية، وهى أقوى من حضارة

= بناها فمات قبل أن يدخلها وذكر فيها حكاية طويلة عن وهب بن منبه، ثم قال: ﴿ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ يعنى الفساطيط والعمود عمود الفسطاط ﴿الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ﴾ يعنى: فى القوة والطول، ويقال: ﴿ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ يعنى: ذات القوة، ويقال: ﴿ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ يعنى: دائم الملك طويل العمر، ويقال: ذات العماد أى ذات البناء الرفيع. وروى أسباط عن السدى قال: عاد ابن إرم فنسبهم إلى أبيهم الأكبر كقولك: بكر بن وائل ويقال: لا ينصرف إرم؛ لأنه اسم قبيلة: وقال مقاتل: ذات العماد يعنى طولها اثنا عشر ذراعًا ﴿الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ﴾ فى الطول والقوة، وإرم اسم أب قبيلة ينسب إليهم وهو إرم بن سمك بن نسمك ابن سام بن نوح عليه السلام. وقال الكلبى: ذات العماد يعنى: كانوا أهل ذات عمود وماشية، فإذا هاج العمود، يعنى: يبس العشب رجعوا إلى منازلهم. ويقال: عاد وإرم شىء واحد. [بحرالعلوم: ٣٠/ ٤٧٦]

(١) قال أبو الحسن النيسابورى: قال المفسرون: كانت له أوتاد يعذب الناس عليها؛ وذلك أنه كان إذا غضب على أحد وتد يديه ورجليه ورأسه على الأرض. وقال عطية: ذو الجنود والجموع الكثيرة، يعنى: أنهم كانوا يقوون أمره ويشددون ملكه، كما يقوى الوتد الشىء. وقيل: ذو الملك الشديد الثابت كما قال الأسود (١):

فى ظل ملك ثابت الأوتاد (٢)

[الوسيط فى تفسير القرآن: ٣/ ٥٤١]

(١) الأسود: هو الأسود بن يعفر وهو شاعر جاهلى من بنى حارثة بن سلمى بن جندل بن نهشل ابن دارم وكنيته: أبو الجراح. انظر الشعر والشعراء [رقم ٢٠ص ٢٥٥] لابن قتيبة.

(٢) البيت فى غريب القرآن [٣٧٧]، والبحر المحيط [٧/ ٣٨٦]، والجامع لأحكام القرآن [١٥/ ١٥٥]، والمُفَضَّلِيَّات [٢١٧]، والكشاف [٣/ ٣٦٢]، ومعالم التنزيل[٤/ ٤٩].

فرعون؛ بدليل أنه قال: ﴿ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ ﴾ .

ثم جاء بحضارة ثمود، فقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴾ (1) [الفجر: ٩] .

وقد رأينا فى هذه الحضارة أنهم كانوا ينحتون البيوت فى الصخر، كما رأينا حضارة مصر. وحضارة عاد هى التى لم نرها حتى الآن، ولابد أن تكون مطمورة تحت الأرض، ونحن نعرف أن الهبة الرملية الواحدة عندما تهب فى تلك المناطق تطمر القافلة كلها، فما بالنا بالقرون الطويلة التى مرت وهبت فيها آلاف العواصف الرملية. إذن. . لابد أن ننقب كثيرا؛ لنكتشف حضارة عاد .

الحق سبحانه تكلم عن حضارة مصر القديمة فقال: ﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ ﴾، وقال لموسى عليه السلام: ﴿ اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴾ [طه: ٤٣] ولكنه سبحانه لمَّا تكلَّم عن رأس الدولة فى أيام يوسف عليه السلام قال:

---

(1) قال القرطبى: ثمود: هم قوم صالح، و﴿ جَابُوا ﴾ قطعوا، ومنه: فلان يجوب البلاد أى: يقطعها. وإنما سمى جيب القميص لأنه جِيبَ؛ أى قطع .
قال المفسرون: أول من نحت الجبال والصور والرخام: ثمود. فبنوا من المدائن ألفًا وسبعمائة مدينة كلها من الحجارة. ومن الدور والمنازل ألفى ألف وسبعمائة ألف، كلها من الحجارة. وقد قال تعالى: ﴿ وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ ﴾ . وكانوا لقوتهم يُخرجون الصخور، وينقبون الجبال، ويجعلونها بيوتا لأنفسهم ﴿ بِالْوَادِ ﴾ أى بوادى القرى؛ قاله محمد بن إسحاق. وروى أبو الأشهب عن أبى نضرة قال: أتى رسول الله ﷺ فى غزاة تبوك على وادى ثمود، وهو على فرس أشقر، فقال: « أسرعوا السير، فإنكم فى وادٍ ملعون ». وقيل: الوادى بين جبال، وكانوا ينقبون فى تلك الجبال بيوتا ودورًا وأحواضًا. وكل منفرج بين جبال أو تلال يكون مسلكا للسيل ومنفذًا فهو وادٍ .

[تفسير القرطبى: ٢٠/ ٤٧، ٤٨]

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ ﴾ [يوسف:٥٤] .

لم يقل الحق: «فرعون» رغم إنه قبل ذلك قال فرعون، وأيام موسى ذكر فرعون، لكن فى أيام يوسف لم يذكر فرعون، إنما ذكر «الملك»، وعندما تمَّ اكتشاف حجر رشيد ظهر لنا أن فترة وجود يوسف عليه السلام فى مصر، هى فترة ملوك الرعاة، أى: الهكسوس، الذين غزوا مصر، وأخذوا الملك من المصريين، وحكموهم وصاروا ملوكًا؛ وسمى عصرهم بعصر الملوك؛ لذلك قال الحق :﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ ﴾ ولم يأت بذكر فرعون، وعندما جاء الفراعنة، واستردوا ملكهم وطردوا ملوك الرعاة، استبدوا بمن كانوا يخدموا الملوك، وهم بنو إسرائيل، هكذا تتأكد دقة القرآن عندما ذكر فرعون؛ لأنه كان الحاكم أيام موسى، لكن فى زمن يوسف سُمى حاكم مصر باسم الملك، وتلك أمور لم نكتشفها إلا حديثًا. ولكن القرآن عرَّفنا ذلك، وكانت تحتاج إلى استنباط، وتلك تدخل ضمن الآيات التى لا حصر لها فى قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ ﴾ [فصلت: ٥٣] .

إن الحق سبحانه وتعالى بعد أن أيَّد موسى بالآيات، وأنجاه ومن معه وأغرق فرعون، هنا قال موسى لبنى إسرائيل :﴿ يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴾ إن المهمة قد انتهت بتخليص بنى إسرائيل من فرعون، وكانت الدعوة لدخول الأرض المقدسة، وكلمة الأرض فى قصة بنى إسرائيل ذُكرت فى مواضع متعددة، منها قول الله فى آخر سورة الإسراء: ﴿ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الأَرْضَ ﴾ .

فهل هناك سكن إلا الأرض؟ إن أحدًا لا يقول أسكنُ كذا إلا إذا حدد

مكانًا من الأرض؛ لأن السكن بالقطع سيكون فى الأرض، فكيف يأتى القول: اسكنوا الأرض؟ إن الشائع أن يقال: اسكن المكان الفلانى من المدن، مثل: مصر، أو أريحا، أو القدس، لكن لنا أن نعرف أن قول الحق: ﴿اسْكُنُوا الأَرْضَ﴾ هو لفتة قرآنية، فما دام الحق لم يحدد من الأرض مكانًا خاصًا، فكأنه قال: تفرقوا وانساحوا فى الأرض فليس لكم وطن، أى لا توطن لكم أبدا، وستسيحون فى الأرض مُقَطَّعين.

وقد قال الحق: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأَرْضِ أُمَمًا﴾ [الأعراف: ١٦٨] إن كلمة ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ﴾ تفيد أنه جعل بينهم أوصالا لليهود ولكنهم قِطَع أيضا. شاهد ذلك أننا فى كل دولة نجد لليهود حيًا مخصوصًا، ولا يذوبون فى المجتمعات أبدا، ويكون لهم كل ما يخصهم من حاجات يستقلون بها، فكأنهم شائعون ومقطعون فى الأرض، حدث ذلك من بعد موسى عليه السلام لماذا؟ بعد أن أنجاهم الله من فرعون، أمرهم سبحانه: ﴿ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُم﴾ أى بعد رحلتكم مع فرعون، اذهبوا إلى الأرض التى كتبها الله لكم، ونلحظ هنا أن قوله: ﴿الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ﴾ فيه تعيين للأرض، ولكن ما معنى المقدسة؟ المادة كلها تدل على الطهر والتطهير، وقدّس أى طهّر ونزه، ومقدسة يعنى مطهرة[1].

---

(١) التقديس: تنزيه الله عز وجل، وفى التهذيب: القُدْس: تنزيه الله تعالى. والتقديس: التطهير والتّبرك، وتقدّس: أى تطهّر؛ وفى التنزيل: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ الزجاج: معنى نقدس لك: أى نطهر أنفسنا لك، وكذلك نفعل بمن أطاعك نقدّسه أى: نطهّره. ومن هذا قيل للسَّطْل: القَدَسَ لأنه يُتقدَّس منه، أى: يُتطهَّر. ومن هذا بيت المقدس أى: البيت المطهّر، أى: المكان الذى يتطَهَّر به من الذنوب. والأرض المقدسة: المطهَّرة، وقال الفراء: الأرض المقدسة: الطاهرة، وهى دمشق وفلسطين وبعض الأردن ويقال: أرض مقدسه أى: مباركة، وهو قول قتادة، وإليه ذهب ابن الأعرابى. [لسان العرب: ٦/١٦٨، ١٦٩]

والألفاظ حين تأتى تتوارد جميع المادة على معانٍ واحدة؛ ففى الريف المصرى نجد ما نسميه «القدس» أو «القادوس»،وهو الإناء الذى يرفع به الماء من الساقية،«فالقادوس» فى الريف هو وعاء الماء النظيف ، وعندما يقول مقدسة أى مطهرة من الماء الذى كان بالقادوس، فأخذ تسمية المعانى من تسمية المحسات. ومن أسماء الحق «القدوس» ونقول قَدَّس الله أى: نزهه،فالله ذات ليس كذات الإنسان، وله سبحانه صفات فنزّهه أن تكون كصفاتك، وهو سبحانه له أفعال ،ولكن قدّسه وطهره أن تكونَ كأفعالك.

إن ذات الحق واجبة الوجود، وذات الإنسان ممكنة الوجود؛ لأن ذات الإنسان طرأ عليها عدم أول ويطرأ عليها عدم ثان، وهو سبحانه واجب الوجود لذاته والإنسان واجب لغيره، وهو قادر سبحانه أن ينهى وجود العبد ؛ ولله حياة وللإنسان حياة، ولكن..أحياتك أيها الإنسان كحياة الله؟ لا إن حياته سبحانه منزهة،إن ذاته ليست كذاتك أيها الإنسان! وصفاته ليست كصفاتك،فأنت قادر قدرة محدودة،وله سبحانه طلاقة القدرة،وهو سبحانه سميع، والعبد يسمع ، لكن سمع الله لا حدود له، وسمع البشر محدود.

إذن.. تقدست صفاته؛ ولذلك فعندما تسمع أنه سبحانه سميع عليم، فليس سمعه كسمعنا وله فعل غير فعلنا؛ فعندما يقول الحق: إنه فعل، ففعله منزَّه عن فعل البشر؛ لأن البشر من خلق الله وفعل البشر معالجة، ويكون للفعل بداية ووسط ونهاية، ويفرغ من الأحداث على قدر ما فعل الزمن، ونحن نعمل الأشياء فى أزمان متعددة، ويحتاج ذلك ممن يعمل الأشياء إلى قوة، ولكن فعل الحق مختلف إنه فعل بـ «كن» ؛ لذلك قال الحق: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨] أى سبحانه وتعالى منزه عن التعب؛ إنه يقول:

«كن فيكون».

لذلك قلنا فى مسألة الإسراء، إننا يجب أن ننسب الحدث إلى الله لا إلى محمد ﷺ؛حتى نعرف أن الذين عارضوا رسول الله فى مسألة الإسراء كانوا على خطأ؛لقد قالوا له: أنضرب لها أكباد الإبل شهرًا وتدعى أنك أتيتها فى ليلة. إن رسول الله لم يَدَّعِ لنفسه هذا الأمر فهو لم يقل: «سريت من مكة إلى بيت المقدس» حتى تقولوا: «أنضرب إليها أكباد الإبل شهرًا وتدعى أنك أتيتها فى ليلة»، لكن الرسول ﷺ قال: «أسرى بى»، أى أنه ﷺ ليس له عمل فى الحدث، والفعل إذن لله، وما دام هو من فعل الله فهو لا يحتاج إلى زمن؛ لذلك كان يجب أن يفهموا على أى شيء يعترضون. ولكن نحن نعرف أن الله سبحانه وتعالى أراد لهم أن يفهموا على تلك الطريقة؛وذلك لأنه سيأتى أناس من المتحذلقين المعاصرين ويقولون: «إن الإسراء كان بالروح». ونقول لهم :

بالله لو قال محمد للعرب: أنا سريت بروحى،أكانوا يكذبونه؟! تماما مثلما يقول لنا قائل: أنا كنت فى نيويورك الليلة ورأيتها فى المنام، فهل سيكذبه أحد؟ إذن لقد كذبه العرب؛ لأنهم فهموا أنه سرى بمعنى كامل الإسراء بالجسد والروح معًا. والدليل على ذلك أنهم قارنوا فعلا بفعل وحدثًا بحدث ونقلةً بنقلة وقالوا قولهم السابق .

لقد جاءت هذه المسألة لتخدم الإسلام، إذن «قدوس» يعنى مطهر ومنزه وساعة ترى شيئاً مخالفاً لقضية العقل أقرِنه بفعل الله، ولا تقرنه بفعلك أنت أيها العبد؛لأن الفعل يتناسب مع قوة الفاعل طردًا أو عسكًا، فإن كان الفاعل صاحب قدرة قوية فزمنه أقل، مثال ذلك نقل أردب من القمح من مكان إلى مكان، فإن كان الذى يحمل الأردب طفلا ، فلن ينقل الأردب إلا قدحاً بقدح،وإن كان رجلاً ناضجا فهو سينقل الأردب كيلة بكيلة،

وإن كان صاحب قوة خارقة قد ينقل الأردب كله مرة واحدة .

إذن . . فالزمن يتناسب مع القوة تناسبا عكسياً ، فإن كثرت القوة قَلَّ الزمن، فهاتِ أى فعل بقدرة الله فلن يستغرق أى زمن.

إذن . . قَدِّسِ الله فى كل شىء ، والأرض المقدسة هى المطهرة، وذلك بتطهير الحق سبحانه. كما أراد سبحانه أن تكون بقعة من الأرض هى الحرم، لا يتم فيها الاعتداء على صيد أو نبات أو اعتداء بعضكم على بعض. إنه سبحانه أراد بقعة من الأرض يأمن فيها الناس فقال : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا﴾ [العنكبوت: ٦٧] أجعل الحرم آمنا إرادة كونية أم إرادة شرعية؟ لو كانت إرادة كونية، فلابد ألا يحدث خلل أبدًا، وألا يعتدى أحد على أحد.

إذن . . ما الفرق بين الكونى والشرعى؟ إن الكونى يقع ولا معارض فى الأمور القهرية . . فالحق حينما يريد أن يكون عبدٌ طويل القامة، فتلك إرادة كونية تحدث، ولا دخل للعبد بها، ولكن إن أراد الحق أن تكون طائعًا مطيعًا له سبحانه ، فتلك إرادة شرعية.

إن الإرادة تكون كونية فيما لا إرادة للإنسان فيه، وواقع رغم أنف الإنسان.

والله سبحانه وتعالى يريد الحرم آمنا وتلك إرادة شرعية؛ لأنه حدث أن أُهِيجَ فيه أُناس ولم يأمنوا ،ولو كانت إرادة كونية لما حدثت أبدًا، إنها إرادة شرعية؛ فإن أطعنا ربنا جعلنا الحرم آمنا وذلك إرادة شرعية .

ولنفرق بين الإرادة الكونية والإرادة الشرعية. فالإرادة الكونية هى ما لا اختيار لنا فيه، والإرادة الشرعية هى ما يصح أن نفعله أو لا نفعله.

﴿الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِى كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ فهل هذه الأرض المقدسة كتبها

الله لهم كتابة كونية أم كتابة شرعية؟ إن كانت كتابة كونية لكان من اللازم أن يدخلوها؛ ولكنه قال: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾ .

إذن.. هى إرادة شرعية وليست إرادة كونية فإن أطاعوا أمر الله، وتشجعوا ودخلوا الأرض المقدسة فإنهم يأخذونها ، وإن لم يطيعوه فهى محرمة عليهم.

إذن.. لا تناقض بين أن يقول سبحانه أنه كتبها، ثم قوله من بعد ذلك إنها محرمة عليهم،لقد كتبها سبحانه كتابة شرعية، فإن دخلوها بشجاعة ولم يخافوا ممن فيها،واستبسلوا ووثقوا أن ربهم إلهٌ قوى سيساندهم، فإنهم سيدخلونها، أما إن لم يفعلوا ذلك فهى محرمة عليهم.

إذن.. هذه إرادة شرعية.

﴿وَلا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ أى إنكم إن ارتددتم على أدباركم انقلبتم خاسرين، فإن أطعتم الله، فستدخلون الأرض وإن لم تفعلوا فلن تدخلوها .

إذن.. كتابة الأرض هنا ليست كونية، ولكنها شرعية، وقول الحق ﴿وَلا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ﴾ هذا القول يبين لنا طبيعة مواجهة الخصم، فالإنسان حين يواجه خصمه فهو يواجهه بوجهه، فإذا فرَّ الخصم من أمامه فالخصم يولى على أدباره ، والتولى على الأدبار يكون على لونين: لون هو الإدبار من أجل أن يتحرف الإنسان، أو يصنع بعدوه مكيدة ؛ ليعيد مواجهة الخصم، ولون آخر هو الفرار، وفى ذلك يقول الحق سبحانه: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [الأنفال: ١٦].

إذن. . فالارتداد على الأدبار ليس مذموما إن كان من أجل حيلة، أو صُنع كمين للعدو، وفى هذه الحالة لا بأس أن يرتد الإنسان؛ أما خلاف ذلك فهو مذموم.

والارتداد على الأدبار هل هو رجوع بالظهر إلى الوراء مع الاحتفاظ بالوجه فى مواجهة الخصم ،أم هو التفات بالوجه ناحية الدبر وفرار من العدو؟

كلا الأمرين صحيح .. وقد جاء الأمر إلى بنى إسرائيل بعدم الفرار؛ ليدخلوا الأرض ، فماذا كان موقفهم ؟

قالوا : ﴿يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ [المائدة: ٢٢] كيف إذن يعلنون هذا التمرد والعصيان، وكيف علموا أن فيها قومًا جبارين؟(١)

إن لنا أن ننتبه إلى أن الحق قد قال من قبل: ﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ [المائدة: ١٢] لقد ذهب النقباء أولا، وتجسسوا ونقَّبوا وعرفوا ما قصة هذه الأرض المقدسة، وعرفوا أن فيها جماعة من العمالقة الكنعانيين. وساعة رأوا هؤلاء القوم قالوا لأنفسهم:وهل نستطيع أن نقاوم هؤلاء الناس؟ إن ذلك أمرًا لا يصدق؛ لذلك لن ندخلها ما داموا فيها.

إذن. فقد تخاذلوا وارتدوا على أدبارهم وقالوا: ﴿يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُون﴾

---

(١) ﴿قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ قال السيوطى : العمالقة . [مفحمات الأقران :٣٩]

وقال ابن جماعة : ﴿قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ هم : قوم عوج بن عنق ، عظماء الأجسام من العمالقة، وكانوا بالمدينة . [غرر التبيان: ٢٤٥]

وانظر تفسير ابن كثير [٢/٣٨] ، جامع البيان للطبرى [٦/ ١٨٥].

وكلمة «جبار» ساعة أن نسمعها فإننا نجدها أمرًا معنويًا، قد أُخذَ من المحسات، فالجبارة هي النخلة إذا طالت وعلت وقصرت الأيدى عن أن تنال أعلاها فهى جبارة(1)؛ ولذلك أخذ هذا المعنى ليعبر عن الذى لا يقهر.

---

(1) الجبّار : الله عز اسمه القاهر خلقه على ما أراد من أمر ونهى . ابن الأنبارى : الجبار فى صفة الله عز وجل الذى لا يُنال ، ومنه جبار النخل . الفراء : لم أسمع فعالاً من أفعل إلا فى حرفين ، وهو جبَّار من أجبرت ، ودرَّاك من أدركت ، قال الأزهرى : جعل جبارًا فى صفة الله تعالى ، أو فى صفة العباد ، من الإجبار وهو القهر والإكراه ، لا من جبر . ابن الأثير : ويقال جبر الخلق وأجبرهم ، وأجبر أكثر. وقيل : الجبَّار العالى فوق خلقه ، وفعَّال من أبنية المبالغة ، ومنه قولهم : نخلة جبارة ، وهى العظيمة التى تفوت يد المتناول . وفى حديث أبى هريرة : «يا أمَةَ الجبار» ! (1) إنما أضافها إلى الجبار دون باقى أسماء الله تعالى ؛ لاختصاص الحال التى كانت عليها من إظهار العطر والبخور ، والتباهى والتبختر فى المشى . وفى الحديث فى ذكر النار : « حتى يضع الجبار فيها قدمه» ؛ قال ابن الأثير : المشهور فى تأويله أن المراد بالجبار، الله تعالى ، ويشهد له قوله فى الحديث الآخر: «حتى يضع فيها رب العزة قدمه »(2)؛ والمراد بالقدم : أهل النار الذين قدَّمهم الله لها من شرار خلقه ، كما أن المؤمنين قدمه الذين قدمهم إلى الجنة ، وقيل : أراد بالجبار ههنا المتمرد العاتى ، ويشهد له قوله فى الحديث الآخر : « إن النار قالت : وكلت بثلاثة: بمن جعل مع الله إلهًا آخر ، وبكل جبار عنيد ، وبالمصوِّرين » (3). =

---

(1) جزء من حديث أخرجه أبو داود [٤١٧٤] ، وابن ماجة [٤٠٠٢] ، وصححه الألبانى فى صحيح أبى داود [٣٥١٧].

(2) جزء من حديث أخرجه البخارى [٧٣٨٤] عن أنس بن مالك رضى الله عنه بلفظ : « . . . حتى يضع فيها رب العالمين قدمه . . . » وأخرجه مسلم [٢٨٤٨/٣٧].

(3) أخرجه الترمذى [٢٥٧٤] عن أبى هريرة رضى الله عنه بلفظ : « يخرج عنق من النار يوم القيامة له عينان تبصران وأذنان تسمَعان ، ولسان ينطق ، يقول : إنى وُكّلت بثلاثة : بكل جبَّار عنيد ، وبكل من دعا مع الله إلهًا آخر ، وبالمصوِّرين » وقال : حديث حسن غريب صحيح . وأخرجه أحمد فى المسند [٣٣٦/٢] ، وصححه الألبانى فى صحيح الترمذى [٢٠٨٣].

= والجبار : المتكبر الذى لا يرى لأحد عليه حقًا . يقال : جبارٌ بين الجَبَرية والجِبرية ، بكسر الجيم والباء، والجَبْرِيَّة والجَبْرُوَّة والجَبَرُوَّة والجبُرُوت والجَبَرُوت والجَبُورة والجِبُّورة، مثل الفَرُّوجَة. والجِبْرياء والتَّجْبار: هو بمعنى الكِبْر؛ وانشد الأحمر لمغلّس بن لَقيط الأسدى يعاتب رجلا كان واليًا على أوضاخ :

فإنك إن عاديتنى غَضبِ الحصى عليك وذو الجَبُّورة المتغطرف

يقول : إن عاديتنى غضب عليك الخليقة وما هو فى العدد كالحصى . والمتغطرف : المتكبر . ويروى المتغترف ، بالتاء ، وهو بمعناه .

وتجبرَّ الرجل : تكبرَّ . وفى الحديث : « سبحان ذى الجبروت والملكوت» (١)؛ هو فعلوت من الجبر والقهر . وفى الحديث الآخر : « ثم يكون ملك وجبروت »(٢) أى عتو وقهر . اللحيانى : الجبار المتكبر عن عبادة الله تعالى ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴾ [مريم: ١٤] ؛ وكذلك قول عيسى - على نبينا وعليه الصلاة والسلام: ﴿ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴾ [مريم: ٣٢] أى: متكبرًا عن عبادة الله تعالى . وفى الحديث : أن النبى ، ﷺ ، حضرته امرأة فامرها بأمر فتأبَّت ، فقال النبى ﷺ: «دعوها فإنها جبارة »(٣) أى عاتية متكبرة.والجِبيِّر ، مثال الفِسِّيق : الشديد التَّجَبر. والجبار من الملوك: العاتى، وقيل:كل عاتٍ جبار وجبير.

وقلب جبار:لا تدخله الرحمة . وقلب جبارٌ : ذو كبر لا يقبل موعظة ، ورجل جبار : مسلط قاهر . =

(١) جزء من حديث أخرجه أبو داود [٨٧٣] عن عوف بن مالك الأشجعى رضى الله عنه، وصححه الألبانى فى صحيح أبى داود [٧٧٦] .

(٢) جزء من حديث أخرجه الدارمى فى سننه [٢٠٩٧] عن أبى عبيدة بن الجراح رضى الله عنه، بلفظ : « أول دينكم نُبُوَّةٌ ورحمة ، ثم ملك ورحمة ، ثم ملك أعفر ، ثم ملك وجبروت يُستحلّ فيها الخمر والحرير » .

(٣) اخرجه أبو يعلى فى مسنده [٣٢٧٦] ، والطبرانى فى الأوسط [٨١٦٠] ، وأبو نعيم فى الحلية [٦/ ٢٩١] عن أنس بن مالك رضى الله عنه . وذكره الهيثمى فى المجمع [١/ ١٠٤] وقال : رواه الطبرانى فى الأوسط وأبو يعلى ، وفيه يحيى الحمانى ضعفه أحمد ورماه بالكذب .

فَسُمِّىَ جبارًا، وقد يكون الجبار مُكْرِهًا؛ ولكن على الإصلاح، وفى بلادنا نطلق على من يصلح كسور العظام «المجبراتى»(١).

= قال الله عز وجل : ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ [ق: ٤٥]؛ أى: بمسلط فتقهرهم على الإسلام . والجبار : الذى يقتل على الغضب . والجبّار : القتّال فى غير حق . وفى التنزيل العزيز : ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٠] ؛ وكذلك قول الرجل لموسى فى التنزيل العزيز: ﴿إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ﴾ أى: قتّالاً فى غير الحق ، وكله راجع إلى معنى التكبر .

والجبار : العظيم القوى الطويل ؛ عن اللحيانى . قال الله تعالى : ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ [المائدة: ٢٢]؛ قال اللحيانى : أراد الطول والقوة والعِظَم ؛ قال الأزهرى : كأنه ذهب به إلى الجبار من النخيل وهو الطويل الذى فات يد المتناول . ويقال : رجل جبار إذا كان طويلاً عظيمًا قويًا ، تشبيهًا بالجبار من النخل . الجوهرى : الجبار من النخل ما طال وفات اليد ؛ قال الأعشى :

طريق وجبَّارٌ رِواءٌ أصوله عليه أبابيلٌ من الطيرتَنْعَبُ

ونخلة جبارة: أى عظيمة سمينة . وفى الحديث : «كثافة جلد الكافر أربعون ذراعًا بذراع الجبار»(١) ؛ أراد به ههنا: الطويل ، وقيل : الملك ، كما يقال:بذراع الملك ، قال القتيبى : وأحسبه ملكًا من ملوك الأعاجم كان تام الذراع . ابن سيده : ونخلة جبارة فتية قد بلغت غاية الطول وحملت ، والجمع جَبَّارٌ ؛ قال

فاخرات ضلوعها فى ذُرَاهَا وأناضَ العيدانُ والجبارُ

وحكى السيرافى : نخلة جبارٌ ، بغير هاء . قال أبو حنيفة : الجبار الذى قد ارتقى فيه ولم يسقط كرمه، قال : وهو أفتى النخل وأكرمه .

[لسان العرب : ٤/ ١١٣، ١١٤]

(١) الجَبْر : خلاف الكسر ، جبر العظم والفقير واليتيم يَجْبُرُه جَبْرًا وجُبُورًا وجَبارةً ؛ عن اللحيانى. وجَبَّرهُ فجبر ، يَجْبُرُ جبرًا وجبورًا والمجبر واجتبر وتجبر . ويقال : جَبَّرْتُ الكسير أُجَبِّرُهُ تجبيرًا وجبرته جبرًا ؛ وأنشد : =

(١) جزء من حديث أخرجه أحمد فى المسند [٢/ ٥٣٧] عن أبى هريرة رضى الله عنه بلفظ : «ضرس الكافر مثل أحد وفخذه مثل البيضاء ، ومقعده من النار كما بين قديد إلى مكة ، وكثافة جلده اثنان وأربعون ذراعًا بذراع الجبار » وذكره الهيثمى فى المجمع [١٠/ ٣٩٤] وقال : رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح .وقد يد : موضع قريب من المدينة.

أى أنه يجبر العظام على أن تعود إلى مكانها الطبيعى، وقد يتألم الإنسان من ذلك ، ولكن فى هذا إصلاح لحياة الإنسان.

والجبار اسم من أسماء الله(١)؛ لأنه سبحانه يقهر ولا يُقهر، وقد يجبرنا

= لها رجل مجبرة تَخُبُّ وأخرى ما يُستَّرُهَا وَجَاحُ

ويقال : جبرت العظم جبراً ، وجبر العظم بنفسه جبوراً أى: انجبر ؛ وقد جمع العجاج بين المتعدى واللازم فقال :

قد جبر الدِّينَ الإله فجبَر

واجتبر العظم : مثل انجبر ؛ يقال : جبر الله فلانًا فاجتبر، أى: سَدَّ مفاقره ؛ قال عمرو ابن كلثوم :

مَنْ عَال مِنَّا بَعْدَهَا فلا اجتَبَرَ ولا سَقَى المَاءَ ، ولا رَاءَ الشَّجَرْ

معنى عال: جار ومال ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلا تَعُولُوا ﴾ [النساء: ٣] أى : لا تجوروا وتميلوا . وفى حديث الدعاء : واجبرنى واهْدِنى (١) . اى أغننى ؛ من جَبَرَ الله مصيبته ، أى: ردَّ عليه ما ذهب منه ، أو عوضه عنه. وأصله من جبر الكسر .

وقِدْر إجبارٌ : ضد قولهم قِدْر إكسارٌ ، كأنهم جعلوا كل جزء منه جابرًا فى نفسه ، أو أرادوا جمع قدرٍ جبرٍ ، وإن لم يصرحوا بذلك ، كما قالوا: قدر كسر ؛ حكاها اللحيانى.

والجبائر : العيدان التى تشدها على العظم لتجبره بها على استواء ، واحدتها جَبارة وجَبيرة.

والمُجَبِّرُ : الذى يجبر العظام المكسورة . [لسان العرب : ٤/ ١١٤، ١١٥]

(١) ورد اسم الله تعالى « الجبار » فى حديث البخارى الطويل [٧٤٣٩] عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ: « هل تضارون فى رؤية الشمس والقمر ... فيأتيهم الجبار فى صورة غير صورته التى رأوه فيها أول مرة فيقول: أنا ربكم ... » .

---

(١) أخرجه ابن ماجة [٨٩٨] عن ابن عباس رضى الله عنهما بلفظ : « رب اغفر لى وارحمنى واجبرنى وارزقنى وارفعنى » . وصححه الألبانى فى صحيح ابن ماجة [٧٣٢].

سبحانه وتعالى حتى يصلحنا، ويختبرنا بالابتلاء حتى يمحصنا، وتستقيم حياتنا.

إذن. . فالجبار صفة كمال فى الحق؛ لأنه يستعمل جبروته فى قهرالظالمين والمعاندين والمكابرين [1].

---

(١) قال العلامة ابن القيم فى النونية [٢/ ٩٥]:

وكـذلك الجبار من أوصافه ... والجبر فى أوصافه نوعانِ
جبر الضعيف وكل قلب قد غدا ... ذا كسرةٍ فالجبر منه دانِ
والثانى جبر القهر بالعز الذى ... لا ينبغى لسواه من إنسانِ
وله مسمى ثالث وهو العلـ ... ـو فليس يدنو منه من إنسانِ
من قولهم جبَّارة للنخلة العليا ... التى فاتت لكل بنانِ

قال الدكتور محمد خليل هراس فى شرحه لهذه الأبيات : وقد ذكر المؤلف هنا لاسمه «الجبار» ثلاثة معان، كلها داخلة فيه ، بحيث يصح إرادتها منه :

أحدها : أنه الذى يجبر ضَعف الضعفاء من عباده ،ويجبر كسر القلوب المنكسرة من أجله ، الخاضعة لعظمته وجلاله ؛ فكم جبر سبحانه من كسير ، وأغنى من فقير ، وأعز من ذليل ، وأزال من شدة ، ويسر من عسير، وكم جبر من مصاب ، فوفقه للثبات والصبر ، وأعاضه من مصابه أعظم الأجر،فحقيقة هذا الجبر هو إصلاح حال العبد بتخليصه من شدته ودفع المكاره عنه .

المعنى الثانى : أنه القهار ، دان كل شىء لعظمته ، وخضع كل مخلوق لجبروته وعزته ؛ فهو يجبر عباده على ما أراد مما اقتضته حكمته ومشيئته ؛ فلا يستطيعون الفكاك منه .

والثالث : أنه العلى بذاته فوق جميع خلقه ؛ فلا يستطيع أحد منهم أن يدنو منه.

وقد ذكر العلامة الشيخ السعدى رحمه الله أن له معنى رابعًا : وهو أنه المتكبر عن كل سوء ونقص ، وعن مماثلة أحد ، وعن أن يكون له كفوٌ أو ضد أو سمى أو شريك فى خصائصه وحقوقه . اهـ .

[صفات الله عز وجل الواردة فى الكتاب والسنة: ٧٩]

وورد الاسم فى كتب السنة ، وفى القرآن الكريم بلفظه، أى الجبار .

ويحتمل الاسم - فى حق الله تعالى - عدة معان أرجحها :

١- العالى الذى لا يُنال،ومنه يقال : نخلة جبارة إذا طالت وعلت وقصرت الأيدى عن أن تنال أعلاها .

=

أما الجبار كصفة فى الخلق فهى مذمومة؛ لأن التجبر هنا يكون بدون أصالة لماذا ؟ لأن الإنسان ابن أغيار ؛ ساعة تجده فى صحة وعافية وأخرى فى مرض وبلاء ، وساعة تجده غنيًا طاغيًا، وأخرى وقد نفد ماله وبات يسأل الناس ، فهل هذا يصلح لأن يكون جبارًا ؟! بالطبع لا يصلح.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا﴾، ساعة تسمع: ﴿لَن﴾ تسبق الفعل فاعرف أنها نفى تأبيدى، والنفى قد يأخذ زمناً طويلاً، وقد يأخذ زمنا تأبيديًا. والفرق بين الدخول فقط والدخول التأبيدى: أن الدخول الأول له زمن ينهيه، والدخول الثانى لا زمن له لينهيه، كدخول المؤمنين الجنة .وإذا عيَّنَ الدخول بغاية كقولهم: ﴿لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا﴾ أى: أن النفى التأبيدى هنا مرتبط بغاية وهى خروج القوم الجبارين. إن التأبيد هنا إضافى؛ لأنهم قالوا: إنهم لن يدخلوا الأرض فى مدة وجود الجبارين، ﴿فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾، وهنا نقول : هل الأمم التى تخطو إلى الشر وتمارسه، يمتنع فيها وجود عناصر الخير؟ لا، إن الحق يُبقى بعضا من عناصر الخير؛ حتى لا ينطمس الخير، وهذا ما يوضحه الحق فى بنى إسرائيل عندما قالوا لموسى هذا القول، فقد خالفهم رجلان منهم؛ وذلك قول الله تعالى: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ

= ٢- من الجبروت والتكبر ، قال الرازى : وإذا كان الجبروت ، والتكبر فى حق الخلق مذموم فهو ممدوح فى حق الله تعالى؛ لأنه سبحانه فوق كل الجبابرة ،فلا يجرى عليه حكم حاكم ، وإنما الجميع منقادون له .

٣- المصلح للأمور ، من قولهم : جبر الكسر إذا أصلحه ، وجبر الفقير إذا أنعشه.

[أسماء الله الحسنى دراسة فى البنية والدلالة : ٤٧ ، ٤٨]

﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[المائدة: ٢٣]، إنهما رجلان يخافان النكوص عن أمر الله .

إن جموع بنى إسرائيل لم يفهموا عن الله؛ لأن الحق أمرهم بالدخول إلى الأرض المقدسة، ولو أنهم نفذوا أمر الله؛ لمكنهم الله من ذلك، لكن لم يفهم عن الله فيهما إلا رجلان، وهما كالب ويوشع بن نون؛ أحدهما من سبط يهوذا ، والآخر من سبط إفراييم، وهما ابنا يوسف فقد قالا: ما دام الله قد كتب لكم الدخول، فلسوف يعينكم عليه (١).

ذلك أن الإنسان حين يأمره الله بعمل من الأعمال، فيكفيه أن يتوجه إلى العمل اتجاها، والمعونة من الله. إن الحق يقول للعبد فى الحديث القدسى: «أنا عند ظن عبدى بى وأنا معه إذا ذكرنى، فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى، وإن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منهم، وإن تقرَّب

---

(١) قال السيوطى : ﴿قَالَ رَجُلَانِ﴾ : قال مجاهد : هما يوشع بن نون ، وكالب ابن يوفنا أو ابن يوقيا.
وقال السدى : يوشع وكالوب بن يوفنه ختن موسى (١) أخرجه ابن جرير .
قال ابن عساكر : يوشع ابن أخت موسى ، وكالب ابن صهره . واختلف فى اسمه، فقيل : كالب ، وقيل : كالوب ، وقيل : كلاب ، وأبوه قيل: يوفنا ، بالنون بعد الفاء ، وقيل بالياء بعدها . [مفحمات الأقران فى مبهمات القرآن : ٣٩]
وقال ابن جماعة: ﴿قَالَ رَجُلَانِ﴾ هما :يوشع بن نون ، وكالب بن يفنا ، وقيل : رجلان آمنا من الجبارين (٢) . [غرر التبيان : ٢٤٥]

---

(١) قال فى المصباح المنير : والختن - بفتحتين - عند العرب كل من كان من قبل المرأة ، كالأب والأخ ، والجمع : أختان ، وختن الرجل عند العامة : زوج ابنته .
(٢) قال ابن عباس : هما يوشع وكالب ، وقال الضحاك : هما رجلان كانا فى المدينة على دين موسى عليه السلام . [الجامع لأحكام القرآن للقرطبى : ٦/١٢٧]

إلى شبرًا تقربت إليه ذراعا، وإن تقرب إلى ذراعا تقربت إليه باعا، وإن أتانى يمشى أتيته هرولة» (١) .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ فقد أنعم الله على هذين الرجلين بحسن الفهم عن الله، فقالا لبنى إسرائيل: ساعدوا أنفسكم بدخول هذه الأرض وسينصركم الله (٢) .

ومثل الرجلين كمثل الأم التى طلب منها ابنها أن تدعو له بالنجاح فقالت الأم: لابنها سأدعو لك، ولكن عليك فقط أن تساعد الدعاء بالاستذكار. وكأن الخوف من مخالفة أمر الله نعمة على هذين الرجلين، وكأن الفهم عن الله نعمة؛ ﴿ ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ ﴾ كأنهم بمجرد الدخول سيغلبون هؤلاء العمالقة؛ فساعة يراهم القوم الجبارون يدخلون عليهم فجأة ، سوف يذهلهم الرعب.

وقد نُسجت الأساطير حول هذه القصة، قالوا: إن أحد هؤلاء العمالقة واسمه عوج بن عنق خرج إلى بستان خارج المدينة؛ ليقطف بعض الثمار للملك، فوجد اثنين من هؤلاء الناس فأخذهما وخبأهما فى كمه وألقاهما أمام الملك، وهو يقدم الفاكهة إليه، وقال الرجل العملاق للملك: هذان من الجماعة التى تريد أن تدخل مدينتنا .

هذه هى المبالغة التى صنعها خوفهم من هؤلاء العمالقة (٣) .

---

(١) أخرجه البخارى [٧٤٠٥] ، ومسلم [٢٦٧٥/٢] عن أبى هريرة رضى الله عنه .

(٢) ومن ذلك قوله تعالى ﴿ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ ﴾ [الأنفال: ١٢].

(٣) قال ابن كثير: عن ابن عباس قال: أمر موسى أن يدخل مدينة الجبارين، قال: فسار موسى بمن معه حتى نزل قريبًا من المدينة -وهى أريحاء- فبعث إليهم اثنى عشر عينًا، من كل سبط منهم عين؛ ليأتوه بخبر القوم، قال: فدخلوا المدينة فرأوا أمرًا عظيمًا من=

= هيئتهم وجسمهم وعظمهم، فدخلوا حائطًا لبعضهم فجاء صاحب الحائط ليجتنى الثمار من حائطه، فجعل يجتنى الثمار وينظر إلى آثارهم فتبعهم، فكلما أصاب واحدًا منهم أخذه فجعله فى كمه مع الفاكهة، حتى التقط الاثنى عشر كلهم، فجعلهم فى كمه مع الفاكهة، وذهب بهم إلى ملكهم فنثرهم بين يديه، فقال لهم الملك: قد رأيتم شأننا وأمرنا فاذهبوا فأخبروا صاحبكم، قال: فرجعوا إلى موسى فأخبروه بما عاينوا من أمرهم . وفى هذا الإسناد نظر، وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس: لما نزل موسى وقومه بعث منهم اثنى عشر رجلاً، وهم النقباء الذين ذكرهم الله، فبعثهم ليأتوه بخبرهم فساروا فلقيهم رجل من الجبارين فجعلهم فى كسائه، فحملهم حتى أتى بهم المدينة ونادى فى قومه فاجتمعوا إليه فقالوا :من أنتم، قالوا: نحن قوم موسى بعثنا نأتيه بخبركم فأعطوهم حبة من عنب تكفى الرجل، فقالوا لهم: اذهبوا إلى موسى وقومه فقولوا لهم هذا قدر فاكهتهم ، فرجعوا إلى موسى فأخبروه بما رأوا، فلما أمرهم موسى عليه السلام بالدخول عليهم وقتالهم، قالوا: يا موسى اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون . رواه ابن أبى حاتم، ثم قال: حدثنا أبى حدثنا ابن أبى مريم حدثنا يحيى بن أيوب عن يزيد بن الهادى حدثنى يحيى بن عبد الرحمن قال: رأيت أنس بن مالك أخذ عصا فذرع فيها بشىء لا أدرى كم ذرع، ثم قاس بها فى الأرض خمسين أو خمسًا وخمسين، ثم قال: « هكذا طول العماليق». وقد ذكر كثير من المفسرين ههنا أخبارًا من وضع بنى إسرائيل فى عظمة خلق هؤلاء الجبارين، وأن منهم عوج بن عنق بنت آدم عليه السلام ،وأنه كان طوله ثلاثة آلاف ذراع وثلاثمائة وثلاثة وثلاثون ذراعًا وثلث ذراع تحرير الحساب، وهذا شىء يستحى من ذكره ، ثم هو مخالف لما ثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: « إن الله خلق آدم وطوله ستون ذراعًا ، ثم لم يزل الخلق ينقص حتى الآن»(1) .ثم ذكروا أن هذا الرجل كان كافرًا، وأنه كان ولد زنية، وأنه امتنع من ركوب سفينة نوح، وأن الطوفان لم يصل=

---

(1) أخرجه البخارى [٣٣٢٦، ٦٢٢٧] عن أبى هريرة رضى الله عنه بلفظ : « خلق الله آدم وطوله ستون ذراعًا ، ثم قال : اذهب فسلم على أولئك من الملائكة فاستمع ما يحيُّونك، تحيَّتك وتحيَّة ذريتك ، فقال : السلام عليكم. فقالوا: السلام عليك ورحمة الله ، فزادوه: ورحمة الله ، فكل من يدخل الجنة على صورة آدم ، فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن » . وأخرجه مسلم [٢٨٤١].

بعض المفسرين قالوا فى شرح هذه الايه: إن الرجلين اللذين فالا ذلك ليسا من بنى إسرائيل؛ لأن هؤلاء المفسرين قد فهموا قوله تعالى: ﴿قَالَ رَجُلانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ إنهما رجلان من الذين يخاف منهم بنو إسرائيل، وقالا لبنى إسرائيل: لا تغتروا بالأجسام، فإن جنود الله ستنصركم، وقوله: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أى: لا تتوقفوا فى مواجهة العدو عند حساب العدد والعدة، ولكن احسبوا الأمر إيمانيًا؛ لأن معكم الله: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد:٧] وهو سبحانه القائل: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧٣] إن على المؤمن بالله أن يضع هذا الإيمان فى حساب قوته.

فإن كان هؤلاء الناس- من بنى إسرائيل- المأمورون بدخول تلك الأرض مؤمنين بحق لتوكلوا على الله.

فماذا كان موقف بنى إسرائيل: ﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّادَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾.

= إلى ركبته. وهذا كذب وافتراء، فإن الله تعالى ذكر أن نوحًا دعا على أهل الأرض من الكافرين فقال: ﴿رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦] وقال تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١١٩) ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ (١٢٠)﴾ وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ﴾ [هود: ٤٣] وإذا كان ابن نوح الكافر غرق، فكيف يبقى عوج بن عنق وهو كافر وولد زنية؟ هذا لايسوغ فى عقل ولا شرع، ثم فى وجود رجل يقال له: عوج بن عنق نظر. والله أعلم. [تفسير ابن كثير: ٢/ ٣٦، ٣٧]
وانظر القرطبى [٦/ ١٢٥، ١٢٦]. وقال الألوسى: هذه الأخبار عندى كأخبار عوج بن عوق، وهى حديث خرافة.

كأن خلاصة قولهم لموسى عليه السلام: لا ترهق نفسك معنا ووفر عليك جهدك، فنحن لن ندخل هذه الأرض ما دام هؤلاء العمالقة فيها، وإن كنت مُصِرًا على دخول هذه الأرض فاذهب أنت وربك فقاتلا، ونحن بانتظاركما هنا قاعدون.

هكذا بلغ بهم الخوف أن سخروا من موسى وربه، وهكذا وصل بهم الاستهزاء إلى تلك الدرجة المزرية ولم يكن ذلك بالأمر الجديد عليهم؛ فقد قالوا من قبل: ﴿أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: ١٥٣] ، ومن قبل ذلك أيضا عبدوا العجل.

فماذا كان ردُّ موسى عليه السلام؟ قال: ﴿رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلا نَفْسِي وَأَخِي﴾ [المائدة: ٢٥] .

لقد كان هارون أخًا لموسى عليه السلام ومُرْسَلا معه، فكأن موسى عليه السلام قد أعلن عدم ثقته فى هؤلاء القوم الذين أرسله الله إليهم ، لكن أكانت نفس أخيه مملوكة له، أم أنه قال ما معناه : إنى لا أملك إلا نفسى وكذلك أخى لا يملك إلا نفسه(١) ،أما بقية القوم فقد سمعت منهم يارب أنهم لن يدخلوا هذه الأرض ما دام بها هؤلاء العمالقة ؟

---

(١) قال القاسمى فى قوله تعالى :﴿قَالَ ﴾ أى: موسى عليه السلام لما رأى منهم ما رأى من العناد، على طريقة البث والحزن والشكوى إلى الله تعالى: ﴿رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ﴾ أى : احدًا الزمه قتالهم ﴿إِلا نَفْسِي وَأَخِي ﴾ هارون. قال المهايمى : أى: ومن يؤاخينى ويوافقنى كهارون ويوشع وكالب. ﴿فَافْرُقْ ﴾ أى:فاحكم بما يميز بين المحق والمبطل؛ لتفرق ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ أى : الخارجين عن أمرك ، وهو فى معنى الدعاء عليهم . وقد استجاب الله دعاءه، وفرق بأن أضلّهم ظاهرًا كما ضلوا باطنًا . [تفسير القاسمى : ٦/ ١٩٣٥]

إذن.. فأنا وأخى فى طرف، وبقية القوم فى طرف آخر؛ لذلك أفضل بيننا وبين هؤلاء القوم الفاسقين؛ وهو قول الله تعالى: ﴿فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾، ومعنى: ﴿الْفَاسِقِينَ﴾ كما قلنا من قبل: هم الذين خرجوا من الإيمان، كما تفسق الرطبة، فالبلحة عندما تصير رُطَبًا، فإن قشرتها تتسع عن حجمها، فتخرج الرطبة من قشرتها، فيقال: فسقت الرطبة، فكأن الإيمان كالجلد، والجلد كالقشرة إنه غلاف يحيط بالإنسان، وعندما يفسق الإنسان عن الإيمان فهو يفسق عن قانون الصيانة، وكذلك كان فسق بنى إسرائيل.

لذلك قال الحق: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٦] فهل كان التحريم مدته أربعون عاما، أم أنه قال: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾ وانتهى الأمر؛ لأنهم تأبَّوا أن يدخلوها؟ ولذلك فكل الذين قالوا إنا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها، لم يَعِشْ منهم أحد، ليدخل هذه الأرض، وبعد ذلك صدر الحكم الإلهى: ﴿أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾؛ فهل هذا القول هو استئناف للقول السابق فيكون ظرفا لـ ﴿مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾ أم هو حكم منفصل؟ يصح هذا، وهذا.

والتيه هو كما نقول: تاه فلان أى: سار على غير هدى، ولا يعرف لنفسه مدخلا ولا مخرجًا[1]. إن الواحد عندما يدخل فى طريق متشعِّب المسالك ومتعرِّج الطرقات، فهو لا يعرف كيفية الخروج منه وهذا هو التيه.

(١) تاه فى الأرض يتيه توهًا وتَيْهًا وتِيهًا وتَيَهانًا، والتِّيه أعمها، أى: ذهب متحيراً وضل، وهو تيَّاه. والتيهاء: الأرض التى لا يُهتدى فيها. والتيهاء: المضلة الواسعة التى لا أعلام فيها ولا جبال ولا إكام.
وفلاة تيهاء وأرض تيه وتيهاء ومَتْيَهة ومُتيِهَة ومَتِيهة: مَضِلَّة: أى يتيه فيها الإنسان.
والتِّيه: حيث تاه بنو إسرائيل، أى: حاروا فلم يهتدوا للخروج منه؛ فأما قوله: =

ولكن كم فرسخا كانت مساحة التيه ؟ إن العلماء حددوها بستة فراسخ والفرسخ قدره ثلاثة أميال.

كيف يتيهون في تلك المساحة الضيقة من الأرض ؟ لقد قدر الله عليهم ذلك؛ لأنهم ساعة كانوا يمشون ويرهقهم السير ينامون، فيأتي عليهم الصباح ليجدوا أنفسهم عند النقطة التي بدأوا منها. وكانوا يضعون العلامات لإيضاح الطريق، لكنهم كل صباح كانوا يجدون العلامات قد انتقلت من مكانها، وظلوا على هذا الوضع وفي هذا التيه .

الحق سبحانه وتعالى حين يُؤَدِّبُ عاصيًا يحفظ له ما يعطيه -حتى للكافرين- من قوت ورزق؛ ولأنه سبحانه هو الذى خلقهم فلن يضن به عليهم فى التيه، بما لم يضن به سبحانه على الكافرين. إذن حفظ الحياة أمر ضرورى.

إننا فى حياتنا اليومية عندما يرتكب إنسانٌ ما ذنبًا كبيراً فى حق المجتمع فإننا نضعه فى السجن، ولكننا نطعمه ونسقيه، وعندما يرتقى المجتمع الإنسانى فهو يوفر للسجين عملا يتناسب مع مواهبه . إن السجين المذنب يظل فى السجن، ولكنه يأكل ويشرب وينام ويعمل، فقط تختلف المسألة فى النقطة الهامة فى الحياة، وهى أن يتحرك وفق حريته، فما بالنا بالحق سبحانه عندما سجنهم فى التيه؟ لقد أطعمهم الله وسقاهم؛ لقد أنزل عليهم المنَّ والسلوى، وقد يقول قائل: إن الله قد أنزل عليهم المن والسلوى؛ ليعيشوا كسالى وغرقى فى التكبر والغرور . ونقول لمثل هذا القائل : لا، إن ذلك الإجراء الإلهى من ضمن حكمته البالغة أن يطيل عليهم الوقت،

= تقذفه فى مثل غيطان التِّيه فى كل تيه جدول تؤتيه
فإنما عنى التيه من الأرض ، أو جمع تيهاء من الأرض ، وليس بتيه بنى إسرائيل؛ لأنه قد قال: فى كل تيه ، فذلك يدلك على أنه أتياه لا تيه واحد ، وتيه بنى إسرائيل ليس أتياهًا ؛ إنما هو تيه واحد . [لسان العرب : ١٣/ ٤٨٢، ٤٨٥]

فلو أنه سبحانه وتعالى قد جعلهم يزرعون ويحرثون لانشغلوا بأمور الحياة اليومية، لكن الحق أراد أن يطيل عليهم الإحساس بالزمن، فالمسألة ليست طعاما وشرابا .فالحق أراد لهم عقابا صارما فى فترة التيه ؛ ولذلك تجد البعض يحسب الزمن فى فترة التيه فيقول ما ذكره الحق: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي﴾ [الأعراف: ١٤٢] وبعد أن ذهب موسى لميقات ربه عبدوا العجل الذى صنعه لهم موسى السامرى، وعاد إليهم موسى وعاتب أخاه هارون عتابًا قاسيًا، وكأن الله عاقبهم أربعين سنة، وكأن كل يوم من عبادة العجل صار سنة من العقاب فى التيه؛ ولأنه رب رحيم لم يتركهم دون أن يحفظ لهم حياتهم بالقوت، فكان القوت هو المنّ والسلوى. هل كان موسى عليه السلام معهم فى التيه أم لا..؟ وهل مات فى التيه معهم أم لا..؟ تلك أمور العلم بها لا ينفع والجهل بها لا يضر (١).

---

(١) قال القرطبى فى قوله تعالى : ﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ﴾ استجاب الله دعاءه وعاقبهم فى التيه أربعين سنة .

فكانوا يسيرون فى فراسخ قليلة -قيل: فى قدر ستة فراسخ -يومهم وليلتهم فيصبحون حيث أمسوا ، ويُمسون حيث أصبحوا ؛فكانوا سيَّارة لا قرار لهم . واختلف هل كان معهم موسى وهارون ؟ فقيل : لا ؛ لأن التيه عقوبة ، وكانت سنو التيه بعدد أيام العجل ،فقوبلوا على كل يوم سنة ؛وقد قال:﴿ فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ . وقيل : كانا معهم لكن سهَّل الله الأمر عليهما، كما جعل النار بردا وسلاما على إبراهيم. ومعنى : ﴿مُحَرَّمَةٌ ﴾ أى: أنهم ممنوعون من دخولها؛ كما يقال :حرم الله وجهك على النار ، وحرمت عليك دخول الدار ؛ فهو تحريم منع لا تحريم شرع ، عن أكثر أهل التفسير .

وقال أبو على: يجوز أن يكون تحريم تعبد. ويقال : كيف يجوز على جماعة كثيرة من العقلاء أن يسيروا فى فراسخ يسيرة ، فلا يهتدوا للخروج منها ؟ =

= فالجواب : قال أبو علي : قد يكون ذلك بأن يحول الله الأرض التى هم عليها إذا ناموا، فيردهم إلى المكان الذى ابتدءوا منه . وقد يكون بغير ذلك من الاشتباه والأسباب المانعة من الخروج عنها على طريق المعجزة الخارجة عن العادة .

وممن قال: إن موسى عليه الصلاة والسلام مات بالتيه عمرو بن ميمون الأودى ، وزاد: وهارون؛ وكانا خرجا فى التيه إلى بعض الكهوف فمات هارون فدفنه موسى، وانصرف إلى بنى إسرائيل ؛ فقالوا : ما فعل هارون ؟ فقال :مات ؛ قالوا : كذبت ولكنك قتلته لحبنا له ، وكان مُحَبًا فى بنى إسرائيل ؛فأوحى الله تعالى إليه أن انطلق بهم إلى قبره؛ فإنى باعثه حتى يخبرهم أنه مات موتا ولم تقتله. فانطلق بهم إلى قبره فنادى: يا هارون، فخرج من قبره ينفض رأسه فقال : أنا قاتلك ؟ قال : لا ؛ ولكنى مت ؛ قال : فعد إلى مضجعك ؛ وانصرف . وقال الحسن : إن موسى لم يمت بالتيه . وقال غيره : إن موسى فتح أريحاء ، وكان يوشع على مقدّمته فقاتل الجبابرة الذين كانوا بها ، ثم دخلها موسى ببنى إسرائيل فأقام فيها ما شاء الله أن يقيم ، ثم قبضه الله تعالى إليه لا يعلم بقبره أحد من الخلائق . قال الثعلبى : وهو أصح الأقاويل .

قلت : قد روى مسلم (1) عن أبى هريرة قال : أرسل ملك الموت إلى موسى عليه الصلاة والسلام فلما جاءه صكه ففقأ عينه فرجع إلى ربه فقال : « أرسلتنى إلى عبد لا يريد الموت » قال : فردّ الله إليه عينه، وقال: « ارجع إليه فقل له يضع يده على متن ثور فله بما غطت يده بكل شعرة سنة ». قال : « أى رب ثم مَهْ » ، قال: « ثم الموت ». قال: «فالآن » فسأل الله أن يدنيه من الأرض المقدسة رمية بحجر ؛ فقال رسول الله ﷺ: «فلو كنت ثَمّ لأريتكم قبره إلى جانب الطريق تحت الكثيب الأحمر» فهذا نبينا ﷺ قد علم قبره ووصف موضعه ، ورآه فيه قائما يصلى كما فى حديث الإسراء (2) ،إلا أنه يحتمل أن يكون أخفاه الله عن الخلق سواه ولم يجعله مشهورًا=

---

(1) أخرجه مسلم [١٥٧/٢٣٧٢].

(2) أخرجه مسلم [٢٦٨/١٦٦] عن ابن عباس رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ مرَّ بوادى الأزرق فقال : « أى وادٍ هذا ؟ » فقالوا : هذا وادى الأزرق . قال : « كأنى أنظر إلى موسى عليه السلام هابطًا من الثَّنِيَّة وله جُؤارٌ إلى الله بالتلبية » . والمقصود بقوله: «جُؤارٌ » هو رفع الصوت بالتلبية.

= عندهم ، ولعل ذلك لئلا يُعبد ، والله أعلم . ويعنى بالطريق طريق بيت المقدس .

ووقع فى بعض الروايات : إلى جانب الطور مكان الطريق .

واختلف العلماء فى تأويل لطم موسى عين ملك الموت وفقئها على أقوال منها : أنها كانت عينا متخيلة لا حقيقة ، وهذا باطل ؛ لأنه يؤدى إلى أن ما يراه الأنبياء من صور الملائكة لا حقيقة له .

ومنها :أنها كانت عينا معنوية وإنما فقأها بالحجة ، وهذا مجاز لا حقيقة. ومنها :أنه عليه السلام لم يعرف ملك الموت، وأنه رأى رجلا دخل منزله بغير إذنه يريد نفسه فدافع عن نفسه؛ فلطم عينه ففقأها؛وتجب المدافعة فى هذا بكل ممكن.وهذا وجه حسن؛لأنه حقيقة فى العين والصك ؛ قاله الإمام أبو بكر بن خزيمة ، غير أنه اعترض عليه بما فى الحديث ؛ وهو أن ملك الموت لما رجع إلى الله تعالى قال : «يارب أرسلتنى إلى عبد لا يريد الموت » (١) . فلو لم يعرفه موسى لما صدق القول من ملك الموت ؛ وأيضًا قوله فى الرواية الأخرى : « أجب ربك » يدل على تعريفه بنفسه . والله أعلم .

ومنها : أن موسى عليه الصلاة والسلام كان سريع الغضب ، إذا غضب طلع الدخان من قلنسوته (٢) ورفع شعر بدنه جبته، وسرعة غضبه كانت سببا لصكه ملك الموت.

قال ابن العربى : وهذا كما ترى ، فإن الأنبياء معصومون أن يقع منهم ابتداء مثل هذا فى الرضا والغضب .

ومنها وهو الصحيح من هذه الأقوال : أن موسى عليه الصلاة والسلام عرف ملك الموت ، وأنه جاء ليقبض روحه لكنه جاء مجىء الجازم بأنه قد أمر بقبض روحه من غير تخيير ، وعند موسى ما قد نص عليه نبينا محمد ﷺ من « أن الله لا يقبض روح نبى حتى يُخيِّره »(٣) ؛فلما جاءه على غير الوجه الذى أعلم، بادر بشهامته

(١) سبق تخريجه .

(٢) القلنسوة : ما يُلْبسُ على الرأس .

(٣) أخرجه البخارى [٤٤٣٧] عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ وهو صحيح يقول : « إنه لم يُقبض نبى قط حتى يرى مقعده من الجنة ، ثم يُحيَّا أو يُخيَّر » فلما اشتكى وحضره القبض ورأسه على فخذ عائشة غُشى عليه ، فلما أفاق شخص بصره نحو سقف البيت ثم قال : « اللهم فى الرفيق الأعلى » فقلتُ : إذًا لا يجاورنا ؛ فعرفت أنه حديثه الذى كان يُحدِّثنا وهو صحيح . وأخرجه مسلم [٢٤٤٣/٨٦].

تم بعون الله تعالى المجلد الرابع

ويليه إن شاء الله المجلد الخامس

= قوة نفسه إلى أدبه، فلطمه ففقأ عينه امتحانًا لملك الموت ؛ إذ لم يصرح له بالتخيير. ومما يدل على صحة هذا ، أنه لما رجع إليه ملك الموت فخيره بين الحياة والموت اختار الموت واستسلم . والله بغيبه أحكم وأعلم .

هذا أصح ما قيل فى وفاة موسى عليه السلام . وقد ذكر المفسرون فى ذلك قصصا وأخبارًا الله أعلم بصحتها ؛وفى الصحيح غنية عنها. وكان عمر موسى مائة وعشرين سنة . [تفسير القرطبى : ٦/١٢٩-١٣٣] بتصرف.

فهرس موضوعات المجلد الرابع

الموضـــــوع

تكملة قصة نبى الله موسى عليه السلام

الموضوع	الصفحة

الموضـــــــوع	الصفحة

الموضــــــوع	الصفحة

